

Palqashand - Ahmad ibn 'Alī  
" "



/Kitāb ṣubḥ al-a'shā'/

فهرس

الجزء الرابع عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

AE  
2  
Q3  
1913  
v. 14  
c. 1

DEC 21 1989

صفحة

- الباب الرابع - من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك  
الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ... ٢
- الفصل الأول - في أصول تتعين على الكاتب معرفتها ،  
وفيه ثلاثة أطراف ... ٢
- الطرف الأول - في بيان رتبها ومعناها وذكر ما يرادفها  
من الألفاظ ... ٢
- » الثاني - في أصل وضعها ... ٤
- » الثالث - فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن ،  
وفيه نوعان ... ٧
- النوع لأول - ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام  
وأهل الكفر ... ٧
- » الثاني - ما اشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر  
والإسلام وعقود الصلح الجارية بين زعماء  
المسلمين ، وهي ضربان ... ٩
- الضرب الأول - الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق  
عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم ... ٩
- الضرب الثاني - مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة - تحرير  
أوضاعها ، وترتيب قوائنها ، وإحكام معاقدها ١١
- الفصل الثاني - في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات ،  
ومذاهب الكتاب في ذلك ، وفيه طرفان ... ١٦
- الطرف الأول - فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم ،  
وتخلد منه نسخ بالأبواب السلطانية ، وتدفع  
منه نسخ إلى ملوك الكفر ، وذلك على نمطين ... ١٦

صفحة

- التمط الأول - ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج... ١٦
- » الثاني - ما يكتب في متن الهدنة، وهو على نوعين ... ١٧
- النوع الأول - ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد،  
وفيه مذهبان ... ١٧
- المذهب الأول - أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذا ما هادن عليه» الخ ١٧
- » الثاني - أن تفتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» بعبدية ... ٢٦
- النوع الثاني - من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر -  
أن تكون الهدنة من الجانبين جميعا، وفيها للكتاب  
ثلاثة مذاهب... ٢٩
- المذهب الأول - أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة»  
ونحو ذلك ... ٢٩
- الثاني - أن تفتح الهدنة بلفظ: «أستقرت الهدنة بين  
فلان وفلان» الخ ... ٣١
- » الثالث - أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ«الحمد لله» ٧١
- الطرف الثاني - فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام  
في كتابة نسخ من دواوينهم... ٧٢
- الباب الخامس - من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين  
ملكين مسلمين، وفيه فصلان... ٧٩
- الفصل الأول - في أصول تعتمد في ذلك ... ٧٩
- » الثاني - فيما جرت العادة بكتابته بين الخلفاء وملوك  
المسلمين على تعاقب الدول، مما يكتب في الطرة  
والمتن، وفيه نودان ... ٨٤

صفحة

- النوع الأول - ما يكون العقد فيه من الجانبين ... .. ٨٤  
 » الثاني - ما يكون العقد فيه من جانب واحد ،  
 وفيه مذهبان ... .. ٩٧  
 المذهب الأول - أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » ... .. ٩٧  
 » الثاني - أن يفتح عقد الصلح بخطبة مفتوحة بـ « الحمد لله »  
 وربما كرر فيها التحميد ... .. ١٠٠  
 الباب السادس - من المقالة التاسعة في الفسوخ الواردة على العقود  
 السابقة ، وفيه فصلان ... .. ١٠٨  
 الفصل الأول - الفسخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون  
 الآخر ... .. ١٠٨  
 » الثاني - المفاسخة ، وهي ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩

### المقالة العاشرة

- في فنون من الكتابة يتداولها الكُتَّاب وتنافس في عملها ليس لها تعلق  
 بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وفيها بابان ... .. ١١٠  
 الباب الأول - في الحديّات ، وفيه خمسة فصول (الصواب : ستة  
 فصول) ... .. ١١٠  
 الفصل الأول - في المقامات ... .. ١١٠  
 » الثاني - في الرسائل ، وهي على أصناف ... .. ١٣٨  
 الصنف الأول - الرسائل الملوكية ، وهي على ضربين ... .. ١٣٩  
 الضرب الأول - رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلّها ... .. ١٣٩  
 » الثاني - « الصيد » ... .. ١٦٥  
 الصنف الثاني - من الرسائل - ما يرد منها مورد المدح والتفريض ١٧٢

صفحة

- الصف الثالث - من الرسائل - المقامرات ... .. ٢٠٤
- » الرابع - « » الأسئلة والأجوبة ... .. ٢٤٠
- » الخامس - « » ما تكتب به الحوادث والمجريات ٢٥١
- الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،  
في قدمات البندق ... .. ٢٨٢
- » الرابع - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،  
في الصدقات ، وفيه طرفان ... .. ٣٠٠
- الطرف الأول - في الصدقات المملوكة وما في معناها ... .. ٣٠٠
- » الثاني - في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم ... .. ٣١١
- الفصل الخامس - من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب  
عن العلماء وأهل الأدب ، مما جرت العادة  
بمراعاة النثر المسجوع فيه ، ومحاوله الفصاحة  
والبلاغة ، وفيه طرفان ... .. ٣٢٢
- الطرف الأول - فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ،  
وهو على صنفين ... .. ٣٢٢
- الصف الأول - الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات  
الكتب ، ونحوها ... .. ٣٢٢
- » الثاني - التقریضات التي تكتب على المصنفات المصنفة  
والقصائد المنظومة ... .. ٣٣٥
- الطرف الثاني - فيما يكتب عن القضاء ، وهو على أربعة  
أصناف ... .. ٣٤٠
- الصف الأول - التقاليد النكية ... .. ٣٤٠
- » الثاني - إسجالات العدالة ... .. ٣٤٦

صفحة	
٣٥٠ ... ..	الصنف الثالث - الكتب إلى التواب وما في معناها
٣٥٣ ... ..	» الرابع - ما يكتب في افتتاحات الكتب
٣٥٥ ... ..	الفصل السادس - في العمرات التي تكتب للحاج
٣٦٠ ... ..	الباب الثاني - من المقالة العاشرة في الهزليات

### الخاتمة

٣٦٦ ... ..	في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب
٣٦٦ ... ..	الباب الأول - في الكلام على البريد، وفيه فصلان
	الفصل الأول - في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق
٣٦٦ ... ..	الغرض من ذلك بثلاثة أمور
٣٦٦ ... ..	الأمر الأول - معرفة معنى لفظ البريد لغة وأصطلاحاً
٣٦٧ ... ..	» الثاني - أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن
٣٧١ ... ..	» الثالث - بيان معالم البريد
	الفصل الثاني - من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز
٣٧٢ ... ..	البريد، ويشتمل على ستة مقاصد
	المقصد الأول - في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي
	هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز،
٣٧٣ ... ..	وما تنهى إليه مراكز كل جهة
٣٧٩ ... ..	» الثاني - في مراكز غزّة، وما يتفرع عنها من البلاد الشامية
٣٨١ ... ..	» الثالث - في ذكر مركز دمشق وما يتفرع عنه من المراكز
٣٨٣ ... ..	» الرابع - في مركز حلب، وما يتفرع عنه من المراكز
٣٨٥ ... ..	» الخامس - في مركز طرابلس، وما يتفرع عنه من المراكز
	» السادس - في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة
٣٨٥ ... ..	المشرفة والمدينة المنورة

صفحة

- الباب الثاني - من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر  
أبراجها المقررة بطرق الديار المصرية والبلاد  
الشامية، وفيه فصلان... .. ٣٨٩
- الفصل الأول - في مطاراته ... .. ٣٨٩
- » الثاني - في أبراج الحمام المقررة لا طارتها بالديار  
المصرية، والبلاد الشامية ... .. ٣٩٢
- الباب الثالث - من الخاتمة في ذكر هجن الثلج، والمراكب المعتدة  
لحمل الثلج الذي يحمل من الشام إلى الأبواب  
السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول ٣٩٥
- الفصل الأول - في نقل الثلج ... .. ٣٩٥
- » الثاني - في المراكب المعتدة لنقل الثلج من الشام... .. ٣٩٦
- » الثالث - في الهجن المعتدة لنقل ذلك... .. ٣٩٦
- الباب الرابع - من الخاتمة في المناور والمحرقات، وفيه فصلان ٣٩٨
- الفصل الأول - في المناور ... .. ٣٩٨
- » الثاني - في المحرقات ... .. ٤٠١

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى)



# كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

---

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول

رئيس التصحيح العربى بالقسم الأدبى

بالمطبعة الأميرية

---

## كلمة

### في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

### بسم الله الرحمن الرحيم

نَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَحَ مِنَ الْإِعَانَةِ وَوَهَبَ مِنَ التَّيْسِيرِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَى  
مِنَ التَّوْفِيقِ فَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ، وَنُصَلِّي وَنُصَلِّمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صُبْحِ الْهِدَايَةِ  
وَسَهَابِهَا السَّاطِعِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ النُّجُومِ الثَّوَابِتِ وَالْبُدُورِ الطَّوَالِعِ .

وَبَعْدُ، فَإِنَّ الْأُمَّمَ تَأْتَارُهَا، وَالشُّعُوبَ بَسِيرُهَا وَأَخْبَارُهَا؛ وَمِنَ أَعْظَمِ الْآثَارِ  
قِيَمَهُ، وَأَغْزَرِهَا دِيَمَهُ؛ مَا تُعْرِفُ بِوِاسِطَتِهِ نَتَائِجَ أَفْكَارِ الْقَادَةِ الْعُلَمَاءِ، وَتَبَيَّنَ بِهِ  
قِرَائِحُ الْجَهَّالَةِ الْحُكَمَاءِ .

وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَّمُ الرَّافِيَةُ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ وَإِلَى وَقْتِنَا الْحَاضِرِ تُعْنِي بِشَأْنِ عُلَمَائِهَا :  
عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ، وَتَبَايُنِ مَشَارِبِهِمْ؛ وَتَحَلُّهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْإِجْلَالِ أَعْلَى  
الدَّرَجَاتِ، وَتَرْجِعُ فِي أَمْرِ مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَى آرَائِهِمُ السَّيِّدِيَّةِ، وَأَفْكَارِهِمُ الرَّشِيدِيَّةِ؛  
وَتَعْمَلُ بِكُلِّ جُهْدِهَا فِي إِنْشَاءِ دُورِ الْكُتُبِ وَتَشْيِيدِهَا، وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَنْسِيقِهَا وَتَرْتِيبِهَا:  
لِتَحْفَظَ فِيهَا دِفَاتِرَهُمْ وَطَوَامِيرَهُمُ الَّتِي أُوْدِعُوا نَمْرَةَ أَفْكَارِهِمْ، وَنَتِيجَةَ بَحْوثِهِمْ .

وَلَقَدْ أَخَذَتْ مِصْرُنَا الْعَزِيزَةَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ تُسَابِقُ «الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ» فِي هَذَا  
الْمَيْدَانِ الْعَظِيمِ، مَيْدَانِ التَّقَدُّمِ وَالْأَرْتِقَاءِ .

وسارت من بعدهما تاهض « بغداد » دار السلام، ومركز الملاحة العباسية  
وكعبة العالم، وقبلة الآداب - مع ما كان يبذله الخلفاء لعلمائها من أنواع التحف،  
ويقرغونه عليهم من بدر الأموال : حبا في نشر العلم وبلوغه إلى درجة الكمال .  
ولم تكن في ذلك أقل حظا من الأندلس : جنة العالم وزينة الدنيا، حتى في أعظم  
عصوها الذهبي المملوءة بالمعالي والمفاتيح، يوم كانت تنشر على العالم الوية الحضارة،  
وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان .



وفتحت مضر ذراعيها : مريحة بكل وافد عليها من أهل العلم والأدب ،  
خصوصا بعد أن طوحت يد الردى بمذنب العراق وحواضر الأندلس ، ودارت عليها  
الدوائر ، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجيد والحضارة . فوفد  
علمائها على هذا البلد الأمين ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة وأمنيتهم الكبرى .  
فاصبحت ميدانا واسعا يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف ، وموردا صديبا يزدهم  
عليه عشاق الآداب ومحبو الحكمة ، وجنة زاوية بأكابر العلماء ونوابغ الحكماء .  
وأصبح ملوكها وأمرؤها ينظرون إلى العلم والعلماء بعين ملؤها الإعظام  
والإجلال ، وأخذوا يساعدهم ، ويألمون في إكرامهم وإدراج النعم عليهم ،  
ويشجعونهم على الإكثار من التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة . وصاروا  
لا يؤسسون مسجدا للصلاة ، ولا يبنون مدرسة أو معهدا من معاهد العلم إلا  
ويشيّدون في داخله خزانة كُتُب جامعة ، يودعونها الكثير من نفائس الأسفار  
والمصنّفات في كل فن ومطلب : ميلا منهم إلى نشر المعارف ، ورغبة في تخليد  
الذكر وجميل الأثر .

وقد كان لخلقائها الفاطميين خزانة كُتُب كُبرى ، كانت من أجل الخزانين  
وأعظمها شأنًا عندهم ، وأكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع العلوم والفنون .  
يقال : إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة  
في قصر الخلفاء الفاطميين .



ولم تزل الأمة المصرية الكريمة سائرة على هذا المنهج القويم : ترد مناهل العلم  
العذبة ، وتتغذى بالبانة الطيبة - حتى أصابها ما أصاب غيرها من الأيم الإسلامية ،  
ففتزقت شيعًا وأحزابًا ، وأنصرفت عن الشؤون العاقبة ، وصار كل واحد لا هيا  
بذاته لا يشعر إلا بنفسه التي بين جنبيه .

فقل الاحتفال بالعلم وأهله ، وأهملت العناية بدور الكتب وخزائن الأسفار  
على كثرتها ، وأمتدت إليها يد الخيانة تعبت بنفائسها أني شاءت بدون محاسب  
أورقيب . وأستولى المغيرون على الديار المصرية على أغمس ما كان مودعًا فيها من  
الكتب والآثار ، ونقلوا منه إلى بلادهم وممالكهم ماشاء الله أن يقلوا .

وهاهي اليوم تُنادي أهل مصر من وراء البحار ، وتُناجيهم بما كان لسفهم  
الناهض من آثار العمل ودلائل التبوغ .

وما بقي في تلك الدور والخزائن ، مما زهدت فيه نفس الطامعين - صار رحمةً عليها ،  
لاتقع عليه الأبصار ، ولا يمر بفكر : كأنه كثر مدفون لم يهد إليه بعد ، أو حين حكم  
عليه بالسجن الأبدى لا يجد لنفسه خلاصًا .



تلك كانت حالة مِصر حيناً من الدهر كادت تذهبُ بكلِّ ما بنى أهلها في الزمان  
السابق من مجدٍ وأسسوا من قُوَّة - لولا أنَّ الله تعالى أرادَ بها خيراً ،  
بِجَلَسِ على أَرِيكتِها ذلك المصلح الكبير، والعصامي الشهير، مؤسس «مِصر الحديثة»  
ساكنُ الحنان " محمد علي باشا " رأسُ العائِلة العلوِيَّة الكريمة .

فإنه - نَوَّرَ اللهُ ضَرِيحَه - أعاد لهذه الأمة سالف مجدها، ونَبَّه الأفكار بعد  
طول رقادها ، ونَشَرَ العلومَ والمعارفَ بين أبنائها، وأرسلَ العِثاتِ العِلمِيَّةَ إلى  
أشهر الجَامِعَاتِ بأورُوبًا : لِيَتَعَلَّمُوا أساليبَ التَّعليمِ الحَدِيثَةَ، ويهودوا إلى مِصر  
بُنُويُنٍ من التَّربيةِ والتَّهذيبِ تدعو إليها سُنَّةُ التَّقَدُّمِ والارتقاء .

وقرَّبَ إليه العُلَمَاءَ والأدباءَ ، وجمَّعهم على التَّأليفِ والتَّصنيفِ . ووصل  
اللَّيْلَ بالنَّهارِ في سَبِيلِ إنهاضها وإسعادها، وأسس المَدَارِسَ ، وشاد دور الصناعات  
والمعامل في حواضر هذا القطر السعيد .

وأنشأ " المطبعة الأميرية الكبرى " ، وجَهَّزها بكلِّ ما يلزم لها من  
الآلاتِ والعُدَدِ ، حتَّى صارت من أرقى دُورِ الطَّباعةِ في الشَّرْقِ ، وأختار  
لها نوابغَ العُلَمَاءِ وأساطينِ الكُتَّابِ : ليقوموا بتَضحيحِ ما يُطبع فيها . وإليها يرجع  
الفضلُ الأكبرُ في تَقويةِ النَّهضةِ العِلمِيَّةِ في مِصر وغيرِها من البلاد ، ونَشْرِ العلومِ  
والآدابِ العربيَّةِ في جميعِ أنحاءِ العالمِ .



وجاء من بعده حفيده أبو الأشبال، المغمور له "إسماعيل باشا" خديو مصر، فأنشأ "دار الكتب" بالقاهرة، وجمع فيها ما بقي من الكتب في خزائنها المتفرقة في الدور والمساجد . وأخذ الأمراء وغيرهم من كبار الأمة يتبرعون لها بما في دور كتبهم وخزائنها من نفائس المصنفات .

وأهمها بعدده ولده طيب الذكر "محمد توفيق باشا" خديو مصر فوقف عليها ألفاً وثمانمائة فدان من أجود أراضي القطر الزراعية ، وجعلها إدارة مستقلة بعد أن كانت عالة على إدارة المكاتب ، يُنفق عليها من الأوقاف المحبسة عليها .

وأمتلأت خزائنها بنفائس الأسفار وجلال المؤلفات ، من مصر وغيرها من سائر الممالك ، بما كان يُنفق عن سعة وكرم نفيس في سبيل الحصول عليها .

وبها معرض كبير حوى كثيراً من المصاحف الشريفة والآثار النفيسة ، والمؤلفات القديمة ، والمخطوطات العربية والنقود القديمة في كل دولة من الدول الإسلامية .

وهي على أهل هذا القطر السعيد حسنة من أعظم الحسنات ، وأثر خالد من الآثار الباقيات ، ولها على العلم وأهله الأيادي التي لا تُشكر ، والمفانير التي تُذكر فتشكر ، فقد أعدت للتردين إليها قاعة كبرى للمطالعة ، وجهازها بكل ما يلزم لراحتهم وتسهيل أعمالهم - فاقبل عليها الطلاب والعلماء ، والكتّاب والشعراء ، والمستجمون والحكماء وغيرهم : يردون نبيها ، ويؤلون وجوههم شطرها : على اختلاف لغاتهم ، وتباين أجناسهم وطبقاتهم .

ولما أشرف عليها حضرة صاحب السعادة " أحمد حشمت باشا " وزير المعارف الأسبق وجه - حفظه الله - عيَّته إلى تنظيمها تنظيمًا يكفل لها التقدم في طريق الإصلاح اللائق بمكاتها : لتأتي بالثمرة المطلوبة منها ، وتقوم بالخدمة الواجبة عليها : وذلك بنشر العلوم والمعارف بين طبقات الأمة ، وطبع الآداب العربيَّة وإذاعتها بين أبنائها .

فاختار طائفة مما فيها من نفائس الأسفار ونوادر المؤلفات ، وخصوصًا المؤلفات المصيريَّة ، وأمر بأن تُطبع في « القسم الأدبي » بالمطبعة الأميرية ، فتشرق أنوارها على طلاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قرب ومن بعد ؛ ضئلاً بها أن تبقى مقصورة على قاعات المطالعة وغرفها ، لا ينتفع بها غير فريق من المقيمين في مدينة القاهرة .

فكان أجل كتاب ظهر من هذه الكتب في سماء الآداب العربيَّة ، كتاب :

« صبح الأعشى في كتابة الإنشا »

( للقلقشندی )

## التعريف بهذا الكتاب

مهما أطال الكاتب في وصف هذا الكتاب ، وجوّد فكره ، وأجهد قلمه في التعريف به وقيمته العلمية والأدبية - فانه لا يبلغ تعداد ما أودع فيه من الفوائد ، وأنطوى تحته من الدقائق .

فهو كتاب جليل القدر ، عظيم النفع ، كبير الفائدة ، لم يُنسخ على منواله في عالم التأليف في فنون الأدب والكتابة . ولا نعدُّ مبالغين إذا قلنا : إنه أنفُسُ كتاب ألف في اللغة العربية وتاريخ آدابها .

كتاب بين لنا فيه الفلقشندي مؤلفه - رحمه الله - حالة اللغة العربية الشريفة ، وكيف كانت في العصور الأولى قبل الإسلام ، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الانتشار بعد أن صارت لغة القرآن الكريم ، لغة الشريعة الإسلامية السمحة والدين الحنيف ، تبعاً لانتشارهما في أكثر أنحاء الكرة الأرضية : في بلاد فارس وما وراء النهر ، في بلاد الروم ، في البلاد المصرية ( وقاها الله ) في بلاد أفريقية والمغرب الأقصى ، في بلاد الأندلس ، في بلاد الهند ، في بلاد الصين ، في بلاد كثيرة من أوروبا .

كتاب بين لنا فيه مؤلفه كيف زهت هذه اللغة الشريفة في عصور الخلفاء : من بني أمية وبني العباس ، وغزرت مادتها ، واتسع نطاقها ، ودنا قطاعها : فصارت لغة العلم والحكمة ، لغة الأدب والشعر ، لغة القضاء والأحكام ، لغة الجدل والمناظرة . كما صارت لغة التأليف والتصنيف : في أحكام الدين ، وتهذيب النفوس ، وتنقيف العقول ، ونظام الملك والممالك ، وسياسة الأمم والشعوب . وعلوم الفلسفة ، والرياضة ، والنجوم ، والطب ، والكيمياء ، وما أشبهها .



كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْكِتَابَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْبِلَادِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ  
مِنْ دَرَجَاتِ الرَّفْعَةِ وَالْأَرْتِقَاءِ ، ثُمَّ مَا آلَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ، تَبَعًا  
لِضَعْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : بِاسْتِيْلَاءِ الْمُغِيرِينَ عَلَى بِلَادِ الْخُلَفَاءِ وَمَمَالِكِهِمْ ، مِمَّنْ لَيْسُوا  
مِنْ أَهْلِهَا فِي اللُّغَةِ ، أَوْ فِي اللُّغَةِ وَالدِّينِ . كَمَا بَيَّنَّ لَنَا طَبَقَاتِ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ ،  
وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَ الْمُلُوكِ مِنَ الرَّعَايَةِ وَعَظِيمِ الْأَحْتِرَامِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَشُرُوطُهَا وَرُسُومُهَا ، وَمَنْ وَلِيَهَا :  
مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَرَاكِرِ وَلَايَاتِهِمْ ، وَخُلَفَاءِ نَبِيِّ أُمِّيَّةِ الشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَخُلَفَاءِ  
بَنِي الْعَبَّاسِ بِنِعْدَادِ مِصْرَ ، وَخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمِصْرِيَّةِ ، وَمُدْعَى الْخِلَافَةِ  
مِنْ بَقَايَا الْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيْقِيَّةِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ مِنْ  
دَرَجَاتِ الْمَجْدِ وَالْحَضَارَةِ ، وَحُدُودِهَا ، وَأَنْظِمَتِهَا ، وَرُسُومِهَا ، وَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ  
مِنْ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ ، وَالْحَوَاصِّ وَالْعَجَائِبِ ، وَمَا بَهَا مِنَ الْأَنْوَارِ الْقَدِيمَةِ ، وَمَنْ وَلِيَهَا  
مِنَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ - وَهُوَ هُوَ ذَلِكَ الْمِصْرِي الصَّيْمِي ، الَّذِي أَقْلَتْهُ أَرْضُ  
مِصْرَ ، وَأَظْلَمَتْهُ سَمَاءُهَا ، وَشَرِبَ حَتَّى رَوَى مِنْ نِيْلِهَا - الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَفَضَائِلِهَا  
وَمَحَاسِنِهَا ، وَخَوَاصِّهَا وَعَجَائِبِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَنْوَارِ الْقَدِيمَةِ . وَبَيْنَ نَهْرِ النَّيْلِ وَمَنْبَعِهِ  
وَمَصَّبِهِ ، وَزِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ ، وَمَقَائِسِهِ ، وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ ، وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ  
فِي النَّقْصَانِ ، وَخُلُجَانِهِ الْمُنْفَرَعَةِ عَنْهُ ، وَجُسُورِهِ الْخَالِيسَةِ لِمَاثِهِ . وَبَيْنَ بُحَيْرَاتِهَا ،  
وَجِبَالِهَا ، وَزُرُوعِهَا ، وَرِيَاحِيْنِهَا ، وَأَوَاكِيْهِهَا ، وَمَوَاشِيْهَا ، وَوَحُوشِهَا ، وَطُيُورِهَا .  
وَبَيْنَ حُدُودِهَا ، وَأَبْتِدَاءِ عِمَارَتِهَا ، وَسَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِمِصْرَ ، وَتَفَرُّعِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي حَوَّلَهَا

عنها . وبين أعمالها وقواعدها القديمة ، ومبانيها العظيمة الباقية على مرور الأزمان .  
وبين قواعدها الحديثة وما اشتملت عليه من محاسن الأبنية . وبين من وليها من  
الملوك والسلاطين قبل الإسلام وبعده . وبين ترتيب أحوالها ، ومعاملاتها ،  
ونقودها ، وترتيب مملكتها ، ووظائف دولها القديمة والحديثة .

كتاب دون فيه مؤلفه عدة كتب أدبية نفيسة بتمامها ، وجمع فيه كثيرا مما تفرق  
في غيره من المؤلفات .

ورتبته على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة ، بناها بالإجمال على التعريف بحقيقة  
ديوان الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام ، وتفرقه بعد ذلك في الممالك ، وبيان كتابة  
الإنشاء وتفضيلها على سائر أنواع الكتابة ، وصفات الكتاب وآدابهم ، ومدح  
فضلاهم وذم حقايمهم .

ومعرفة كل ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء في الأمور العلمية والعملية : كمعرفة المواد  
اللازمة للنشئ : من الخط وتوابعه ولواحقه وغير ذلك .

ومعرفة المسالك والممالك (علم تقويم البلدان) : كمعرفة شكل الأرض وإحاطة  
البحر بها ، وبيان جهاتها الأربع وما اشتملت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية ،  
وبيان موقع الأقاليم العرفية منها ، وذكر حدودها الجامعة لها ، وما فيها من الجبال  
والبحار والأنهار ، والأقاليم والممالك والبلدان ، ومثلوكها في القديم والحديث  
وما يتبع ذلك .

ومعرفة الأمور التي تشترك فيها أنواع المكاتب والولايات وغيرهما : من ذكر  
الاسماء والكنى ومواضع ذكرهما في المكاتب ، وذكر الألقاب وأصل وضعها ،  
وما كان يُلقب به أهل كل دولة إلى زمنه ، وكيفية توزيع الأعمال على كتاب

الإنشاء ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقسام ، وغير ذلك من قوانين الكتابة وأنظمتها .

ومعرفة المكتبات العامة وأصولها ومقاصدها ، في القديم والحديث ، ومصطلح المكتبات الدائرة بين كتاب الإسلام ، وكتب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهل الإسلام وغيرهم ، والكتب الصادرة عن الصحابة والخلفاء والملوك ومن في معناهم ، وبيان مذاهب الكتاب فيما تفتتح به المكتبات ، وما يخاطب به أهل الإسلام وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرفة الولايات وطبقاتها ، وما يتبعها من البيعات والمعهود ، ومعناها ، والولايات الصادرة لأرباب المناصب : من أصحاب السيوف والأقسام وغيرهم .

ومعرفة الوصايا الدينية وما يكتب فيها في القديم والحديث ، والمساحات والإطلاقات وما يكتب فيهما ، والطرخانيات وتحويل السنين ، والتوفيق بين السنين القمرية والشمسية ، وما يكتب في التداكر التي يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعات وأصل وضعها في الشرع ، وما يكتب فيها في القديم والحديث ، وأول من وضع ديوان الجيش في الإسلام .

ومعرفة الأيمان وما يقع به القسم ، والأيمان التي أقسم الله تعالى بها ، وما كان يخلف بها العرب في الجاهلية ، وما يقسم به أهل كل ملة ونحلة .

ومعرفة عقود الأمانات والصلح ، والهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وغيرهم .

وذكر فيه فنونا كثيرة يتداولها الكتاب والأدباء ويتنافسون في عملها ، لا تعلق لها بديوان الإنشاء : كعمل المقامات ، والرسائل الملوكية المشتملة على الغزو

والصَّيْدُ ، وَرَسَائِلِ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ ، وَرَسَائِلِ الْمُفَاتِحَاتِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ، وَالرَّسَائِلِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى الْأَسْئَلَةِ وَالْأَجُوبَةِ ، وَالرَّسَائِلِ الْمُكْتَنَبَةِ بِالْحَوَادِثِ وَالْمَاجِرِيَّاتِ وَغَيْرَهَا ، وَكَقَدِمَاتِ الْبُنْدُقِ ، وَالصَّدُوقَاتِ الْمُلُوكِيَّةِ وَغَيْرَهَا ، وَالْعُمَرَاتِ الَّتِي تُكْتَبُ لِلْحَاجِّ ، وَذِكْرُ نُسْخٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . وَمَا يُكْتَبُ عَنِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ : مِنْ الْإِجَازَةِ بِالْفَتْوَى وَالتَّدْرِيسِ وَالْمَرْوِيَّاتِ ، وَمَا يُكْتَبُ عَلَى الْكُتُبِ الْمَصْنُفَةِ وَالْقَصَائِدِ مِنْ التَّقْرِیْظَاتِ ، وَمَا يُكْتَبُ عَنِ الْقَضَاةِ : مِنْ التَّقَالِيدِ الْحُكْمِيَّةِ وَإِسْجَالَاتِ الْعَدَالَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَتَكَلَّمَ فِيهِ عَلَى الْبَرِيدِ وَأَقُولِ مَنْ وَضَعَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَبَيَّنَّ مَعَالِمَهُ وَمَرَآكِزَهُ ، وَمَطَارَاتِ الْحَمَامِ الرَّسَائِلِيَّ وَأَبْرَاجَهُ بِالْأَدْيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ ، وَمَرَآكِبِ التَّلُجِّ وَالْمُهْجَنِ الْمُعَدَّةَ لِنَقْلِهِ ، وَالْمَنَاوِيرَ وَالْمُحْرِقَاتِ .

وَذَكَرَ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الشَّرِيفَةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَمْثَالِ وَالْحِكْمِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَأَقْوَالِ الْكَثِيرِينَ مِنْ أُمَّةِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَعِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ .

وَأَتَى فِيهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَسْمَاءِ الْكُتُبِ وَالْفُنُونِ ، وَكَثِيرٍ مِنْ أَسْمَاءِ مَشَاهِيرِ الْمُؤَلِّفِينَ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ وَالْكُتَّابِ وَالشُّعْرَاءِ .

وَأُورِدَ فِيهِ مِنْ أَصُولِ الصَّنْعَةِ فِي الْكِتَابَةِ مَا يُغْنِي قَارِئَهُ عَنْ تَصَفُّحِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْلَفَاتِ الْأَدَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا .

وَصَمَّنَهُ شَيْئًا كَثِيرًا يَفُوقُ الْحَصْرَ مِنَ الرِّسَائِلِ الْبَلِيغَةِ لِمَشَاهِيرِ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ وَالتَّقْدِيمِ وَالْحَدِيثِ .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلاً من فصوله دون أن يُحليّه من غرر منشأته  
لنفسه بالمعجب والمطرب .

ولم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .  
فصار كتابه لذلك - كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسير للقرآن  
والحديث، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة  
المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتابٌ مُمتنع، ودائرة معارف أدبية كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة  
والذكاء، وطوبى الباع في هذا الفن الجليل فنّ كتابة الإنشاء، وقوة التمكن في اللغة  
العربية وآدابها، وينطق بماله من كثرة الأطلاع على دقيقتها وجليلها .

وإنّ حسن نيّة مؤلفه، وأعماده على فضل الله تعالى في النفع به - ساعداً على  
حفظه إلى هذا الزمن من أيدي العوادي، وأنتشاره هذا الانتشار العظيم .

فقد قال في خاتمة تأليفه لهذا الكتاب - تحذّثاً بنعمة الله عليه - بعد أن ذكر أن  
المصنّفات تتفاوت في الحُطوط إقبالا وإدباراً: فمن مرغوب فيه، ومرغوب عنه،  
ومتوسّط بين ذلك، وأنه قلّ أن ينفق تأليف في حياة مؤلفه، أو يروّج تصنيف على  
القرب من زمان مصنّفه، وبعد أن استشهد على ذلك بما رواه المسعودي في كتابه  
"التنبيه والإشراف" عن الجاحظ . قال :

لكنني أحمد الله تعالى على رواج سوق تألّيفي ونفاق سلّعتي، والمسارة إلى  
استيكاّبه قبل انقضاء تأليفه، حتّى إنّ قلّمي التّأليف والنسخ يتسابقان في ميدان  
الطرس إلى آكيتابه، ومرتبب نجاّزه للاستينساخ يساهمهما في ارتقابه، فضلاً من  
الله ونعمة : ( ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ) .

## ترجمة مؤلفه

أما مؤلفه "أبو العباس أحمد القلقشندي" رحمه الله تعالى، فقد ترجمه السخاوي في الجزء الأول من كتابه: "الضوء الأليع، في أعيان القرن التاسع" فقال:

«هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، الشهاب بن الجمال بن أبي اليمن القلقشندي، ثم الفاهيري الشافعي».

ولد سنة ست وخمسين وسبعائة، واشتغل بالفقہ وغيره، وسمع على ابن الشيخة. وكان أحد الفضلاء، ممن برع في الفقه والأدب وغيرهما. وكتب في الإنشاء، وناب في الحكم، وشرح قطعاً من "جامع المختصرات" بل شرع في نظمه.

وعمل "صبح الأعشى في قوانين الإنشاء" في أربع مجلدات، جمع فروعاً. وكان يستحضر أكثر ذلك مع "جامع المختصرات" و"الحاوي". وألف كتاباً في أنساب العرب. وكان فيه تواضع ومروءة وخير.

مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وله خمس وستون سنة. ذكره المقرئ في "عقوده" والعبني وآخرون. وسُمي المقرئ والدة عبد الله وهو وهم».



وترجمه صاحب "سدرات الذهب في أخبار من ذهب" فقال:

« شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندى الشافعى ، زريل القاهرة .  
تفقه ومهر ، وتعالى الأدب ، وكتب فى الإنشاء ، وناب فى الحكم . وكان يستحضر  
" الحاوى " ، وكتب شيئاً على " جامع المختصرات " . وصنف كتاباً حافلاً سماه  
" صبح الأعشى " فى معرفة الإنشاء ، وكان مستحضرًا لأكثر ذلك ، وصنف غير ذلك .  
وكان مفضلاً وقوراً فى الدولة إلى أن توفى ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة ، عن  
تخمس وستين سنة <sup>(١)</sup> » .



وقد وقفنا على شيء من ترجمته وقت تصحيحنا لكتابه " صبح الأعشى " ، نورد  
هنا ، إتماماً للفائدة ، فنقول :

### ميلاده ونسبته

وُلد المؤلف فى سنة ست وخمسين وسبعائة كما ذكره السخاوى فى " الضوء  
اللامع " ببلدة يقال لها " قلقشندة " من أعمال مديرية القليوبية بالديار  
المصرية : من أصل عربى صميم ، من بنى بدر بن فزارة من قبس عيلان .  
وكان بنو فزارة وردوا مصر مع من وردوا من العرب ، أيام الفتح الإسلامى وبعده ،

---

(١) سماه صاحب " كشف القنون " مرة بأحمد بن علي ، ومرة أخرى بأحمد بن عبد الله ، وثالثة  
بأحمد بن عبد الله بن محمد .

وذكر فى عنوان " نهاية الأرب " للزلف ، المطبوع ببغداد أنه : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله  
ابن سليمان بن إسماعيل القلقشندى ، الشهير بأبن أبي غدة .

ويوجد مكتوباً على بعض أجزاء " صبح الأعشى " الخطية المحفوظة بدار الكتب أنه أحمد بن عبد الله  
ابن أحمد بن محمد بن سليمان بن إسماعيل .

وَزَلُّوا بِأَقْلِيمِ الْقَلْبِيَّةِ ، وَأَسْتَوْلَى بَنُو بَدْرِ مِنْهُمْ عَلَى أَجَلٍ يَلَادُهُ . وَكَانَتْ لَهُمُ الرَّاسَةُ  
وَالغَلْبَةُ عَلَى جِيرَانِهِمْ مِنْ بَنِي عَمَّهِمْ بَنِي مَازِنِ بْنِ فَزَّارَةَ . وَكَانَ بِقَلْقَشَنْدَةَ فِرْقَتَانِ :  
فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي بَدْرِ وَفِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مَازِنِ <sup>(١)</sup> .

### نشأته وتربيته

وَنَشَأَ نَشَأً حَسَنَةً ، وَتَرَبَّى تَرْبِيَةً عِلْمِيَّةً صَحِيحَةً ، وَتَوَجَّهَ إِلَى نَعْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ  
وَأَقَامَ بِهِ مَدَّةً مِنْ عُمُرِهِ ، وَطَلَبَ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى مَشْهُورِي الْعُلَمَاءِ فِي عَصْرِهِ ،  
وَأَشْتَغَلَ بِفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِقْدَارٌ وَافِرٌ مِنْهَا . وَأَطَّلَعَ عَلَى كَثِيرٍ  
مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَسْفَارِ فِي مُخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .

### إجازته بالفتيا والتدريس

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِينَ جِينًا كَانَ مُقِيمًا بِنَعْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أَجَازَهُ الشَّيْخُ  
سِرَاجُ الدِّينِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ الشَّهْرُبَارِيِّ الْمَلَقِيُّ - بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ  
عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنْ سِنُهُ إِذْ ذَاكَ تَتَعَدَّى إِحْدَى  
وَعِشْرِينَ سَنَةً ، كَمَا أَجَازَهُ بِأَنْ يَرَوِيَ عَنْهُ كُلَّ مَا لَهُ مِنَ التَّأْلِيفِ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ  
وغيرهما ، وَأَنْ يَرَوِيَ كُلَّ مَا جَازَتْ لَهُ رِوَايَتُهُ بِشَرْطِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ ، كَالْكُتُبِ الصَّحَاحِ  
السَّنَةِ ، وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكُتِبَتْ هَذِهِ الْإِجَازَةُ بِحِطِّ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ غَنُومٍ مُوقِّعِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ  
بِمَدِينَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ .

(١) أنظر "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" لؤلؤف (ص ١٥٠) .



## تَصَدُّرُهُ لِلإِفَادَةِ

وجلس بعد ذلك للإفادة، فانتفع الكثيرون من فقهه وورعه وأمانته .  
وعرض عليه كثير من تلاميذه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول  
وعلوم العربية، فأجازهم بما حفظوه منها .

## التحاققه بديوان الإنشاء

وفي شهر سنة إحدى وتسعين وسبعائة التحق بديوان الإنشاء بالأبواب  
السلطانية بالديار المصرية، وأنشأ مقامة في تقرير القاضى بدر الدين، بن القاضى  
علاء الدين، بن القاضى محيى الدين، بن فضل الله : رئيس ديوان الإنشاء وقتئذ،  
سمها "الكواكب الدررية"، فى المناقب البدرية<sup>(١)</sup> بناها على التعريف بكتابة الإنشاء  
وعلو قدرها، وعظم خطرها، وأنها الحرفة التى لا يلىق بطالب العلم غيرها، والصناعة  
التى لا يجوز له العدول عنها إلى ماسواها، وضمنها كثيراً من أصوب الصنعة فى الكتابة  
وفروعها . إلا أنها لإيجازها، مع ما أشتملت عليه من كثير المعانى - أحتاجت إلى  
شرح وإف يكشف إشاراتها، ويوضح عباراتها، فألف كتابه "صبح الأعشى"  
وجعله كالشرح لها .

وفرغ من تأليفه فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع  
عشرة وثمانمائة .

---

(١) ذكرت فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

## قيّمته في الكتابة والإنشاء

كانت كتابته وإنشأؤه كأنشاء أهل عصره وكتابتهم ، مبناها على التخيل والتزام  
المحسنات البديعية : من السجع والجناس والتورية وغيرها ، والغلو فيها ، على نحو  
ما كان من كتابة « القاضي الفاضل » و « ابن نباتة » والقاضي « شهاب الدين  
ابن فضل الله العمري » وأضربهم . غير أنها كانت تبدو أخف روعاً وأعظم  
وضوحاً من كتابة أمثاله .

وإن من قرأ مقامته التي أنشأها عند ألتحاته بديوان الإنشاء ، عرّف ما كان  
عليه : من غزارة المادة ، وسلامة الذوق ، وقوة الذاكرة .

## مؤلفاته

وله آليف كثيرة ، منها :

كتاب «صبح الأعشى في كتابة الإنشاء» وهو هذا الكتاب .

وكتاب «ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المنير» وهو مختصر كتاب  
«صبح الأعشى» . طبع الجزء الأول منه في مطبعة الواعظ بالقاهرة  
في سنة ١٣٢٤ هـ .

وكتاب «الغيوث الهوامع» ، في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع  
في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

- وكتاب "نهاية الأرب، في معرفة قبائل العرب" في الأنساب، ألفه لفتز الجمالي  
يوسف الأموي<sup>(١)</sup>، وطبع في مطبعة الرياض بمدينة بغداد (دار السلام) .  
وكتاب "قلائد الجمان، في قبائل العربان" في أنساب العرب أيضا<sup>(٢)</sup> .  
وله غير ذلك رسائل كثيرة تزيد على المائة أودعها كتابه "صبح الأعشى" .



هذا : وقد أسند إلينا تصحيح كتابه "صبح الأعشى" المطبوع على نفقة  
دار الكتب، بالقسم الأدبي بالمطبعة الأميرية . فقمنا نحوه بما يجب بإزاء مؤلف  
جليل مثله، وأجتهدنا في تهذيبه وتنقيحه بقدر الطاقة .

وأستعنا على ما وجدناه بأصله من التحريف الكثير والتصحيح الغريب - زيادة  
على ما فيه من الطمس والسقم في مواضع من بعض أجزائه - بمراجعة كثير من المؤلفات  
في الفنون المختلفة، ونسخ شئ من رسائل الكتاب ودواوين الشعراء وأهل الأدب،  
باحثين فيها عن كل موضوع تكلم عنه المؤلف أو أشار إليه في كتابه . ومتى توقفنا  
في شئ من مسأله أثناء التصحيح : لعدم وضوحه ، أو لأن يد الناسخ مسخته ،  
أو لغير ذلك - رجعنا إلى تلك الكتب والرسائل فصحصحناه منها، مع المحافظة التامة  
على عبارة الأصل مهما بلغت من السقم . وما لم نقف عليه فيها، أبقيناه على حاله ،

---

(١) كما ذكر ذلك المؤلف في خطبته، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبي الجود «بترين راشد»  
أمير العربان في البلاد الشرقية والغربية .

(٢) نسبة صاحب "كشف الظنون" لوالد المؤلف، وذكر أنه نبه على ذلك في كتابه "نهاية الأرب" .  
[وقد تصفحناه فلم نعر على ذلك] .

وَوَضَعْنَا بِجَانِبِهِ عِلَامَةً تَدُلُّ عَلَى التَّوَقُّفِ ، وَوَكَّلْنَاهُ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ وَعَبَقَرِيَّتِهِ ،  
نَاسِبِينَ كُلِّ إِصْلَاحٍ أَدْخَلْنَاهُ عَلَيْهِ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْمُرَاجَعَةِ .

وَقَدَدْنَا أَكْثَرَ كَلِمَاتِهِ بِالشَّكْلِ ، مُعْتَمِدِينَ فِي ضَبْطِهَا عَلَى مَعَايِمِ اللُّغَةِ الْمَشْهُورَةِ ،  
وَبَدَلْنَا الْجُهْدَ فِي تَقْرِيبِهِ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ ، بِوَضْعِ عِلَامَاتِ التَّرْقِيمِ بَيْنَ جُزْأَيْهِ وَأَجْزَائِ  
عِبَارَاتِهِ .

وَمَيَّزْنَا مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَمْثَالِ  
العَرَبِ وَحِكْمِهَا - بِعِلَامَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تُمَيِّزُهَا عَنِ سِوَاهَا .

وَوَشَّيْنَا أَكْثَرَ صَفْحَاتِهِ بِمَحَاطِئِ شَرْحِنَا فِي بَعْضِهَا مَا يُوجَدُ فِي مَتْنِهِ مِنْ غَرِيبِ  
اللُّغَةِ ، وَأَثْبَتْنَا فِيهَا أَسْمَاءَ كُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدْنَا عَلَيْهَا عِنْدَ التَّصْحِيحِ .

وَمَا هُوَ إِذًا تَقَدَّمَ لِحَضْرَاتِ قُرَّانِهِ الْكِرَامِ - مِنْ أَكْبَارِ الْكُتَّابِ وَأَسَاطِينِ اللُّغَةِ  
وَالْأَدَبِ - فِي تَوْيِهِ الْبَلِيدِ الَّذِي يَسُرُّ النَّاسِطِرَ وَيَشْرَحُ الْخَاطِرَ ، مُعْتَذِرِينَ إِلَى  
حَضْرَاتِهِمْ فِيمَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَطِّهِ مَطْبَعِيٍّ وَقَعَ فِيهِ أَثْنَاءُ الطَّبْعِ وَلَمْ تَنْتَبِهْ لَهُ ،  
وَالْكَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وَفَقَّنَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَأَعَانَنَا عَلَى مَشَاقِّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَوَهَبَنَا  
مِنْ لَدُنْهِ الصَّبْرَ وَحُسْنَ النَّبَاتِ ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ مَا

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ يناير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول

إبراهيم

دار الكتب السلطانية

كتاب

صنح الأربعة  
٢٠١٦  
١٤٧

نالتف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الرابع عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٨ هـ  
م ١٩١٩

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

## الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان)

## الفصل الأول

في أصول تتعين على الكاتب معرفتها، وفيه ثلاثة أطراف

### الطرف الأول

(في بيان رتبتهما ومعناها، وذكر ما يرادفها من الألفاظ)

أما رتبتهما فإنها متاخرة - عند قوة السلطان - عن عقد الجزية : لأن في الجزية ما يدل على ضعف المعقود له ، وفي الهدنة ما يدل على قوته .

وأما معناها فالمهادنة في اللغة المصالحة ، يقال : هادته يهادنه مهادنة إذا صالحه والأسم الهدنة . وهي إما من هدن بفتح الدال يهدن بضمها هدوناً إذا سكن ، ومنه قولهم : « هدنة على دخن » . أى سكون على غل ، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

(١) أى من باب قتل كما في المصباح وبه ضبط بالقلم في نسخة خطية من الصحاح ولكن ضبطه في الناموس واللسان وكذا المحكم بالقلم بقيد أنه من باب ضرب ، فعمل فيه لغتين .

(٢) هذا هو أحد شق التصيل . أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفها ألفاظٌ أخرى :

أحدها — المُوَادَعَة، ومعناها المصالحةُ أيضا، أخذًا من قولهم : عليك بالموَدُوع يريدون بالسكينة والوقار، فتكونُ راجعةً إلى معنى السكون . وإما أخذًا من تَوَدِيع الثوب وتَحْوِده : وهو جعلُه في صِوَانٍ يَصُونُهُ ، لأنه بها تحصل الصيانةُ عن القتال . وإما أخذًا من الدَّعة : وهي الخَفْضُ والهَنَاءُ ، لأن بسببها تحصل الراحةُ من تعب الحرب وكلفه .

الثاني — المُسَالمة ومعناها ظاهرٌ : لأن بوقوعها يَسْلَمُ كُلُّ من أهل الجانين من الآخر .

الثالث — المُقَاضَاة، ومعناها [المُحَاكَمَةُ مُفَاعَلَةٌ من القَضَاءِ بمعنى الفصل والحكم] .

الرابع — المُوَاصَفَةُ ، سُمِّيَتْ بذلك لأن الكَاتِبَ يَصْنِفُ ما وقع عليه الصُّلْحُ من الجانين . على أن الكَاتِبَ يُخْصِوْنَ لَفْظَ المِوَاصِفَةِ بما إذا كانت المهادنة من الجانين ، ولا شك أن ذلك جارٍ في لَفْظِ المُوَادَعَةِ والمُسَالِمَةِ والمُقَاضَاةِ أيضا : لأن المفاعلة لا تكون إلا بين اثنين إلا في ألفاظٍ قليلةٍ محفوظةٍ ، على ما هو مقرر في علم العربية .

أما لَفْظُ المُهْدِنَةِ فإنه يصدُقُ أن يكونَ من جانبٍ واحدٍ ، بأن يَعْقِدَ الأعلى الهدنةَ لمن هو دُونَهُ . على أنها عند التَّحْقِيقِ ترجع إلى معنى المفاعلة ، إذ لا تصدُرُ إلا من اثنين .

وأما في الشَّرْعِ فعِبَارَةٌ عن صُلْحٍ يَقَعُ بين زعيمين في زمنٍ معلومٍ بشروطٍ مخصوصةٍ ، على ما سيأتي بيانه فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

والأصل فيها أن تكون بين مَلِكَيْنِ مُسْلِمٍ وكَافِرٍ ، أو بين نَائِبَيْهِمَا ، أو بين أَحَدِهِمَا ونَائِبِ الآخر . وعلى ذلك رَبَّ الفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ باب الهدنة في كتبهم . قال صاحب

«مواد البيان». وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التواضع والتسليم واعتقاد المودة والتصاني، والتوازر والتعاون، والتعاضد والتناصر، ويستترط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض ما في يده والتفادي عنه بمعاطفته والالتفات إلى أتباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمعاملة في المعاملة، أو الإمداد بجيش، أو امتثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يُحصى.

قلت: وقد يكون المالكان متساويين في الرتبة أو متقاربين، فيقع التعاقد بينهما على المسالمة والمصافاة، والموازرة والمعاونة، وكف الأذية والإضرار وما في معنى ذلك، دون أن يلتزم أحدهما للآخر شيئاً يقوم به أو إناوة يحملها إليه، ولكلِّ مقام مقال، والكاتب الماهر يوفي كلِّ مقام حقه، ويُعطى كلِّ فصل من الفصول مستحقه.

## الطرف الثاني

(في أصل وضعها)

أما مهادنة أهل الكفر فالأصل فيها قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

وما ثبت في صحيح البخاري من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه: «أن قريشاً وجهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالحد يبية حين صده قريش عن البيت - سهيل بن عمرو، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: هات [أكتب] بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم «الكاتب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أكتب بسم الله الرحمن»



«الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن آكتب  
«بأسمك اللهم كما كنت تكتب». فقال المسلمون: والله لانكتب إلا  
«بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: آكتب:»  
«بأسمك اللهم - ثم قال: هذا ما قضى عليه محمد رسول الله - فقال سهيل:»  
«والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا نآتيناك!»  
«ولكن آكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والله  
«إني لرسول الله وإن كذبتوني، آكتب محمد بن عبد الله، ثم قال النبي  
«صلى الله عليه وسلم: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به - فقال  
«سهيل: والله لا نتحدث العرب أنا قد أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من  
«العام المقبل، فكتب - قال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل  
«وإن كان على دينك إلا رددته إلينا - قال المسلمون: سبحان الله!  
«كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً! فبينما هم كذلك، إذ جاء  
«أبو جندل يرسف في قيوده، وقد نرج من مكة حتى رمى بنفسه بين  
«أظهر المسلمين - فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقضيك عليه أن  
«ترده إلى - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعد -  
«قال: فوالله [إذا] لا أصالحك على شيء أبدا - قال النبي صلى الله  
«عليه وسلم: فأجزه لي - قال: ما أنا بجزه لك - قال بلن فافعل -!

« قال : ما أنا بفَاعِلٍ . قال مِكَرَزُ بْنُ حَفْصٍ : بلى قد أجزأناه لك . قال »  
 « أبو جندبٍ : أى معشرَ المسلمين : أَرَدْتُ إلى المشركين وقد جئتُ مُسْلِماً؟ »  
 « ألا ترونَ ما قد لَقِيتُ؟ وكان قد عَذَّبَ عذاباً شديداً فى الله تعالى . »  
 « قال عمرُ بن الخطَّابِ : فأتميتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقلتُ :  
 « أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قال بلى ! قلتُ : أَلَسْنَا على الحقِّ وَعَدُّونَا على  
 « الباطلِ؟ قال بلى ! قلتُ : فلم نُعْطَى الدِّينِيَّةَ فى دِينِنَا إِذَا؟ قال : إني  
 « رسولُ الله ولستُ أعصيه وهو ناصِرِي » .

قلت : هذا ما أورده البخارىُّ فى حديثِ طَوِيلٍ<sup>(١)</sup> . والذى أورده أصحابُ  
 السيرِ أن الكاتبَ كان على بنِ أبى طالبٍ ، وأن نُسخةَ الكتابِ :

« هذا ما قاضى عليه محمدُ بنُ عبدِ اللهِ مُهَيْبِ بْنِ عَمْرِو عَلى وَضَعَ الحَرْبِ »  
 « عن الناسِ عَشْرَ سنينَ ، وأنه من أَحَبَّ أن يدخلَ فى عَقْدِ مُحَمَّدٍ »  
 « وَعَهْدِهِ دخلَ فيه ، ومن أَحَبَّ أن يدخلَ فى عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ »  
 « دخلَ فيه » .

وأشهد فى الكتابِ على الصَّاحِ رجالاً من المسلمين والمُشْرِكين .

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من " ارشاد السارى " للقسطلانى ومعه كان

## الطرف الثالث

( فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن )

قال في "مواد البيان" : وهذا الفن من المكتبات له من الدولة محل خطير ،  
ومن المملكة موضع كبير ، ويتعين على الكاتب أن يُحَلَّ له فكره ، ويُعْمَل فيه نظره ،  
ويتوقر عليه توقراً يحكم مبادئه ، ويهدب معانيه .  
والذى يلزم الكاتب في ذلك نواتان :

## النوع الأول

( ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر )

وهي الشروط الشرعية المتبعة في صحة العقد ، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع  
إهمال شيء منها . وهي أربعة شروط :

الأول — في العاقد . ويختلف الحال فيه باختلاف العقود عليه : فإن كان المعقود  
عليه إقليماً : كالهند والروم ونحوهما ، أو مهادنة الكفار مطلقاً ، فلا يصح العقد فيه إلا  
من الإمام الأعظم أو من نائبه العام المفوض إليه التحدث في جميع أمور المملكة .  
وإن كان على بعض القرى والأطراف ، فلا حاجة للولاية الجاورية لهم عقد الصلح معهم .  
الثاني — أن يكون في ذلك مصلحة للمسلمين : بأن يكون في المسلمين ضعف  
أو في المال قلة ، أو توقع إسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين ، أو طمع في قبولهم  
الجزية من غير قتال وإنفاق مال . فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يقتاتلون حتى  
يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها .

الثالث — أن لا يكون في العقد شرط يباه الإسلام : كما لو شرط أن يُترك  
بأيديهم مال مسلم ، أو أن يرده عليهم أسير مسلم أنفقت منهم ، أو شرط لهم على المسلمين

مَالٌ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ شُرْطَ رَدِّ مُسْلِمَةٍ إِلَيْهِمْ ، فَلَا يَصِحُّ الْعَقْدُ مَعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، بِخِلَافِ مَا لَوْ شُرْطَ رَدُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ الصَّحَّةَ . قَالَ الغزالي : وَقَدْ جَرَّتِ الْعَادَةُ أَنْ يَقُولَ : <sup>(١)</sup> عَلَى أَنْ مَنْ جَاءَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَدَّدْتُمُوهُ ، وَمَنْ جَاءَنَا مُسْلِمًا رَدَدْنَاهُ . فَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَخِيفٌ عَلَيْهِمْ ، جَازَ الْتَرَامُ الْمَالِ لَهُمْ دَفْعًا لِلشَّرِّ ، كَمَا يَجُوزُ فَكُّ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ إِذَا تَحَجَّرْنَا عَنْ أَنْتَرَاعِهِ .

الرابع — أَنْ لَا تَزِيدَ مَدَّةَ الْهُدْنَةِ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عِنْدَ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْنِهِمْ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَبْلُغَ سَنَةً بِحَالٍ ، وَفِيهَا دُونَ سَنَةٍ وَفَوْقَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَصَحُّهُمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ . أَمَا إِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَهَنًا وَخَوْفٌ ، فَإِنَّهُ تَجُوزُ الْمَهَادَنَةُ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ ، فَقَدْ هَادَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ مَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ . وَلَا تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهَا عَلَى الصَّحِيحِ ، وَفِي وَجْهِهِ تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ لِإِصْلَاحِهِ . فَلَوْ أُطْلِقَ الْمُدَّةُ فَالصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا فَاسِدَةٌ ، وَقِيلَ : إِنْ كَانَتْ فِي حَالِ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ حَمَلَتْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ ، وَإِنْ كَانَتْ فِي حَالِ الْقُدْرَةِ : فَقَدْ قِيلَ تَحْمَلُ عَلَى الْأَقْلِ : وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ، وَقِيلَ عَلَى الْأَكْثَرِ : وَهُوَ مَا يَقَارِبُ السَّنَةَ . وَلَوْ صَرَّحَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى مَا يَجُوزُ عَقْدُ الْهُدْنَةِ عَلَيْهِ : فَإِنْ زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي حَالِ الْقُوَّةِ أَوْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ فِي حَالِ الضَّعْفِ صَحَّ فِي الْمُدَّةِ الْمُعْتَبَرَةِ وَبَطُلَ فِي الزَّائِدِ . فَإِنْ أَحْتَجَّ إِلَى الزِّيَادَةِ عَلَى الْعَشْرِ ، عَقِدَ عَلَى عَشْرِ ثُمَّ عَشْرًا ثُمَّ عَشْرًا قَبْلَ تَقْضَى الْأُولَى ، قَالَ الفُورَانِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِنَا الشَّافِعِيَّةِ . وَذَهَبَ أَصْحَابُ مَالِكٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنْ مُدَّتْهَا غَيْرُ مُحَدَدَةٍ ، بَلْ يَكُونُ مَوْكُولًا إِلَى اجْتِهَادِ الْإِمَامِ وَرَأْيِهِ .

(١) بياض في الأصل بقدر كلمة ولعله « نهادنكم على الخ » .

## النوع الثاني

(ماشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، و عقود الصلح  
الجارية بين زعماء المسلمين، وهي ضربان)

## الضرب الأول

(الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين  
الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم)

وليس لها حدٌ يحصرها، ولا ضابطٌ يضبطها، بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه  
في تلك الهدنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يشترط عليه أن يكون لوليّه موالياً، ولعدوّه مُعادياً، ولمسالمة  
مُسالماً، ولمُحاربه مُحارباً، ولا يُواطىء عليه عدوّاً، ولا يوقع عليه صلحاً، ولا يُوافق  
على ما يقدح في أمره، ولا يقبل سُؤال سائل، ولا يبدل باذِل، ولا رسالة مُراسِل  
مما يخالف الاتفاق الجارى، والأخذ على يد من سعى في تقض الصلح ونكث  
العهد إن كان من أهل طاعته، والمقاتلة إن كان من المُخالفين له، وأنه إذا جنى  
من أهل مملكتهم جانٍ كان عليه إحضاره أو الأخذ منه بالجنابة .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده وأعماله، ومُتطرف تُغوره،  
وشاسع نواحيه — أيدي الداخلين في جماعته، والمُنضمين إلى حوزته، ولا يُجهز لها  
جيشاً، ولا يُحاول لها غزواً، ولا يبدأ أهلها بمنازعة، ولا يشرع لهم في مُقارعة،  
ولا يتناوهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة، ولا يُعاملهم بأذية جليسة ولا خفيسة،  
ولا يُطلق لأحدٍ من ينوب عنه في إمارة جيشه، ومن يُنسب إلى جملته، ويتصرف

على إرادته - عتانا إلى شيء من ذلك بوجه من الوجوه، ولا سبب من الأسباب،  
وأن لا يجاوز حدود مملكته إلى المملكة الأخرى بنفسه ولا بعسكر من عساكره .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يفرج عمَّن هو في حوزته ممن أحاطت به  
رَبْقَةُ الأَمر، ويمكِّنهم من المسير إلى بلادهم: بأنفسهم وخدمهم وعبائهم وأتباعهم،  
وأصناف أموالهم، في أتم حراسة، وأكمل خفارة، دون كلفة ولا مؤونة تلحقهم  
على إطلاقهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه ما لا يجهله إليه في كل سنة، أو أن يسلم إليه  
ما يختاره: من حصون وقلاع وأطراف وسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد  
المسلمين، أو أحب أتباعه أو استضافته من بلاد من يهادنه من ملوك الكفر،  
وأن يبقى من بها من أهلها، ويقرهم فيها بجرمهم وأولادهم ومواسمهم وأزوادهم  
وسلاحهم وآلاتهم، دون أن يلمس عن ذلك أو عن شيء منه مالا، أو يطلب عنه  
بدلا، وما يخترط في هذا السلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه عدم التعرض لتجار مملكته، والمسافرين من  
رعيته، برا وبحرا بنوع من أنواع الأذية والإضرار، في أنفسهم ولا في أموالهم،  
وللاجاورين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التي لا يعتاد التجار ركوب مثلها .

ومن ذلك - أن يشترط عليه إمضاء ما وقعت عليه المعاهدة، وأن لا يرجع عن  
ذلك ولا عن شيء منه، ولا يؤثر شيئا عن الوقت الذي (١) ... ..

ومن ذلك - أن يشترط عليه أنه إذا بقي من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج  
إلى التعيين فيه، أن يعلمه بما يريد من مهادنة أو غيرها .

(١) بياض بالأصول ولعله «الذي اتفق عليه» .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أنه إذا انقضى أمد الهدنة على أحد من الطائفتين وهو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمته .  
ومن ذلك — أن يشترط ما لا يجمله إليه في الحال أو في كل سنة، أو حصوناً، أو بلاداً يسامها من بلاده، أو مما يغلب عليه من بلاد مهادنه، إلى غير ذلك من الأمور التي يجرى عليها الاتفاق مما لا تحصى كثرة .

### الضرب الثاني

(مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة — تحرير أوضاعها، وترتيب قوانينها، وإحكام معاقدها)

وذلك باعتماد أمور :

منها — أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجرى الهدنة بينه وبين ملكه .  
ولم أر من تعرض في الهدن لمقدار قطع الورق وإن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفرنج، كما سياتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .  
والذي ينبغي أن يراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذي يكتب فيه الملك الذي تقع الهدنة معه : من قطع العادة أو الثلث أو النصف .

ومنها — أن يأتي في ابتدائها براءة الاستهلال : إما بذكر تحسين موقع الصلح والندب إليه ويمن عاقبته، أو بذكر السلطان الذي تصدّر عنه الهدنة، أو السلطانين المتهادين، أو الأمر الذي ترتب عليه الصلح، وما يجرى هذا المجرى مما يقتضيه الحال ويستوجب المقام .

ومنها — أن يأتي بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذي أوجب الهدنة ودعاً إلى قبول المودعة .

فإن كانت الهدنة مع أهل الكفر، أحتج للإجابة إليها بالإتمار بأمر القرآن والالتقياد إليه، حيث أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمطواعة على الصلح والإجابة إلى السلم بقوله: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) . وما وردت به السنة من مصالحته صلى الله عليه وسلم قرئنا عام الحديبية، وذكر ما سئح له من آيات الصلح وأحاديثه، وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده، وكفهم عن القتال وقوفاً عند ما حدث لهم . وأنه لولا ذلك لشرعوا الأسننة إلى مخالفيهم في الدين، وركضوا الحيات إلى جهاد من يلهم من الملحدين .

وإن كان الصلح بين مسلمين أحتج بنحو قوله تعالى: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) . وبأحاديث التحذير من تقاتل المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم: « إِذَا آتَى الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَيْهِمَا فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » وما يجرى هذا المجرى .

ومنها - أن يراعى المقام في تجهيل المتهاذين أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال، ووصف كل واحد منهما بما يليق به : من التعظيم، أو التوسط، أو انحطاط الرتبة بحسب المقام، ويجرى على حسب ذلك في الشدة واللين .

فإن كانت الهدنة بين متكافئين سوى بينهما في التعظيم، وجرى بهما في الشدة واللين على حد واحد، إلا أن يكون أحدهما أسن من الآخر، فيراعى للأسن ما يجب له على الحد من التأديب معه، ويراعى للحد ما يجب له على الكبير من الحنو والشفقة .

وإن كانت الهدنة من قوى لضعيف، أخذ في الإشتداد، آتياً بما يدل على علو الكلمة، وأنيساط القدرة، وحصول النصرة، وأستكمال العدد، وظهور الأيد،



ووفور الجُنْدِ، وقُصُور المملوك عن المطاولة، ونَجْزِهِم عن المحاولة، ونحو ذلك مما يخرط في هذا السِّلْكِ، لا سِيَّما إذا كان القويُّ مُسْلِماً والضعيفُ كَافِراً، فإنه يَجِبُ الأزدِيادُ من ذلك، وذاكَ ما للإسلام من العِزَّةِ، وما تَوَالى له من النُّصْرَةِ؛ وذاكَ الوَقائع التي كانت فيها نُصْرَةُ المسالمين على الكُفَّار في المواطن المشهُورة، والأماكن المعروفة، وما في معنى ذلك .

وإن كانت الهدنة من ضَعِيفٍ لِقَوِيٍّ، أَخَذَ في المَلابَةِ بحسب ما يقتضيه الحال، مع إظهار الجَلادَةِ، وَمَسَّكِ القُوَّةِ، خصوصاً إذا كان القويُّ المعقودُ معه الهدنةُ كَافِراً. وإن شَرَطَ له مالاً عند ضَعْفِ المسالمين للضَّرورةِ أُنِيَ في كلامه بما يقتضى أَنَّ ذلك رَغْبَةٌ في الصَّلحِ المأمور به، لا عن خَوَرِ طَباعِ وضَعْفِ قُوَّةِ، إذ الله تعالى يقول: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

ومنها - أن يتَحَفَّظَ من سَقَطِ يَدْخُلِ على الشريعة تَقِيصَةً، إن كانت المهادنة مع أهل الكُفْرِ، أو يَجْرُ إلى سُلْطانه وهَيْبَةً، إن كانت بين مُسالمين؛ ويتَحَدَّرُ كُلُّ الحَدَرِ من خَلَلِ يَتَطَرَّقُ إليه: من إهمالِ شَيْءٍ من الشروط، أو ذِكْرِ شرطٍ فيه خَلَلٌ على الإسلام أو ضررٌ على السلطان، أو ذِكْرِ لَفِظٍ مُشْتَرَكٍ أو مَعْنَى مُلْتَبِسٍ يُوقِعُ شُبْهَةً تُوجِبُ السَّبِيلَ إلى التأويل؛ وأن يأخُذَ المأخُذَ الواضِحَ الذي لا تُتَوَجَّهُ عليه مُعَارَضَه، ولا تُتَطَرَّقُ إليه مُنَاقَضَه، ولا يَدْخُلُه تَأْوِيلٌ .

ومنها - أن يُبَيِّنَ أن الهدنة وقعت بعد استخارة الله تعالى وتَرْوِيَةِ النَّظَرِ في ذلك وظُهُورِ الخَيْرِ فيه، ومُشاوَرَةِ ذَوِي الرَّأْيِ وأهلِ الحِجَى، ومُوافَقَتِهِم على ذلك .

ومنها - أن يُبَيِّنَ مَدَّةَ الهدنة . فقد تقدم أن الصَّحِيحَ من مَدْهَبِ الشافعي أنه إذا لم تُبَيِّنِ المَدَّةَ في مُهادَنَةِ أهلِ الكُفْرِ فسدت الهدنة .

قال في "التعريف" : وقد جرت العادة أن يحسبها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمريّة . ويذكر سنين وأشهرًا وأيامًا وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها . أما في عقد الصلح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك ، بل ربما قالوا : إن ذلك صار لازماً للأبد ، حتى في الولد وولد الولد .

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بين الملكين أنفسهما ، أو بين نائبيهما ، أو بين أحدهما ونائب الآخر ، ويستوفي ما يجب لكل قسم منها .

فإن كانت بين الملكين أنفسهما بغير واسطة بين ذلك ، ذكر ما أخذ عليهما من العهود والمواثيق ، والأيمان الصادرة من كل منهما ، وذكر ما وقع من الإشهاد بذلك عليهما ، وما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت ونحو ذلك .

وإن كانت بين المكتوب عنه ونائب الآخر ، بين ذلك ، وتعرض إلى المستند في ذلك : من حضور كتاب من الملك الغائب بتفويض الأمر في ذلك إلى نائبيه ، وأنه وصل على يده أو يد غيره ، والإشارة إلى أنه معنون بعنوانه ، محتوم بختمه المتعارف عنه أو وكالة عنه . ويتعرض إلى قيام البينة بها وثبوتها بجائس الحكم ونحو ذلك من المستندات .

وإن كانت بين نائبين ، بين ذلك وذكر مستند كل نائب منهما على ما تقدم ذكره . ويتعرض إلى أن النائب في ذلك قام فيه بأختياره وطواعيته ، لا عن إكراه ولا إجبار ، ولا قسير ولا غلبة ، بل لما رأى لنفسه ومستنبيه في ذلك من المصاحبة والحفظ . وأن كتاب الهدنة قرئ عليه وبين له فصلاً فصلاً ، وترجم له بموثوق به ، إن كان لا يعرف العربية ونحو ذلك .

ومنها - أن يتعرض إلى ما يجري من التحليف في آخرها : على الوفاء ، وعدم التثكث والإخلال بشيء من الشروط ، أو الخروج عن شيء من الالتزامات ،

أو محاولة التأويل في شيء من ذلك، أو السعى في تقضيه أو في شيء منه، وما في معنى ذلك :

فإن كانت بين ملكين، تعرض إلى تحليف كل منهما على التوفية بذلك .

وإن كانت بين أحدهما ونائب الآخر، حلف الملك كما تقدم، وستأتي صورة الحليف الذي يقع في الهدن في الكلام على الأيمان فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

ومنها - أن يُحرر أمر التاريخ بالعربي وما يُورخ به في مملكة الملك المهادن : من السرياني والرومي وغيرهما . قال في "التعريف" : ولهم عادة أن يحسبوا مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية، ويدكر سنين وأشهرًا وأيامًا وساعات حتى يستكمل السنين الشمسية المهادن عليها . وقد تقدم في الكلام على التاريخ من المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ واستخراجها .

ومنها - أن يقع الإشهاد على كل من المتعاقدين بذلك، ولا بأس بإثبات ذلك . وقد جرت العادة أنه يشهد على كل ملك جماعة من أهل دولته ليُقضى على ملكهم بقولهم وإن كان مخالفًا في الدين . وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم «أشهد على مصالحته مع قريش رجالًا من المسلمين ورجالًا من المشركين» . وربما طلب النائب عن الملك الغائب إحضار نسخة مهادنة من جهة مستنبيه على ما وقع به العقد، مشهولة بخط الكُتاب، مشهودًا عليه فيها بأهل مملكته، أو يُجهز إليه نسخة يكتب عليها خطه، ويشهد عليه فيها أهل مملكته . والغالب الأكتفاء بالرسول في ذلك .

(١) أي الأيمان الواقعة في عقود الصلح، وإلا فالأيمان بأنواعها تقدمت في ج ١٣ .

## الفصل الثاني

في صورة ما يُكْتَبُ في المهادنات والسجلات، ومذاهب  
الكتاب في ذلك، وفيه طرفان

## الطرف الأول

( فيما يَسْتَبْدُ ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم - وتُخَلَّدُ منه نُسخٌ بالأبواب  
السلطانية، وتُدْفَعُ منه نسخٌ إلى ملوك الكُفْر )

ثم ما يُكْتَبُ في ذلك على تَمَطُّين :

## التمطُّ الأول

( ما يُكْتَبُ في طَرَةِ الهُدْنَةِ من أعلى الدَّرَجِ )

وقد جرت العادة أن يفتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما في معنى ذلك ،  
مثل أن يكتب : « هذا عَقْدٌ صلِح » أو « هذا كِتَابٌ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوَادَعَةٌ »  
أو « هذه مُوَاصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربما حُذِفَ المبتدأ وهو « هذا » وآكُفِي  
بالخبر عنه ، مثل أن يقال : « كِتَابٌ هُدْنَةٍ » أو « كِتَابٌ مُوَادَعَةٍ » أو « عَقْدٌ مُصَالِحَةٍ »  
وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقد صلح أنشأها لِيُنْسَجَ على مِنْوَالِهَا ، وهي :

هذا عَقْدٌ صلِح أنتظمت به عُقُودُ المَصَالِحِ ، وَأُنْتَسَقَتْ بِوِاسِطَتِهِ سُبُلُ المَنَابِحِ ؛  
وَتَحَدَّثَ بِحُسْنِ مُقَدِّمَتِهِ العَادِي وَتَرْتَمَ بِحُسْنِ نَتِيجَتِهِ الرَّايِحُ . عاقَدَ عليه السلطانُ فلانُ  
فلاناً القائم في عَقْدِ هذا الصلِح عن مُرْسِلِهِ فلانٍ ، حَسَبَ ما فَوَّضَ إليه الأمرُ في ذلك  
في كِتَابِهِ الواصِلِ على يَدِهِ ، المُؤَرَّخِ بكذا وكذا ، المُعَنَّوْنَ بِعنوانه ، المُخْتومِ بطابعه

المتعارف عنه - على أن يكون الأمر كذا وكذا . ويشرح مُلَخَّص ما يقع من الشروط التي يقع عليها الاتفاق بينهما في الصلح إلى آخرها ، ثم يقال : على ما شُرح فيه .

### التمط الثاني

( ما يُكتب في متن الهدنة ، وهو على نوعين )

#### النوع الأول

( ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد )

بأن يكون الملكان متكافئين ، [ فيتعاقدان إما على حصين<sup>(١)</sup> ] وإما على مال يعطيه الملك المعقودة له الهدنة لعاقدها ، كما كان يُكتب عن صاحب الديار المصرية .  
وللكتاب فيه مذهبان :

#### المذهب الأول

( أن تُفتتح الهدنة بلفظ : « هذا ما هادَنَ عليه » )

أو « هذه هُدنةٌ أو مُوادعةٌ أو مُواصفةٌ أو سِلمٌ أو صلحٌ » أو نحو ذلك

على نحو ما تقدم في الكلام على الطرة )

وعلى ذلك كُتِبَ كِتَابُ الْقِضِيَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، على ما تقدم ذكره في الكلام على أصل مشروعيتها .

وهذه نسخة هُدنةٍ كُتِبَ بها عن سُلْطَانِ قَوِيٍّ ، لِمَلِكٍ مَضْعُوفٍ ، باسْتِطَاعَةٍ ، يقومُ به المضعوفُ للقويِّ في كلِّ سنةٍ أو حُصُونٍ يسألها له أو نحو ذلك ، وهي :

هذا ما هادَنَ عليه ، وأجلٌ إليه ، مولانا السلطانُ فلانٌ - خَلَدَ اللهُ سُلْطَانَهُ وَشَرَفَ بِهِ زَمَانَهُ - الْمَلِكِ فُلَانًا الْفُلَانِيَّ . هَادَنَهُ حِينَ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ رُسُلُهُ ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهِ

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتِبَهُ ، وَأَمَلَهُ ، لِيُتِمَّهُ لَهُ ، وَسَأَلَهُ ، لِيُكْفِيَ عَنْهُ أَسَلَهُ ، حِينَ أَبَتْ صِفَاحُهُ أَنْ تَصْفَحَ ،  
 وَسَمَاءُ عَجَاجِهِ بِالذَّمَاءِ إِلَّا أَنْ تَسْفَحَ ، فَرَأَى - سَدَّدَ اللَّهُ آرَاءَهُ - أَنْ الصُّلْحَ أَصْلَحَ ،  
 وَأَنْ مُعَامَلَةَ اللَّهِ أَرْبَحَ ، وَهَادَنَ هَذَا الْمَلِكُ ( وَيُسَمِّيهِ ) عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدَهُ  
 وَتَسْلِيهِ ، وَجَمِيعَ بِلَادِهِ ، وَكُلَّ طَآرِفِهِ وَتِلَادِهِ ، وَمَالَهُ مِنْ مَلِكٍ وَمَالٍ ، وَجِهَاتٍ  
 وَأَعْمَالٍ ، وَعَسْكَرٍ وَجُنُودٍ ، وَجُمُوعٍ وَخُشُودٍ ، وَرَعَايَا فِي مَمْلَكَتِهِ مِنَ الْمُقِيمِ وَالطَّارِي ،  
 وَالسَّائِرِهَا وَالسَّارِي - هَذِهِ مُدَّتْهَا أَوَّلُ تَارِيخِ هَذِهِ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ وَمَا يَتْلُوهَا ، مَدَّةٌ  
 كَذَا وَكَذَا مِنْ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ وَسَاعَاتٍ ، يَجْمَلُ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ فَلَانٌ إِلَى بَيْتِ مَالِ  
 الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلَى تَحْتِ يَدِ مَوْلَانَا السَّلْطَانِ فَلَانٍ قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ  
 كَذَا وَكَذَا - يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ مِنْ مَالِهِ ، وَمِمَّا يَتَكَفَّلُ بِبِحَابِيَّتِهِ مِنْ حِزْبَةِ أَهْلِ بِلَادِهِ  
 وَخَرَجِ أَعْمَالِهِ ، عَلَى أَقْسَاطٍ كَذَا وَكَذَا - قِيَامًا لَا يُجُوجُ مَعَهُ إِلَى تَكَاثُفِ مُطَالَبَتِهِ ،  
 وَلَا إِلَى تَنَاوُلِهِ بِيَدِ مُغَالِبِهِ .

عَلَى أَنْ يَكْفِيَ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ عَنْهُ بَأْسَ بَأْسَاتِهِ ، وَخَيْلَهُ الْمُنْطَلَّةَ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِهِ  
 وَمَسَائِلِهِ ، وَيَضُمُّ عَنْ بِلَادِهِ أَطْرَافَ جُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنْ بَطَانَتِهِمْ  
 وَسِرَاعِيهِمْ ، وَيَمْنَعُ عَنْ بِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَابِعَةِ لِبِلَادِهِ ، وَالْمُرَاحِمَةَ لِدَوَاقِقِ أَمْدَادِهِ ،  
 وَيُرَدِّدُ عَنْهَا وَعَمَّنْ جَاوَرَهَا مِنْ بَقِيَّةِ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَهِيَ كَذَا وَكَذَا أَيْدِي النَّهْبِ ،  
 وَيُكْفِيَ الْغَارَاتِ وَيَمْنَعُ الْأَذْيِ ، وَيُرَدِّدُ مِنْ نَزْحٍ مِنْ رَعَايَا هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْهِ ،  
 مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيُقَرَّبُ بِالْكَلِمَتَيْنِ الْمُعْتَادَتَيْنِ ،  
 وَيُؤَمِّنُ جَلَابَةَ هَذَا الْمَلِكِ وَتُجَارَهُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي عَوَارِضِ  
 الْأَشْغَالِ ، وَلَا يَحْصَلُ عَلَيْهِمْ ضَرَرٌ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ ، وَإِنْ أَخَذَتِ الْمُتَجَرِّمَةُ مِنْهُمْ  
 مَالًا أَوْ قَتَلَتْ أَحَدًا ، أَمَرَ بِأَنْصَافِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَجَرِّمِ ، وَأَنْ يُؤَخَذَ بِحَقِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ  
 الْمُجْرِمِ . وَعَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ فِيمَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَفْسَحَ لِنَفْسِهِ

ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مُسَلِّمٍ مُتَنَصِّرٍ، ولا يرخصَ لذي عَمَى منهم  
ولا مُتَبَصِّرٍ .

وأنه كلما وردت إليه كتب مولانا السُّلْطَانِ فُلَانٍ أو كُتِبَ نُؤَايِهِ، أو أحد  
[من المتعلقين<sup>(١)</sup>] بأسبابه؛ يسارع إلى أمثاله والعمل به في وقته الحاضر ولا يؤخره  
ولا يمهله، ولا يطرحه ولا يمهله .

وعليه أن لا يكون عينا للكفار، على بلاد الإسلام وإن دنت به أو بعدت  
الدار، ولا يواطئ على مولانا السُّلْطَانِ فُلَانٍ أعداءه [وأولهم التتار<sup>(٢)</sup>] وأن يلتزم ما يلزمه  
من المُسَكَّةِ بالمسكته، ويفعل ما تسكت عنه به الأئمة وما أشبهها من الأئمة .  
وعليه أن ينهي ما يتجدد عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل ملته، ويُنَبِّه على  
سوء مقاصدهم، ويعرف ما يهيم سماعه من أحوال ما هم عليه .

هذه هدنة تم عليها الصلح إلى منتهى الأجل المعين فيه ما استمسك بشروطها،  
وقام بمخوفها، ووقف عند [حدّها الملتزم به<sup>(٣)</sup>]، وصرف إليها عنان اجتهاده وبنى  
عليها قواعد وفائده، وصان من التكدير فيها مرائر صفائه؛ سأل هر في هذه الهدنة  
المقرّرة، وأجابه مولانا السلطان إليها على شروطها المحرّرة، وشهد به الخضوع  
بالمملكتين وتضمّنته هذه الهدنة المسطّرة؛ وبالله التوفيق .

قلت: الظاهر أنه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والممالك  
الشامية، لمتملك سيس، فإن في خلال كلام المقرّ الشهابي بعد قوله: ولا يواطئ  
على مولانا السلطان فلان أعداءه: «وأولهم التتار»، وقد تقدّم في الكلام على الممالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .

(٢) » » (ص ١٦٩) ومما يأتي قريبا .

(٣) بيض له في الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن مملك سييس كان يمالئ التتار ويميل إليهم، ويساعدهم في حرب المسلمين ويكثر في سوادهم .



وعلى مثل ذلك يكتب لكل ملك مضعوف في مهادنة الملك القوى له .

وهذه نسخة هندية من هذا النمط، كتب بها أبو إسحق الصائبي، عن صمصام الدولة، بن عضد الدولة، بن ركن الدولة، بن بويه الديلمي، بأمر أمير المؤمنين الطائع لله، الخليفة العباسي ببغداد يومئذ، لوردس المعروف بسفلاروس ملك الروم، حين حيل بينه وبين بلاده، وأتمس أن يفرج له طريقه إلى بلاده، على شروط ألتزمها، وحضون يسامها، على ما سيأتي ذكره، وهي :

هذا كتاب من صمصام الدولة، وشمس الملّة، أبي كالجبار، بن عضد الدولة وتاج الملّة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين، كتبه لوردس ابن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم .

إنك سألت بسفارة أختينا وعدتنا، وصاحب جيشنا (أبي حرب ربار بن شهر اكويه) تأمل حالك في تطاول حبسك، واعتناقك عن مراجعة بلدك، وبذلت - متى أفرج عنك، وخلى طريقك، وأذن لك في الخروج إلى وطنك، والعود إلى مقر سلطانك - أن تكون أولينا وليا، ولعدونا عدوا، ولسلمنا سلما، ولحربنا حربا : من جميع الناس كلهم، على اختلاف أحوالهم وأديانهم، وأجناسهم وأجيالهم، ومقارهم وأوطانهم؛ فلا نصالح لنا ضدّا مبائنا، ولا تواطئ علينا عدوا مخالفا؛ وأن تكف عن تطرق الثغور والأعمال التي في أيدينا وأيدي الداخلين في طاعتنا : فلا تجهز إليها جيشنا، ولا تحاول لها غزوا؛ ولا تبدأ أهلها بمنازعة، ولا تشرع لهم في مقارعه، ولا تتاولهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة، ولا تقابلهم بأذية جلية ولا خفية؛ ولا تطابق لأحد من



ينوبُ عنك في قيادة جيوشك ، ومن ينسبُ إلى جُماعتك ، ويتصرفُ على إرادتك -  
 الاجترأ على شيءٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كلها ، وأن تُفرجَ عن جميع  
 المسلمين وأهل ذمّتهم الحاصلين في محاسن الروم ، ممن أحاطت بعنقه رِبْقَةُ الأثر ،  
 واشتملت عليه قبضةُ الحَصْرِ والقَمَر ، في قديم الأيام وحديثها ، وبعيد الأوقات  
 وقريبها ، المقيمين على أديانهم ، والمختارين للعودِ إلى أوطانهم ، وتنهضهم بما  
 ينهضُ به أمثالهم ، وتمكّتهم من البروزِ والمسيرِ بنفوسهم وحرّمهم وأولادهم وعيالاتهم  
 وأتباعهم ، وأصنافِ أموالهم ، موقُورين مضمُونين ، مُتبدِّرين مَحْرُوسين ، غير  
 ممنوعين ، ولا معوقين ، ولا مُطالبين بمشوّنةٍ ولا كُلفةٍ صغيرةٍ ولا كبيرةٍ .

وأن تُسلمَ تيمّةً سبعةً من الحُصُون ، وهي : حِصْنُ أرحكاه المعروف بحصن  
 الهندرس ، وحِصْنُ السناسنة ، وحِصْنُ حويب ، وحِصْنُ اكل ، وحِصْنُ انديب ،  
 وحِصْنُ حالي ، وحِصْنُ تل حرم ، برسائيقها ومزارعها إلى من نُكاتِك بتسليمها إليه ،  
 مع مَنْ بها من طبقات أهلها أجمعين ، المختارين لسكناها والاستقرارِ فيها ، بحرمهم  
 وأولادهم وأسبابهم ومواشيهم وأصنافِ أموالهم وغلاتهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم ،  
 ليكونَ جميعها حاصلاً في أيدينا وأيدي المسلمين ، على ظُبر الأيام والسنين ، من غير  
 أن تلمسَ عنها أو عن شيءٍ منها مالا ، ولا بدّلا ، ولا عوضاً من الأعواض كلها .  
 وعلى أنك تُمضي ما عقَدته على نفسك من ذلك كله باباً باباً ، وتفي به أولاً أولاً ،  
 مُنذ وقت وصولك إلى أوائل أعمالك ، وإلى غايةِ استيلائك عليها ، ونفادِ أمرِك  
 فيها ، ولا ترجعَ عن ذلك ولا عن بعضه ، ولا تُؤخِّر شيئاً منه عن الوقت الذي تقدر  
 فيه عليه ، ولا تُرخصَ لنفسك في تجاوزِ له ولا عدُولٍ عنه . ومتى سعت طائفةٌ من  
 الطوائف التي تُنسبُ إلى الروم والأرمن وغيرهم في أمرٍ يخالفُ شرائطَ هذا الكتاب ،

كان عليك منهم من ذلك إن كانوا من أهل الطاعة والتبؤل منك ، أو مجاهدتهم  
وممانعتهم إن كانوا من أهل العنود عنك ، والخلاف عليهم حتى تصرفهم عما يرومونه ،  
وتحول بينهم وبين ما يؤولونه ، بمشيئة الله وإذنه ، وتوفيقه وعونه .

وأشترطت علينا بعد الذي شرطته لنا من ذلك التخليّة عن طريقك وطريق من  
تضمّنته جملتك ، وأشتملت عليه رفقته : من طبقات الأصحاب والأتباع ، في جميع  
أعمالنا حتى تنفسد عنها إلى ما وراءها ، غير معوق ، ولا معتقل ، ولا مؤذى ،  
ولا معارض ، ولا مطالب بمشؤنة ولا كلفة ، ولا تمنوع من أتباع زائد ولا آله ،  
ولا تؤثر عليك أحدا نأواك في أعمالك ، ونازعك سلطان بلادك ، ودافعك عنه  
وناصبك العداوة فيه : ممن ينسب إلى الروم والأرمن والخزيرة وسائر الأمم المضادة  
لك ، ولا توقع معه صلحا عليك ، ولا موافقة على ما يمود بئلك أو قدح في أمرك ،  
ولا تقبل سؤال سائل ، ولا بذل باذل ، ولا رسالة مراسل فيما خالف شرائط هذا  
الكتاب أو عاد بإعلاله ، أو إعلال وثيقته من وثائقه .

ومتى وفد إلينا رسول من جهة أحد من أضدادك ، راغباً إلينا في شيء يخالف  
ما أنعقد بيننا وبينك - أمتنعنا من إجابته إلى ملتصقه ، ورددناه خائباً خالياً من  
طلبته . وإذا سلمت الحصون المقدم ذكرها إلى من نكتبك بالتسليم إليه ، كان لك  
علينا أن نقر من فيها وفي رسائيقها على نعمهم ومنازلهم وضياعهم وأملأكهم ،  
وأن لا نزيلاهم عنها ولا عن شيء منها ، ولا نحول بينهم وبين ما تحويه أيديهم من جميع  
أموالهم ، وأن نجريهم في المعاملات والحبايات على رؤسهم الجارية الماضية التي  
عوملوا عليها ، على مرّ السنين ، وإلى الوقت الذي يقع فيه التسليم ، من غير فسح  
ولا تغيير ولا تقض ولا تبديل .

فأتهينا إلى مولانا أمير المؤمنين الطائِع لله ما سألت وآتممت، وصممت وشرطت  
وأشترطت من ذلك كله؛ وأستأذناه في قبوله منك، وإيقاع المعاهدة عليه معك؛  
فأذن - أدام الله تمكينه - لنا فيه، وأمرنا بأن نُحكِّمه ونُضَيِّه؛ لما فيه من انتظام  
الأمور، وحياطة الثغور؛ وصلاح المسلمين، والتنفيس عن المأسورين .

فأمضيناه على شرائطه، وتراضينا جميعاً به، وعاهدناك عليه، وحلفت لنا باليمين المؤكدة  
التي يملف أهل شيربعتك بها، ويتخرجون من الحنث فيها على الوفاء به؛ وأشهدنا على  
نفسنا، وأشهدت على نفسك الله جل شأؤه، وملائكته المقربين، وأنبياء المرسلين،  
وأخانا وعدتنا أبا حرب رابر بن شهرا كويه مولى أمير المؤمنين، ومن حضر المجلس  
الذي جرى فيه ذلك، باستقرار جميعه بيننا وبينك، ولزومه لنا ولك .

ثم حضر بعد تمام هذه الموافقة واستمرارها، وثبوتها واستقرارها، قسطنطين  
أبن بينير أخو وردس بن بينير، وأرماتوس بن وردس بن بينير، فوقعوا على هذا  
الكتاب، وأحاطا به علماً، وأستوعباه معرفة، وشهدا على وردس بن بينير ملك الروم  
بإقراره به، والتميمه إياه . ثم تبرع كل واحد منهما بأن أوجب على نفسه أتمسك  
به والمقام عليه متى قام وردس بن بينير فيما هو موسوم به من ملك الروم، وجعل  
جميع الشرائط الثابتة في هذا الكتاب المعقود بعضها ببعض أمانة في ذمته، وطوقاً  
في عنقه، وعهداً يُسأل عنه، وحقاً يُطالب في الدنيا والآخرة به؛ وصار هذا العقد  
جامعاً لهم ولنا، ولأولادنا وأولادهم، وعقبنا وعقبهم؛ ماعشنا وعاشوا، يلزمنا  
وإياهم الوفاء بما فيه علينا وعليهم، ولنا ولهم، على مرور الليالي والأيام، واختلاف  
الأدوار والأعوام .

أمضى وأنفذ صمصام الدولة وشمس الملة أبو كاليبجار ذلك كله على شرائطه  
وحدوده، والتممه وردس بن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم، وأخوه

قُسْطَنطِينُ ، وابنه أرمَانُوسُ بن وردس بن بينير ، وصَمِنُوا الوَفَاءَ به ، وأشهدوا كلَّ واحدٍ منهم على نَفْسِهِم بِالرِّضَا به ، طَائِعِينَ غير مُكْرَهِينَ ولا مُجْبَرِينَ ، لا عِلَّةَ بِهِم من مَرِيضٍ ولا غَيْرِهِ ، بعد أن قرأه عليهم ، وفسره لهم وخاطبهم باللغة الرومية من وثق به ، وفهموا عنه ، وفهموا معنى لَفِظِهِ ، وأحاطوا عِلْمًا ومعرفةً به ، بعد أن ملكوا نَفْسَهُم ، وتصرفوا على اختيارهم ، وتمكَّنوا من إيتارهم ، ورأوا أن في ذلك حَظًّا لهم ، وصَالِحًا لِسَانِهِمْ ، وذلك في شعبان سنة ست وسبعين وثلاثمائة .

وقد كُتِبَ هذا الكِتَابُ على ثلاث نُسخٍ متساويات ، خُلِدَتْ اثنتان منها بدواوين مَدِينَةِ السَّلَامِ ، وسلمت الثالثة إلى وردس بن بينير ملك الروم وأخيه وابنه المذكورين معه فيه .



وهذه نُسخةٌ هُدِنَتْ من مَلِكٍ مضعوفٍ لِمَلِكِ قَوِيٍّ ، كُتِبَ بها الفقيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابن <sup>٣٣</sup> أَحَدُ كُتَّابِ الأَنْدَلُسِ ، عن بعض ملوك الأندلس من المسلمين ، من أتباع « المهدي بن تومرت » القائم بدعوة الموحدين ، مع « دون فرانده » صاحب قشتالة من ملوك الفرنج بعقد الصلح على مرسية من بلاد الأندلس ، وهي :

هذا عقْدنا بعد استخارة الله تعالى واسترشاده ، وأستعانته وأستنجاده ؛ نيابة عن الإمارة العلية بحكم استنادنا إلى أوامرها العالية ، وآرائها الهادية . عقْدناه - والله الموفق - لقشتالة مع فلان النائب في عقده معنا عن مرسله إلينا ، الملك الأجل الأسنى المبجل « دون فرانده » ملك قشتالة ، وطليطلة ، وقرطبة ، وليون ، وبلنسية - أدام الله كرامته وميزته بتقواه - حين وصلنا من قبله كتاب نخوم بطابعه المعلوم له المتعارف عنه ، تفويضًا منه إليه ، في كل ما يعقد له وعليه . وعاقدنا على أن يكون

السلم بيننا وبين مُرسِلِهِ المذكور لعامينِ آتئين ، أولها شهر المحرم الذي هو أول سنة تاريخ هذا الكتاب ، الموافق من الأشهر العجمية شهر كذا ، على جميع ما تحت نظرنا الآن من البلاد الراجعة إلى الدعوة المهدية - أسماها الله تعالى - حواضرها وتغورها ، مَوَاسِطِهَا وَأَطْرَافِهَا ، من جزيرة شقرا إلى بيرة والمنصورة وما يليها - حرس الله جميعها - سلمًا محافظًا عليها من الجهتين ، محفوظًا عهدًا عند أهل الملتين ، لا غدر فيها ، ولا إخلال في معنى من معانيها ، ولا تُسَنُّ في مُدْنِهَا غَارَهُ ، ولا تُدْعَرُ سَيَّارَهُ ، ومَهْمَا وقع اغوار ، أو حدث اقدار ، على جهة المجاهره ، إذا اتصت والمساتره ، فإن كان من جهة النصارى ، فعلى ملك قشتالة تسريح الأسارى ، ورد الغنائم والنهب ، والإنصاف من الغنيمة إن عُدِمَت العين ، وأعوز الطلب . وعلينا مثل ذلك سواء ، ليقابل بالوفاء ، هذا بعد أن يتبع الأمر ويعلم من أين كان .

ومن هذه المهادنة أن لا يتسبب إلى الحُصُونِ بِالْغَدْرِ ولا بالثَمَرِ ، ولا يتجاوز النصارى حدود بلادهم وأرضهم بشيء من البناء ، ولا يصل من بلد قشتالة مددًا مُحَايِفًا ، ولا معونةً لِمُفَاتِنِنَا . وكل ما يرجع إلى هذه الدعوة ، ويدخل في الطاعة من البلاد بعد هذا العقد فداخل في السلم ، بزيادة نسبه من المال الذي هو شرط في صحة هذا الحكم . وإذا بقي من مدة هذه المسألة شهران آتئين ، فعلى ملك قشتالة أن يعلمنا بقرضه في المهادنة أو سواها ، إعلامًا من مذاهب الوفاء أو ناهًا .

وقد آتَمَ رسولُ المذكور لنا هذه الشروط ، وأحكم معنا - نيابة عنه فيما - العقود والربوط ، على كل ما ذكرناه . وَاَلْتَمَنَّا فِي هَذَا السَّلْمِ لِمَلِكِ قَشْتَالَةَ الْمَذْكُورَةِ - مكافأة عن وفاء عهده ، وصحة عقده - مائة ألف دينار واحدة ، وأربعين ألف دينار في كل عام من عامي هذا الصلح المقدم الوصف ، مقسمًا ذلك على ثلاثة أجزء

في العام، ليتقاضاها ثقاته، ويوفى عيها على التمام والكامل، قبض منها كذا ليوصلها إلى مرسله، وألترم له تخليص باقي كذا عند اتقضاء كذا على أوفى وجه وأكله؛ فإن وقي له بذلك بعد الأربعين يوما المؤقتة، فالسلم باقية وحكمها ثابت، وإلا فالسلم مفسوخة ولا حكم لها إن عجز عن الوفاء له، بحصول ما بقي من الشروط في استصحاب الحكم واتصال العمل؛ إن شاء الله تعالى.

وعلى ما تضمنته هذا الكتاب أمضى فلان - أعزّه الله - بحكم النيابة، عن الأمر العالي - أسماء الله - هذا العقد الصلحي، وأشهد بما فيه على نفسه وحضرة المفصل طور (؟) المذكور، فترجم له الكتاب وبيئت له معانيه، وقرر على مضامينه، فالترم ذلك كله عن مرسله ملك قشالة حسب ما فوض إليه فيه؛ وأشهد بذلك على نفسه، في صحته وجواز أمره في كذا، والله الموفق لما يرضاه، ومقدم الخير والخيرة فيما قضاها، بمنته والسلام.

## المذهب الثاني

( أن تفتح المهادنة قبل لفظ «هذا» ببعدية )

وهذه نسخة هندية بين ما بين متكافئين دون تقرير شيء من الجانبين، كتبت بها الفقيه المحدث أبو الربيع بن سالم من كتاب الأندلس، في عقد صلح على بلنسية وغيرها من شرق الأندلس، وهي:

وبعد، فهذا كتاب موادة أمضى عقدها وألترمه، وأبرم عهدها وتممه؛ فلان لملد أرغون، وقومط برجلونة، ويرنسب مقت بشلي، حافظة (؟) بن بطرة، بن أدفونش، ابن ريموند، أدام الله كرامته بتقواه له خاتما وعنوانا، المعهود صدره في أمثاله من المراضات الصلحية تضرعا وإعلانا؛ متضمنا من الإحالة في عقيد المسألة

عليه، والتفويض في إبرام أسبابها والترام فصولها وأبوابها إليه؛ ما أوجب صحیح النظر، وصريح الرأي المعتبر؛ مقاربة فيه، وموافقة منه على ما يحفظ حق المسلمين ويوقيه، جنوحاً منه إلى ما جنح إليه من ذلك متقاضيه، وتحرياً للعمل على شاكلة الصواب والإيثار لما يقتضيه، بعد محاولات بلغ منها النظر غايته من الاجتهاد، وإراعات قرن بها من استخارة الله تعالى وأستنجاده ما رضى فيه من فضله العميم معهود التسديد والإنجاد؛ فأجلى ذلك عن إمضاء عهد السلم لملك أرغون على بلنسية وكافة جهاتها أطرافاً ومواسط، وتغوراً وبسائط؛ وكذلك شاطبة ودانية، وما ينتظم معهما من أحوازهما ويرجع إلى حكم بلنسية وحالها من الجهة النائية والدانية؛ لمدة عامين اثنين، تسميين متصلين، وأيام متصلة بهما كذلك. وهذا يحصر أمره، ويحقق عدده؛ أن نفتحه بيوم الأحد الرابع والعشرين لشهر نوبر، الموافق لعاشير ذى القعدة المؤرخ به هذا الكتاب، الذى هو من عام أحد وعشرين وستمائة بتاريخ الهجرة - مسالمة تصع بها الحرب بين الجانبين أوزارها، وتهدد للهدنة بين الطائفتين آثارها، وترفع اللبنة (?) عن ذكر من الملتين أذيتها وأضرارها؛ البر والبحر في ذلك سيان، والمساترة فيها بالأذى والمجاهرة ممنودان، وحقيقة الألازم من ذلك غنى بيبانه ووضوحه عن الإيضاح والتبيان؛ لا التباس ولا إشكال، ولا غائلة ولا احتيال؛ ليس إلا الأمن الكافل لكافة من تستمل عليه كافة المواضع المذكورة من المسلمين، ومن تحويه بلاد ملك أرغون من الطوائف أجمعين. وكل متم إلى خدمة هذه المملكة الأرغونية بما كان من وجوه الأتقاء، أو ناظر في جزء منها كائناً ما كان من الأجزاء؛ فهو في هذا الحكم داخل، وتحت هذا الربط الصلحي واصل؛ ولا محجة لمن كان له منهم حصن ينفرد به عن هذه المملكة، على ما لهم في ذلك من العوائد المتعارفة. فإن نقص بجزء منه وذهب إلى أن يكون في حصنه منفرداً فهو

وما أختار، إذا تنكَّب الإضرار؛ فإن رام التطرُق بِنْيءٍ إلى أحدِ الجانبين كان على المسلمين وعلى أهل أرغون التظافرُ على استنزاله، والتظاهرُ على قتاله، حتى يكفوا ضرره، ويعفوا أثره.

والحدودُ الفاصلةُ بين الجزأين هي أوساطُ المسافات، على ما عُرِف من مُتقدِّم المسلمات؛ ويدُكَلِّ قَرِيْقٍ منهم مُطلقَةً فيا وراءَ حدِّه بما شاء، من آتشاء برسم الإصلاح والانشاء؛ وكلٌّ من قصد المسلمين من رجال المملكة الأرغونية بريئاً من تبعَةِ الفساد فقبولُ قَصْدِهِ مُباح، وليس في آسْتِخْدَامِهِ والإحسانِ إليه جُنَاحٌ؛ والطريقُ للتجارِ المعهودِ وُصُولُهُمْ من بلادِ أرغونَ إلى بَلَدِ بَلَنْسِيَّةِ في البرِّ والبحرِ مُباحةُ الأنتيابِ، مَحْمُوفَةٌ بِالْأَمْنَةِ التامةِ في الحَيْثِيَّةِ والذَّهَابِ؛ وعلى تجارِ البحرِ منهم أن يجنبوا رُكُوبَ الأجنانِ الحَرَبِيَّةِ التي يُمكنُ بها الإضرارُ، وَيَسْتَعْفَى عَنِ التَّجَارِ<sup>(١)</sup>؛ والآسْتِرْهَابُ مَرْفُوعٌ عَنِ هَؤُلَاءِ الواصلين برسمِ التَّجَارَةِ على آخْتِلَافِهِمْ، وتَبَايُنِ أَصْنَانِهِمْ؛ فيما لم تجنِّه أَيْدِيهِمْ، ولا كان مَنْسُوباً إلى تَعَدِّيهِمْ؛ وكلُّ مُعْتَقِلٍ من الطائفتين بأذنِ شَيْءٍ يُطْرُقُ إلى حُكْمِ هَذِهِ السَّلْمِ خِلافًا، أو يُلْحِقُ بِعَهْدِهَا إِخْلَافًا؛ فعلى أهلِ مَوْضِعِهِ الإِنْصَافُ مِنْ جَنَاهُ، وَصَرْفُ مَاسَلَبَتِهِ يَدَاهُ، وإحضاره مع ذلك ليعاقبَ بما أتاه. وليس لأحدٍ من الطائفتين أن يتسبَّبَ بِآسْتِرْسَالِ، إلى الإِنْصَافِ من جنسيةِ حالٍ؛ بل يقومُ بِدَفْعِ ذَلِكَ حيثُ يُحِبُّ، ويطلبُهُ في المَوْضِعِ الذي ينبغِي فيه الطَّلَبُ؛ حتَّى يَخاطَبَ الناظِرُ على المملكةِ التي نُسِبَتْ لَهَا هذه الإِذايَةُ، وَصَدَرَتْ عَنِ أَهْلِهَا [تلك] الإِحْنايَةُ؛ يَطْلُبُ الإِنْصَافِ مِنْ عُدُوئِهَا، وتعادُ عليه الأَعْدَارُ في شَأْنِهَا؛ وعليه - ولا بُدَّ - التَّخْلِيسُ منها عملاً بالوفاةِ الذي يَجِبُ العَمَلُ بِهِ، وَقِيَامًا بِحَقِّ العَهْدِ الذي أُكِّدَ الأَعْتِاقُ بِسَبْبِهِ؛ ومتى غادرَ مَغادِرُ مِنْ أَحَدِ المِلَّتَيْنِ حِصْنًا مِنْ حُصُونِ

(١) بياض بالأصول ولعله « عن ركوها ».



الأخرى فله الأمن على الكمال، والرعى الحافظ للنفس والمال؛ حتى يلحق بمأمنيه، ويعود سالمًا إلى وطنه .

فعل هذه الشروط المحققة، والربوط الموثقة، انعقد هذا السلم، وعلى من ذكر من المسلمين وأهل أرغون الحكم؛ وهذا الكتاب ينطق في ذلك بالحق اللازم للطائفتين، ويعرب عن حقيقة ما انعقد بين من سُمي من أهل الملتين؛ وألتم كلفه عن ملك أرغون النائب عنه بتفويضه إليه، واستنابته إياه عليه؛ الزعيم بطره ابن فدايف بكدريش(?) على أتم وجوه الالتزام، وأبرم ذلك ملك أرغون بأوثق علائق الإبرام، وكل ذلك بعد أن بينت له الفصول المتقدمة غاية التبيين وأفهمها حق الإفهام؛ وألزم نفسه مع ذلك وصول كتاب هذا الملك الذي تولى النيابة عنه في هذا العقد، مصرحًا بالترامه وإمضائه فيه عمله، وفق ما تضمنه كتابه الذي أرسله، وأشهد مع ذلك زعماء دولته وكبراء القائمين عليه، تحقيقًا لمناه، وتوثيقًا لمبناه، إن شاء الله تعالى .

### النوع الثاني

(من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر - أن تكون الهدنة

من الجانبين جميعًا)

وفيهما للكتاب ثلاثة مذاهب :

### المذهب الأول

(أن تفتح الهدنة بلفظ : «هذه هدنة» ونحو ذلك)

قال في "التعريف" : وسبيل الكتابة فيها أن يكتب بعد البسملة : هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء عليه، وأجل له أجل ينتهي إليه؛ لما اقتضته المصلحة الجامعة، وحسبت به مواد

الآمال الطامعة ؛ تأكدت بينهما أسبابها ، وفتحت بهما أبوابها ؛ وعليهما عهد الله على الوفاء بشرطها ، والالتئام إلى أمدها ، ومدد حبل المودة إلى آخر مددها ؛ ضربا لها أجلا أوله ساعة تاريخه وإلى نهاية المدة ، وهي مدة كذا وكذا ؛ على أن كل واحد منهما يُعقد ببنه وبين صاحبه سيف الحرب ، ويكف ما بينهما من السهام الراشقة ، وتقل الرماح الخطارة ، وتقر على مرابطها الحبل المنيعة . وبلاد السلطان فلان كذا ، وبلاد السلطان فلان كذا ، وما في بلاد كل منهما من الثغور والأطراف والموانئ والرستاق والجهات والأعمال : برأ وبحرا ، وسهلا وجبلا ، ونائيا ودائيا ، ومن فيها : من مايكها المسمى وبنيه ، وأهله وأمواله ، وجنده وعساكره ، وخاص من يتعلق به وسائره ؛ ورداياه على اختلاف أنواعهم ، وعلى أنفراهم واجتماعهم ؛ البادية والحاضر ، والمقيم والسائر ، والتجار والسفارة ، وجميع المترددين من [سائر] الناس أجمعين . على أن يكون على فلان كذا و [على فلان] كذا<sup>(١)</sup> [ويعين ما يعين]<sup>(١)</sup> : من ما ، أو بلاد ، أو مساعدة في حرب ، أو غير ذلك ، يقوم بذلك لصاحبه ، وينهض من حقه المقرر بواجبه ؛ وعليهما الوفاء المؤكد الموثق ، والمحافظة على العهد والتمسك بسببه الوثيق - هدنة صحيحة صريحة ، نطقا بها ، وتصادقا عليها ، وعلى ما تضمنته المواصفة [المستوعبة بينهما فيها ، وأشهدا الله عليهما بضمونها ، وتوثقا على ديونها ، وشهد من حضر مقام كل منهما على هذه الهدنة وما تضمنته من المواصفه]<sup>(١)</sup> ، وجرت بينهما على حكم المناصفه ، رأيا فيها سُكون الجماع ، وذُض طرف الطامح .

وعلى أن على كل منهما رعاية ما جاوره من البلاد والرعية ، وحملهم في قضاياهم على الوجوه الشرعية ؛ ومن نزح من إحدى الملكتين إلى الأخرى أعيد ، وما أخذ منها باليد الغاصبية استُعيد ؛ وبهذا تم الإثهاد ، وقُرى على المسامح على رؤوس الأثهاد .

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٧٠ .

## المذهب الثاني

( أن تفتتح الهدنة : بلفظ : « استقرت الهدنة بين فلان وفلان »

ويقدم فيه ذكر الملك المسلم )

وعلى ذلك كانت الهدن تُكتب بين ملوك الديار المصرية ، وبين ملوك الفرنج ،  
المتغلبين على بعض البلاد الشامية .

وهذه نسخة هُدنة على هذا النمط : دون تقرير من الجانبين ، كتبت بين الملك  
الظاهر « بيبرس البندقدارى » صاحب الديار المصرية ، وبين الاسبتار<sup>(١)</sup> بحصن  
الأكراد والمرقب ، في رابع شهر رمضان سنة خمس وستين وثمانية ، وهى :

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين  
أبى الفتح « بيبرس » الصالحى النجمى ، وبين المقدم الكبير الهام فلان مقدم بيت  
الاسبتار الفلانى بعكا ، والبلاد الساحلية ، وبين فلان مقدم حصن الأكراد ، وبين  
فلان مقدم حصن المرقب ، وجميع الإخوة الاسبتار ، لمدة عشر سنين متوالية  
وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات : أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة  
خمس وستين وثمانية من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ،  
الموافق لليوم الثلاثين من أيام سنة ألف وخمسمائة وتسعة وسبعين سنة

للإسكندر بن فيلبس اليونانى - على أن جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية  
وبلاد الدعوة المباركة ، واقع عليها الاتفاق المبارك ، ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة  
بجميع حدود هذه الممالك المعروفة ، وبلادها الموصوفة ، وقراها وضياعها ، وسهولها  
وجبلها ، وعامرها وغازرها ، ومزرعوها ومعطيها ، وطرقاتها ومياها ، وقلاعها

(١) الاسبتار بتقديم الموحدة على التاء هو رئيس الطائفة الدينية المعروفة فى الكتب العربية بالاسبتارية .

(٢) يابض بالأصول .

وُحْصُونَهَا - عَلَى مَا يُفْصَلُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ، وَيُسْرَحُ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ لِلْمَدَّةِ الْمَعِينَةِ إِلَى آخِرِهَا .

وعلى أن المستقر بمملكة حمص المحروسة أن جميع المواضع والقرى والأراضي التي من نهر العاصي، وتغرب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفت : عامراً وداثراً، وبما فيها من الغلات صيفياً وشتوياً، والعداد وغيرها من الفوائد جميعها - تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدين والدين أبي الفتح «بيبرس»، والنصف لبيت الأسيبار .

وعلى أن كلاً من الجهتين يمتهد ويحرض في عمارة بلد المناصفت المذكورة بجهده وطاقته، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواب، أو من التركان، أو من العرب، أو من الأكراد، أو من غيرهم، أو الفئاة - كان عليهم العداد بحارى العادة . ويكون النصف للسلطان، والنصف لبيت الأسيبار .

وعلى أن الملك الظاهر ينجي بلد المناصفت المقدم ذكرها من جميع عسكره وأتباعه، ويمن هو في حكمه وطاعته، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة . وكذلك مقدم بيت الأسيبار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه الهدنة .

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصي مغرباً لرعي دوابه : سواء أقام أو لم يقم، كان عليه العداد سوى قناة البلد ودوابه، ومن يخرج من مدينة حمص ويعود إليها، ومن غرب منهم ومات كان عليه العداد .

وعلى أن يكون أمر فلاحى بلد المناصفت في الحبس والإطلاق والحماية راجعاً إلى نائب مولانا السلطان، باتفاق من نائب بيت الأسيبار، على أن يحكم فيه بشريعة الإسلام إن كان مسلماً، وإن كان نصرانياً يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الأكراد .

وأن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفت جميعها مُطلقين من السُخْرِ من  
الجانين .

وعلى أن المَلِك الظاهر لا يأخذ في بَلَد المناصفت المذكورة : من تُركانٍ ولا عَرَبٍ  
ولا أَكْرَادٍ ولا غَيْرِهِمْ عِدَادًا ولا حَقًّا من حقوق بَلَد المناصفت ، إلا ويكونُ النَّصْفُ  
منه لِلْمَلِك الظاهر ، والنَّصْفُ الآخَرُ لِبَيْتِ الأَسْبِتَار .

وعلى أن المَلِك الظاهر لا يتقدَّم بمنع أَحَدٍ من الفلَّاحين المعروفين بِسُكْنَى بلاد  
المناصفت من الرجوع إليها ، والسُّكْنَى فيها إذا آخَرُوا العودَ . وكذلك بَيْتُ الأَسْبِتَار  
لا يمنعون أَحَدًا من الفلَّاحين المعروفين بِسُكْنَى بلاد المناصفت من الرجوع إليها  
والسُّكْنَى فيها إذا آخَرُوا العودَ .

وعلى أن المَلِك الظاهر لا يمنع أَحَدًا من العُرَبَانِ والتُّركانِ وغيرهم : مَن يُودَى  
العِدَاد ، من الدُّخُولِ إلى بَلَد المناصفت ، إلا أن يكونَ مُحَارِبًا لِبَعْضِ الفَرَجِ الداخليين  
في هذه الهدنة ، فله المنع من ذلك . وأن تكونَ خُشَارَاتُ المَلِك الظاهر وخُشَارَاتُ  
عساكِرِهِ وَعِلمَانُهُمْ وأهلُ بَلَدِهِ تَرعى في بلد المناصفت آمِنَةً من الفَرَجِ والنَّصارَى  
كافةً . وكذلك خُشَارَاتُ بَيْتِ الأَسْبِتَارِ وخُشَارَاتُ عَسَاكِرِهِمْ وَعِلمَانِهِمْ وأهلُ بَلَدِهِمْ  
تَرعى آمِنَةً من المسلمين كافةً في بَلَد المناصفت . وعند خروج الخُشَارَاتِ من المَرَاعَى  
وتَسْلِيمِهَا لأصحابها ، لا يُؤخذُ فيها حَقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُعارضُ من الجهتين .

وعلى أن تكونَ مِصِيدَةُ السَّمِكِ الرُّومِيَّةِ مهما تحصَّلَ منها ، يكونُ النَّصْفُ منه  
لِلْمَلِكِ الظاهرِ والنَّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْبِتَار . وكذلك المَصَايِدُ التي في الشَّطِّ العَرَبِيِّ من  
العاصَى يكونُ النَّصْفُ منه لِلْمَلِكِ الظاهرِ والنَّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْبِتَار . ويكونُ لِبَيْتِ  
الأَسْبِتَارِ في كُلِّ سنةٍ نِمْسُونَ دِينَارًا صُورِيَّةً عن القَشَنِ ، ويكونُ القَشَنِ جميعه لِلْمَلِكِ  
الظاهر يتصرفُ نَوَابِه فيه على حَسَبِ اختيارهم . ويكونُ اللِّينُوفُ مَناصفَةً : النَّصْفُ

منه للملك الظاهر والنصف لبيت الاستبار . وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف  
بإنشاء بيت الاستبار، الذي كان حصل الحرب فيه، والبستان الذي هناك المعروف  
بإنشاء بيت الاستبار أيضا يكون مناصفة . وأن يكون متولى أمرهما نائب من جهة  
نواب السلطان ونائب من جهة بيت الاستبار ، يتولى أمرهما والتصرف فيهما  
وقبض مخصصهما . وتقرر أن منهما يجمده بيت الاستبار على الماء الذي تدور به  
الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك ، يكون مناصفة بين الملك  
الظاهر وبين بيت الاستبار .

وأما المستقر بمملكة شير المحروسة ، فهي شير ، وأبو قيس وأعماله ، وعيناب  
وأعمالها ، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الاستبار وأعمالها ، وجميع  
أعمال المملكة الكسرية والبلاد المذكورة بخدودها المعروفة بها ، وقراها المستقرة  
بها ، وسماتها وجبلها وعامرها وظامرها .

وما استقر بمملكة الملك المنصور ، ناصر الدين « محمد » بن الملك مظفر أبي الفتح  
« محمود » بن الملك المنصور « محمد » بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهي : حماة  
المحروسة وقلاعها ومدنها ، والمعرة وقراها وسماتها وجبلها وأنهارها ، ومانعها وثمارها  
وعامرها وظامرها ، وبلاد رقيبة وبلاد بارين بخدودها وتقومها وعامرها ودائرها  
وجميع من فيها وما فيها - على أن الملك المنصور لا يرخص للتركان ولا للعرب أن  
ينزلوا بلاد رقيبة وبارين سوى ثلاثين بيتا يحملون الغلة لقلعة بارين ، وإن أرادوا  
الزيادة يكون بمراجعة الإخوة الاستبارية والاتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنه إن تعدى أحد من أصحابه بأذية ، أو تعدى أحد من الفرنجة في بلاده  
بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما ، فإن أنكشفت الأبخذة ،

أعيدت . وإلا تُحْلَفُ الجِهَةُ المدْعَى عليها أنها ما علمت وما أحست ، وكما لهم ،  
كذلك عليهم .

والمستقر لملكة الصاحبين : نجم الدين وجمال الدين ، والأمير صارم الدين ناجي  
الدعوة المباركة ، وولد الصاحب رضى الدين ، وهى : مضياف والرصافة وجميع  
قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعرها ودامرها ودائرها ، ومدنها وبلادها ،  
وضياعها وطرقاتها ، ومياها ومنايعها ، وجميع بلاد الإسماعيلية بجبل بئرا واللكام ،  
وكل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة وتحوها - أن يكون الجميع آمنين من على  
الرصيف الذى بسيزر إلى نهاية الأراضى التى بحصون الدعوة وبلادها . وحماية  
القرية المعروفة بعرطار (؟) يكون له أسوة الإسماعيلية . وإن علم الأصحاب أن أحدا  
من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الاسبتار لأذية ، أعلموا بيت الاسبتار قبل أن تجرى  
أذية ، وما لم يعلموا به عليهم اليمين أنهم ما علموا به ، وإن لم يحلفوا يردوا الأذية  
التي تجرى .

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الاسبتار راحين وغادين ومتصرفين فى بيعهم  
وشراهم ، مطمئنين لا يتعدى أحد عليهم . وكذلك جميع فلاحى بلاد الإسماعيلية  
لا يتعدى أحد عليهم ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين فى جميع بلاد الاسبتارية ، وإن  
تعدى أحد من الجهتين فى سوق أو طريق ، فى ليل أو نهار ، تكون المهلة خمسة عشر  
يوما ، فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا الخير بينهم ، ومن توجهت عليه اليمين  
حلف ، ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية . وتكون الضيعة التى رهنها عبد المسيح  
رئيس المرقب الاسبتار ، وهى المشيخة تكون آمنة إن كان الحال آسستقر عليها إلى  
أخروقت عند كتابة هذه الهدنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم . ويجمل الأمر  
فى الحقوق .

ويبطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبثت الاستتار على حماية مصياف والرصافة، وهو في كل سنة ألف ومائتا دينار قومصية، ونمسون مئدا حنطة، ونمسون مئدا شعيرا، ولا تبقى قطعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض بيت الاستتار ولا نوابهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد، ولا منكسر ولا ماض، ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه .

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مطلقة مما يختص بالمملكة المحصية، يسترزيق بها الصعاليك . وأن نواب الملك الظاهر يمحونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة، وأن نواب بيت الاستتار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من النصاري والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة . ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في [هذه] الهدنة [إلى بلاد الاستتارية] بأذية ولا إغارة، ولا يتعرض أحد من جميع الفرنج من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بحدودها الجارية في يد نواب الاستتار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة .

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصقات أحد ممن يجب عليه العداد وأمتنع من ذلك، وكان عداد إحدى الجهتين حاضرا : إما عداد ديوان الملك الظاهر، وإما عداد بيت الاستتار، فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص الممتنع عن العداد أو الخارج من بلاد المناصقات رهنا بمقدار ما يجب عليه من العداد، بحضور رئيس من رؤساء بلاد المناصقات، ويترك الرهن عند الرئيس وديعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد .

وإن خرج أحد ممن يجب عليه العداد، وتجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه : فإن دخل بلدا من بلاد الملك الظاهر، كان على النواب إيصال بيت الاستتار إلى حقه



مما يجب على الخارج من العدا . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاستتار، كان عليهم أن يوصلوا إلى ثواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العدا . وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفراء والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية ، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، يحميهم السلطان وثوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات - من جميع المسلمين . ويحميهم بيت الاستتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه ، وبلاد المناصفات ، وخاص بيت الاستتار والمناصفات ، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ، تحمي كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . لا يكون عداً على ما لها في المناصفات : من الدواب والغنم والبقر والحمال وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرؤساء يكون باتفاق من الجهتين : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أعيدت على صاحبها ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة

نَقَرِ مِمَّنْ يَخْتَارُهُمْ صَاحِبُ الدَّعْوَى عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَوَّضَ عَنْهَا أُعِيدَ الْعَوَضُ .

وَعَلَى أَنْ يَكْتَشِفُوا عَنِ الْأَخِيذَةِ بِجُهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ . وَمَتَى تَحَقَّقَتْ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا ؛ فَإِنْ حَلَفُوا بِرِءٍ مِنْ الدَّعْوَى ، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ عَلَى صَاحِبِهَا ، وَإِنْ آمَنَعَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ مِنَ الْيَمِينِ حَلَفَ الْمُدَّعَى ، وَلَا يَسْتَحِقُّ عَوَضَ مَا عَدِمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلِهِ . وَكَذَلِكَ يَجْرَى الْأَمْرُ فِي الْقَتْلِ : عَوَضُ الْفَارِسِ فَارِسٌ ، وَعَوَضُ الرَّاجِلِ رَاجِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَرَكِلِ بَرَكِلٌ ، وَعَوَضُ التَّسَاحِرِ تَاحِرٌ ، وَعَوَضُ الْفَلَاحِ فَلَاحٌ . وَإِذَا آتَقَضَتِ الْأَرْبَعُونَ يَوْمًا الْمَذْكُورَةَ لَكَشِفِ الدَّعْوَى وَلَمْ يَحْلِفِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ لِلدَّعَى وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَوَضُ حَتَّى يَرُدَّ، وَإِنْ رَدَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَلَمْ يَحْلِفِ صَاحِبُ الدَّعْوَى بَطَلَتْ دَعْوَاهُ وَحُكِّمَتْهَا ، وَإِنْ حَلَفَ أَخَذَ الْعَوَضُ .

وَمَتَى هَرَبَ مِنْ أَحَدِي الْجَاهِلِيَّيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أَحَدٌ ، وَمَعَهُ مَالٌ لغيره أُعِيدَ جَمِيعُ مَالِهِ ، وَكَانَ الْمَهَارِبُ تَحْيَرًا بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْعُودِ . وَإِنْ هَرَبَ عَبْدٌ وَخَرَجَ عَنْ دِينِهِ ، أُعِيدَ ثَمَنُهُ ، وَإِنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى دِينِهِ أُعِيدَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنَ الْقَاطِنِينَ فِي بَلَدِ الْمُنَاصِفَاتِ : مِنَ الْفَلَاحِينَ وَالْعَرَبِ وَالتَّرِكَانِ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَالنَّصَارَى كَافَّةً لِإِغَارَةِ وَلَا أُذْيَةِ بَعْلِمِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبِلَادِ مُعَاهِدِيهِ ، [ وَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ ] بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لِإِغَارَةٍ وَلَا أُذْيَةٍ بَعْلِمِ بَيْتِ الْإِسْبَتَارِ وَلَا رِضَاهُمْ وَلَا إِذْنِهِمْ .

وَعَلَى أَنَّ الدَّعَاوَى الْمُتَقَدِّمَةَ عَلَى هَذَا الصُّلْحِ يَحْمَلُ أَمْرُهَا عَلَى شَرْطِ الْمُوَاصَفَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبَيْنَ مُعَاهِدِيهِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْإِسْبَتَارِ .

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ «وَيَسْتَحِقُّ» كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تُنقض بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مُقَدِّم، إلى آخر المدة المذكورة، وهي : عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يتركون أحدا من التركان، ولا من العربان، ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصقات بغير اتفاق من بيت الاسبتار أو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة، ويعلموا حاله، لئلا تبدؤ منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصقات وبيلد النصارى . ولنواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الاسبتار في غد نزولهم المكان، إن كان المكان قريبا . وإن ظهر منهم فساد كان النواب يجاوبون بيت الاسبتار . وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصقات، والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدن، وما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تحلى أمور المملكة المحصية على ما كان مستقرا في الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين «سنجر» .

هذا ما وقع الاتفاق والتراضى عليه من الجهتين . وبذلك جرى القلم الشريف السلطاني الملكي الظاهري : حجة بمقتضاه، وتأكيده لما شرح أعلاه . كُتِبَ في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هُدنة من هذا النمط، عُقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» أيضا، وبين ملكة بيروت من البلاد الشامية، في شهر سنة سبع وستين وستمائة حين كانت بيدها، وهي :

آسْتَقَرَّتْ الْهُدْنَةُ الْمُبَارَكَةُ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْنِ الدِّينِ «بَيْرِس» وَبَيْنَ  
 الْمَلِكَةِ الْجَلِيلَةِ الْمُصَوَّنَةِ الْفَاحِرَةِ ، فَلَانَةُ أَيْسَةَ فَلَانٍ ، مَالِكَةِ بَيْرُوتَ وَجَمِيعِ جِبَالِهَا  
 وَبِلَادِهَا التَّحْتِيَّةِ مَدَّةَ عَشْرِ سِنِينَ مُتَوَالِيَةً ، أَوَّلَهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ سَادِسُ رَمَضَانَ سَنَةِ  
 سَبْعِ وَسِتِينَ وَسِتْمِائَةِ الْمَوْافِقِ لِتِسْعِ إِيارِ سَنَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ يُونَانِيَّةً -  
 عَلَى بَيْرُوتَ وَأَعْمَالِهَا الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، الْجَارِي عَادَتُهُمْ فِي التَّصَرُّفِ فِيهَا فِي أَيَّامِ الْمَلِكِ  
 الْعَادِلِ ، أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوبَ ، وَأَيَّامِ وَلَدِهِ الْمَلِكِ الْمُعْظَمِ عَيْسَى ، وَأَيَّامِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ  
 صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ . وَالْقَاعِدَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ فِي زَمَنِهِمْ إِلَى آخِرِ الْأَيَّامِ  
 الظَّاهِرِيَّةِ ، بِمَقْتَضَى الْهُدْنَةِ الظَّاهِرِيَّةِ . وَذَلِكَ مَدِينَةُ بَيْرُوتَ وَأَمَّا كُنْهَا الْمُضَافَةُ إِلَيْهَا :  
 مِنْ حَدِّ جُبَيْلٍ إِلَى حَدِّ صَيْدَا ، وَهِيَ الْمَوَاضِعُ الْآتِي ذِكْرُهَا : جُونِيَّةٌ بِحُدُودِهَا ، وَالْعَذَبُ  
 بِحُدُودِهَا ، وَالْعَصْفُورِيَّةُ بِحُدُودِهَا ، وَالرَّاوُوقُ بِحُدُودِهَا ، وَسِنَّ الْفَيْلُ بِحُدُودِهَا ، وَالرَّحُ  
 وَالشُّوَيْفُ بِحُدُودِهَا ، وَانْطِلِاسُ بِحُدُودِهَا ، وَالْحَدِيدَةُ بِحُدُودِهَا ، وَحَسُوسُ بِحُدُودِهَا ،  
 وَالْبَشْرِيَّةُ بِحُدُودِهَا ، وَالذِّكْوَانَةُ وَبَرْجُ قَرَايَا بِحُدُودِهَا ، وَقَرِينَةُ بِحُدُودِهَا ، وَالنَّصْرَانِيَّةُ  
 بِحُدُودِهَا ، وَجَلْدَا بِحُدُودِهَا ، وَالنَّاعِمَةُ بِحُدُودِهَا ، وَرَأْسُ الْفَيْقِ ، وَالْوَطَاءُ الْمَعْرُوفُ  
 بِمَدِينَةِ بَيْرُوتَ ، وَجَمِيعُ مَا فِي هَذِهِ الْأَمَاكِينِ مِنَ الرِّعَايَا وَالتَّجَارِ ، وَمَنْ سَائِرِ أَصْنَافِ  
 النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَالصَّادِرِينَ مِنْهَا وَالوَارِدِينَ إِلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ النَّاسِ ، وَالْمُتَرَدِّدِينَ  
 إِلَى بِلَادِ السُّلْطَانِ فَلَانٍ ، وَهِيَ : الْحَمِيرَةُ وَأَعْمَالُهَا وَقِلَاعُهَا وَبِلَادُهَا وَكُلُّ مَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِهَا ،  
 وَالْمَمْلُكَةُ الْأَنْطَاكِيَّةُ وَقِلَاعُهَا وَبِلَادُهَا ، وَجَبَلَةُ وَاللَّادِقِيَّةُ وَقِلَاعُهَا وَبِلَادُهَا ، وَحِمُصُ  
 الْحُرُوسَةُ وَقِلَاعُهَا وَبِلَادُهَا وَمَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِهَا ، وَمَمْلَكَةُ حِصْنِ عَكَّا وَمَا هُوَ مَنْسُوبٌ  
 إِلَيْهَا ، وَالْمَمْلُكَةُ الْحَمَوِيَّةُ وَقِلَاعُهَا وَبِلَادُهَا وَمَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِهَا ، وَالْمَمْلُكَةُ الرَّحْبِيَّةُ وَمَا هُوَ  
 مُخْتَصٌّ بِهَا : مِنْ قِلَاعِهَا وَبِلَادِهَا ، وَالْمَمْلُكَةُ الْبَعْلَبَكِيَّةُ وَمَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِهَا : مِنْ قِلَاعِهَا  
 وَبِلَادِهَا ، وَالْمَمْلُكَةُ الدَّمَشَقِيَّةُ وَمَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِهَا : مِنْ قِلَاعِهَا وَبِلَادِهَا وَرِعَايَاهَا

وممالكها، والمملكة الشَّقِيفِيَّة وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة  
 القُدْسِيَّة وما يختص بها، والمملكة الحَلِيَّة وما يختص بها، والمملكة الكَرَكِيَّة والشَّوْبَكِيَّة  
 وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النَّابُلُسِيَّة، والمملكة الصَّرْحَدِيَّة،  
 ومملكة الدِّيَارِ المِصْرِيَّة جميعها : بئُورها، وحُصُونها، وممالكها، وبلادها،  
 وسواحلها، وبرها، وبحرها، ورعاياها، وما يختص بها، والسَّاكِنِينَ في جميع هذه  
 الممالك : المذكورة وما لم يذكر من ممالك السُّلْطَانِ وبلادها، وما سيفتحه اللهُ تعالى  
 على يده ويَدِ تَوَاهِيهِ وَغَلْمَانِهِ يَكُونُ دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْمُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَمُنْتَظَمًا فِي جُمْلَةِ  
 شُرُوطِهَا، وَيَكُونُ جَمِيعُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَإِلَيْهَا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى نَفْسِهِمْ  
 وَأَمْوَالِهِمْ وَبِضَائِعِهِمْ، مِنَ الْمَلِكَةِ فَلَانَةَ وَغَلْمَانِهَا، وَجَمِيعٍ مِنْ هُوَ فِي حُكْمِهَا وَطَاعَتِهَا :  
 بَرًّا وَبِحَرًّا، لَيْلًا وَنَهَارًا، وَمِنْ مَرَائِكِهَا وَشَوَانِيهَا . وَكَذَلِكَ رِعِيَّةُ الْمَلِكَةِ فَلَانَةَ وَغَلْمَانِهَا  
 يَكُونُونَ آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَبِضَائِعِهِمْ مِنَ السُّلْطَانِ وَمِنْ جَمِيعِ تَوَاهِيهِ وَغَلْمَانِهِ  
 وَمَنْ هُوَ تَحْتَ حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ : بَرًّا وَبِحَرًّا، لَيْلًا وَنَهَارًا : فِي جَبَلَةٍ، وَاللَّادِقِيَّةِ،  
 وَجَمِيعِ بِلَادِ السُّلْطَانِ، وَمِنْ مَرَائِكِهِ وَشَوَانِيهِ .

وعلى أن لا يُحَدِّدَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ التُّجَّارِ الْمُتَرَدِّدِينَ رَسْمٌ لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةٌ، بَلْ يُجْرَوْنَ  
 عَلَى الْعَوَائِدِ الْمُسْتَمِرَّةِ، وَالقَوَاعِدِ الْمُسْتَقَرَّةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَإِنْ عُدِمَ لِأَحَدٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ  
 مَالٌ، أَوْ أُخِذَتْ أُخِيذَةٌ، وَصَحَّتْ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى رُدَّتْ إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً،  
 أَوْ قِيمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً . وَإِنْ خَفِيَ أَمْرُهَا كَانَتْ الْمُدَّةُ لِلْكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا،  
 فَإِنْ وُجِدَتْ رُدَّتْ، وَإِنْ لَمْ تَوْجَدْ حَلْفَ الْوَالِي تِلْكَ الْوَالِيَةِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، وَحَلْفَ  
 ثَلَاثَةَ نَفَرٍ مِمَّنْ يَخْتَارُهُمُ الْمُدَّعَى، وَبَرَّتْ جِهَتُهُ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَى . فَإِنْ أَبَى الْمُدَّعَى  
 عَلَيْهِ عَنِ الْيَمِينِ حَلْفَ الْوَالِي الْمُدَّعَى، وَأَخَذَ مَا يَدَّعِيهِ . وَإِنْ قُتِلَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ  
 خَطًّا كَانَ أَوْ عَمْدًا، كَانَ عَلَى الْقَاتِلِ فِي جِهَتِهِ الْعِوَضُ عَنْهُ نَظِيرُهُ : فَارِسُ بَفَارِسَ،

وَبَرِيكُلُ بَيْرِيكِلِ ، وَرَاجِلُ بَرَايِلِ ، وَفَلَّاحُ بَفَلَّاحِ . وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبِينَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمَالٍ لغيره ، رَدَّ مِنَ الْجِهَتَيْنِ هُوَ وَالْمَالُ ، وَلَا يُعْتَدَرُ بَعْدُ .

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلًا في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلًا في هذه الهدنة .

وعلى أن المملكة فلانة لا تمكن أحدًا من الفرنج على اختلافهم من قصيد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين : لا ينقضها مرور زمان ، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ، ولا تنقض بموت أحد من الجانبين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يومًا ، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره ، وبذلك سبل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيما ، والله الموفق ، في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدنة عقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» وولده الملك السعيد ، وبين الفرنج الاسبتارية ، على قلعة لُدَّ بالشام ، في سنة تسع وستين وستمائة ، وهي :  
استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس الصالح» قسيم أمير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين «محمد برکه خاقان» خليل أمير المؤمنين ، وبين المباشر المقدم الجليل افريز اولدكال مقدم جميع بيت اسبتار سرجوان بالبلاد الساحلية ، وبين جميع الإخوة الاسبتارية ، لمدة عشر سنين

كوايل متواليات متتابعات، وعشرة أشهر، أولها مُستهل رمضان سنة تسع وستين  
 وثمانية للهجرة النبوية المحمدية، الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة  
 وأثنين وثمانين للإسكندر بن فيلبس اليوناني - على أن تكون قلعة لُد بكالها  
 وربضها وأعمالها، وما هو منسوب إليها ومحسوب منها، بحدودها المعروفة بها من  
 تقدم الزمان، وما استقر لها الآن، وما يتعلق بذلك: من المواضع، والمصايد،  
 والملاحات، والبساتين، والمعاصر، والطواحين، والجزائر: سبها وجبها،  
 وعامرها، وذائرها، وما يجري بها من أنهار، ويتبع بها من عيون، وما هو مبنى بها  
 من عمائر، وما استجدت بها من القراج وغير ذلك؛ وكل ما عمّر في أراضي المناصفت  
 على دورها وأنهارها، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال، وما استقر  
 لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة  
 لها، وحسن برغن وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياح والقرى التي كانت  
 مناصفة - تكون جميع بلدة وهذه الجهات خاصا إلى آخر الزائد لللك الظاهر،  
 ولا يكون لبنت الاسبتار ولا للرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين  
 انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرنجة فيها تعلق  
 ولا طلب بوجه ولا سبب .

وكذلك مهما كان مناصفة، كقلعة العليقة في بلادها لبنت الاسبتار، يكون  
 ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف، ولا يكون للرقب فيها شيء  
 ولا لبنت الاسبتار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى - لا تكون  
 فيها مناصفة لبنت الاسبتار ولا للرقب، ولا حق، ولا رسم، ولا شرط، ولا طلب

في جميع بلاد الدَّعْوَة : مِصْيَافِ المَحْرُوسَة ، وَالكَهْفِ ، وَالْمِنْقَسَةِ ، وَالْقُدْمُوسِ ،  
وَالْحَوَائِي ، وَالرُّصَافَةَ ، وَالْعَلِيقَةَ . وَكُلُّ مَا هُوَ فِي هَذِهِ الْفِلاَحِ وَفِي بِلَادِهَا مِنْ مُنَاصَفَةٍ ،  
يَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، وَلَيْسَ لِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ وَلَا الْفَرَنْجَةِ فِيهِ حَدِيثٌ  
وَلَا طَلَبٌ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَرْقَبِ وَحُدُودُهَا مِنْ نَهْرٍ لَدَى مَقْبَلًا وَمَغْرِبًا إِلَى حُدُودِ بِلَادِ  
مَرْقَبَةَ الْمَعْرُوفَةِ بِهَا ، الدَّاخِلِ جَمِيعُهَا فِي الْفُتُوحِ الشَّرِيفِ ، وَأَسْتَقْرَارِهَا بِحُكْمِ ذَلِكَ  
فِي الْخَاصِّ الْمُبَارِكِ الشَّرِيفِ ، وَحَدِّ الْبُيُوتِ الْمُحَاذِيَةِ لِسُورِ الرَّبِضِ ، تَسْتَقِرُّ جَمِيعُهَا  
مُنَاصَفَةً بَيْنَ السُّلْطَانِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ نِصْفَيْنِ بِالسُّوِيَّةِ ، وَمَا فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ :  
مِنْ بَسَاتِينِ ، وَطَوَاحِينِ ، وَعِمَائِرٍ ، وَمَصَايِدَ ، وَمَلَاحَاتِ ، وَوُجُوهِ الْعَيْنِ ، وَالْمُسْتَقْلَلَاتِ  
الصَّيْفِيَّةِ وَالشُّبُوبَةِ ، وَالْقَطَانِي ، وَالْحُقُوقِ الْمُسْتَخْرَجَةِ ، وَمَا هُوَ مَزْرُوعٌ مِنَ الْفَدَنِ  
لِأَهْلِ الرَّبِضِ وَبِيَادِرِهَا : يَكُونُ ذَلِكَ مُنَاصَفَةً بَيْنَ السُّلْطَانِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ  
سَرَجَوَانَ بِالسُّوِيَّةِ نِصْفَيْنِ .

وَمَا هُوَ دَاخِلُ الرَّبِضِ وَدَاخِلُ الْمَرْقَبِ ، فَإِنَّهُ مُطْلَقٌ مِنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ لِمَقْدَمِ  
الْكَبِيرِ أَفْرِيزِ أَوْلَادِ كَالِ مَقْدَمِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ سَرَجَوَانَ وَخِيَالَتِهِ ، وَرِجَالِهِ وَحَمَّالَتِهِ  
وَرَجَالَتِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، بِرِسْمِ إِقَامَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ مِنْ دَاخِلِ الْأَسْوَارِ ، وَعَنْ سُورِ الرَّبِضِ  
الْمُحَاذِيَةِ لِسُورِ تَكُونُ مُنَاصَفَةً جَمِيعُهَا ، بِمَا فِيهِ مِنْ حَقُوقِ طُرُقَاتِ وَأَحْكَارِ ،  
وَمَرَاعِي الْمَوَاشِي عَلَى آخْتِلَافِ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا ، وَجَمِيعِ السَّخْرِيَّاتِ ، وَكُلِّ أَرْضِ  
مَزْرُوعَةٍ أَوْ غَيْرِ مَزْرُوعَةٍ مَهْمَا أُخِذَ مِنْهُ مِنْ حَقٍّ أَوْ عِدَادٍ يَكُونُ مُنَاصَفَةً .

وَكُلُّ مَا هُوَ مِنَ الْمَوَانِي وَالْمَرَاسِي الْبَحْرِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ جَمِيعُهَا بِحِصْنِ الْمَرْقَبِ : مِنْ  
مِينَاءِ بَلْدَةِ إِلَى مِينَاءِ الْقَنْطَرَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِحُدُودِ مَرْقَبَةَ - تَكُونُ هِيَ وَمَا يَتَحَصَّلُ مِنْهَا مِنْ



الحقوقِ المُستخرجة من الصادرين والواردين والتجار ، وما ينعقد عليه ارتفاعها ،  
وتشهد به الحسابات - جميعه مناصفة . وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع  
على اختلافها يؤخذ الحق [منه] مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من  
حين أخذ بيت الأستبار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة  
الجارية ، بل تجرى التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يحضرونها والمتجر  
كائنا من كان .

يعتمد ذلك في كل ما يصل للتردد والمقيمين بالقعة والريص : من عامة وغير  
عامة ، وخیالة وغير خیالة ، على اختلاف أجناسهم ، خلا ما يصل للإخوة ولعلمائهم  
المعروفين بالإخوة الأستبارية من الحبوب والمثونة والكسوة والحيل التي هي برسم  
رؤسهم خاصة ، لا يكون عليها حق ، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك ،  
وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرحناه .

وعلى أنه لا يحمى أحد من الإخوة الخيالة ، والوزراء ، والكتاب ، والنواب ،  
والمستخدمين شيئاً على اسم بيت الأستبار ، ليستطلق الحق ويمنع من أسيدائه ، ولو  
أنه أقرب أجد إلى المقدم أو ولد المقدم . إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط ،  
أخذ جميع ماله مستهلكاً للجهتين : للديوان السلطاني المعمور ، وليت الأستبار ،  
إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر ، صادراً ووارداً ، وكذلك في البر صادراً  
ووارداً بعد المحاqqة على ذلك وصحته .

وعلى أن نواب المباشير المقدم الكبير لبيت الأستبار ، وولائه وكتابه ومستخدميه  
وعلمائه ، يكونون أميين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم .  
وكذلك علمائنا وولائنا ونوابنا ومستخدمونا وكاتبنا ورعايا بلادنا يكونون أميين

مُطْمَئِنِّينَ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، مُتَّفِقِينَ عَلَىٰ مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَخِذِ الْحُقُوقِ ، وَسَائِرِ  
 الْمَقَاسِمَاتِ وَالطَّرَقَاتِ وَالْبَسَاتِينَ وَالطَّوَاحِينَ ، وَالْحُقُوقِ الْمَقَرَّةِ عَلَى الْفَدَنِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ  
 أَجْنَاسِهَا . وَكَذَلِكَ الرَّأْسَةَ وَاسْتِخْرَاجَ وُجُوهِ الْعَيْنِ ، وَالْحُبُوبِ ، وَالتَّصَارِيفِ الْجَارِي  
 بِهَا الْعَادَةُ الْمَقَرَّةُ عَلَى الْفَدَنِ ، مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

وعلى أن جميع الضمانات يكون نوابُ السلطانِ ونوابُ بيتِ الأسيبارِ مُتَّفِقِينَ جُمْلَةً  
 عَلَىٰ ذَلِكَ ، لَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ وَتَنْزِيلٍ فِي دِفَاتِرِ الدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ  
 وَدِيَوَانِ بَيْتِ الْأَسْبَارِ ، وَلَا يُطَلَّقُ وَلَا يُحْبَسُ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ  
 وَاحِدٌ دُونَ آخَرَ .

وعلى أن أيَّ مُسْلِمٍ تصدَّرَ مِنْهُ أَذِيَّةٌ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ  
 فِي تَأْدِيهِ ، يَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِيهِ نَائِبُنَا : مِنْ شَيْئٍ يَجِبُ عَلَيْهِ ، أَوْ قَطْعٍ . أَوْ أَدَبٍ بِحُكْمِ  
 الشَّرْعِ الشَّرِيفِ : مِنْ شَيْئٍ ، وَقَطْعٍ ، وَكَلِّ أَعْيُنٍ ، بِحَيْثُ لَا يُعْمَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِحَضُورِ  
 نَائِبٍ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْأَسْبَارِ ، حَاضِرٍ يُعَايِنُ ذَلِكَ بَعَيْنِهِ ، وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ الذَّنْبَ  
 وَتَحَقَّقَهُ . وَإِنْ كَانَ ذَنْبُهُ يَسْتَوْجِبُ جُنَايَةً أَوْ غَرَامَةً دَرَاهِمٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ مَوَاشٍ  
 أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، يَكُونُ مَا يُسْتَادَى مُنَاصَفَةً لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ  
 وَلِبَيْتِ الْأَسْبَارِ وَصَاحِبِ الْمَرْقَبِ . فَإِنْ كَانَ فِيهَا قِشَاشٌ وَبَضَائِعٌ عَلَى اخْتِلَافِ  
 أَجْنَاسِهِ ، وَصَاحِبُهُ مُسْلِمٌ ، يَأْخُذُ بِبَضَاعَتِهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ  
 لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْبَارِ . وَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ صَاحِبُ الْبَضَاعَةِ وَكَانَتْ مُسْلِمًا ،  
 أُعِيدَتْ لِلخِزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْأَسْبَارِ فِيهَا تَعَلُّقٌ . وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ  
 الْبَضَاعَةِ نَصْرَانِيًّا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ النَّصْرَانِيِّ ، تُؤْخَذُ بِبَضَاعَتِهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ  
 مِنْ جِهَتِنَا ، بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ . وَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ صَاحِبُ الْبَضَاعَةِ ، وَكَانَتْ لِنَصْرَانِيٍّ ،

(١) لعله سقط هنا شيء . يعود عليه الضمير .

تَبَيَّحَتْ تَحْتَ يَدَيْتِ الْأَسْبَتَارِ ، خَلَا مِنْ كَانَ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دِينِهِ : إِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ ذِمِّيًّا ، عَلَى اخْتِلَافِ جِنْسِ دِينِهِ ، لَيْسَ لَبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ عَلَيْهِمْ آعْتَرَاضٌ ، وَيَجْمَلُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الْبِضَائِعِ لِلدِّيَّوَانِ الْمَعْمُورِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أَنْكَسَرَ مَرْكَبٌ ، وَظَهَرَ إِلَى بَرِّ الْمَوَانِي بِضَاعَةٌ ، وَقَصَدَ صَاحِبُهُ شَيْئَهُ إِلَى جِهَةٍ يَخْتَارُهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَلَا يُتَّبَعُ ، فَيُؤْخَذُ الْحَقُّ مِنْهُ : إِنْ بَاعَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَإِنْ حَمَلَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَيَكُونُ الْحَقُّ لِلجِهَتَيْنِ : وَهُوَ الْحَقُّ الْمَعْرُوفُ الْجَارِي بِهِ الْعَادَةُ .

وَعَلَى أَنَّ التُّجَّارَ السَّفَّارَةَ وَالْمُتَرَدِّدِينَ بِالْبِضَائِعِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى مَتَى مَا خَرَجُوا مِنَ الْمَوَانِي الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ يَتَوَجَّهُونَ بِخِفَارَةٍ الْجِهَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ : لَا يُتَنَاوَلُ مِنَ الْخِفَارَةِ شَيْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى نَفْسِهِمْ إِلَى أَنْ يُجْرَهُمْ وَيُحْضِرَهُمْ إِلَى بَرِّ حُدُودِ الْمَرْقَبِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ تَحْتَ حِفْظِ الْجِهَتَيْنِ . وَمَتَى وَصَلَ التُّجَّارُ مِنْ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ وَمَوَانِيهَا ، فَالْتَّرْتِيبُ عَلَى الْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، مَعَ تَدْرُكِ الرُّؤَسَاءِ الْحِفْظَ لِلطَّرْفَاتِ صَادِرًا وَوَارِدًا ، بِحَيْثُ إِنَّهُمْ يَحْضُرُونَ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ ، وَإِلَى الْمَوَانِي بِالْمَرْقَبِ الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ ، طَيِّبِينَ آمِنِينَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ .

وَعَلَى أَنَّ غُلَامَانَ الْمُبَاشِيرِ الْمَقْدَمِ لَبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ وَالْإِخْوَةَ وَالْحِيَالَةَ وَالرَّعِيَّةَ الْمُقِيمِينَ بِقَلْعَةِ الْمَرْقَبِ وَالرَّيْضِ ، يَكُونُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَمَنْ يَلُودُ بِهِمْ وَيَتَعَلَّقُ ، فِي حَالِ صُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ إِلَى بِلَادِنَا الْجَارِيَةِ فِي مَمْلَكَتِنَا فِي الْبَرِّ ، مَنْأً وَمَنْ نُؤَابِنَا بِالْمَمْلَكَةِ وَالْبِلَادِ الْجَارِيَةِ فِي حَكْمِنَا ، وَمَنْ وَلَدِنَا الْمَلِكِ السَّعِيدِ ، وَمَنْ أَمْرَانِنَا وَعَسَاكِرِنَا الْمَنْصُورَةِ . وَإِنْ قُتِلَ قَتِيلٌ أَوْ أُخِذَتْ أُخِيدَةٌ فِي حُدُودِ الْمَنَاصِفِ بِبِلَادِ

المرقب ، فيقع الكشْفُ عن ذلك عشرين يوماً : فإن وُجدَ فاعِلُ ذلك ، يؤخِّدُ الفاعِلُ بذَنبِهِ . وإن لم يظهرْ فاعِلُ ذلك مدَّةَ عشرين يوماً فيُمسِكُ رؤساءُ مكانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وأخذ الأخيذة ، وقَتَلَ القَتِيلِ ، إن كان أخذُ وقَتْلُ - مكانَ من قَتَلَ القَتِيلِ أو أخذ الأخيذة - أقربَ القُرباءِ إلى الذي قَطَعَ عليه الطريقَ أو قَتَلَ قَتِيلًا . فإن خَفِيَ الفاعِلُ لذلك ، ونَجَزَ عن إحضاره بعد عشرين يوماً ، يُنزِمُ أهلُ نُوابِ الجهتين من القُرباءِ الأقربَ لذلك المكانِ بألفِ دينارٍ صُوريَّةٍ : للديوانِ السلطانيِّ النَّصْفُ ، ولِنَقِيبِ الأَسبَاطِ النَّصْفُ ، ولا تُتكَاسَلُ الولايةُ في طَلَبِ ذلك ، ويكونُ طَلَبُهُ يَدًا واحدةً ، ولا يَخْتَصُ الواحدُ دونَ الآخر . ولا يجابى أحدُ منهم لأخذِ الفلاحِ في هذا أو غيره في مَصْلَحَةِ عِمارةِ البلادِ ، وأَسْتِخراجِ الحُقُوقِ ، ومُقاسمةِ الغِلالِ ، وطَلَبِ المُفسدينِ ليلاً ونهاراً .

وعلى أن لا تغيَّرَ الهدنةُ المباركةُ بأمرٍ من الأمورِ ، لا من جِهَتِنَا ولا من جِهَةِ وِلدِنَا المَلِكِ السَّعِيدِ ، إلى أنقضاءِ مَدَّتِهَا المعينةُ أعلاه وفروعها . ولا تُتغيَّرُ بتغيُّرِ المُبايَعةِ لِيَتَّ الأَسبَاطِ الحَاكِمِ على المرقبِ وغيره . وإذا جَرَّتْ قَضِيَّةٌ في أمرٍ من الأمورِ يعرفُهم نُوابُنَا ، ويَحَقِّقُ الكَشْفُ إلى مدَّةِ أربعين يوماً ، فمن يكونُ للبدايةِ يخرجُ منها على من سب (؟) ويكونُ قد عَرَفَ دَيْنَهُ الذي بدأ من جِهَةِ كُلِّ واحدٍ . وإذا تغيَّرَ التَّوَابُ بالمرقبِ وحضرَ نَائِبٌ مُسْتَجِدٌّ يَعْتَمِدُ ما تَضَمَّنَتْهُ هذه الهدنةُ ، ولا يخرجُ عن هذه المُواصِفَةِ . وإذا تَسَحَّبَ من المسلمينِ أحدٌ على اختلافِ أَجْناسِهِ ، إن كان مَمْلُوكًا أو غيرَ مَمْلُوكٍ ، أو مَعْتُوقًا أو غيرَ مَعْتُوقٍ ، أو كَاتِبًا من كان من المسلمينِ على اختلافِ مَنَازِلِهِمْ ، وإن كان غلامًا أو غيرَ غلامٍ - يردُّ بجميعِ ما يُوجَدُ معه ، إن كان قليلاً أو كثيراً يردُّ . ولو أنَّ المَتَسَحِّبَ دَخَلَ الكَنِيسَةَ وجلسَ فيها يُمسِكُ بِيَدِهِ ويخرجُ ويسَلِّمُ لِنُوابِنَا بجميعِ ما مَعَهُ ، وإن كان خَيْلاً أو قماشًا أو دَرَاهِمَ أو ذَهَبًا

وما يتعامل الناس به ، يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرّحناه . وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من الفرج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وصل إلى جهة نوابنا يمسك ويسلم بما يحضر معه : من الخيل والأقمشة والعدّة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً ، يمسكه نوابنا ويُسّلمون ذلك بما معه لنايب المقدم الماسر بالمرقب ، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه .

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ، ولا الرعية الذين فيها ، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها : لا يكاتب ، ولا بمشافهة ، ولا برسالة ، ولا بقول ، ولا يطلع أحد من جهتهم إليهم ؛ ولا يمكن أحد من الحضور إليهم ، [ والوصول ] إلى جهتهم من القلعة المذكورة ؛ ولا تُسير إليهم مشونته ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه ، ولا تكون بينهم معاملة . وإن حضر أحد من جهة قلعة العليقة إليهم يُسكون ويُسّلمون لنوابنا ويأخذوا بذلك خطوطهم .

وعلى أنهم لا يحدّون عمارة قلعة ، ولا في القلعة عمارة ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ؛ ولا [ يعتمدون ] إصلاح ثنى منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرمونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ؛ ولا يحدّون عمارة في ربضها ، ولا في سورها ، ولا في أبراجها ، ولا يحدّون حفر خندق ، وعمارة خندق ، أو تجدد بنائه خندق أو قطع جبل ، أو تحصن عمارة ، أو تحصن بقطع جبل ، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع . ولم نأذن لهم بسوى البناية [ على ] أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر صحبة الملك السعيد . وقد أذننا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم .

وعلى أن صهيون وأعمالها ، ورومه (؟) وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وعيدوب وأعمالها ، الجارية تحت نظير الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون -

يجرى حكم هذه البلاد المختصة به حكم بلادنا في المهادنة، بحكم أن بلاده المذكورة جارية في ممالك الشريعة .

وعلى أنه لا يمكن بيت الأستبار من دخول رجل غريبة في البر ولا في البحر إلى بلادنا، بأذية ولا ضرر يعود على الدولة، وعلى بلادنا وحضوننا ورعيتنا، إلا أن يكونوا يداً غالبية، صعبة ملك متوجج .

وعلى أن البرج الداخِل في المناصفة، وهو برج معاوية الذي عند المحاصة الداخلة في مناصب المرقب الآن، يُحرب ما يخصنا منه، وهو النصف من البرج المذكور أعلاه . وأن الجسر المعروف بجسر بلدة لم يكن لبيت الأستبار فيه شيء من البرين، وأنه خالص للديوان المعمور دون بيت الأستبار . وأن الدار المستجدة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير، الذي هو عايز تكميل عمارة سقف القبة بالحجارة والكليس، لا تكمل عمارتها، ويبقى على حاله، وهو في وسط القلعة الظاهر منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه .

وعلى أن تواب الأستبار بالمرقب لا يُخفون شيئاً من مقاسمات البلاد ولا شيئاً من حقوقها الجارية بها العادة أن بيت الأستبار يستخرجونه ولا يُخفون منه شيئاً، وكل ما كان يستأدى من البلاد في أيدي الأستبار قبل هذه الهدنة يطاعون تواباً عليه ولا يُخفون منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك .

وعلى أن السلطان يأمر توابه بحفظ مناصفات بلاد المرقب الداخلة في هذه الهدنة، من المفسيدين والمتلصصين والحرامية من هو في حكمه وطاعته . وكذلك الماستر المقدم افريز اولدكال يلزم ذلك من الجهة الأخرى . ومتى وقع - والعباد بالله - فسُخِّب سبب من الأسباب، كان التجار والسفارة آمينين من الجهتين إلى

أن يعودوا بأموالهم ، ولا يمتنعون من السفر إلى أماكنهم من الجهتين ، وتكون  
النهاية لهم أربعين يوماً . وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة ، مُستقرّة  
بقواعدها المسطورة للمدة المعيّنة ، وهي : عشر سنين وعشرة أشهر كوامل ، أو قطاً  
مُسْتَهْل رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة إلى آخرها ، متتابعة متواليّة ، لا تفسخ  
بموت أحد من الجهتين ، ولا بعزل والٍ وقيام غيره موضعه ، ولا زوال رجلٍ غربيّة ،  
ولا حضور يدٍ غاليّة ؛ بل يلزم كلاً من الجهتين حفظها إلى آخرها ؛ ومن تولى بعد  
الآخر حفظها إلى آخرها ، بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخرها . وانحطت أعلاه ، حجة  
بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى . في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هُدنة عُقدت بين السلطان الملك المنصور « قلاوون » الصالح  
صاحب الديار المصرية والبلاد الشاميّة وولده الملك الصالح « علي » وليّ عهده ،  
وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام ، في شهر سنة اثنتين  
وثمانين وثمانمائة ، وهي يومئذ بأيديهم . وصورتها :

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدين أبي الفتح  
« قلاوون » الملكي الصالح وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين « علي » -  
خلد الله تعالى سلطنتهما - وبين الحكام بمملكة عكا ، وصيدا ، وعثليت ، وبلادها  
التي انعقدت عليها هذه الهدنة ، وهم : الشيخان أودهيل المملكة بعكا ، وحضرة  
المقدم الجليل افريزكاسام دسا حول (؟) مقدم بيت الديويّة ؛ وحضرة المقدم الجليل  
افريز سكفل لاورن (؟) مقدم بيت الاسبتارية ، والمرشان الأجل افريزكورات نائب  
مقدم بيت الاسبتار الآمن - لمدة عشر سنين كوامل ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيام ،

وعَشْرَ سَاعَاتٍ : أَوْلَاهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ خَامِسُ رِبْعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ  
 لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَسَلَامُهُ ، الْمَوَافِقُ لِلثَّلَاثِ مِنْ حَزْرِيَّانَ  
 سَنَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ لِعَلْبَةِ الْإِسْكَندَرِيِّ بْنِ فَيْلَسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى جَمِيعِ  
 بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ ، وَهِيَ الَّتِي فِي مَمْلَكَتَيْهَا وَتَحْتَ حُكْمَيْهَا وَطَاعَتَيْهَا وَمَا تَحْوِيهِ  
 أَيْدِيهَا يَوْمَئِذٍ : مِنْ جَمِيعِ الْأَقَالِمِ وَالْمَمَالِكِ ، وَالْقِلَاعِ ، وَالْحُصُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَتَعْرِ  
 دِمِيَاطَ ، وَتَعْرِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ الْمَحْرُوسِيَّةِ ، وَتَسْتَرُو ، وَسَنْتَرِيَّةَ وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهَا مِنْ  
 الْمَوَانِي وَالسَّوَاهِلِ ، وَتَعْرِ ثَوَّةَ ، وَتَعْرِ رَشِيدَ ، وَالْبِلَادِ الْمَجَازِيَّةِ ، وَتَعْرِ غَزَّةَ الْمَحْرُوسِ ،  
 وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَوَانِي وَالْبِلَادِ ، وَالْمَمْلَكَةِ الْكُرْكِيَّةِ ، وَالشُّوْبِكِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا ، وَالصَّلَاتِ  
 وَأَعْمَالِهَا ، وَبُصْرَى وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ بِلَادِ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ،  
 وَمَمْلَكَةِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَأَعْمَالِهَا ، وَبَيْتِ الْحَيْمِ وَأَعْمَالِهِ وَبِلَادِهِ ، وَجَمِيعِ مَا هُوَ  
 دَاخِلٌ فِيهَا وَمَحْسُوبٌ مِنْهَا ، وَبَيْتِ جَبْرِيْلَ ، وَمَمْلَكَةِ نَابُلُسَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ  
 الْأَطْرُونِ وَأَعْمَالِهَا ، وَعَسْقَلَانَ وَأَعْمَالِهَا وَمَوَانِيهَا وَسَوَاحِلِهَا ، وَمَمْلَكَةِ يَافَا وَالرَّمْلَةَ  
 وَمِينَهَا ، وَقَيْسَارِيَّةَ وَمِينَهَا وَسَوَاحِلِهَا وَأَعْمَالِهَا ، وَأَرْسُوفَ وَأَعْمَالِهَا ، وَقَلْعَةَ قَاقُونَ  
 وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَأَعْمَالَ الْعُوجَاءِ وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَلَاخَةِ ، وَالْفُتُوحِ السَّعِيدِ وَأَعْمَالِهَا  
 وَمِزَارِعِهَا ، وَبَيْسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَالطُّورِ وَأَعْمَالِهِ ، وَالْبَجُونِ وَأَعْمَالِهِ ، وَجَبِينِ  
 وَأَعْمَالِهَا ، وَعَيْرِ جَالُوتَ وَأَعْمَالِهَا ، وَالْقَيْمُونِ وَأَعْمَالِهِ وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهِ ، وَطَبْرِيَّةَ  
 وَبُخَيْرَتَهَا وَأَعْمَالِهَا وَمَا مَعَهَا ، وَالْمَمْلَكَةِ الصَّفِيدِيَّةِ وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهَا ، وَتَبْنِينَ وَهُونِينَ  
 وَمَا مَعَهُمَا مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ ، وَالشَّقِيفِ الْمَحْرُوسِ الْمَعْرُوفِ بِشَقِيفِ أَرْنُونِ  
 وَمَا مَعَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ وَمَا هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ، وَبِلَادِ الْقُرْنِ وَمَا مَعَهُ خَارِجًا  
 عَمَّا عُنِيَ فِي هَذِهِ الْهَدْيَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَنِصْفِ مَدِينَةِ إِسْكَندَرُونَةَ ، وَنِصْفِ ضَيْعَةِ مَا رَبَّ  
 بَقْدُنِيهَا وَكُرُومِهَا وَبَسَاتِينِهَا وَحُقُوقِهَا ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ إِسْكَندَرُونَةَ



المدكورة ، يكون جميعه بحدوده وبلايه للسلطان المملك المنصور ولولده النصف ،  
والنصف الآخر لمملكة عكا . والبقاع العزيزى وأعماله ، وشعرا وأعمالها ، وشقيف  
تيرون وأعماله ، والعامر جميعها ولا نا وغيرها (١) ، وبانياس وأعمالها ، وقلعة الصبيبة  
وأعمالها وما معها من البحيرات والأعمال ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلعة عجلون  
وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية - حرمها الله تعالى - وما لها من القلاع والبلاد  
والممالك والأعمال ، وقلعة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حمص وما لها  
من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة المحروسة ومدنتها وقلعتها وبلادها وحدودها ،  
وبلاطنس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرزيه وأعمالها ، وفتوح حصن  
الأكراد المحروس وأعماله ، وصافيتنا وأعمالها ، و (٢) أعمالها ، والعريمة  
وأعمالها ، وقديا وأعمالها ، وحلبا وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وحصن عكار  
وأعماله وبلاديه ، وقلعة شيزر وأعمالها ، وأفامية وأعمالها ، وجبله وأعمالها ،  
وأبو قبيس وأعماله ، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد  
والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوح المبارك ، وبقراس وأعمالها ،  
والدر بساك وأعمالها ، والرأوندان وأعمالها ، وعيتاب وأعمالها ، وحارم وأعمالها ،  
ويبرين وأعمالها ، وسح الحديد وأعماله ، وقلعة نجم وأعمالها ، وشقيف دركوش  
وأعماله ، والشغر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبزعا  
وأعمالها ، وألبيرة وأعمالها ، والرحبة وأعمالها ، وسامية وأعمالها ، وشميمس  
وأعمالها ، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إليها ، وجميع ما هو منسوب لمولانا  
السلطان ولولده من البلاد التي عينت في هذه الهدنة المباركة ، والتي لم تعين .

(١) أوردتها ياقوت في معجم البلدان هكذا : برزويه ، وذكر أن العامة تقول : برزويه كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلى جميع العساكر ، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين : على اختلافهم ،  
وتغير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم ، للقاطنين فيها ، والمترددين في البر والبحر ،  
والسهل والجبل ، في الليل والنهار ، يكونون آمنين مطمئنين في حالي صدورهم  
وورودهم - على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وحرثهم ، وبضائعهم ، وغلمانهم ،  
وأثباعهم ، ومواشيهم ، ودوابهم ؛ وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوي أيديهم  
من سائر الأشياء على اختلافها ، من الحكام بمملكة عكا : وهم كفيّل المملكة بها ،  
والمقدم أفريز كليام دسا حول (؟) مقدم بيت الديوية ؛ والمقدم أفريز بيكوك  
للورن (؟) ، وأفريز اهداب نائب مقدم بيت الاستار الآمن ، ومن جميع الفرنج  
والإخوة ، والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية ، ومن جميع  
الفرنج على اختلافهم ، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة  
من كل وأصيل إليها في بر أو بحر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم ، لا ينال بلاد  
السلطان وولده ، ولا حصونهما ، ولا قلاعهما ، ولا بلادهما ، ولا ضياعهما ،  
ولا عساكرهما ، ولا جيوشهما ، ولا عربيهما ، ولا تركيهما ، ولا أكرادهما ،  
ولا رعاباهما ، على اختلاف الأجناس والأنفار ؛ ولا ما تحويه أيديهم من المواشي  
والأموال والغلال وسائر الأشياء منهم غدر ولا سوء ، ولا يخشون من جميعهم أمرا  
مكروها ولا إغارة ، ولا تعرضا ولا أذية .

وكذلك ما يستفتحه ويضيفه السلطان وولده على أيديهما ، وعلى يد نوابهما  
وعساكرهما : من بلاد ، وحصون ، وقلاع ، ومملك ، وأعمال ، وولايات ، برا  
وبحرا ، سهلا ووعرا .

وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة : وهي مدينة  
عكا وبساتينها ، وأراضها وطواحينها ؛ وما يختص بها من كرونها ، وما لها من

حُقُوقٍ حَوْلَهَا ، وما تَمْتَرُ لَهَا من بلادٍ في هذه المُدُنَةِ وهي : البصَّةُ وَمَزْرَعَتُهَا ،  
 مجدل ، حصين ، رأس عبده ، المَنَوَاتُ وَمَزْرَعَتُهَا ، الكابرة وَمَزْرَعَتُهَا ، نصف ووه  
 جعون ، كَفَرُ بَرْدَى وَمَزْرَعَتُهَا ، كَوَكَبُ عَمَقَا وَمَزْرَعَتُهَا ، المونيه ، كفر ياسيف  
 وَمَزْرَعَتُهَا ، تُوسيان ، مكر حرسين وَمَزْرَعَتُهَا ، الحديدية ، الغياضة ، العطوانية ، مرتوقا  
 الحارثية ، ثَمرا الطره ، الرب ، البابوحد وَمَزْرَعَتُهَا ، العرج وَمَزْرَعَتُهَا ، المزرعة  
 السَّمِيرِيَّةُ البِيضَاءُ ، دعوق والطاحون ، كرداه والطاحون ، حدربول ، تل النجل ،  
 الغار ، الرخ والمجدل ، تَلُ كيسان ، البروه ، الرامون ، ساسا السياسية ، الشبيكة ،  
 المشيرقه ، العطوانية ، المنير ، اكليل ، هريا سيف العربية ، هوشه ، الزراعة  
 الجديدة الشمالية ، الراحيه ، قسطه ، كفر نبتل ، الدوريات ، ماصوب ، ممتاس  
 العباسية ، سيعاه ، عين الملك ، المنصورة ، الرصيفة ، حابا ، سرطا ، كفرننا ،  
 أرض الزراعة ، رولس ، صغد عدى ، سفر عم . هذه البلادُ المذكورةُ [ تكون ]  
 خاصا للفرنج . حيفا والكروم والبساتين التي لها جميعها ، والقصر وهو الخوش  
 وكَفَرُ نُوثَا ، وهي : الكنيسة ، والطيرة ، والسعبة ، والسعادة ، والمعر ، والباجور ،  
 وسومرا . تكون حيفا وهذه البلادُ المذكورةُ بمجْدُودِهَا وَأَرْضِيهَا خاصَّةً للفرنج .  
 وكذلك قرية مارسا ناره بها ، المعروفة بها وكرومها وغرسها يكون خاصا للفرنج .  
 وديرُ السباح ، وديرُ مارلباس بأَرْضِيهِمَا المعروفةِ بهما وكُرومِهِمَا وبساتينِهِمَا يكونُ  
 خاصا للفرنج .

وعلى أن يكونَ للسلطانِ المَلِكِ المَنْصُورِ وَلِوَلَدِهِ الصَّالِحِ : من بلادِ الكِرْمَلِ ، وهي :  
 الدالية ، ودونه ، وضريبة الريح ، والكرك ، ومعلبا ، والرامون ، ولوسه ، ولسور ،

(١) لم تقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها في معجم ياقوت وتقويم البلدان . لذلك تبعنا الأصول  
 في الاممال والنقط .

وخربة يونس ، وخربة نحيس ، ورشما ، ودوانه ، يكون خاصا للفرنج في بلاد أخرى ذكرها . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكمالها .

وتكون جميع هذه البلاد العكاوية وما عيّن في هذه الهدنة المباركة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح ، وآمنة من عساكرهما وجنودهما ومن خديهما ، وتكون هذه البلاد المشروحة أعلاه ، الداخلة في هذه الهدنة المباركة : الخالص بها ، وما هو مناصفة - مطمئنة هي ورعاياها ، وسائر أجناس الناس فيها ، والقاطنين بها ، والمترددين إليها على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، والمترددين إليها من جميع بلاد الفرنجة والسفار ، والمترددين منها وإليها في بر وبحر ، في ليل أو نهار ، سهل وجبل ، آمنين على النفوس والأموال والأولاد ، والمراكب والدواب ، وجميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحويه أيديهم من الأشياء على اختلافها ، من السلطان ولده ، وجميع من هو تحت طاعتها : لا ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التي انعقدت عليها الهدنة سوء ولا ضرر ولا إغارة ، ولا ينال إحدى الجهتين المذكورتين : الإسلامية والفرنجية من الأخرى ضرر ولا أذية ، ويكون ما تقرّر أنه يكون خاصا للفرنج حسب ما بين أعلاه لهم ، وما تقرّر أن يكون للسلطان ولولده خاصا لها ، والمناصفات تكون كما شرح . ولا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات إلا ما شرح في هذه الهدنة وعيّن فيها من البلاد .

وعلى أن الفرنج لا يجددون في غير عكا وعثليت وصيدا : مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات ، لا قلعة ، ولا برجاً ، ولا حصناً ، ولا مستجداً .

وعلى أنه متى هرب أحد - كائناً من كان - من بلاد السلطان ولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة ، وقصد الدخول في دين النصرانية وتصر

بإرادته ، يُردُّ جميع ما يروحُ معه ويبقى عُرباناً . وإن كان ما يقصدُ الدُخولَ في دين النصرانية ولا يتنصر ، ردَّ إلى أبايهما العالِية بجميع ما يروحُ معه ، بشفاعةِ ثِقَةٍ بعد أن يُعطى الأمان . وكذلك إذا حضر أحدٌ من عكَّا والبلادِ السَّاحِليَّةِ الداخِلةِ في هذه المُدنة ، وقصدَ الدُخولَ في دينِ الإسلامِ وأسلمَ بإرادته ، يُردُّ جميعُ ما معه ويبقى عُرباناً . وإن كان ما يقصدُ الدُخولَ في دينِ الإسلامِ ولا يُسلمُ ، ردَّ إلى الحُكَّامِ بعكَّا ، والمقدِّمينَ بجميع ما يروحُ معه بشفاعةِ بعد أن يُعطى له الأمان .

وعلى أن المنوعاتِ المعروفِ منهُما قديماً تستقرُّ على قاعدةِ المنعِ من الجهتين . ومتى وُجدَ مع أحدٍ من تُجَّارِ بلادِ السُّلطانِ ولَدِه من المسلمين وغيرهم على اختلافِ أديانِهِم وأجناسِهِم شيءٌ من المنوعاتِ بعكَّا والبلادِ السَّاحِليَّةِ الداخِلةِ في هذه المُدنة ، مثلُ عدَّةِ السَّلاحِ وغيره ، يُعادُ على صاحِبِه الذي اشتراه منه ، ويعادُ إليه ثمنه ، ويُردُّ ولا يُؤخذُ ماله استهلاكاً ، ولا يُؤذَى . وللسُّلطانِ ولولَدِه أن يفتصلاً في من يخرجُ من بلادِهِما من رعيَّتِهِما ، على اختلافِ أديانِهِم وأجناسِهِم ، بشيءٍ من المنوعاتِ . وكذلك كَقَبيلِ المملِكةِ بعكَّا والمقدِّمونَ لهم أن يفتصلاً في رعيَّتِهِم الذين يخرجونَ بالمنوعاتِ من بلادِهِم الداخِلةِ في هذه المُدنة .

ومتى أخذتُ أخيدةً من الجانيين ، أو قُتِلَ قَتيلٌ من الجانيين ، على أىِّ وجهٍ كان - والعياذُ بالله - رُدَّتِ الأَخيدةُ بعينِها إن كانت موجودةً ، أو قيمَتُها إن كانت مَفقُودَةً . والقَتيلُ يكونُ العِوضُ عنه بنظيرِهِ من جنسِهِ : فارسٌ بفارسٍ ، وبريكلٍ ببريكلٍ ، وتاجرٌ بتاجرٍ ، وراجلٌ براجلٍ ، وفلاحٌ بفلاحٍ . فإن خَفِيَ أمرُ القَتيلِ والأخيدةِ ، كانت المَهلةُ في الكَشْفِ أربعين يوماً ، فإن ظهرتُ الأَخيدةُ أو تَعَيَّنَ أمرُ المقتولِ ، رُدَّتِ الأَخيدةُ بعينِها ويكونُ العِوضُ عن القَتيلِ بنظيرِهِ ، وإن لم تَظْهَرِ

كانت اليمين على والى المكان المدعى عليه، وثلاثة نفر يقع اختيار المدعى عليهم، من تلك الولاية . وإن امتنع الوالى عن اليمين حلف من الجهة المدعية ثلاثة نفر تختارهم الجهة الأخرى وأخذ قيمتها . وإن لم ينصف الوالى ولا ردّ المال، أنهى المدعى أمره إلى الحكام من الجهتين ، وتكون المهلة بعد الإنهاء أربعين يوماً ، ويلزم الولاة من الجهتين بالوفاء بهذا الشرط .

ومنى أخفوا قتيلاً أو أحيده ، أو قدروا على أخذ حق ولم يأخذه كل واحد فى ولايته ، يتعين على الذى يولى من ملوك الجهتين إقامة السياسة فيه : من أخذ الرُوج والمال والشئى ، والإنكار التام على من يتعين عليه الإنكار إذا فعل ذلك فى ولايته وأرضه .

وإن هرب أحد بمالٍ واعترف ببعضه وأنكر بعض ما يدعى به عليه ، لزمه أن يحلف أنه لم يأخذ سوى ما رده . فإن لم يقنع المدعى بيمين الهارب ، حلف والى تلك الولاية أنه لم يطالع على أنه وصل معه غير ما رده . وإن أنكر أنه لم يصل معه شئاً أصلاً ، استحلف الهارب أنه لم يصل معه للمدعى شئاً .

وعلى أنه إذا أنكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده التى انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم : على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى مينا عكا وسواحلها ، والبلاد الساحلية التى انعقدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمناً على الأتقى والأموال والأتباع والمتاجر . فإن وجد أصحاب هذه المراكب التى تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم [إليهم] . وإن عدوا بموت أو غرق أو غيبة ، فيحفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده . وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك فى بلاد

السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، وَيَحْتَفِظُ بِمَوْجُودِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا حَاضِرًا إِلَى أَنْ يُسَلَّمَ لِكَفِيلِ الْمَمْلُوكَةِ بَعَا أَوْ الْمَقْدَمِ .

وَمَتَى تُوَفِّي أَحَدٌ مِنَ التُّجَّارِ الصَّادِرِينَ وَالوَارِدِينَ: عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ، مِنْ بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، فِي عَكَا وَصَيْدَا وَعَنْبَلِيَّتْ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ [فِيحْتَفِظُ عَلَى مَالِهِ حَتَّى يَسَلَّمَ لِنَوَابِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ]، وَإِذَا تُوَفِّي أَحَدٌ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ، يَحْتَفِظُ عَلَى مَالِهِ إِلَى حِينِ يَسَلَّمَ إِلَى كَفِيلِ الْمَمْلُوكَةِ بَعَا وَالْمَقْدَمِينَ .

وَعَلَى أَنْ شَوَانِي السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ إِذَا عَمَرَتْ وَخَرَجَتْ لَا تُتَعَرَّضُ بِأَذْنِةٍ إِلَى الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُدُنَةُ . وَمَتَى قَصِدَتْ الشَّوَانِي الْمَذْكُورَةَ جِهَةً غَيْرَ هَذِهِ الْجِهَاتِ، وَكَانَ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلُوكَةِ عَكَا، فَلَا تَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُدُنَةُ وَلَا تَتَرَوَّدُ مِنْهَا . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا الشَّوَانِي الْمَنْصُورَةَ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلُوكَةِ عَكَا وَالْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْمُدُنَةُ، فَلَهَا أَنْ تَدْخُلَ إِلَى بِلَادِهَا وَتَتَرَوَّدَ مِنْهَا . وَإِنْ أَنْكَسَرَتْ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الشَّوَانِي - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - فِي مِينَا مِنْ مَوَانِي الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْمُدُنَةُ وَسَوَاحِلِهَا: فَإِنْ كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهَا مَعِ مَمْلُوكَةِ عَكَا وَمُقَدَّمِي بِيُوتِهَا عَهْدٌ، فَيَلْزِمُ كَفِيلُ الْمَمْلُوكَةِ بَعَا وَمُقَدَّمِي الْبُيُوتِ بِحِفْظِهَا، وَتَمَكِينِ رِجَالِهَا مِنَ الزَّوَادَةِ وَإِصْلَاحِ مَا أَنْكَسَرَ مِنْهَا، وَالْعَوْدِ إِلَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَ[لَا] يَبْطُلُ حَرَكَةُ مَا تَتَكَّرُّ مِنْهَا - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - أَوْ يَرْمِيهِ الْبَحْرُ . هَذَا إِذَا كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهَا مَعِ مَمْلُوكَةِ عَكَا وَمُقَدَّمِيهَا عَهْدٌ . فَإِنْ [قَصِدَتْ مِنْ] لَمْ يَكُنْ لَهَا مَعَهُمْ عَهْدٌ، فَلَهَا أَنْ تَتَرَوَّدَ وَتُعَمَّرَ رِجَالُهَا مِنَ الْبِلَادِ الْمُنْعَقِدِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُدُنَةُ، وَتَتَوَجَّهَ إِلَى الْبِلَادِ الْمَرْسُومِ لَهَا بِقَصْدِهَا، وَيَعْتَمِدُ هَذَا الْفَصْلُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ .

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جوار البحر لقصده الحضور  
لمصرّة السلطان وولده في بلادهما المتفقّة عليها هذه الهدنة ، فليزّم نائب المملكة  
والمقدمين بعكّا ، أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية  
الداخلية في هذه الهدنة بمدة شهرين . وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ،  
فيكون كفيل المملكة بعكّا ، والمقدمون بريثين من عهدة اليمن في هذا الفصل .  
ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأى من سبق الخبر إليه من الجهتين  
يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم .

وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعياذ بالله - عدو من التتار وغيرهم في البر ،  
وأنحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد  
الساحلية الداخلية في هذه الهدنة وقصدوها بمصرّة ، فيكتب إلى [كفيل] المملكة  
بعكّا ، والمقدمين بها أن يدرؤوا عن بيوتهم وريعيتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه .  
وإن حصل - والعياذ بالله - جفل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلية  
في هذه الهدنة ، فليزّم كفيل المملكة بعكّا ، والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع  
من يقصدهم بضرر ، ويكونون آمينين مطمئنين بما معهم .

وعلى أن النائب بمملكة عكّا ، والمقدمين بها يوصون في سائر البلاد الساحلية التي  
وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمكنون حراميّة البحر من الزوادة من عندهم ولا من  
حمل ماء . وإن ظفروا بأحد منهم يمسكونه ، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع  
فيمسكها كفيل المملكة بعكّا والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك  
يعتمد السلطان وولده .

وعلى أن الرهائن بعكّا والبلاد الساحلية الداخلية في هذه الهدنة ، كل من عليه منهم  
مبلغ أو غلة ، فيحلف وإلى ذلك المكان الذي منه الرهينة ، ويحلف المباشرة والكتابة



في وقت أخذ هذا الشخص رهينة أنه عليه كذا وكذا : من دراهم أو غلة أو بقر أو غيره . فإذا حلف الوالي والمباشر والكاتب قدام نائب السلطان وولده على ذلك يقوم أهل الرهينة عنه بما للفرنج عليه ويطلقونه . وأما الرهائن الذين أخذوا منسويين إلى الجفل والاختشاء أنهم لا يهربون إلى بلاد الإسلام ويمتنع الولاة والمباشرون من اليمين عليهم ، فأولئك يطلقون .

وعلى أن لا يجدد على التجار المسافرين : الصادرين والواردين من الجهتين حق لم تجر به عادة ، ويحروا على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت ، وتؤخذ منهم الحقوق على العادة المستمرة ، ولا يجدد عليهم رسم ولا حق لم تجر به عادة . وكل مكان عُرف باستخراج الحق فيه يستخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين ، في حالتي سفرهم وإقامتهم ، ويكون التجار والسفار والمترددون آمنين مطمئنين مخففين من الجهتين في حالتي سفرهم وإقامتهم ، وضدورهم وورودهم بما صحبتهم من الأصناف والبضائع التي هي غير ممنوعة .

وعلى أنه ينأى في البلاد الإسلامية والبلاد الفرنجية الداخلة في هذه الهدنة : أنه من كان من فلاحي بلاد المسلمين يعود إلى بلاد المسلمين مسليماً كان أو نصرانياً . وكذلك من كان من فلاحي بلاد الفرنج مسليماً كان أو نصرانياً ، معروفاً قرارياً من الجهتين ، ومن لم يعد بعد المناذاة يطرد من الجهتين . ولا يمكن فلاحو بلاد المسلمين من المقام في بلاد الفرنج المنعقد عليها هذه الهدنة ، ولا فلاحو بلاد الفرنج من المقام في بلاد المسلمين التي انعقدت عليها هذه الهدنة ، ويكون عود الفلاح من الجهة إلى الجهة الأخرى بأمان .

وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب : كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم :

من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، ويصلى بالكنيسة الاقسائية<sup>(١)</sup> والرهبان ، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة . وإذا نُقبت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة تُرمى برا ، ولا يُحطُّ بحجر منها على حجر لأجل بنايته ، ولا يتعرض إلى الأقسائية والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من نفيهما وعساكرهما وجنودهما ، ومن جميع المنجّمة والمتلصّصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتها . ويلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة ، من نفيهم وعساكرهم وجنودهم ، وجميع المنجّمة والمتلصّصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالمملكة الساحلية الداخلة في هذه الهدنة . ويلزم كفيل المملكة بعكا ، ومقدمي البيوت بها الحكم بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة - القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا ، وفصلا فصلا ، والعمل بأحكامها ، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مدتها . وينبغي كل منهم بما حلف به من الأيمان المؤكدة : من أنه ينبغي بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلفوا به . تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادها وأولاد أولادهم ، وبين الحكماء بمملكة عكا ، وصيدا ، وعثليث ، وهم الشيخان أودرا (؟) المقدمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تتغير بموت ملك أحد الجهتين ، ولا بتغير مقدم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها إلى آخرها وأتقضاها ، بشرطها المحدودة ،

(١) لعل الصواب القوس ، أو القسيون .

وقواعدها المقررة ، كاملة تامة . ومتى انقضت هذه الهدنة المباركة ، أو وقع  
 - والعيادُ بالله - فسُخِّ ، كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين . وينادى  
 برجوع كلِّ أحدٍ إلى وطنه بعد الإسهاد ، ليعود الناس إلى مواطنهم آمين مطمئنين ،  
 ولا ينعون من السفر من الجهتين ، ولا تبطل بعزل أحدٍ من الجهتين ، وتُسَيِّدُ  
 أحكامها متتابعة متواليه ، بالسنين والشهور والأيام إلى انقضائها ؛ ويلزم المتولى  
 حفظها والعمل بشروطها وفصولها ، وفروعها وأصولها ؛ ويجرى الحال فيها على  
 أجمل الحالات إلى آخرها . وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصفح والاتفاق ، وحلف  
 عليها من الجهتين ، والله الموفق .



وهذه نسخة هدنة ، عُقدت بين الملك الأشرف ، صلاح الدين « خليل » ابن  
 الملك المنصور سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ؛  
 وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من بلاد الأندلس ؛ على يد رُسُلِهِ :  
 أخويه وصهره الآتي ذكرهم ، في صفر سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، وهى :  
 استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف ، وبين حضرة الملك الحليل ،  
 المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرغام ، المفخم ، المبجل « دون » حاكم  
 الريد أرغون ، وأخويه دون ولديك ، ودون بيدرو ؛ وبين صهره اللذين طلب  
 الرسولان الواصلان إلى الأبواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون حاكم أن يكونا  
 داخلين في الهدنة والمصادقة ، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما ألتزم به عن  
 نفسه ، ويتدرك أمرهما . وهما الملك الحليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ،  
 الضرغام ، دون شانجه ، ملك قشتالة ، وطليطلة ، وليون ، وبلنسية ، وأشبيلية ،  
 وقرطبة ، ومرسية ، وجيان ، والغرب ، الكفيل بمملكة أرغون وبرتقال - والملك

الجليل دون أنفونش ملك برتقال، من تاريخ يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة  
 اثنتين وتسعين وثمانمائة، الموافق لثلاث بقين من جنير سنة ألف ومائتين واثنين  
 وتسعين لمولانا السيد المسيح عليه السلام. وذلك بحضور رسول الملك دون حاكم،  
 وهما: المحتشم الكبير روصودي مار موند الحاكم، عن الملك دون حاكم في بانسية،  
 ورفيقه المحتشم العمدة ديمون المان قراري برجلونة، الواصلين بكتاب الملك دون  
 حاكم، المختوم بختم الملك المذكور، المقضى معناه أنه حملهما جميعاً أحوالهم  
 ومطلوبهم، وسأل أن يقوموا فيما يقولانه عنه، فكان مضمون مشافهتهما وسؤالهما تقرير  
 قواعد الصلح والمودة والصداقة. والشروط التي يشترطها الملك الأشرف على الملك  
 دون حاكم، وأنه يلتزم بجميع هذه الشروط الآتي ذكرها، ويخلف الملك المذكور  
 عليها هو وأخواته وصهره المذكورون. ووضع الرسولان المذكوران خطوطهما بجميع  
 الفصول الآتي ذكرها، بأمره ومرسومه. وأن الملك دون حاكم وأخويه وصهره  
 يلتزمون بها، وهي: استقرار المودة والمصداقة من التاريخ المقدم ذكره، على ممر  
 السنين والأعوام، وتعاقب الليالي والأيام: براً وبحراً، سهلاً ووعراً، قريباً وبعداً.  
 وعلى أن تكون بلاد السلطان الملك الأشرف، وقلاعته، وحصونه، وثغوره،  
 وممالكه، وموانئ بلاده وسواحلها، وبرورها، وجميع أقاليمها ومدنها، وكل ما هو  
 داخل في مملكته، ومحسوب منها، ومنسوب إليها: من سائر الأقاليم الرومية،  
 والعراقية، والمشرقية، والشامية، والحلبية، والفراتية، واليمينية، والمجازية، والديار  
 المصرية، والغرب.

وحد هذه البلاد والأقاليم وموانئها وسواحلها من البر الشامي من القسطنطينية  
 والبلاد الرومية الساحلية، وهي: من طرابلس الغرب، وسواحل برقة،  
 والإسكندرية، ودمياط، والطينة، وقطيا، وغزرة، وعسقلان، وباقا،

وَأَرْسُوفَ ، وَقَيْسَارِيَّةَ ، وَعَثَلِيثَ ، وَحَيْفَا ، وَعَكَّا ، وَصُورَ ، وَصَيْدَا ، وَيَرُوتَ ،  
وَجَبِيلَ ، وَالْبَيْرُونَ ، وَأَنْفَسَةَ طَرَابُلُسَ الشَّامِ ، وَأَنْطَرُسُوسَ ، وَمَرْقِيَةَ ، وَالْمَرْقَبَ ،  
وَسَاوِحِلَ الْمَرْقَبِ : بَأَنْبَاسَ وَغَيْرَهَا ، وَجَبَلَةَ ، وَاللَّادِيَّةَ ، وَالسُّوَيْدِيَّةَ وَجَمِيعَ الْمَوَانِي  
وَالْبُرُورِ إِلَى تَغْرِ دِمِيَاطَ وَبُحَيْرَةَ تَيْسَ .

وَحَدَّثَهَا مِنَ الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ : مِنْ تُونُسَ وَإِقْلِيمِ إِفْرِيْقِيَّةَ وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَطَرَابُلُسَ  
الْغَرْبِيِّ وَتَغُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَبَرْقَةَ وَتَغُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، إِلَى تَغْرِ  
الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَرَشِيدَ وَبُحَيْرَةَ تَيْسَ وَسَوَاوِحِلِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا .

وَمَا تَحْوِيهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَالْمَمَالِكُ الْمَذْكُورَةُ وَالَّتِي لَمْ تُذْكَرْ ، وَالْمَسَدَاتُ وَالشُّغُورُ  
وَالسَّوَاوِحِلُ وَالْمَوَانِي وَالطَّرِيقَاتُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالصُّدُورُ وَالْوُرُودُ ، وَالْمَقَامُ وَالسَّفَرُ ،  
مِنْ عَسَاكِرَ وَجُنُودَ ، وَتُرُكِيَانِ ، وَأَكْرَادِ ، وَعُرَبِيَانِ ، وَرَعَايَا ، وَتُجَّارَ ، وَشَوَانِي ،  
وَمَرَاكِبَ ، وَسُقُنَ ، وَأَمْوَالَ ، وَمَوَاشِيَ ، عَلَى آخْتِلَافِ الْأَذْيَانِ وَالْأَنْفَارِ وَالْأَجْنَاسِ ،  
وَمَا تَحْوِيهِ الْأَيْدِي مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْتِعَةِ وَالْبَضَائِعِ وَالْمَتَاجِرِ ،  
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، بَرًّا كَانَ أَوْ بَحْرًا - أَمِنَةً عَلَى الْأَنْفُسِ ،  
وَالْأَزْوَاجِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالْحَرِيمِ ، وَالْأَوْلَادِ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَمِنْ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ  
الْمَذْكُورِينَ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَفُرْسَانِهِمْ ، وَخِيَالَتِهِمْ ، وَمُعَاهِدِيهِمْ ، وَعَمَائِرِهِمْ ،  
وَرِجَالِهِمْ ، وَكُلِّ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلِكِ  
الْأَشْرَفِ ، وَعَلَى يَدِ أَوْلَادِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ ، مِنْ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ ، وَالْبِلَادِ  
وَالْأَقَالِمِ ، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَبِلَادُ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ وَمَمَالِكُهُ الْمَذْكُورَةُ  
فِي هَذِهِ الْهَدْيَةِ ، وَهِيَ : أَرْغُونُ وَأَعْمَالُهَا وَبِلَادُهَا : صَقْلِيَّةٌ وَجَزِيرَتُهَا وَبِلَادُهَا

(١) خبر قوله : أن تكون بلاد السلطان الواردة في الصفحة قبل .

وأعمالها، بربولية وأعمالها وبلاؤها، جزيرة مالقة، وقوصرة وبلاؤها وأعمالها، ميورقة ويابسة وبلاؤها، وأرسويار (؟) وأعمالها، وما سيفتحه الملك دون حاكم من بلاد أعدائه الفرنج المجاورين له بتلك الأقاليم - آمينين من الملك الأشرف وأولاده، وعساكره وجيوشه، وشوانيه وعمائره، هي ومن فيها من فرسان وخيالة ورعايا . وأهل بلاده آمينين مطمئنين على الأتقيس والأموال، والحريم والأولاد، في البر والبحر، والصدور والورود .

وعلى أن الملك دون حاكم هو وأخوه وصهره أصدقاء من يصادق الملك الأشرف وأولاده، وأعداء من يعاديه من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية . وإن قصد الباب برومية، أو ملك من ملوك الفرنج : متوجا كان أو غير متوج، كبيرا كان أو صغيرا، أو من الجنوية، أو من البنادقة، أو من سائر الأجناس على اختلاف الفرنج والرؤم، واليوت : بيت الإخوة الديوية، والاسبتارية، والرؤم، وسائر أجناس النصارى - مصرة بلاد الملك الأشرف، بحاربية أو أذبية، ينعهم الملك دون حاكم هو وأخوه وصهره ويردوهم، ويعمرون شوانيتهم وعرا كبتهم، ويقصدون بلادهم، ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحله ونغوره المذكورة، وغير المذكورة، ويقاثلونهم في البر والبحر بشوانيتهم وعمائرتهم، وفرسانهم وخيالاتهم ورجاليتهم .

وعلى أنه متى نرج أحد من معاهدي الملك الأشرف من الفرنج عن شروط الهدنة المستقرة بينه وبينهم، ووقع ما يوجب فسخ الهدنة، لا يعينهم الملك دون حاكم ولا أحد من أخويه ولا صهره، ولا خيالاتهم، ولا فرسانهم، ولا أهبل بلادهم، بجيول ولا خيالة، ولا سلاح ولا رجالة، ولا مال ولا تجدة، ولا ميرة، ولا مراكب ولا شوان ولا غير ذلك .

وعلى أنه متى طلب الباب برومية، وملوك الفرنج، والروم، والتتار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهرية أو من بلادهم، إنجاداً، أو معاونة: بخيالة، أو رجالة، أو مال، أو مراكب، أو شوان، أو سلاح - لا يوافقهم على شيء من ذلك، لا في سر ولا جهراً؛ ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقه على ذلك. ومتى أطلعوا على أن أحداً منهم يقصد بلاد الملك الأشرف لمحاربتة أو لمضرتة بشيء، يعرف الملك الأشرف بجزهم، وبالجهة التي آتفقا على قصديها في أقرب وقت، قبل حوطتهم من بلادهم، ولا يخفيه شيئاً من ذلك.

وعلى أنه متى أنكسر مركب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم، أو بلاد أخويه أو بلاد صهرية، [فعلهم] أن يخفروهم، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم، ويساعدوهم على عمارة مراكبهم، ويجهزوهم وأموالهم وبضائعتهم إلى بلاد الملك الأشرف. وكذلك إذا انكسرت مركب من بلاد دون حاكم، وبلاد أخويه وصهرية، ومعاهديه في بلاد الملك الأشرف، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الأشرف، أو ذمة أهل بلاده، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهرية وأولاده ومعاهديه، لا يعارضوهم في أموالهم ولا في بضائعتهم، ويحمل ما لهم وموجودهم إلى بلاد الملك الأشرف: ليفعل فيه ما يختار. وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهرية ومعاهديهم، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهرية أو معاهديه رسل من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة،

صَادِرِينَ أَوْ وَارِدِينَ ، أَوْ رَمَاهُم الرِّيحُ فِي بِلَادِهِمْ ، تَكُونُ الرُّسُلُ وَعِلْمَانُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ،  
وَمَنْ يَصِلُ مَعَهُمْ مِنْ رُسُلِ الْمَلُوكِ أَوْ غَيْرِهِمْ - آمِنِينَ مَحْفُوظِينَ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ،  
وَيُجَهِّزُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ مَتَى جَرَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِهِمْ قَضِيَّةٌ  
تُوجِبُ فُسْخَ الْمَهَادَنَةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ مَنْ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ طَلَبُ  
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَفِعْلُ الْوَاجِبِ فِيهِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ يَفْسُخُ كُلَّ مِنْهُمْ لِأَهْلِ بِلَادِهِ وَغَيْرِهِمْ  
مِنَ الْفَرَنْجِ ، أَنَّهُمْ يَجْلِبُونَ إِلَى الثُّغُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ : الْحَدِيدَ وَالْبَيَاضَ وَالْحَشَبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أُسِرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ ، مِنْ مَبْدِئِ تَارِيخِ هَذِهِ الْمَهَادَنَةِ  
مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ : شَرْقِيَّهَا وَغَرْبِيَّهَا ، أَقْصَاهَا وَأَدْنَاهَا ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ  
حَاكِمِ وَبِلَادِ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ لِيُدْعَوْهُ بِهَا ، فَيَلْزِمُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ  
فَكَ أَمِيرِهِ وَحَمَلَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى كَانَ بَيْنَ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَيْنَ تِجَّارِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ  
وَصِهْرِيهِ مُعَامَلَةٌ فِي بَضَائِعِهِمْ ، وَهَمَّ فِي بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ أَمْرُهُمْ مَجْمُولًا عَلَى  
مُوجِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى رَكِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَكَبِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ  
وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، وَحَمَلَ بَضَاعَتَهُ مَعَهُمْ وَعُدِمَتِ الْبِضَاعَةُ ، كَانَ عَلَى الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ  
وَعَلَى أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ رُدُّهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً ، أَوْ قِيمَتَهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى هَرَبَ أَحَدٌ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمَهَادَنَةِ إِلَى  
بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِبِضَاعَتِهِ لغيره وَأَقَامَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،



كان على الملكِ دون حاكمِ وعلى أخويه وصهريه ردُّ الهاربِ أو المقيمِ ببضاعةٍ غيره،  
والمالِ معه إلى بلاد الملكِ الأشرفِ مادامُ مسلماً . وإن تنصَّر ، ردُّ المالِ الذي  
معه خاصَّة . ولملكة الملكِ دون حاكمِ وأخويه وصهريه فيمن يهرب من بلادهم  
إلى بلاد الملكِ الأشرفِ هذا الحكمُ المذكورُ أعلاه .

وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملكِ دون حاكمِ وبلادِ أخويه وصهريه ومعهديه  
من الفَرنجِ من يقصدُ زيارةَ القُدسِ الشَّريفِ ، وعلى يدهِ كُتِبَ الملكِ دون حاكمِ  
وختمه إلى نائبِ الملكِ الأشرفِ بالقُدسِ الشَّريفِ ، يُفسَّحُ له في الزيارةِ مَسْمُوحًا  
بالحقِّ ليقضىَ زيارتهِ ويعودَ إلى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله ، رجلاً كان  
أو امرأةً ؛ بحيثُ إن الملكِ دون حاكمِ لا يكتبُ لأحدٍ من أعدائه ولا من أعداءِ  
الملكِ الأشرفِ في أمرِ الزيارةِ بشيءٍ .

وعلى أن الملكِ دون حاكمِ يحرسُ جميعَ بلادِ الملكِ الأشرفِ هو وأخواه وصهره  
من كلِّ مَضرةٍ ، ويجهدُ كلَّ منهم في أن أحداً من أعداءِ الملكِ الأشرفِ لا يصلُ  
إلى بلادِ الملكِ الأشرفِ ، ولا يُنجسُهم على مَضرةِ بلادِ الملكِ الأشرفِ ولا رعاياه ،  
وأنه يساعدُ الملكِ الأشرفِ في البرِّ والبحرِ بكلِّ ما يشتهيهِ ويختاره .

وعلى أن الحقوقَ الواجبةَ على من يصُدُّ ويردُّ ويرتدُّ من بلادِ الملكِ دون حاكمِ  
وأخويه وصهريه ، إلى تغري الإسكندريةِ ودمياط ، والثغورِ الإسلاميةِ ، والممالكِ  
السُّلطانيةِ ، بسائرِ أصنافِ البضائعِ والمتاجرِ على اختلافِها ، تستمرُّ على حكمِ الضرائبِ  
المستقرَّةِ في الدِّيوانِ المعمورِ إلى آخرِ وقتٍ ، ولا يُحدَثُ عليهم فيها حَدِيثٌ . وكذلك  
يجرى الحكمُ على من يرتدُّ من البلادِ السلطانيةِ إلى بلادِ الملكِ دون حاكمِ وأخويه  
وصهريه .

تستمر هذه المودة والمصادقة على حكم هذه الشروط المشروحة أعلاه من الجهات على الدوام والاستمرار، وتجري أحكامها وقواعدها على أجملي الاستقرار، فإن الممالك بها قد صارت مملكة واحدة وشيئا واحداً؛ لا تنتقض بموت أحد من الجانبين، ولا بعزل وإل وتولية غيره، بل تؤيد أحكامها، وتدوم أيامها، وشهورها وأعوامها. وعلى ذلك أنتظمت وأستقرت في التاريخ المذكور أعلاه، وهو كذا وكذا، والله الموفق بكرمه إن شاء الله تعالى.

قلت: وهذه النسخ الخمس المقدمة الذكر نقلتها من تذكرة محمد بن المكرم، أحد كتّاب الإنشاء بالدولة المنصورية «فلاوون» المسماة: «تذكرة اللبيب، ونزهة الأديب» من نسخة بخطه، ذكر فيها أن النسخة الأولى منها كتبها بخطه على مدينة صفد. وليس منها ما هو حسن الترتيب، رائق الألفاظ، بهج المعاني، بلغ المقاصد، غير النسخة الأخيرة المعقودة بين الملك الأشرف وبين الملك دون حاكم. أما سائر النسخ المقدمة فإنها مبتدلة الألفاظ، غير راقية الترتيب، لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة لصناعة الكلام. والعجب من صدور ذلك في زمن «الظاهر بيبرس» و«المنصور فلاوون» وهما من هما من عظماء الملوك!! وكتابة الإنشاء يومئذ بيد بني عبد الظاهر الذين هم بيت الفصاحة ورعوس أرباب البلاغة!! ولعل ذلك إنما وقع، لأن الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ببلاد الشام، فيقع الاتفاق والتراضي بين الجهتين على فصل فصل، فيكتبه كاتب من كل جهة من جهتي المسلمين والفرنج بالفاظ مبتدلة غير راقية، طلباً للسرعة، إلى أن ينتهي بهم الحال في الاتفاق والتراضي، إلى آحرفصول الهدنة، فيكتبها كاتب الملك المسلم على صورة ما جرى في المسودة، ليطابق ما كتب به كاتب الفرنج. إذ لو عدل فيها كاتب

السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب ، لأختل الحال فيها عما وافق عليه كاتبُ الفرنج أولاً ، فينكرونه حينئذ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاجُ الكاتبُ إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المَسودَّة . وبالجملة فإنما ذكرتُ النسخَ المذكورةَ - على سخافة لفظها ، وعدم أنسجام ترتيبها - لأشتملها على الفصول التي جرى فيها الاتفاقُ فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتبُ ما لعله لا يحضر بباله من مقاصد المهادنات ، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها .

وأعلم أنه قد جرت العادة ، أنه إذا كتبت الهدنة ، كتب قرينها يميناً يحلفُ بها السلطانُ أو نائبه القائمُ بعقد الهدنة ، على التوبة بفصولها وشروطها ، ويميناً يحلفُ عليها القائمُ عن الملك الكافر بعقد الهدنة ، ممن يأذن له في عقدها عنه ، بكتاب يصدر عنه بذلك ، أو يُجهزُ نسختها إلى الملك الكافر ليحلفُ عليها ، ويكتب خطه بذلك ، وتعاد إلى الأبواب السلطانية .

### المذهب الثالث

( أن تُفتَحَ المهادنةُ بخطبةٍ مبتدأةٍ بـ «الحمد لله» )

وعلى هذا بنى صاحبُ "مواد البيان" أمره في كتابة الهدنة ، حيث قال : والرسم فيها أن تُفتَحَ بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أدلَّ كلَّ دينٍ وأعرَّه ، وخذلَّ كلَّ شرعٍ ونصره ، وأخفى كلَّ مذهبٍ وأظهره ، والتوغلَّ في توحيدِهِ ، وتقديسِهِ وتمجيدِهِ ، والثناء عليه بالآله ، والصلاة على خير أنبيائه ، محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم يأت بصورة هُدنية مُتظمة على هذا الترتيب ، بل أشار إلى كَيْفِيَّةِ عملها . ثم قال : والبليغُ يكتفي بقرينته في ترتيب هذه المعاني إذا دُفع إلى الإنشاء فيها ، إن شاء الله تعالى . ولم أقف لغيره على صورة هُدنية مفتحة بالتحديد ، ولا يخفى أن الأبتداء به في كلِّ مُهمٍّ من العهودِ وجلالِ الولايات ونحو ذلك هو المعمول عليه في زماننا .

### الطرف الثاني

(فيما يُشارك فيه ملوك الكُفْرِ ملوك الإسلام في كتابة نسخ من دواوينهم)

اعلم أن الغالب في الهدن الواقعة بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الكُفْرِ أن تُكتب نسخة تُخلدُ بديوان الإنشاء بالديار المصرية ، ونسخة تُجهز إلى الملك المُهادن . وربما كتبت نسخة من ديوانه مفتحةً بيين .

وهذه نسخة هُدنية وردت من جهة الأشركي ، صاحب القسطنطينية في شهر رمضان سنة ثمانين وستمائة ، مؤرخة بتاريخ موافق لأواخر المحرم من السنة المذكورة ، فُعرت فكانت نسختها على ما ذكره ابن مكرم في "تذكرة" :

إذ قد أراد السلطان العظيم ، النسيب ، العالی ، العزيز ، الكبير الجنيس ، الملك ، المنصور ، سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، أن يكون بينه وبين مملكتي محبة - فمملكتي تُؤثر ذلك ، وتختار أن يكون بينها وبين عز سلطانها محبة . ولهذا وجب أن يتوسط هذا الأمر بين واتفق : لتدوم المحبة التي بهذه الصورة فيما بين مملكتي وعز سلطانها نائمة بلا تشويش . فمملكتي هذا اليوم ، وهو يوم الخميس الثامن من شهر إيار من التاريخ [ الرومي ] التابع لسنة ستة آلاف

وسبعائة وتسع وثمانين لآدم - تخلف بأناجيل الله المقدسة ، والصليب المكرم المحيي ،  
أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم ، النسيب ، العالی ، العزيز ، الكبير الجنس ،  
سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، ولولده ولوارث  
ملك عن سلطانة : محبة مستقيمة ، وصدافة كاملة نقيّة ، ولا تحرك ملكي أبداً على  
عن سلطانة حرباً ، ولا على بلاده ولا على قلاعها ، ولا على عساكره ، ولا تحرك  
ملكى أبداً على حربيه ، بحيث إن هذا السلطان العظيم ، النسيب ، العالی ، العزيز ،  
الكبير الجنس ، الملك المنصور سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية  
ودمشق وحلب ، يحفظ مثل ذلك لملكتي ولولده مملكتي الحبيب الكينوس ،  
الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوغس ، الملك ايرلك ، ولا يحرك عن سلطانة على  
مملكيتنا حرباً قط ، ولا على بلادنا ، ولا على قلاعنا ، ولا على عساكرنا ، ولا يحرك  
أحدنا آخر أيضاً على حرب مملكتنا . وأن تكون الرسل المترددون عن عن سلطانة أيضاً  
مطلقاً [آمين ، لهم] أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق ، ويتوجهوا إلى حيث  
يسيرون من عن سلطانة ، وكذلك يعودون إلى عن سلطانة . وأن لا يحصل للتجار  
الواردين من بلاد عن سلطانة [ضرر] من بلاد مملكتي ، لا يحدرون من أحد جوراً  
ولا ظمناً ، بل يكون لهم مباحاً أن يعملوا متاجرهم . ونظير هذا - التجار الواردون إلى بلاد  
عن سلطانة من أهل بلاد ملكي ، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم ، وليقم كذلك  
التجار الواردون من بلاد عن سلطانة إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم .  
وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عن سلطانة ، فلا ينال  
هؤلاء تعويق في بلاد ملكي ، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد  
القيام بالحق الواجب . وهؤلاء التجار الذين من بلاد عن سلطانة والذين من أهل  
سوداق إن حضر صحبتهم ممالك وتجار ، فليعودوا بهم إلى بلاد عن سلطانة بلا عائق

ولا مانع، ما خلا إن كانوا نصارى، لأنَّ شَرْعَنَا وَتَرْتِيبَ مَذْهَبِنَا لَا يُسْمَحُ لَنَا فِي أَمْرِ  
النَّصَارَى بِهَذَا .

وأما إن كان في بلاد عِزِّ سُلْطَانِهِ مَمَالِكُ نَصَارَى : رُومٌ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَجْنَاسِ  
النَّصَارَى، مَتَسَكُونِ بِيَدِي النِّصَارَى، وَيَحْصِلُ لِقَوْمِ مِنْهُمْ العِتْقُ، فَلْيَكُنْ لِلَّذِينَ مَعَهُمْ  
عَتَائِقُ مَبَاحٌ وَمَطْلُوقٌ مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ، أَنْ يَفِدُوا فِي البَحْرِ إِلَى بِلَادِ مَمْلَكَتِي . وَكَذَلِكَ  
إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ أَنْ يَبِيعَ مَمْلُوكًا نَصْرَانِيًّا هَذِهِ صُورَتُهُ لِأَحَدٍ  
مِنْ رُسُلِ مَمْلَكَتِي، أَوْ لِتِجَّارٍ وَأُنَاسٍ بِلَادِ مَمْلَكَتِي، أَنْ لَا يَجِدَ فِي هَذَا تَعْوِيقًا، بَلْ  
يَسْتَرُوا الْمَذْكَورَ وَيَفِدُوا بِهِ فِي البَحْرِ إِلَى بِلَادِ مَمْلَكَتِي بِلَا عَائِقٍ . وَأَيْضًا إِنْ أَرَادَ  
هَذَا السُّلْطَانُ العَظِيمُ النَّسِيبُ، أَنْ يُرْسَلَ إِلَى بِلَادِ مُلْكِي بَضَائِعَ مَتَجَرًا، وَأَرَادَتْ  
مَمْلَكَتِي أَنْ تُرْسَلَ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ بَضَائِعَ مَتَجَرًا، فَلْيَكُنْ هَكَذَا : وَهُوَ إِنْ أَرَادَ  
عِزِّ سُلْطَانِهِ أَنْ تَكُونَ بَضَائِعُ مَتَاجِرِهِ فِي بِلَادِ مُلْكِي مُنْجَاةً مِنَ القِيَامِ بِكُلِّ الحَقُوقِ،  
فَلْيَكُنْ أَيْضًا بَضَائِعُ مَتَاجِرِ مَمْلَكَتِي فِي بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ مُنْجَاةً مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ  
الحَقُوقِ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ تَقُومَ مَتَاجِرُ مُلْكِي فِي بِلَادِهِ بِالحَقُوقِ الوَاجِبَةِ [يَقُومُ] بِمِثْلِ  
ذَلِكَ . وَأَيْضًا أَنْ يُطَلَّقَ عِزِّ سُلْطَانِهِ لِمُلْكِي أَنْ يُرْسَلَ أُنَاسًا مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَتِي إِلَى بِلَادِ  
عِزِّ سُلْطَانِهِ، فَيَسْتَرُونَ لِي خِيَلًا جِيَادًا وَيَحْمِلُونَهَا إِلَى بِلَادِ مُلْكِي . وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَادَ  
عِزِّ سُلْطَانِهِ شَيْئًا مِنْ خِيَرَاتِ بِلَادِ مُلْكِي، فَمَمْلَكَتِي أَيْضًا تُطَلِّقُ لِعِزِّ سُلْطَانِهِ أَنْ يُرْسَلَ  
أُنَاسُهُ لِيَسْتَرُوهُ وَيَحْمِلُوهُ إِلَى عِزِّ سُلْطَانِهِ .

ولمَّا كَانَ فِي البَحْرِ كِرْسَالِيهِ مِنْ بِلَادِ غَرِيبِيَّةٍ، وَقَدْ يَتَّفِقُ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ أَنْ  
يَعْمَلُوا خَسَارَةً فِي بِلَادِ مُلْكِي، وَكَذَلِكَ يَجِدُونَ هَؤُلَاءِ الكِرْسَالِيَّةِ قَوْمًا مِنْ بِلَادِ عِزِّ  
سُلْطَانِهِ فَيَعْمَلُونَ لَهُمْ خَسَارَةً، ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الكِرْسَالِيَّةِ يَفْعَلُونَ هَذَا فِي الآفَاقِ فِي تُحُومِ  
بِلَادِ مُلْكِي . لِأَجْلِ هَذَا صَارَ : إِذَا حَضَرَ قَوْمٌ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَتِي إِلَى بِلَادِ عِزِّ

سُلْطَانِهِ بِمَتَجَرِّ يُمَسْكُونَ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ وَيَغْرَمُونَ . وَهَذَا فَلْيَصْرُ مَرْسُومٌ  
 مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ بِلَادِهِ أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي لَا يَغْتَرَمُ بِهَذَا السَّبَبِ  
 وَلَا يُمَسِّكُ ، وَإِنْ عَرَّضَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ : إِنَّهُ غُرِّمَ أَوْ ظُلِمَ  
 مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مُلْكِي فَلْيَعْتَرَفْ مُلْكِي بِذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي وَضَعَ الْغَرَامَةَ مِنْ أَهْلِ  
 بِلَادِ مُلْكِي ، فَمُلْكِي يَأْمُرُ ، وَتَعَادُ تِلْكَ الْخَسَارَةُ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ  
 قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي : إِنَّهُ ظُلِمَ أَوْ غُرِّمَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ،  
 يَأْمُرُ عِزُّ سُلْطَانِهِ ، وَتَعَادُ الْغَرَامَةُ إِلَى بِلَادِ مُلْكِي . وَأَيْضًا إِذَا قَدْ أَرْمَعَتِ الْحَبَّةُ أَنْ  
 نَصِيرَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَكُونَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ خَالِصَةً ، حَتَّى إِنَّهُ  
 أَرْسَلَ يَقُولُ لِمُلْكِي عَلَى مَعُونَةٍ وَتَجْدَةٍ مُلْكِي فِي الْبَحْرِ لِمَضَرَّةِ الْعَدُوِّ الْمَشْتَرِكِ ، فَمَمْلَكَتِي  
 تَفَوِّضُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى اخْتِيَارِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، أَنْ يَرْتَبِ فِي نَسْخَةِ الْيَمِينِ مَعَ بَقِيَّةِ  
 الْفُصُولِ الْمَعِينَةِ فِيهِ ، وَتَأْتِي الصُّورَةُ كَيْفَ تَعِينُ وَتَتَجَدُّ مَمْلَكَتِي فِي الْبَحْرِ . وَإِنْ كَانَ  
 لَا يُرِيدُ تَجْدَةً وَمَعُونَةً مَمْلَكَتِي ، فَمَمْلَكَتِي تَسْمَحُ بِهَذَا الْفَضْلِ أَنْ لَا يَضَعَهُ عِزُّ سُلْطَانِهِ  
 فِي نُسْخَةِ يَمِينِهِ ، وَهَذِهِ الْيَمِينُ مِمَّا يَحْفَظُ مُلْكِي لِعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً غَيْرَ مَتَرَعِزَّةٍ إِنْ كَانَ  
 هَذَا السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ يَخْلِفُ لِي يَمِينًا يَمَثَلُهَا ، وَأَنَّهُ يَحْفَظُ الْحَبَّةَ لِمَمْلَكَتِنَا ، ثَابِتَةً غَيْرَ  
 مَتَرَعِزَّةٍ ، وَالسَّلَامُ .



وهذه نسخة اتفاق ، كتبت من الأبواب السلطانية عن الملك المنصور «قلاوون»  
 عن نظير الهدنة المتقدمة ، الواردة من قبيل صاحب القسطنطينية ، مفتحته يمين  
 موافقة لها ، وهي :

أقول وأنا فلان : إنه لما رغب حضرة الملك الجليل ، كرميخائيل ، الدوقس ،  
 الأبحالوس ، الكينيوس ، البالاولوغس ، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ،

أكبر ملوك المسيحية ، أبقاه الله - أن يكون بين مملكته وبين عِزِّ سُلْطَانِي ، محبةً  
وصداقةً ومودةً لا تتغير بتغير الأيام ، ولا تزول بزوال السنين والأعوام ؛ وأكد ذلك  
بيمين حلف عليها ، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر إيار سنة ستة آلاف وسبعمائة  
وتسع وثمانين لآدم ، صلوات الله عليه ، بحضور رسول عِزِّ سُلْطَانِي ، الأمير ناصر الدين  
أبن الجَزْرِي ، والبَطْرِك الجليل انباسيوس بطرِك الاسكندرية ، وحضر رسوله  
فلان وفلان إلى عِزِّ سُلْطَانِي بِنسخة اليمين ، مُلتَمِسِينَ أن يتوسَّط هذا الأمر أيضًا  
يمينًا واتفاقًا من عِزِّ سُلْطَانِي ، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعِزِّ سُلْطَانِي ، وتكون  
ثابتة مستمرة على الدوام والاستمرار .

فِعزِّ سُلْطَانِي من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين مُستَهَلُّ رمضان المعظم ، سنة  
ثمانين وثمانمائة للهجرة النبوية المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ؛  
يحاف بالله العظيم ، الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسر والعلانية وما تخفى  
الصدور ، والقرآن العظيم ، وبمن أنزله ، وبمن أنزل عليه ، وهو النبي الكريم ،  
محمد صلى الله عليه وسلم - على استمرار الصداقة ، واستقرار المودة النقية ، للملك  
الجليل كرميخائيل ، ضابط مملكة الروم والقُسطنطينية العظمى ، وولده مملكته  
الحبيب الكمينيوس الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوغس ، الملك إيراندروبنفوس ،  
ولواري مملكة ملكه . ولا يحرك عِزِّ سُلْطَانِي أبدًا على مملكته حربًا ، ولا على  
بلاديه ، ولا على قلاعيه ، ولا على عساكره : في بر ولا بحر . ولا يحرك  
عِزِّ سُلْطَانِي أحدًا آخر على حربيه ، بحيث إن الملك الجليل كرميخائيل يحفظ مثل  
ذلك لعِزِّ سُلْطَانِي ، وملكه ، وبلاديه ، ولقلاعي ، ولعساكره ، ولولدي السُلْطَانِ  
الملك الصالح علاء الدين «علي» ولواري ملكه من أولاده ؛ ويستمر على هذه  
الصداقة والمودة النقية ، ولا يحرك ملكه على عِزِّ سُلْطَانِي حربًا قط ، ولا على



بلادى ، ولا على قلاعى ، ولا على عساكرى ، ولا على مملكتى ، ولا يحرك أحدًا  
آخر على حرب مملكة عز سلطانى فى البر ولا فى البحر ، ولا يساعده أحدًا من أصداد  
عز سلطانى ، ولا أعدائى من سائر الأديان والأجناس ، ولا يوافقه على ذلك ،  
ولا يفسح لهم فى العبور إلى مملكة عز سلطانى لمضرة شئ فيها بجهد وطأته .

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطانى إلى بر بركة وأولاده وبلادهم  
وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئنين مطلقًا : لهم أن يعبروا  
فى بلاد مملكة الملك الجليل ، كرميخايل من أولها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق :  
أرسلوا فى بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطانى ، آمنين  
مطمئنين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل  
من معهم من ممالك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة  
الملك الجليل كرميخايل إلى بلاد عز سلطانى جور ولا ظلم ، ويتددون آمنين  
مطمئنين يعملون متاجرهم ، ولهم الرعاية فى الصدور والورود ، والمقام والسفر :  
بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطانى فى بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل مثل  
ذلك ، ويكونون مرعيين ، لا يجدون من أحد فى بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل  
جورًا ولا ظلمًا . ومن عليه حق واجب فى الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به  
من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بماليك وجوار تمكثهم  
مملكة الملك الجليل كرميخايل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطانى ولا تمنعهم .  
وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين فى البحر ، ونسبت  
الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخايل ، يسير عز سلطانى إليه فى طلبهم ،

ولا يتعرض أحدٌ من نواب مملكة عِزِّ سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم ، إلا أن يتحقق أنهم آخذون ، أو تظهر عين المال معهم ، على ما تضمنته نسخة يمين الملك الجليل كرميخائيل ، ولملكة الملك الجليل كرميخائيل من بلاد عِزِّ سلطاني مثل ذلك .

وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين : من مملكة عِزِّ سلطاني ، ومن مملكة الملك الجليل كرميخائيل ، يكونون أميين مطمئنين في سفرهم ومقامهم : براً وبحراً ، وتكون رعية بلاد عِزِّ سلطاني ، ورعية بلاد الملك الجليل كرميخائيل ، في الجهتين من المسامين وغيرهم أميين مطمئنين ، صادقين وارين ، محترمين مرعيين . وهذه ايمين لا تزال محفوظة ملحوظة ، مستمرة مستقرة ، على الدوام والاستمرار .

قلت : وهذه النسخة والنسخة الواردة من صاحب القسطنطينية المتقدمة عليها ، وإن عبر عنهما في خالهما بلفظ اليمين ، فإنهما بعقد الصلح أشبه ، واليمين جزء من أجزاء ذلك ، ولذلك أوردتها في عقود الصلح دون الأيمان .

## الباب الخامس

## من المقالة التاسعة

( في عقود الصلح الواقعة بين ملكين مسلمين ، وفيه فصلان )

## الفصل الأول

## في أصولٍ تُعتمدُ في ذلك

اعلم أنَّ الأصلَ في ذلك ما ذكره أصحابُ السيرِ وأهلُ التاريخِ ، أنه لما وقع الحربُ بين أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ كرم الله وجهه ، وبين معاويةَ بن أبي سفيانٍ رضي الله عنه ، في صيفين ، في سنة سبع وثلاثين من الهجرة - توافقا على أن يقيما حكمتين بينهما ، ويعملا بما يتفقان عليه . فأقام أمير المؤمنين عليُّ أبا موسى الأشعريَّ حكماً عنه ، وأقام معاويةُ عمرو بن العاصِ حكماً عنه . فاتفق الحكمان على أن يكتبَ بينهما كتابٌ بعقدِ الصلح ، واجتمعا عند عليِّ رضي الله عنه ، وكتبَ كتابَ القضيَّةِ بينهما بحضوره ، فكتبَ فيه بعد البسملة :

هذا ما تقاضى أمير المؤمنين عليُّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [ الأحنف : لا تمحُ اسم أمير المؤمنين فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبدا . لا تمحُّها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك عليٌّ ملياً من النهار . ثم إن الأشعث<sup>(١)</sup> ابن قيس قال : أمح اسم أمير المؤمنين ، فأجاب عليٌّ ومجاه . ثم قال عليٌّ : الله أكبر ! سنةً بسنة . والله إني لكتبُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، فكتبتُ : محمد رسول الله ، فقالوا : لست برسول الله ، ولكن آكتبُ اسمك وأسم أبيك .

(١) بياض في الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٨ .

فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُجْوِهِ ، فَقُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ أَفْعَلُ ! فَقَالَ  
إِذَنْ أَرِنِيهِ فَأَرَيْتُهُ فَمَحَاهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ سَتُدْعَى إِلَى مِثْلِهَا فُتَجِيبُ » .



وهذه نسخة كتاب القضية بين أمير المؤمنين عليّ وبين معاوية ، فيما رواه  
أبو عبد الله الحسين بن نصر بن مزاحم المنقري ، في "كتاب صفين والحكمين"  
بسنده إلى محمد بن عليّ الشّعبيّ ، وهو :

هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما ،  
فيما تراضيا من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . قضية عليّ على  
أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، وقضية معاوية على أهل  
الشّام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، أنا رضينا أن نترزل عند حكم  
كتاب الله بيننا حكما فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته ، نُحْيِي مَا أَحْيَا ، وَنُمِيتُ  
مَا أَمَاتَ . على ذلك تراضينا ، وبه تراضينا . وإنّ عليا وشيعته رضوا أن يبعثوا  
عبد الله بن قيس ناظرا ومُحَاكِمًا ، ورضى معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص  
ناظرا ومُحَاكِمًا ، على أنهم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على  
أحد من خلقه ، لِيَتَّخِذَانَ الْكِتَابِ إِمَامًا فِيَا بَعَثَا لَهُ ، لَا يَعْدُوَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فِي الْحُكْمِ  
بِمَا وَجَدَا فِيهِ مَسْطُورًا ، وَمَا لَمْ يَجِدَاهُ مَسْمُومًا فِي الْكِتَابِ رَدَّاهُ إِلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ  
الْجَامِعَةِ ، لَا يَتَّعَمِدَانِ لَهَا خِلَافًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ فِي ذَلِكَ لَهَا هَوًى ، وَلَا يَدْخُلَانِ  
فِي شُبُهَةٍ .

وأخذ عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص على عليّ ومعاوية عهد الله وميثاقه  
بالرضا بما حكما به من كتاب الله وسنة نبيه ، ليس لهما أن ينقضوا ذلك تخالفا إلى

غيره ، وأنهما آمانان في حكومتيهما على ديمائيهما وأمواليهما وأهليهما ، ما لم يعدوا الحق ،  
 رضى بذلك راض أو أنكرك منكر . وأن الأمة أنصار لها على ما قضيا به من العدل .  
 فإن توفى أحد الحكامين قبل انقضاء الحكومة ، فأمير شيعته وأصحابه يختارون  
 رجلاً ، لا يألوان عن أهل المعدلة والإفساط ، على ما كان عليه صاحبه من العهد  
 والميثاق والحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، وله مثل شرط صاحبه .  
 وإن مات واحد من الأميرين قبل القضاء ، فليشيعته أن يؤولوا مكانه رجلاً  
 يرضون عدله .

وقد وقعت القضية بيننا والأمن والتفاوض ، ووضع السلاح . وعلى الحكامين  
 عهد الله وميثاقه : ليحْكَمَ بكتاب الله وسنة نبيه ، لا يدخلان في شبهة ولا يألوان  
 اجتهاداً ، ولا يتعمدان جوراً ، ولا يتبعان هوى ، ولا يعدوان ما في كتاب الله تعالى  
 وسنة رسوله . فإن لم يفعلا برئت الأمة من حكمهما ، ولا عهد لها ولا ذمة .  
 وقد وجبت القضية على ما سَمِينَا في هذا الكتاب من موقع الشرط على الأميرين  
 والحكامين والفريقين ، والله أقرب شهيدا وأدنى حفيظا ، والناس آمنون على أنفسهم  
 وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل ، والسلاح موضوع ، والسبيل محلى ،  
 والشاهد والغائب من الفريقين سواء في الأمر . وللحكامين أن ينزلا منزلاً عدلاً بين  
 أهل العراق وأهل الشام ، ولا يحضرهما فيه إلا من أحببنا<sup>(١)</sup> عن ملامتهم وتراض .  
 وأجل القاضيين المسلمون إلى رمضان : فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة فيما  
 وجهاله ، عجلوا . وإن أرادوا تأخيرها بعد رمضان إلى انقضاء الموسم ، فإن ذلك  
 إليهما . فإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم ، فالمسلمون على

(١) أى تشاور واجتماع .

أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام على ما في هذا الكتاب . وهم يدُّ على من أراد في هذا الكتاب الحاداً أو ظمماً ، أو أراد له نقضاً .

شهد على ما في هذا الكتاب من أصحاب عليّ : الأشعث بن قيس ، وعبد الله ابن عباس ، والأشتر بن الحرث ، وسعيد بن قيس الهمداني ، والحصين والطّفل ابن الحرث بن المطّلب ، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري ، وخبّاب بن الارت ، وسهل بن حنيف الأنصاري ، وأبو اليسر بن عمرو الأنصاري ، ورقاعة بن رافع ابن مالك الأنصاري ، وعوف بن الحرث بن المطّلب القرشي ، وبريدة الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحقيق الخزاعي ، والحسن والحسين ابن عليّ ، وعبد الله بن جعفر الهاشمي ، واليعمر بن عجلان الأنصاري ، ومجرب بن عدي الكندي ، وورقاء بن سميّ البجليّ ، وعبد الله بن الطّفل الأنصاري ، ويزيد بن حجة الدكريّ<sup>(١)</sup> ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، وأبو صفرة ، والحارث بن مالك ، ومجرب بن يزيد ، وعقبة بن حجة .

ومن أصحاب معاوية : حبيب بن مسلمة الفهميّ ، و[أبو] الأعور السلميّ ، وبسر ابن أرطاة القرشيّ ، ومعاوية بن خديج الكنديّ ، والمخارق بن الحرث الحميريّ ، وزميل بن عمرو السكسكيّ ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزوميّ ، وحمرة بن مالك الهمدانيّ ، وسبع بن زيد الحميريّ<sup>(٢)</sup> ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلقمة بن مرثد<sup>(٣)</sup>

(١) في الكامل لابن الأثير "ابن حجة التيمي" .

(٢) في خلاصة أسماء الرجال : الفهري .

(٣) في الكامل : "سبع بن يزيد الأنصاري" .

الكَلْبِيُّ، وخالد بن الحَصِينِ السَّكْسَكِيُّ، وعلقمة بن يزيد الحَضْرَمِيُّ، ويزيد بن الحز  
العَبْسِيُّ، ومسروق بن حملة العَكِيّ، ومسير بن يزيد الجَمِيرِيُّ، وعبد الله بن عامر  
الْقُرَشِيُّ، ومروان بن الحَكَمِ، والوليد بن عتبة الْقُرَشِيُّ، وعقبة بن أبي سُفْيَانَ،  
ومحمد بن أبي سُفْيَانَ، ومحمد بن عمرو بن العَاصِ، ويزيد بن عمرو الجُدَامِيُّ، وعمار  
ابن الأَخْوصِ الكَلْبِيُّ، ومسعدة بن عمر القَبِيّ، وعاصم بن المستنير الجُدَامِيُّ،  
وعبد الرحمن بن ذِي كَلَّاجِ الجَمِيرِيُّ، والصبح بن جلهمة الجَمِيرِيُّ، وثمّامة بن  
حَوْشَبِ، وعلقمة بن حكيم، وحمزة بن مالك .

وإنّ بيننا على ما في هذه الصَّحِيفَةِ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ . وَكَتَبَ عُمَيْرُ يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ  
لثَلَاثِ عَشْرَةَ لَيْلَةً بَقِيَتْ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ .

وأخرج أيضا بسنده إلى أبي إسحق الشَّيبَانِيّ أن عَقَدَ الصُّلْحَ كَانَ عِنْدَ سَعِيدِ  
أَبْنِ أَبِي بُرْدَةَ فِي صَحِيفَةٍ صَفْرَاءَ عَلَيْهَا خَاتَمَانِ : خَاتَمٌ فِي أَسْفَلِهَا، وَخَاتَمٌ فِي أَعْلَاهَا .  
فِي خَاتَمِ عَلِيٍّ «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» وَفِي خَاتَمِ مُعَاوِيَةَ «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» .

قلتُ : وَذَكَرَ رَوَايَاتٍ أُخْرَى فِيهَا زِيَادَةٌ وَتَقْصُصٌ أَضْرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهَا خَوْفَ  
الإِطَالَةِ، إِذْ فِيهَا ذِكْرُنَا مَقْنَعٌ . عَلَى أَنَّ المَوْرُخِينَ لَمْ يَذْكُرُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا طَرَفًا يَسِيرًا .

## الفصل الثاني

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

( فيما جرت العادة بكتابه بين الخلفاء وملوك المسلمين على تعاقب الدول،

مما يكتب في الطرة والمتن )

أما الطرة : فليعلم أن الذي ينبغي أن يكتب في الطرة هنا : « هذا عقد صلح »  
ويكمل على ما تقدم في الهدنة . ولا يكتب فيه : « هذه هدنة » لما يسبق إلى  
الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكفار .

وأما المتن فعلى نوعين :

### النوع الأول

( ما يكون العقد فيه من الجانبين )

ولم أر فيه للكاتب إلا الاستفتاح بلفظ : « هذا » . وعليه كتب كتاب القضية  
بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان  
رضي الله عنه ، على ما تقدم ذكره .

وعلى ذلك استكتب هرون الرشيد ولديه : محمدا الأمين ، وعبد الله المأمون :  
العهدين اللذين عهد فيهما بالخلافة بعده لابنه الأمين ، وولي نخراسان ابنه المأمون ،  
ثم عهد بالخلافة من بعد الأمين للمأمون ، وأشهد فيهما ، وبعث بهما إلى مكة فعلقا  
في بطن الكعبة ، في جملة المعلقات التي كانت تعلق فيها ، على عادة العرب السابقة :  
من تعليق القصائد ونحوها . وبذلك سُميت القصائد السبع المشهورة : بالمعلقات ،  
لتعليقهم إياها في جوف الكعبة .



أما عهد الأيمن، فُنسخته بعد البسملة - على ما ذكره الأزرقي في أخبار مَكَّة -  
ما صورته :

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه [له] محمد بن أمير المؤمنين في صحبة  
من بدنه وعقله، وجواز من أمره، طائعا غير مكره .

إن أمير المؤمنين هرون ولأني العهد من بعده، وجعل لي البيعة في رقاب  
المسلمين جميعا، وولي أئني عبد الله بن أمير المؤمنين هرون العهد والخلافة وجميع  
أمور المسلمين من بعدي، برضا مني وتسليم، طائعا غير مكره . وولاه خراسان  
بثغورها، وكورها، وجنودها، وخراجها، وطرازها، وبريدها، وبيوت أموالها،  
وصدقاتها، وعشرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعد وفاته . فشرطت  
لعبد الله ابن أمير المؤمنين على الوفاء بما جعله له أمير المؤمنين هرون : من البيعة  
والعهد، وولاية الخلافة وأمور المسلمين بعدي، وتسليم ذلك له، وما جعل له  
من ولاية خراسان وأعمالها، وما أقطعه أمير المؤمنين هرون من قطيعه، وجعل له  
من عقدة أو ضيعة من ضياعه وعقده، أو ابتاع له من الضياع والعقد . وما أعطاه  
في حياته وصحته : من مال، أو حلي، أو جوهر، أو متاع، أو كسوة، أو رقيق،  
أو منزل، أو دواب، قليلا، أو كثيرا، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين موقرا عليه،  
مسما له . وقد عرفت ذلك كله شيئا فشيئا باسمه وأصنافه ومواضعه، أنا وعبد الله  
ابن هرون أمير المؤمنين . فإن اختلفنا في شيء منه فالقول فيه قول عبد الله بن هرون  
أمير المؤمنين، لا أتبعه بشيء من ذلك، ولا أخذه منه، ولا أنتقصه، صغيرا  
ولا كبيرا [من ماله] ولا من ولاية خراسان ولا غيرها مما ولاه أمير المؤمنين من  
الأعمال، ولا أعزله عن شيء منها، ولا أخلعه، ولا أستبدل به غيره، ولا أقدم عليه

في العهد والخلافة أحداً من الناس جميعاً، ولا أُدخِلُ عليه مَكْرُوهًا في نفسه ولا دمه، ولا شعره ولا بشره، ولا خاصَّ ولا عامَّ من أموره وولايته، ولا أمواله، ولا قطائعه، ولا عقده؛ ولا أُغَيِّرُ عليه شيئاً لسبب من الأسباب، ولا أخذه ولا أحداً من عماله وكُتَّابه وولاة أمره - ممن صحبه وأقام معه - بمحاسبة، ولا أتتبع شيئاً جرى على يديه وأيديهم في ولاية نرسان وأعمالها وغيرها مما ولاه أمير المؤمنين في حياته وصحته : من الحباية، والأموال، والطراز، والبريد، والصدقات، والعشر والعشور، وغير ذلك؛ ولا أمرٌ بذلك أحداً من الناس، ولا أرخص فيه لغيري، ولا أحدث نفسي فيه بشيء أمضيه عليه، ولا أتمس قطيعة له، ولا أنقص شيئاً مما جعله له هرون أمير المؤمنين وأعطاه في حياته وخلافته وسُلْطانه من جميع ما سميت في كتابي هذا . وأخذ له على وعلى جميع الناس البيعة، ولا أرخص لأحد - من جميع الناس كلهم في جميع ما ولَّاه - في خلعه ولا مخالفته، ولا أسمع من أحد من البرية في ذلك قولاً، ولا أرضى بذلك في سر ولا علانية، ولا أغمض عليه، ولا أتغافل عنه، ولا أقبل من بر من العباد ولا فاجر، ولا صادق ولا كاذب، ولا ناصح ولا غاش، ولا قريب ولا بعيد، ولا أحد من ولد آدم عليه السلام : من ذكر ولا أنثى - مشورة، ولا حيلة، ولا ميكيدة في شيء من الأمور : سرها وعلانيتها، وحقها وباطلها، وظاهرها وباطنها، ولا سبب من الأسباب، أريد بذلك إفساد شيء مما أعطيت عبد الله بن هرون أمير المؤمنين من نفسي، وأوجبته له على، وشرطت وسميت في كتابي هذا .

وإن أراد به أحد من الناس أجمعين سوءاً أو مكروهاً، أو أراد خلعه أو محاربتة، أو الوصول إلى نفسه ودمه، أو حرمة، أو ماله، أو سلطانه أو ولايته : جميعاً أو فرادى، مُسرِّين أو مُظهِرين له - فإني أنصره وأحوطه، وأدفع عنه، كما أدفع عن نفسي، ومهجتي، ودمي، وشعري، وبشري، وحرمي، وسلطاني، وأجهز الجنود

إليه ، وأعينه على كل من غشه وخالفه ، ولا أساميه [ولا أخذله] ولا أتخلى عنه ،  
ويكون أمرى وأمره في ذلك واحداً [أبدا] ما كنتُ حياً .

وإن حدث بأمير المؤمنين هرون حدث الموت ، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين  
بحضرة أمير المؤمنين ، أو أحدنا ، أو كلاً غائبين عنه جميعاً : مجتمعين كلاً أو متفرقين ،  
وليس عبد الله بن هرون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان [فعلّى لعبد الله ابن  
أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خراسان] وأن أسلم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها ، ولا  
أعوقه عنها ، ولا أحبس قبلي ، ولا في شيء من البلدان دون خراسان ، وأعجل إشخاصه  
إلى خراسان وإلياً عليها مقررًا بها ، مفوضًا إليه جميع أعمالها كلها ، وأختص معه  
من ضم إليه أمير المؤمنين : من قواده ، وجنوده ، وأصحابه ، وكتابه ، وعماله ،  
ومواليه ، وخدمه ، ومن تبعه من صنوف الناس بأهلهم وأموالهم ؛ ولا أحبس عنه  
أحدًا ، ولا أشرك معه في شيء منها أحدًا ، ولا أرسل أمينًا ولا كاتبًا ولا بُندارا ،  
ولا أضرب على يديه في قليل ولا كثير .

وأعطيت هرون أمير المؤمنين وعبد الله بن هرون على ما شرطت لهما على نفسي ،  
من جمع ما سميت وكتبت في كتابي هذا - عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين  
وذمتي ، وذمة آبائي وذمة المؤمنين ، وأشد ما أخذ الله تعالى على النبيين والمرسلين  
وخلفه أجمعين : من عهوده وموآثيقه ، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل  
بالوفاء بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها .

فإن أنا نقضت شيئًا مما شرطت لهرون أمير المؤمنين ولعبد الله بن هرون  
أمير المؤمنين وسميت في كتابي هذا ، أو حدثت نفسي أن أنقض شيئًا مما أنا عليه ،

أَوْ غَيَّرْتُ أَوْ بَدَّلْتُ ، أَوْ حُلْتُ أَوْ غَدَرْتُ ، أَوْ قَبِلْتُ [ ذلك ] مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ :  
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ، بَرًّا أَوْ فَاجِرًا ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، وَجَمَاعَةً أَوْ فُرَادَى - فَبَرِئْتُ مِنَ اللَّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ ، وَمِنْ وِلَايَتِهِ ، وَمِنْ دِينِهِ ، وَمَنْ مَجِدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَقْبَيْتُ اللَّهَ  
عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا مُنْثَرَكًا . وَكُلُّ أَمْرَاءٍ هِيَ الْيَوْمَ لِي أَوْ أَتَرَوُجُهَا إِلَى  
ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا ، الْبَتَّةَ ، طَلَاقَ الْحَرَجِ ، وَعَلَى الْمَشِيِّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ  
ثَلَاثِينَ حَجَّةً : نَذْرًا وَاجِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي عُنُقِي ، حَافِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ  
بِذَلِكَ . وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدَى بِالْبَيْعِ الْكَعْبَةِ  
الْحَرَامِ . وَكُلُّ تَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْرَارًا لَوْجَهُ اللَّهُ  
عَزَّ وَجَلَّ .

وَكَأَنَّ مَا جَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَتَبْتُهُ وَشَرَطْتُهُ  
لَهُمَا ، وَحَلَفْتُ عَلَيْهِ ، وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِأَزْمِ لِي الْوَفَاءَ بِهِ ، لَا أُضْمِرُ غَيْرَهُ ،  
وَلَا أَنْوِي إِلَّا إِيَّاهُ . فَإِنْ أَضْمَرْتُ أَوْ نَوَيْتُ غَيْرَهُ فَهَذِهِ الْعُقُودُ وَالْمَوَائِقُ وَالْأَيْمَانُ  
كُلُّهَا لِأَزْمَةٍ لِي ، وَاجِبَةٌ عَلَيَّ . وَقُوَادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُهُ وَأَهْلُ الْآفَاقِ وَالْأَمْصَارِ  
فِي حِلٍّ مِنْ خَلْعِي وَإِخْرَاجِي مِنْ وِلَايَتِي عَلَيْهِمْ ، حَتَّى أَكُونَ سُوقَةً مِنَ السُّوقِ ،  
وَكَرْجُلٍ مِنْ عَرَضِ الْمُسْلِمِينَ ، لِأَحَقَّ لِي عَلَيْهِمْ ، وَلَا وِلَايَةَ ، وَلَا تَبِعَةَ لِي قَبْلَهُمْ ،  
وَلَا تَبِعَةَ لِي فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَهُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْإَيْمَانِ الَّتِي أَعْطَوْنِي ، بَرَاءً مِنْ تَبِعَتِهَا  
وَوِزْرِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

شَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ ، وَعَيْسَى بْنُ جَعْفَرٍ ، وَجَعْفَرُ بْنُ جَعْفَرٍ ،  
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَهْدِيِّ ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى  
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ عَيْسَى بْنِ عَلِيٍّ ، وَأَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ

جعفر بن سليمان، وعيسى بن صالح بن علي، وداود بن عيسى بن موسى، ويحيى  
 ابن عيسى بن موسى، وداود بن سليمان بن جعفر، وخرمة بن حازم، وهرثمة بن  
 أعين، ويحيى بن خالد، والفضل بن يحيى، وجعفر بن يحيى، والفضل بن الربيع  
 مولى أمير المؤمنين، والقاسم بن الربيع مولى أمير المؤمنين، ودمانة بن عبد العزيز  
 العيسى، وسليمان بن عبد الله بن الأصم، والربيع بن عبد الله الحارثي، وعبد الرحمن  
 ابن أبي الشمير الغساني، ومحمد بن عبد الرحمن قاضي مكة، وعبد الكريم بن شعيب  
 الحجبي، وإبراهيم بن عبد الله الحجبي، وعبد الله بن شعيب الحجبي، ومحمد بن عبد الله  
 ابن عثمان الحجبي، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن نبيه الحجبي، وعبد الواحد بن عبد الله  
 الحجبي، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن نبيه الحجبي، وأبان مولى أمير المؤمنين، ومحمد  
 ابن منصور، وإسماعيل بن صبح، والحارث مولى أمير المؤمنين، وخالد مولى  
 أمير المؤمنين .

وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة .



وأما ما كتبه المأمون، فنصه بعد البسملة :

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هرون أمير المؤمنين،  
 في صحفة من عقليه، وجواز من أمره، وصدق نية فيما كتب من كتابه، ومعرفة  
 ما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين .

إن أمير المؤمنين هرون ولأني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه  
 بعد أخي محمد بن هرون أمير المؤمنين، ولأني في حياته وبعده خراسان وكورها،  
 وجميع أعمالها : من الصدقات والعشر والبريد والطرار وغير ذلك . وأشترط لي على

محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده ،  
 وولايتي نخراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ،  
 أو أتباع لي من الضياع والعقد والدور والرباع ، أو أبتعت منه [لنفسى] من ذلك ،  
 وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من الأموال والجواهر والكسا والمنتاع والدواب  
 في سبب محاسننه [لأصحابي] ، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أثراً ، ولا يدخل  
 علي ولا علي أحد ممن كان معي وميني ، ولا عمالي ولا كتابي ، ومن استعنت به من جميع  
 الناس - مكروهاً : في ديم ، ولا نفيس ، ولا شعر ، ولا بشير ، ولا مال ، ولا صغير ،  
 ولا كبير .

فأجابته إلى ذلك وأقر به ، وكتب له به كتاباً كتبه علي نفسه ورضى به أمير المؤمنين  
 [هرون وقيله وعرف صدق نيته . فشرطت لعبد الله هرون أمير المؤمنين ]  
 وجعلت له علي نفسي أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحته  
 ولا أغشيه ، وأوقى بيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأموره ،  
 وأحسن مؤازرته ومكافئته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وقى لي بما  
 شرط لي ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماه في الكتاب الذي كتبه لأمر المؤمنين  
 ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقص شيئاً من ذلك ، ولم ينقص أمراً من الأمور التي  
 اشترتها لي عليه هرون أمير المؤمنين .

وإن احتاج محمد بن هرون أمير المؤمنين إلى جنيد وكتب لي يأمرني  
 بإشخاصهم إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد  
 تقص شيء من سلطانه وسلطاني الذي أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا وولانا -  
 أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر في شيء كتب به إلي .

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هرون أن يوئى رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدى ، فذلك له ما وقي لي بما جعل لي أمير المؤمنين هرون ، واشترط لي عليه ، وشروطه على نفسه في أمري ، وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له بذلك ، ولا أنقض ذلك ولا أغیره ، ولا أبدله ، ولا أقدم [قبله] أحداً من ولدي ، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين ، إلا أن يوئى هرون أمير المؤمنين أحداً من ولده العهد من بعدى ، فيلزمني الوفاء بذلك .

وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد بن أمير المؤمنين على الوفاء بما اشترطت وسميت في كتابي هذا ، ما وقي لي محمد بن أمير المؤمنين هرون بجميع ما اشترط لي هرون أمير المؤمنين عليه في نفسي ، وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من جميع الأشياء المسماة في الكتاب الذي كتبه له . [وعلى] عهد الله تعالى وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين ، وذمتي ، وذمة آبائي ، وذمة المؤمنين ، وأشد ما أخذ الله عز وجل على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين من عهوده وموائيقه ، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها .

فإن أنا نقضت شيئاً مما اشترطت وسميت في كتابي هذا له ، أو غيرت ، أو بدلت ، أو نكثت ، أو غدرت - فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه ، ومن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولقيت الله سبحانه وتعالى يوم القيامة كافراً مشركاً . وكل امرأة لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة [طلاق] الحرج . وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحراراً لوجه الله تعالى . وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجّة ، نذراً وإيجاباً على وفي عني ،

حَافِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَمْلِكُهُ  
إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدَى بِالْبَيْعِ الْكَعْبَةِ . وَكُلَّ مَا جَعَلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ  
أَوْ شَرَطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِأَزِمُّ لِي ، لَا أُضْمِرُ غَيْرَهُ وَلَا أَنْوِي سِوَاهُ .

تَمِيدَ فَلَانٌ وَفَلَانٌ ، بِأَسْمَاءِ الشُّهُودِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُمْ فِي كِتَابِ الْأَمِينِ الْمَبْتَدِئِ بِذِكْرِهِ .  
قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَلَمْ يَزَلْ هَذَانِ الشَّرْطَانِ مَعْلَقَيْنِ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ  
هُرُونُ الرَّشِيدُ ، وَبَعْدَ مَا مَاتَ بَسْتَيْنِ فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ . فَكَلَّمَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ  
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَّيِّ فِي إِتْيَانِهِ بِهِمَا ، فَفَرَعَهُمَا مِنَ الْكَعْبَةِ وَذَهَبَ بِهِمَا إِلَى بَغْدَادَ ،  
فَأَخَذَهُمَا الْفَضْلُ نَحْرَقَهُمَا وَحَرَّقَهُمَا بِالنَّارِ .

قُلْتُ : وَعَلَى نَحْوِ مَنْ ذَلِكَ كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّائِبِيُّ مُوَاصِفَةً بِالصُّلْحِ بَيْنَ  
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، وَصَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ الْمِلَّةِ أَبِي كَالِيجَارَ ،  
أَبْنَى عَضِدِ الدَّوْلَةِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ ، فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ  
وِثَلَاثِينَ .

وَنَصَّهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

هَذَا مَا اتَّفَقَ وَأَصْطَلَحَ وَتَعَاهَدَ وَتَعَاوَدَ عَلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ،  
وَصَمَّصَامُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِيجَارَ ابْنَا عَضِدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَبِي شُجَاعِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ  
أَبِي عَلِيٍّ ، مَوْلِيَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَتَأْيِيدَهُ ،  
وَنَصَّرَهُ وَعُلُوَّهُ وَإِذْنَهُ .

إِنْفَقًا وَتَصَالِحًا ، وَتَعَاهَدًا وَتَعَاوَدًا ، عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَالْإِعْتِمَادِ  
بِحَبْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالْإِلْتِمَاءِ إِلَى حُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِأَنْفِرَادِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ،  
لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا ضِدَّ وَلَا نِدَّ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى



آله وسلم تسليماً، والطاعة لأمر المؤمنين الطائعين لله، والالتزام بوثائق بيعته، وعلائق دعوته؛ والتوازر على موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ وعلى أن يمسكا [ذات] بينهما بالسير الحميدة، والسنة الرشيدة، التي سنها لها السلف الصالح من آباؤهما وأجدادهما في التألف والتوازر، والتعاضد والتطافر؛ وتعظيم الأصغر للأكبر، وإشبال الأكبر على الأصغر؛ والاشتراك في النعم، والتفاوض في الحظوظ والقسم؛ والاتحاد بخلوص الطوايا، والحقايا؛ وسلامة الخواطر، وطهارة الضمائر؛ ورفع ما خالف ذلك من أسباب المناقسة، وجرائر المضاعفة؛ وجوالب النبوه، ودواعي الفرقة؛ والإقفران لأعداء الدولة، والإرصاد لهم؛ والاجتماع على دفع كل ناجم، وقمع كل مقاسوم؛ وإرغام أنف كل ضار متجبر، وإضرع خد كل متطاول مستكبر؛ حتى يكون الموالى لأحدهم منصوراً من جماعتهم، والمعادي له مقصوداً من سائر جوانبهم؛ فلا يجد المنايد على أحدهم مفرزاً عند أحد من الباقين ولا اعتصاماً به، ولا أليجاء إليه؛ لكن يكون مرمياً بجميع سهامهم، ومضروباً بأسياق قنماتهم، ومأخوذاً بكليّة بأسهم وقوتهم، ومقصوداً بغالب نجاتهم وشدهم؛ إذ كانت هذه الآداب القويمه، والطرائق السليمة؛ جارية للدول مجرى الجنين الدافعة عنها، والمعاقيل المانعة لها؛ ويمثلها تطمين النعم وتسكن، كما أن باضدادها تسمت وتنفّر.

ولما وفق الله تعالى شرف الدولة وزين الملة أبا القوارس، وضمصام الدولة وشمس الملة أبا كاليبجار اعتقاد هذه الفضائل وإيثارها، والتظاهر بها وأستشعارها؛ ودعاهما مولاها الطائعين لله أمير المؤمنين إلى ما دعاهما إليه من التعاطف والتألف، والتصافي والتخالص؛ وأمر ضمصام الدولة أبا كاليبجار بمراسلة شرف الدولة

أبي الفوارس في إحكام معاهد الأخوة، وإبرام وثائق الألفة - أمثله ذلك وأصغى إليه شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس: أصغى إليه شرف الدولة إصغاء المستوثق المستصيب، وتقبله تقبل العالم اللبيب؛ وأنفذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نصر نرشيد بن ديار بن مافنة بالمعروف من كفايته، والمشهور من اصطناع الملك السعيد عضد الدولة وتاج الملة رضوان الله عليه له، وإيداعه إياه ودیعة الإحسان التي يحق عليه أن يساوي في حفظها بين الجهتين، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين .

بخرت بين صمصام الدولة وشمس الملة أبي كالجار وبينه مخاطبات استقرت على أمور أتت المفاوضة عليها، وأثبت منها في هذه الموصفة ما احتجج إلى إثباته منها [ أمر ] عام للفريقين، وقسمان يختص كل واحد منهما بواحد منهما .

أما الأمر الذي يجمعهما عمومهما، ويكتنفهما شموله، فهو: أن يتخالص شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وصمصام الدولة وشمس الملة أبو كالجار في ذات بينهما، ويتصافيا في سرائر قلوبهما، ويرفضا ما كان جرته عليهما سفهاء الأتباع: من ترك التواصل، واستعمال التقاطع؛ ويرجعوا عن وحشة الفرقة، إلى انس الألفة؛ وعن منقصة التنافر والتهاجر، إلى منقبة التبار والتلاطف؛ فيكون كل واحد منهما مريدا لصاحبه من الصلاح مثل الذي يريده لنفسه، ومعتقدا في الذب عن بلاده وحدوده مثل الذي يعتقده في الذب عما يختص به؛ وميسرا مثل ما يظهر: من موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ والمرامة لمن راماه، والمصافاة لمن صافاه؛ فان نجم على أحدهما نجم، أو راغمه مراغم، أو هم به حاسد، أو دلف إليه معاند؛ أنفقا جميعا على مقارعة: قريبا كان أو بعيدا، وترافدا على مدافعة: دانيا كان أو قاصيا؛ وسمح كل منهما لصاحبه عند الحاجة إلى المواساة في ذلك في سائر أحداث الزمان

وَنُوبِهِ ، وَتَصَارِيْفِهِ وَغَيْرِهِ ؛ بِمَا يَتَسَعُّ وَيَشْتَمَلُ عَلَيْهِ طَوْفُهُ مِنْ مَالٍ وَعُدَّهِ ، وَرِجَالٍ وَنَجْدَةٍ ، وَأَجْتِهَادٍ وَقُدْرَةٍ ؛ لَا يَفْعَلُ أَحَدٌ مِنْهُمَا عَنْ أُخِيهِ ، وَلَا يَخْدُلُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَلَا يَتْرُكُ نُصْرَتَهُ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُؤَاوَزَتِهِ وَمُظَاهَرَتِهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ بِهَا النَّبَاتُ : مِنْ إِرْغَابٍ مُرْغَبٍ ، وَحِيلَةٍ مُحْتَالٍ ، وَمُحَاوَلَةٍ مُحَاوِلٍ . وَلَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا مُسْتَأْمِنًا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ صَاحِبِهِ : مِنْ جُنْدِيٍّ ، وَلَا عَامِلٍ ، وَلَا كَاتِبٍ ، وَلَا صَاحِبٍ ، وَلَا مُتَصَرِّفٍ فِي وَجْهِهِ مِنْ وُجُوهِ التَّصَرِّفَاتِ كُلِّهَا ؛ وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ هَارِبًا ، وَلَا يَعِصِمُ مِنْهُ مُوَارِبًا ؛ وَلَا يَتَطَرَفُ لَهُ حَسَدًا ، وَلَا يَتَحَيَّفُهُ حَقًّا ، وَلَا يَهْتِكُ لَهُ حَرِيمًا ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ طَوْفًا ، وَلَا يُخَيِّفُ لَهُ سَبِيلًا ، وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَى ذَلِكَ بِسَبَبٍ بَاطِنٍ ، وَلَا بِأَعْتِصَالِ ظَاهِرٍ ؛ وَلَا يَدْعُ مُوَافَقَتَهُ ، وَمُلَاءَمَتَهُ ، وَمُعَاوَنَتَهُ وَمُظَافَرَتَهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَسِرٍّ وَجَهْرٍ ، عَلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَتَصَرُّفِ الْحَالَاتِ ، وَوُجُوهِ التَّأْوِيلَاتِ . يَلْتَرَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ آتِرَامًا عَلَى التَّمَانِيلِ وَالتَّعَادُلِ ، وَالتَّوَازِيِ وَالتَّقَابُلِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ المِلَّةِ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَشْمُسُ المِلَّةِ لَهُ ، فَهُوَ أَنْ يُقَدِّمَهُ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَشْمُسُ المِلَّةِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِيَهُ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ فَضْلِ سِنِّهِ ، وَيُطْبِعَهُ فِي كُلِّ مَا أَفَادَ الدَّوْلَةَ الْجَامِعَةَ لَهَا صَلَاحًا ، وَهَاضَ مِنْ عَدُوِّهَا جَنَاحًا ؛ وَعَادَ عَلَى وَلِيِّهَا بَعْزًا ، وَعَلَى عَدُوِّهَا بِدَلًّا ؛ وَأَنْ يُقِيمَ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَارِ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ، الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا حُقُوقُهُ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمَا حُدُودُهُ ، لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لِشَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ المِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ . وَيُجْرَى الْأَمْرُ فِي نَقِيشِ سِكَكِ دُورِ الضَّرْبِ الَّتِي يُطْبَعُ بِهَا الدِّينَارُ وَالدَّرْهَمُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى الْمِثَالِ . وَيُوقَى صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَشْمُسُ المِلَّةِ أَبُو كَالِجَارِ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ المِلَّةِ أَبَا الْفَوَارِسِ فِي الْمَكَاتِبَاتِ

والمخاطبات حَقَّ التَّعْظِيمِ ، وَشِعَارَ التَّفْخِيمِ ، عَلَى التَّقْرِيرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خُرَشِيدِ بْنِ دِيَارِ  
ابن مافنة في ذلك .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ صَمَّامُ الدَّوْلَةَ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ أَبُو كَالِجَارِ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ  
شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ لَهُ ، فَهُوَ تَرَكُ التَّعَرُّضِ لِسَائِرِ مَمَالِكِهِ ، وَمَا يَتَّصِلُ  
بِهَا مِنْ حُدُودِهَا الْجَارِيَةِ مَعَهَا ؛ وَالْإِفْرَاجُ مِنْهَا عَمَّا يُوَدُّهُ وَيُسْرِعُ إِلَيْهِ أَصْحَابُ  
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ ، وَتَجَنُّبُ التَّحْيِيفِ لَهَا أَوْ لَشَيْءٍ مِنْ الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ فِيهَا ،  
وَمُرَاعَاةُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَخْتَاجُ فِيهَا إِلَى نَظَرِهِ وَطَوْلِهِ ، وَإِجْمَالِهِ وَفَضْلِهِ ، وَمَا يَجِبُ  
عَلَى الْأَخِ الْأَكْبَرِ مُرَاعَاةَ أَخِيهِ وَتَالِيهِ فِيهِ ، مِمَّا تَبَيَّنَتْ فِي هَذِهِ الْمُواصِفَةِ جُمْلَتَهُ ،  
وَاشْتَمَلَتْ الْمَفَاوِضَةُ مَعَ خُورَشِيدِ بْنِ دِيَارِ بْنِ مَافِنَةَ عَلَى تَفْصِيلِهِ .

أَتَّفَقَ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ، وَصَمَّامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ  
أَبُو كَالِجَارِ ، بِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ ، وَعَلَى الْأَخْتِيَارِ مِنْهُمَا ، وَالْأَنْتِزَاجِ مِنْ  
صُدُورِهِمَا ، مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ وَلَا إِجْبَارٍ ، وَلَا أَضْطِرَّارٍ وَلَا أَضْطِرَّارٍ - عَلَى الرِّضَا بِذَلِكَ  
كُلَّهُ ، وَالْإِتْرَامِ لَهُ ، وَيَصِيرُ جَمِيعُهُ عَهْدًا مَرْجُوعًا إِلَيْهِ ، وَعَقْدًا مَعْمُولًا عَلَيْهِ ؛ وَحَافٍ  
كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى مَا يَلْتَرِمُهُ مِنْ ذَلِكَ يَمِينًا عَقْدَهَا بِأَنْ يَحْتَلِفَ صَاحِبُهَا بِمَثَلِهَا ، عَلَى مَا يَلْتَرِمُهُ  
مِنْهُ . فَقَالَ صَمَّامُ الدَّوْلَةِ : وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (وَيَسْتَمِ الْيَمِينُ) .

### النوع الثاني

( مما يجري عَقْدُ الصُّلْحِ فِيهِ بَيْنَ مَلَكَينِ مُسْلِمِينَ -

مَا يَكُونُ الْعَقْدُ فِيهِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ )

وَاللِّكَّابِ فِيهِ مَذْهَبَانِ :

### المذهب الأول

( أَنْ يُفْتَحَ عَقْدُ الصُّلْحِ بِلَفْظِ : « هَذَا » كَمَا فِي النَّوْعِ السَّابِقِ )

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلْحٍ مِنْ ذَلِكَ ، كَتَبَ بِهَا أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي ، بَيْنَ الْوَزِيرِ أَبِي نَصْرٍ سَابُورِ بْنِ أَزْدِشِيرٍ ، وَالشَّرِيفَيْنِ : أَبِي أَحْمَدَ الْحُسَيْنِ بْنِ مُوسَى ، وَأَبِي الْحَسَنِ مُحَمَّدِ ابْنِهِ الرِّضِيِّ ، بِمَا أَعْقَدَ مِنَ الصُّلْحِ وَالصَّهْرِ بَيْنَ الْوَزِيرِ الْمَذْكُورِ ، وَبَيْنَ النَّبِيِّ ابْنِ أَحْمَدَ الْحُسَيْنِ وَوَلَدِهِ مُحَمَّدٍ ، حِينَ تَزَوَّجَ ابْنَهُ مُحَمَّدُ الْمَذْكُورُ بِنْتَ سَابُورِ الْمَذْكُورِ ، وَجَعَلَهُ عَلَى نُسخَتَيْنِ ، لِكُلِّ جَانِبٍ نُسخَةٌ ، بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ مَا صُوِّرَتْهُ :

هَذَا كِتَابٌ لِسَابُورِ بْنِ أَزْدِشِيرٍ ، كَتَبَهُ لَهُ الْحَسَنِ بْنُ مُوسَى الْمَوْسَوِي ، وَوَلَدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْمَوْسَوِي .

إِنَّا وَإِيَّاكَ - عِنْدَ مَا وَصَلَهُ اللَّهُ بَيْنَنَا مِنَ الصَّمْرِ وَالْجُلْطَةِ ، وَوَسَّجَهُ مِنَ الْحَالِ وَالْمَوَدَّةِ - آثَرْنَا أَنْ يَنْعَقِدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مِيثَاقٌ مُؤَكَّدٌ ، وَعَهْدٌ مُجَدَّدٌ ، تَسْكُنُ النَّفُوسُ إِلَيْهِمَا ، وَتَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ مَعَهُمَا ؛ وَتَزْدَادُ الْأَلْفَةُ بِهِمَا عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ ، وَتَعَاقِبُ الْأَعْوَامُ ؛ وَيَكُونُ ذَلِكَ أَصْلًا مُسْتَقَرًّا نَرْجِعُ جَمِيعًا إِلَيْهِ ، وَنُعَوِّلُ وَنَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ؛ وَنَتَوَارَثُهُ أَعْقَابُنَا ، وَنَتَّبِعُنَا فِيهِ أَخْلَاقُنَا .

فَاعْطِينَاكَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، وَمَا أَخَذَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ الْمُرْسَلِينَ ، وَمَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ؛ عَنْ صُدُورِ مُنْشَرِحِهِ ، وَأَمَالِ فِي الصَّلَاحِ مُنْفِيسِهِ - أَنَا

تُخْلِصُ لَكَ جَمِيعًا وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا إِخْلَاصًا صَحِيحًا يُسَاكِلُ ظَاهِرَهُ بِاطْنِهِ ، وَيُؤَافِقُ خَافِيَهُ عَالِيَهُ ؛ وَأَنَا نُؤَالِي أَوْلِيَاءَكَ ، وَنُعَادِي أَعْدَاءَكَ ؛ وَنَصِلُ مِنْ وَصْلِكَ ، وَنَقْطَعُ مِنْ قِطْعِكَ ، وَنَكُونُ مَعَكَ فِي نَوَائِبِ الزَّمَانِ وَشَدَائِدِهِ ، وَفِي قَوَائِدِهِ وَعَوَائِدِهِ ؛ وَصِمْنَا لَكَ صَمَانًا شَهِدَ اللَّهُ بِلُزُومِهِ لَنَا ، وَوَجُوبِهِ عَلَيْنَا . وَأَنَا نَصُونُ الْكَرِيمَةَ عَلَيْنَا ، الْآثِيرَةَ عِنْدَنَا ، فَلَانَةَ بِنْتِ فُلَانٍ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهَا - الْمُسْتَقَلَّةَ إِلَيْنَا ؛ كَمَا تَصَانُ الْعُيُونُ بِمُخْفُونِهَا ، وَالْقُلُوبُ بِسِغَافِهَا ؛ وَتُجْرِيهَا مُجْرَى كَرَامِ حُرْمِنَا ، وَنَقَائِسِ بِنَاتِنَا ، وَمَنْ تَضَمَّهُ مَنَازِلُنَا وَأَوْطَانُنَا ، وَنَتْنَاهِي فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا ، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَيْهَا فِي مَرَاغِدِ عَيْشِهَا ، وَعَوَارِضِ أَوْطَارِهَا ، وَسَائِرِ مُمُونِهَا وَمُمُونِ أَسْبَابِهَا ، وَالنُّهُوضِ وَالْوَفَاءِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجِبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا لَهَا وَلَكَ فِيهَا ؛ فَلَا تُعَدِّمُ شَيْئًا أَلْفَتَهُ : مِنْ إِشْبَالِ عَلَيْهَا ، وَإِحْسَانِ إِلَيْهَا ، وَذَبِّ عَنْهَا ، وَمُحَامَاةِ دُونِهَا ، وَتَعَهُّدِ لِمَسَارِهَا ، وَتَوَخُّحِ لِمَحَابَّتِهَا ؛ وَنَكُونُ جَمِيعًا وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا مُقِيمِينَ لَكَ وَلَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ فِي حَيَاتِكَ - أَطَالَهَا اللَّهُ - وَبَعْدَ الْوَفَاةِ إِنْ تَقَدَّمَتْنَا ، وَحُوشِيَتِ مِنَ السُّوءِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ، وَأَحْوَالِكَ أَجْمَعِهَا .

ثُمَّ إِنَّا نَقُولُ - وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا ، طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ ، غَيْرِ مُكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَعْدَ تَمَامِ هَذَا الْعَقْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَلِزُومِهِ لَنَا وَلَكَ - : وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الْمُدْرِكُ الْمُهْلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمُطَّلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ ، الْمُحِيطُ بِمَا فِي الضَّمَائِرِ ، الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَحَقَّ مَجْدُ النَّبِيِّ ، وَعَلَى الرَّضَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ ذِكْرَهُمَا ، وَسَادَتِنَا الْأَيْمَةَ الطَّيِّبِينَ ، الطَّاهِرِينَ ، رَحْمَةً اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَحَقَّ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، وَمَا أُنزِلَ فِيهِ مِنْ تَحْلِيلِ وَتَحْرِيمِ ؛ وَوَعْدُ وَوَعِيدِ ، وَتَرْغِيبِ وَتَرْهيبِ ؛ لَنَفِيْنَنَّ لَكَ يَا سَابُورُ بْنُ أَزْدِشِيرَ ، وَالْكَرِيمَةَ الْآثِيرَةَ أَبْنَتِكَ فَلَانَةَ - أَحْسَنَ اللَّهُ رِعَايَتَهَا - بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ ، وَفَاءً صَحِيحًا ، وَلِنَلْتَرَمَنَّ لَكَ وَلَهَا شَرَائِطَهُ وَوَتَائِقَهُ ، فَلَا نَنْسَخُهَا ، وَلَا نَنْقُضُهَا ،

ولا نتبعها ، ولا نتعقبها ، ولا نتأول فيها ، ولا نزول عنها ، ولا نلتبس محرّجا ولا مخلصا  
 منها ، حتى يجمعنا الموقف بين يدي الله ، والمقدم على رحمة الله ، ونحن يومئذ ثابتان  
 عليها ، ومؤذيان للأمانة فيها ، أداء يشهد الله تعالى به وملائكته يوم يقوم الأشهاد ،  
 ويحاسب العباد . فإن نحن أخلنا بذلك أو نسيء منه ، أو تأولنا فيه أو في شيء منه ،  
 أو أضمرنا خلاف ما نظهر ، أو أسرنا ضد ما نعلن ، أو آلمسنا طريقا إلى تقضيه ،  
 أو سبيلا إلى فسخيه ، أو أئمتنا بإخفار ذمة من ذمته ، أو آتته كحرمه من حرمه ،  
 أو حلل عصبية من عصبه ، أو أبطل شرط من شروطه ، أو تجاوز حد من  
 حدوده - فالذي يفعل ذلك منا يوم يفعله أو يعتقده ، وحين يدخل فيه ويستجيزه -  
 برىء من الله جل ثناؤه ، ومن نبوة رسوله محمد ، ومن ولاية أمير المؤمنين علي بن  
 أبي طالب صلى الله عليهما وسلم ، ومن القرآن الحكيم العظيم ، ومن دين الله الصحيح  
 القويم ؛ ولقى الله يوم العرض عليه ، والوقوف بين يديه ، وهو به - سبحانه -  
 مشرك ، ورسوله صلى الله عليه وسلم مخالف ، ولأهل بيته معاد ، ولأعدائهم موال ؛  
 وعليه الحج إلى بيت الله الحرام العتيق الذي بمكة : راجلا ، حافيا ، حاسرا ، وإماؤه  
 عواقق ، ونسأؤه طوالق ، طلاق الحرج والسنة ، لا رجعة فيه ولا منوية ؛ وأمواله  
 - على اختلاف أصنافها - محرمة عليه ، وخارجة عن يديه ، وحيسة في سبيل الله  
 وبرأه الله من حوله وقوته ، وأجلاه إلى حوله وقوته .

وهذه اليمين لازمة لنا ، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه ، وعقد عليها ضميره ،  
 والنية في جميعها نية فلان بر فلان ، لا يقبل الله من كل واحد منا إلا الوفاء بها ،  
 والثبات عليها ، والألتزام بشروطها ، والوقوف على حدودها ، وكفى بالله شيئا ،  
 وجازيا لعباده ومثيبا . وذلك في يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا .

## المذهب الثاني

( أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصُّلْحِ بِخُطْبَةٍ مُفْتَتِحَةٍ بِ«الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَرُبَّمَا كُرِّرَ فِيهَا

التَّحْمِيدُ إِعْلَامًا بِعَظِيمِ مَوْقِعِ النِّعْمَةِ )

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلْحِ كَتَبَ بِهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ

(١)

لَمَنْ كَانَ ... ..

وَنَصَّهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي «كِتَابِ الْبَلَاغَةِ» فِي التَّرْسُلِ ، بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْعِبَادَ بِقُدْرَتِهِ ، وَكَوَّنَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى إِرَادَتِهِ .  
 لَمْ يَلْطَفْ عَنْهُ خَفِيٌّ ، وَلَا أَمْتَعَ عَنْهُ قَوِيٌّ ؛ أَبْتَدَعَ الْخَلَائِقَ عَلَى اخْتِلَافِ فِطْرِيهَا ،  
 وَتَبَايُنِ صُورِهَا ، مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ أَحْتَذَاهَا ، وَلَا رَمِيمٍ آفَتْهَا ؛ وَأَيْدَهُمْ بِنِعْمَتِهِ ، فِيمَا رَكِبَهُ  
 فِيهِمْ مِنَ الْأَدْوَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، النَّاطِقَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ؛ وَأَكْتَفَوْا بِالْمَعْرِفَةِ بِهِ  
 - جَلَّ جَلَالُهُ - بِجَبَرِ الْعُقُولِ ، وَشَهَادَةِ الْأَفْهَامِ . ثُمَّ اسْتَظْهَرُوا لِمَنْ فِي التَّبَصُّرِ ، وَعَلَيْهِمْ  
 فِي الْحُجَّةِ ؛ بِرُسُلٍ أَرْسَلَهَا ، وَأَيَاتٍ بَيَّنَّا بِهَا وَمَعَالِمٍ أَوْصَحَّهَا ، وَمَنَارَاتٍ لِمَسَالِكِ الْحَقِّ  
 رَفَعَهَا ؛ وَشَرَعَ لِمَنْ الْإِسْلَامَ دِينًا وَأَرْتَضَاهُ وَأَصْطَفَاهُ ، وَفَضَّلَهُ وَأَجْتَبَاهُ ، وَشَرَّفَهُ  
 وَأَعْلَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ مُهِمًّا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَقَدَّرَ الْعِزَّ لِحُزْبِهِ وَأَهْلِهِ ؛ فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ :  
 (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)  
 وَأَيَّدَهُ بِأَنْبِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ ، وَالنَّاهِيينَ لَطُرْفِهِ ، وَالْمَسَادِينَ لِفَرَائِضِهِ ، وَالْمُخْبِرِينَ عَنْ  
 شَرَائِعِهِ ؛ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، فِي فِتْرَةٍ بَعْدَ فِتْرَةٍ ، وَبَيْنَةٍ بَعْدَ بَيْنَةٍ ؛ حَتَّى  
 آتَتْهُ تَقْدِيرُهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ بَعَثَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الْفَاضِلَ الزَّكِيَّ ؛ الَّذِي قَفَى بِهِ  
 عَلَى الرُّسُلِ ، وَنَسَخَ بِشَرِيْعَتِهِ شَرَائِعَ الْمَلَلِ ، وَبَيَّنَّه أَدْيَانَ الْأُمَمِ ؛ عَلَى حِينِ تَرَانِحِي

(١) بياض بالأصل .



فتره، وترامى حيره؛ فأبأخ به نيران الفتن بعد اضطرابها، وأضأه به سبيل الرشاد بعد إظلامها؛ على علم منه - تعالى ذكره - بما وجدته عنده من النهوض بأعباء الرسالة، والقيام بأداء الأمانة؛ فأزاح بذلك العلة، وقطع المعذرة؛ ولم يبق للشاك موضع شبهة، ولا للعائد دعوى مموهة؛ حتى مضى حميداً تشهد له آثاره، وتقوم بتأييد سنته أخباره؛ قد خلف في أمته، ما أصارهم به إلى عطف الله ورحمته، والنجاة من عقابه وسخطه؛ إلا من شقى بسوء اختياره، وحرِم الرشاد بخذلانه؛ صلى الله عليه وعلى آله الطيبين أفضل صلاة وأتمها، وأوفأها وأعمها .

والحمد لله الذى خص سيدنا الأمير بالتوفيق وتوحدته بالإرشاد والتسيد؛ فى جميع أنحاءه، ومواقع آرائه؛ وجعل همته (إذ كانت الهم منصرفاً إلى هشيم الدنيا وزخارفها، التى يتحلى بها الأبناء وتدعوها إلى نفسها) ، مقصورة على ما يجمع له رضا ربه، وسلامة دينه؛ واستقامة أمور مملكته، وصلاح أحوال رعيتيه؛ وأيده فى هذه الحال المعارضه، والشبهة الواقعة؛ التى تحار فى مثلها الآراء، وتضطرب الأهواء؛ وتتنازع خواطر النفوس، وتفتلج وساوس الصدور؛ ويختفى مواقع الصواب، ويشكل منهج الصلاح - بما اختار له من السلم والمودعة، والصالح والموافق؛ الذى أخبر الله تعالى فى كتابه على فضله، والخير الذى فى ضمنه، بقوله جل وعز: ( والصلح خير ) وقوله جل ذكره: ( وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ) حتى أصبح السيف مغموداً، ورواق الأمن ممدوداً؛ والأهواء متفقه، والقلوب مؤتلفه، والكأمة مجتمعه؛ ونيران الفتن والضلالة خامده، ووطنون بغاتها والساعين لها كاذبه، وطبقات الاولياء والرعية - بما أعيد إليهم من

الْأَمْنَةَ تُعْقِبُ الْخِيفَةَ ، وَالْأَنْسَةَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَبْشِرَةٌ ؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -  
 فِي إِطَالَةِ بَقَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَثْبِيتِ وَطْأَتِهِ - رَاغِبِينَ ،  
 وَفِي مُسَالَمَتِهِ مُخْلِصِينَ . وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَأْمُورًا بِهِ ، وَالصُّلْحُ مَحْبَبًّا عَنْ  
 الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ ؛ لَكَانَ فِيمَا يَنْتَظَمُ بِهِ : مِنْ حَقْنِ الدَّمَاءِ ، وَسُكُونِ الدَّهْمَاءِ ؛ وَيَجْمَعُ  
 مِنْ الْخِلَالِ الْمَحْمُودَةِ ، وَالْفَضَائِلِ الْمَمْدُودَةِ ، الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهَا - مَاحِدًا عَلَيْهِ ، وَمَثَلٌ  
 لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْآرَاءِ الصَّحِيحَةِ مَوْضِعَ الْخَيْرِ فِيهِ ، وَحُسْنَ الْعَائِدَةِ عَلَى الْخِصِّصِ  
 وَالْعَامِّ بِهِ ؛ فِيمَا يَجَلِّي لِلْعُيُونِ ، مِنْ مَشْتَبِهَاتِ الظُّنُونِ ، إِذَ الدِّينُ وَاقِعٌ ، وَالشُّكُّ جَانِحٌ  
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمُبْطَلِ ، وَالْحَاثِرِ وَالْمُقْسِطِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ  
 مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نَاطِرًا  
 لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَعْرَةٍ أَوْ مَضْرَةٍ تَلْحَقُ بَعْضَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ وَمُؤَثِّرًا تَطْهِيرَهُمْ مِنْ ظَنِّ  
 الْعُدْوَانِ ، مَعَ رَفْعِهِ عَنْهُمْ قَرَطَاتِ النَّسْيَانِ ، وَكَأَفَا أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَشْرُوكِينَ ،  
 كَمَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ؛ تَحَنُّنًا عَلَى بَرِيَّتِهِ ، وَإِبْقَاءً عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ ؛ إِلَى أَنْ  
 يَتِمَّ لَهُمُ الْمِيقَاتُ الَّذِي أَدْنَاهُ ، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَمْضَاهُ ، وَمَوْقِعُ الْحَمْدِ فِي عَاقِبَتِهِ ، وَالسَّلَامَةُ  
 فِي خَاتِمَتِهِ . وَبَلَّغَهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمَدَهَا ، وَمِنْ مَرَافِقِ الْعَيْشِ أَرْغَدَهَا ، مَقْصُورَةً  
 أَيْدِي النَّوَائِبِ عَمَّا حَوْلَهُ ، وَمَعْصُومَةً أَعْيُنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا نَوْلَهُ ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ مَاجِدٌ .

قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ كُتِبَ عَتَمَدُ الصُّلْحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ  
 أَبِي السَّعَادَاتِ «فَرَج» بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوق» ، وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ  
 النَّظْبِيِّ تَيْمُورِ كُورْكَانِ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، بَعْدَ طُرُوقِهِ الشَّامَ وَفَتْحِهِ دِمَشْقَ  
 وَتَحْرِيقِهَا وَتَحْرِيبِهَا ، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلَبِ الصُّلْحِ ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَطْلَمِشَ  
 لِرَمِهِ ، الْمَأْسُورِ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوق» صَحْبَةَ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ  
 الْكُجْجَانِيِّ . جُهِّزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرِينَ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ صَحْبَةَ الْخَوَاجَا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانيه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقرّ الفتحى صاحب ديوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدين طاهر، ابن الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي، أحد كُتاب الدست الشريف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوب في قطع... (١) ... بقلم... (١) ... وفي طرته ما صورته :

« مرقوم شريف جليل عظيم، مبجل مكرم جميل نظيم، مُشتمل على عقد صالح أفتحه المقام الشريف، العالى، القطبي، نصره الدين، تيمور كوركان، زيدت عظمته، يكون بينه وبين المقام الشريف، السلطان، المالك، الملك الناصر أبي السعادات « فرج » بن السلطان الشهيد، الملك الظاهر أبي سعيد « برقوق » خادم الحرمين الشريفين، خلد الله تعالى ملكه . آتقد بمباشرة السفير عن المقام الشريف القطبي، المشار إليه ويكمله في ذلك، الخواجا نظام الدين مسعود الكججاني، بشهادة من حضر صحبته من العُدول بالتوكيل المذكور، على حكم إشارة مرسله إليه ومضمون مكاتبته، وقصده تجهيز الأمير أطمش لزمه . وحلف المقام القطبي على الموافاة والمصافاة، واتحاد المملكتين، وإجراء الأمور على السداد، وعمل مصالح العباد والبلاد .

والبياض ثلاثة أوصال بوصل الطرة، والبسملة في أول الوصل الرابع بهامش عن يمينها، وتحت البسملة سطر، ثم بيت العلامة، والسطر الثاني بعد بيت العلامة . والعلامة بجليل الثلث بالذهب ما صورته : « الله أملي » .

(١) بياض بالأصول .

وَتُسَخَّهُ الْمَكْتُوبُ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ مَا صُوِّرَتْهُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الصُّلْحَ خَيْرَ مَا أُنْعَقَدَتْ عَلَيْهِ الْمَصَالِحُ ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ  
أَوْلَىٰ مَا أُنْصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الْمَنَاجِحِ ، وَأَحَقُّ مَا نَطَقَتْ بِهِ أَلْسُنُ الْمُحَامِدِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ  
أَفْوَاهُ الْمَدَائِحِ .

نَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعْمِهِ الَّتِي جَمَعَتْ أَشْتَاتَ الْقُلُوبِ الطَّوَائِعِ ، وَأَضَافَتْ إِلَىٰ ضِيَاءِ الشَّمْسِ  
نُورَ الْقَمَرِ فَاهْتَدَىٰ بِهَمَا كُلُّ غَادٍ وَرَائِحٍ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ  
شَهَادَةً تُبَلِّغُ قَائِلَهَا أَهْنَىٰ الْمَنَاجِحِ ، وَتُعَطِّرُ مَجَالِسَ الذِّكْرِ بِعَرَفِ رِوَايَحِهَا الرِّوَائِحِ ، وَنَشْهَدُ  
أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ مَنْ آتَىٰ بَيْنَ الْمُتَحَاكِمِينَ فَنَصَحَ اللَّهُ وَرَأَىٰ الصُّلْحَ مِنْ  
أَعْظَمِ النَّصَائِحِ ، وَأَكْمَلِ رُسُولِ أَنْقَادَتْ لِأَخْلَاقِهِ الرِّضِيَّةَ ، وَصِفَاتِهِ الْمُرِضِيَّةَ ، جِوَانِحِ  
النُّفُوسِ الْجِوَانِحِ ، وَسَلَّمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَىٰ مَا أَجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ آرَاءُ أَوْلِي الْأَلْبَابِ ، وَرَكَعَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ ذَوِي  
الْمَعْرِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَوَدَّةِ وَالْأَحْبَابِ - آتِيْلَافِ الْقُلُوبِ بَعْدَ اخْتِلَافِهَا ، وَأَتَصَافُهَا  
بِالتَّوْبِيسِ بِأَحْسَنِ أَوْصَافِهَا ، وَالْعَمَلُ عَلَى الصُّلْحِ الَّذِي هُوَ أَصْلَحُ لِلنَّاسِ ، وَأَزْخُ  
مَتَاحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَدْفَعُ لِلْيَأْسِ وَالْبَاسِ ؛ إِذْ هُوَ مِفْتَاحُ أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ الشَّامِلَةِ ،  
وَمِصْبَاحُ مَنَاجِحِ الْفِكْرِ الصَّحِيحَةِ الْكَامِلَةِ ، وَالذَّاعِي إِلَىٰ كُلِّ فِعْلٍ جَمِيلٍ ، وَالسَّاعِي  
بِكُلِّ قَوْلٍ هُوَ شِفَاءٌ صَدَى الْغَلِيلِ وَنَجَاةٌ مِنْ دَاءِ الْعَلِيلِ .

وَمَا كَانَ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ ، الْعَالِي ، الْكَبِيرِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْمُؤَيَّدِيُّ ،  
الْمُظَفَّرِيُّ ، الْمَلِجِيُّ ، الْمَلَاذِيُّ ، الْوَالِدِيُّ ، الْقُطْبِيُّ ؛ نُصْرَةَ الدِّينِ ، مَلْجَأَ الْقَاصِدِينَ ،  
مَلَاذَ الْعَائِدِينَ ، قُطْبَ الْإِسْلَامِ وَالْمَسَامِينِ ، تَيْمُورُكُورْكَانَ ، زَيْدَتْ عَظْمَتُهُ -  
هُوَ الْبَادِي بِأَحْيَاءِ هَذِهِ السَّنَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْحَادِي إِلَى الْعَمَلِ بِمَقْتَضَى مَقَاوِصِهِ الشَّرِيفَةِ

التي هي لذلك متضمنه ، الواردة إلى حضرة عبد الله ووليّه ، السلطان المالك ،  
 الملك الناصر ، زين الدنيا والدين ، أبي السعادات « فرج » بن السلطان الشهيد  
 الملك الظاهر ، أبي سعيد « برقوق » خادم الحرمين الشريفين - خلد الله تعالى  
 ملكه - على يد سفير حضرته ، المجلس السامي ، الشيخي ، النظامي ، مسعود  
 الكججاني ، المؤرخة بمسئل شهر ربيع الأول سنة تاريخه .

وجل مضمونها ، وسر مكنونها - قصد إيقاع الصلح الشريف بين المشار  
 اليهما ، وتسج المودة والمحبة والمصادقة بينهما ، وإسبال رداء محاسنها عليهما ؛  
 بمقتضى تفويض المقام الشريف القطبي المشار إليه الأمر في الصلح المذكور إلى  
 الشيخ نظام الدين مسعود المذكور ، وتوكيله إياه فيه ، وإقامته مقام نفسه الشريفة ،  
 وجعل قوله من قوله ، وأنه - عظم الله تعالى شأنه - أشهد الله العظيم عليه بذلك ،  
 وأشهد عليه من يضع خطه من جماعته المجهزين صعبة الشيخ نظام الدين مسعود  
 المذكور ، وهما : الشيخ بدر الدين أحمد بن الشيخ الإمام العالم شمس الدين محمد بن  
 الجزري الشافعي ، والصدر الأجل كمال الدين كمال أغا ؛ وأن ذلك صدر عن المقام  
 الشريف القطبي المشار إليه ، موافقته على الصلح الشريف ، وإجابة القصد فيه  
 بإطلاق الأمير أطلش لزم المقام القطبي المشار إليه ، وتجهيزه إلى حضرته العالية ؛  
 وأنه عاهد الله عز وجل بحضور جم غفير من أمراء دولته وأكابرها ، ومن حضر  
 مجلسه ، باليمين الشرعية الجامعة لأشنت الحلف : بالله الذي لا إله إلا هو رب البرية  
 وبأرى النسم ، على ذلك جميعه ، وعلى أنه لا يدخل إلى البلاد الداخلة في مملكة  
 مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه ، وأنه مهما عاهد وصالح وعاهد عليه الشيخ  
 نظام الدين مسعود الوكيل المذكور يقضى به المقام القطبي المشار إليه ، ويمضيه  
 ويرتضيه . وأنفصل الأمر على ذلك .

فبعد ما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - على المكتبة الشريفة المشار إليها، وتفهم مضمونها، ورأى أن المصلحة في الصلح: تبركاً بما ورد في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - استخار الله عز وجل، وأمر بتجهيز الأمير أطامش المذكور، وتسليمه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور، وأذن لهما في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القطبي المشار إليه: بموافقة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامه - على ذلك، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحيد، شيخ الإسلام، سراج الدين، عمر البلقيني - أعاد الله تعالى على المسامحين من بركاته - وقضاة القضاة الحكام - أعز الله تعالى أحكامهم - ومشايع العلم الشريف والصلاح، وأركان الدولة الشريفة، ومن يضع خطه في هذا الصلح الشريف بالشهادة بمضمونه .

وعقد الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام الشريف القطبي المشار إليه - زيدت عظمته - على حكم مضمون مفاوضته الشريفة المقدم كرها، وما قامت به البيئنة الشرعية، بشهادة العدلين المذكورين الواصلين صحبة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروح فيه . فكان صلحاً صحيحاً شرعياً، تاماً كاملاً معتبراً مرضياً، على أحسن الأمور وأجملها، وأفضل الأحوال وأتملها .

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله ملكه - وعاهد الله عز وجل نظير ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القطبي المشار إليه من القول والعمل، واستقرت بمشيئة الله تعالى الخواطر، وسرت القلوب وقرت النواظر، لما في ذلك من حفظ ذمام العهود الشريفه، وإقامة منار الشرع الشريف وأمتداد

ظلالِ أعلامِهِ الْوَرِيْفِهِ ؛ وإِجْرَاءِ كَلِمَةِ الصَّدِيقِ ، عَلَى لِسَانِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَصَوْنِ  
أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشِعَارِ دِينِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ ؛ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَقْدُ هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ  
عَلَى مَدَى اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَلَا يَنْقُضِي حُكْمُهُ وَلَا يَنْحَلُّ إِبْرَامُهُ عَلَى تَوَالِي السَّنِينَ  
وَالْأَعْوَامِ .

هذا : عَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ عَسَاكِرِهِمَا وَجُنْدِهِمَا وَمَمَالِكِهِمَا إِلَى حُدُودِ  
مَمْلَكَةِ الْآخَرِ ، وَلَا يَتَعَرَّضَ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَمَالِكِ وَقِلَاعِ ، وَحُصُونِ  
وَسَوَاحِلِ وَمَوَانٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ ؛ وَرِعَايَاهُمَا مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ  
وَالْأَجْنَاسِ ، وَمَا هُوَ مَخْتَصٌّ بِبِلَادِ كُلِّ مِنْهُمَا وَمَعْرُوفٌ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ : حَاضِرِهَا  
وَبَادِيهَا ، وَقَاصِبِهَا وَدَانِيهَا ، وَعَامِرِهَا وَغَامِرِهَا ، وَبَاطِنِهَا وَظَاهِرِهَا ، وَلَا إِلَى مَنْ  
فِيهَا مِنَ الرَّعِيَّةِ وَالتَّجَارِ وَالْمَسَافِرِينَ ، وَسَائِرِ الْغَادِيَةِ وَالرَّائِحِينَ فِي السَّبِيلِ وَالطَّرِيقِ :  
مَتَفَرِّقِينَ وَمَجْتَمِعِينَ .

هذا عَلَى أَنْ يَكُونَ كُلُّ مِنَ الْمَقَامَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ الْمُسَارِ إِلَيْهِمَا مَعَ الْآخَرِ عَلَى أَكْمَلِ  
مَا يَكُونُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ : مِنْ حُسْنِ الْوَفَاءِ ، وَجَمِيلِ الْمُوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ ؛ وَيَكُونَا  
فِي الْإِتِّحَادِ كَالْوَالِدِ وَالْوَالِدِ ، وَعَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْتِرَاجِ وَالْإِخْتِلَاطِ كُرُوحِينَ فِي جَسَدِهِ  
مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ مُصَادَقَةِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَمُعَادَاةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَمُسَالَمَةِ الْمُسَالِمِينَ ،  
وَمُحَارَبَةِ الْمُحَارِبِينَ ؛ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالظُّهُورِ وَالْكِتْمَانِ ؛ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ ، وَهُوَ  
الْعَالِمُ بِمَا تُبْشِرُ الْأَعْيُنُ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ،  
فِي الْغَيْبَةِ وَالْحُضُورِ ، وَالْوُرُودِ وَالصُّدُورِ .

## الباب السادس

## من المقالة التاسعة

( في الفسوخ الواردة على العقود السابقة ، وفيه فصلان )

## الفصل الأول

الفسوخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر

قال في "التعريف" : وقل أن يكون فيه إلا ما يبعث به على ألسنة الرسل .  
 قال : وقد كتب عمي الصاحب شرف الدين [أبو محمد] <sup>(١)</sup> عبد الوهاب رحمه الله ،  
 سنة دخول العساكر الإسلامية ملطية ، سنة أربع عشرة وسبعائة فسخا على التكفور  
 مملك سيس ، كان سببا لأن زاد قطيعته . ولم يذكر صورة ما كتبه في ذلك .

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكر الكاتب فيه  
 موجب الفسخ الصادر عن المفسوخ عليه : من ظهور ما يوجب نقض العهد ،  
 ونكث العقد ، وإقامة الحجّة على المفسوخ عليه من كل وجه .

قال في "التعريف" : والذي أقول فيه : إنه إن كتب فيه ، كتب بعد البسملة :

هذا ما استخار الله تعالى فيه فلان ، استخارة تبين له فيها غدر الغادر ، وأظهر له بها  
 سر الباطن ما حققه الظاهر ؛ فسوخ فيها على فلان ما كان بينه وبينه من المهادنة  
 التي كان آخر الوقت الفلاني آخر مدتها ، وطهر السيوف الذكور فيها من الدماء إلى  
 انقضاء عدتها ؛ وذلك حين بدا منه من موجبات النقض ، وحل المعاقدة التي كانت  
 يسد بعضها ببعض (وهي كذا وكذا ، وتذكر وتعد) مما يوجب كل ذلك إخفارا

(١) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٧١) .



الذمه ، ونقض العهود المرعية الحرمه ؛ وهند قواعد الهدنه ، وتخليه ما كان قد أمسك من الأعتنه ؛ كتب إنذارا ، وقدم حذارا ؛ ومن يشهد بوجود هذا الفسخ ، ودخول ملة تلك الهدنة في حكم هذا النسخ ؛ ما تشهد به الأيام ، ويحكم به عليه النصر المكتتب للإسلام ؛ وكتب هذا الفسخ عن فلان لفلان وقد نبذ إليه عهدته ، وأنجز وعده ؛ وأنفذ إليه سهمه بعد أن صبر مليا على مآلاته ، وأقام مدة يدارى مرض وفائه ولا ينجح فيه شيء من مداواته ؛ ولينصرن الله من ينصره ، ويحذر من يأمن مكره من يحذره ؛ وأمر فلان بأن يقرأ هذا الكتاب على رؤوس الأشهاد ، لينقل مضمونه إلى البلاد ؛ أنفة من أمر لا يتأدى به الإعلان ، وينصب به لهذا الغادر لواء لا يقال إذا يقال : هذا اللواء لغدره فلان بن فلان .

## الفصل الثاني

المفاسخة وهي ما يكون من الجانين جميعا

قال في "التعريف" : وصورة ما يكتب فيها : هذا ما اختاره فلان وفلان من فسح ما كان بينهما من المهادنة التي هي إلى آخر مدة كذا . اختارا فسح بنائها ، ونسخ أنبائها ؛ ونقض ما أبرم من عقودها ، وأكده من عهودها ؛ جرت بينهما على رضا من كل منهما بايقاد نار الحرب التي كانت أطفئت ، وإثارة تلك التوائ التي كانت كفيته ؛ نبذاه على سواء بينهما ، واعتقاد من كل منهما ؛ أن المصلحة في هذا لجهته ، وأسقط ما كان يجمله للآخر من ريقته ؛ ورضى فيه بقضاء السيف ، وإمضاء أمر القدر والقضاء في مسافات الخوف ؛ وقد أشهدا عليهما بذلك الله وخلقه ومن حضر ، ومن سمع ونظر ؛ وكان ذلك في تاريخ كذا وكذا .

## المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب وتنافس في عملها، ليس لها  
تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

## الباب الأول

في الحديات، وفيه خمسة فصول

## الفصل الأول

## في المقامات

وهي جمع مقامة بفتح الميم، وهي في أصل اللغة اسم للجلس والجماعة من الناس .  
وسميت الأحدث من الكلام مقامة، لأنها تُذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة  
من الناس لسماعها . أما المقامة بالضم، فبمعنى الإقامة، ومنه قوله تعالى حكاية  
عن أهل الجنة : ( الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ) .

وأعلم أن أول من فتح باب عميل المقامات، علامة الدهر، وإمام الأدب،  
البدیع الهمدانی : فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه، وهي في غاية من البلاغة،  
وعلو الرتبة في الصنعة . ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري، فعمل مقاماته  
الخمس المشهورة، بخفاء نهاية في الحسن، وأتت على الجزء الوافر من الخط،  
وأقبل عليها الخاص والعام، حتى أنست مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة .  
على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في " المتل السائر " لم يوفه حقه، ولا عامله  
بالإنصاف، ولا أجمل معه القول . فإنه قد ذكر أنه ليس له يد في غير المقامات،

حتى ذكر عن الشيخ أبي محمد أحمد بن الحشّاب أنه كان يقول : إن الحريري رجل مقامات . أى إنه لم يُحسّن من الكلام المنشور سواها ، فإن أتى غيرها فلا يقول شيئاً . وذكر أنه لما حضر بغداد ، ووقف على مقاماته ، قيل : هذا يُستصاح لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة ، ويحسن أثره فيه ، فأحضر وُكِّفَ كتابه كتاباً فأخيم ، ولم يجر لسأته في طويله ولا قصيره ، حتى قال فيه بعضهم :

شيخ لنا من ربيعة الفرس \* يتنف عنونه من الهوس ،

أنطقه الله بالمشان وفي \* بغداد أصحى الملجوم بالحرس !

واعتدّر عنه بأن المقامات مدارها جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص ، بخلاف المكتابات فإنها بحر لا ساحل له : من حيث إن المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام ، وهي متجددة على عدد الأنفاس .

وهذه المقامة التي قدّمت الإشارة إليها في خطبة هذا الكتاب ، إلى أنى كنت أنشأتها في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعائة ، عند استقرارى في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة ، وأنها أشتمت - مع الاختصار - على جملة جمّة من صناعة الإنشاء ، وسمّتها بـ "الكواكب الدرّية" ، في المناقب البدرية ، ووجه القول فيها لتقرّظ المقرّ البدرى ، بن المقرّ العلّائى ، بن المقرّ المحيوى ، بن فضل الله ، صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ . جعلت مبنها على أنه لا بدّ للإنسان من حرفة يتعلّق بها ، ومعيشة يتمسك بسببها ، وأن الكتابة هي الحرفة التي لا يليق بطالبي العلم سواها ، ولا يجوز له العُدول عنها إلى ما عداها ، مع الجُنوح فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها ، وتقديمها على كتابة الدبّونة وترشيحها .

وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجواد ، مع التنبيه على جملة من المصطلح بيّنت مقاصده ، ومهدت قواعده ؛ على ما ستقف عليه في خلال مطاوعها إن شاء الله تعالى ، وهي :

حكى الناظر ابن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف ، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ؛ أنصب لأقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأزّه توحيد الاستغفال عن إشراك التعطيل ؛ مشمراً عن ساق الحد ذيل الاجتهاد ، مستمراً على الوحدة وملازمة الأفراد ؛ أتبهز فرصة الشباب قبل توليها ، وأغتنم حالة الصحة قبل تجا فيها ؛ قد حالف جفني السهاد ، وحالف طيب الرقاد ؛ أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتتفرعن الطلب وتجمح ؛ ميسلاً جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميسل إليها ، صارفاً وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها ؛ متخيراً أليق الأماكين وأوفق الأوقات ، قانعاً بأدنى العيش راضياً بأيسر الأقوات ؛ أونس من شوارد العقول وحشيتها ، وأشرد عن روايض المنقول حوشيتها ؛ وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها ؛ مقدماً من العلوم أشرفها ، ومؤثراً من الفنون أظرفها ؛ معتمداً من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع ، مقبلاً منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي ذكره السمع ؛ متقياً من الكتب أمتعتها تصديفاً ، وأتمها تحريراً وأحسنها تأليفاً ؛ متحجباً من أشياخ الإفادة أوسعهم علماً وأكثرهم تحقيقاً ، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثاً وأظفهم تدقيقاً ؛ عارفاً لكل عالم حقه ، وموفياً لكل علم مستحقه ؛ قد استغنيت بكتابي عن خلى ورقيب ، وآثرت بيت خلوتي على شفيق وشقيبي ؛ أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فأشهدها عياناً ، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كائن المعاني فلا أثنى عنها عياناً ؛ وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع

بالغنيمه ، وأجهم على حصون الدفاتر ثم لا أولى عن هزيمه ؛ بل كلما لاحت لي فئه  
من البحث تحيزت إليها ، أو ظهرت لي كتيبة من المعاني حملت عليها ؛ إلى أن أتيت  
لي من الفتح ما أفاضته النعمه ، وحصلت من الغنيمه على ما أقتضته القسمة .

فبينما أنا ارتع في رياض ما نقلت ، وأجبتني يمار ما خولت ، إذ طلع على جيش  
التكليف فخصرنى ، وخرج على كين التكليف فأسرني ؛ فأمسيت في أضيق خناق ،  
وأشد وثاق ؛ قد عاقني قيد الأكتساب عن الاشتغال ، وصددني كل الكد عن  
الأهتمام بالطلب والأحتفال ؛ فغشيتني من القبض ما غشيتني ، وأخذني من الوحشة  
ما أخذني ؛ وتعارض في حكم العقل بين الكسب وطلب العلم ، وتساويا في الترجيح  
فلم تجنح واحدة منهما إلى السلم ؛ فصرت مدهوشا لا أحسن صنعا ، وبقيت متحيرا  
لا أدري أى الأمرين أقرب إلى نفع ؛ : إن طلبت العلم للكسب فقد أخشت  
رجوعا ، وإن تركت الكسب للعلم هلكت ضيعة ومث جوعا .

فلما علمت أن كلا منهما لا يقوم إلا بصاحبه ، ولا يتم الواجب في أحدهما  
مالم يتم في الآخر بواجبه ؛ آتمست كسبا يكون للعلم موافقا ، وبجملته لايقا ؛ ليكون  
ذلك الكسب للعلم موضوعا والعلم عليه محمولا ، والجمع ولو بوجه أولى ؛ فجعلت  
أسبر المعاش سبر مقصد ، وأسير في فلوات الصنائع سير متعهد ؛ لكى أجد  
حرفه تطابق أرى ، أو صنعة تجانس طلبي .

فبينما أنا أسير في معاهدها ، وأردد طرفي في مشاهدها ؛ إذ رفعت لي صوت قرع  
سمعى برنته ، وأخذ قلبي بحتته ؛ ففقوت أثره متبعا ، ومأت إليه مستمعا ؛ فإذا رجل  
من أحسن الناس شكلا ، وأزحجهم عقلا ؛ وهو يترنم وينشد :

إن كنت تقصدني بظالمك عامدا ، خربت نفع صداقة الكتاب ؛

السَّائِقِينَ إِلَى الصِّدِّيقِ ثَرَى الْغِنَى • وَالنَّاعِشِينَ لَعَثْرَةَ الْأَصْحَابِ ،  
وَالنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عَيْبٍ مُنْقِلٍ • وَالنَّاطِقِينَ بِفَضْلِ كُلِّ خِطَابٍ ،  
وَالْعَاطِفِينَ عَلَى الصِّدِّيقِ بِفَضْلِهِمْ • وَالطَّيِّبِينَ رَوَائِحِ الْأَنْوَابِ .  
وَأَيْنَ بَحَدَثِهِمُ الشَّنَاءَ فَطَالَمَا • بِحَمْدِ الْعَيْدِ تَفَضَّلَ الْأَرْبَابِ !

فلما سمعتُ منه ذلك ، وأعجبني من الوصفِ ما هُنَالِكَ ؛ دَتَوْتُ مِنْهُ دُنُوَ الْوَجَلِ ،  
وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ جُلُوسَ السَّائِلِ ؛ وَقُلْتُ : هَذِهِ وَأَبِيكَ صِفَاتُ الْمُلُوكِ بَلْ مَلُوكُ  
الصِّفَاتِ ، وَأَكْرَمُ الْفَضَائِلِ بَلْ أَفْضَلُ الْمَكْرَمَاتِ ؛ وَلَمْ أَكُ أَظُنُّ أَنَّ لِلْكِتَابَةِ هَذَا  
الْخَطَرَ الْجَسِيمَ ، وَلِلْكِتَابِ هَذَا الْحِطَّ الْعَظِيمَ ؛ فَأَعْرَضَ مُغْضِبًا ، ثُمَّ فَوْقَ بَصَرِهِ إِلَى  
مُعْجَبًا ؛ وَقَالَ : هَيْهَاتَ فَاتَكَ الْحَزْمُ ، وَأَخْطَاكَ الْعَزْمُ ؛ إِنَّهَا لَمِنْ أَعْظَمِ الصَّنَائِعِ قَدْرًا ،  
وَأَرْفَعِهَا ذِكْرًا ؛ نَطَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهَا ، وَجَاءَتِ الشَّنَةُ الْغَرَاءُ بِتَقْدِيمِ أَهْلِهَا ؛  
فَقَالَ تَعَالَى جَلَّ شَأُوهُ ، وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ  
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، حَيْثُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْكَرَمِ ؛ إِشَارَةً  
إِلَى أَنَّ تَعْلِيمَهَا مِنْ جَزِيلِ نِعْمَةٍ ، وَإِيذَانًا بِأَنَّ مَنَحَهَا مِنْ فَائِضِ دَيْمِهِ ؛ وَقَالَ جَلَّتْ  
قُدْرَتُهُ : ﴿ رَبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ  
وَمَا سَطَّرْتَهُ الْأَقْلَامُ ، وَأَتَى بِذَلِكَ فِي آكِدِ قَسَمٍ فَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَقْسَامِ . وَقَالَ  
تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ لِجَعْلِ الْكِتَابَةِ مِنْ وَصِفِ  
الْكَرَامِ ، كَمَا قَدْ جَاءَ فِعْلُهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ وَإِنَّمَا مَنَعَهَا النَّبِيُّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجِزَةً قَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى سَبَبَهَا ، حَيْثُ ذَكَرَ الْحَادِثَ بِقَوْلِهِ :  
﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ آكْتَبَهَا ﴾ .

هذا : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكُتَّابِ رَاغِبًا ، فقد رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ نَيْفٌ وَثَلَاثُونَ كَاتِبًا ، هُمْ مُجَبَّةُ أَصْحَابِهِ ، وَخُلَاصَةُ أَتْرَابِهِ ، مَنْ آمَنَتْهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ ، وَخَاطَبَ بِالسُّنَنِ أَقْلَامِهِمْ مُلُوكَ الْأَرْضِ فَأَجَابُوا بِالْإِذْعَانِ عَلَى الْبُعْدِ وَالْمَدَى الطَّوِيلِ ، وَكَتَبَ الْمُلُوكُ أَيْضًا إِلَيْهِ أِبْتِدَاءً وَجَوَابًا ، وَكَاتَبَ أَصْحَابَهُ وَكَاتَبُوهُ فَأَحْسَنَ اسْتِمَاعًا وَأَحْمَ خَطَابًا ، وَبِذَلِكَ جَرَتْ سُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ تَلَاثِهِمْ ، وَعَلَى نَهْجِهِ مَشَتْ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ وَمِنْ صَاهَاهُمْ .

فَالْكَاتِبَةُ قَانُونُ السِّيَاسَةِ ، وَرُتْبَتُهَا غَايَةُ رُتْبِ الرِّيَاسَةِ ، عِنْدَهَا تَقِفُ الْإِنْفَاقُ ، وَإِلَيْهَا تَنْتَهِي مَنَاصِبُ الدُّنْيَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ ، وَالْكَاتِبُ عِيُونُ الْمُلُوكِ الْمُبْصِرَةِ وَأَدَانِهِمُ الْوَاعِيَةِ ، وَأَسْتَنْتُهُمُ النَّاطِقَةُ وَعُقُوقُهُمُ الْحَاوِيَةِ ، بَلْ مَحْضُ الْحَقِّ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ الشُّكُوكُ ، وَإِنِ الْمُلُوكَ إِلَى الْكُتَّابِ أَحْوَجُ مِنَ الْكُتَّابِ إِلَى الْمُلُوكِ ، وَنَاهِيكَ بِالْكِتَابَةِ شَرَفًا ، وَأَعْلَى بِذَلِكَ رُتْبَةً وَكَفَى ، أَنَّ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ يُزَاحِمُ الْكَاتِبَ فِي قَلْبِهِ ، وَلَا يُزَاحِمُ الْكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ فِي سَيْفِهِ وَعَايِهِ .

وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَهَمُ الْحَاوُونَ لِكُلِّ وَصْفٍ جَمِيلٍ ، وَشَأْنُ نَيْلِ الْكَرَمِ شِعَارُهُمْ ، وَالْحِلْمُ دِتَارُهُمْ ، وَالْجُودُ جَادَتُهُمْ ، وَالْخَيْرُ عَادَتُهُمْ ، وَالْأَدَبُ مَرْكَبُهُمْ ، وَاللُّطْفُ مَذْهَبُهُمْ ، وَلِلَّهِ الْقَائِلُ :

وَسَمُولٍ كَأَمَّا اعْتَصَرُوهَا • مِنْ مَعَانِي سَمَائِلِ الْكُتَّابِ !

فَلَمَّا انْقَضَى قِيْلُهُ ، وَبَانَ سَبِيلُهُ ، قُلْتُ : لَقَدْ ذَكَرْتَ قَوْمًا رَاقِيًا وَصَفْتَهُمْ ، وَشَاقِيًا لُطْفُهُمْ ، وَدَعَانِي طَيْبُ حَدِيثِهِمْ ، وَحُسْنُ أَوْصَافِهِمْ ، وَجَمِيلُ نَعْوَتِهِمْ ، إِلَى أَنْ أَحَلَّ بِنَادِيهِمْ ، وَأَنْزَلَ بِوَادِيهِمْ ، فَأَجْعَلْ حِرْقَتَهُمْ كَسْبِي ، وَصَنَعَتَهُمْ دَائِي ، لِيَجْتَمِعَ بِالْعِلْمِ شَمْلِي ، وَيَتَّصِلَ بِالْإِسْتِغَالِ حَبْلِي ، فَكُونَ قَدْ ظَفِرْتُ بِمُنْبَتِي ، وَفُرْتُ بِبُعْتِي .

فأى قبيل من الكُتَّابِ أَرَدتْ ؟ وإلى أى نَوْعٍ من الكِتابَةِ أَشَرَتْ ؟ أِكِتابَةِ  
الأموالِ ؟ أم كِتابَةِ الإنشاءِ والخطابةِ ؟ ، أم غيرَهُما من أنواعِ الكِتابَةِ ؟ ؛ فنظَرَ إلى  
مُتَسِّمًا ، وأنشد مُتَرَمِّمًا :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ غَضَبٍ \* ثُمَّ اسْتَمَدُّوا بِهَا مَاءَ الْمِيَّاتِ ،  
نَأَوْا بِهَا مِنْ أَعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا \* مَا لَمْ يَنَالُوا بِحَدِّ الْمَشْرِقِيَّاتِ !

فقلتُ : كأنك تُريدُ كِتابَةَ الإنشاءِ دونَ سائرِ الكِتابَاتِ ، وهى التى تَقْصِدُها  
بالنَّصْرِجِ وتُشيرُ إليها بالكِتابَاتِ ؛ فقال : وهل فى أنواعِ الكِتابَةِ جُملةٌ نَوْعٌ يُساوِيها ،  
أو فى سائرِ الصَّنَائِعِ على الإطلاقِ صَنعةٌ تُضاهِيها ؟ ؛ إنَّ لها لَلْقُدْحَ المَعْلَى ، وإلْحِيدَ  
المُحَلَّى ؛ والذَّرْوَةَ المُنِيْفَةَ ، والرُّتْبَةَ الشَّرِيفَةَ ؛ كُتَّابُها أَسُّ المُلْكِ وعمادُهُ ، وأركانُ المُلْكِ  
وأطْوَادُهُ ؛ وَلِسَانُ المَلَكَةِ النَّاطِقِ ، وَسَهْمُها المَفُوقُ الرَّاشِقِ ؛ واللهِ حَيْبُ بنِ أَوْسِ  
الطَّائِيِّ حيثُ يقولُ :

وَلَضْرِبَةٌ مِنْ كَاتِبِ بَنِيهِ \* أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَفِيقِ حُسَامِ !  
قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عِدَاوَةَ حَاسِدٍ \* سَفَكُوا الدِّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ !

قَلَمُها يَبْلُغُ الأَمَلَ ، وَيُبْعِي عن البِيضِ والأَسَلِ ؛ به تُصانُ المَعاقِلُ ، وتُفَرَّقُ  
الجَحَافِلُ :

فَلَكُمْ يَفِلُ الجَيْشُ وهو عَرَمَرَمٌ \* والبِيضُ ما سَلَّتْ من الأَعْمادِ !

فقلتُ : إنَّ كُتَّابِ الأموالِ يزعمون أن لهم فى ذلك المَقامِ الأَعْلَى ، والطَّرِيقَةَ  
المُتَلَى ؛ وَيَسْتَشْهِدُونَ لِفَضْلِها ، وتَقَدِّمُ أَهْلِها ؛ بقولِ الإمامِ أبى محمد القاسِمِ الحَرِيرِيِّ  
رحمه الله ، فى مقاماتِهِ :

«إِنَّ صِناعَةَ الحِسابِ مَبْنِيَّةٌ على التَّحْقِيقِ ، وصِناعَةَ الإنشاءِ مَبْنِيَّةٌ على التَّلْفِيقِ ؛  
وقَلَمَ الحاسِبِ ضابِطٌ ، وقَلَمَ المُنشئِ حابِطٌ ؛ وبين إناوَةِ تَوْطِيفِ المَعامِلاتِ ، وتِلاوَةِ



طَوَامِيرُ السَّجَلَاتِ ؛ بَوْنٌ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَعْتَوِرُهُ التَّيَّاسُ ؛ إِذِ الْإِتَاوَةُ تَمَلُّ  
 الْأَيْكَاسُ ، وَالتَّسَاوَةُ تُفْرِغُ الرَّأْسَ ؛ وَخَرَّاجُ الْأَوَارِجِ ، يُعْنِي النَّاطِرَ ، وَاسْتِخْرَاجُ  
 الْمَدَارِجِ ، يُعْنِي الْحَاطِرَ ؛ وَالْحَسَبَةُ حَفْظَةُ الْأَمْوَالِ ، وَحَمَلَةُ الْأَثْقَالِ ؛ وَالتَّقَلَةُ  
 الْأَثْبَاتِ ، وَالسَّفَرَةُ الثَّقَاتِ ؛ وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْإِتِّصَافِ ، وَالثَّمُودُ الْمَقَانِعُ  
 فِي الْاِخْتِلَافِ ؛ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْفَى الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ؛ وَقِسْطَاسُ  
 الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيَّمُنُ عَلَى الْعَمَالِ ؛ وَإِلَيْهِ الْمَأْبُ فِي السَّلْمِ وَالْمَرْحِجِ ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ  
 فِي الدَّخْلِ وَالخَرْجِ ؛ وَبِهِ مَنَاطُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَفِي يَدِهِ رَبَاطُ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ؛ وَلَوْلَا  
 قَلَمُ الْحِسَابِ ، لَأَوَدَّتْ تَمْرَةُ الْاِكْتِسَابِ ، وَلَا تَصَلَّ التَّغَابُنُ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ؛ وَلَكَانَ  
 نِظَامُ الْمَعَامَلَاتِ مَحْلُولًا ، وَجُرْحُ الظَّلَامَاتِ مَطْلُولًا ، [ وَجَيْدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولًا ]<sup>(١)</sup> ،  
 وَسَيْفُ التَّنَاطُلِ مَسْأُولًا ؛ عَلَى أَنَّ يَرَاعَ الْإِنْشَاءَ مُتَقَوَّلًا ، وَيَرَاعَ الْحِسَابَ مُتَأَوَّلًا ؛  
 وَالْمَحَاسِبُ مُنَاقِشٌ ، وَالْمُنَشِيُّ أَبُو بَرَّاقِشٍ » .

فوصف كتابة الأموال بأتم الصفات ، ونبهه من شيم أهلها وشيبتهم على أكرم  
 الشيم وأحسن الشيات .

فقال : هذه المجمة معارضةً بمثلها ، بل باطلةً من أصلها ؛ وأين ذلك من قوله  
 في صدر كلامه ؟ :

« اَعْلَمُوا أَنَّ صِنَاعَةَ الْإِنْشَاءِ أَرْفَعُ ، وَصِنَاعَةَ الْحِسَابِ أَنْفَعُ ؛ وَقَلَمُ الْمَكَاتِبَةِ خَاطِبٌ ،  
 وَقَلَمُ الْمُحَاسِبَةِ حَاطِبٌ ؛ وَأَسَاطِيرُ الْبَلَاغَاتِ تُنَسَخُ لِتُدْرَسَ ، وَدَسَاتِيرُ الْحُسْبَانَاتِ تُنَسَخُ  
 وَتُدْرَسُ ؛ وَالْمُنَشِيُّ جُهَيْنَةُ الْأَخْبَارِ ، وَحَقِيبَةُ الْأَسْرَارِ ؛ وَنَجِيُّ الْعُظْمَاءِ ، وَكَبِيرُ النَّدْمَاءِ ؛  
 وَقَلَمُهُ لِسَانُ أَسْرَارِ الدَّوَلَةِ ، وَقَارِسُ الْجَوْلَةِ ؛ وَلُقْمَانُ الْحِكْمَةِ ، وَتَرْجُمَانُ الْهِمَّةِ ؛ وَهُوَ

(١) الزيادة من مقامات الحريري .

البشير والنذير، والشفيح والسفير، به تُستخلص الصياحي، ومُملِك النواصي، ويُقتاد العاصي، ويُستدنى القاصي، وصاحبه برىء من التبعات، آمن كيد السعات، مفرط بين الجماعات، غير معرض لنظيم الجماعات» .

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب، التي لا يعثورها شين، ولا يسوبها مين، وصدر الكلام يقتضي الترجيح، ويؤذن بالترشيح، والرفع، أبلغ في الوصف من النفع، فقد ينتفع بالزر اليسير، ولا يرتفع إلا بالأمر الكبير، على أنه لو اعتبر نفع كتابة الإنشاء لكان أبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوغ، وأنى لكاتب الأموال، من التأثير في قل الحُيُوس من غير قتال، وفتح الحُصُون من غير نزال، فهذه هي الخِصِيصِي التي لا تُساوى، والمنقبة التي لا تُتاوى :

تلك المكارم لا قعبان من لبن • شيبا بماء فعادا بعد أبوالا !

فقلت: الآن قد انقطعت الحجج، وبانت المحجج، فما الذي يحتاج كاتب الإنشاء إلى ممارسته؟ فقال: إذا قد تعلقت من الصنعة بأسبابها، وأتيت البيوت من أبوابها. أعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته، وتقوى براعته، وتجل براعته، إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الأصلاح والإحاطة بالرُسُوم؛ ثم أهم ما يبداً بتحصيله، ويعتمد عليه في جملة الأمر وتفصيله، حفظ كتاب الله العزيز الذي هو معيد الفصاحه، وعنصر البلاغه، وإدامة قراءته وتكرير معانيه، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه؛ حتى لا يزال دائراً على لسانه حاضراً في ذكره، ولا يبرح معناه ممثلاً في قلبه مصوراً في فكره؛ ليكون مستحضراً له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويضطر إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها؛ فله الحجمة البالغة، ولا ياتيه الأجوبة الدامغة؛ خصوصاً السير والأحكام، وما يتعلق بذلك من مهمات

الدين وقواعد الإسلام؛ وما أشتمل عليه كلام النبوة من الألفاظ البديعة التي أبكت  
الفصحاء، والمعاني الدقيقة التي أعيت البلغاء؛ مع النظر في معانيها ومعرفة غريبها،  
والإطلاع على ما للعلماء في ذلك من الأقوال بعيدا وقريبا؛ لتكون أبدا حجة  
ظاهره، وأدلتها قوية متظاهره؛ فإن الدليل إذا استند إلى النص انقطع النزاع  
وسلم المدعى وزيم، والفصاحة والبلاغة غايتهما - بعد كتاب الله تعالى - في كلام  
من أوتي جوامع الكلم؛ والعلم بالأحكام السلطانية وفروعها، وخصوصها وشيوعها؛  
والتوغل في أشعار العرب والمولدين، وأهل الصناعة من المحدثين؛ وما ورد عن كل  
فريق منهم من الأمثال تراثاً ونظماً، وما جرى بينهم من المحاورات والمناقضات حرباً  
وسلماً؛ والتعويل من ذلك على الأشعار البديعة التي اختارها العلماء بها، فتمسكوا  
بأوتادها وتعلقوا بسببها؛ والأمثال الغريبة التي انتقوها، ودونوها ورووها؛ وأستبضح  
القسمين وأستكشاف غوامضهما، وأستظهار النوعين وأستطار عوارضهما؛  
والإطلاع على خطب البلغاء، ورسائل الفصحاء؛ وما وقع لهم في مخاطباتهم،  
ومكاتباتهم؛ والعلم بأيام العرب وحروبهم، وما كان من الوقائع بين قبائلهم وشعوبهم؛  
والنظر في التواريخ وأخبار الدول الماضية، والقرون الخالية؛ وسير الملوك وأحوال  
الممالك، ومعرفة مكائدهم في الحرب المنقذة من المهಾಯى والمنجية من المهالك .

مع سعة الباع في اللغة التي هي رأس ماله، وأش مقاله؛ وكثرة المعد للإتفاق،  
ومعينه بل مغيبه وقت الضرورة على الإطلاق؛ والنحو الذي هو ملح كلامه، ومسك  
ختامه؛ والتصريف الذي تعرف به أصول أبنية الكلمة وأحوالها، وكيفية التصرف  
في أسمائها وأفعالها؛ وعلوم المعاني والبيان والبديع التي هي حلية لسانه، وآية بيانه؛  
ومعرفة أبوابها وفصولها، وتحقيق فروعها وأصولها : من الفصاحة وطرائقها،  
والبلاغة ودقائقها؛ واختيار المعاني وترتيبها، ونظم الألفاظ وتركيبها؛ والفصل

والوصيل ومواقفهما ، والتقديم والتأخير ومواضعهما ؛ ومواطن الحذف والإضمار ، وحكم الروابط والأخبار ؛ وغير ذلك من الحقيقة والمجاز ، والبسط والإيجاز ؛ والحل والعقد ، وتمييز الكلام جيده من رديه بصحة النقد ؛ مع معرفة أنواع البديع وطرائقها ، والأطالع على غوامض أسرارها وفرائد دقائقها .

على أن أكد شيء يجب تحصيله قبل كل حاصل ، ويستوي في الاحتياج إلى معرفته المنفصول من الكتاب والفاضل ؛ العلم بالخط وقوانينه : من الهجاء والنقط والشكل ، والفرق بين الضاد والطاء المتخالفين في الصورة والشكل ؛ مع المعرفة بالآلات الكتابية وصفاتها ، وتباين أنواعها واختلاف صفاتها .

هذه أصوله التي يبنى عليها ، وقواعده التي يرجع إليها ؛ فإذا أحاط بهذه الفنون علماً ، وأتقنها فهماً ؛ غزرت عنده المواد ، وأنضحت له الجوائد ؛ فأخذ في الاستعداد ، وسهل عليه الاستشهاد ؛ فقال عن علم وتصرف عن معرفة وأستحسن ببرهان ، وانتقد بحجة وتخير بدليل وصاغ بترتيب وبخى على أركان ؛ واتسع في العبارة مجالاً ، وفتح له من باب الأوصاف أقاله ؛ وتلقى كل واقعة بما يماثلها ، وقابل كل قضية بما يشاكلها ؛ وعلم المجد فنسج على منواله ، وظهر له القاصر فأعرض عن أقواله ؛ وحصل له القوة على فهم الخطاب ، وأنشأ الجواب بحسب الوقائع والأعراض ، على طبق المقاصد والأعراض ؛ ومتى أخلل ببنى من ذلك فأنته الفضائل ، وعلقت به الرذائل ؛ وقلت بضاعته ، ونقصت صناعته ؛ وساءت آثاره ، وقبحت أخباره ؛ وخلط الغرر بالغرر ، ولم يميز بين الصدف والدرر ؛ فأخرج الصنعة عن أمائها ، وطمس من الكتابة وجوه محاسنها ؛ بجزء اللوم إلى نفسه ، وأمسى مهزاة لأبناء جنسه .

ووراء ذلك علوم هي كالنافلة للكاتب ، والزيادة للراغب :

منها ما تكمل به صناعته ، وتعظم به مكائده : كعلم الكلام ، وأصول الفقه  
وسائر الأحكام ؛ والمنطق والجدل ، وأحوال الفرق والنحل والملل ؛ وعلم العروض  
والميزان المحكم ، وعلم القوافي وحل المترجم ؛ والحساب المفتوح وما يترتب عليه من  
المعامله ، وما تُستخرج به المجهولات : من حساب الخطاين والدرهم والدينار والجبر  
والمقابلة ؛ وحساب الدور والوصايا ، والتخت والميل وما لأعماله على غيرها من  
المزايا ؛ والعلم بالفلاحة ، وأحوال المساحة ؛ وعلم عقود الأئمة والمنظر المحققه ،  
ومراكر الأثقال والمرابا المحرقه ؛ وعلم جرائن الأبيه ، والعلم بالآلات الحرقيه ؛  
وعلم المواقيت والبنكومات ، والتقاويم والزيجات ؛ وعلم تسطيح الكرة والتوصل بها  
إلى استخراج المطالب الفلكيه ، وكيفية الأرصاد وأحكام النجوم والآلات الظليه ؛  
وعلم الطب والبيطره ، وأحوال سائر الحيوان وعلم البيزره .

ومنها ما تكمل به ذاته ، وتتم به أدواته ؛ كعلم التعبير وعلم الأخلاق وعلم السياسه ،  
وعلم تدبير المنزل وعلم القراسه . وغير ذلك من العلوم التي أضربنا عن ذكرها خشية  
الإطاله ، وأعرضنا عن إيرادها خوف الملاله ؛ فهذه علوم فضله يهظم بعلمها  
أمره ، وفضيله يرتفع بتحصيلها ذكره ؛ بل لا يستغنى عن العلم برؤوس مسائلها ،  
وإشارات أربابها الآخذة من بحارها بأطراف سواحيلها ؛ على أنه قد ترد عليه  
أوقات لا يسعه جهل ذلك فيها ، وتمر عليه أزمان يود لو تُسترى فيشتريها .

قلت : قد بان لي علومها ، فما رؤوها؟ . قال : إن أعباءها لباهظة حملا ،  
وانها لكبيره إلا ؛ ولكن سأحدث لك مما سألت ذكرا ، وأنبئك بمالم تحيط  
به خبرا .

فمن ذلك : المعرفة بالولايات ولواحيها ، على اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها ؛  
من البيعات وأحكامها ، والعهود وأقسامها ، والتقاليد وصيغاتها ، والتفاويض  
ومضاهاتها ، والمراسيم وأوضاعها ، والتواقيع وأنواعها ، والخطب ومناسباتها ،  
والوصايا ومطابقتها ؛ ثم العلم بالمناشير ومراتبها ، والمربعات الجيشية ومعانيها ؛  
ومعرفة رتب المكاتب وطبقاتها ، ومن يستحق من الرتب أذناها أو يستوجب  
الرفع إلى أعلى درجاتها : من المكاتب الصادرة عن الأبواب الشريفة الخليفة ،  
والمكاتب الواردة عليها وعلى أبواب المناصب من سائر الآل والعترة النبوية ؛  
وملوك المسلمين والقنات ، وملوك الكفر وأرباب الديانات ؛ وأهل المملكة من  
النواب والكشاف والولاه ، والأمراء والوزراء والعربان والقضاة ؛ وسائر حملة  
الأفلام ، وأهل الصلاح وبقية الأعلام ؛ ونساء الملوك والخوندات ، ومكاتب  
التجار وما عساه يطرأ من المكاتب المستجدات ؛ وكتب البشرى بالجلوس على  
التخت والفتح والظفر ، والبشرى بوفاء النيل والقُدوم من الغزو والسفر ؛ وأستهداف  
العزائم ، والبطاق المحمولة على أجنحة الحمام ؛ والملطفات التي يضطر إليها ، ويعول  
في الأمور الباطنة عليها ؛ وأوراق الجواز في الطرقات ، والإطلاقات في التسفير  
والمثالات المطلقات ؛ ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكاتب تكرارها ، ويتسق  
في جيد المراسلات إيرادها وإصدارها ؛ كوصف الأنواء والكواكب ، والأفلاك  
العالية المراتب ؛ والآلات الملوكية الجليلة المقدار ، والسلاح وآلات الحصار ؛  
والتجليل المسومه ، والجوارح الممهمة ؛ وجيل الوحش وسباعه ، وطير الواجب  
وأتباعه ؛ والأمكنة والرياض ، والمياه والغيابض ؛ وغير ذلك مما يعز ويغلو ، ويرتفع  
ويغلو ؛ وإخوانيات المكاتب وطبقاتها ، وتميز كل طبقة منها عن أخواتها ؛  
وما تشتمل عليه من الأبتداء والجواب ، والتشوق والعتاب ؛ والترقى والأعذار ،

والشفاة وطلب الصنّج والعفو عند الأقدار؛ والتّهاني والتعازي، وما يكتب مع الهدية ويحاطب عنها من المجازي وغير المجازي .

وغير ذلك من مقاصد المكاتبات التي يتعدّد حصرها، ويمتنع على المستقصى ذكرها، ومعرفة الطفرة والطرة والعنوان والتعريف، والعلامة في الكتب على أما كنها الفارقة بين انحطاط القدر والتشريف؛ وتترتيب الكتاب وطيه وختمه، وتعمية ما في الكتب بضرب من الحيلة وإخفاء ذلك وكتمه؛ ونسخ الأيمان التي يستخلف بها، ويمسك للوفاء بسببها؛ كيمين البيعة العامة للوفاق والمخالف، وما يختص من ذلك بالتواب وأرباب الوظائف؛ وأيمان أصحاب البدع والأهواء، وأهل الملل والحكماء؛ وكتابة الهدن والمواصفات، والأمانات والدفن والمفاسخات؛ ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب، وبيان المستندات ومحلها المصطلح عليه بين الكتاب؛ وكتابة التاريخ وما أخذت به كل طائفة وثابت إليه تمسكا، وما يفتح به في الكتابة تيمنا ويختم به تبركا؛ ومعرفة قطع الورق: من كامل البغدادى والشامى والثلاثين والنصف والثلاث والمنتصوري والعادة، ومن يستحق من هذه المقادير أعلاها أو يوقف به مع أدنى رتبها من غير زياده؛ والأقلام المناسبة لهذه الأقدار، من الرقاع والتواقيع والثلاث ومختصر الطومار؛ والعلم بالأوضاع وكيفية الترتيب، ومقادير البياض ومباعدة ما بين السطور والتقريب؛ ومعرفة الرزاديق وقطانها، والنواحي والبلدان وسكانها؛ والأهم ومساكنها، وطرق الأقاليم ومساكنها؛ ومراكز البريد ومسافاتهما، وأبراج الحمام ومطاراتها؛ وهجن الثلج والسفن المعدة لتقله، والمحركات المؤدية إلى اجتياح العدو وتفريق شمله؛ والمتاور وأماكنها، والقصاد ومكانها .

هذه رؤسومها على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال .  
 وأعلم أن حُسن الخط من الكتابة واسطة عقديها، وقوة الماكّة على السجع  
 والأزدواج ملاك حلّها وعقدّها؛ على أن خير الخط ما قرى، وأحسن السجع ما سلم  
 من التكلف وبرى؛ وللكتاب في بحر الكتابة سبع طویل، وتفنن يسفر عن كل  
 وجه جميل .

قلت: فهل لهذه الرتبة الرئيسه، والمنقبة النفيسه؛ سمط يئمها، أو سلك يضمها؟  
 فقال: سبحان الله: إن يتها لأشهر من قفانك، وأظهر للعيان من شامحات جبال  
 النبك؛ أيحفي من البدر ضوءه الباهر، ونوره الزاهر؛؟ إن ذلك لقاصر على  
 «آل فضل الله» حقا، ومنحصر في المقر البدرى صدقا؛ فهو قبطها الذي تدور  
 عليه، وأبن بجدتها التي ترجع في علومها ورؤسومها وسائر أمورها إليه؛ فلورآه  
 «الفاضل عبد الرحيم» لم ير لنفسه فضلا ولا رضى لغيره مقالا، أو عاينه «عبد الحميد  
 الكاتب» لقال: هكذا هكذا وإلا فلا؛ أو عاصره «قدامة» جلس قدامة،  
 أو أدركه «أبن قتيبة» لا تحذه في «أدب الكاتب» شيخه وإمامه؛ أو بصربه  
 «الصابي» لصبا إليه ومال، أو قارن زمانه «الحسن بن سهل» بل «الفضل» أخوه  
 لأقام ببايه وما زال؛ أو جنح «أبن العديم» إلى مناواته لأدركه العدم، أو جرى  
 «الصاحب بن عباد» في مضار فضله لجا وزلت به القدم؛ أو أطلع «أبن مقلة»  
 على حُسن خطه لقال: هذا هو الجوهر الثمين، أو نظر «أبن هلال» إلى بهجة  
 رونقه لقال: إن هذا هو الفضل الميين؛ إن تكلم نقت سحرا، أو كتب خلت زهرا  
 أو تحيلت ذرا:

يؤلف اللؤلؤ المشور منطقه، وينظم الدر بالاقلام في الكتب!



قد علا نَسَبًا ، وفاق حَسَبًا ، وورث الفضل لا عن كَلَالَةٍ ، وأستحقَّ الرتبة بنفسه  
وإن كانت له بالأصالة :

خَيْرًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَالْعُلَى ، وَحَيْهًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِدِ الْمُحَضِّ !

فلما سمعتُ ذلك زال عني الإلباس ، وقلتُ : ذلك من فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى  
النَّاسِ . ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذي تُسِيرُ إِلَيْهِ ، إِنْ تَدُلُّنِي عَلَيْهِ ؛ فقال : إِنَّهُ  
صَفِيُّ الْمَلِكِ وَنَجِيَّهُ ؛ وَكَاتِبُ سِرِّهِ وَوَلِيُّهُ ؛ وَالْقَرِيبُ مِنْهُ إِذَا بَعُدُوا ، وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَقَامِ  
إِذَا طُرِدُوا ؛ وَالْمَوْجَّهُ إِلَيْهِ الْخِطَابُ إِذَا حَضَرُوا ، وَالْمُسْتَأْثَرُ بِالْوُرُودِ إِذَا صَدَرُوا ؛  
وَالْمَتَكَلِّمُ بِلِسَانِ الْمَلِكِ إِذَا سَكَتُوا ، وَالنَّاطِقُ بِفَضْلِ الْخِطَابِ إِذَا بَهَتُوا ؛ وَالصَّائِلُ  
بِحَسَامِ لِسَانِهِ وَخَطَى قَائِمِهِ ، وَالْحَامِي الْمَمَالِكِ بِمُجْبُوشِ سُطُورِهِ وَجُنْدِ كَلِمِهِ ؛ وَالْمُسْتَتِ  
شَمَلِ الْعَدُوِّ بِبَدِيعِ الْفَاطِمَةِ وَدَقِيقِ حِكْمِهِ ؛ وَالْحَائِزُ قَصَبِ السَّبْقِ بِكَرَمِ فَضْلِهِ وَفَضْلِ  
كَرَمِهِ ، وَالْمُرَوِّى ظَمًا الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ بِوَاكِفِ وَبَلِّهِ وَفَائِضِ دِيَمِيهِ ، وَالْمُجَلِّي غِيَابِهِ  
الظُّلْمِ بِنِيرِ بَدْرِهِ وَمُضِيءِ أَنْجُمِهِ :

فَمَا زَالَ بَدْرًا فِي سَمَاءِ سَيَادَةٍ \* يُشَارُ إِلَيْهِ فِي الْوَرَى بِالْأَنَامِلِ :

بَسِيطَ مَسَاعِي الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً \* مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَدَلِ الْفَوَاضِلِ ؛

إِذَا سَالَ أَعْيُنُ السَّامِعِينَ جَوَابَهُ \* وَإِنْ قَالَ لَمْ يَسْتُرْكَ مَقَالًا لِقَائِلِ !

قلتُ : حَسْبُكَ ! . قَدْ دَلَّنِي عَلَيْهِ عَرْفُهُ ، وَأُرْشَدَنِي إِلَيْهِ وَصْفُهُ ؛ وَبَانَ لِي مَحْنِدُهُ  
الْفَائِحُ وَحَسْبُهُ الصِّمِيمُ ، وَعَرَفْتُ أَصْلَهُ الزَّاكِي وَفُرْعَهُ الْكَرِيمُ ، (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ  
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

ثم عَرَجْتُ إِلَى حِمَاهُ ، وَمَلْتُ إِلَى حَيْهٍ كَيْ أَرَاهُ ؛ فَإِذَا بِهِ قَدْ بَرَزَ لَتَلَالًا أَنْوَارُهُ ،  
وَتَشْرِيقًا بِالْحَلَالَةِ أَفْقَارُهُ ؛ قَدْ عَاتَمَتْهُ الْهَيْبَةُ وَعَشِيَّتْهُ السَّكِينَةُ وَحَفَّتْهُ الرِّيَاءَةُ وَجَالَّتْهُ  
السَّعَادَةُ ، وَحَكَمَتْ بِعِزِّ مَنَالِ قَدْرِهِ الْأَقْدَارُ كَمَا اقْتَضَتْهُ الْإِرَادَةُ .

فلما رأته استصغرت الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبه ، وعامت أن ما تقدم من المدح لم يوف حقه ولم يقيم بعض واجبه ؛ فغلبت هيئته إقدامي ، وحالت حرمة بني وبين مرامي ؛ فقلت : إنا لله ! قد فانتني مآربي ، ورجعت من قورى إلى صاحبي ؛ فأظهرت له الأسف ، وقصصت عليه القصة قال : لا تخف ؛ إنها لمقبة عمريه ، وأثرة عدويته ؛ فالقاروق جده ، وبنو عدي قيسله وجنده .

هذا وإنه لألطف وأرق من النسيم السارى ، والماء الجارى ؛ وأخفى من العذراء في خدرها ، وأشفق من الوالدة إذا ضمت ولدها إلى صدرها ؛ وأحلم من « معن بن زائدة » ، وإن كان أفصح من « قيس بن ساعدة » :

يُغضِي حَيَاءً وَيُغضِي مِنْ مَهَابَتِهِ • فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَّيَسَّرُ!

بالعزائم الفاروقية فتحت الأمصار ، وبالهيبة العمرية أقر المهاجرون والأنصار ؛ ويشهد لذلك قصة « ابن عباس » في العول وسكوته في خلافة عمر وصنمته ، وجوابه بعد ذلك للقائل له : هلا قلت ذلك في زمن عمر ؟ بقوله : إنه كان مهيباً فهيبته ؛ كيف ؟ وما سلك بجا إلا وسلك الشيطان بجا غير بجه وضاعت عليه الفجاج ، ولم تئاتل هيئته بهيبة غيره وإن عظمت سطوته حتى قال الشعبي : إن ديرة عمر لأهيب من سيف المجاج ؛ وهو مع ذلك يلطف بالأراذل والمساكين ، ويعين الفقراء والمحتاجين ؛ فقد أتضح لك القضيته ، وتحققت أنها سمات إرثيه .

ف عند ذلك ذهب روعي ، وقوى روعي ؛ وقلت : فهل له أتباع من الكتاب فاتعلق بجهالهم ، وأتأسى بهم في أقوالهم وأفعالهم ؛ ؛ لى أنسى بسمه الكتاب ، وأثبت في جملة غلمان الباب ؛ قال : أجل ! رأس الدست الشريف صنوه الكريم ، وقسيمه في حسبه الصميم ؛ به شد عضده ، وقوى كتفه ؛ فأجتمع الفضل له

ولأخيه ، وورثنا سر أبيهما « والولد سر أبيه » ؛ ثم كُتِبَ ديوان الإنشاء جُنْدُهُ  
وأتباعه ، وأولياؤه وأشياؤه ؛ وكُتِبَ الدُّسْتُ منهم أرفع في المقام ، وكُتِبَ الدرَجُ  
أجدرُ بالكتابة وصنعة الكلام .

قلت : القسمُ الثاني أليقُ بمقداري ، وأقربُ إلى أو طاري ؛ ثم ودعتُ صاحبي  
شاكراً له على صنيعه وحامداً له على أدبه ، وتركته ومضيتُ وكان ذلك آخر العهدِ  
به ؛ ثم عدتُ إليه هو فرفعتُ إليه قصتي ، وسألته الإسعافَ بإجابة دعوتي ؛  
فقابلها بالتبول ، وأنعم بالمستول ؛ وقررتُ في كتابة الدرَجِ الشريف ، وأكتفى  
بالعرفِ عن التعريف ؛ وطابق الخبرَ الخبرَ ، واستغنيتُ بالعيانِ عن الأثر ؛ ثم قمتُ  
بحجلاً ، وأنشدتُ مرَّجلاً :

إذا ما بنو الفاروقِ في المجدِ أعرفوا ، \* ونالوا بفضلِ اللهِ مالا كمشيه ،  
وجلتُ دجى الظلماءِ أنوارُ بدرهم ، \* وعمتِ بقاع الأرضِ أنواعُ فضله ،  
تعالَتْ ذرى العلياءِ فيهم وأنشدتُ : \* أبى الفضلُ إلا أن يكونَ لمثله !

ثم تشرفتُ بتقريبِ يده ، ومضيتُ إلى ما أنا بصددِهِ ؛ قد منعتني هيبتي من اللياذِ  
به والقربِ إليه ، وصيرتُ عاطرَ مدحِي وخالِصَ أدعيتي وقفاً عليه ؛ وصرتُ إلى  
الديوانِ ، فوجدتُ قوماً قد حَفَّهمُ الحُسنُ وزانهمُ الإحسانُ ؛ فقلتُ : الحمدُ لله !  
هؤلاءِ فتيَةُ ذلك الكهفِ بلا أمْتِراءِ ، وأشبهُالِ ذاكِ الأسدِ من غيرِ اقْتِراءِ ؛ بغلستُ  
جُلوسَ الغريبِ ، وأطرقتُ إطراقَ الكئيبِ ؛ إذ كنتُ في هذه الصنعةِ عصامياً  
لا عظامياً ، ومُتَمِّهاً لا تَهَامِياً ؛ غيرَ أني تعلقتُ منها بجبالِ القمرِ ، واستوقدتُ نارها  
من أصغرِ الشررِ ؛ فتلقوني بالرحبِ ، وأحلوني من ديوانهمُ بالمكانِ الرَّحْبِ ؛ وقابلوني  
بالجميلِ قبلَ المعرفه ، وعاملوني بالإحسانِ والنصفه .

فلما رأيت ذلك منهم حمّدت مسراى ، وشكرت مسعاى ، ودعوت لصاحبى أولاً  
إذ حبّب صنعتهم إلى وشاقبى ، ودأبى عليهم وساقبى .

ولما تحققت أنى قد أثبت فى ديوانه ، وكُتبت من جملة غلمانه ؛ رجعت  
القَهْقَرى عن طاب الكسب ، وأستوى عندى المحل والخصب ؛ وأكتفيت  
بظارى إله عن الطعام والشراب ، وتيقنت أن نظرة منه إلى ترقبى إلى السحاب ؛  
وتلوت بلسان الصّدق على المدّاهم يسمعون : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ قَبْدِكَ  
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفىما تضمّنته هذه المقامة من فضل الكُتابة وشرف الكُتّاب مَنع من غيرها ،  
ومغرن عن سواها ، والحمد لله والمنّة .



وهذه نسخة مقامة أنساها أبو القاسم الخوارزمى فى لغائه لأديب يعرف بالهيتى ،  
وأقطاعه فى البحث ، وغلبة الخوارزمى له . أوردها ابن حمدون فى "تذكرته" وهى :  
وصية لكلّ لبيب ، متيقظ أريب ، عالم أديب ؛ يكره مواقف السقطات ، ويتحفظ  
من مصادف الغلطات ، ويتلطف من مخزيات الفرطات ؛ أن يدعى دون مقامه ،  
ويقتصر من تمامه ، ويفض من سهامه ؛ ويظهر بعض شِكْمَتِهِ ، ويُساوم بأيسر  
قيمتِهِ ، ويستتر كثيراً من بضاعته ، ويكتم دقيق صناعته ، ولا يبلغ دقيق غاية  
استطاعته ؛ وأن يعاشر الناس بصديق المناصحة ، وجميل المسامحة ؛ وأن لا يجمله  
الإعجاب بما يُحْسِنُهُ ، على الأزدراء بمن يستقرئُهُ ، والأفراء على من يعترضُهُ ويلسنهُ ؛  
ليكون خبره أكثر من خبره ، ونظرته أروع من منظره ؛ ويكون أقرب من الاعتذار ،  
وأبعد من النجالة والأنكسار .

فليس الفتي من قال: إني أنا الفتي، \* ولكنه من قيل: أنت كذلكا.

وكم مدع ملكا بغير شهادة \* له حجة إن قيل: أن لست مالكا!

ولقد نصرت بالأتضاع، على ذى نباهة وأرتفاع؛ وذلك أنى أصدت في بعض الأعوام، مع جماعة من العوام؛ بين تاجر وزائر، إلى العزل والحائر؛ حتى آتينا إلى قرية شارعه، أهله زارعه؛ وما منا إلا من أملتته السمريّة فأعترضته، وأسقمته وأمراضته، وقترته فقبضته؛ وكثر منا الجوار، وأسوتوا علينا الدوار؛ فخرجنا منها خروجه المسجون، وقد تقوسنا تقوس العرجون؛ فاسترحنا بالصعود، من طول القعود:

كأننا الطير من الأفاص \* ناجية من أحيل القناص،

طيبة الأنفيس بالخلاص \* منفضات الريش والنواصي!

فما استتمت الراحة، ولا استقرت بنا الراحة؛ حتى وقف علينا واقف، وهتف بنا هاتف؛ أيكم الخوارزمي؟ فقالوا له: ذلك الغلام المنفرد، والشاب المستند؛ فأقبل إلى، وسلم على؛ وقال: إن الناظر يستريرك، فليعجل إليه مصيرك؛ فقمتم معه، يتقدمنى وأتبعه؛ حتى انتهى بي إلى جلة من الرجال، ذوى بهاء وجلال، وزينة وجمال؛ من أشرف الأمصار، وأعيان ذوى الأخطار؛ من أهل واسط وبغداد، والبصرة والسواد.

ترى كل مرهوب العائمة لائما \* على وجه بدر تحته قلب ضيغم!

فقام إلى ذو المعرفة لإكرامه، وساعده الباقون على قيامه، وأطال في سؤاله وسلامه؛ وجذبوني إلى صدر المجلس فأبيت، ولزمت ذناباه وأحتبيت؛ وأخذوا

يَسْتَحِيرُونِي عَنِ الْحَالِ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَالِ؛ وَدَاعِيَةَ الْإِرْتِحَالِ؛ وَعَنِ النَّيَّةِ وَالْمَقْصِدِ،  
وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالْخَيْرَانِ وَالْبَلَدِ .

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حَفِيَّ مُسَائِلٍ، \* وَوَأَصِفُ أَشْوَاقٍ وَمُتْنٍ بِصَالِحٍ،  
وَمُسْتَشْفِعُ فِي أَنْ أُقِيمَ لَيْالِيَا \* أَرْوِحُ وَأَعُدُّ وَعِنْدَهُ غَيْرُ بَارِحٍ!

ثم قال قائلهم: هل لقيت عين الزمان وقلبه، ومالك الفضل وربّه، وقليب الأدب  
وغرّبه، وإمام العراق، وشمس الآفاق؟ . فقلت: ومن صاحب هذه الصفة المجهولة،  
والكناية المجهولة، فقالوا: أو ما سمعت بكامل هيت، ذى الصوت والصيت؟ :

ذَلِكَ الَّذِي لَوْعَاشَ [دَهْرًا] إِلَى \* زَمَانِهِ ذَا وَأَبْنُ صُوحَانَ،  
وَأَبْنُ دُرَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ \* وَسَيَّبُوِيهِ وَأَبْنُ سَعْدَانَ،  
وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَأَبْنُ الْعَلَا \* وَأَبْنُ كُرَيْزٍ وَأَبْنُ صَفْوَانَ .  
قالوا مجاب كلهم: إنه \* سيدنا، أو قال: غلمانى .

فقلت لهم: قد قلديتم المنه، وهيجتم الحنه؛ إلى لقاء هذا العالم المذكور، والسيد  
المشهور؛ وقد كانت الرياح تأتي بنفحات هذا الطيب، وهدير هذا الخطيب؛  
فالآن لا أثر بعد عين، سأصبح لأجله عن سرى القين؛ آغتنامًا للفائدة، والنعم  
الباردة، ووجدانا للضالة الشاردة .

أَيْنَ أَمْضَى وَمَا الَّذِي أَنَا أَبْنَى \* بَعْدَ إِدْرَاكِ الْمُنَى وَالطَّلَابَا؟  
فَإِذَا مَا وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ الْعِلْمَ قَرِيْبًا فَمَا أُرِيدُ الثَّوَابَا .  
إِذْهَبُوا أَنْتُمْ فُزُّورُوا عَلِيًّا : \* لِأَزُورَ الْهَيْبَتِي وَالْآدَابَا :  
لَنْ أَبَالَى إِنْ قِيلَ الْخَوَارِزُ \* مَيَّ أَخْطَأَ فَعَلَهُ أَوْ أَصَابَا !

فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : بَلْ أَصَبْتَ ، وَوَجَدْتَ مَا طَلَبْتَ ؛ وَقَدِيمًا كَمَا نَشُرُّ أَعْلَاقَكَ ،  
وَنَمَتِّي أَتْفَاقَكَ ؛ وَتَسْدَاوُلُ أَوْصَافِكَ ، وَنُحِبُّ مُضَافَكَ ؛ وَنُكْبِرُ لَدَيْهِ ذِكْرَكَ ، وَنُعْظَمُ  
لَدَيْهِ قَدْرَكَ ؛ فَيَتَحَرَّكَ مِنْكَ سَاكِنُهُ ، وَتَتَقَلُّلُ بِكَ أَمَّا كُنْهُ ؛ وَنَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ  
يَجْمَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِمَحْضَرِنَا ، وَتُلَامِحَ عَيْنِكَ عَيْنَهُ بِمَنْظَرِنَا ؛ وَيَلْتَفَّ غُبَارُكَ بِغُبَارِهِ ،  
وَيَمْتَرِجُ تَيَّارُكَ بِتَيَّارِهِ ، وَيَخْتَلِطُ مِضْمَارُكَ بِمِضْمَارِهِ ؛ فَيُعْرِفُ مِنْكَ السَّابِقُ وَالسَّكِيْتُ ،  
وَالسُّوْدَانِيُّ وَالْكَعْبِيُّ ؛ وَيَتَبَيَّنُ مِنَ الذِّي يَحْوِي الْقَصَبَ ، فَانْجَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

هُمَا رُحْمَانِ خَطِيَّانِ كَانَا \* مِنَ السُّمْرِ الْمُتَقَفَّةِ الصَّعَادِ  
تُهَالُ الْأَرْضُ أَنْ يَطَا عَلَيْهَا \* بِمَثَلِهِمَا نُسَلِّمُ أَوْ نَعَايْ !

فَقَالَ [بَعْضُ الْجَمَاعَةِ] لَقَدْ تَنَكَّبْتُمْ الْإِنصَافَ ، وَأَخْطَأْتُمْ الْأَعْتِرَافَ ؛ وَأَبْعَدْتُمْ  
الْقِيَاسَ ، وَأَوْقَعْتُمْ الْإِتْبَاسَ ؛ أَيْنَ أَيْنُ ثَلَاثِينَ ، إِلَى أَيْنِ ثَمَانِينَ ؟ ؛ وَأَيْنُ اللَّبُونِ ،  
مِنَ الْبَازِلِ الْأَمُونِ ؟ ؛ وَالرُّمْحُ الرَّازِحِ ، مِنَ الْجَوَادِ الْقَارِحِ ؟ ؛ وَالكَوْدُنُ الْمَبْرُوضِ ،  
مِنَ الْمَجْرَبِ الْمَرُوضِ .

وَأَيْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ \* لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيْسِ !

كَمْ لَدَيْهِمْ بَطَاحٌ وَسِبَاحٌ ، وَسَاكِنٌ صَرَائِفٌ وَأَكْوَاخٌ ، بَيْنَ يَدَيْهِ سَوَادِيَّةُ أَنْبَاطٍ ،  
وَعُلُوجُ أَشْرَاطٍ ، وَرِعَاعٌ أَخْلَاطٍ ، وَسِفْلٌ سُقَاطٍ ؛ فِي بِلْدَةٍ إِنْ رَأَيْتُ سُورَهَا ،  
وَعَبَرْتُ جُسُورَهَا ، صَحْتُ : وَأَغْرَبْتَاهُ ، وَإِنْ رَأَيْتُ وَجْهًا غَرِيبًا نَادَيْتُ : وَأَبْتَاهُ ؛  
لَا أَعْرِفُ غَيْرَ النَّبِطِيَّةِ كَلَامًا ، وَلَا أَلْقَى سِوَى الْوَالِدِيِّ إِمَامًا ؛ فِي مَعْشَرٍ مَا عَرَفُوا  
الترَّحَالَ ، وَلَا رَكِبُوا السُّرُوجَ وَالرَّحَالَ ، وَلَا فَارَقُوا الْإِحْدَارَ وَالطَّلَالَ .

أُولَئِكَ مَعْشَرٌ كَبَنَاتِ نَعِيشٍ \* خَوَالِفٌ لَا تَعُورُ مَعَ التُّجُومِ !

[فأثنى له] بمصاولة رَجُلٍ جَوَّالٍ، رَحَّالٍ حَلَّالٍ؛ بهيتَ وُضِعَ، وبالكُوفَةِ أُرِضِعَ؛  
 وببَغْدَادَ أَثَغَّرَ، وبواسطِ أَحْقَرَ؛ وبالحجازِ وتِهَامَةَ فَطَّمَهُ، وبمِصْرَ والمَغْرِبِ كانَ أَحْتِلامُهُ؛  
 وببَجْدِ والشَّامِ بَقَلَ عَارِضُهُ، وباليَمَنِ وعمانَ قَوَيْتَ نَوَاهِضَهُ؛ وبجُرَّاسَانَ بَلَغَ أَشُدَّهُ،  
 وببُخَارَاً وَسَمَرْقَنْدَ تَنَاهَى جِدَّهُ؛ وبغَزْنَةَ والهِندِ شَابَ وَأَكْتَهَلَ، ومن سَيَحُونَ وَجِيحُونَ  
 عَلَّ وَتَهَلَ؛ وبمِيسَانَ والبَصْرَةَ عَوَّدَ وَقَرِحَ، وبالجبالِ جَلَهَ وَجَلَحَ؛ فهو يَعْتَدُ  
 «المَازِنِي» إمامه، وَأَبْنُ «جِنِّي» تِلْلامُهُ؛ و«المُتَنَبِّي» من رُؤايِهِ، و«المَعْرِي» حَامِلُ  
 دَوَائِهِ؛ و«الصَّايِي» بَارِي قَلَمِهِ، و«الصَّاحِب» رَافِعَ عِلْمِهِ؛ و«أَبْنُ مُقَلَّة» من نَاقِلِ  
 غَاشِيَتِهِ، و«بَنِي أَبِي حَفْصَةَ» بَعْضُ حَاشِيَتِهِ؛ وَقَدْ قَرَأَ الكُتُبَ وتَلَّاهَا، وَحَفِظَ العُلُومَ  
 ورواها، وَدَرَسَ الآدَابَ ووعاها؛ وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وأَلْفَها، وَأَنشَأَ الحِكْمَ وَصَنَّفَها؛  
 وَفَصَّلَ المُشْكَلاتِ وَشَرَحَها، وَأَرْتَجَلَ الخُطْبَ وَتَفَحَّها؛ فهو البَحْرُ المَورُودُ، والإمامُ  
 المَقْصُودُ، والعَلَمُ المَضْمُودُ، هذا بَوْنٌ ومَرْتَقِي شَدِيدٌ .

أَتَلَقُونَ بِالْأَعْرَافِ الرَّايِحَاءِ \* وبالأَكْشَفِ الحَاسِرِ الدَّارِعا،

وبالكَوَدِنِ السَّايِقِ السَّايِحَاءِ \* وبالمِنْجِلِ الصَّارِمِ القَاطِعِ؟

فما أستم كلامه حتى أقبل : فاذا نحنُ به قد طلع مُهَرِّولاً، وأقبلَ مُسْتَعْجِلاً؛  
 فرأيتُ رجلاً أَجَلِحاً، أَهَمَّ أَفْلَحاً، أَفْطَحَ أَرْدَحاً؛ طَوِيلاً عَنطَنَطاً، يُمِجِي ذُبْناً أَمْعَطاً،  
 أَجْمَعُ أَحْبَطاً؛ فَنَلَقَوهُ مُعْظَمِينَ، وله مُفَخِّمِينَ؛ فَفَصَدَ في المَجْلِسِ صَدْرَهُ، وَأَسْنَدَ  
 إلى المِخْدَةِ ظَهْرَهُ؛ فمَاسْتَقَرَّ به المِكانَ، حتى قِيلَ له : هذا فُلانٌ؛ فَقبَضَ من أنْفِهِ،  
 ونَظَرَ إلى بَشِطِرٍ من طَرَفِهِ؛ وقالَ بَعْضُ فِيهِ، هَلُمُّوا ما كُنتم فِيهِ؛ تَعَسَّا لِلسَّوْهاةِ  
 وَجَالِيهِما، والقَرعَاءِ وَحَالِيهِما :

جاء زيدٌ مُجَرِّراً رَسَنَهُ \* فحل لا يَمْنَعُه سَنَهُ (?)

أَحَبَّهُ قَوْمُهُ على شَوِيهِ \* إن القَرْنِي في عَيْنِ أُمَّها حَسَنَهُ !



كان لنا شيخٌ بالأنبار، كثيرُ الأخبار؛ قد بلغ من العمر أملاه، ومن السنِّ أعلاه؛ قرأتُ عليه جميعَ الكتاب، وعلمَ الأنساب، و"مسائلَ ابنِ السراج"، و"ديوانَ ابنِ العجاج"، و"كتابَ الإصلاح"، و"مشروحَ الإيضاح"، و"شعرَ الطرماح"، و"العينَ" للفهرودي، و"الجمهرة" للأزدي؛ وأكثر من المصنفات، المجهولات والمعروفات؛ ينفعُ في شقاشيقه، ويزيدُ في بقايقه، ويتعاطمُ في مخارقه؛ وجعل القومُ يقسمونَ بيننا الألفاظ، ويحسبونُ الألفاظ؛ وما منهم إلا من آغناظ لسكوتي وكلامه، وتأخرى وإقدامه .

ثم هذى الشيخُ إذ وُصف له رجلٌ على الغيبِ ثم رآه، فاحتقره وأزدراه؛ وأنشد مُتمثلاً :

لعمراًبيك تسمعُ بالمُعدي \* بعيدَ الدارِ خيرٌ أن تراه

فقال : هذا المُعديُّ هو صمرة، بنُ صمرة، بن جابر، بن قطن، بن نهشل، بن دارم، بن مالك، بن حنظلة، بن مالك، بن زيدمناة، بن تميم، بن مرة، بن أدد، ابن طابخة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان . والمُعديُّ تصغيرُ معدى، وهو الذى قالت فيه نأديته :

أنى الكريمِ النهشلي المصطفى \* أكرم من خامر أو تخندفا!

فقلتُ : ما بعد هذا المقال، وجهٌ للأحتمال؛ وما يجبُ لى بعد هذه المواخه، غيرُ المكافه؛ ولم يبق لى بعد المغالبه، من مراقبه :

ماعلتي وأنا جلد نابل<sup>(١)</sup> \* والقوس فيه وتر عنبيل

\* تزل عن صفحته المعابل ! \*

(١) كذا في اللسان في مادة - علل - وفي مادة عنبيل "خب خاتل" .

ماعلتى وأنا [رجل] جلد \* والقوس فيه وتر عرود  
 \* مثل ذراع البكر أو أشد \*

فَعَطَفْتُ عَلَيْهِ عَطْفَ الشَّائِرِ العَاسِفِ ، وَالتَّفْتُ إِلَيْهِ التَّفَاتَ الطَّائِرِ الخَاطِفِ ؛  
 فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَخَاهَيْتِ ، قَدْ قُلْتَ مَا شِيتِ ، فَاجِبِ الآنَ إِذَا دُعِيتِ ؛ وَأَلْزَمَ مَكَانَكَ ،  
 وَغَضَّ عِنَانَكَ ، وَقَصَّرَ لِسَانَكَ ؛ إِنَّ نَادِيَةَ صَمْرَةَ خَنَدَفَتْهُ ، لَمَّا وَصَفَتْهُ ؛ وَمَا سَمِعْتُ  
 فِي نِسْبَتِكَ إِياهُ نِخْدِفَ ذِكْرًا ، فَأَيُّنَ عَن ذَلِكَ عُدْرًا ؛ فَقَالَ : إِنَّ خِنْدِفَ هِيَ امْرَأَةٌ  
 أَلْيَاسُ بْنُ مُضَرَ ، غَلَبَتْ عَلَى بَنِيهَا فَنُسِبُوا إِلَيْهَا ، كَطَهِيَّةٍ وَمُزَيْنَةٍ ، وَبَلَعْدَوِيَّةٍ وَعُرَيْبَةٍ ،  
 وَالسَّلَكَةِ وَجُهَيْنَةَ ، وَنُدْبَةَ وَأَذِينَهَ ؛ وَكَشِيبِ بْنِ البَرِّصَاءِ وَابْنِ الدَّعْمَاءِ . فَقُلْتُ لَهُ :  
 سُئِلْتُ ، فَأَجَبْتَ وَأَصَبْتَ ؛ فَأَخْبِرْنِي عَن خِنْدِفَ هَلْ هُوَ اسْمٌ مَوْضُوعٌ ، أَوْ لَقَبٌ  
 مَصْنُوعٌ ؟ ؛ فَوَقَفَ عِنْدَ ذَلِكَ حِمَارُهُ ، وَتَحَدَّثَ نَارُهُ ؛ وَرَكَدَ جَرِيانُهُ ، وَسَكَنَ هَدْيَانُهُ ،  
 وَفَتَرَ غَلْبَانُهُ ، وَظَهَرَ حِرَانُهُ ؛ وَذَلَّ وَأَنْقَمَعَ ، وَأَنْطَوَى وَأَجْتَمَعَ ؛ فَاضْطَرَّه الحَيَاءُ ، وَأَجْلَاهُ  
 الكُسْتِجْدَاءُ ؛ إِلَى أَنْ قَالَ وَهُوَ يُخْفِي لَفْظَهُ ، وَيُطْرِقُ لِحَظَهُ : أَظُنُّهُ لَقَبًا . فَقُلْتُ : هُوَ  
 كَمَا ظَنَنْتَ فَمَا مَعْنَاهُ وَمَا سَبَبُهُ ؟ وَكَيْفَ كَانَ مُوجِبُهُ ؟ فَلَمْ يَجِدْ بُدْأً مِنْ أَنْ يَقُولَ :  
 لَا أَدْرِي ، فَقَالَ وَقَدْ أَذَقْتُهُ مَرَّةً الإِمَانَةَ ، وَأَحْسَسَ مِنَ القَوْمِ بِنِظَاهِرِ الشَّمَانَةِ :

وَوَدَّ يَجِدُ عِ الأَنْفِ لَوْ أَنَّ صَحْبَهُ \* تَنَادَوْا وَقَالُوا فِي المَنَاخِ لَهُ : نَمَّ !

ثُمَّ أَقْبَلُوا إِلَيَّ ، وَعَكَّفُوا عَلَيَّ ؛ بِأَوْجِهِ مُتَهَلِّلَهُ ، وَالسِّنَّةَ مُتَوَسِّلَهُ ؛ فِي شَرْحِ الحَالِ ،  
 وَالقِيَامِ بِجِوَابِ السُّؤَالِ ؛ فَقُلْتُ : هَذَا بَدِيعٌ عَجِيبٌ ، أَنَا أَسْأَلُ وَأَنَا أُجِيبُ ؛ إِنَّ أَلْيَاسَ  
 ابْنَ مُضَرَ تَرَوِّجُ لَيْلَى بِنْتَ تَعْلَبَةَ <sup>(١)</sup> ، بِنَ حُلْوَانَ ، بِنَ الحَلِيفِ ، بِنَ قُضَاعَةَ ، بِنَ مَعَدَةَ ،  
 (فِي بَعْضِ النِّسَبِ) ، فَوُلِدَ لَهُ مِنْهَا : عَمْرُو وَعَامِرٌ وَعُمَيْرٌ . فَفَقَدَتْهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَالْحَى

(١) صوابه بنت حلوان بن عمران .

على ليلي باللوم، فقال: أنحرجي في أثرهم، وأتيني بجبرهم؛ فمعدت في طلبهم، وعادت بهم؛ فقالت: ما زلت أحندي في آتباعهم، حتى ظفرت بلقائهم؛ فقال لها ألياس: أنتِ حنيد . والحنيدة في الاتباع، تقارب الخطو في إسراع؛ وقال عمرو: يا أبتى أنا أدركت الصيد فلويته، فقال له: أنتِ مدركة إذ حويته . وقال عامر: أنا طبخته وشويته . فقال له: أنتِ طابخة إذ شويته . فقال عمير: أنا أنقمت في الحباء، فقال له: أنتِ قمة للاختباء؛ فلصقت بها وبهم هذه الألقاب، وجرت بها لايهم الأنساب .

فقال حينئذ: هذا علم أستفدته، وفضل أستردته؛ وقد قال الحكيم: مذاكرة ذوي الألباب، نساء في الآداب . فقلت له ممتثلاً:

أقول له والريح ياطر منته \* تأمل خفافاً: إنني أنا ذلكا!

ثم لم يحتسب إلا قليلاً، ولم يمسك طويلاً؛ حتى عاد إلى هديره، وأخذ في تهديره؛ طمعاً بأن يأخذ بالثار، ويعود الفيض له في القمار؛ فعدل عن العلوم النسبية، وجال في ميدان العريية؛ ولم يحس أن باعه فيها أقصر، وطرفه دون حقايقها أحسر؛ فقال: حضرت يوماً حلبة من حلبات العلوم، وموسماً من مواسم المنثور والمنظوم؛ وقد غص بكل خطيب مصقع، وحكم مقنع، وعالم مصدع؛ وملئ من كل عتيق صهال، وفتيق صسوال، ومنطيق جوال؛ فأخذوا في فنون المعارضات، وصنوف المناقضات؛ وسلكوا في معاني القريض، كل طويل عريض؛ حتى أخذ السائل منهم بالمحقق، بيت [الفرزدق] <sup>(١)</sup>:

وعص زمان يا ابن مروان لم يدع \* من المال إلا مسحاً أو مجلف!

(١) الزيادة من اللسان مادة - من ح ت - و - ج ل ف - .

فَكَثُرَ فِيهِ الْجِدَالُ ، وَطَالَ الْمَقَالُ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَجَادَ الْقِيَاسَ ، وَأَصَابَ  
الْقِرْطَاسَ ، وَوَقَعَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَأَتَى بِالْتَّحْقِيقِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ فِي عَمْرِيَّتِهِمْ سَاهُونَ ،  
وَفِي صَلَاتِهِمْ يَعْهُونَ ، فَنَادَيْتُهُمْ : إِلَى فَسَارِعُوا ، وَمَنِّي فَاسْتَمَعُوا ، فَإِنِّي أَنَا ابْنُ بَيْدَتِيهَا ،  
وَعَالِمُ مَا نَحْتُمُ جِلْدَتِيهَا ، ثُمَّ لَمِنِّي أَبَدَيْتُ لَهُمْ سِرَّارَهُ ، وَأَبْقَيْتُ نَارَهُ ، وَحَلَلْتُ عُقَدَهُ ،  
وَمَحَضْتُ زُبْدَهُ ، وَأَطْرَقْتُ لَبْدَهُ ، وَبَجَسْتُ حَجْرَهُ ، وَأَبْتَنْتُمْ عُجْرَهُ وَبُجْرَهُ ، فَقَالُوا : اللَّهُ  
أَبُوكَ ! فَإِنَّكَ أَسْبَقْنَا إِلَى غَايِهِ ، وَأَكْشَفْنَا لَغَايَاهُ ، وَأَجَلْنَا لَشُبْهِهِ ، وَأَضَوْأْنَا فِي بَدْهِهِ ،  
وَمَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِهَا مَنْ يَقُومُ بِعِلْمِ مَا فِيهِ ، وَيَطَّلِعُ عَلَى خَافِيهِ .

فَادْرَكْنِي الْإِمْتِعَاضَ ، وَأَخَذْنِي الْإِتِّفَاضَ ، فَانْشُدْتَهُ :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ عُقُولَ النَّاسِ نَاقِصَةٌ \* وَعَقْلُهُ زَائِدٌ أَرَزَى بِهِ الطَّمَعُ !

وَقُلْتُ لَهُ : أَدَعَيْتَ ، فَوْقَ مَا وَعَيْتَ ، فَأَخْبَرْتَنِي مِنْ أَوَّلِ هَذَا الْبَيْتِ ، يَا مُجْرِي  
الْكَيْتِ ، وَكَيْفَ نُنْشِدُهُ : وَعَضَّ بِالْفَتْحِ أَوْ وَعَضَّ بِالضَّمِّ ؟ فَقَالَ : كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ ،  
فَقُلْتُ : نَبْتَدِيُّ بِالْفِعْلِ ثُمَّ نَعُودُ إِلَى الْأَسْمِ يَازَا الْإِعْجَابَ ، تَهْيَأُ لِلسَّائِلِ فِي الْجَوَابِ ،  
وَأَخْبَرْتَنِي لَمْ فَتَحَتْ آخِرَ الْمَاضِي ؟ فَاسْرِعْ مِنْ غَيْرِ التَّغَاضِي ، وَقَالَ : لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ ،  
لَا يُضَافُ سِوَاهُ إِلَيْهِ . فَقُلْتُ : هَذَا جَوَابٌ نَعْلَمُهُ ، وَمِنْ صِبْيَانِ الْمَكْتَبِ لَا نَعْدِمُهُ ،  
وَإِنَّمَا أَلْتَمِسُ مِنْكَ الْفَائِدَةَ فِيهَا ، وَأَطْلُبُ كَشْفَ خَافِيهَا . فَقَالَ : مَا جَاءَ عَنْ أُمَّةِ  
النَّحَاهِ ، وَسَائِرِ الرُّوَاهِ ، فِي هَذَا غَيْرُ مَا شَرَحْتَهُ ، وَلَا زَادَ عَلَيَّ مَا أَوْصَحْتَهُ . فَقُلْتُ : دَعِ  
عَنكَ هَذَا وَأَخْبَرْتَنِي عَنْ هَذَا الْبِنَاءِ ، أَلِغَلَّةِ أَمْ لَغَيْرِهَا ؟ فَأَقْبَلَ يَتَرَدَّدُ وَيَتَرَحَّرَجُ ، وَيَتَنَابَّبُ  
تَارَةً وَيَتَنَحَّجُ . فَلَمَّا سُدَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَحَصَلَ فِي مَضِيقِهِ ، وَعُصَّ بِرِيقِهِ ،  
قَالَ : لَا أَعْلَمُ ! . فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : أَعْدَرَ إِلَيْكَ مِنَ الْبَيْتِ سِلَاحَهُ ، وَعُصَّ جِمَاحَهُ ،  
وَمِنْ أَدْبَرٍ بَعْدَ إِقْبَالِهِ ، عُدِلَ عَنْ قِتَالِهِ :

والحقُّ أبلجٌ لا يُحَدُّ سَيْلُهُ \* والحقُّ يعرفُه ذُوو الألبابِ !

والآن فقد فازتِ قِداحُك ، وبانتِ غُررُك وأوضاحُك ؛ وأجدتِ النضال ،  
وأدركتِ الحِصَال ؛ فأوضح لنا عما سألت ، وأرشدنا إلى ما دللت ؛ لئلا يقال : هذا  
بهت ، ومحالٌ بحت ؛ فقلتُ حُبًّا وكرامه ، إسمع أنت يا طغامه ؛ إنَّ الفعل من  
فاعله ، كالولد من ناجله ؛ لا يخلو الفعل من علامة الفاعل ، في لفظ كلِّ قائل ؛  
وهي الفتحة من ماضيه وواقعه ، والزوائد في مستقبله ومضارعه . وبيان ذلك :  
أن الفتحة لا تكون مع الناء والنون ... فتثبت الفتحة ، ثم تقول : أخرجتُ  
وأخرجنا ، فنسقط ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعنى محال ، لا يوجبهما الحال . فان كانت  
النون التي مع الألف ضمير المفعول عادت الفتحة ، فنقول : أخرجنا الأمير ، فهذا  
بين . فصفقت الجماعة وسمحت ، وحسنت وبجحت ؛ وجعل الأديب يضطرب  
أضطراب العصفور ، ويتقلب تقاب الصقور ؛ متيقنا أن أسده صار جردا ،  
وبآزیه عاد صردا ؛ ودوره اقلبت محشوبا (؟) ، وزيتونه تحول عريبا ، وقناه تغير  
قصبا ؛ وأن مستقيمه تعوج ، وجسده تهرج ، وصحيحه تدرج ، وحديده تخرج ؛  
فقال مُنشدُّهم :

ترى الرجلَ النجيفَ قَدَّرِيه \* وتحت شيايه أسدٌ مزيرُ  
ويُعجبك الطيرُ فتبتايه \* فيخاف ظنك الرجلُ الطيرُ .  
فما عظمُ الرجالِ لهم بفخير \* ولكن نخرهم ككرمٍ وخيرُ !

فأخذه الأبلاس ، وضاقَت به الأنفاس ، وسكنت منه الحواس ، ورفضه  
الناس ؛ وجعل ينكت الأرض ، ويواصل بكفه العَض ؛ ويتشاءم بيومه ،

ويعودُ على نفسه بلومه ؛ يمسحُ جبينه ، ويكثرُ أَيْنه . فقامتُ معي الجماعة  
وتركته ، وأستهانت به وفرَّكته ؛ فلما بقي وحده ، تمنى لحده ؛ وأسبل دمعته ،  
وودَّ أن الأرض بلعته :

وكان كمثل البومَيْنِ رُومٍ \* تلوذ بحقويه السراة الأكارِ ،  
فأصبح مثل الأجرِبِ الخلدِ مُفردًا \* طريدًا فما تدنو إليه الأباعرُ !

فقام فتبني ، ووقف وودعني ؛ وأطال الاعتذار ، وأظهر التوبة والاستغفار ؛  
وقال : مثلك من ستر الخلال ، وأقال العثرة والزلل ؛ فقد أغترت من سنك بالحدائمه ،  
ومن أخلاقك بالدمائه . فقلت : كل ذلك مفهوم معلوم ، وأنت فيه معذور  
لاملوم ؛ وما جرى بيننا فهو منسي غير مذكور ، ومطوي غير منشور ، ومخفي  
غير مشهور :

[جدال] أهل العلم ليس بقادح \* ما بين غالمهم إلى المغلوب !

ثم سكت فما أعاد ، ونزلت وعاد ؛ وكان ذلك أول عهد به وآخره ، وباطن  
لقاء وظاهره ، وكل اجتماع وسائره .

## الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة العاشرة

( في الرسائل )

وهي جمع رسالة ، والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب : من حكاية حال من عدو  
أو صديق ، أو مدح وتقرير ، أو مفاخرة بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجري هذا  
الجرى . وسميت رسائل من حيث إن الأديب المنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره

مُخْبِرًا فِيهَا بِصُورَةِ الْحَالِ، مُفْتَتِحَةً بِمَا تُفْتَتِحُ بِهِ الْمَكَاتِبَاتُ، ثُمَّ تُوسَّعُ فِيهَا فَافْتَتَحَتْ بِالْخَطِّبِ وَغَيْرِهَا .

ثم الرسائل على أصناف :

### الصنف الأول

( منها الرسائل الملوكة ، وهي على ضربين )

#### الضرب الأول

( رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلها )

وهذه نسخة رسالة أنشأها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله ، بفتح [ الملك الظاهر ] لقيسارية من بلاد الروم ، وأقتلاعها من أيدي التتار ، وأستيلائه على ملكها ، وجلوسه على تخت بني سلجوق ، ثم العود منها إلى تملكة الديار المصرية . كتب بها إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وزير السلطان الملك الظاهر ، ومعرفة ما كان في تلك الغزوة ، وما أشتمت عليه حال تلك السفرة ، وهي :

يَقْبَلُ الْأَرْضَ بِسَاحَاتِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ السَّيِّدِيَّةِ ، الصَّاحِبِيَّةِ الْبِهَائِيَّةِ ؛ لِأَزَالَتْ رُكَّابُ السَّيْرِ تَحْتُ إِلَى أَرْجَائِهَا السَّيْرِ ، وَصُرُوفُ الزَّمَنِ تُسَالِمُ خُدَامَهَا وَيُحِلُّ الْغَيْرَ بِالْغَيْرِ ، وَلَا بَرِحَتْ مَوْطِنَ الْبِرِّ وَمَعْدِنَ الْجُودِ وَبَحْرَ الْكَرَمِ وَعُكَاظَ الْخَيْرِ ؛ وَيُنْهَى بَعْدَ رَفْعِ أَدْعِيَتِهِ الَّتِي لَا تَزَالُ مِنَ الْإِجَابَةِ مَحْوُطَةً ، وَلَا تَبْرَحُ يَدَاهَا مَبْسُوطَةً ؛ أَنَّ الْعَيْدَ مِنْ شَانِهِمْ لِأَنْحَافِ مَوَالِيهِمْ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي سَفَرَاتِهِمْ مِنْ عَجَائِبِ ، وَإِطْلَاعِهِمْ عَلَى مَا يَرَوْنَهُ فِي غَزَوَاتِهِمْ مِنْ غَرَائِبِ ؛ لِيَقْضُوا بِذَلِكَ حُقُوقَ الْأَسْتِرْقَاقِ ، وَتَكُونَ نِعْمَ سَادَاتِهِمْ قَدْ أَحْسَنَتْ لِأَفْوَاهِهِمُ الْأَسْتِنْطَاقِ ؛ وَيَتَعَرَّضُوا لِمَا عَسَاهُ يَعْزُ مِنْ مَرَاحِمِهِمْ أَنْتِي مَا عِنْدَهُمْ غَيْرُهَا يَنْفَعُ وَمَا عِنْدَهَا بَاقٍ .

ولمَّا كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد، وأن في ماثره الرسائل التي قد شاعت، وضاعت نفعاتها في الوجود وتم رسالة غيرها في غيره ضاعت - رأى أن يخف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلح يختار منها من يؤلف، ويسند إليها من يورخ أو يصنف، وإنما قصد أن يخف بها أبواب مولانا مع بسط القول واتساع كلماته، لأن الله قد شرف المملوك بعبودية مولانا: والله أعلم حيث يجعل رسالته؛ فإن كان المملوك قد طوّل في المطارحة، فمولانا يتطوّل في المسامحة؛ وإن قال أحد: هذا هذئ، فما زال شرح الوقائع مطوّلاً كذا؛ وتالله ما ورخ مثلها في التواريخ الأول، ولعمري إن خيراً من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطل؛ والأمر أعلى في قراءتها واستماعها، والتأمل في حجلها حتى تُسفر حسن نقابها وترفع مسدول قناعها، ... ..

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزّات الشريفة السلطانية، وأنها استصحبت ذلك، حتى تصفحت المهالك؛ وسرنا لا يستقر بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنايك الخيل نار، ولا تمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والإبكار؛ ولا نقيم إلا بمقدار ما يترد الزائر من الأهبه، أو يتروّد الطائر من الثغبه؛ نسبق وقد الرياح من حيث نتجى، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسجبه أذبال الصوافن تمتجى؛ تحمّل همن الخيل العتاق، ويكبو البرق خلقنا إذا حاول بنا اللعاق، وكل يقول لسلطاننا نصره الله:

أين أزمعت أيهدا الهمام؟ \* نحن نبت الربا وأنت الغمام!



ومرّ لا يفعل السيف أفعاله ، ولا يسير في مهمه إلا عمه ولا جبل إلا طاله ؛  
 تساريره السوارى والغواذى ، ولا ينفك الغيث من أنسكاب في كل نادٍ ووادى :  
 فباشروجهما طالما باشرا القنا ، وبلى ثيابا طالما بلها الدم !

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأذراع لامات حرهم ،  
 وحمل آلات طعنهم وضربهم :

فحاز له حتى على الشمس حكه ، وبان له حتى على البدر ميسم .  
 يمد يديه في المقاضة صيغم \* وعينه من تحت التريكة أرقم !

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذى القعدة جرائد على الأمر المعهود ،  
 قد خففوا كل شيء حتى البنود والعمود ؛ فسيرنا في جبال نشتهى فيها سلوك الأرض ،  
 وأودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركض ؛ تزور ديارا ما تحب  
 مغناها ، ولا تعرف أقصاها من أذناها ، وأستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي :

رمى الدرب بالخيل العتاق إلى العدا <sup>(١)</sup> \* وما علموا أن السهام خيول ،  
 شوائل تشوال العقارب بالقنا \* لها مراح من تحته وصهيل .  
 [ وما هي إلا خطيرة عرّضت له \* بحزان أبتها قنا ونصول  
 همّ إذا ما هم أمضى همومه \* بأرعن وطء الموت فيه ثقيل  
 وخيل برّاه الرّكض في كل بلدة \* إذا عرّست فيها فليس ثقيل ]  
 فلما تجلّى من دلوک وصنجة \* علت كل طود رايه ورعيل

(١) الذي في ديوان المتنبي : بالجرد الجياد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبي .

عَلَى طَسْرُقٍ فِيهَا عَلَى الطَّرِيقِ رِفْعَةً \* وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْإِنْسِ نَحْوُلُ!

وَمَرَرْنَا عَلَى مَدِينَةِ دَلُوكَ وَهِيَ رُسُومٌ سَكَّانَهَا ، ضَاحِكَةٌ عَنِ تَبَسُّمِ أَزْهَارِهَا  
 وَقَهْقَهَةِ غُدْرَانِهَا ؛ ذَاتُ بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَأَرْكَانٍ مَوَّطَدَةٍ ، وَنِيرَانٍ تَرَاوِقٍ مُوقَدَةٍ ،  
 فِي عَمَدٍ مِنْ كَنَائِسِهَا مُتَدَدَةٍ ؛ وَسِرْنَا مِنْهَا إِلَى مَرْجِ الدِّيَابِجِ تَتَعَادَى ، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ  
 ذَاتِ أُنْدِيَةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ جُمَادَى ؛ ظُلُمَاتُهَا مُدْلِمَةٌ ، وَطُرُقَاتُهَا قَدْ أَصْبَحَ أَمْرُهَا  
 عَلَيْنَا عَمَّةً ، لَا يَثْبُتُ تَرْبُهَا تَحْتَ قَدَمِ الْمَازِ ، وَكَأَنَّهَا سَالِكُهَا يَمِشِي عَلَى شَفَا جُرْفِ  
 هَارٍ ؛ فَبِنَا هُنَالِكَ لَيْسَلَةً تَسْتَحْقِرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى شِدَّتِهَا لَيْلَةَ الْمَلْسُوعِ ، وَتَمْنَى الْعَيْنُ بِهَا  
 هَجْمَةَ هُجُوعٍ ؛ وَأَخَذْنَا فِي آخِرَاتِ غَابَاتِ أَشْجَارٍ تُخْفِي الرِّفِيقَ عَنِ رَفِيقِهِ ، وَتَسْغَلُهُ عَنِ  
 أَقْفَاءِ طَرِيقِهِ ؛ يَبِيرِي مِنْهَا كُلُّ غُضْبٍ يُرْسِلُهُ الْمُتَقَدِّمُ إِلَى وَجْهِ رَفِيقِهِ ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ  
 بِقُوَّةٍ مِنْ مَنَجْنِيقِهِ ؛ حَوْلَهَا مَعَائِرُ أَحْجَارٍ كَأَنَّهَا قُبُورٌ بُعِثَتْ ، أَوْ جِبَالٌ تَفْطَرَتْ ؛ بَيْنَهَا  
 مَخَائِضٌ ، لَا بَلَّ مَغَائِضٌ ، كَأَنَّهَا مَحَارٌ بَحْرَتْ ؛ مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إِلَّا إِلَى جِبَالٍ قَدْ تَمَنَّقَتْ  
 بِالْجَدَاوِلِ وَتَعَمَّمَتْ بِالثَّلُوجِ ، وَعَمِيَّتْ مَسَالِكُهَا فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ قَائِلٌ : فَهَلْ إِلَى  
 خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أَوْ إِلَى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ ؛ تَضَيِّقُ مَنَاهِجُهَا بِمَشْيِ الْوَاحِدِ ، وَتَلْتَفُّ  
 شَجَرَاتُهَا الْتِفَافَ الْأَكَامِ عَلَى السَّاعِدِ ؛ ذَاتُ أَوْعَارٍ زَلْفَةٍ ، وَصُدُورٍ شَرْقَةٍ ، وَأُودِيَةٍ  
 بِالْمُرْدَجِيمِ مُحْتَنِقَةٍ ؛ بِنَا يَقُولُ مُسْتَحِيحًا : قَدْ نَلْتُ السَّمَاءَ بِسُلَيْمٍ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِقِ ،  
 إِذَا هُوَ مُتَضَائِلٌ قَدْ هَبَطَ فِي مَازِقٍ مُتَضَائِقٍ ؛ لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْجِبَالُ تَأْخُذُنَا وَتَرْمِينَا ،  
 وَتَلِكُ الْمَسَارِبُ تَضُمُّنَا وَتَلِكُ الْمَسَارِبُ تُظْمِنُنَا :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مَنَا بِيضَ أَوْجِهِنَا ، \* وَ [لَا] تُسَوِّدُ بِيضَ الْعُدْرِ وَاللَّيْمِ ،  
 (١)

[وَكَانَ حَالَهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً \* لَوْ أَحْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكْمِ ]

وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُ مِنْ سَفَرِي ، \* مَا سَارَ فِي الْغَيْمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ !

حتى وصلنا الحدت الحمراء المسماة الآن بكينوك ومعناها المحرقة ، كان الملك قسطنطين والد صاحب سبس قد أخذها من أصحاب الروم وأحرقها ، وتملكها وعمرها ، بقصد الضرر لبلاد الإسلام والتجار . فلما كان في سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة سير مولانا السلطان إليها عسكر حلب فأفتحها بالسيف وقتل من كان بها من الرجال وسبى الحرير والذرية ، ونحرت من ذلك الحين ، وما بقي بها من يكاد يبين ، فشاهدنا ما بنى سيف الدولة بن حمدان منها والقنا تفرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم ، وقيل حقيقة هناك : على قدر أهل العزم تأتي العزائم ؛ وهي التي عنها أبو الطيب بقوله :

غَصَبَ الدَّهْرَ وَالْمُلُوكَ عَلَيْهَا \* فَبَنَاهَا فِي وَجَنَةِ الدَّهْرِ خَالَا

فَهِيَ تَمِشِي مَشَى الْعُرُوسِ آخِيَالَا \* وَتَنَى عَلَى الزَّمَانِ دَلَالَا !

فبتنا بها وأبتنينا وخيلنا مبنوثة فوق الأحسب كما نثرت الدراهم فوق العروس ، وجيادنا على الركوب في أعلى العين تدوس ؛ إذا زلقت مشت كالأرقام على البطون ، وإن تكاسلت جر بعضها بعضا بالصهيل : « والحديث شجون » ؛ وخضنا في أثناء ذلك مخاض سواغ ، كأنها لأجل عوم الخيل بها سمي كل منها لأجل ذلك ساج ؛ كما قلنا : هذا بحر قد قطعناه آعترض لنا جبل ، وكما قلنا : هذا جبل طلعناه بأن لنا وإد يستهان دون الهوى فيه تفاد الأجل ؛ لم نزل كذلك حتى وصلنا كوكصوا (؟) وهو النهر الأزرق ، وهو الذي رد الملك الكامل منه سنة الدربندات لما قصد التوجه إلى الروم . وهذا النهر بين الجبال مهوى رجامها ، ومتوى عمامها ، ومأوى زمامها ، ومأوى قتامها ؛ فللوقت عبرناه ركضا ، وأعجلت الخيل فما درت هل خاضت بلجة أم قطعت

أَرْضًا؛ وَبَاتَ النَّاسُ مِنْ بَرِّ هَذَا النَّهْرِ الْآخِرِ وَأَصْبَحُوا مُتَسَلِّينَ فِي تِلْكَ الشَّمْسِ، وَوَقَعَ  
السَّنَائِكُ يُسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ الصُّمِّ؛ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَبْغَادَرِ بَنْدٍ فَمَا ثَبَّتَ يَدُ فَرَسٍ  
لِمَصَاحِفَةٍ صَفَّاهَا، وَلَا نَعَلَهُ لِمَكَاخِفَةٍ رَحَاهَا، وَلَا رِجْلَهُ لِمَطَارِحَةٍ قُوَاهَا؛ وَتَمَزَّتْ  
الْحَيْلُ عَلَى الْأَقْفِحَامِ وَالْأَزْدِحَامِ فِي التَّطْرِقِ، وَتَعَوَّدَتْ مَا تَعَوَّدَتْهُ الْأَوْعَالُ مِنَ التَّسْرِبِ  
وَالْتَسَلُّقِ؛ فَصَارَتْ تَحْطُّ أَنْحِطَاطَ الْمَيْدَبِ، وَتَرْتَفِعُ آرْتِفَاعَ الْكَوْكَبِ؛ وَتَسْرِى  
سَرِيَانِ الْخِيَالِ، وَتُمْكِنُ حَوَافِرُهَا الْحِيَادَ فَتَرْوُلُ مِنْهَا الْجِبَالَ؛ حَتَّى حَصَلَ الْخُرُوجُ مِنْ  
مُنْتَهَى أَبْغَادَرِ بَنْدٍ وَهُوَ خِنَاقٌ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي كَمَّ أَمْسَكَ عَلَى طَارِقٍ، وَقَمَّ ذَلِكَ  
الدَّرْبِ الَّذِي كَمَّ عَصَّتْ أَنْيَابُهُ عَلَى مُسَاوِقٍ وَمُسَابِقٍ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ تَامِينَ  
ذِي الْقَعْدَةِ، وَبَاتَ السُّلْطَانُ وَالنَّاسُ فِي وَطْأَةٍ هُنَاكَ، وَسَمَّحَتْ السُّحْبُ بِمَا شَاءَتْ  
مِنْ بَرْدٍ وَبَرْدٍ، وَجَاءَتْ الرِّيَّاحُ بِمَا آلَمَتِ الْجِلْدَ وَأَسْتَنْفَدَتِ الْجِلْدَ؛ وَأَنْتَشَرَتِ الْعَسَاكِرُ  
فِي وَطْأَةٍ هُنَاكَ حَتَّى مَلَأَتِ الْمَفَاوِزَ، وَمَلَكَتِ الطُّرُقَ عَلَى الْمَارِّ وَأَخَذَتْهَا عَلَى الْجَائِزِ؛  
وَقَدَّمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ شَيْخُ الدِّينِ سُنْقَرًا الْأَشْقَرُ فِي الْجَالِيشِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْعَسَاكِرِ،  
فَوَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ فَارِسٍ مِنَ التَّنَارِ مُقَدِّمُهُمْ كِرَايَ، فَأَنْهَزُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ  
مِنْهُمْ مَنْ قَدَّمَ لِلسَّيْفِ السُّلْطَانِي فَأَكَلَ نَهْمَتَهُ وَأَسَارَ، وَأَسْتَمَزَّتْ تِلْكَ سُنَّةً فَيَمَنْ  
يُؤْخَذُ مِنَ التَّنَارِ وَيُؤَسَّرُ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ تَاسِعِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَبَاتَ التَّنَارُ عَلَى أَجْمَلٍ تَرْتِيبٍ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَجْمَلٍ مَنَظَرٍ، وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَيْمٍ  
تَيَقُّظٍ وَأَعْظِيمِ حَذَرٍ؛ وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُدُومَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جُيُوشِ الْإِسْلَامِ، وَلَا أَنَّهُ  
حَضَرَ بِنَفْسِهِ النَّفِيسَةَ لِيَقُومَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ  
عَاشِرُ ذِي الْقَعْدَةِ تَتَابَعَ الْخَبَرُ بِمَدِّ الْخَبَرِ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قَرَّبُوا، وَأَنَّهُمْ تَابُوا وَوَسَّوْا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي جَلْبِ \* أَنْ يُبْصِرُوهُ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ عَمَّوْا !

وشرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالتثبت عند المصدمة ، والاجتماع عند المصادمة ، ورتب جيش الإسلام اللب ، على ما يجب ، وأراهم من نور رأيه ما لا على بصير ولا بصيرة يحتجب ، فطلعت العساكر مشرفة على صخرات هوني من بلد أبلستين ، وكان العدو ليلته تلك باثنا على نهر زمان ، وهو أصل نهر جهان ، وهو نهر جيحان المذكور في الحديث النبوي ، وإنما الأرمن لا تنطق بالهاء .

فلما أقبل الناس من علو الجبل شاهدوا المغل قد ترتبوا أحد عشر طلبا كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلبا واحدا بفرده . ولما شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من الممالك الظاهرية ، وعلمهم انخود الصفر المقترحة ، وكأنها في شعاع الشمس نيران مقتدحه ، رجعوا إلى ما كانوا عتدوا من العزائم فخلوا ، وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وعلى الموت يترأسون ، فانصببت الخيل إليهم من أعلى الجبل أنصباب السيل ، وبطلت الحيلة منهم ونفى الخيل ، فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ، وهؤلاء المغل كان طاغية التبار آغا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحدا لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيما الشجاعة وعرضهم لهذا السوم ، وكان فيهم من المقدمين الجكار تدلون ، ومعنى هذا الاسم النفاذ ، يعني أنه ما كان في عسكر قط إلا نفذه ، والمقدم الآخر سوا (؟) وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المغل بها ، وأرختوا أخو تدلون ، وبهادر بخشى . ومن مقدمي الألو ف دزك ، وصهر آغا ، وقرالق وخواصه :

بيض العوارض طعانون من لحقوا \* من الفوارس شلالون للنعيم !  
قد بلغوا بقناهم فوق طاقتيه \* وليس يبلغ ما فيهم من الهمم .

في الجاهلية إلا أن أنفُسهم \* من طيبين به في الأشهر الحرم!  
 فعند ما شاهدوا تجدد الملائكة، وتحققوا أن نفوسهم هالكة، أخذت فرقة منهم  
 إلى الأرض فقاتلت، وعاجت المنايا على نفوسهم وعاجلت، وباعت نفوس المسلمين  
 لهم وتاجرت، وكسرت وما كاسرت، وجاء الموت للعدو من كل مكان، وأصبح  
 ما هناك منهم وقد هان، ولوقت خذلوا وجدلوا، ولبطون السباع وحواصل  
 الطيور حصلوا، وصاروا مع عدم ذكر الله بأفواههم وقلوبهم، يقاتلون قياماً وقعوداً  
 وعلى جنوبهم، فكم من شجاع ألصق ظهره إلى ظهر صاحبه وحامى، وناضل ورأى،  
 وكم فيهم من شتم، ما سلم قوسه حتى لم يبق في كائنه سهم، وذى سن طارح به فما  
 طرحه حتى تشلم، وذى سيف حادته بالصقال فما جلى محادثة حتى تكلم، وأبانوا  
 عن نفوس في الحرب أبية، وقلوب كافرة ونخوة عربية، وأشدت فرقة من العدو  
 من جهة الميسرة معرجين على السناجق الشريفة من خلفها، متقلبين بصفوفهم  
 على صفها:

فلزهم الطراد إلى قتال \* أخذ سلاحهم فيه الفرار!

فتاب مولانا إليهم، ووثب عليهم، فضحى كل منهم بكل أشمط، وأفرى الأجساد  
 فأفرط، ولحق مولانا السلطان منهم من قصد التحصين بالجبال فأخذهم الأخذة  
 الرابية، وقتلهم فهل ترى لهم من بآقيه؟ :

وما الفرار إلى الأجدال من أسيد \* تمشى النعام به في معقل الوعل؟

وأنهزمت جماعة يسيرة طمع فيها من العوام من كان لا يدفع عن نفسه، وأخذتهم  
 المهاوى فما نجا منهم إلا آيس من حياة غده في أمسه .

مضوا متسابقى الأعضاء فيه \* لا رؤسهم بأرجلهم عثار

إذا فأتوا الرماح تناولتهم \* بأرماح من العطش القفار!

وقصدت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذوو بأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى  
صجر الحديد من الحديد ؛ وكان مولانا صاحب زين الدين - حرس الله جلالة -  
لما دعت نزال أول مسابق ، وأسرع راشق ؛ وأقرب مطاعن ، وأعظم معاون ؛  
فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته ، وأجمل في كرتيه ، وأجاد في طعنته ؛ وزار  
زبير الليث ، وسابق حتى لم يبق حيث ؛ ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله ،  
وخضب بما تحدر من دم عدوه أحناف سرجه وعنان لحامه ، وكانت عليه من الله  
باقية واقية في تقدمه وإقدامه ؛ وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو ساكي  
السلاح ، وقد أخذ نصيبه ونصيب فرسه من سالم الجراح ؛ وأراد الله أن لا يخلية من  
إسالة دم يعظم الله الأجر بسائله ، فجعله - والمنة لله - من بعض أطراف أيامه .

ولقد ذكر الأمير عز الدين أيذمر الدوادار الظاهري ، قال : لقيتني وقد تكسر  
رُحِي ، وعاد - لولا لطف الله - إلى الحسارة رنجي ؛ فأعطاني المولى صاحب  
زين الدين رُحِيه فإذا فيه نُصُول ، وبسنه من قرايع الدارعين فلول ؛ ورأيت دُبُوس  
المولى صاحب زين الدين وقد تسلّم ، وكان الخوف عليه في ذلك اليوم شديدا  
ولكن الله سلّم ؛ ولقد بلغ مولانا السلطان خبره فسأله فما أجابه بغير أن قال :  
سيف مولانا السلطان هو الذي سفك ، وعزّمه هو الذي فتك .

ومن يك محفوظا من الله فلتكن \* سلامته ممن يحاذر هكذا ،

ويخرج من بين الصفوف مسامًا \* ولا من يديه ولا ناله أذى !!

وأما العدو فنقاسمت الأيدي ما يتطونه من الصواهل والصوافن ، وما يصولون به  
من سيوف وقسي وكائن ، وما يلبسونه من خود ودروع وجراشين ، وما يتولونه

من جميع أصناف المعادين ؛ فغنم ما هنالك ، وتسلم من استشهد من المسلمين رضواناً  
وتسلم من قتل من الكفار مالك .

وكان الذين استشهدوا في هذه الوقعة من المتقدمين : شرف الدين قيران العلابي ،  
وعز الدين أخو الأمير جمال الدين المحمدي . ومن الممالك السلطانية : شرف الدين  
فلحق (٩) الجاشنكير الظاهري ، وأبيك الشقبي الذي كان وزير الشقيف . وكان  
المجروحون عدّة لطيفة لم يعلم عددها لقاتها ، بل لحقتها ؛ وأورث الله المسلمين منازلهم  
فتزلوها ، ووطقاتهم ونحر كواتهم فتمولوها ؛ وكان مولانا السلطان وكان أعداؤه كما قيل :

فمساهم وبسطهم حريراً ، \* وصبحهم وبسطهم تراباً !!

وأصبح الأعداء لا ترى إلا أشلاؤهم ، ولا تبصر إلا أعيائهم ؛ كما جرز  
أجسادهم جزائر يتخللها من الدماء السيل ، وكأما رؤوسهم المجموعة لدى الدهليز  
المنصور أكرت لعب بها صوالحة من الأيدي والأرجل من الخيل :

ألفت إلينا دماء المغيل طاعتها \* فلودعونا بلا حرب أجاب دم!

فكم شاهد مولانا السلطان منهم مهيب الهامة ، حسن الوسامة ، تفرس في جهامة  
وجهه الفخامة ، قد فض الرمح فاه فقرع السن على الحقيقة ندامه :

ووجوها أخافها منك وجه \* تركت حسنها له والجمالا!

أو كما قيل :

لأرحم الله أروسا لهم<sup>(١)</sup> \* أطرن عن هامهن أخافا!

وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون ، ولأخبار شجاعتهم  
يتواصفون ؛ فكم من قائل : هذا فلان وهذا فلان ، وهذا كان وهذا كان ؛ وهذا

(١) في ديوان المنبي "لايرحم" .



كان يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَهْزِمُ الْأُلُوفَ ، وَهَذَا يُقَرَّرُ فِي ذَهَبِهِ أَنَّهُ لَا تَقْفُ بَيْنَ يَدَيْهِ  
الْصُّفُوفَ ، وَكَثُرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الْمُغَلِّ فَاخْتَارَ السُّلْطَانُ مِنْ كِبَرَائِهِمُ الْبَعْضَ ، وَعَلَى  
فِيهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ( مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْغِنَ فِي الْأَرْضِ ) .  
بِجَعْلِهِمْ لِلسُّيُوفِ طُعْمَهُ ، وَأَحْضَرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الرُّومِ فَتَرَقَّبَ مَوْلَا السُّلْطَانِ  
فِيهِمُ الْإِلَّ وَالذَّمَّه :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ ، \* وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يُحْفَظُ الْيَدَا !

وكان في جملة الأسارى الروميين مهذب الدين بكلازىكى ، يعنى أمير الأمراء  
ولد البرواناه ، ونور الدين جاجا أكبر الأمراء ، وجماعة كثيرة من أمراء الروم  
ومقدمي عساكره ، فكان البرواناه أحق بقول أبي الطيب :

نَجَوْتُ بِأَحَدِي مُقْلَتِكَ جَرِيحَةً \* وَخَلَفْتَ إِحْدَى مُهَجَّتِكَ تَسِيلُ !

أَتَسَلِمُ لِلخَطِيئَةِ أَبْنِكَ هَارِبًا \* وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ ؟

لأنه شمر الذليل ، وأمتطى - هرباً - أشهب الصبح وأحمر الشفق وأصفى الأصيل  
وأذهم الليل ، وثم يُخَيَّرُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا تَمَّ ، وَهَمَّ قَلْبُهُ رَفِيقَهُ حِينَ هَمَّ :

فَتَحَنُّنٌ فِي جَدَلٍ ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ ، \* وَالْبُرُّ فِي سُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي تَجَلٍ !

وَدَخَلَ الْبِرْوَانَاهُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ ،  
فَأَفْهَمَ غِيَاثَ الدِّينِ سُلْطَانَهَا ، وَالصَّاحِبَ نَحْرَ الدِّينِ بْنِ تَمَلَا (؟) وَالْأَتَايِكَ بِمَجْدِ الدِّينِ ،  
وَالْأَمِيرَ جَلَالَ الدِّينِ الْمُسْتَوْفِي ، وَالْأَمِيرَ بَدْرَ الدِّينِ مِيكَائِيلَ النَّائِبِ ، وَالْأَمِيرَ فُلَانَ  
الدِّينِ الطُّغْرَايِي ، وَهُوَ وَلَدُ عِزِّ الدِّينِ أُنْجَى الْبِرْوَانَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمُنَاشِيرِ -  
أَنَّ الْمَسَامِينَ كَسَرُوا بَعْضَ الْمُغَلِّ وَبَقِيَّتُهُمْ مُنْهَزِمُونَ ، وَيُخْشَى مِنْهُمْ دُخُولُ قَيْصَرِيَّةَ  
وَإِتْلَافُ مَا يَكُونُ بِهَا فِي طَرَائِفِهِمْ حَقَّقًا عَلَى الْإِسْلَامِ . فَأَخَذَهُمْ جَرَّادٌ ، وَأَخَذَ

زَوْجَتَهُ كُرْحَى خَاتُون بَنَتْ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنَ الرُّومِ ، فَاسْتَصْحَبَتْ مَعَهَا  
أَرْبَعًا جَارِيَةً لَهَا ، وَكَانَ لَهَا مَالًا كَانَ لِصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ البَخَائِيِّ وَالْحَيَامِ وَالْآلَاتِ ،  
وَتَوَجَّهُوا كُلُّهُمْ إِلَى جَرِهِ تَوَقَّاتٍ (؟) وَهُوَ مَكَانٌ حَصِينٌ مَسِيرَةٌ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ مِنْ  
قَيْصَرِيَّةَ . وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةَ حَمَلَهُمْ عَلَى سُرْعَةِ الْحَرْبِ ، وَأَنْذَرَهُمْ عَذَابًا قَدْ  
اقْتَرَبَ ؛ وَهَوَّلَ عَلَى بَقِيَّةِ أَمْرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَأَخْفَى الْبِرْوَانَاهُ أَمْرَهُ  
وَأَمَرَ مِنْ مَعَهُ حَتَّى وَلَا يُخْبِرُ يُخْبِرُ عَنْهُمْ .

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ جَرَدَ الْأَمِيرَ تَمَسَّ الدِّينِ سُنُقْرًا الْأَشْقَرِيَّ فِي عَدَدِ مُسْتَظْهِرًا  
بِهِ لِإِدْرَاكِ مَنْ فَاتَ مِنَ الْمُغْلِ ، فَمَرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ بِفِرْقَةٍ مَعَهَا بِيُوتِهِمْ فَأَخَذَ مِنْهَا جَانِبًا ؛  
وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَمَرَّ كُلُّ فِي سِرِّيهِ ذَاهِلًا ذَاهِبًا . وَرَحَلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فِي بُكْرَةِ  
السَّبْتِ حَادِي عَشْرَ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ ، فَتَزَلَ قَرِيبَ الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ  
بِرِيَّانَ ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ قَرِيبُ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ حَقِيقَةً ، لَا مَا يُقَالُ : إِنَّهُ قَرِيبُ حُسْبَانَ  
مِنْ بِلَادِ الْبَلْقَاءِ ، وَقَرِيبًا مِنْهُ صَلْدٌ مِنَ الصَّفَا عَلَيْهِ كِتَابُهُ بِالرُّومِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْخَطِّ  
الْقَدِيمِ . وَأَمَّا الْقَرْيَةُ الْمَذْكُورَةُ الْمَسَاءُ بِرِيَّانَ فَانَّ بِيُوتَهَا بُنِيَتْ حَوْلَ سِنِّ جَبَلٍ قَائِمٍ  
كَالْهَرَمِ إِلَّا أَنَّهُ مَأْمُومٌ ، وَعُمِّرَتْ الْبُيُوتُ فِي سَفْحِهِ حَوْلَهُ بَيْتًا فَوْقَ بَيْتٍ فَبَدَتْ كَأَنَّهَا  
مَجْزَّةُ النُّجُومِ ؛ وَمَا مِنْ بَيْتٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِهِ مَقَاعِدُ ذَوَاتِ دَرَابِزِينَاتٍ مَنْجُورَةٍ ،  
وَرَوَاشِينَ قَدْ بَدَتْ فِي أَكْمَلِ صُورَةٍ ؛ يَخْتُمُهَا مِنْ أَعْلَاهَا أَحْسَنُ بُيُوتَانِ ، وَيَعْلُوهَا مِنْ  
رَأْسِهَا مَنَزَلٌ مُسَنَّمُ الرَّاسِ كَمَا يَعْلُو الصَّعْدَةَ السَّنَانُ ؛ وَتَطُوفُ بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ جِبَالٌ كَأَنَّهَا  
أَسْوَارٌ بِلِ سِوَارٍ ، وَكَأَنَّهَا فِي وَسَطِهَا إِنَاءٌ فِيهِ جَدْوَةٌ نَارٌ ؛ وَيَتَفَرَّغُ مِنْهَا أَنْهَارٌ ، هِيَ  
فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ كَأَنَّهَا بِهِبُوطِهَا كَثِيبٌ قَدْ أَنْهَارَ ؛ ذَوَاتُ قَنَاطِرٍ لَا تَسْعُ غَيْرَ رَاكِبٍ ،  
وَمَضَائِقَ لَا يَأْتِي عِبْرَهَا لَنَا كَبْ ؛ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ الْعَسَاكِرَ خَلَصَتْ مِنْهَا وَلَكِنْ بَعْدَ  
مُقَاسَاةِ الْجُهْدِ ، وَخَرَجَتْ وَقَدْ رَقَّ لَهَا قَلْبٌ كُلٌّ وَهَدَى ؛ وَنَزَلْنَا قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى

تَخَلَّصَ مِنْ تَخَلُّصٍ ، وَحَضَرَ مِنْ كَانَ فِي الْمَضَائِقِ قَدْ تَرَبَّصَ ، وَقَالَ : كُلُّ الْأَرْضِ  
حَصَّصَ .

وَرَحَلْنَا مِنْ هُنَاكَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ شَهْرُ ذِي الْقَعْدَةِ وَكَانَتْ السَّمَاءُ قَدْ حَبَّتِ  
الْأَرْضَ بِتَبَيُّجَانِ أَمْطَارِهَا ، وَأَغْرَقَتِ الْمَوَاطِمَ فِي أَجْحَارِهَا ، وَالْفُتُخَ فِي أَوْكَارِهَا ؛  
وَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ لِاتِّمَاسِكِ حَتَّى لَا لِمُرُورِ الْأَرَاقِمِ ، وَالْجِبَالُ لِاتِّمَاسِكِ أَنْ تَكُونَ  
لِلْعَصَمِ عَوَاصِمَ ؛ تَضَعُ بِهَا مِنَ الدُّوَابِّ كُلِّ [ذَاتِ] حَمَلٍ ، وَتَرْتَلِقُ فِي صَقِيلِهَا أَرْجُلُ  
الْتَّمَلِ ؛ وَسِرْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ نَهَارًا كَلَّهُ إِلَى قَرِيبِ الْغُرُوبِ ، وَقَطَعْنَاهُ بِتَسْلِمِنَا أَيْدِي  
الدُّرُوبِ مِنْ أَيْدِي الدُّوُوبِ ؛ وَنَزَلْنَا عِشَاءً فِي مُنْتَقِعِ أَرْضٍ تَطُوفُ بِهَا جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ،  
وَمِيَاءٌ دَافِقَةٌ ؛ تُعْرَفُ قَاعَةٌ تَلِكِ الْأَرْضِ بِوِطَاءِ قَشَلَا وَسَارِ (؟) مِنْ أَعْمَالِ أَصَارُوسِ  
الْعَتِيقِ . وَيَقْرَبُ مِنْ تَلِكِ الْجِهَةِ مَعْدِنُ الْفِضَّةِ .

وَبِنَا نَحْنُ قَدْ شَرَعْنَا فِي أَهْبَةِ الْمَيْتِ ، وَلَمْ نَقْضِ الشَّمْلَ الشَّتِيتَ ؛ وَإِذَا بِالصَّادِحِ  
قَدْ صَدَحَ ، وَالنَّدِيرِ قَدْ سَمَحَ ؛ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ بِأَنْ فَوْجًا مِنَ التَّسَارِ فِي بَقْوَةٍ هُنَاكَ  
قَدْ آسْتَرُوا ، وَفِي نَجْوَةٍ لَغِيَّةٍ قَدْ آتَنْظَرُوا ؛ فَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَرَكِبَ النَّاسُ  
فِي السَّلَاحِ ، وَعَزَمُوا عَلَى الْمَطَارِ فَعَاقَبَهُمْ تَتَابِعُ الْغَيْثِ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ؟ ؛  
ثُمَّ لَطَفَ اللَّهُ وَعَادَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَهُوَ يَقُولُ لِلنَّاسِ : ، لِابَاسَ ؛ فِيمَنَّا نَوْمَةُ السَّلِيمِ ،  
وَصَدَرَتْ أَفْكَارُنَا شَاغِرَةً فِي كُلِّ وَادِيَتِهِمْ ؛ وَأَصْبَحْنَا فَسَلَكْنَا جِبَالًا لَا يَحِيطُ بِهَا  
الْوَصْفُ ، وَتَبَسَّطَ عَدْرَاءُ الطَّرْفِ فِيهَا حِينَ يَكْبُو فِيهَا الطَّرْفُ ؛ تَنَحَّطُ مِنْهَا إِلَى جَنَادِلِ ،  
يَضَعُفُ عَنِ الْهُوِيِّ إِلَيْهَا قَوِيُّ الْأَجَادِلِ ؛ بِنَا نَقُولُ : قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهَا نَفَادًا وَمِنْهَا  
نَفَاذًا ، وَإِذَا بَعْدَ الْأُودِيَةِ أُوْدِيَةٌ وَبَعْدَ الْجِبَالِ جِبَالٌ نَشْكُرُ عِنْدَ ذَلِكَ هَذِهِ وَذَلِكَ عِنْدَ  
هَذَا ؛ وَمَرَرْنَا عَلَى قَرْيَةٍ أُوتَرَكَ ، وَتَحْتَهَا قَنَاطِرٌ وَخَانٌ مِنْ حَجَرٍ مَنْحُوتٍ ، ثُمَّ خَانَ آخَرَ

للسبيل على رأس رابية هناك تعرف باشيدي ، قريباً من حصن سمندو ، التي  
عرض بها أبو الطيب في قوله :

فإن يقدم فقد زرنا سمندو \* وإن يحجم فوعده الخليج!

وكان مولانا السلطان قد سير إليها خواصه بكتاب إلى نائبها فقبله وقبله ، وأذعن  
لتسليم حصنها المنيح والتزول لأمر السلطان عنها إن استزله ؛ فشكر مولانا السلطان  
له تلك الإجابة ، ووفاه من الشكر حساباً . وكذلك إلى قلعة دوندا وإلى دوالوا ،  
فكلهم أجابوا وأطاعوا ولكلمة الإذعان قالوا ؛ وزرنا في وطاة قريب قرية تعرف  
بمرها ، وكان الناس قد فرغت علوفات خيلهم أو كادت ، والخيول قد باتت ليلى  
بلا عليق فما استفادت ، وشاركتها خيول الكسوب (؟) في عليقها ، وما ساعدتها  
في طروقها ولا في طريقها ؛ فضعتت عن حمل نفوسها فما طنك براكيها ، وكاد  
الفاريط - لولا لطف الله عز وجل - أن يفرط فيها ؛ فصادفنا في هذه الديلة بعض  
أتبان أمسكت أزماقها ، وأحسنت إرفادها وإرفاقها .

وأصبحنا في يوم الثلاثاء رابع عشر ذي القعدة راحلين في جبال كأنها تلك الأول ،  
وهايطين في أودية يمتنى سالكها من شدة مضايقتها أن لو عاد إلى ترقى أعلى  
جبل ؛ وما زرنا كذلك حتى أشرفنا على خان هناك يعرف بقرطاي يدل على شرف  
همة بانيه ، وطلب ثواب الله فيه ؛ وذلك أنه من أكبر الأبنية سعة وارتفاعاً ،  
وأحسنها شكلاً وأوضاعاً ؛ كنه مبنى بالحجر المنحوت المصقول الأحمر الذي كأنه  
رخام ، ومن ظاهر أسواره وأركانها نقوش لا يتمكن أن يرسم مثلها بالأقلام ؛ وله  
خارج بابيه مثل الرض بيابن بأسوار حصينة ، مبلط الأرض ، فيه حوائت .  
وأبواب الخان حديد من أحسن ما يمكن استعماله . ودخله أوابين صفيه ، وأمكنة

شَتَوِيَّةٌ ، وإصْطَبَلَاتٌ عَلَى هذه الصورة لا يُحْسِنُ الإنسانُ أنْ يُعَبِّرَ عنها بِكَيْفٍ ،  
وما منها إلا ما يَجِدُهُ الإنسانُ رِحْلَةً لِلشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ وفيه الحَمَامُ وَالْبِيَارِسَاتُ  
وَالأَدْوِيَّةُ وَالْفَرُشُ وَالْأَوَانِي وَالضِّيَافَةُ لِكُلِّ طَارِقٍ عَلَى قَدْرِهِ ، حَمَلٌ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ  
مِنْ ضِيَافَتِهِ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ ، وَكثُرَ النَّاسُ فَمَا وَصَلَ أَحَدٌ إِلَيْهَا وَلَا إِلَيْهِ ؛ وَعَلَيْهِ أَوْقَافٌ  
عَظِيمَةٌ ، وَضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَهُ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَهُ دَوَاوِينُ وَكُتَّابٌ وَبُيُوتٌ  
يَتَوَلَّوْنَ آسْتِخْرَاجَ أَمْوَالِهِ وَالْإِنْفَاقَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ التَّنَارُ إِلَى الْإِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْ  
رُسُومِهِ ، وَأَبْقَوْهُ عَلَى عَوَانِدِ تَكْرِيمِهِ ، وَأَهْلُ الرُّومِ يَبَالِغُونَ فِي تَجْمِيلِ بَانِيهِ - رَحِمَهُ اللهُ -  
وَتَعْظِيمِهِ ؛ وَنَزَلْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَقْرُبُ مِنْ قَبْصَرِيَّةٍ مِنْ حُقُوقِ وَادِي  
صَلْعُومَةِ شَرْقِي الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِعَسِيبِ ، وَفِيهِ قَبْرُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ الشَّاعِرِ ... ..

أَجَارَتْنَا إِنَّ الْخُطُوبَ تَسُوبُ ، \* وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ ،

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا \* وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ !!

وهذا الجبل يعلوه جبل أرجاس ، وهو الذي يضرب الروم الأمثال بتساميه ،  
وتتضاءل الجبال في جميع الدنيا لتعالیه ؛ لا تُسْحَبُ ذُبُولُ السَّحَابِ إِلَّا دُونَ  
سَفْحِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْ تُلُوجِهِ شِتَاءٌ وَصَيْفًا وَمِنْ مِثَالِ الْأَنْجَرَةِ الْمُتَصَعِّدَةِ مِنْهُ عِشَائُهُ  
مِنْ صُوبِهِ .

ولما كان يوم الأربعاء منتصف ذي القعدة ، وهو يوم شرف الزمرة ركب  
العساكر المنصورة مُتَرْتَبَةً ، وَمَسَلَتْ الْفَضَاءَ مُتَسَرِّبَةً ؛ وَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ  
فِي زُمْرَتِهِ ، وَذَوَى أَمْرِهِ وَإِمْرَتِهِ ؛ يَخْتَالُ جَوَادُهُ فِي أَسْحَاحِ مِيدَانِ ، وَيَصِيحُ بِهِ فَرَحًا  
وَمَرَحًا كَأَنَّهُ نَسْوَانُ دَرَى أَنَّهُ سُلْطَانُ :

تَظَلُّ مَلُوكُ الْأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ \* تُفَارِقُهُ هَلْكَى وَتَلْقَاهُ سُجْدًا !

ونخرج أهل قيصريّة وأكارها، وعلمائها وزهادها وتجارها، ورعاياها ونسائها  
 وصغارها؛ فأكرم مولانا السلطان ممّشاهم، وشكر مسعاهم؛ وتلقى قضاتهم وعلماءهم  
 رُجباناً، وحادثهم إنساناً فأنساناً؛ وحصلت لجماعة من الفقراء والناس حالاتٌ وجِد  
 مطرِبَه، وصدحاتٌ ذكريّ معجِبَه. وكان دهليزُ السلطان غياثِ الدين صاحبِ الروم  
 وخيامه وشعارُ سلطنةِ الروم قد بنى جميع ذلك في وطأة قريب الجوسق والبستانِ  
 المعروف بكبخسرو، وترجل الناس على اختلاف طبقاتهم في الرّكاب الشّريف من  
 ملكٍ وأمةٍ ومأمورٍ وأمير، وأرتفعت الأصوات بالتّهليل والتكبير:

رجا الروم من تُرجى التّوافلُ كلُّها • لَدَيْهِ وَلَا تُرْجَى لَدَيْهِ الطّوائِلُ!

ونزل مولانا السلطان في تلك المَضارِبِ المُعدّة لكرمِ الوفاة، وضربت نوبه  
 سلجوق على باب دهليزه على العاده؛ وأذن مولانا السلطان للناس في التقرب إلى  
 شريف فسطاطه، وشملهم بنظره وأحباطه؛ وحضر أصحاب الملاهي، فما ظفروا  
 بغير النواهي؛ وقيل لهم: أرجعوا وراءكم فالتمسوا، وأذهبوا إلى وادٍ غير هذا  
 الوادى فاقبِسوا؛ فهذه الهناة لا تنفق هنا، وما هذا موضعُ الغناء بل هذا موضعُ  
 الغنى؛ وشرع مولانا السلطان في إنفاقِ اللّهي، وعين لكلّ جهةٍ شخصاً وقال: أنت  
 لها؛ وحكمٌ وحكمٌ، وعلمٌ وعلمٌ؛ وأعتمد على الأمير سيف الدين جاليش في النّيايه،  
 وأعطى كلاً بيمنه كتابه؛ وأقام الحجّة على من أتتَح بالأستعطاف، وتأمين من خاف؛  
 فما خرج كبيرهم عن المخاتله، ولا زعيمهم عن المطاولة؛ فلمّا علم مولانا السلطان  
 أنهم لا يُفْلِحون، ولغير التّأر لا يَصْلِحون؛ وأنهم إن أصبحوا على الطاعة لا يُمَسُون  
 وإن أمسوا لا يَصْبِحون؛ عاد عن تلك الوعود، واختار أن مابداً إليه يعود، وأن  
 يبعث نفسه إلى ما بعثه الله إليه من المقام المحمود؛ فركب يوم الجمعة سابع عشر

ذی القعدة مستقبلاً من الله كل الخير، ونصب جتر بني ساجوق على رأسه فشهد  
الناس منه صاحب القبة والسبع وصاحب القبة والطير؛ ودخل قيصريّة في بكرة  
هذا اليوم وكانت دار السلطنة قد فُرِشتْ لزلوله، وتحتُ بني ساجوق وقد هيَّ  
لحلولة؛ وهي دار ترهوا، ومنازل من يتعبدُ أو منازه من يلهو؛ أنيقة المبتنى، تحف  
بها بساتين عذبة الخنى؛ جذرائها بأحسن أصناف القاشاني مصفحة، وبأجمل  
نقوشه مضرحة؛ بغلس مولانا السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت، ونال  
التخت بحلولة أسعد البخت :

وما كان هذا التخت من حين نصيبه \* لغير المليك الظاهر الندب يصلح .  
ملك على أمم الله ما فتحت له \* صوارمه البيض المواضي وتفتح .  
أنسه وفود الروم والكل قائل : \* رأيناك تغفو عن كثير وتصفح .  
فأوسعهم حِلماً وجاد لهم ندى \* وأمسوا على من آمن وأصبحوا .  
ولو أنهم لم يمتحنوا لمنكب \* عن الحق والنهج القويم لآفلحوا ،  
ولكنهم أعطوا يداً فوقها يد \* تصافح كفا زندها النار قدح !!!

وأقبل الناس على مولانا السلطان يهنؤونه، وعلى كفة الشريف يقبلونه؛ وبعد  
ذلك حضرت القضاة والفقهاء والعلماء والصوفية وذوو المراتب من أصحاب العائم  
على عادة بني ساجوق في كل جمعة، ووقف أمير المحفل وهو كبير المقدماء عندهم، له  
وسامة ونخامة، وله أكبركم وأوسع عمامة؛ وأخذ في ترتيب المحفل على قدر الأقدار،  
وأنصب قائماً بين يدي مولانا السلطان منتظراً ما إليه به يسار؛ وشرع القراء يقرءون  
جميعاً وفرادى بأحسن تلحين، وأجمل تحسين؛ فأتت أصواتهم بكل تحجب، وعدلوا  
عن الترتيل إلى الترتيب . ولما فرغوا شرع أمير المحفل صارخاً، وبكور فيه ناخفاً؛

فأنشد وأورد بالفارسية ما يعجب مدلوله ، ويهول مقوله ؛ وأطال وما أطاب ،  
وأستصوب من يعرف مقاله قوله ، والله أعلم بالصواب .

ولما أفضى ذلك مد سباط ليس يناسب هم الملوك ، فأكل الناس منه  
للشرف لا للشرف ، ثم عاد كل منهم إلى مقامه فوقف ؛ وقام مولانا السلطان إلى  
مكان الاستراحة فأقام ساعة أو ساعتين ، ثم خرج إلى محيمه قير العين ؛ وكان بدار  
الملك حرم السلجوقية قد أصبحوا لا ترى إلا مسكنهم ومسكنهم ، قد نبت بهم  
مواطنهم ومواطنهم ؛ على أبوابهم أسماؤهم من حريز ، ومشايخ خدام يستحق كل  
منهم - لكبير سنه - أن يدعى بالكبير ؛ عليهم ذلة الانكسار ، وأما الأفتقار ؛  
فخبرهم مولانا السلطان وأنتهم ، وأحسن إليهم ؛ وتوجه من توجه إلى صلاة الجمعة  
في قيصريه وبها سبع جمع تقام ، وبها خطباء إن هم إلا كالأتباع ؛ فصلينا في جامع  
السلطان وهو جامع علي يدل على احتفال ملوكها ببيوت عباداتهم ، ورأينا فيه من  
دلائل الخير ما يقضى بحسن إراداتهم ؛ فحضر أهل المدينة وأكابرها ، وجلسوا حلقة  
لا صفوف ، وأجروا من البحث بالعجمية صنوفا ؛ واجتمعت جماعة من حفظة  
الكتاب العزيز فتحارجوا القراءة آية آية ، وهي قراءة بعيدة عن الدراية ؛ بل إنها  
تبرزها أصوات مترنمة ، وألحان لتفريق الكلمات مقسمة ؛ ينطقون بالحروف  
كيف أتفتت ، ولا يتوقفون على مخارج الحروف أنها بها نطقت أو لا نطقت .

فلما آن وقت الأذان قام صبي عليه قباء من وسط جماعة عليهم أقبية فعود على  
دكة المؤذنين ، فابتدأ بالتكبير أولاً وثانياً بمفرده من غير إعانة ولا إبانة . ولما تنهد  
ساعده جميعهم بأصوات محججة ملغلة ، ونغمات متنوعة ؛ يمسكون له النغم بأحسن  
تلحين ، ويترنمون بالأصوات إلى آخر التلحين ؛ وفرغ الأذان وكلهم قعود ما منهم



أحد غير الصبي وقف ، وما منّا أحد لكلمة من الأذان عرف ، ولما فرغ الأذان  
 طاع شيخ كبير السن يعرف بأمر مخفل المنبر، فصعد إلى ذروة المنبر، وشرع في دعاء  
 لا نعرفه ، وأدعاء لا نألفه ، كأنه مخاصم ، أو وكيل شرع أحضره لمشادة خصمه  
 محاكم بين يدي حاكم ، وطلع الخطيب بعد ذلك نخطب ودعا لمولانا السلطان بغير  
 مشاركه ، ودعا الناس بما تلقته من الأفواه الملائكة ، وأتقضت الجمعة على هذه  
 الصورة، المسطورة ، وضربت السكة باسم مولانا السلطان ، وأحضرت الدراهم إليه  
 في هذا اليوم ، فشاهدنا فرأى أوجهها باسمه باليمين ، وأقرب الألسنة بهذه  
 النعمة وقربت العيون ، وشاهدت بقيسارية مدارس وخوانق وربطاً تدل على اهتمام  
 بانها ، ورغبتهم في العلوم الشرعية والدينية ، مشيدة بأحسن الحجار الحمر المصقولة  
 المنقوشة ، وأراضها بأجمل تلك مفروشه ، وأواوينها وصففها مؤزره بالقاشاني  
 الأجل صورة ، وجميعها مفروشه بالبسط الكرجية العالية ، وفيها المياه الحارية ،  
 ولها الشبايك على البساتين الحسنة ، وسوق قيصرية طائف بها من حولها ، وليس  
 داخل المدينة دكان ولا سوق .

والوزير في بلاد الروم جميعها يعرف بالصاحب «نحر الدين خواجا علي» ولا يحسن  
 الكتابة ولا الخط ، وخلعته من ممالكه خاصة مائتا مملوك ، ودخله في كل يوم -  
 غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصه - سبعة آلاف درهم  
 سلطانية . ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه ونحركاواته شيئاً لا يكون لأكثر  
 الملوك ، وله روم معروف ، وهو بالخير موصوف :

والمسمون بالوزير كثير \* والوزير الذي لنا المأمول !

وعلى هذا وذاك علي . وعلى هذا له التفضيل !

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وَغَرْبًا • وَنَدَاهُ مُقَابِلِي لَا يَزُولُ!

وَمَعِيَ أَيُّهَا سَاكْتُ كَأَنِّي • كُلُّ وَجْهِ لَهْ بِوَجْهِهِ كَفِيلُ!

وَأَمَّا مُعِينُ الدِّينِ سُلَيْمَانُ البُرْوَانَاهُ وَزَوْجَتُهُ كُرْحِي خَاتُونُ ، فَظَهَرَ لَهَا مِنَ الوجودِ  
البَّادِي لِلعيونِ كُلِّ نَفِيسٍ ، وَبِحَمْدِ اللهِ آسَتولى مولانا السَّاطَنُ وَمَمَالِكُهُ مِنَ مَوْجُودِهِ  
وَدَارِ زَوْجَتِهِ المذْكَورَةِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانٍ وَصَرَحَ بِلقَيْسِ .

ولما أقام مولانا السَّاطَنُ بِقِصْرِيَّةِ هَذِهِ المَدَّةِ ، فَكَّرَ فِي أمرِ عسَاكِرِهِ وَمصَالِحِهِ  
بِمَا لَا يَعْرِفُهُ سِوَاهُ ، وَنَظَرَ فِي حَالِهِمْ بِمَا أَرَاهُ اللهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الأَقْوَاتَ قَلَّتْ ،  
وَالسُّيُوفَ مِنَ المِصَارِعَةِ مَلَّتْ ، وَالسَّوَاعِدَ مِنَ المِصَادِمَةِ كَلَّتْ ، وَأَنَّهُ مَا بَقِيَ فِي الرُّومِ  
مِنَ الكُفَّارِ مِنَ يُعْزَى ، وَلَا يَجْزَاءِ السُّوءِ يُجْزَى ، وَلَا بَقِيَ فِي البِلَادِ غَيْرِ رعايا كَالسَّوَامِ  
الْهَامِلَةِ ، وَلَا دِيَّةٍ - لِلْكَفْرِ مِنْهُمْ - عَلَى عاقِلٍ وَعاقِلِهِ ، وَأَنَّهُ إِنْ أَقَامَ فَالْبِلَادُ لَا تَتَمَلَّهُ ،  
وَمَوَادُّ بِلَادِهِ لَا تَصِلُهُ ، وَأَعْشَابُ الرُّومِ بِالدُّوسِ قَدْ أَضْحَمَّتْ ، وَعُلُوفَاتُهَا قَدْ قَلَّتْ ،  
وَزُرُوعُهَا لَا تُرْتَجَى لِكِنْفَايَةِ ، وَلَا تُرْضَى خِيُولُ العَسَاكِرِ المَنْصُورَةِ بِمَا تُرْضَى بِهِ خِيُولُ  
الرُّومِ مِنَ الرِّعْيِ وَالرَّعَايَةِ ، وَأَنَّ الحُسَامَ الصَّقِيلَ الَّذِي قُبِلَ النِّتَارُ بِهِ فِي يَدِ القَاتِلِ ،  
وَأَنَّهُمْ إِنْ كَانَ أَعْجَبَهُمْ عَامُهُمْ فَيَعُودُونَ إِلَى الرُّومِ فِي قَابِلِ .

وَرَحَلَ فِي يَوْمِ الأَثْنَيْنِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي القَعْدَةِ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ أَمْرَاءَهُ وَخَوَاصَّهُ  
كُلَّ مَا أُحْضِرَ إِلَيْهِ مِنَ الأَعْنَةِ وَالْأَزْمَةِ ، وَكُلَّ مَا يُطْلَقُ عَلَى تَوَلِيهِ أَسْمُ النِّعْمَةِ ، فَتَزَلُ  
بِمَنْزِلَةِ تَعْرِفَ بَعَثَلُوا وَفِي هَذِهِ المَنْزِلَةِ وَرَدَ إِلَى السَّاطَنِ رَسُولٌ مِنْ جِهَةِ غِيَاثِ الدِّينِ  
سُلْطَانِ الرُّومِ ، وَمِنْ جِهَةِ البُرْوَانَاهُ وَالكُتَبَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ ، يُسَمَّى ظَهِيرِ الدِّينِ التَّرْجَمَانِ ،  
وَفِي الحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ عِنْدِ البُرْوَانَاهُ ، يَسْتَوْقِفُ مولانا السَّاطَنَ عَنِ الحَرَكَةِ وَمَا عَلِمُوا  
إِلَى أَيْنَ ، بَلْ كَانَ الأَمْرُ شَائِعًا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الحَرَكَةَ إِلَى جِهَةِ سِيوَأَسَ . فَعَدَّدَ مولانا  
السَّاطَنُ عَلَيْهِ حُسْنَ وَقَائِهِ بَعَثِهِ ، وَأَنَّهُ أَجَابَ دُعَاءَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنْ أَقْصَى

مُلْكِهِ مَعَ بُعْدِهِ ، وَأَنْهُمْ مَا وَقَفُوا عِنْدَ الشَّرْطِ الْمُقَرَّرِ ، وَلَا وَقَفُوا بِمَضْمُونِ الرَّسَائِلِ الْمُسَيَّرَةِ ، وَأَنْهُمْ لَمَّا جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ طَلَبُوا نَظْرَةً إِلَى مَيْسَرِهِ ، وَأَنْ أَعْتَبْتَهُمْ لِلْكَفْرِ مُسَامَهَ ، وَأَنْهُمْ مِنْذَ اسْتِيلَاءِ النَّارِ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشَامَةِ ، وَعَلِمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ أَنَّ بِلَادَ الرُّومِ مَا بَهَا عَسْكَرٌ يَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِهِ ، وَلَا مَنْ يُقَابِلُ الْمُغْلَ فِي غَدِهِ خَوْفًا مِمَّا شَاهَدَهُ كُلُّ مَنْهُمْ فِي أَمْسِهِ ، وَأَنْهُمْ أَهْلُ التَّيْدَادِ ، لَا أَهْلُ نَفَادِ ، وَأَهْلُ طَرْبِ ، لَا أَهْلُ حَرْبِ [وَعَلَبِ] ، وَأَهْلُ طَيْبَةِ عَيْشِ ، لَا قَوَادِ جَيْشِ ، فَردَّ السُّلْطَانُ إِلَى سُلَيْمَانَ الْبَرْوَانِ مَدَّ يَدَهُ ، وَقَالَ : قُلْ لَهُ : إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ الرُّومَ وَطُرُقَاتِهَا ، وَأَخَذْتُ أُمَّهُ أُسَيْرَةً وَأَبْنَ بَيْتِهِ وَوَلَدَهُ ، وَيَكْفِينَا مَا جَرَى مِنَ النَّصْرِ الْوَجِيهِ ، (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) وَمَا كُلُّ مَنْ قَضَى فَرِيضَةَ الْحَجِّ تَجِبُ عَلَيْهِ الْمُجَاوَرَةَ ، وَلَا بَعْدَ هَذِهِ الْمُنَاصَرَةِ مُنَاصَرَهُ ، وَلَا بَعْدَ هَذِهِ الْمُجَاوَرَةِ مُجَاوَرَهُ ، وَنَحْنُ قَدْ آبَتَغَيْنَا فِيمَا آتَانَا اللَّهُ : مِنْ حَقِّ دِيْمَاءِ أَهْلِ الرُّومِ وَعَدَمِ نَهْبِ أَمْوَالِهِمُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَتَتَرَهْنَا عَنْ أَمْوَالِكُمْ لِلنَّارِ تَسْتَحِبُّونَهَا ، وَمَعَارِمَ كَثِيرَةٍ هِيَ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّاتِ مَعَانِمٌ يَأْخُذُونَهَا حِينَ يَأْخُذُونَهَا ، وَمَا كَانَ جُلُوسُنَا فِي تَحْتِ سُلْطَتِكُمْ لِرِيَادَةِ تَحْتِ آلِ سَلْجُوقِ ، إِلَّا لِنُعَلِّمَكُمُ أَنَّهُ لَا عَاتِقَ لَنَا عَنْ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ يَعُوقُ ، وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْمَنَ لَنَا سَطْوَهُ ، وَلِيَتَحَقَّقَ كُلُّ أَنْ كَلَّ مَسَافَةَ جُمُعَةٍ لَنَا خَطْوَهُ ، وَسُرُوجُنَا - بِحَمْدِ اللَّهِ - أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ التَّخْتِ جَلَالًا ، وَأَرْفَعُ مَنَالًا ، وَكَمْ فِي مَمَالِكِنَا كَرَامِيٌّ مُلْكٌ نَحْنُ آيَةُ ذَلِكَ الْكُرْسِيِّ ، وَكَمْ لَنَا فَتْحٌ كُلُّهُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي الْإِنَافَةِ الْفَتْحِ الْقُدْسِيِّ .

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ \* فَلَيْسَ يَرُوعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُ!

وَأَسْتَصْحَبَ السُّلْطَانُ مَعَهُ تَحْتِ الرِّضَا وَالْعَفْوِ مِنْ أَكْبَارِ الرُّومِيِّينَ - الْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ جَالِيشِ النَّائِبِ بِالرُّومِ ، وَهُوَ رَجُلٌ شَيْخٌ نَبِيَّهُ لَهُ اشْتِغَالٌ بِعِلْمٍ ، وَكَانَ لَهُ

في الروم صورة، وهو أمير دار يعني أمير المظالم . وأستصحب ظهير الدين مروح (؟) مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة وفيه فضل، ونسخ كثيرا من العلوم بخطه، مثل الصحاح في مجلّد واحد، وغير ذلك . وأستصحب الأمير نظام الدين أوحد ابن شرف الدين بن الخطير، وإخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمه ضياء الدين بن الخطير المستشهد رحمه الله .

وأستصحب من الأمراء : الأمير مظفر الدين محاف (؟) والأمير سيف الدين بجيكا الجاشنكير، والأمير نور الدين المنجيني، وأصحاب ماطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم : كمال الدين وإخوته، وأمير علي صاحب كركر .

وأستصحب قاضي القضاة بملطية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي العسكر، ووالده الذي كان يرسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل . وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم ونسائهم وغلمانهم وحفدهم .

والذين حضروا تحت الغضب - ولد البرواناه المذكور، وولد خواجا يونس، وهو ابن بنت البرواناه، ووالدة البرواناه . والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب النعمة والنعم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الأتابك، والأمير سيف الدين سنقر حاه الروناسي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نصر الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجيس، والأمير حسام الدين ركوك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركاني .

ومن المغل : مقدمي الألوف والمات - زيرك وسرطاق، وحنوكه، وسركده

وتماديه (؟) .

ثم رحل السلطان في اليوم الثاني ونزل بمنزلة قريب خان السلطان علاء الدين كيقباد، ويعرف بكرواني صراي . وهذا الخان بنية عظيمة من نسبة خان قرطاي ، وله أوقاف عظيمة . ومن جملة ما وجد قريبا منه أدواد كثيرة من الأغنام عبتت فيها العساكر المنصورة ، سألت عنها فقيل : إنها وقفت على هذا الخان يذبح نتائجها للواردين على هذا الخان ، وهذه الأغنام له من جملة الوقوف ، قدر الله استيفادها جملة لما كثرت على هذا الخان من الجيوش المنصورة الضيوف .

ورحلنا في اليوم الثالث وهو يوم الأربعاء ثاني عشرين من الشهر ، ونزلنا في وطأة عادة التتار ينزلون بها تسمى روران كودلوا ، وكودلوا اسم جبال تلك الوطأة .

ورحلنا في يوم الخميس ثالث عشرين من ذي القعدة ، فعارضنا بها - في وطأة خلف حصن سمندو من طريق غير الطريق التي كنا توجهنا منها - نهر يعرف بنهر قزل صو ، قريب كودلوا الصغير . ومعنى قزل صو النهر الأحمر ، وهذا النهر صعب الخاض ، واسع الاعتراض ، عالي المهبط ، زلق المسقط ، مرتفع المرتقى ، بعيد المستقى ، لا يجد السالك من أحوال حافته إلا صعبا زلقا ، فوقف مولانا السلطان بنفسه ، وجرّد سيفه بيده ، وبأثر العمل بنفسه هو وجميع خواصه ، حتى تهايا المكان جميعه ، ووقف راجلا يعبر الناس أولا فأولا : من كبير وصغير وغلام ، وهو في أثناء ذلك يكرّ على من يزدحم ، ويكرّر التأديب لمن يطلب بأذية رفيقه ويقتحم ، وما زال من رابعة هذا النهار إلى الساعة الثامنة حتى عبرت الناس سالمين . ولما حقت البرور ، ولم يبق إلا المرور ، ركب فرسه وعبر الماء والألسنة له داعيه ، وعليه من الله واقية باقيه ، فنزل في واد هناك به مرعى ولا كالسعدان ، ومرأى ولا كشعب بوان .

ثم رحل في يوم الجمعة فنزل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة فيما مضى، قرية من هدر رجال (؟) قبالة بازار بلو، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم، ويقرب من كودلوا الكبير.

وسرنا في يوم السبت سوقا طول النهار، حتى نزلنا في واطة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان - نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أمم التار، وكيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرهما، وكيف بأسهم من السور مناسرها، وكيف أصبحوا لا يندبهم إلا البوم، وتحققوا أن التي أهلكتهم زرق الأسنة لا زرق الروم؛ فرأهم لمن بقي عبره، وعرضوا على ربهم صفا وجأؤوه كما خلقوا أول مره؛ وأبصر الرياح لأشلائهم متخطفه، والهوام في أجسادهم متصرفه، وشاهدتهم وقد هدأهم كل شيء حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدهم متكرعة وهذه عليهم متقصفة.

قد سودت شجر الحبال شعورهم \* فكان فيه مسفة الغربان!

ولما عاينهم مولانا السلطان وعانينهم الناس، أكثروا شكر الله على هذه النعم التي أمست لكافة الكفر كافة وشالة ودارزه، وأثنوا على مننه التي سنت إليهم خيار العساكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزه؛ وحضرت من أهل الأبلستين هنالك جماعة من أهل التقى والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن عدة قتلى المغل فقالوا: ((فأسأل العادين))؛ فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتيل، فقال: ((قل الله أعلم بعديتهم ما يعلمهم إلا قليل)) وقال بعضهم ممن عدتهم ومن عنده علم من الكتاب:، أنا عددت ستة آلاف وسبعائة وسبعين نفرا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سن الإبل ساقها سوقا سريعا.

الحساب ؛ هذا : غير من آوى إلى جبل يعصمه من ماء السيوف فما عصمه ،  
وغير من اعتقد أن فرسه تسلمه فأسلمه ؛ فتركهم مولانا السلطان ومضى والقلاوئ  
مزرعة لجسومهم ، والدود - لأنها مؤمنة وهم كفار - قد أثرت كلنواسر في لجومهم ؛  
فرسم مولانا السلطان بتقدم الأتقال والحراس والدهليز المنصور صحبة الأمير  
بدر الدين الخزندار ، والدخول في أبقه دربند ، وأقام مولانا السلطان في ساقه العسكر  
المنصور بقیة يوم السبت ويوم الأحد :

فهو يوم الطراد أول سائق \* وهو يوم القبول آخر سائق !

وأنظر في هذين اليومين صيدا من العدو يعين ، وما من دماءهم إلى السيف يخن ؛  
فلما لم يجد أحدا رحل في يوم الاثنين فنزل قريبا من الخان الذي في الدر بند ، وركب  
يوم الاثنين من طريق غير التي حضر منها ، فسلك طريقا من الأوتار يسا ، وسلك  
من قلال الجبال في هضاب كان كلاً منها ألف حملت من الأتجم قبسا ؛ فقامى العالم  
في هذا اليوم من الشدة ما لا يدخل في قياس ، وكادوا يهلكون لولا أن الله عز وجل  
تدارك الناس ؛ فتسابقوا ولكن على مثل حد السيف ، وتسللوا ولكن سل حوافر  
الجبل كيف ؟ ، وهبطوا من جبال يستصعبها كل شيء حتى طارق الطيف ؛  
يستصعب الحجر الملق من شاهق وقوعه في عقابها ، ويستهلون النجم الثاقب رفيع  
شعابها ؛ بالقرب منها جبل شاهق يعرف بسقر وما أدراك ما سقر ، لا يبقى على شيء  
من الدواب ولا يدر له عقبه لراحة للبشر ؛ أعان الله على الهبوط منها ، وفاز بمشيئة  
الله وبسعادة مولانا السلطان من زحزح عنها ؛ وعدينا كوكصوا وهو النهر الأزرق ،  
وبات مولانا السلطان هناك ، وكان قضييم البغال تلك الليلة ورق البلوط ، إلا من  
أمست عناية الله أن يسر في شعير بخمسة عشر درهما كل مد يحوط .

ورحل مولانا السلطان في يوم الأربعاء تاسع عشر من ذي القعدة فنزل قريب  
كسول(?) المقدم ذكراها، وعدل إلى طريق مرعش فزال بحمد الله الداعي، وقالوا  
للشعير: ما فينا لك مخاطب ولا منا فيك بماله مخاطر، وللخيول قد حصل لك  
في مضر الربيع الأول في شعبان وفي الشام في ذي الحجة الربيع الآخر، فأرتعت  
لا يرونها أصحاب الموازين في تلك المساجد، وأستمرت في مروج يتأسف عليها  
أبن المساجد(?)؛ وقدّم مولانا السلطان تلك الأعشاب كما تقسمت في آفاق السماء  
النجوم، وأوقف كل أحد في مقام حتى قال: ((وما منا إلا له مقام معلوم))؛ فكم  
هنالك من مروج أعشبت فأنجبت، وأنجابت السماء عنها فأنجبت، وأربت  
على زهر النجوم فاهترت وربت:

يصد الشمس اني واجهتنا \* فيحجها ويأذن للنسيم!

يخالفها هنالك أترع الحياض، ويأهو بها كل شيء فكم قصف العاصي بها  
في تلك الرياض.

هذا كله: وخير من أرزنجان، حارة برجان، وخير من أراضى توريز، قطعة  
من ايليز، وكوم من كيان سسقط ميدوم، خير من قصر في قيصريّة الروم، ونظرة  
إلى المقياس، خير من سيواس، ومناظر اللوق، خير من كقباد آل سلجوق، وتربة  
من تريب القرافة، خير من مروج العرافة، وشبر من شبرا، خير من سطا ومر(?)  
وجلوس في باب دارك خير \* من جلوس في [باب] إيوان كسري،  
وآتماسي لسنور وجهك خير \* لي من أني أشاهد بدرا!  
ياوليا يولي الأيادي سرا \* ووزيرا فليس يكسب وزرا:  
ما رأينا والله فيمن رأينا \* لك مثلا من البرية طرا.



كَمْ خَبَرْنَا الرَّجَالَ فِي كُلِّ أَرْضٍ \* فَإِذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ قَدْرًا!  
 كَمْ فُلَانٍ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا \* فَإِذَا النَّاسُ دُونَ عَلَيْكَ حَسْرَى.  
 لَكَ مَدْحٌ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ سُبْحًا \* نَ إِلَهِ بِهِ إِلَى النَّاسِ أَسْرَى!  
 مَا رَأَيْنَا مِصْرًا كِمِصْرٍ وَلَا مِثْلَكَ فِينَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا!

## الضرب الثاني

(من الرسائل الملوكية رسائل الصَّيد)

وهذه نسخة رسالة في صيد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد  
 الملك المنصور «قلاوون» من إنشاء القاضي تاج الدين البارباري، وهي:

الحمد لله الذي نعم النفوس الشريفة بإدراك الظفر، وأنعم على هذه الأمة بمحمد  
 الذي أثار كوكب نصره وسفر، وشرع لها على لسان نبيها صلى الله عليه وسلم الغنيمه  
 في السفر، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حقت أيامه بالعزيز  
 والتأييد والظفر.

نحمده على أن أقر العيون بفضله بما أقر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك  
 له شهادة ألانت قلب من نفر، وكرمت أسبابها فلا يتمسك بها إلا أعز فریق ونفر،  
 ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أعز من آمن وأذل من كفر، صلى الله عليه  
 وعلى آله وأصحابه الذين تجاوز الله عن ذنوبهم وغفر، وسلم تسليما.

وبعد، فإن في ابتغاء النصر ملامذا تدركها كل ذات شرفت، وتملكها السجيا  
 التي تعارفت بالفخار وأثلفت، وتناها النفوس التي مالت إلى العز وإلى تلقائه

صُرِفَتْ ، وَمَبَشُوهَا مِنْ حَالَتَيْنِ : إِمَّا فِي مَوْقِفٍ عِزٍّ عِنْدَ مَا تَلْمَعُ بُرُوقُ الصَّفَاحِ ،  
وَتَسِيْبُ مِنْ هَوْلِ الْحَرْبِ رُءُوسَ الرَّمَاكِ ، وَتَسْرَحُ جَوَارِحُ النَّبَالِ لِتَجَلَّ فِي الْجَوَارِحِ  
وَتَصِيْدَ فِي الْأَرْوَاحِ ؛ وَإِمَّا فِي مَوْطِنٍ سَلِمَ عِنْدَ مَا تَنْبَسِطُ النُّفُوسُ إِلَى أَمْتِطَاءِ صَهَوَاتِ  
الْحِيَادِ فِي الْأَمْنِ وَالِدَعَةِ ، وَتَنْشِرُحُ الصُّدُورُ إِلَى مِعَاوَاةِ الصُّبُودِ وَالْمَسْرَاتِ مُجْتَمِعَةً ؛  
وَتُطْلَقُ الْبُرَاةُ فَتَصِيْدُ ، وَتَنْصَرِفُ بِأَمْرِ الْمَلُوكِ الصَّيْدِ ؛ وَتُرْسَلُ الْحَوَامِي الْمُسَكَّةُ ،  
وَتُلْقَى عَلَى مَا سَخَّحَ مِنَ الْوَحْشِ فَلَا تُرَى إِلَّا مُدْرِكَةً ؛ وَتُقَاضُ حِينَئِذٍ النِّعَمُ السُّلْطَانِيَّةُ  
وَتُجَزَلُ مَوَاهِبُهَا ، وَتُلَوِّحُ الْعِصَابَةُ الشَّرِيفَةُ وَتَتَّبَعُ مَوَاقِبُهَا .

وكان الله تعالى قد جمع للمواقف الشريفة ، المعظمة ، السلطانية ، الملكية ،  
النَّاصِرِيَّةِ ، خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهَا - سَعَادَةَ الْحَائِثِينَ حَرْبًا وَسِلْمًا ، وَأَتَاهُ فِيهِمَا النَّصْرَ الْأَرْفَعَ  
وَالْعِزَّ الْأَشْمَى ؛ وَوَسَمَ بِصِدْقَاتِهِ وَعِزَمَاتِهِ الْأَمْرِينَ وَسَمًا ، وَنَصَرَهُ نَعْتًا وَعَظْمَةً  
سُمِعَتْ وَشَرَفَهُ اسْمًا ؛ فَأَيَّامُ حُرُوبِهِ كُلِّهَا رِفْعَةٌ وَأَنْتِصَارُ ، وَأَسْتِيْلَاءٌ وَأَسْتِظْهَارُ ، وَقُوَّةُ  
تَحْيَا بِهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَفْنَى الْكُفَّارُ ؛ وَأَيَّامُ سَلَامِهِ كُلِّهَا عَدْلٌ وَهَبَّةٌ ، وَصِدَقَاتٌ مُنْجِيَّةٌ  
مُنْجِبَةٌ ، وَرَفْعٌ ظُلَامَاتٍ مُتَشَعِبَةٍ ؛ وَقَعَّ نَفُوسٌ مُتَوَشِّبَةً وَحَمَمٌ خُطُوبٍ مُسْتَدَّةً ،  
وَحَفِظَ الْحَوْرَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ مِنْ كُلِّ بَاسٍ وَوَقَّائَتَهَا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ ؛ وَفِي خِلَالِ كُلِّ عَامٍ  
تُصْرَفُ عِزَاتُهُ الشَّرِيفَةُ إِلَى آتِبَعَاءِ صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ : لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ تَمْرِينَ  
النُّفُوسِ عَلَى آكْتِسَابِ التَّنَائِيْدِ ، وَحُصُولِ الْمَسْرَةِ بِكُلِّ ظَفْرِ جَدِيدٍ ؛ فَيَرْسُمُ - خَلَدَ  
اللَّهُ سُلْطَانَهُ - فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرْسُمُ بِهِ مِنْ مَشْتَى كُلِّ عَامٍ بِإِحْرَاجِ الدَّهْلِيْزِ الْمَنْصُورِ  
فِيَنْصَبُ فِي بَرِّ الْحِيْزَةِ بِسَفْحِ الْهَرَمِ ، فِي سَاعَةِ مُبَارَكَةٍ آخِذَةٍ فِي إِقْبَالِ الْجُودِ وَالكَرَمِ ؛  
فَتَمُدُّ بِالتَّنَائِيْدِ أَطْنَابَهُ ، وَتُرْفَعُ عَلَى عُمَدِ النَّصْرِ قِيَابُهُ ، وَيُحَاطُ بِحِرَاسَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ  
رِحَابَهُ ؛ وَتَضْرِبُ خِيَامُ الْأَمْرَاءِ حَوْلَهُ وَطَاقَا ، وَتُخْفُ بِهِ [مِثْلُ] النُّجُومِ بِالْبَدْرِ إِشْرَاقًا ؛  
وَيَسْتَقِلُّ الرِّكَابُ الشَّرِيفُ - شَرَفَهُ اللَّهُ - بَعْدَ ذَلِكَ بِقَصْدِ عُبُورِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ فَيُظْهِرُ

من القلعة المحروسة والسلامة تحجبه من المخافه ، والحراسة تصحبه فيما قرب ونأى  
من المسافه ، ولسان السعد قد خاطبه بالتحية وشافه ، وماليك الأمرء قد حقا به  
أطابا ، وسنى موكبه قد بعث أمامه من الإضاءة تجابا ؛ ولم يزل حتى يأتي النيل  
المبارك ويستوى على الكرسي في الفلك المشحون ، محوطا بالنصر الميمون والجيش  
المأمون ، وقد استبشر باعتلائه البحر والنون ؛ وأضحى لظهر الفلك من الفخار  
[بحضرتة] المكرم ، مالمهوات أجياده العتاق المسومه ؛ فلهدا نشر أعلام بشرها ،  
وقال : ﴿ أركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ﴾ ؛ فسارت به في اليم ، ونصر الله  
قد تم ؛ وصعد من فلكه ، على ما يسر نفوس المؤمنين في كمال سلطانه وعزرة ملكه ؛  
وأسقر على جواد شرفت صهوته ، وقربت بالأناة والسكون خطوته ؛ عربى النجار ،  
يختال في سيره كأنما أنتشى من العقار :

ويختال بك الطرف \* كأن الطرف تسوان .

ترى الطرف درى أوليس يدري أنك سلطان !

وسار في زروع محضرة ، وتغور نبات مفتره ؛ وقد طلعت للظفر شمسه وبدوره ،  
وأعدت للصيد بزائه وصقوره ؛ من كل متوقد اللط من الشمامه ، مجول على  
الراحات من فرط الكرامه ؛ يتوسم فيه النجاح ، قبل خفق الجناح ، ويخرج من  
جو السماء ولا حرج ولا جناح ؛ وبازها الأشهب ، ييجى بالظفر ويذهب بصدر  
مفضض وناظر مذهب ؛ له منسر أفتى ، طالما أغنى ، كأنما هو شبا السنان وقد  
جابه الحكمة طعنا :

وصارم في يدك منصبت \* إن كان للسيف في الوعى روح ،

متقيد اللط من شمامته \* فالجو من ناظره مجروح !

قد رآش النَّجْحُ جَنَاحَهُ ، وَقَرَنَ اللهُ بِالْيَمِينِ غُدُوهُ وَرَوَّاحَهُ ، وَنَصَرَهُ فِي حَرْبِهِ حَيْثُ  
 جَعَلَ مِنْسَرَهُ رُحْمَهُ وَمُجَلَّبَهُ صِفَاحَهُ ؛ فِي قَوَادِمِهِ السَّعْدُ قَادِمٌ ، وَفِي خَوَافِيهِ النَّصْرُ  
 ظَاهِرٌ الْمَعَالِمِ ؛ كَمَا أَلْهِمَ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بُورِكَ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا» ،  
 فَيَسْرُحُ وَالطَّيْرُ جَائِمَةً فِي وَكُورِهَا ؛ وَيَخْرُجُ فِي إِبْغَاشِ السَّحَرِ وَعَلَيْهِ سَوَادٌ ، فَيَهَابُهُ  
 الصَّادِحُ فِي الْجَوِّ وَالْبَاقِعُ فِي الْوَادِ ؛ وَيَأْمُرُ - خَلَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ - أَمْرَاءَهُ فَيَضْرِبُونَ  
 عَلَى الطَّيْرِ حَلْقَةً وَهِيَ لَاهِيَةٌ فِي التَّقَاطُطِ حَبَّهَا ، غَافِلَةٌ عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، فَيَدْعُرُونَهَا بِمَحْفَقِ  
 الطُّبُولِ وَضَرْبِهَا ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ - لِنَافِرِهَا مُتَرَقِّبٌ ، وَطَائِرِهَا  
 بِالْجَارِحِ مُعَقِّبٌ ، فَمَا يَدْنُو الْكُرْكِيُّ مَقْرُورًا ، حَتَّى يَثُوبَ مَقْهُورًا ؛ سَاقِطًا مِنْ  
 سَمَائِهِ إِلَى أَرْضِهِ ، وَمَنْ سَعَتِهِ إِلَى قَبْضِهِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ كُلَّ جِنْسٍ وَقَهَرَ بَعْضَهُ  
 بِبَعْضِهِ ؛ هَذَا : وَالْجَارِحُ قَدْ أَنْشَبَ فِيهِ مَخَالِبَهُ ، وَسَدَّ عَلَيْهِ سُبُلَهُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ  
 وَمَذَاهِبَهُ ؛ وَلَمْ يَزَلْ - خَلَّدَ اللهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - عَامَّةَ يَوْمِهِ مُتَوَعِّلاً فِي التَّمَتُّعِ بِلَذَاتِ  
 صُيُودِهِ ، وَأَوْقَاتِ سُعُودِهِ ؛ وَحُصُولِ أَرِيهِ وَمَقْصُودِهِ ، وَجُنُودِ الْمَلَائِكَةِ حَافُونَ بِهِ  
 وَيَجُودُهُ ؛ حَتَّى يَنْسَخَ النَّهَارَ اللَّيْلُ بِظُلْمَائِهِ ، وَيَلْمَعَ الطَّارِقُ بِأَضْوَائِهِ ؛ فَيَعُودُ عِنْدَ  
 ذَلِكَ الرَّكَّابُ الشَّرِيفُ إِلَى الْمُخِيْمِ الْمَنْصُورِ وَالْجَوَّارِحِ كَاسِبِهِ ، وَالْأَقْدَارُ وَاهِبَهُ ؛  
 وَالْجَوَّارِحُ مَسْرُورَهُ ، وَالطُّبُورُ مَأْسُورَهُ ؛ وَالنَّفُوسُ مُتَمِّعَهُ ، وَالْمَوَاهِبُ مُنَوِّعَهُ ، وَالْأَرْجَاءُ  
 مُضَوِّعَهُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَعَ سُلْطَانِهِ بِكَلَاءَتِهِ : «وَمَنْ كَانَ مَعَ اللهِ كَانَ اللهُ مَعَهُ» ؛ فَيَرْفَعُ  
 أَمَامَهُ فَاَنُوسَانَ تَوْءَمَانَ ، كَأَنَّهُمَا كَوْكَبَانِ بَيْنَهُمَا أَقْتِرَانٌ ، أَوْ فَرَقْدَانٌ رَفَعْتُهُمَا يَدَانِ ؛ فَيَدْنُو  
 إِلَى الْمُخِيْمِ الْمَنْصُورِ فِي سُرَادِقِ الْعِزِّ الْحَفِيْلِ ، وَعِصَابَةِ النَّصْرِ الْأَثِيْلِ ، وَتَرَجُّلِ الْإِنْصَارِ  
 قَبْلَ فَسْطَاطِهِ الْمَعْظَمِ عَلَى قَدْرِ مِيلٍ ؛ وَيُسْعَى بِالشَّمُوعِ لِتَلْقِيهِ ، وَيُسَوَّى تَحْتِ الْمُلْكِ  
 لِتَرَقِّيهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَطُوفُ بِالدهليزِ الْمَنْصُورِ أَمْرَاءُ الْحَرَسِ بِالشَّمُوعِ الْمَرْفُوعَةِ ،  
 وَالْمَزَاهِرِ الْمَسْمُوعَةِ ؛ فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ مُسْتَطِيلًا ، وَجَاءَ الصُّبْحُ شَيْئًا قَلِيلًا ؛ عُرِضَتْ

عليه النعم فأعطاها ، والمهجمات الإسلامية فقضاها ، وقدمت له الحيات المسومة  
فامتطأها ، ويسرح إلى الصيد والجوارح التي صادت بالأمس قد استأسدت ،  
وبسعادته إلى ظفريها قد أرشدت ، فإذا سار ركابه الشريف فزقت على أثره عساكر  
الإسلام ، وقوضت تلك الخيام كأنها الأيام .

ولم يبرح ذلك دأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظله من صيد الطائر ،  
فعند ذلك يثني عنان السير ، إلى اقتناص الوحش فيعد لإمساكها كل هيكل قيد  
الأوباد ، قد عقد الخير بناصيته فأصبح حسن المعاقد .

فمن أشهب : كريم المغار ، ذى إهاب من النهار ، وأديم كأنه صحيفة الأبرار ،  
أبيض مثل الهدى ، له في الصبح إثارة النضر وإغارة على العدا ، علا قدرا  
وغلا قيمه ، وله إلى آل أعوج نسبة مستقيمة ، إذا استن في مضمار يسوق البروق  
الخاطفه ، ويخلف الريح حسرى وهى واقفه ، يبعده الفارس بجرا ، وله عند مجرى  
العوالى مع السوايق مجرى .

ومن أحمر : كأنما صبغ بدم الأعداء أديمه ، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه ،  
كرمت غرره وجوله ، وحسنت أعراقه وذبوله ، مكرم فرجهمود صخر حطته من  
على سيوله ، حكى لونه مجتم الرقيق ، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق .

ومن أدهم : مدرك كالليل ، منصّب كالسيل ، كريم الناصيه ، جواب قاصيه ،  
كأن غرته صبح تنفس في الدجى الحالك ، وكأنه من الليل باق بين عينه كوكب  
يضي المسالك ، وكان جوله بروق تفرقت في جوانب النسق لحسن منظرًا لذلك ،  
سنايكة يورى قدحها ، وغرته ينير صبحها ، وجوارحه مسود جرحها ، وصوته  
كمن فيها العز فلا يزال ظاهرا مجحها .

ومما سوى ذلك من الجياد المُخْتَبَرَة ، والصَّافِنَاتِ المُعْتَبَرَة :

إذا ما صرَفْتَ الخُوْطَ نحو شَيَاتِهَا \* وألَوَّانِهَا فَالحُسْنُ عَنكَ مَغِيبٌ!

وإنما هي بصبرها على الظَّمَا ، وشِدَّةِ عَدُوِّهَا في النُّورِ وَالظُّلْمَا ؛ وَسَبْقِهَا إلى غَايَاتِ رَهَانِهَا ، وَثَبَاتِهَا تحت رَايَاتِ قُرْسَانِهَا .

وتَلِيهَا الفُهُودُ الحَسَنُ مَنظَرُهَا ، الجَمِيلُ ظَفَرُهَا ، الكَاسِبُ نَابِهَا وَظَفَرُهَا ؛ تَفَرَّقَ اللَّيْلُ في أَهْيَا المُجْتَمَعِ ، وَأدْرَكَتِ العَوَاصِمَ في هِضَابِهَا المُرتَفَعِ ؛ وَجُوهُهَا كُوجُوهِ اللَّيْثِ الخَادِرِ ، وَوَثَبَاتُهَا على الطَّرِيدَةِ وَثَبَاتِ الفَيْتَةِ المُؤْمِنَةِ على الفَيْتَةِ الكَافِرِ ؛ مَقْلَصَةُ الخَوَاصِرِ ، عَزَمَاتُهَا على الوَحْشِ حَوَاصِرِ ؛ مَا أُطْلِقَتْ على صَيْدٍ إِلا قَنَصْتَهُ سَرِيعًا ، وَلَا بَصُرَتْ بِعَانَةٍ من حُمُرٍ إِلا أَخَذَتْهَا جَمِيعًا .

ثم الحَوَامِي المَعْلَمَة ، وَالضُّوَارِي التي أُصْحِتْ بِالنُّجُجِ مُتَوَسِّمَةً ؛ مَا مِنْهَا إِلا طَاوِي الخَاصِرِ ، وَوَثَابَتُهُ طَائِلَةٌ غَيْرَ قَاصِرَةٍ ؛ بُيُوبُ كَالِأَسْنَةِ ، وَسَاعِدَيْنِ مَفْتُولَيْنِ تَسْبِقُ بِهِمَا دَوَاتِ الأَعْنَةِ ؛ لورَاهِ عَدِيُّ بنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَضَمَّهُ إلى مَا لَدَيْهِ ، وَأَكَلَ مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْهِ .

وَتَضْرِبُ العَسَاكِرُ حَاقِقَةً مَا يَلْتَقِي طَرَفَاها إِلا إلى اللَّيْلِ في آتِسَاعِهَا ، تَحْوِي سَائِرَ الأَوَابِدِ على آخْتِلافِ أنواعِهَا .

فمن نَعَامٍ : خُصَّبَ ظَلِيمُهَا لَمَّا أَكَلَ رَبِيعًا ، وَأَحْمَرَّتْ أَطْرَافُ رِيشِهِ فَكَانَتْهَا سِبْهًا أَصَابَتْ تَجْمِيعًا ؛ طَالَتْ أَعْنَاقُهَا النَّاحِلَةَ فَكَانَتْهَا خَطِيئَةً ، وَأَشْتَدَّتْ قَوَائِمُهَا الحَامِلَةَ فَكَانَتْهَا مَطِيئَةً ؛ شَارَكَتِ الطَّيْرَ في وُجُودِ الجَنَاحِ ، وَفَارَقَتْهَا في كَثَافَةِ الأَشْبَاحِ ؛ وَأَشْبَهتِ

(١) الذي في ديوان المتنبي :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها \* وأعضائها فالحسن عنك مغيب .

الْوَحْشَ فِي مَسْكِنِ الْقَفَارِ، وَشِدَّةِ النَّفَارِ؛ قَدْ اجْتَمَعَ فِي ظَاهِرِهَا اللَّوْنَانِ مِنَ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ وَأَتْتَلَفَ فِي بَاطِنِهَا الضَّدَّانِ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ .

وَمِنْ طِبَائِهِ : مُسَوِّدَةُ الْأَحْدَاقِ ، حَكَّتِ الْحَبَائِبَ فِي كُحْلِ الْمُقَلِّ وَحُسْنِ سَوَالِفِ الْأَعْنَاقِ ؛ أَبْيَضَّتْ بَطُونَهَا ، وَأَحْمَرَّتْ مُتُونَهَا ؛ وَرَاقَتْ أَوْرَاقُهَا ، وَحَلَكَتْ أَمَاقُهَا ؛ نَافِرَةٌ فِي صَحْرَائِهَا ، طَيِّبٌ مَرَعَاهَا فَلِمَسْكَ مِنْ دِمَائِهَا .

وَمِنْ بَقَرٍ وَحَشِيَّةٍ : عُفْرِ الْإِهَابِ ، سَا كِنَةِ الْهَضَابِ ؛ لَهَا فِي حِقَافِ الرَّمْلِ مَرَايِضٌ ، حَذْرًا مِنْ قَانِصٍ قَابِضٍ ؛ كَمْ فِي ... .. مِنْ لَوِي يَتَهَادَى ، كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادًا .

وَمِنْ حُمُرٍ إِيَّاهَا أَقْرَمٌ مَنَسُوبَةٌ إِلَى أَحَدِ (؟) وَلَمْ تُرَكَّبْ مُتُونُهَا ، وَقَدْ حَكَى الْجَزَعُ الَّذِي لَمْ يُثَقِّبْ فِي دُجَى اللَّيْلِ عُيُونُهَا .

وَعِنْدَ مَا تَلْتَقِي حَلَقَةُ الْعَسَاكِرِ يَلْحَقُهَا - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - وَمَعَهُ الْجَوَارِحُ الصَّائِدَةُ ، وَالْحَوَامِي الصَّائِلَةُ ؛ وَالْأَسْهُمُ النَّافِذُ ، وَالنُّهُودُ الْآخِذَةُ ؛ فَتَمُوجُ الْوَحْشُ دُعْرًا ، وَتَرَى مَسَالِكَهَا قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهَا سَهْلًا وَوَعْرًا ؛ وَضُرِبَ دُونَ نَجَاتِهَا بِسُورٍ مِنَ الْحِيَادِ وَالْفُرْسَانِ ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَلَاصِهَا بِنِيَالٍ وَنُحْرَصَانٍ ؛ فَيُنْتَذِرُ تَفَرُّ النَّعَامِ عَنْ رِمَالِهَا ، وَالطَّبَّاءُ عَنْ ظِلَالِهَا ؛ وَالْبَقَرُ عَنْ جَاذِرِهَا ، وَالْحُمْرُ عَنْ بُولِهَا ؛ وَيَقْبُضُ - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - مِنْ جِنْسِ الْوَحْشِ كُلِّ نَوْعٍ ، وَلَوْ لَمْ يُمَسِّكْهَا بِجَارِحٍ لِأَمْسِكِهَا كَمَا تُمَسِّكُ عُدَاةُ الْإِسْلَامِ بِالرُّوعِ ؛ وَتُجْزَلُ مِنْهَا الْمَكَاسِبُ ، وَتُمَلَأُ مِنْهَا الْحَقَائِبُ ؛ فَإِذَا أَخَذَ حَظَّهُ مِنَ الْقَبِيضِ وَلَدَّةٍ أَكْتَسَابَهُ ، رَسَمَ لِأَمْرَائِهِ بِالصَّيْدِ عِنْدَ صُودُورِ رِكَابِهِ ؛ فَيَصِيدُونَ وَيَقْنَصُونَ ، زَادَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - فَإِنَّهُمْ فِي طَاعَتِهِ مُخْلِصُونَ ؛ فَيَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّ

قنِصَ ذَبِيحٍ، وَيَأْتِي كُلُّ بِمَا أَقْتَنَصَّه لِيُظْهَرَ التَّرَجُّحُ؛ فَإِذَا اسْتَكَلَّ أَوْقَاتَ الصَّيْدِ  
مِنَ الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ نَحَى رِكَابَهُ الشَّرِيفَ إِلَى جِهَةِ الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ وَالْقِفَارُ قَدْ شُرِفَتْ  
بِمُرُورِ مَوَاكِبِهِ، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ قَدْ آفَتْخَرَتْ بِكُونِهَا أَصْبَحَتْ مِنْ مَكَاسِيهِ .

هَذَا كُلُّهُ وَإِنْ كَانَتْ النَّفْسُ تَرَاهُ لَهَوًا، وَتَبْلُغُ بِهِ كُلَّ مَاتَهْوَى، فَفِي طَيْبِهِ مِنْ تَمْرِينَ  
الْجُنُودِ عَلَى الْحَرْبِ مَا تُتَسَدُّ بِهِ الْعِزَمَاتُ وَتَقْوَى؛ فَيُؤَمُّ الرِّكَابَ الشَّرِيفَ عَائِدًا إِلَى  
سِرِّيرِ مُلْكِهِ بِالْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَالسَّلَامَةُ قَدْ قَضَتْ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنْ حِرَاسَتِهِ،  
وَالْأَقْدَارُ قَدْ وَقَّتْ مَا يَنْبَغِي مِنْ كَلَامَتِهِ؛ فَلَمْ يَكُ إِلَّا وَهُوَ صَاعِدٌ إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ  
وَأَلْسِنَةُ السَّعَادَةِ تُحَاطِبُهُ، وَسِرِيرُهُ قَدْ أَهْتَرَتْ فَرَحًا بِمَقْدَمِهِ جَوَانِبُهُ، وَالصَّيْدُ الْمُبَارَكُ  
قَدْ سَعِدَتْ مَبَادِيهِ وَحَمِدَتْ عَوَاقِبُهُ؛ فَيُلْقِي أُهْبَةَ السَّفَرِ، وَيَأْخُذُ فِيمَا بَطَّنَ مِنَ الْمَصَالِحِ  
الْإِسْلَامِيَّةِ وَظَهَرَ، وَتُنَشِّدُهُ أَلْسِنَةُ السَّلَامَةِ مَا أَمَلَى عَلَيْهَا الْعِزُّ وَالنَّائِيْدُ وَالظَّفَرُ :

مَلِكُ الْبَسِيطَةِ أَبٌ مِنْ سَفَرِهِ \* وَالنَّصْرُ وَالنَّائِيْدُ فِي أَثَرِهِ،  
فَكَأَنَّهُ فِي عِزِّ مَوْكِبِهِ \* بَدْرٌ تَأَلَّقَ فِي سَنَا خَفَرِهِ .  
مَا فِي السَّبْرِيَّةِ مِثْلُهُ مَلِكٌ \* أُوْتِيَ الَّذِي أُوتِيَهُ مِنْ ظَفَرِهِ !  
يَسِيرِي إِلَى أَعْدَائِهِ رَهَبٌ \* مِمَّا يَبْتُ النَّاسُ مِنْ خَبَرِهِ .  
فَاللَّهُ رَبُّ النَّاسِ فَاطِرُنَا \* يُؤْتِيهِ مَا يَرِي عَلَى وَطَرِهِ !!

### الصنف الثاني

(من الرسائل ما يرد منها مورد المدح والتقرير)

إِذَا بَانَ يَجْعَلُ الْمَدْحَ مَوْرِدَ الرَّسَالَةِ وَيُصَدَّرُ بِمَدْحِ ذَلِكَ الشَّخْصِ الْمُرَادِ، وَإِذَا بَانَ  
يُصَدَّرُ بِمَاجِرِيَّةٍ يَحْكِيهَا الْمُنْشِئُ وَيَتَخَلَّصُ مِنْهَا إِلَى مَدْحٍ مِنْ يَقْصِدُ مَدْحَهُ وَتَقْرِيضَهُ



وما يجرى مجرى ذلك . وللكتاب وأهل الصناعة في ذلك أفانين مختلفة المقاصد ،  
وطرق متباينة الموارد .

وهذه نسخة رسالة أنشأها أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ سماها "رسالة الشكر"  
قصد بها تقرير بصير المتوكل وشكر نعمه لديه ، مُصدراً لها بذكر حقيقة الشكر  
وبيان مقاصده ، وهي :

جُعِلْتُ فِدَاكَ ، أَيُّدِكَ اللهُ وَأَكْرَمَكَ وَأَعَزَّكَ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعِنْدَكَ . ليس  
يكونُ الشُّكْرُ - أَبْقَاكَ اللهُ - تَأَمَّا ، وَمِنْ حَدِّ النُّقْصَانِ خَارِجًا ، حَتَّى يَسْتَضْحِبَ أَرْبَعِ  
خِلَالَ ، وَيَشْتَمِلَ عَلَى أَرْبَعِ خِصَالٍ :

أولها : العِلْمُ بِمَوْجِعِ النِّعْمَةِ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ ، وَبِقَدْرِ انْتِفَاعِهِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ  
ذَلِكَ : مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ ، أَوْ مَبْلَغِ لَذَّةٍ وَوُجُوهِ دَرَجَةٍ ، مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِمَقْدَارِ أَحْتِمَالِ الْمُنْعَمِ  
لِلشَّقَةِ ، وَالذِّي حَاوَلَ مِنَ الْمَعَانَاةِ وَالْكُلْفَةِ فِي بَدْلِ جَاءِهِ مَصُونٍ ، أَوْ مُفَارَقَةِ عَلِيٍّ  
تَمِيمٍ . وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ ؟ وَقَدْ خَوَّلَ مِنْ نِعْمِهِ بَعْضَ مَا كَانَ حَيْسًا عَلَى  
حَوَادِثِ عِدَّةٍ ، فَزَادَ فِي نِعَمٍ غَيْرِهِ بِمَا انْتَقَصَ مِنْ نِعَمٍ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ . فَكَلَّمَا تَذَكَّرَ الشَّاكِرُ  
مَا أَحْتَمَلَ مِنْ مَثْوَنَةِ الْبَدَلِ ، سَهَّلَ عَلَيْهِ أَحْتِمَالُ مَا نَهَضَ بِهِ مِنْ ثِقَلِ الشُّكْرِ .

والخصلة الثانية : الْحُرِّيَّةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى حُبِّ الْمَكَافَاةِ وَاسْتِحْسَانِ الْمَجَازَاةِ . وَالشُّكْرُ  
مِنْ أَكْبَرِ أَبْوَابِ الْأَمَانَةِ ، وَأَبْعَدِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْخِيَانَةِ . وَلَنْ يَبْلُغَ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ غَايَةَ  
الْمَجْدِ إِلَّا بِمَعُونَةِ الطَّمَعِ ، وَإِلَّا الْحَرْبُ سِيَجَالٌ بَيْنَهُمَا ، وَالظُّفْرُ مَقْسُومٌ عَلَيْهِمَا . كَذَلِكَ  
حُكْمُ الْأَشْيَاءِ إِذَا تَسَاوَتْ فِي الْقُوَّةِ ، وَتَقَارَبَتْ فِي الْبُلُوغِ الْمُدَّةِ . وَقَدْ زَعَمَ نَاسٌ أَنَّ الشَّاكِرَ  
وَالْمُنْعَمَ لَا يَسْتَوِيَانِ ، كَمَا أَنَّ الْبَادِيَّ بِالظُّلْمِ وَالْمُسْتَصِرَّ لَا يَعْتَدِلَانِ ؛ لِأَنَّ الْبَادِيَّ أَخَذَ  
مَا لَيْسَ لَهُ ، وَالْمُسْتَصِرَّ لَمْ يَتَجَاوَزْ حَقَّهُ الَّذِي هُوَ لَهُ ؛ وَلِأَنَّ الْبَادِيَّ لَمْ يَكُنْ مُهَيِّجًا عَلَى

الظلم بعلّة جناها المتّصر، والمتّصر مهيج على المكافاة بعلّة جناها البادي، والمشور للطباع المغضب، والمستخف المهيج أعذر من الساكن الواديع المطمئن .  
 فلذلك قالوا : إن البادي أظلم، والمتّصر أعذر . وزعموا أن المنعم هو الذي أودع صدر الشاكر المحبة بانعامه عليه، وهيجه بذلك على مكافآته لإحسانه إليه، فقد صار المنعم شريك الشاكر في إحسانه، وتفرد بفضل إنعامه دون مشاركة غيره، والمنعم هو الذي دفع للشاكر أداة الشكر، وأعاره آلة الوفاء، فهو من ههنا أحق بالتقديم، وأولى بالتفضيل .

هذا، وقد قال بعض الحكماء والأدباء والعلماء : من تمام كرم المنعم التغافل عن مجته، والإقرار بالفضيلة لشاكر نعمته ؛ لأن الحاجة مغالبه، ولا تتم مودة إلا مع المسامحة . ولذلك قال الربيعي لناس من العرب يختصمون : هل لكم في الحق أو خير منه ؟ قالوا : قد عرفنا الحق، فما الذي هو خير منه ؟ قال : التغافل فإن الحق مر . ألا ترى إلى بنت هريم بن سنان لما قالت لابنة زهير بن أبي سلمى في بعض المناحات، أو في بعض المزاورات : إنه ليُعجبنى ما أرى من حسن شارتيكم، وبقاء نفحتكم . قالت ابنة زهير : أما والله لئن قلت ما قلت، فما ذلك إلا من فضول ما وهبتم، ومن بقايا ما أنعمتم . قالت بنت هريم : لا بل لكم الفضل، وعلينا الشكر؛ أعطيناكم ما يقنى، وأعطيتُمونا ما يقنى . وقيل لعبد الله بن جعفر حين أجزل لنصيب الشاعر في الهبة، وكثر له في العطيّة : أتدبّل هذا العبد الأسود كل هذا النيل، وتحبوه بمثل هذا الجباء ؟ فقال عبد الله بن جعفر : أما والله لئن كان أسود الجلد إنه لأبيض الشعر، أعطيناها دراهم تقنى، وثياباً تبلى، ورواحل تضى، وأعطانا شئاً يقنى، وحديثاً يقنى، ومكارم لا تبلى . فلهذه الخصال تكاملت خصال المجد فيهم، فظهر عنوان كرم الخير عليهم، فصاروا في زمانهم منارا، ولن بعدهم

أعلاماً . وليس تيم معاني كرم المنعم ، ومعاني وفاء الشاكر ، حتى تتوافى أقوالهما ،  
وتتفق أهواؤهما على تدافع الحجمة ، والإقرار بالمعجزة ، فيزداد بذلك المنعم فضلاً ،  
والشاكر نبلاً .

هذا جملة القول في خصلتين من الأربع التي قدمنا ذكرها ، وشهرنا أمرها .

والخصلة الثالثة : الديانة بالشكر ، والإخلاص للمنعم في تصفية الود ، فان الدين  
قائد المرءة ، كما أن المرءة خطام الحمية . وهذه الخصال وإن تسببت في بعض  
الوجوه ، وافتقدت في بعض الأماكن ، فإنها ترجع إلى نصاب يجمعها ، وإلى إناء  
يحفظها ، منه نجت ، وعنه آنتبت ، وإليه رجعت . ولا يحتاج هذه الخصال على  
مخالفة الهوى ، ومجانبة الهوى ، وعلى اتهام دواعي الشهوة ، والامتناع من كلب  
الطبيعة - وفق الأولون بينها في جملة الأسم ، وقارنوا بينها في جملة الحكم . ولذلك  
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اعتبر عزمه بجميته ، وحزمه بمتاع بيته .

ومدار جميع الأحوال المحمودة على الصبر ، ولن يتكلف مرارة الصبر من يجهل  
عاقبة الصبر . وقالوا : لما صار ثقل الشكر لا يحتمل إلا بالصبر ، صار الشكر من  
نتاج الصبر . وكما أنه لا بد للحلم - مع كرم الحلم - من الصبر ، فكذلك لا بد للشكر  
- مع كرم الشكر - من الصبر . فالصبر يجرى مع جميع الأفعال المحمودة ، كما يجرى  
الهوى مع جميع الأفعال المذمومة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« خلق الله عز وجل النار وحققها بالشهوات ، وخلق الجنة وحققها بالمكاره . »

والخصلة الرابعة : وصف ذلك الإحسان باللسان البين ، وتخييره بالبيان النير ،  
وباللفظ العذب الشهي ، والمعنى الشريف البهي . فان الكلام إذا كان حسناً ،  
جعلته الحكماء أدباً ، ووجدت الرواة إلى نشره سبباً ، حتى يصير حديثاً مأثوراً ، ومجدداً

مَدُّ كُورًا، وداخِلًا في أَسْمَارِ المُلُوكِ، وَسُوقًا من أسواقِ المُتَأَدِّينَ، وَوَصْلَةً في المَجَالِسِ،  
 وَزِيَادَةً في العَقْلِ، وَتَحَدًُّا لِسَانٍ، وَتَرْهِيْفًا لِقَلْبٍ، وَتَأْطِيفًا لِلْفِكْرِ، وَعِمَارَةً لِلصَّدْرِ،  
 وَسُلْمًا إلى العُظْمَاءِ، وَسَبَبًا إلى الحِلَّةِ الكُبْرَاءِ . وَإِذَا لم يَكُنِ اللَّفْظُ رَائِعًا، وَالْمَعْنَى  
 بَارِعًا، وَبِالنَّوَادِرِ مُرْتَبِحًا، وَبِالمُلْحِجِ مَجْلُوبًا، لم تَصْغُ له الأَسْمَاعُ، ولم تَنْشِرْحُ له الصُّدُورُ،  
 ولم تَحْفَظْهُ النُّفُوسُ، ولم تَنْطِقْ به الأَفْوَاهُ، ولم يُحَدِّدْ في الكُتُبِ، ولم يَقَيِّدْ بالدَّرْسِ،  
 ولم يَحْدِلْ به قَائِلٌ، ولم يَلْتَدِّ به سَامِعٌ . وَمَتَى لم يَكُنْ كَذَلِكَ كان كَلَامًا ككَلَامِ اللُّغُو،  
 وَمَعَانِي السَّمَوِيَّةِ، وَكالمُهْجَرِ الذي لا يُفْهَمُ، وَالمُسْتَعْلَقِ الذي لا يُعْلَمُ .

وليس - أبقاك الله - نبيُّ أَحوجَ إلى الحِشْدِ، ولا أَفقرَ إلى الرِّفْقِ؛ من الشُّكْرِ  
 النَّافِعِ، وَالمَدِيحِ النَّاجِعِ؛ الذي يَبْقَى بقاءَ الوَثْمِ، وَيُلُوحُ كَمَا يُلُوحُ النِّجْمُ . كما أَنَّهُ لا شَيْءَ  
 أَحوجُ إلى وَسْعِ الطَّاقَةِ، وإلى الفَضْلِ في القُوَّةِ، وإلى البَسْطَةِ في العِلْمِ، وإلى تَمَامِ  
 العِزْمِ - من الصَّبْرِ . وعلى أَن الشُّكْرِ في طَبَقَاتٍ مُتفاوتَةٍ، وَمَنَازِلِ مُتبايِنَةٍ؛ وَإِنْ جَمَعَهَا  
 أَسْمٌ، فَلَيْسَ يَجْمَعُهَا حُكْمٌ، فَرُبَّمَا كان كَلَامًا يَحْيِشُ به الصُّدُورُ، وَتَمُجِّه الأَفْوَاهُ،  
 وَتَجْدِفُ به الأَلْسِنَةُ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيهِ الرَّأْيُ المُقْتَضِبُ، وَالمُخَاطِرُ المُخْتَارُ، وَالمُكَلِّمُ  
 المُرْتَجِلُ، فَيُرْمَى به على عَوَاهِنِهِ، وَتُبْنَى مَصَادِرُهُ على غيرِ مَوَارِدِهِ، لا يَتَعَدَّرُ فِيهِ  
 الشَّاكِرُونَ لِانْتِفَاعِ المُنْعِمِينَ، كما تَعَدَّرَ المُنْعَمُونَ لِانْتِفَاعِ الشَّاكِرِينَ . وَليستْ غَايَةُ  
 القَائِلِ إِلا أَنْ يُعَدَّ بَابِغًا مُفَوِّهاً، أَوْ يَسْتَرِيدَ به إلى نِعْمَةِ السَّالِفَةِ نِعْمًا آتِيَةً، أَوْ لَيْسَ  
 إِلا لِيَعْتَرَّ كَرِيْمًا، أَوْ يَخْتَدِعَ غَنِيًّا لا يَتَفَقَّدُ سَاعَاتِ القَوْلِ، وَلا يَتَعَرَّفُ أَقْدَارَ المُسْتَمِيعِينَ؟  
 وَليستْ غَايَتُهُ إِلا الكَسْبُ وَالتَّعَرُّضُ وَالاِنْتِفَاعُ وَالتَّرْتُّعُ؛ وعلى هَذَا يَدُورُ شُكْرُ المُسْتَأْكِلِينَ،  
 وَإِحْمَادُ المُتَكَسِّبِينَ .

وهذا البابُ وَإِنْ جَعَلْتَهُ العوامُ شُكْرًا، فهو بغيرِ الشُّكْرِ أَشْبَهَ، وَبذلك أُولَى،  
 وَرُبَّمَا كان شُكْرُهُ عن تَأْتِيٍّ وَتَذَكِيرٍ، وَعَنْ تَحْيِيرٍ وَتَحْيِيرٍ، وَعَنْ تَفَقُّدِ المَحَالِّاتِ،

وتَحْصِيلِ لِلْأُمُورِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِمُهَجَّتِهِ ، وَبِحَضْرَةِ عَدُوِّ لَا يَزَالُ مُتَرَصِّدًا  
لِنِعْمَتِهِ ، فَرُبَّمَا آتَمَسَ الزِّيَادَةَ فِي غَيْظِهِ ، وَرُبَّمَا آتَمَسَ شِفَاءَ دَائِهِ وَإِصْلَاحَ  
قَلْبِهِ ، وَنَقَضَ الْمُبْرِمَ مِنْ مَعَاقِدِ حَفِيدِهِ ، عَلَى قَدْرِ الرَّدِّ ، وَعَلَى قَدْرِ تَصَرُّفِ الْحَالَاتِ  
فِي الْمَصْلُحَةِ ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ كَالرَّائِدِ لِأَهْلِهِ ، وَكَرَعِيمٍ رَهْطِهِ ، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَ مَشُورَتِهِ ،  
فَرُبَّمَا آخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُ شَعْرًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْهَرُ ، وَرُبَّمَا آخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا  
مَشُورًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَتْبَلُ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ الْبُسْرَ وَأَتَمَّلَ الثَّرْوَةَ ، وَجَعَلَ مِنَ الدَّلِيلِ  
عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةَ النَّفَقَةِ ، وَحُسْنَ الشَّارَةِ ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ أَصْدَقُ الْمَدْحِينَ ، وَأَتْبَلُ  
الشُّكْرِينَ ، وَيَجْعَلُ قَائِدَهُ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ ، وَسَابِقَهُ إِلَى هَذَا التَّدْبِيرِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

فَعَاجُوا فَأَتْنَا بِالذِّي أَتَتْ أَهْلُهُ \* وَلَوْ سَكُنُوا أَثْنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَليْسَ بِهِ - قَوْلُ الْعَزْرِيِّ :

يَابْنَ الْعَلَاءِ وَيَابْنَ الْقَرِيمِ مِرْدَاسٍ : \* إِنِّي لِأَطْرِيكَ فِي أَهْلِي وَجُلَامِي .

حَتَّى إِذَا قِيلَ : مَا أَعْطَاكَ مِنْ صَفِيدٍ ؟ \* طَاطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالٍ عِنْدَهَا رَأْسِي !

أُنْتِي عَلَيَّكَ وَلِي حَالٌ تُكَكِّدُنِي \* بِمَا أَقُولُ فَاسْتَجِي مِنَ النَّاسِ !

وَيَنْ هَذِينَ الشُّكْرِينَ طَبَقَاتٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَمَنَازِلٌ مَعْلُومَةٌ . وَمَوْضِعُ الشُّكْرِ مِنْ  
قَلْبِ السَّامِعِ فِي الْقَبُولِ وَالْأَسْتِنَامَةِ ، عَلَى قَدْرِ حُسْنِ النِّيَّةِ ، وَالذِّي يَعْرِفُ بِهِ الشَّاكِرُ  
مِنْ صِدْقِ اللَّهْجَةِ ، وَمِنْ قِلَّةِ السَّرْفِ ، وَأَعْيَادِ الْمَذَاهِبِ ، وَالْإِقْتِصَادِ فِي الْقَوْلِ .  
وهَذَا بَابٌ سِوَى الْبَابِ الْآخِرِ مِنْ حُسْنِ الْوَصْفِ ، وَجُودَةِ الرَّصْفِ . وَلِذَلِكَ لَمَّا  
أَحْسَنَ بَعْضُ الْوَاعِظِينَ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْأَعْتِبَارِ وَفِي تَرْقِيقِ الْقُلُوبِ ، وَلَمَّا لَمْ يَرِ  
أَحَدًا يَحْتَشِعُ ، وَلَا عَيْنًا تَدْمَعُ ، قَالَ : يَا هُوَلَاءِ ! مَا أَنْ يَكُونَ بِي شَرٌّ ، أَوْ يَكُونَ بِكُمْ شَرٌّ .

وقيلَ بِلُجْسَاءِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ ، وَعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ : مَا بَالُ  
دُمُوعِكُمْ عِنْدَ الْفَضْلِ أَغْزَرَ ، وَعِنْدَ عَبْدِ الصَّمَدِ أَنْزَرَ ، وَكَلَامُ عَبْدِ الصَّمَدِ أَغْزَرَ ،

وكلامُ الفَضْلِ أزر؟ قالوا : لأن قلبَ الفَضْلِ أرق ، فصارت قلوبنا أرق ،  
والقلوبُ تُجَارَى .

وقالوا : طوبى للمُدَّوح إذا كان للمُدَّح مُسْتَحَقًا ، وللدَّاعِي إذا كان للاستِجَابَةِ  
أهلاً ، وللمُنْعِم إذا حَظِيَ بالشُّكْرِ ، وللشَّاكِر إذا حَظِيَ بالقبُولِ .

إني لَسْتُ أَحْتَسِبُ من مَدْحِكَ ، لَأني لَسْتُ أَتَزِيدُ في وَصْفِكَ ، وَلَسْتُ أَمْدَحُكَ  
من جِهَةِ مَعْرُوفِكَ عِنْدِي ، وَلَا أَصِفُكَ بِتَقْدِيمِ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ؛ حَتَّى أَقْدِمَ الشُّكْرَ الَّذِي  
هُوَ أَوْلَى بِالْتَقْسِيمِ ، وَأَفْضَلَ الصَّنْفِ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالتَّفْضِيلِ . وَفِي الْحَبَرِ  
المُسْتَفِيزِ ، وَالْحَدِيثِ المَأْتُورِ : « مَا قَلَّ وَكُنِيَ خَيْرٌ مَّا كَثُرَ وَأَهْمَى . وَقَلِيلٌ بَاقٍ  
خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فَإِنْ » .

تَذَاكَرَ النَّاسُ عِنْدَ بَعْضِ الحُكَمَاءِ طَبَقَاتِ السَّابِقِينَ فِي الفَضْلِ ، وَتَنَزَّلَ حَالَاتِهِمْ  
فِي البرِّ ، وَمِنْ كَانَتِ الحِصْلَةُ المَحْمُودَةُ فِيهِ أَكْثَرَ ، وَالْحِصْلَةُ التَّانِيَةُ فِيهِ أَوْفَرَ ، فَقَالَ  
ذَلِكَ الحَكِيمُ : لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَسْبِقَ رَجُلٌ إِلَى الإِسْلَامِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ ، فَقَدْ سَبَقَ  
إِلَى تَقْدِيمِهِ نَاسٌ وَأَبْطَأَ آخَرُونَ ؛ وَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَفُوقَ الرَّجُلُ أَتْرَابَهُ فِي الزُّهْدِ ،  
وَأَكْفَاءَهُ فِي الفِقْهِ ، وَأَمْثَالَهُ فِي الذَّبِّ : وَهَذَا يُوجَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيُصَابُ فِي كُلِّ  
البُلْدَانِ . وَلَكِنَّ العَجَبَ العَجِيبَ ، وَالنَّادِرَ الغَرِيبَ ، الَّذِي تَهَيَّأَ فِي عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ  
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَتَّسَقَ لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ غَبَرَ عَشْرَ حَجَجٍ : يَفْتَحُ الفُتُوحَ ، وَيُدْوَخُ البِلَادَ ،  
وَيُمَصِّرُ الأَمْصَارَ ، وَيُدَوِّنُ الدَّوَاوِينَ ، وَيَفْرِضُ الفُرُوضَ ، وَيُرْتَبِّ الخِصَصَةَ ، وَيُدَبِّرُ  
العَامَةَ ، وَيُنْجِي الفَيءَ ، وَتَرْمِي إِلَيْهِ الأَرْضُ بِأَفْلاذِ كَبِيدِهَا ، وَأَنْوَاعِ زُخْرِفِهَا ، وَأَصْنَافِ  
كُنُوزِهَا ، وَمَكُونِ جَوْهَرِهَا ، وَيَقْتُلُ مُلُوكَهَا ، وَيَلِي مَمَالِكَهَا ، وَيَحُلُّ وَيَعْقِدُ ،  
وَيُؤَلِّي وَيَعزِلُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ، وَبَلَغَتْ حَيْلُهُ إِفْرِيقِيَّةً ، وَدَخَلَتْ خُرَاسَانَ : كُلُّ ذَلِكَ  
بِالتَّسْديرِ الصَّحِيحِ وَالضَّبْطِ ، وَالإِتْقَانِ والقُوَّةِ ، وَالإِشْرَافِ ، وَالبَصَرِ النَّافِذِ ، وَالعِزِّمِ

المتمكن . ثم قال : لا يجمع مصلحة الأمة ، ولا يحوشهم على حظهم من الألفة  
وآجتماع الكلمة ، وإقامتهم على المحجة ، مع ضبط الأطراف ، وأمن البيضة - إلا لين  
في غير ضعيف ، وشدة في غير عنيف . ثم غير بعد ذلك سنيه كلها على وتيرة واحدة ،  
وطريقة مطردة ؛ لا يتحرف عنها ، ولا يغيرها ، ولا يسأها ، ولا يزول عنها :  
من خشونة المأكلي والملبس ، وغليظ المركب ، وظلف النفس عن صغيرها وكبيرها ،  
ودقيقها وجليلها ، وكل ما يناجر الناس عليه ، لم يتغير في لقاء ولا في حجاب ،  
ولا في معاملة ولا في مجالسة ، ولا في جمع ولا في منع ، ولا قبض ولا بسط :  
والدنيا تنصب عليه صبا ، وتتدفق عليه تدفقا ، والخصلة من خصاله ، والخلعة من  
خلاله ؛ تدعو إلى الرغبة ، وتفتح باب الألفة ، وتقتض المبرم ، وتفيد المروءة  
وتفسح المنة ، وتحل العقدة ، وتورث الاعتزاز بطول السلامة ، والاتكال على دوام  
الظفر ، ومواتاة الأيام ، ومتابعة الزمان . وكان شباهه عشر حجج على هذه الحال  
أعجوبة ، ومن البدائع الغريبة . وبأقل من هذا يظهر العجب ، ويستعمل الكبير ،  
ويظهر الجفاء ، ويقبل التواضع .

ونحن وإن كنا لا نستحيز أن نلحق أحدا بطباع عمر ومذهبه ، وفضل قوته ،  
وتمام عزيمه ، فإننا لا نجد بدا من معرفة فضل كل من استقامت طريقته ، ودامت  
خليقته ، فلم يتغير عند تنابع النعم ، وتظاهر الصنع ، وإن كانت النعم مختلفة  
الأجناس ، ومتفاوتة في الطبقات . وكيف يلحق به أحد ؟ مع قوله : " لو أن  
الصبر والشكر بغيران ما باليت أيهما ركبت " ، وليكأ على حال لا ندع تعظيم كل من  
بان من نظرائه في المرتبة ، وأشباهه في المنزلة ، إذ كان أدومهم طريقه ، وأشدهم  
مريره ، وأمضاهم على الجادة الوسطى ، وأقدرهم على المحجة العظمى .

ولا بد من أن يعطى كل رئيس قسطه ، وكل زمان حظه ، ولا يعجبني قول  
القائل : لم يدع الأول للاحر شيئا ، بل لعمري لقد ترك له العريض الطويل ،  
والثمين الخطير ، واللقم النجج ، والمنهج الرحب . ولو أن الناس مذجرت هذه الكلمة  
على أفواه العوام ، وأعجب بها الأعمار من الرجال - فلدوا هذا الحكم ، وأستسلموا  
لهذا المذهب ، وأهملوا الروية ، ونسوا من الفائدة ، لقد كان ارتفع من الدنيا نفع  
كثير ، وعلم غزير .

وأى زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالفضل ، وأولى بالتقديم ،  
من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية ، والدولة العباسية ، ثم زمان المتوكل على الله ،  
والناصر لدين الله ، والإمام الذي جل فكره ، وكثر شغله بتصفية الدين وتهذيبه ،  
وتلخيصه وتنقيحه ، وإعزازه وتأييده ، واجتماع كلمته ، ورجوع الفتنه . وقد  
سمعت من يقول - ويستشهد العيان القاهر ، والخبر المتظاهر - : مارأيت في زماننا  
من كفاة السلطان وولاته ، وأعوانه وحماته ، من كان يؤمل لملك ، ويتقدم  
في التأهب له ، إلا وقد كان معه من البذخ والتفخ ، ومن الصاف والعجب ، ومن  
الخيلاء ، ومن إفراط التغير للاولياء ، والتهمك على الخلفاء ، ومن سوء اللقاء ،  
مالا خفاء به على كاتب ولا على عامل ، ولا على خطيب ولا على أديب ، ولا على  
خاصي ولا على عامي .

جمعت - والحمد لله على النعمة فيك - بين التواضع والتعجب ، وبين الإنصاف  
وقلة التردد ، فلا يستطيع عدو معين ، ولا كاشع مسر ، ولا جاهل غبي ، ولا عالم  
مبرز ، يزعم أنه رأى في شمائلك وأعطائك - عند تتابع النعم ، وتظاهر المنن - تغيرا  
في لقاء ولا في بشير عند المساءلة ، ولا في إنصاف عند المعاملة ، واحتمال عند  
المطاوله . الأمر واحد ، والخلق دائم ، والبشر ظاهري ، والمجج ناقي ، والأعمال



زَاجِحِهِ ، وَالنَّفُوسَ رَاضِيَهُ ، وَالْعُيُونَ نَاطِقَةَ بِالْحَبَّةِ ، وَالصُّدُورَ مَأْهُولَةَ بِالْمُودَةِ ،  
وَالدَّاعِيَ كَثِيرَ ، وَالشَّاكِيَ قَلِيلَ ، وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَزْدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِالتَّوَّاضِعِ نُبْلًا ،  
وَبِالْإِنصَافِ فَضْلًا ، وَبِحَسَنِ اللَّقَاءِ مَحَبَّةً ، وَبِقِلَّةِ الْعُجْبِ هَيْبَةً .

وقال سهل بن هرون في دعائه لبعض من كان يعتني بشأنه : اللهم زدّه من  
الخيرات ، وأبسّط له في البركات ، حتّى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه ،  
مقصراً عن فضيلة غده . وقال في هذا المعنى أعشى همدان ، وهو من المخضرمين :

رَأَيْتَكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ \* وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرَ مَنْكَ أَمْسِ ،

وَبَعْدَ غَدٍ تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا \* كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبِيدِ شَمْسِ !

قد والله أنعم الله عليك وأسبغ ، فاشكر الله وأخلص ، محتدك شريف ، وأرومتك  
كريمة ، والعرق منجب ، والعدد دثر ، والأمر جميل ، والوجه حسان ، والعقول  
رزان ، والعفاف ظاهر ، والذكر طيب ، والنعمة قديمة ، والصنعة جسيمة ،  
وما مثلكم إلا كما قال الشاعر :

إِنَّ الْمَهَالِيَةَ الْكِرَامَ تَحْمَلُوا \* دَفَعَ الْمَكَارِهِ عَنْ ذَوِي الْمَكْرُوهِ ،

زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ \* وَكَرِيمَ أَخْلَاقٍ بِحُسْنِ وُجُوهِ !

النعمة محفوظة بالشكر ، والأخلاق مقومة بالأدب ، والكفاءة محفوفة بالحدق ،  
والحدق مردود إلى التوكل ، والصنع من وراء الجميع إن شاء الله .

هذا إلى ما ألبسك الله من القبول ، وغشاك من المحبة ، وطوقك من الصبر .  
فبقي الآن أن تشتهي ما أنت فيه شهوة في وزن هذه المرتبة ، وفي مقدار هذه المترلة ؛  
فإن الرغبة وإن قويت ، والرغبة وإن آشتدت ، فإنهما لا يثمران من النشاط ،

وَيُنْتِجَانِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ وَالْكَدِّ ، مَا تُثْمِرُهُ الشَّهْوَةُ وَإِنْ ضَعُفَتْ ، وَالْحَرَكَةُ  
مِنْ ذَاتِ النَّفْسِ وَإِنْ قَلَّتْ ، لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْمَحُ بِمَكُونِهَا كُلَّهُ ، وَتُجُودُ بِمَخْرُوجِ  
قُوَّاهَا أَجْمَعٍ ، إِلَّا بِالشَّهْوَةِ دُونَ كُلِّ عِلَّةٍ مُحَرِّكَةٍ ، وَكُلِّ سَبَبٍ مُهَيِّجٍ .

قال يحيى بن خالد الجعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة ، وتكلف النهوض بأعباء  
الخِلافة : أَيُّ بُيٍّ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَجْزَ : لِعَظِيمِ مَا تَقَلَّدْتَ ، وَجَسِيمِ مَا تَمَلَّمتُ .  
إِنِّي لَسْتُ أَمْرُؤُ أَنْ تَتَفَسَّخَ تَحْتَ نِقْلِهَا تَفْسُخَ الْجَمَلِ تَحْتَ الْجَمَلِ التَّقْيِيلِ .  
قال جعفر : لِكِنِّي أَرْجُو الْقُوَّةَ ، وَأَطْمَعُ أَنْ أُسْتَقِيلَ بِهَذَا الثَّقَلِ وَأَنَا مُبْتَهِلٌ غَيْرِ  
مَهْبُورٍ ، وَأَجِيءُ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَأَنَا ثَانِي . يقول : وَأَنَا ثَانِي عِنَايَ ، لِأَنِّي لَمْ أَجْهَدْ  
فَرَسِي رَكْضًا . قال يحيى : إِنْ لَكُلِّ رَجَاءٍ سَبَبًا ، فَمَا سَبَبُ رَجَائِكَ ؟ قال :  
شَهْوَتِي لِمَا أَنَا فِيهِ ، وَالْمُشْتَهَى لِلْعَمَلِ لَا يَجِدُ مِنَ أَلَمِ الْكَدِّ مَا يَجِدُهُ الْعَسِيفُ الْأَسِيفُ .  
قال يحيى : إِنْ نَهَضْتَ نِقْلَهَا فِيهِذَا ، وَإِلَّا فَلَآ . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ شَهْوَتَكَ  
إِلَى حُبِّ ذَلِكَ ، وَهَوَاكَ إِلَى الْإِحْتِفَازِ بِنِعْمَتِكَ : بِشُكْرِ الْمُصْلِحِينَ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ  
العالمين .

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَأَبْتِدَائِهِ ، وَمِنْ صَنَائِعِهِ وَأَخْتِيَارِهِ ؛  
أَنْ يُخْرِجَ عَلَى أَدْبِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَعَلَى تَثْقِيفِهِ وَتَقْوِيمِهِ ؛ وَأَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ فِيهِ الْأَمَلَ ،  
وَيُخْرِجَ فِيهِ الطَّمَعَ ، وَأَنْ يَمُدَّ لَهُ فِي السَّلَامَةِ ، وَيُجْزِلَ لَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ ؛ وَيُطَيِّبَ ذِكْرَهُ ،  
وَيُعَلِّي كَعْبَهُ ؛ وَيُسِّرَ صَدِيدَهُ ، وَيَكْبِتَ عَدُوَّهُ .



وهذه نسخة رسالة تسمى الإغريضية ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن  
سليمان المعري التنوخي إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ، وهي :

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ الْإِعَانَةُ] <sup>(١)</sup> .

السلام عليك أيتها الحكمة المغربيه ، والألفاظ العربيه ؛ أى هواء رقادك ، وأى  
غيث سقائك ؛ برقه كالإحريض ، وودقه مثل الإغريض ؛ حلت الرّبوه ، وجلت  
عن الهبوه ؛ أقول لك ما قال أخو نمير ، لفتاة بنى عمير :

زَكَا لَكَ صَالِحٌ وَخَالِكٌ دَمٌ \* وَصَبَّحِكَ الْإِيْمَانُ وَالسُّعُودُ!

لأننا أسف على قريك من الغراب المجازي ، على حسن الرّي ؛ لما أفقر ، ورب  
السفر ؛ فقدم جبال الروم فى تو ، أنزل البرس من الجوّ ؛ فأنفت <sup>(٢)</sup> إلى عطفه وقد شبط  
فأسى ، وترك النعيب أو نسي ؛ وهبط إلى الأرض فمشى فى قيد ، وتمل بيت دريد :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ ، \* فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ : أَبْعِد!

وأراد الإياب ، فى ذلك الجلباب ؛ فكره الشّمت ، فكمد حتى مات ؛ وربّ ولى  
أغرق فى الإكرام ، فوقع فى الإبرام ؛ لإبرام السّام ، لإبرام السّلم ؛ فخرس الله سيدنا  
حتى تدغم الطاء فى الماء ، فتلك حراسة بغير انتهاء ؛ وذلك أن هذين ضدّان ، وعلى  
التضادّ متباعدان ، رخو وشديد ، وهادٍ وذو تصعيد ؛ وهما فى الجهر والهمس ،  
بمثلة غيد وأمس ؛ وجعل الله ربّته التى كالفاعل والمبتدا ، نظير الفعل فى أنها  
لا تنخفض أبدا ؛ فقد جعلنى : إن حضرت عرف شانى ، وإن غبت لم يجهل  
مكاني ؛ كما فى النداء ، والمخدوف من الابتداء ؛ إذا قلت : زيد أقبل ، والإيل  
الإيل ؛ بعد ما كنت كهاء الوقف إن ألقيت فيواجب ، وإن ذكرت فغير لازب .

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريضية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب .

(٢) البرس القطن ، والمراد الثلج الشبيه به .

إني وإن غَدَوْتُ [ في زمان<sup>(١)</sup> ] كثير الدد ، كهاء العَدَد ، لَزِمَتِ المَدَّكَر ، فَاتَتْ  
بالمُنْكَر ، مع إلف يَرَانِي في الأَصْلِ ، كَأَلِفِ الوَصْلِ ، يَدُ كُرْنِي بغير التَّنَاء ، وَيَطْرَحُنِي  
عند الأَسْتِغْنَاء ، وحال كالمهمزة تُبَدَّلُ العَيْن ، وتُجْعَلُ بَيْنَ بَيْنَ ، وتكون تارة حرف لين ،  
وتارة مثل الصَّامِتِ الرِّصِين ، فهي لا تُثَبَّتُ على طَرِيقِهِ ، ولا تُدْرِكُ لها صورة  
في الحَقِيقَةِ ، ونَوَائِبُ الحَقِيقَةِ الكَبِيرِ بالصَّغِيرِ ، كأنها ترخيم التَّصْغِيرِ ، رَدَّتِ المُسْتَحْلِسَ  
إلى حُلَيْس ، وقَابُوسًا إلى قُبَيْس ، لَأَمَدَنَّ صَوْتِي بتلك الآلاء ، مَدَّ الكُوفِي صَوْتَهُ  
في هُوَلاء ، وأخَفَّفَ عن حَضْرَةِ سَيِّدِنَا [الوزير<sup>(١)</sup>] الرَّبِيسِ الحَبْرَ ، تَخْفِيفَ المَدَنِيِّ ما قَدَّرَ  
عليه من التَّبَرِّ ، إن كَاتَبْتُ فَلَسْتُ مُلْتَمِسَ جَوَابٍ ، وإن أَسْهَبْتُ في الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَالِبَ  
تَوَابٍ ، حَسْبِي ما لَدَيْ من أَيَدِيهِ ، وما عَمَّرَ من فَضْلِ السَّيِّدِ الأَكْبَرِ أَسِيهِ ، أدام الله  
لها القَدْرَ ما دام الضَّرْبُ الأوَّلُ مِنَ الطَّوِيلِ صَحِيحًا ، والمُنْذِرُحُ خَفِيفًا سَرِيحًا ،  
وَقَبَّضَ اللهُ يَمِينِ عَدُوِّهِمَا عن كُلِّ مَعْنٍ ، قَبَّضَ العَرُوضِ من أوَّلِ وَزْنٍ ، وَجَمَعَ لَهُ  
المَهَانَةَ إلى التَّقْيِيدِ ، كما جَمَعَا في ثَانِي المَدِيدِ ، وَقَلَمَ قَلَمَ الفَسِيطِ ، وَخَيْلَ كُسْبَاعِي  
البَّسِيطِ ، وَعَصَبَ [الله<sup>(١)</sup>] الشَّرْبَهَامَةَ شائِبَهُمَا وهو مَجْزُوقٌ ، عَصَبَ الوَافِرِ الثَّالِثِ وهو  
مَجْزُوقٌ ، بَلْ أَصْمَرَنَهُ الأَرْضُ إِضْمَارَ ثَالِثِ الكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمْلُ الأَمِلِ ، وسَلِمَ سَيِّدَانَا  
أَعَزَّ اللهُ نَصْرَهُمَا ومن أَحْبَاهُ وَقَرَّبَاهُ سَلَامَةً مُتَوَسِّطِ المَجْمُوعَاتِ ، فإنه آمِنٌ من  
المُرُوعَاتِ ، فقد أَفْتَنَتْ في نِعْمِهِمَا الرَّائِعَةِ ، كَافْتِنَانِ الدَّائِرَةِ الرَّائِعَةِ ، وذلك أَنَّهُ أُمُّ سِتَّةِ  
مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةِ مَفْقُودِينَ .

وأنا أعد نفسي مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الجَلِيلَةِ عِدَّةَ ثُرَيَّا اللَّيْلِ ، وَثُرَيَّا سُهَيْلٍ ،  
هَذِهِ القَمَرُ ، وَتِلْكَ عُمَرُ ، وَأَعْظَمُهُ في كُلِّ وَقْتٍ ، إِعْظَامًا في مِقَّةٍ وَبَعْضُ الإِعْظَامِ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

في مَقْت ؛ فقد نَصَبَ لِأَدَابِ قُبَّةِ صَارِ الشَّامِ فِيهَا كَشَامَةَ المَعِيبِ ، وَالعِرَاقِ كَعِرَاقِ  
الشَّعِيبِ ؛ أَحَسَبَ ظِلَالُهَا مِنَ البُرْدَيْنِ ، وَأَغْنَتِ العَالَمَ عَنِ المُنْدِينِ ؛ هِنْدِ الطَّيِّبِ ،  
وَهِنْدِ النَّسِيبِ ؛ رَبَّةِ انْحِمَارِ ، وَأَرْبَابِ قِمَارِ ؛ أَخْدَانِ النَّجْرِ ، وَخَدِينَةَ المَجْرِ .  
مَاحِمِلَةَ طَوْقٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَبُرْدٍ مِنَ المُرْتَبِعِ مَكْمُوفِ الذَّيْلِ ؛ أَوْفَتِ الأَشْيَاءُ ، فَقَالَتْ  
لِلْكَئِيبِ مَا شَاءَ ؛ تُسَمِعُهُ غَيْرَ مَفْهُومِ ، لَا بِالرَّمْلِ وَلَا بِالمَزْمُومِ ؛ كَأَنَّ سَجِيعَهَا قَرِيبُ ،  
وَمُرَاسِلُهَا الغَرِيبُ ؛ فَقَدَ مَا دَلَّ شَجْوَهَا العُودَ ، وَفَقِدَ مَا لَا يَعودُ ؛ تَدْبُ هَدْيَ الآفَاتِ ،  
وَأَتِيحُ لَهُ بَعْضُ الآفَاتِ - بِأَشْوَقَ إِلَى هَدْيِهَا مِنَ عَبْدِهِ إِلَى مُنَاسِمَةِ أَنبَائِهِ ، وَلَا أَوْجَدَ  
عَلَى إِفْهَامِهَا مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فَنَائِهِ ؛ وَلَيْسَتْ الأَشْوَاقُ ، لِذَوَاتِ الأَطْوَاقِ ؛ وَلَا عِنْدِ  
السَّاجِمِ ، عِبْرَةٌ مُتَرَاجِعِهِ ؛ إِنَّمَا رَأَتْ الشَّرْطَيْنِ ، قَبْلَ البُطَيْنِ ؛ وَالرِّشَاءِ ، بِمَدِّ  
العِشَاءِ ؛ فَخَكَّتْ صَوْتِ المَاءِ فِي الخَرِيرِ ، وَأَتَتْ بَرَاءَ دَائِمَةِ التَّكْرِيرِ ؛ فَقَالَ جَاهِلٌ  
فَقَدَّتْ حَمِيماً ، وَنَكَلْتُ وَلَدًا كَرِيمًا : وَهَيْهَاتَ يَا بَاكِئَةً أَصْبَحْتَ ، فَصَدَحْتَ ؛  
وَأَمْسَيْتَ ، فَتَنَاسَيْتَ ؛ لَا هَمَّامٍ لَا هَمَّامٍ ، مَا رَأَيْتُ أَعْجَبَ مِنْ هَاتِفِ الحَمَامِ ؛ سَلِمَ  
فَنَاحَ ، وَصَمَّتْ وَهُوَ مَكْسُورِ الجَنَاحِ ؛ إِنَّمَا الشُّوقُ لِمَنْ يَدِّ كَرَفِي كُلِّ حِينِ ، وَلَا يُدْهِلُهُ  
مُضِيُّ السَّنِينِ .

وسيدنا الوزير أطال الله بقاءه القائل النظم في أدكاء مثل الزهر ، وفي النقاء مثل  
الجوهر ؛ تَحَسَّبُ بِأَدْرَتِهِ التَّاجَ ، أَرْتَفَعَ عَنِ الجِجَاجِ ؛ وَغَارَتِهِ الجِجَلُ ، فِي الرَّجْلِ ؛ يَجْمَعُ  
بَيْنَ اللَّفْظِ القَلِيلِ ، وَالمَعْنَى الجَلِيلِ ؛ جَمَعَ الأَفْعَوَانَ فِي لُغَايِهِ بَيْنَ القَلْبِ ، وَفَقَدَ اليَسْلَةَ ؛  
خَسُنَ ، فَخَسُنَ ؛ وَلَانَ ، فَهَانَ ؛ لِينُ الشَّكِيرِ ، يَدُلُّ عَلَى عِتْقِ المِحْضِيرِ ، وَحَرَشُ  
الدِّينَارِ ، آيَةُ كَرَمِ النَّجَارِ ؛ فَصُنُوفِ الأَشْعَارِ بَعْدَهُ كَأَلْفِ السَّلَامِ ، يُلْفِظُ بِهَا فِي الكَلَامِ ،  
وَلَا تَثْبُتُ لَهَا هَيْئَةٌ بَعْدَ اللَّامِ ؛ خَلَصَ مِنْ سَبِكِ النَّقْدِ خُلُوصَ الذَّهَبِ ، مِنَ اللَّهَبِ ؛  
وَالجَبِينِ ، مِنْ يَدِ القَيْنِ ؛ كَأَنَّهُ لَالَ ، فِي أَعْنَاقِ حَوَالِ ؛ وَسِوَاهُ لَطُ ، فِي عُنُقِ نَطُ ؛

ما خانتَهُ قُوَّةُ الخاطرِ الأَمِينِ ، ولا عيبَ بَسْنَادٍ ولا تَضَمِينِ ؛ وأينَ النَّثْرَةُ ، من العَثْرَةِ ؛ والغَرْقَدُ ، من الفَرْقَدِ ؟ ؛ فالسَّاعِي في أثرِهِ فارسٌ عَصَا بَصِيرٍ ، لا فَارِسٌ عَصَا قَصِيرٍ .

وأنا نائِتٌ على هَـذِهِ الطَّوِيَّةِ ثَبَاتَ حَرَكََةِ البِنَاءِ ، مُقِيمٌ تِلْكَ التَّمَاهِدَةَ بغيرِ اسْتِثْنَاءٍ ؛ غَنِيٌّ عَنِ الأَيْمَانِ فَلَا عَدَمٍ ، مُقْسِمٌ عَلَى ما قَلْتُ فَلَاحِنْتُ ولا نَدَمٍ ؛ وَإِنَّمَا تُحِبُّا الدَّرَّةَ ، لِلحَسَناءِ الحُزَّةِ ؛ وَيُجَادُ بِالْيَمِينِ ، في العَلَقِ الثَّمِينِ ؛ ما أَنْفَسَهُ خَاطِرًا آمَتْرَى الفِضَّةِ ، من القِضَّةِ ؛ وَالوَصَاهُ ، من مِثْلِ الحِصَاةِ ؛ وَرُبَّمَا نَزَعَتِ الأَشْبَاهُ ، ولم يُسَبِّهِ المَرءُ أباهُ ؛ ولا غَرَّو لَدَلِكُ : الحُضْرَةُ أم اللَّهِيبِ ، وَالنَّجْمَةُ بِنْتُ الغَرِيْبِ .

وكذلك سَيِّدُنَا وَلَدٌ من سِحْرِ المَتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةٌ لِحُفْنَاءِ المَتَدَيِّبِينَ ؛ كَمَ لَهُ من قافيةِ تَنَبُّي السُّودِ ، وَتَنَبُّي الحَسُودِ ؛ كَلِمَتِ ، من شُرْبِ العاتِقةِ الكَمِيَّتِ ؛ نُشُورِهِ قَرِيبِ ، وَحِسَابُهُ تَثْرِيْبِ ؛ أينَ مُشَبَّهُو النَّسَاقَةِ بِالقَدَنِ ، وَالصَّحَّصِجِ بِرِداءِ الرَّدَنِ ؛ وَجَبَّ الرَّحِيلِ ، عَنِ الرَّبْعِ المُحِيلِ ؛ نَسَأَ بَعْدَهُمِ وَأَصِفَ ، غُودِرَ رَأُلِهِ كَلَمًا نَاصِفِ ؛ إِذا سَمِعَ الخافِضُ صِفَتَهُ لِسَهْبِ الفَسِيحِ ، وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ ، وَدَّ أَنْ حَشِيَّتَهُ بَيْنَ الأَحْناءِ ، وَخَلُوقِهِ عَصِيمِ الهِناءِ ؛ وَحَلَمَ بِالقُودِ ، في الرُّقُودِ ؛ وَصاغَ بُرَى ذَوَاتِ الأُرْسَانِ ، من بُرَى البِيضِ الحِسانِ ؛ شَسَنَفًا لُدَّرَ النُّحُورِ ، وَعُيُونِ الحُورِ ؛ وَشَغَفًا بَدَّرَ بَكَى ، وَعَيْنِ مِثْلِ الرُّكِيِّ ؛ وَإِعْرَاضًا عَنِ بُدُورِ ، سَكَنَ في الخُدُورِ ؛ إِلى مُحُولِ ، كَأَهْلَةِ المُحُولِ ؛ فَهِنَّ أَشْبَاهُ القَيْسِيِّ ، وَنَعَامِ النَّبِيِّ ؛ وَإِنْ أَخَذَ في نَعَتِ [ الخَلِيلِ ]<sup>(١)</sup> فَيَاخِيَّةِ من سَبِّهِ<sup>(٢)</sup> الأَوَايدِ بِالتَّقْيِيدِ ، وَشَبَّهَ الخافِرَ بِقَعْبِ الوَلِيدِ ؛ نَعَتًا غَبَطَ بِهِ الهَجِيْنَ المُنْشُوبِ ، وَالبَازِيَّ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حوائجها . وفي الأصل شبه بالشين .

الْيَعْسُوبُ ؛ إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ ، مَا لَيْسَ لِكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصَّغَرِ ، سَمِيَّ بِعِضِ الْغُرْرِ ؛ وَقَدْ مَضَى حَرَسٌ ، وَخَفَّتْ جَرَسٌ ؛ وَلِلْقَالِيعِ ، أَبْغَضُ طَالِيعٍ ؛ وَالْأَزْرَقِ ، يُجَنَّبُكَ عَنْهُ الْفَرَقُ .

فَالآنَ سَأَمِتِ الْجَبْهَةَ مِنَ الْمَعْضِ ، وَشَمِلَ بَعْضَهَا بَرَكَاتُ بَعْضٍ ؛ فَأَيُّقِنِ التَّطْيِيحَ ، أَنَّ رَبَّهُ لَا يَطْيِحُ ؛ وَالْمَهْقُوعَ ، نَجَاءَ رَاكِبِهِ مِنَ الْوُقُوعِ ؛ فَلَنْ يُحْرَبَ ، قَائِدُ الْمُقْرَبِ ؛ وَلَنْ يُرْجَلَ ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ ؛ وَالْعَابَ ، وَإِنْ لَحِقَ الْكِعَابُ ؛ فَإِنَّهُ نَاكِبٌ ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَاكِبِ . وَقَالَتْ حَيْفَانَةُ أَمْرِي الْقَيْسُ : الدَّبَاءُ ، لِرَاعِي الْمِبَاءِ ؛ وَالْأَنْفِيَّةُ ، لِلْقَدِيرِ الْكَفِيَّةِ ؛ تَقَمَّاعِي جَاعِلِ غُدْرَهَا كَقُرُونِ الْعُرُوسِ ، وَجَبْهَتِهَا كَمُحْدَفِ الثُّرُوسِ ؛ وَأَنَّى لِلِكِنْدِيِّ ، قَوَافٍ كَهَجْمَةِ السَّعْدِيِّ :

إِذَا أَصْطَكْتَ بِضَيْقِ حَجْرَتَاهَا \* تَلَاقِي الْعَسْجِدِيَّةَ وَاللَّطِيمُ !

فَالْقَسِيبُ ، فِي تَضَاعِيفِ النَّسِيبِ ، وَالشَّبَابُ فِي ذَلِكَ التَّشْبِيبِ ؛ لَيْسَ رَوِيَّهُ بِمَقْلُوبٍ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ ؛ قَدْ جَمَعَ أَلِيلَ مَاءِ الصَّبَا ، وَصَلِيلَ ظُمَاءِ الظُّبَا ؛ فَاَلْمِضْرَاعُ كَوَذِيلَةِ الْغَرِيبِ ، حَكَّتِ الزَّيْنَةَ وَالرَّيْبَةَ ؛ وَأَرَتِ الْحَسَنَاءُ سَنَاهَا ، وَالسَّمْعَجَةَ مَا عَنَاهَا ؛ فَأَمَّا الرَّاحُ فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَفَّتْ مِنَ الْهَرَمِ ، وَأَتَنَفَّتْ مِنَ الْكَرَمِ إِلَى الْكَرَمِ ؛ وَلَمْ تَرُضْ دِنَانُ الْعَقَّارِ ، بِلِبَاسِ الْقَارِ ؛ وَتَسْجُ الْعِنَاكِبِ ، عَلَى الْمَنَاكِبِ ؛ وَلا كُنْ تُكْسَى مِنْ وَثِي شِيَابَا ، وَيُجْعَلُ طِلَاؤُهَا زَرْيَابَا ؛ وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خَيْمَةَ بَغِيْطِ الْمِسْكِ جَارَهَا مِنَ الشَّيَامِ ، وَيُودُّ سَعْدُ الْأَخْيَبِيِّ أَنَّهُ سَعْدُ الْخِيَامِ .

وَوَقَفْتُ عَلَى "مُخْتَصَرِ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ" الَّذِي كَادَ بِسِمَاةِ الْأَبْوَابِ ، يُغْنِي عَنْ سَائِرِ الْكِتَابِ ؛ فَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ ، بِطِلَاءِ الْأَحْمَالِ ؛ وَقَلْبِ الْبَحْرِ ،

(١) فِي نَسْخَةِ أُخْرَى «مَنَاهَا» .

إلى قَلْبِ النَّجْرِ، وإِجْرَاءِ الْفُرَاتِ، في مِثْلِ الْأَنْحَرَاتِ؛ شَرَفًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرَّبِّ،  
وَكَفَى من أبنِ قُرَيْبٍ؛ وَدَلَّ على جَوَامِعِ اللُّغَةِ بالإيماءِ، كما دَلَّ الْمُضْمَرُ على ما طَالَ  
من الأسماءِ .

أقولُ في الإخبارِ: أَمَرْتُ أبا عَبْدِ الْجَبَّارِ؛ إِذَا أَضْمَرْتُهُ، عُرِفَ مَتَى قُلْتُ:  
أَمَرْتُهُ؛ وَأَبَلَّ من الْمَرِيضِ وَالْمُتَمَرِّضِ، بما أُسْقِطُ من شُهُودِ الْقَرِيضِ؛ كَأَنَّهُمْ  
في تِلْكَ الْحَالِ، شَهَدُوا بِالْحَالِ؛ عِنْدَ قَاضٍ، عَرَفَ أَمَانَتَهُمُ بِالْإِنْتِقَاضِ؛ عَلَى حَقِّ  
عَلِمِهِ بِالْعِيَانِ، فَاسْتَعْنَى فِيهِ عن كُلِّ بَيَانٍ .

وقد تَأَمَّلْتُ شَوَاهِدَ "إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ" فوجدتها عَشْرَةَ أَنْوَاعٍ في عِدَّةِ إِخْوَةِ  
الصَّدِّيقِ، لَمَّا تَطَاهَرُوا على غيرِ حَقِيقٍ؛ وَتَزِيدُ على العَشْرَةِ بواحدٍ، كَأَنَّ لِيُوسُفَ  
لم يكن بالشَّاهِدِ . والشَّعْرُ الْأَوَّلُ وإن كان سَبَبَ الْإِثْرَةِ، وَصَحِيفَةُ الْمَائِثَةِ؛ فإنه كَذُوبُ  
الْقَالَهِ، تَمُومُ الإِطَالَةَ؛ وَإِنَّ قِفَا نَبِكَ [على حُسْنِهَا]، وَقَدِمَ سِنِّهَا؛ لِنُقْرُبُ بِمَا يُبْطِلُ  
شَهَادَةَ الْعَدْلِ الرَّضَا، فَكَيْفَ بِالْبَغْيِ الْإِثْنِ؛ قَاتَلَهَا اللهُ عَجُوزًا لو كانت بَشْرِيَّةً،  
كانت من أَعْوَى الْبَرِيَّةِ . وقد تَمَادَى بِأبي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ الْجَهْدُ، في إِقَامَةِ  
الْأَشْهَادِ؛ حَتَّى أَتَسَدَّ رَجَزَ الضَّبِّ، وإن مَعَدًّا من ذلك لِحُدِّ مُغْضَبٍ؛ أَعْلَى فَصَاحَتِهِ  
يُسْتَعَانُ بِالْقَرَضِ، وَيُسْتَشْهَدُ بِأَحْشَاشِ الْأَرْضِ؟؛ ما رُوِيَ عَنْهُ في نَفِيرٍ، فما قولك  
في ضَبِّ دَائِمِي الْأُظْفِيرِ؟؛ وَمَنْ نَظَرَ في كِتابِ يَعْقُوبَ وَجَدَهُ كالمُهْمَلِ، إلا بابَ فَعَلٍ  
وَفَعَلٍ؛ فإنه مُؤَلَّفٌ على عَشْرِينَ حَرْفًا: سِتَّةَ مُدْلَقَةٍ، وَثَلَاثَةَ مُطَبَّقَةٍ؛ وَأَرْبَعَةَ من  
الحُرُوفِ الشَّدِيدَةِ، وواحدٍ من الْمَزِيدَةِ؛ وَنَفِيتَيْنِ: النَّاءِ وَالذَّالِ، وَأَنْحَرَمْتَعَالٍ؛  
وَالْأَخْتَيْنِ الْعَيْنِ وَالْحَاءِ، وَالشَّيْنِ مُضَافَةً إلى حَيْرِ الرَّاءِ. فَرَحِمَ اللهُ أبا يُوسُفَ لو عَاشَ  
لَفَاطَ كَمَدًا، أو أَحْفَاطًا حَسَدًا، سَبَقَ أبنِ السَّكِّيتِ ثم صَارَ السَّكِّيتُ، وَسَمَقَ ثم حَارَ  
وَتَدًّا لِلبَيْتِ؛ كان الكَتَّابُ تِبرًا في تِرابٍ مَعْدِنٍ، بَيْنَ الْحُثِّ وَبَيْنَ الْمُتَدَّنِ؛ فَاسْتَخْرَجَهُ



سَيِّدَنَا وَأَسْتَوْشَاهُ ، وَصَقَلَهُ فِكْرُهُ وَوَشَّاهُ ؛ فَغَبَطَهُ النَّيْرَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ ، وَالْأَلِ النَّقِيشِ ؛  
فَهُوَ مَحْبُوبٌ لَيْسَ يَهِينُ ، عَلَى أَنَّهُ ذُو وَجْهَيْنِ ؛ مَا نَمَّ قَطُّ وَلَا هَمَّ ، وَلَا نَطَقَ وَلَا أَرَمَ ؛  
فَقَدْ نَابَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الصِّمِيمِ ، مَنَابَ مِرَاةِ الْمُنَجِّمِ فِي عِلْمِ التَّنَجِيمِ ؛ تَخَضُّعًا ضَيْلُ  
مَأْمُومٍ ، وَفِيهَا الْقَمَرَانِ وَالنُّجُومِ .

وأقولُ بعدُ في إعادة اللَّفْظِ : إِنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ فِي ذِكْرِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ ، كَالْتَجْمَعِ  
فِي النَّكْحِ بَيْنِ الْأَخْتَيْنِ ؛ الْأُولَى حِلُّ يُرَامُ ، وَالثَّانِيَةُ بَسَلٌ حَرَامٌ ؛ كَيْفَ يَكُونُ  
فِي الْهُدُوجِ لِمَيْسَانَ ، وَفِي السَّبَّةِ نَحْمِيسَانَ ؛ يَا أُمَّ الْفَتَيَاتِ حَسْبُكَ مِنَ الْهُنُودِ ، وَيَا أَبَا  
الْفَتَيَانِ شَرُّكَ مِنَ السُّعُودِ ؛ عَلَيْكَ أَنْتِ بَزِينَبَ وَدَعْدُ ، وَسَمَّ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِسَيُوسَى سَعْدُ ؛  
مَا قَلَّ أَثِيرُ ، وَالْأَسْمَاءُ كَثِيرُ .

مَثَلٌ يَعْقُوبَ مَثَلُ خَوْدِ كَثِيرَةِ الْحَلِيِّ ضَاعَفَتْهُ عَلَى التَّرَاقِ ، وَعَطَلَتْ الْخَصْرَ وَالسَّاقِ ؛  
كَانَ يَوْمٌ قَدُومٌ تِلْكَ النُّسَخَةِ يَوْمَ ضَرِيبِ حَشْرِ الْوَحْشِ مَعَ الْإِنْسِ ، وَأَضَافَ  
الْحِنْسَ إِلَى غَيْرِ الْحِنْسِ ؛ وَلَمْ يَحْكَمْ عَلَى الطَّبَّاءِ ، بِالسَّبَاءِ ؛ وَلَا رَمَى الْآجَالَ ، بِالْأَوْجَالَ ؛  
وَلَكِنَّ الْأَضْدَادَ تَجْتَمِعُ ، فَتَسْتَمِعُ ؛ وَتَتَصَرَّفُ بِلَذَاتِ ، مِنْ غَيْرِ أَدَاةٍ ؛ وَإِنْ عَبَدَهُ  
مُوسَى لِقَيْنِي نِقَابًا ، فَقَالَ : هَلُمَّ كِتَابًا ؛ يَكُونُ لَكَ شَرَفًا ، وَبُؤَالَاتِكَ فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا  
- أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - مُعْتَرِفًا ؛ فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا  
وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ . وَأَحْسَبُهُ رَأَى نُورَ السُّؤُودِ فَقَالَ لِمُخَلَّفِيهِ ،  
مَا قَالَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَهْلِيهِ ؛ : ﴿ إِنِّي آتَيْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ  
أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ . فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا يَطْلُبُ ؟ أَقَبَسَ ذَهَبٌ ؟ أَمْ قَبَسَ  
لَهَبٌ ؟ بَلْ يَتَشَرَّفُ بِالْأَخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ ، وَيَتَبَرَّكُ بِالْأَحْسَابِ الطَّاهِرَةِ .

(١) السَّبَّةُ الزَّمَنُ مِنَ الذَّهْرِ ، وَلَعَلَّهُ يَرِيدُ بِهَا الْأَسْبُوعَ كَمَا جَاءَ فِي شَرْحِ رِسَالَةِ الْمَعْرَى الْمَوْجُودَةِ  
بِدَارِ الْكُتُبِ السُّلْطَانِيَّةِ .

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلِي يَهْتَسِنُ لَهَا \* جَزَلَ الْجَدَا غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ!

وقد آب من سَفَرِهِ الْأُولَى ومعه جَدْوَةٌ من نَارٍ قَدِيمَةٍ : إِنْ لُمِسْتُ فَنَارُ إِبْرَاهِيمَ ،  
أَوْ أُونِسْتُ فَنَارُ الْكَلِيمِ ؛ وَاجْتَنَى بِهَارًا حَبَّتْ بِهِ الْمَرَاذِبَةُ كَسْرِي ، وَمَحَلٌ فِي فَكَاكِ  
الْأَسْرَى ؛ وَأَدْرَكَ نُوحًا مَعَ الْقَوْمِ ، وَبَقِيَ غَضًّا إِلَى الْيَوْمِ ؛ وَمَا أَتَّعَجَّ مُوسَى إِلَّا الرُّوَصَ  
الْعَمِيمَ ، وَلَا أَتَّبَعَ إِلَّا أَصْدَقَ مُقِيمٍ ؛ وَوَرَدَ عَبْدَهُ الرَّهْيَرِيُّ مِنْ حَضْرَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ وَكَانَتْ  
زَهْرَةً بَقِيْعٍ ، أَوْ وَرْدَةً رَبِيعٍ ؛ كَثِيرَةُ الْوَرَقِ ، طَيِّبَةُ الْعَرَقِ ؛ وَليْسَ هُوَ فِي نِعْمَتِهِ كَالرَّيْمِ ،  
فِي ظِلَالِ الصَّرِيمِ ؛ وَالجَّابِ ، فِي السَّحَابِ الْمُتَجَابِ ؛ لِأَنَّ الظَّلَامَ يَسْفِرُ ، وَالغَمَامَ  
يَسْفِرُ ؛ وَلِكِنَّهُ مِثْلُ النُّونِ فِي الْجَمَّةِ ، وَالْأَعْفَرِ تَحْتِ جَرِيهِ .

وقد كُنْتُ عَرَفْتُ سَيِّدَنَا فِي مَا سَلَفَ أَنَّ الْأَدَبَ كَعُهُودٍ فِي غَيْبِ عَهُودٍ ، أَرَوْتُ  
التَّجَادَ فَمَا ظَنَنْتُكَ بِالْوُهُودِ ؟ ؛ وَأَنَّى نَزَلْتُ مِنْ ذَلِكَ الْغَيْثِ بِلَدِّ طَسَمٍ ، كَأَثَرِ الْوَسْمِ ؛  
مَنْعَهُ الْقِرَاعُ ، مِنْ الْإِمْرَاعِ ؛ يَا بُوسَ ، بَنِي سُدُوسِ ؛ الْعَدُوُّ حَازِبُ ، وَالْكَلَاءُ  
عَازِبُ ؛ يَأْخِضِبُ بَنِي عَبْدِ الْمَدَانِ ، ضَانٌّ فِي الْحُرْبِ بِيْتِ وَإِبِلٌ فِي السَّعْدَانِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ  
ذَلِكَ أَتَّعَبْتُ الْأَظْلَمَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الْحَنْظَلَ ؛ فَلَيْسَ فِي اللَّيْبِ ، إِلَّا الْهَيْبُ ؛ جَنَيْتُهُ مِنْ  
شَجَرَةٍ أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . لَبَنُ الْإِبِلِ عَنِ الْمُرَارِ مُرٌّ ، وَعَنِ  
الْأَرَاكِ طَيِّبٌ حَرٌّ .

هَذَا مِثْلِي فِي الْأَدَبِ . فَأَمَّا فِي النَّشْبِ ؛ فَلَمْ تَزَلْ لِي بِمُحَمَّدِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِقَاءِ سَيِّدِنَا  
بُلْغَتَانِ : بُلْغَةُ صَبْرٍ ، وَبُلْغَةُ وَقْرٍ ؛ أَنَا مِنْهُمَا بَيْنَ اللَّيْلَةِ الْمَرْعِيَّةِ ، وَاللَّقُوجِ الرَّبِيعِيِّ ؛ هَذِهِ  
عَامٌ ، وَتِلْكَ مَأَلٌ وَطَعَامٌ ؛ وَالْقَائِلُ ؛ سُلِّمَ إِلَى الْجَلِيلِ ؛ كَالْمُصَلِيِّ يُرِيغُ الضَّمُوءَ ، بِإِسْبَاغِ  
الْوَضُوءِ ؛ وَالتَّكْفِيرِ ، بِإِدَامَةِ التَّعْفِيرِ ؛ وَقَاصِدُ بَيْتِ اللَّهِ يَغْسِلُ الْحُوبَ ، بِطُولِ الشُّحُوبِ .

وأنا في مكتبة حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ، وَالْمَيْلِ عَنِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْأَجَلِّ وَالِدِهِ - أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ - كَسْبًا بِنِ يَعْرُبَ، لَمَّا أَبْتَهَلَ فِي التَّقَرُّبِ؛ إِلَى خَالِقِ النُّورِ، وَمُصَرِّفِ الْأُمُورِ، نَظَرَ فَلَمْ يَرَأْشَرِقَ مِنَ الشَّمْسِ يَدًا، فَسَجَدَ لَهَا تَعْبُدًا . وَغَيْرُ مُلُومٍ سَيِّدِنَا لَوْ أَعْرَضَ عَنِ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ الرَّبِيعِيِّ، وَمَدَائِحِ الْيَرْبُوعِيِّ؛ مَلًّا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدِ الْمُضَافِ إِلَى هَذَا الْأَسْمِ، فَغَيْرُ مُعْتَدِرٍ، مَنْ أَبْغَضَ لِأَجْلِهِمْ بَنِي الْمُنْذَرِ؛ وَهُمْ إِلَى حَضْرَتِهِ السَّنِيَّةِ رَجُلَانِ : سَائِلٌ، وَقَائِلٌ؛ فَأَمَّا السَّائِلُ فَالْحَ، وَأَمَّا الْقَائِلُ فَغَيْرُ مُسْتَمْلِحٍ؛ وَقَدْ سَتَرْتُ نَفْسِي عَنْهَا سِتْرَ الْخَيْصِ، بِالْقَمِيصِ؛ وَأَخِي الْهَيْتَرِ، بِسُجُوفِ السِّتْرِ؛ فَظَهَرَ لِي فَضْلُهُ الَّذِي مَثَلَهُ مَثَلُ الصُّبْحِ إِذَا لَمَعَ تَصَرَّفَ الْحَيَوَانُ فِي شُؤُونِهِ وَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ الْيَرْبُوعِ، وَبَرَزَ الْمَلِكُ مِنْ أَجْلِ الرُّبُوعِ، وَقَدْ يُوَلِّعُ الْهَجْرَسُ؛ بَانَ يَجْرَسُ؛ فِي الْبَلَدِ الْجَرْدِ، قُدَّامَ الْأَسَدِ الْوَرْدِ . وَإِنِّي خُبِرْتُ أَنَّ تِلْكَ الرَّسَالَةَ الْأُولَى عُرِضَتْ بِالْمُعْرِضِ الْكَرِيمِ : فَأَوْجَبَ ذَلِكَ رَحِيلَ أُخْتِهَا، مُتَعَرِّضَةً لِمِثْلِ بَحْتِهَا؛ وَكَيْفَ لَا تَنْفَعُ، وَفِي الْيَمِّ تَقَعُ؛ وَهِيَ بِمَقْصِدِ سَيِّدِنَا فَانْحَرَهُ، وَلَوْ نُهِيتِ الْأُولَى لَأَتَمَّتِ الْآخِرَةَ :

كَلِمَتِ الرَّسَالَةِ .



قُلْتُ : وَهَذِهِ رِسَالَةٌ أَنْشَأْتُهَا فِي تَقْرِيبِضِ الْمَقَرِّ الْكَرِيمِ الْفَتْحِيِّ، أَبِي الْمَعَالِي فَتَحَ اللَّهُ، صَاحِبِ دَوَاوِينِ الْإِنْسَاءِ الشَّرِيفِ بِالْأَبْيَارِ الْمَصْرِيَّةِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى مَعَالِيَهُ، فِي شَهْرِ سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ وَتَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْفَتْحَ مَحَطَّ رِحَالِ الْقَرَائِحِ الْجَائِدَةِ، وَمُسْتَقَرَّ نَوَاهَا، وَمُحِيطَ دَائِرَةِ الْأَفْكَارِ الْوَارِدَةِ، وَمَرْكَزَ شُعَاعِ كَوَاهَا، وَمَادَّةَ عَنَاصِرِ الْأَفْهَامِ الْجَائِلَةِ، وَعِيَادَ شِكِيمَةِ قَوَاهَا .

تجده على أن خص المملكة المصرية من إيداع سرها المصون بأوسع صدر رحيب ، وأنهض بتدبير مصالحها من إذا سرت كتاب كتبه إلى عدو أنشد من سدة الفرق : ففأ نبك من ذكرى حبيب ، وأقام لتصرتها بأسل الأفلام وصفاح المهاري من إذا طرقتها على البعد طارق تلا لسان يراعيه : ( نصر من الله وفتح قريب ) .  
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تسييرها برد الهداية إلى آفاق الأخلق فتشيد لفلاج الإيمان باقطار القلوب أركاناً ، وترقم أسرار شعائرها بنقش القبول في صحف الإقبال فتبدل داعيها بإذاعة خبرها من الإسرار إعلاناً ، وتدين بطاعتها ملوك المسالك النائية خضوعاً فتتخذ كتب رسائليها على المفارق بعد اللهم ينجانا ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل نبي سن المعروف ونذب إليه ، وأكرم رسول جعل خير بطاتي الملك التي تأمره بالخير وتحثه عليه ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين سلكوا في السير سبيله وأتبعوا في السيرة سننه وأقتفوا فيه سننه ، وأتبعوا في المعروف آثاره فتلا عليهم تالي الإخلاص : ( لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ) . صلاة تناقل على مر الزمان أخبارها ، ويتصدى لروايتها من الأمة على تمادي الدهر أخبارها ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن رياسة أهل الدول تتفاوت باعتبار قرب الرئيس من ملكه في مخاطبته ومناجاته ، وأعتياد تصرفه في أمور دولته وتنفيذ مهماته ، والاستناد على رأيه في جليل خطوبه وعظيم ملهاته :

فعال تبادت في العلو كائماً \* محاولاً تارة عند بعض الكواكب !

ولا خفاء أن صاحب ديوان الإنشاء من هذه الرتبة بالحل الأرفع ، والمترلة التي لا تدفع ولا تدفع ، والمقام الذي تفرّد بصدارته فكان كالمصدر لا يثنى ولا يجمع ؛

إذ هو كليم الملك ونجيسه ، ومقرب حضرته وحظيه ؛ بل عميد الملكة وعمادها ،  
وركنها الأعظم وسنادها ، حامي حومتها وسدادها ؛ وعقدتها المنسق ونظامها ، ورأس  
ذروتها العلياء وسنامها ؛ وجهينة خبرها ، وحقيبة وردها وصدرها ؛ ومبلغ أنبائها  
وسفيرها ، وزند رأيها المورى ومشيرها .

خَيْبَلًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَالْعُلَى \* وَحَيْهَلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدُدِ الْحَضِ!

هذا . وهو الواسطة بين الملك ورعيته ، والمتكفل لقصيمهم بدرك قصده وبلوغ  
بغيته ، والمُسعد للظلم من عزائم توقعياته بما يقضى بنصرتيه ؛ وحينئذ فلا يصلح  
لها إلا من كان مع كرم الخيم بارز الخيام لأصطناع المعروف ، ومع سمو الرتبة سامي  
الهمة لإغاثة الملهوف ؛ ومع عز الجنب لدى ملكه لين الجنب لدى المسأله ، ومع  
قربه بحضرة سلطانه قريبا من الرعية حتى من المسكين والأرمله .

وغير خاف أن كل وصف من هذه الأوصاف مع مقابله كالصدين اللذين  
لا يجتمعان بحال ، والتقيضين اللذين قضى العقل بأن الجمع بينهما محال ؛ وأنى يجتمع  
العالي والهابط ، والمترفع والساقط ؛ أم كيف تتصل الأرض بالسماء ، أو يقع  
أمتزاج عنصر النار بعنصر الماء ؛ ومن ثم عز هذا المطلب لهذه الوظيفة حتى إنه  
لأعز من الجوهر الفرد ، وقيل وجوده حتى لم يوجد إلا في الواحد القصد فلا تراه  
إن تراه إلا في حيز النادر ، ولا تظفر به إلا ظفرك بيض الأنوق إن كان يظفر به  
ظافره ؛ إلا أنه ربما سمح الدهر فأتى بالقصد من هذا النوع في الزمن المتباعد ، أو أسعد  
الدهر فأسعف بالواحد بعد ألف واحد .

ثم قد مضت برهة من الأيام وجيد ديوان الانشاء من نظر من هو متصف ببعض  
هذه الأوصاف عاقل ، والدهر يعد بمن يقوم فيه بتفريح كربة الملهوفين ولكنه  
يماطل :

يُرْفَهُ مَا يُرْفَهُ فِي التَّقَاضِي \* وَلَيْسَ لَدَيْهِ غَيْرَ الْمَطْلِ تَقْدًا!

إِلَى أَنْ طَلَعَ نِيرَ الزَّمَانِ وَتَوَسَّحَ شُرُوفَهُ ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ صَبَاحِهِ وَأَقْلَ بَطْلُوعِ السَّعْدِ  
عَيْوُفِهِ ؛ فَأَقْبَلَتِ الدَّوْلَةُ الظَّاهِرِيَّةُ بِسَعَادَتِهَا ، وَتَلَقَّتْهَا الأَيَّامُ النَّاصِرِيَّةُ جَارِيَةً مِنْهَا عَلَى  
وَفْقِ عَادَتِهَا ؛ وَوَفَّرَ لِلدَّوْلَتَيْنِ مِنْ آتِنَابِ الأَصْفِيَاءِ قِسْمَتَهَا ، وَمَحَضَّتْ لَهَا الرَّأْيَ  
الصَّائِبَ حَتَّى ظَهَرَتْ فِي الوُجُودِ زُبْدَتُهَا ؛ فَكَانَ خُلَاصَةَ أَصْطِفَائِهِمَا ، وَزُبْدَةَ  
آتِنَابِهِمَا ؛ الْمُقْتَرُ الأَشْرَفُ ، العَالِي ، المَوْلَوِيُّ ، القَاضِي ، الكَبِيرِيُّ ، السَّفِيرِيُّ ،  
المُشِيرِيُّ ، الفَتْحِيُّ ، نِظَامُ المَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ وَزِمَامُ سِيَاسَتِهَا ، وَمُنْقَدُّ أُمُورِهَا ، وَجَامِعُ  
رَأْسِهَا ؛ أَبُو المَعَالِي فَتْحُ اللهُ صَاحِبُ دَوَائِنِ الإِنشَاءِ الشَّرِيفِ بِالمَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ ،  
زَادَ اللهُ تَعَالَى فِي آرْتِقَائِهِ عَلَى تَعَاقِبِ الدُّوَلِ ، وَأَجْرَاهُ مِنْ خَفِيِّ اللُّطْفِ عَلَى أَجْمَلِ  
العَوَائِدِ وَقَدْ فَعَلَ ؛ فَالْقِيَّ إِلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ المَمْلُوكَةِ مَقَالِيدُهَا ، وَأَتَفَقَّتْ بِحُسْنِ سِفَارَتِهِ  
بِاتِّفَاقِ الرُّوَاةِ أَسَانِيدُهَا ؛ فَتَفَقَّدَتْ بِتَنْفِيذِهِ أُمُورُهَا ، وَكَلَّتْ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ كُسُورُهَا ؛  
بَحَرَتْ الأُمُورَ بِحُسْنِ تَدْيِيرِهِ عَلَى السَّدَادِ ، وَمَشَتْ الأَحْوَالُ بِلُطْفِ سِفَارَتِهِ عَلَى أُمَّتِ  
المُرَادِ ؛ وَأَعْتَرَفَتْ لَهُ الكَافَّةُ بِالسِّيَادَةِ فَاطَاعَتْ ، وَعَرَفَتْ لَهُ الرِّعِيَّةُ تَقَدُّمَهُ فِي الرِّاسَةِ  
فَرَعَتْ حُرْمَتَهُ وَرَاعَتْ .

وَإِنَّ أُمُورَ المَمْلُوكِ أَضْحَى مَدَارُهَا \* عَلَيْهِ كَادَارَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرَّحَى!

قَدْ اسْتَعْبَدَ انْخِطَ فَأَصْبَحَ لَهُ كَالْحَدِيمِ ، وَأَتَى مِنَ المَعْرُوفِ بِكَلِّ غَرِيبٍ فَانْسَى مِنْ  
أُثْرَعَنَةِ ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ القَدِيمِ ؛ فَلُورَاهُ « خَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ » لِأَجْمَعٍ عَنْ مَلَاقَاتِهِ عِظَمًا ،  
أَوْ نَازَاهُ « يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ » لِمَاتٍ مِنْ مُنَاوَأَتِهِ عَدَمًا ، أَوْ سَابَقَهُ « الفَضْلُ وَجَعْفَرُ »  
أَبْنَاهُ لِسَبْقِهِمَا كَرَمًا :

مَنَاقِبُ لَوْ أُنِّي تَكَلَّفْتُ نَسَجَهَا ، \* لَأَفْلَسْتُ فِي أَقْلَامِهَا وَمِدَادِهَا!

أو سمع به "الحسن بن سهل" لقطع إليه الحيزن والسهمل، أو بصره "الفضل"  
أخوه، لما رأى أنه للفضل أهل؛ أو عينه "أبو علي بن مقله" لعلم أنه فاقه حفظاً  
وخطاً، أو نظير "أبن هلال" إلى أهله نوناته لتتحقق أنه سبقه إلى تحرير هندسة  
الحروف وما أخطأ :

إِذَا أَخَذَ الْقِرطَاسَ خِلْتِ يَمِينَهُ \* تَفْتَحُ نُورًا أَوْ تُنظِّمُ جَوْهَرًا !

فإن تكلم أنى من بيانه بالسحر الحلال، أو حاوّر أنى من البلاغة بما يقصر عن  
رتبه "سبحان" في المقال، أو ترسل أعين "عبد الحميد" في رسالته، أو كتب رتعت  
من روض خطه في زهر نمانه :

يُؤَلِّفُ اللَّوْثُ الْمُنشُورَ مَنْطِقَهُ \* وَيَنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !

قرأيه السيف لا ما صنع الهند، وعقله الصارم لا ما استودع الغمد :

فَفِي رَأْيِهِ نُجْحُ الْأُمُورِ وَلَمْ يَزَلْ \* كَفَيْلًا بِإِرْشَادِ الْحَيَارَى مُوَفَّقًا !

أقلامه تترى بالصوارم وتهزأ بالأسل، وتجري بصلة الأرزاق فتريد على الأمانى  
وتربو على الأمل :

بِتْ جَارَهُ فَالْعَيْشُ نَحْتِ ظِلَالِهِ \* وَأَسْتَسْقِيهِ فَالْبَحْرُ مِنْ أَنْوَانِهِ !

فكارمه تغني من الإملاق، وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو والإشراق، وعطايه

تسير سير السحاب فتمطر الغيث على الآفاق :

كَرِيمٌ مَسَاعِي الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً \* مِنْ الشَّرْفِ الْأَعْلَى وَبَدَلِ الْفَوَاضِلِ !

قد خدمته الحظوظ وأسعدته الجُدود، وقسمت المنازل السنية فكان له منها

سعد السعود :

لو عدَّدَ النَّاسُ مَا فِيهِ لَمَا بَرِحَتْ \* تَبَيَّنَتِ الْخَوَاصِرُ حَتَّى يَنْفَدَ الْعَدَدُ!

فلو غرَّسَ الشُّوكَ أُمَمَرِ الْعِبَاءِ أُنَى أَرَادَهَا ، أَوْ حَاوَلَ الْعَنْقَاءَ فِي الْجَوِّ لَصَادَهَا ؛  
أَوْ زَرَعَ فِي السَّبَاجِ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَامَ وَالسَّنَةَ الْخِصْبَةَ ، وَلِضَوْعِفَتْ مُضَاعَفَةً  
حَسَنَاتِهِ فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبِيَّةٍ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبِيَّةٍ :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لَأَحْظَنَكَ عِيُونُهَا ، \* نَمَّ فَالْمَخَافُوفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ ،

وَأَصْطَدَّ بِهَا الْعَنْقَاءُ فَهِيَ حَبَائِلُ \* وَأَقْنَدَ بِهَا الْجَوْزَاءُ فَهِيَ عِنَانُ !

قَدْ لَيْسَ شَرْفًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَائِمِهِ ، وَتَقْمَصُّ مِنَ الْفَضْلِ جِلْبَابًا لَا تَنْتَطِعُ  
الْأَيَّامُ إِلَى نَزْعِهِ ؛ وَأَتَتْهُ إِلَيْهِ الْمَجْدُ فَوْقَ ، وَعَرَفَ الْكَرَّمَ مَكَانَهُ فَانْحَازَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ .

فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ يُبَارِيهِ :

نَالَتْ يَدَاهُ أَقَاصِي الْكَرَمِ الَّذِي \* مَدَّ الْحَسُودُ إِلَيْهِ بَاعًا ضَيْقًا !

فَمَنَّا قَبِيهِ تَسْبِقُ أَقْلَامَ الْكَاتِبِ ، وَتَسْتَعْرِقُ طَاقَةَ الْحَاسِبِ ؛ لَيْسَ لَأَرْتِفَاعِهَا غَايَةٌ ،  
وَلَا لَتُنْدَاوُلِهَا نِهَائِيَّةٌ ؛ فَلَا تُوفِي جَامِعَةً بِشَرْطِهَا ، وَلَا تُقَوِّمُ جَرِيدَةً بِسَطِطِهَا :

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ \* فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ !

قَدْ هَتَفَ بِمَدْحِهِ خُطْبَاءُ الْأَقْلَامِ عَلَى مَنَابِرِ الطُّرُوسِ ، وَنَطَقَتْ بِفَضْلِهِ أَفْوَاهُ الْمَخَابِرِ  
فُنَكَّسَتْ لِرِفْعَةِ قَدْرِهِ شَوَائِحُ الرُّؤُوسِ ؛ وَطَلَعَتْ فِي أَفْقِ الْمَهَارِقِ سُعُودٌ لِإِبَالَتِهِ السَّعِيدَةِ  
فَأَفَلَتْ لَوْجُودِهِ النُّجُوسِ ؛ وَرُقِمَتْ مَحَاسِنُهُ بِنَقِيسِ اللَّيْلِ عَلَى صَفْحَاتِ النَّهَارِ فَأَرْتَسَمَتْ ،  
وُحِمِلَتْ أَخْبَارُ مَعْرُوفِهِ فَتَرَا حَمَتِ الْآفَاقِ عَلَى أَنْتِشَاقِ أَرْجِ رِيحِهِ الْعَبْقَةِ وَأَسْتَهَمَتْ :

لَقَدْ كَرَّمَتْ فِي الْمَكْرَمَاتِ صِفَاتُهُ \* فَمَا دَخَلَتْ لَاءٌ عَلَيْهَا وَلَا إِلَّا !



أَتَفَقَّتِ الْأَلْسِنَةُ عَلَى تَقْرِيبِهِ فَمُدِحَ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ ، وَاسْتَعْرَقَتْ مَمَادِحُهُ الْأَزِمَنَةَ وَالْأَمَكِنَةَ فَاسْتَوَى شُكْرُهُ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ :

وَلَمْ يَخُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ \* وَلَمْ يَخُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَقِّقَرٍ !

عَلَى أَنِّي اسْتَقْبَلُ عَثْرَتِي مِنَ التَّقْصِيرِ فِي إِطْرَائِهِ ، وَالتَّعَرُّضِ مِنْ مَدْحِهِ لِمَا لَا أَنهَضُ بِأَعْيَانِهِ ، فَلَوْ أَنَّ « الْجَاهِظَ » نَصِيرِي ، وَ « أَبْنَ الْمُتَقَفِّعِ » ظَهِيرِي ، وَ « قَسَّ بْنَ سَاعِدَةَ » يَسْعِدُنِي ، وَ « سَعْبَانَ وَائِلِيلَ » يُخَيِّدُنِي ، وَ « عَمْرَو بْنَ الْأَهْمِ » يُرْشِدُنِي ؛ لَكَانَ اعْتِرَافِي بِالْعَجْزِ فِي مَدْحِهِ أبلغَ مِمَّا آتَيْهِ ، وَإِقْرَارِي بِالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهِ أَوْلَى مِمَّا أَصِفُهُ مِنْ تَوَالِي طَوْلِهِ وَأَيَادِيهِ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنْبِتٍ شَعْرَةٌ \* لِسَانًا يُطِيلُ الشُّكْرَ فِيهِ لِقَصْرًا !



وهذه نسخة رسالة للشيخ الإمام العالم معين الدين تاج العلماء، خطيب الخطباء، زين الأئمة، قُدوة الشريعة، الصدر أبي الفضل يحيى بن جعفر بن الحسين بن محمد الحاصري رحمه الله، سماها: «عَتَابَ الكُتَّابِ، وَعِقَابَ الألقَابِ، المُشْتَمَلَةِ عَلَى أَصُولِ الغريب والإغراب» وهي:

عَذِيرِي مِنْ وَزَرَاءِ النصبِ وَكُتَّابِهَا، وَكِبْرَاءِ الدُّسُوتِ وَأَرْبَابِهَا، وَأَوَانِحِي الدُّوَلِ وَأَطْنَابِهَا، وَنَوَابِ الدُّوَاوِينِ وَأَنْبِيَاءِهَا<sup>(١)</sup>؛ وَجِبَابَةَ بِيُوتِ الأموالِ، وَالسُّعَاةِ فِي زَمِّ نَسْرِ الأحوالِ؛ وَسَاسَةِ الممالكِ، وَصُحُفِ أَسْرَارِ المَالِكِ؛ الشَّامِحِينَ بِأَنْوَفِ التَّيْبِ والكِبْرِيَاءِ، وَالسَّاحِحِينَ دُيُولِ العُجْبِ وَانْحِيَاءِهَا، الرَّافِلِينَ فِي حُلِّ البهَاءِ، وَالغَافِلِينَ عَنِ فُرُوضِ العلاءِ؛ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا السُّودَّ مِنْ غَيْرِ سَدَادٍ، وَتَسَنَّمُوا الرَّتَبَ بِلا إِعْدَادٍ؛

(١) الأنياب جمع ناب وهو سيد القوم وكبيرهم.

فكأنهم الحاصب ، وعدوا لله المناصب ؛ شغلهم الأشر والفجور ، وكل على بسطته يجور ؛ همهم محج الأحرار ، وتنج الرياح بالماء القراح ؛ وأمتطاء المرء ، والعناق الجرد ؛ أملهم تنجيد الأفنيه ، وتشييد الأبنيه ؛ والزيادة في الرقيق والكرأع ، وانحول والأتباع ؛ وليس بغال ، كثرة خيل وبغال ؛ بما باعوه من الورع والديانة ، وأضاعوه من العفة والصيانة :

قَدْ مَلَكُوا الدُّنْيَا عَلَى عِزَّةٍ \* وَنَافَسُوا فِيهَا السَّلَاطِينَا !  
تَوَزَّعُوا الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ وَالْحَضْرَةَ وَالْإِسْلَامَ وَالدِّينَا ،  
شَادُوا بِأَعْمَالِهِمْ دُورَهُمْ \* وَأَخْرَبُوا فِيهَا الدَّوَاوِينَا ،  
عَفُوا وَمَا عَفُوا بِأَقْلَامِهِمْ \* مَسَاكِنًا تَحْوِي مَسَاكِينَا ،  
عَرَّتْهُمْ الدُّنْيَا بَانَ أَظْهَرَتْ \* عَنْ غِلْظَةٍ تُضْمِرُهَا لِينَا ،  
وَالدَّهْرُ كَمْ جَسَّعَ فِي مَرَّةٍ \* مُرًّا وَحِينًا سَاقَهُ حِينَا .  
يَا أَنْفُسَا ذَلَّتْ بِأَتْيَانِهِمْ \* وَبِكَ أَتَايَيْنَ الْأَتَايِينَا .  
لَا تَرْتَجِبِي فِي رِسَالِهِمْ إِيَّامًا \* تَمْرِينَ فِي الْقَعْبِ الْأَمْرِينَا !  
وَكَانَ يُجِدِي الْقَصْدُ لَوْ أَنَّهُمْ \* يَدْرُونَ شَيْئًا أَوْ يَدْرُونََا .  
مَوْتِي هُمُو فَلَئِكَ تَقْرِيضُهُمْ \* إِنْ كُنْتِ لَا تَأْيِينَ ، تَأْيِينَا ،  
لَا يَعْتَنِي الْفَضْلُ بِإِطْرَاءٍ مِنْ \* يَكُونُ فِيهِ الْهَجْوُ مَغْبُونَا ،  
لَوْ رُمَّتْ شَيْئًا دُونَ أَقْدَارِهِمْ \* لَهَجْوِهِمْ لَمْ تَجِدِ الدُّوْنَا !!!

قد أخذوا إلى الوضاعة ، عن تحصيل البضاعة ، وكفأهم من البراعة ، برى البراعة ،  
وعنوا بأسوداد اللبقة ، عن سُودِدِ الخليفة ؛ وأحالوا على الرمم ، عند قُصُورِ الهمم ؛  
ومن أعظم الآفات ، نخرهم بالعظم الرفات .

وَكَاثِمِمْ لَصِمِيمِمْ هَاشِمِمْ • أَوْ مِنْ لَهَامِيمِمْ الْعَبَاشِمِمْ ،  
غَشِمُوا فَمَا يَغَشَاهُمْ • بِالطُّوْعِ إِلَّا كُلُّ غَاشِمِمْ :

لَا يُعِينُ أَحَدَهُمْ عَلَى مُرُورِهِ ، وَلَا يُنْعِشُ ذَا أَخُوهُ ، وَلَا يَرَعَىٰ وَارِثَ أَبَوَيْهِ ، وَلَا  
أَعْتَرَىٰ إِلَىٰ بُنُوهِ ؛ فَهُوَ غَيْرُ آسِ بِجُودِهِ ، وَلَا مُوَاسٍ بِمُوجُودِهِ ؛ يَرُوقُ كَيْسُهُ وَالغَلَامُ ،  
وَتُرُوعُكُ دُويُّهُ وَالْأَقْلَامُ ؛ فَإِذَا اسْتَنْطَقَ قَلَمَهُ الصَّامِتِ ، أَجْدَلَ عَدُوَّهُ الشَّامِتِ ؛  
فَزَادَ أَدْرَاجَهُ نَاقِصًا ، وَعَادَ عَلَىٰ أَدْرَاجِهِ نَاقِصًا .

فَهُوَ الَّذِي أَمَلَىٰ لَهُمْ حِلْمَهُ • مَعَ الْخَنَاءِ وَالنَّكَدِ الْبَاهِضِ :  
لَوْ أَنِّي وُلِّيتُ تَأْدِيبَهُمْ • شَقِيتُ صَدْرَ النَّقْهِ النَّاهِضِ !  
مَنْ نَاطِرٍ يُضْحِي بِلَا نَاطِرٍ ، • وَعَارِضٍ يُمَسِي بِلَا عَارِضٍ ،  
وَمُشْرِيفٍ لِلدِّينِ مَا قَصَدَهُ • فِي الْوَطْبِ إِلَّا زُبْدَةُ الْمَاخِضِ ،  
وَخَازِنِ إِنْ لَفَّ مَرَضَاتَهُ • مِنْ حُلُومِهِمْ عَفَّ عَنِ الْحَامِضِ ،  
وَمَنْ خَبِثَ جَاءَنَا ذِكْرُهُ • فِي الذُّكْرِ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْفَارِضِ ،  
وَكَاتِبٍ لَوْ أَنْصَفُوا مُهْرَهُ • لَكَانَ أَوْلَىٰ مِنْهُ بِالرَّائِضِ !!!

إِنْ وَقَعَ ، رَأَيْتَ اللَّفْظَ الْمُرْقَعَ ؛ وَإِنْ أَطَالَ وَأَسْتَهَبَ ، أَذَالَ عِرْضَهُ وَأَنْهَبَ ؛  
وَكَانَ أَحَقَّ بِتَقْلِيدِ الْفُهُودِ ، عِنْدَ تَقْلِيدِ الْعُهُودِ ؛ وَأَوْلَىٰ بِسَطْرِ الْمَنَاشِيرِ ، عَنِ سَطْرِ  
الْمَنَاشِيرِ ؛ وَأَجْدَرَ بِقَبْضِ الرُّوحِ ، إِذَا أَنْبَسَطَ لِلشُّرُوحِ ، وَأَخَذَ فِي ذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالْفُتُوحِ ؛  
كَفَّهُ بِالْحِلْمِ ، أَوْلَىٰ مِنْهَا بِالْقَلَمِ ؛ وَأَخْلَقُ بِالْمَسْحَاهِ ، مِنَ السَّحَاهِ ؛ وَأَلِيقُ بِالْفُؤُوسِ ،  
مِنَ الطُّرُوسِ ؛ يَبْرِي وَيَقْطُ ، وَلَا يَدْرِي مَا يَحْطُ ؛ إِذْ لَيْسَ فِي السَّقَطِ ، غَيْرَ السَّقَطِ ؛  
إِنْ فَاتَحْتَهُ ، أَوْ طَارَحْتَهُ ؛ ظَفِرَتْ بِغُصَّةِ الْمَسَاحِ ، وَخَشَرَ الْمَفَاتِحَ ، إِنْ حَطَّ : فَنُونُهُ  
كَلَامِهِ ، وَخَلَطَ فُنُونَهُ فِي كَلَامِهِ .

إِنْ وَقَعُوا وَقَعُوا فِي ذَمِّ كُلِّ فَمٍ ، \* أَوْ أَنْفَدُوا أَنْفَدْتَهُمْ أَسْمَهُمُ الْكَلِمَ ،  
 أَوْ قَلَدُوا قَلَدُوا خِزْيًا يُجَالِلُهُمْ ، \* أَوْ أَقْطَعُوا قَطَعُوا شَتْمًا بِجَهْلِهِمْ .  
 أَرَأَيْمُ الْمَالِ وَالْأَعْمَالِ إِنْ رَقَمُوا \* جَاءُوا مِنَ الرَّقْمِ وَالْأَلْفَاظِ بِالرَّقْمِ ،  
 فَالْتَهُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ لِلدَّوَاةِ وَلَا تُقَاسُ بِالْحَقِّ وَالْقِرْطَاسِ وَالْقَلَمِ ! !

فالجديد بهم سمل ، والسوام بينهم همل ، ولا علم عندهم ولا عمل ؛ لهني على  
 الفضل المذال ، برقة الأذال ؛ وضباع الحقوق ، وأنصباغ البيضة عن العقوق .

ثم ما على سيدنا الوزير ، مع أصطحاب الهم والزير ؛ ونفاق سوقه ، وأنفاسه  
 في فسوقه ، وأتصال صبوحة بغبوقه ؛ وتخليه في البهو ، للعب واللهو ؛ من ظهر غي  
 يركب ، وذى يسارينكب ؛ وساع يثى ، وراع يرتثى ؛ ورُسوم حيف تجتد ،  
 وسوات تعدد ؛ ما يضره من شكوى الجارح البغات ، وصرنج لا يغات ؛ ووال  
 يعيسف بأهل مصره ، وإن شركه في إضره ؛ وقاض لا ينصف الرعيه ، ولا يتبع  
 القضايا الشرعيه ؛ وقفيه يسف إلى تحصيل عرض زائل ، وتعجيل عرض من  
 سائل ؛ ماله ولحفظ المال ، ومحاسبة العمال ؟ :

أم ما على العامل نيس الدجاج \* إن نقص الكرم وزاد الخراج ؟  
 عليه أن يحصل في كفه \* شئ وإن أخل بجميع الخراج .  
 وهو خراج عند ما ينتهى \* يبط بالمبضع ما في الخراج ! ! !

شغلهم بالشهد المشور ، لا بشهد يوم النشور ، وقصدهم الجمع والاكساب ،  
 ومتى الجمع والحساب ؛ إنما هو مال يمتقب ، لا مال يرتقب ؛ وفساد فى الأرض ،  
 لا لإعداد ليوم العرض :

وَإِنِّي لَأَرَى لِلرَّائِبِ تَحْوِي \* عَلَيْهَا قُرُودٌ فَوْقَهُنَّ بَرُودٌ،  
 سِرَاعٌ إِلَى السَّوَاتِ فِيمَا يَسِينُهُمْ \* وَلِكِنَّهُمْ عَمَّا يَزِينُ رُكُودٌ،  
 يَقَاطُ إِذَا مَا تَوَبَّ التُّؤْمُ دَاعِيَا \* وَعِنْدَ نِدَاءِ الْمَكْرُمَاتِ رُقُودٌ،  
 وَمَا غَرَّنِي إِلَّا جَلَاوِزَ حَوْلَهُمْ \* وَإِلَّا قِيَامٌ بَيْنَهُمْ وَقُعُودٌ.  
 لَقَدْ حَسِدُوا ظُلْمًا عَلَيَّ مَا أَنَا لَهُمْ \* وَهَلْ لِأَخِي نَقِصٌ يَسُودُ حَسُودٌ؟  
 وَلِلسَّيِّدِ الْحَسُودِ كَفٌّ عَنِ الْعُلَى \* تَدُودٌ وَأُخْرَى بِالنَّوَالِ تَجُودٌ.  
 لَمَّا اللَّهُ دُنِيَانَا الَّتِي ضَلَّ سَعْيُهَا \* وَفِيهَا عَلَيْنَا بِالضَّلَالِ شُهُودٌ.  
 إِذَا صُغِرَتْ كَاسُ الْحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ \* عَلَتْ وَعَلَا فِيهَا يَزِيدُ يَزِيدُ.

إنما الصدر من صدره كماله ، وحسنت أعماله ، وجرّد العزّمات ، فشرّد  
 الأزّمات ، ونقى بذبه الكرّبات ، وأصطفى لربه القربّات ، فسهل الغنى ، وأفعم الإنا ،  
 ووضّع مواضع النّقب الهنا ، فهو يهشّ للنّوال ، ويثشّ عند السّؤال ، لا يثوب  
 ورده القدا ، ولا يبطّل منه بالمن والأذى ، يشرّ بشره بحاسن الأخلاق ، ويثشرّ بشره  
 الطّيب في الآفاق ، ويجمّم بدواته داء الإملاق ، ويجرّز بقصبتّه قصب السّباق :

يُجَرِّدُهَا مِنْ مِثْلِ وَفَضَّةِ نَائِلٍ \* أَجْنَتْهَا مِنْ نَافِدَاتِ الْمَعَالِلِ ،  
 وَفِي خَطِّهِ الْمُنْسُوبِ تُرْزِي شَبَابُهَا \* بِلَهْدَمِ مَنْسُوبٍ إِلَى الْخَطِّ ذَائِلِ ،  
 وَإِنْ بَذَرْتَ عَنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ أَنْبَتَ \* مِنَ الْبِرِّ قَبْلَ الْبِرِّ سَبْعَ سَنَائِلِ !!

دُؤُوبُهُ لِإِقَالَةِ الْعَائِرِ ، وَعِمَارَةِ الدَّائِرِ ، وَإِشَاعَةِ الْمَآثِرِ ، هُمَّ فِي مُعْضَلَةِ تِرَاضِ ،  
 وَمَعْدِلَةِ تِنَاضِ ، وَخَلَلِ يُسَدِّ ، وَجَلَلِ يُصَدِّ ، وَعَانَ بِظَهْرِهِ يُعَانِ ، وَعَاتِ بِقَهْرِهِ يُهَانَ ،  
 بَابُهُ مَفْتُوحٌ ، وَخَيْرُهُ مَمْنُوحٌ ، وَمَا أَقَلَّ الْأَلِيمِ ، لَمَنْ أَكْثَرَ الْوَلَائِمِ ، وَأَغْفَلَ الْجَادِبِ ،

لمن صَنَعَ المَادِبَ ؛ وَأَخْلَصَ الإِخَاءَ ، لمن آسْتَخْلَصَ السَّخَاءَ ؛ فَبَدَّلَ الرِّغْوَةَ وَالصَّرِيحَ ،  
وَالسَّنَامَ الإِطْرِيحَ ؛ لَا كَمَنْ يَسُحُّ بِالقُتَارِ ، لِقَرْطِ الإِقْتَارِ ؛ وَيَضِنُّ بِالوَضْرِ ، عَلَى  
المُحْتَضِرِ ؛ وَيَخَلُّ بِالعِرَاقِ ، عَمَّنْ رُوْحُهُ فِي التَّرَاقِ ، وَيُسِرُّ العَمِيْرَةَ ، لمن يَبْتَغِي المِيْرَةَ ؛  
وَيُبْطِنُ الدَّاءَ ؛ لمن يَنْتَظِرُ العَدَاءَ ؛ وَيُسْعِرُ الأَحْشَاءَ ، لمن تَرَقَّبَ العِشَاءَ :

مسلمط سيرته نعمة \* وجائر قسمته ضيزى ،

ليس بذي لب يملئ التائي \* ولا لباب يملأ الشيزى !

يَحْقُدُ عَلَى الإِخْوَانِ ، عِنْدَ ظُهُورِ الخَوَانِ ؛ فَتَرَاهُ يُحَدِّقُ ، إِلَى مَنْ يُشَدِّقُ ؛ وَيَنْتَقِمُ ،  
مَنْ يَلْتَقِمُ ؛ وَيُدُلُّ الأَيْكِلَ ، وَيُجِلُّ بِهِ التَّنِيكِلَ ؛ وَيُبَغِّضُ الشَّرِيْبَ ، وَإِنْ كَانَ الخِدْنَ  
القَرِيْبَ ؛ فَالْحَسَائِنُ مِنْ يَرِدُ ، فَيَزْدَرِدُ ؛ وَالخَائِنُ مِنْ يَنْبَسِطُ ، فَيَسْتَرِطُ ؛ يَسْتَأْ مِنْ  
الأَبْرَاسِ ، صَوْتِ الأَضْرَاسِ ؛ وَحَشْرَجَةَ البَلَاعِمِ ، بِدَحْرَجَةِ المَطَاعِمِ ؛ وَهَرْمَرَةَ  
الشَّدُوْقِ ، وَجَرَحَةَ الخُلُوقِ ؛ وَقَدْ صَدَّتْ حَوَاحِزُ بِلَوَاهِ ، أَفْوَاهَا تَصَدَّتْ لِحَلَوَاهِ ؛  
وَحَكَمَتْ لِحَامِيْهِ ، بِحِكْمَةِ لِحَامِيْهِ ؛ وَعَدَّتْ بِكِيَوَانِيْهِ ، لَمَّى وَعَدَّتْ بِأَلْوَانِيْهِ ؛ رَغِيْفُهُ أَعْرَزُ<sup>(١)</sup>  
مِنَ العَرِيْفِ ، وَأَعْرَبُ مِنَ الثَّنِيءِ الطَّرِيْفِ ؛ صَرِيْفُ بَابِيْهِ ، دُونَ صَرِيْفِ نَابِيْهِ ؛  
وَيُحْكِمُ صَكَّ بَابِيْهِ ، عَنِ كَبَابِيْهِ ؛ وَيُعِدُّ سَدِيْفَ جِفَانِيْهِ ، مِنْ سَدِيْفِ أَجْفَانِيْهِ ؛ يُمَانِعُ  
بِلَدِيْدِيْهِ ، عَنِ سَفُوْدِ قَدِيْدِيْهِ ؛ وَيُصَافِحُ بِصَفْحَةٍ وَرِيْدِيْهِ ، عَنِ صَحْفَةِ ثَرِيْدِيْهِ ؛ حَمَلُهُ مِنْ  
نُجُومِ الحَمَلِ ، وَسَمَكُهُ فَوْقَ السَّمَكِ الأَعْزَلِ ؛ وَحُوْتُهُ بَيْنَ الحُوْتِ والأَسَدِ ، وَجَدِيْهِ  
عِنْدَ جَدِيِ الفَرَقْدِ ؛ دُونَ عَجَّتِيْهِ أَرْتِفَاعِ العَجَاجِ ، وَتَحْتِ دَجَاجَتِيْهِ دَنْبُ الدَّجَاجِ :

يدرج في القسدر دراجه \* ليلفظ الحب وطيهوجه

ففي السموات سمائاته \* وعند ديك العرش فروجه

(١) من عرزه يعرزه انترعه انترعا عنيفا والغريف الدلو .

يَحْرُسُ مَا نَدَّته الدُّلُو والعَقْرِب، وهُمَا مِنَّا أَدْنَى وَأَقْرَبُ، يُعْجِبُهُ التَّشْمِيرُ وَالْأَحْتِجَانُ،  
وَيَلْدُّ لَهُ التَّوْفِيرُ وَالْأَحْتِرَانُ، وَقَصْرُ مَفَاجَأَةِ أَحْوَالِ، تُصْرِحُ عَنْ أَهْوَالِ، وَكَأَنَّكَ  
بِالْأَيَامِ بَعْدَ الْإِتْسَامِ، شَاهِرَةٌ لِلْحُسَامِ، قَدْ كَثُرَتْ عَنْ أَنْبِيَائِهَا الْعُصَلُ، فِي بُكْرِيهَا  
وَالْأُصَلُ، وَأَجَلَتْ عَنْ سَلِيْبٍ مَسْحُوبٍ، لَتَسْكُرَ مَصْحُوبٌ، وَأَتَحَرَ يَتَرَدَّدُ فِي الْبُوسِ،  
وَيُخَلَّدُ فِي الْجُبُوسِ، قَدْ حَصَلَ عَلَى سَلَّةِ الْحَاوِي، مِنْ سَلَةِ الْحَلَاوِي، وَمَنْ طَعِمَ  
الْعَسَلُ، عَلَى طَعْنِ الْأَسَلِ، وَمَنْ الْعَدْبِ الْبَارِدِ، عَلَى حَزِّ الْمَبَارِدِ :

تَقْبِضُ مِنْ خَطْوِهِ الْكُجُولُ \* فَهُوَ عَلَى قَيْدِهِ يَبُولُ،

خَلَا مِنَ الْخَيْرِ فَهُوَ طَبْلُ \* وَهَكَذَا تَضْرِبُ الطُّبُولُ،

يَسْكُو إِلَى اللَّهِ مُسْتَغِيثًا \* وَمَا لَهُ عِنْدَهُ قَبُولُ،

ذَلِكَ بِمَا كَانَ مُسْتَطِيلًا \* تُرْدِي دَوَاهِيَهُ وَالْمُيُولُ!

فَهُمْ بَيْنَ حَصَى تَعَصْرٍ، وَقَفَا يَقْصِرُ، وَرِكَابٍ مَثْقُوبَةٍ، وَأَنْوَاعٍ عُقُوبَةٍ، أَوْ يُقَالُ  
فَلَانٌ أَنْارَتَهُ شُعُوبٌ، وَوَارَتْهُ الْجُبُوبُ، وَأَكْتَفَى بِسُلْفَةِ الْأَمَمَاتِ، مِنَ الْمُقَدَّمَاتِ،  
وَمَا ظَنَّكَ بِالشَّلْوِ الطَّرِيحِ، فِي صَنْكِ الضَّرِيحِ، تَحْتَهُ الْبَرْزَخُ الْمَوْصُودُ، وَفَوْقَهُ الْجَبَلُ  
الْمَنْصُودُ، أَنْظَرَ كَيْفَ هُجْرَ بَابِهِ الْمَقْصُودُ، وَجَانِبَتْ جَنَابَهُ الْوُفُودُ، وَأَخْلَقَتْ رَبَاعَهُ،  
وَتَفَرَّقَتْ أَنْبَاعُهُ، ثُمَّ تَسْوِيَهُ الْحُوبُ، أَبْشَعُ مِنْ تَسْوِيَةِ الشُّحُوبِ (؟)؛ وَوَيْلٌ لِلْقَوْمِ  
الْبُورِ، مِنْ بَعَثَةِ الْقُبُورِ :

وَيَا خَسَارَ الْأَنْفُسِ الْغَاوِيَةِ \* مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْحُفْرِ الْهَاوِيَةِ،

وَكُلُّ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ \* فَأَمَّهُ فِي بَعِيهِ هَاوِيَهُ،

وَلَيْسَ يَدْرِي وَيَجْهُ مَا هِيَ \* نَارٌ عَلَى سُكَّانِهَا حَامِيَهُ!

أعازنا الله من خلال يقضى جهلها بالسنار، وأفعال تُفضى بأهلها إلى النار، بكرمه وإحسانه، وطوله وأمتنانه .

### الصنف الثالث

( من الرسائل المفاجرات ، وهي على أنواع )

منها : المفاجرة بين العلوم .

وهذه نسخة رسالة في المفاجرة بين العلوم ، أنشأتها في شهر سنة ثمان وتسعين وسبعائة ، لقاضي القضاة شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، جلال الدين ، عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام ، بقية المجتهدين ، أبي حفص عمر البلقيني الكفائي ، الشافعي ، أمتع الله تعالى المسلمين ببقائه ، ذكرت فيها نيفاً وسبعين عالماً ، ابتدأتها بعلم اللغة ، وختمتها بفن التاريخ ، ذاكرةً نخر كل علم على الذي قبله ، محتجاً عليه بفضائل موجودة فيه دون الآخر ، وجعلت مصب القول فيها إلى آشماله على جميعها ، وإحاطته بكلها ، مع الإشارة إلى فضل والده ، شيخ الإسلام ، ومساهمته له في الفضل ، على ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ، وهي :

الحمد لله الذي جعل للعلم جلالاً تودُّ جلائل الفضائل أن تكون له أتباعاً ، وأطلق ألسنة الأقاليم من جميل شأنه بما أنطق به ألسنة العالم ليكون الحكم بما ثبت من مآثور فضله إجماعاً ، وأجرى من قاموس فكره جداول أنهار العلوم الزكية فنعمش قلوباً ونزه أبصاراً وشنف أسماعاً .

أحمدُه على أن أفاض نتائج الأفكار على الأذهان السليمة لذي النظر الصحيح ، وبث جياذ الألسنة في ميدان الحدال فغاز قصب السبق منها كل لسان ذليق فصيح .



وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي قهرت بينات دلائله المُلحدَ  
 المعاند، وبهرت قواطع براهينه الألد الخصيم والجدل الأكيد؛ وأشهد أن محمداً عبده  
 ورسوله الذي أظهر من واضح الحجج الجليلة ما سقط بحججته دعوى المعارض، وأتى  
 من فصل الخطاب بما أغم به الخصوم فلم يستطع أشدهم في البلاغة شيمة أن  
 يأتي له بمناقض؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من جليل المناقب بكل  
 وصف جميل، وأشتهرت في الوجود مفاخرهم فلم يُحتج في إثباتها إلى إقامة دليل؛  
 صلاة يتمسك في دعوى الشرف بتبين حبلها، وتتفق أدلة العقل والنقل على القطع  
 بعلو شأنها وتوفر فضلها .

وبعد ، فلما كانت العلوم مشتركة في أصل التفضيل ، متفقة الفصل في الجملة  
 وإن تفاوتت في التفصيل ؛ مسلماً أصل الشرف فيها من غير منازع ، مجعاً على أنه  
 لا شيء من العلم من حيث هو علم بضار ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل  
 بنافع ؛ مع اختلافها في التفاضل باختلاف موضوعاتها ، وتفاوتها في الشرف بحسب  
 الحاجة إليها أو وثاقه حجبها أو نفاسة غاياتها ؛ عطس كل منها بأنف شاخ غير مسلم  
 للآخر ولا مسلم ، ومدد إلى العلياء يد المطاولة فتناول الثريا قاعداً غير قائم ؛ وأدعى  
 كل منها أن بحره الطامى ، وفضله النامي ؛ وجواده الطامح ، وسماكته الرَّامح ؛ زاعماً  
 أن حسامه القاطع وعضبه الفاضب ، وقدره المعلى ومهمه الصائب ، وتجمه السارى  
 وشهابه الشاقب ؛ وأن تنثر الثناء على مجامره موقوف ، وخطيب المحامد بمنابر  
 معروف ؛ وفلك الفضل على قُطبه دائر ، وكل شرف عليه محبس وكل نحر عليه قاصر ؛  
 فأس بعطفه ومال ، وبسط في الكلام لسانه فقال وطال .

هذا : وإنما اجتمعت يوماً اجتماع معنى لا صورته ، وقامت لها سوق بالبحث  
 معروفة وعلى الحدال مقصوره ؛ وتفاوتت بلسان الحال وتخطبت ، وتجاوزت

في دَعْوَى الشَّرْفِ وتجاوَبَتْ ؛ وألَمَّتْ بِالمُتَأَفَّرَةِ فتنافَرَتْ ، وتساوَتْ في مِيدَانِ  
الْإِفْتِخَارِ فتنافَحَتْ ؛ وأخذَ كُلُّ مِنْهَا في نُصْرَةِ مَدَّهِهِ ، وتَحْقِيقِ مَطْلَبِهِ ؛ بأنواعِ المَجْجِجِ  
والأَسْتِدْلالاتِ ، وإقَامَةِ البراهينِ والأَمَارَاتِ ، وما يَتَوَجَّهَ على ذلكِ مِنَ الأَسْئَلَةِ  
والإِعْتِرَاضَاتِ . فكانَ أَوَّلُ باديٍّ بدأ مِنْها بِالكلامِ ، وفَتَحَ بابَ الجِدالِ وَالخِصامِ : -

عِلْمُ اللُّغَةِ فَقَالَ :

قَدْ عَلِمْتُمْ مَعَشَرَ العُلُومِ أَنِّي أَعْمَكُمْ نَفْعًا ، وَأَوْسَعُكُمْ مَجَالًا وَأَكْثَرُكُمْ جَمْعًا ؛ على قُطْبِ  
فَلَكي تَدْوِيرِ الدَوَائِرِ ، وبِوِاسِطَتِي تُدْرِكُ المَقاصِدَ وَيَسْتَعْلَمُ ما في الضمائرِ ؛ وبِدَلالاتِي تُعَلِّمُ  
المَعانِي المَفْرَداتِ ، وَيَتَمَيَّزُ ما يَدُلُّ على الذواتِ مِمَّا يَدُلُّ على الأَدواتِ ؛ وَتَبَيَّنُ دِلالاتُ  
العَلَمِ وَالخِصامِ ، وَيَتَعَرَّفُ ما يُرْشِدُ إلى الأنواعِ والأَجناسِ وما يَخْتَصُّ بِالأَشْخاصِ ؛  
على أَنَّ كُلَّكُمْ كَلٌّ عَلَيَّ ، وَحُجَّتُجْ في تَرْجِمَةِ مَقْصُودِهِ إِلَيَّ ؛ فَلَفْظِي "المُحْكَمُ" وَأَقْوالِي  
"الصَّحاحُ" ، وَكلامِي "الجامِعُ" وَسَيْفُ لِسَانِي "المُجَرِّدُ" ناهِيكَ مِنْ سِلاحِ ؛ وَفَضْلِي  
"المُجْمَلُ" لا يَحْتَاجُ إلى بَيانٍ . اسْتَأْثَرَ اللهُ تَعالَى بِتَعَلِيمِي لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وآثَرَ بِي  
مَعْرِفَةً على الملائكةِ فَكانَ خِصِيصَةً لَهُ على الملائكةِ الكِرامِ .<sup>(١)</sup>

فَلَمَّا أَنْقَضَى قِيلَهُ ، وَبانتَ لِلسَّتِييرِ سَبِيلُهُ ؛ نَابَ إِلَيْهِ عِلْمُ التَّصْرِيفِ مُبْتَدِرا ،  
وَلنَفْسِهِ وَلسائِرِ العُلُومِ مُتَّصِرا ؛ فَقَالَ : رُوِيَكَ أَيُّها المُساجِلُ ، وَعَلَى رِيسِكَ ياذا  
المُنابِضِ ؛ فَقَدْ ذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ ناصِرٌ ، وَحُطَّ قَدْرُ مَنْ تَرَفَّعَ على أبنائِ جِنْسِهِ وَلَوْ عَقَدَتْ  
عَلَيْهِ الخِناصِرُ ؛ وما يُعْجِدِي البَازِي بِغَيْرِ جِناحٍ ، أَوْ يُغْنِي السَّاعِي إلى الحَرْبِ بِغَيْرِ  
سِلاحٍ ؛ وَأَنْيَ يَطْعَنُ رُحْمٌ بِغَيْرِ سِنانٍ ، أَوْ يَقَطَعُ سَيْفٌ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقائِمٍ وَلَمْ تَقْبِضْ عَلَيْهِ  
بِسانٍ ؛ إِنَّكَ وَإِنْ حَوَيْتَ فَضْلا ، وَأَعْرَقْتَ أَصْلا ؛ وَكُنْتَ لِلْكَلامِ نِظامًا ، وَإِلَى

(١) الذي في كتب اللغة «خِصِيصِي» وَيُؤَيِّدُ .

بيان المقاصد إماماً ، فأنت غير مُستقلِّ بنفسك ، ولا قائم برأسك ؛ بل أنا المتكفل بتأسيس مبانيك ، والملمتم بتحرير ألفاظك وتقرير معانيك ؛ بي تُعرف أصول أبنية الكلمة في جميع أحوالها ، وكيفية التصرف في أسمائها وأفعالها ؛ وما يتصل بذلك من أحوال الحروف البسيطة وترتيبها ، واختلاف مخارجها وبيان تركيبها ؛ والأصليّ منها والمزيد ، والمهموس والرخو والشديد ؛ و <sup>(١)</sup> تقديره ، والصحيح والمعتلّ وتخيره ؛ وكيفية التثنية والجمع ، والفصل والوصل والابتداء والقطع ؛ وأنواع الأبنية وتغيرها عند اللواحق ، وكيفية تَصْرِيفِ الفعل عند تجرّده عن العوائق ؛ وأمثلة الألفاظ المفردة في الزنة والهيئة وما يختص من ذلك بالأسماء والأفعال ، وتمييز الحامد منها والمُستقّ وأصناف الاشتقاق ؛ وكيف هو على التفصيل والإجمال .

على أنك لو خُلِّيتَ ومجرد التعريف ، وبيان المقاصد بالأصطلاح أو التوقيف ؛ لكان علم الخَطِّ يقوم مقامك في الدلالة الحالية لدى المتلقّي ، ويتبرّج عليك ببعد المسافة مع طول البقاء ؛ مع ما فيه من زيادة ترتيب الأحوال ، وضبط الأموال ؛ وحفظ العلوم في الأدوار ، واستمرارها على الأكوار ؛ وانتقال الأخبار من زمانٍ إلى زمان ، وحملها سرا من مكانٍ إلى مكان ؛ بل ربّما آكثفتني عنك بالإشارة والتلويح ، وقامت الكفاية منها مقام التصريح .

فعندها غضب علم النحو وأكفّهتر ، وزجر وأشمخّر ، وقال : يا لله ! "أستنتت الفصائل حتى القرعا" ، و"أستنسرت البغات" فكان أشدّ ثلماً وأعظم صدعا ؛ لقد أدعيت ما ليس لك ففاتك الجبور ، و"من تسبّع بما لم ينل فهو كلابيس توبّي زور" ؛ وهل أنت الا بضعة مني ؟ ، تُسندُ إلى وتقلّ عني ؛ لم يزل علمك باباً من أبوابي ،

(١) يابض بالأصول .

وجُمِّلَتْ داخلةً في حسابي ؛ حتى ميزك "المأزني" فأفردك بالتصنيف ، وتلاه  
 "أبن جني" فتبعه في التأليف ؛ واقتصر "ابن مالك" منك في تعريفه على الضروري  
 الواجب ، وأحسن بك "أبن الحاجب" في شافيته فرفع عنك الحاجب ؛ وأنت  
 مع ذلك كله مطويٌ ضمن كُتُبِي ، نَسَبْتُكَ مُتَّصِلَةً بِنَسَبِي وَحَسَبَكَ لِاحِقٌ بِحَسَبِي ؛  
 أنا ملح الكلام ، ومِسْكُ الختام ؛ لا يَسْتَعْنِي عَنِّي متكلم ، ولا يَلِيقُ جَهْلِي بعالم  
 ولا مُتَعَلِم ، بي تبيين أحوال الألفاظ المركبة في دلالتها على المقاصد ، ويرتفع الألبس  
 عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد ؛ فلو أُنِيَ المتكلم في لفظه بأجل معنى  
 ولحن لذهبت حلاوته ، وزالت طلاوته ، وعيب على قائله وتغيرت دلالته . وقد كانت  
 الخلفاء تحث على النحو وترشد إليه ، وتَحَذِرُ اللحن وتُعاقب عليه :

وإذا طلبت من العلوم أجلها \* فأجلها عندي مقيم الألسن !

فبينما هو كذلك إذ برزت علوم المعاني والبيان والبديع جملة ، وحمّلت عليه  
 بصدق العزم في اللقاء حمّله ؛ وقالت : جعجعة رجا من غير طحن ، وتصويت  
 رعيد من غير مزن ؛ لقد أتيت بغير مُعرب ، وأعربت عن ليني ليس بمطرب ؛  
 الحق أبلج ، والباطل بلجج ؛ إن القوز لصدحنا ، والورى لصدحنا ؛ نحن لب  
 العربية وخلاصتها ، والمعترف لنا بالفضل عامتها وخاصتها ؛ وهل أنت إلا شيء  
 جرى عليك الأصلاح ، وساعدك الاستعمال فأمنت الأطراح ؛ فلو أصطليح على  
 نصب الفاعل ورفع المفعول لم يخل بالفاهم في المقاصد ، وهذا كلام العامة لذلك أقوم  
 دليل وأعظم شاهد .

فقال علم الشعر : أراكم قد نسيتم فضلي الذي به فضلتم ، وصرتم حبل الذي  
 من أجله وصلتم ؛ أنا حجة الأدب ، وديوان العرب ؛ على تردون ، وعني تصدرون ؛

وإلى تَنَسَّبُونَ، وبى تَشْتَهَرُونَ، مع ما أَشْتَمْتُ عليه من المدح الذى كم رَفَع وَضَعًا،  
وجَلَب نَفْعًا، ووَصَلَ قَطْعًا، وجَبَرَ صَدْعًا، والهَجْوُ الذى كم حَطَّ قَدْرًا، وأُتِمِدَ ذِكْرًا،  
وجَعَلَ بين الرِّفِيعِ والوَضِيعِ فى حَظِيطَةِ القَدْرِ نَسَبًا وَصِهْرًا؛ إلى غير ذلك من أنواعِ  
الشَّعْرِيَةِ التى شاع ذِكْرُهَا، وَأَضْوَاعِ العِطْرِيَةِ التى فاح نَشْرُهَا؛ بل لا يكاد عِلْمٌ من  
العلوم الأَدَبِيَّةِ يَسْتَعْنِي عن شَوَاهِدِي، ولا يَخْرُجُ فى أصوله عن قَوَائِنِي وَقَوَاعِدِي؛  
حَتَّى عِلْمُ النُّثْرِ الذى هو شَقِيقِي فى النِّسَبِ، وَعَدِلي فى لسان العَرَبِ؛ لم يَزَلْ أَهْلُهُ  
يَتَطَفَّأُونَ عَلَيَّ فى بَيْتِ يَحْلُونَهُ، وَيَقْفُونَ من بَدِيعِ محاسنى عند حَدِّ لا يَتَعَدُّونَهُ .

فقال علمُ القافية : إِنَّكَ وَإِنْ تَأَلَّقَ بَرَقَ مَبَاسِمِكَ، وطابَتْ أَيَّامُ مَوَاسِمِكَ؛ فانت  
موقوفٌ على مقاصدى، ومُعْتَرِفٌ من رَوَى مَوَارِدِي؛ أنا عُدَّةُ الشَّاعِرِ، ومُعَدَّةُ النَّائِرِ؛  
لا يَسْتَعْنِي عَنِي شِعْرٌ وَلَا خَطَابُهُ، ولا يَسْتَنْكِفُ عَنِ الوُقُوفِ على أبوابِي ذُو تَرَسِيلِ  
ولا كِتَابِهِ؛ طَالَمَا عَثَرَ الفُحُولُ فى مِيدَانِي، وتَشَعَّبَتْ عَلَيْهِمُ طُرُقِي فَضَالُوا السَّبِيلَ  
وَأَخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمُ المَبَانِي؛ فلم يُفَرِّقُوا بين التَّكَاوُسِ والتَّرَاكِبِ فى التَّعَارِفِ، ولم يُمَيِّزُوا  
بين التَّدَارِكِ والتَّوَاتُرِ والتَّرَادُفِ .

فقال علمُ العروض : لقد أَسْمَعْتَ القَوْلَ فى الدَّعْوَى من غير تَوَجِيهِ فَدَخَلَ  
عَلَيْكَ الدَّخِيلُ، وأَوْقَعَكَ الوَصْلُ دُونَ تَأْسِيسِ فى هُوَّةِ النَّقِصِ : فَهَلْ إلى خُرُوجِ  
من سَبِيلِ؟؛ أنا مِيعَارُ القَرِيضِ ومِيزَانُهُ، وَعَلَى تَبْنِي قَوَاعِدُهُ وَأَرْكَانُهُ؛ لم يَزَلِ الشَّعْرُ  
فى عُلُوِّ رُتْبَتِهِ بِمُضَلِّي مُعْتَرَفًا وَحَقِّي مُتَحَقِّقًا، ومن بُحُورِي مُعْتَرِفًا، وبِأَسْبَابِي مُتَعَلِّقًا؛  
فأَبْيَانُهُ بِمِيزَانِي مُحَرَّرَهُ، وَأَجْرَاؤُهُ بِقِسْطَائِي مُقَدَّرَهُ؛ وبِقَوَاصِلِي مُتَّصِلَهُ،  
وبِأَوْتَادِي مُرْتَبِطُهُ غير مُنْفَصِلِهِ .

فقال علمُ المَوْسِيقَى : لَمَسَدِ أَسْرَفَتِ فى الأَفْتِخَارِ فَضَلَّتِ الطَّرِيقَ وَبِنَتْ عِنهَا،  
وَوَرَّطَتْ نَفْسَكَ فيما لا فائِدَةَ فِيهِ فَلَزِمْتَ دَائِرَةَ لا تَنْفَكُ عِنهَا؛ وَأَتَيْتَ من طَوِيلِ

الكلام بما لا طائل تحته فنقل قولاً ، وجئت من بسيط القول بما لو اقتصرت منه على المتقارب لكان بك أولى ؛ فانت بين ذى طبع وزان لا يحتاج إلى معيارك في نظم قريضه ، وآخرت طباعه عن الوزن فلم ينتفع من علمك بضره ولا عمروضه ؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك ، ولا عبرة بك ولا موعول عليك ؛ وكفى بك هضمًا ، ونقيصةً ودمًا ؛ وأستدللاً على دحس محبتك ، وضعف أدلتك ؛ قول ابن حجاج :

مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ فَعُولٌ \* مَسَائِلُ كُلِّهَا فُضُولٌ ،

قَدْ كَانَ شِعْرُ الْوَرَى صَحِيحًا \* مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْخَلِيلُ !

على أنه إن ثبتت لك فائده ، وعاد منك على الشعر أو الشعراء عائده ؛ فأنما تفاعيلك مقدمة للألحاني ، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني ؛ نعم أنا غذاء الأرواح ، وقاعدة عمود الأفرح ؛ والمتكفل بسيط النفوس وقبضها ، والقائم من تعديلها وتقويتها بنقلها وفرضها ؛ أحرك النفس عن مبدئها فيحدث لها السرور وتظهر عنها الشجاعة والكرم ، وأبعثها إلى مبدئها فيحدث لها الفكر في العواقب وتزايد المهوم والندم ؛ فتارة أستمعل في الأفرح وزوال الكرب ، وتارة في علاج المرضى وأخرى في ميادين الحروب ؛ وآونة في محل الأجران واجتماع المآثم ، ومرة يستعملي قوم في بيوت العبادات فأبعثهم على طلب الطاعات واجتنب المحارم ؛ وآتي من غريب الألحان ، بما يشبع به الجائع ويروى به الظمان ، ويأنس به المستوحش وينشط به الكسلان ؛ وتدنو لسماعه السباع ، ويعنوله بعد الشدة الشجاع .

مع ما يتفرع عنى من علم الآلات الروحانية التي تُعش الأرواح ، وتجلب الأفرح ؛ وتنهى الأتراح ، وتؤثر في البخيل السباح ، وتعمل في الأبواب ما لا تفعل في اللبائ يرض الصفاح .

فقال علم الطب : لقد أضعت الزمان في اللهو ، ومِلت مع الأريحية فمأس بك العجب وزاد بك الزهو ، وداخلك الطيش ففقت بالإطراب ، وعنيت بمعرفة اللحن ففانتك الإعراب ، تدكر العشاق أحوال النوى فيسأها الهوى إلى الهوان ، وتنتقل في نواحي الإيقاع تنقل المهائم فتمسى في حجاز وتصبح في أضيها ، وأنت وإن أدعيت أنك العلم الروحاني ، والمستولي بتحرك الطبائع الأربع على النوع الإنساني وغير الإنساني ، فأنت غير مستغن عني ، ولا فنك في الحقيقة منك عن قتي ، بل قواعدك مرتبة على قواعدي ، وفوائدك مستفادة من فوائدي ، وأهل صناعتك يتطفلون في معرفة الملائم والمنافي على ساقط لباب موائدي ، وأنى تبسط بك الروح مع وجود السقم ، أو يستريح إليك القلب مع شدة مقاساة الألم ؟ بل أنا قوام الأبدان ، وغاية ملاك الإنسان ، بي تحفظ صحة الأجسام ، وتمكن النفس من استكمال قوتها النظرية والعملية بواسطة زوال الأسقام وانتفاء الآلام ، مع ما يتضح بالنظر في التشریح الذي هو أحد أنواع من سر قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وما يظهر من حال الصحة والمرض وسر الموت من أنه تعالى بدأ الخلق أول مرة وإليه يحشرون .

مع ما يتحقق بي من علم خواص العقاقير الغريبة ، والأعجاز التي تؤثر بتميزيها الصناعات التآثير العجيبة ، وتأتي من نوادر الأفعال بالأعمال الغريبة ، على أني لست بمختص في الحقيقة ببدن الإنسان ، ولا قاصر على نوع من أنواع الحيوان ، وإنما أفردت بنوع البشر اهتماماً بشأنه ، وتبنيها على جلالته قدره وعلو مكانه .

ثم ألحق بالإنسان في الاعتناء به الخيول فاشتق لها مني علم البيطرة ، وتلاها في الاعتناء بجوارح الطيور لاهتمام الملوك بشأنها فاستنبط لها من أجزائي علم البيزره ، وأهمل ما سوى ذلك من جنس الحيوان ، فلم يعتن بأمره ولم يهتم له بشأن .

فقال علم القافة : لقد ارتقيت مرتقي صعبا ، ووبلت موبجا صلبا ؛ وأتيت  
من مشكلات القضايا بما صافت مطالبه ، وعرضت نفسك لمغالبة الموت والموت  
لا شيء يُغالبه ؛ واقتصرت في تدبيريك الأعضاء على ذكر منافعها وصفاتها ،  
وأضربت عما تدل عليه بصورها وكمياتها ؛ أين أنت من الحاق الابن بالأب بالصفات  
المتماثلة ، والحكم بثبوت النسب بدلائل الأعضاء كما يحكم بالبيدة العادلة ؛ فهذه هي  
الفضيلة التي لا تساوي ، والمنقبة التي لا تعادل ولا تتاوى ؛ وكفالك لذلك شاهدا ،  
وعلى ثبوته في الشريعة المطهرة مساعدا ؛ وأنه لا يتصور ذلك معارضة ولا نقض ،  
استبشار النبي صلى الله عليه وسلم بقول مدح المدلحي : « إن هذه الأقدام بعضها  
من بعض » .

فقال علم قص الأثر : نعم إن شأنك لغريب ، وإن أجهادك لمصيب ؛ غير أنني  
أنا أغرب منك شأنا ، وأدق في الإدراك معنى ؛ إذ أنت إنما تلحق المحقق بالمشاهدة  
يمثله ، وتقيس فرعا على أصل ثم تلحق الفرع بأصله ؛ وأنا فأدرك المؤثر من الأثر ،  
وأستدل على الغائب بما يظهر من اللوائح في الرمل والمدرب ؛ وربما ميزت أثر البعير  
الشارد من المراتع ، وفرقت بالنظر فيه بين الصحيح والظالم ؛ فأدركت من الأمر  
الخفي ما تدركه أنت من الظاهر ، وقضيت على الغائب بما تقضي به على الحاضر .

فقال علم غضون الكف والجهة : ما الذي أتيت به من الغريب ، أو أظهرته  
بعلمك من العجيب ؛ ؛ فلو أتيت بأرض صلبة لوقفت آمالك ، أو محت الريح معالم  
الأثر لبطلت أعمالك ؛ أو وبع من تقف أثره الماء لقات حدسك الصائب ، أو جعل  
الماشي مقدم نعله مؤخره لقلت : إن الداهب قادم والقادم ذاهب ؛ لكن أنا كاشف  
الأسرار الخفية ، والمستدل على لوازم الإنسان بما ركب فيه من الدلائل الخلقية ؛



أَسْتَخْرِجُ مِنْ أَسَارِيرِ الْجَبْهَةِ وَغُضُونِ الْكَفِّ أُمُورًا قَدْ أُرْشِدَتِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَيْهَا ، وَجُعِلَتْ تِلْكَ الْعَلَامَةُ فِي الْإِنْسَانِ دَلَالَةً عَلَيْهَا .

فَقَالَ عِلْمُ الْكَتِيفِ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى الشَّيْءِ بِإِلْزِمِهِ أَمْرٌ مُسْتَعْرَبٌ ، وَلَا مَا يُقَالُ فِيهِ : هَذَا مِنْ ذَلِكَ أَعْجَبٌ ؛ وَإِنَّمَا الشَّانُ أَنْ يَقَعَ الْأَسْتِدْلَالُ عَلَى الشَّيْءِ بِمَا هُوَ أَجْنَبِيٌّ مِنْهُ ، وَخَارِجٌ عَنْهُ ، كَمَا أَسْتَدِلُّ أَنَا بِالْخَطُوطِ الْمَوْجُودَةِ فِي كِتْفِ الدَّيْبِجَةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَسْرَارِ الْعَجِيبَةِ ؛ مِمَّا أَجْرَى اللَّهُ بِهِ الْعَادَةَ فِي ذَلِكَ ، وَجَعَلَهُ عِلْمًا دَالَةً عَلَى مَا هُنَاكَ .

فَقَالَ عِلْمُ خَطِّ الرَّمْلِ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَسْتَ بِمُحَقِّقٍ لِمَا أَنْتَ لَهُ مُتَوَسِّمٌ ، وَلَا وَائِقٍ بِالْإِصَابَةِ فِيمَا أَنْتَ تُتَرَجِّمُ ؛ وَغَايَتُكَ الْوُقُوفُ مَعَ التَّجَارِبِ ، وَالرُّجُوعُ فِيمَا تُحَاوِلُهُ إِلَى التَّقَارِبِ ؛ مَعَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّفْضِ وَالْإِهْمَالِ ، وَمَا رُمِيَتْ بِهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ وَقِلَّةِ الْأَسْتِعْمَالِ ؛ أَمَا أَنَا فَفَارِسُ هَذَا الْمَيْدَانِ ، وَمَالِكُ زِمَامِ هَذَا الشَّانِ ؛ فَكَمْ مِنْ صَمِيرٍ أَبْرَزْتُهُ ، وَأَمْرٍ خَفِيَ أَظْهَرْتُهُ ؛ وَمَكَانَ عَيْنَتِهِ فَوَافِقٌ ، وَأَمِدَّ قَدْرَتِهِ فَطَابِقٌ ؛ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ أَصْلٌ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَا دَلِيلٌ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ؛ فَأَنَا أَنْبَتُ مِنْكَ قَوَاعِدَ ، وَأَوْضَحُ عِنْدَ الْأَعْتِبَارِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ ؛ فَإِنْ عَدَوْتَ طَوْرَكَ ، أَوْ جُرْتَ فِي الْأَحْتِجَاجِ خِصْمَكَ ؛ فَمَدَّكَ ، أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا يَخْطُ فَمِنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَلِكَ .

فَقَالَ عِلْمُ تَعْيِيرِ الرُّؤْيَا : إِنَّكَ وَإِنْ أَظْهَرْتَ السَّرَائِرَ ، وَأَبْرَزْتَ الضَّمَائِرَ ؛ فَإِنَّ أَمْرَكَ مَوْقُوفٌ فِي حَدْسِكَ عَلَى الدَّلَالَةِ الْحَالِيَةِ ، وَمَقْصُورٌ فِي تَحْمِينِكَ عَلَى الْأُمُورِ الْأَحْتِمَالِيَةِ ؛ أَيْنَ أَنْتَ مَنِيَّ حِينَ أُعْبَرَّ عَمَّا شَاهَدْتَهُ النَّفْسُ فِي النَّوْمِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ؟ وَكَيْفَ أُكْشِفُ عَنْهُ الْجُبَّ بِالتَّأْوِيلِ فَيَقَعُ كِفَالَتِي الصُّبْحِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ؛ فَأَخْبِرْ بِحَوَادِثِ تَقَعُ فِي الْعَالَمِ قَبْلَ وَجُودِهَا ، وَآتِي مِنْ حَقَائِقِ النَّدَارَةِ وَالْبَشَارَةِ بِمَا يُنْبِئُهُ عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ نُحُوسِهَا وَالتَّرَقُّبِ لِمُوَافَاةِ سَعُودِهَا .

فقال علم أحكام النجوم : حقيق ما أولت ، وصحيح ما عنه عبرت وعليه عوّلت ؛ إلا أنك قاصر على وقائع مخصوصة تُرشد إليها ، وأمور محدودة تُنبه عليها ؛ على أنه ربما نشأت الرؤيا عن فكرة وقعت في اليقظة فاتصلت بالنام ، أو حدثت عن سوء مزاج أو رداءة مطعم ونحو ذلك فكانت أضغاث أحلام ؛ أما أنا فإني أدل بما أجه الله تعالى من العادة ، على الحوادث العامة مصاحباً لمقتضيات إرادته ؛ ليظهر ما في الحكمة الإلهية من قضايا التدبير ، ويتبين ما أشتملت عليه الأفلاك العُلوية من تقدير الترتيب وترتيب التقدير ؛ مع ما يرتب على ذلك من الأعمال العجيبة ، والأحوال الغريبة ؛ التي تبهّر العقول ، ويمتدح إليها من غير طريق الوصول :

من علم السحر على الإطلاق ، وعلم الطلسمات الغريبة وعلم الأوفاق ، وكذلك علم النيرانجيات وعلم السيميا الآخذ بالأحداق .

فقال علم الهيئة : مالك ولأباطيل شتمتها ، وأكاذيب تُزخر فيها وتزبر فيها ؛ وأماويل يعتمدها المعتمد فتخيب ، وأقاويل تارة تُخطئ وتارة تصيب ؛ ولقد وردت الشريعة المطهرة بالنهي عن اعتبارك ، وجاءت السنة الغراء بنحو أخبارك وإعفاء آثارك ؛ ونأهيك بفساد هذا الاعتقاد ورد هذا المذهب ، ما ثبت في الصحيح من أنه من قال : مُطرنا بنوء كذا فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب ؛ على أنك في الحقيقة نوع من أنواع ، معدود من جندي ومحسوب من أتباعي ؛ نعم أنا القائم من دليل الاعتبار في القدرة بتمام الفرض ، والفائد بزمام العقل إلى التفكر في خلق السموات والأرض ؛ عنى يتفرع علم الزيجات والتقويم الذي به يُعرف موضع كل واحد من الكواكب السائرة ومدته وإقامتها ، وزمن تشريقها وتغريبها ومقدار رجوعها

وَأَسْتَقَامَتَهَا ؛ وَحَالِ ظَهْوَرِهَا وَأَخْتِفَاتِهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْإِتِّصَالِ  
وَالْإِنْفِصَالِ وَالْحُسُوفِ وَالْكُسُوفِ وَأَخْتِصَاصِ ذَلِكَ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ .

فَقَالَ عِلْمُ كَيْفِيَّةِ الْأَرْصَادِ : مَا عِلْمُ الزِّيَّجَاتِ وَالتَّقْوِيمِ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي الذِّكْرِ عَلَى ،  
وَتَوَثُّرِهِ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَدَى ، إِذْ بِي نَتَعَرَّفُ كَيْفِيَّةَ تَحْصِيلِ مَقَادِيرِ الْحَرَكَاتِ الْفَلَائِكِيَّةِ ،  
وَالْتَوْصُلِ إِلَيْهَا بِالآلَاتِ الرَّصِيدِيَّةِ ؛ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَرْتَبُ عِلْمُ الزِّيَّجَاتِ ، وَيُعْرَفُ فِي التَّقْوِيمِ  
الْإِتِّصَالَاتِ وَالْإِنْفِصَالَاتِ وَالْإِمْتِرَاجَاتِ .

مَعَ مَا يَلْتَحِقُ بِي مِنْ عِلْمِ الْكُرَّةِ الَّذِي مِنْهُ تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ اتِّخَاذِ الْآلَاتِ الشُّعَاعِيَّةِ ،  
وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَائِكِيَّةِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَوَاقِيتِ : كَيْفَ وَأَنَا سَيِّدُ عُلُومِ الْهَيْئَةِ وَزَعِيمُهَا ، وَشَرِيفُهَا فِي الشَّرِيعَةِ  
وَكَرِيمُهَا ؛ بِي تُعْرَفُ أَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ ، وَتُسْتَخْرَجُ جِهَةُ الْقِبْلَةِ بِلِ سَائِرِ الْجِهَاتِ ؛  
وَتُعَلَّمُ أَحْوَالُ الْبُلْدَانِ وَمَحَلُّهَا مِنَ الْمَعْمُورِ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَمَقَادِيرُ أَبْعَادِهَا  
وَأَنْحِرَافُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ ؛ مَعَ مَا يَنْخَرِطُ فِي هَذَا السَّلْكِ مِنْ مَعْرِفَةِ السُّمُوتِ  
وَأَرْتِفَاعِ الْكَوَاكِبِ ، وَمَطَالِعِهَا مِنْ أَجْزَاءِ الْبُرُوجِ وَالطَّلَعِ مِنْهَا وَالغَارِبِ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ  
مِنَ الشُّعَاعَاتِ الْمَخْرُوطَةِ ، وَالظَّلَالِ الْقَائِمَةِ وَالْمَبْسُوطَةِ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَلْتَحِقُ بِي ،  
وَيُنَسَبُ إِلَيَّ وَيَتَعَلَّقُ بِسَبَبِي :

مِنْ عِلْمِ الْآلَاتِ الظِّلِّيَّةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا سَاعَاتُ النَّهَارِ ، وَيُظْهِرُ مِنْهَا الْمَاضِي  
وَالْبَاقِي بِأَقْرَبِ مُلْتَمَسٍ وَأَلْطَفِ أَعْتَابٍ ، مِنْ نَحْوِ الرُّخَامَاتِ الْقَائِمَاتِ ، وَالْمَبْسُوطَاتِ  
مِنْهَا وَالْمَائِلَاتِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْهِنْدَسَةِ : إِنْ فَضَّلْتَ لِمَشْهُورٍ ، وَمَقَامَكَ فِي الشَّرَفِ غَيْرَ مَتَكُورٍ ؛ إِلَّا أَنْ  
آلَاتِكَ بِي مُقَدَّرَةٌ ، وَأَشْكَالُكَ بِأَوْضَاعِي مُحَرَّرَةٌ ؛ فَأَنَا إِمَامُكَ الَّذِي بِهِ تَقْتَدِي ، وَنَجْمُكَ

الذي به تهتدي ؛ بل جميع علوم الهيئة في الحقيقة موقوفة على ، وراجعة في قواعدها إلى ؛ لولاى لم يعرف السطح والكوه ، ولم يميز بين الخطوط والقسي والدوائر المقدره ؛ مع ما ينشأ عنى ، ويستعمل من صحاى ويقتبس منى ؛ من أحوال المقادير ولو احقها ، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها ؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها ، وخواص أشكالها والطرق إلى عمل ما سبيله أن يعمل لها ؛ واستخراج ما يحتاج إلى استخراجها بالبراهين البقيدية القاطعه ، وإظهارها إلى الحس بالأشكال البينة والحدود الجامعة المانعه .

فقال علم عقود الأبنية : نعم ، إلا أنى أنا أجل مقاصدك ، وأعذب مواردك ؛ ونور عيونك ، وعروس فنونك ؛ منى يستفاد بناء الحصون والأسوار ، ويتعرف شق الأبنية وحفر الأنهار ؛ وعمارة المدن وعقد القواصر ، وسد البثوق وبناء القناطر ؛ وتضييد المساكن ووضع المنازل ، ونصب الأشجار وترتيب الرياض ذوات الخمائل .  
فقال علم جحر الأثقال : صدقت ولكنى أنا أساس مبانيك وقاعدة سنائك ، وحامل أثقالك وعمود اعتمادك ؛ بى تعرف كيفية ثقل الثقل العظيم بالقوة اليسيره ، حتى تُثقل مائة ألف رطل بقوة تسمائة وذلك من الأسرار النفيسة والأعمال الخطيره .

فقال علم مرآ كز الأثقال : إلا أنك محتاج إلى فى أعمالك ، وموقف على فى جميع أحوالك ؛ من حيث استخراج مرآ كز الأجسام المحموله ، وبيان معادلة الجسم العظيم بما هو دونه لتوسط المسافة بالآلات المعموله .

فقال علم المساحة : أراك قد غفلت عن معرفة المقادير والمسافات التى هى مقدمة عليك فى وضع المباني ، ومفردة عنك بكثير من المعانى ؛ من أخرج الزراعات ،

وتقدير الرساتيق والبياعات ، وكيفية ذرع المثلثات ، والمربعات ، والمدورات ،  
والمستطيلات ؛ وغير ذلك من دقائق الأعمال ، وإدراك كميات المقادير على التفصيل  
والإجمال .

فقال علم الفلاحة : فإذا قد اعترت أنك من جملة لواحقي ، مندرج في حقوقي  
وداخل تحت مرافقي ؛ فأنا في الحقيقة المقصود منك في الوضع بالقياس ، والمحصا .  
بك دون غيري من غير التباس ؛ مع ما أنا عليه من معرفة كيفية تدبير النبات من بدء  
كونه إلى تمام تدبيره ، وتسمية الجبوب والثمار بإصلاح الأرض وما تحللها  
من المعقنات كالسماد وغيره وما أُنديه من اللطائف في إيجاد بعض الفواكه في غير  
فصله ، وتركيب بعض الأشجار على بعض وأستخراج بعضها من غير أصله .

فقال علم إنباط المياه : إلا أنني أنا بداية عملي ، وغاية منتهى أملك ؛ لا يتم لك  
أمر يدوني ، ولا تثبت لك خضراء ما لم تُسقى من ينارى وعيونى ؛ فأنا الكفيل  
باحياء الأرض الميتة وإفلاحها ، والقائم بتلطيف مزاجها وإصلاحها .

فقال علم المناظر : ما الذى يُجدى أنت وطر فى عنك مُرتد ، ونظرى إليك غير  
مُمتد ؛ وأنى تستطيع مياهاك الترى من الأغوار إلى النجود ، وتتنقل عيونك وأنهارك  
بين الهبوط والصعود ؛ إذا لم أكن لك ملاحظا ، وعلى الاعتناء بأمرِكَ مُحافظا ؛  
مع ما أشتمل عليه غير ذلك من تحقيق المبصرات فى القرب والبعد على اختلاف معانيها ،  
وما يغلط فيه البصر كالأشجار القائمة على شطوط المياه حيث تُرى وأسافلها أعاليها .

فقال علم المرايا المحرقة <sup>(١)</sup> : إنك وإن دقت النظر ، وحققت كل ما وقع عليه  
حاسة البصر ؛ فأنا مقصدك الأعظم ، ومهمك المقدم ؛ طالما أحرقت الفساع

(١) ذكر فى لسان العرب أن المرأة جمعها مرآة كراع وأن العوام يقولون فى جمعها : مرابا .

بُشَعَايَ ، وَحَصَّنْتَ الْجِيُوشَ بِدِفَاعِي ، وَمَتُّ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ الْجَيْشُ الْعَرَمَرَمَ وَالْعَسْكَرَ  
الْجَزَارَ ، وَأَغْنَيْتُ مَعَ أَنْفِرَادِي عَنِ كَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَمُعَاوَدَةِ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْأَلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ : وَإِنْ حَدَّكَ لِكَيْلٍ ، وَإِنْ جَدَّكَ لِقَلِيلٍ ، وَإِنْ  
الْمُسْتَنْصِرُ بِكَ لَدَلِيلٍ ، وَمَاذَا عَسَى تَصِلُ فِي الْإِحْرَاقِ إِلَيْهِ ، أَوْ تَسَلِّطُ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِ ؟ ،  
أَنَا بَاعُ الْحَرْبِ الْمَدِيدِ ، وَالْمُحَصَّنِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالتَّالِيِ بِلِسَانِ الصَّدْقِ عَلَى  
الْأَعْدَاءِ : ( قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ) . فَأَنَا نَفْسُ الْمَقْصُودِ وَعَيْنُ  
الْمُرَادِ ، وَعَمُودُ الْحَقِّ وَقَاعِدَةُ الْجِهَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِيمِيَا : مَا أَنْتَ وَالْقِتَالُ ، وَمُوقَعَةُ الْحُرُوبِ وَقَوَارِعُ التَّرَالِ ؟ وَهَلْ  
أَنْتَ إِلَّا آلَةٌ مِنَ الْأَلَاتِ ، لَا تَسْتَقِيلُ بِنَفْسِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ ؟ وَأَنْتَى يُعْنَى  
السَّلَاحُ عَنِ الْجَبَانِ مَعَ خَوَرِ الطَّبَاعِ ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَطْلُ الصَّنْدِيدُ وَالْمُجَرَّبُ الشُّجَاعُ ،  
فَالْعِبْرَةُ بِالْمُقَاتِلِ ، لَا بِالذَّوَابِلِ ، وَالْعُمْدَةُ عَلَى الرَّجَالِ ، لَا بِبَوَارِقِ السُّيُوفِ عِنْدَ التَّرَالِ ،  
وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعُمْدَةُ فِي الْحُرُوبِ وَجَمْعُ الْعَسَاكِرِ عَلَى التَّقَدِّينِ دُونَ مَاعِدَاهُمَا ،  
وَالْأَسْتِنَادُ إِلَى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِخِلَافِ مَاسَوَاهُمَا ، وَإِلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاقُ وَعَلَى  
فِيهِ يُعْتَمَدُ ، وَعَنَى يُؤْخَذُ وَإِلَى فِي مِثْلِهِ يُسْتَنْدُ ، أَحَاوِلُ بِحُسْنِ التَّدْيِيرِ ، مَا طَبَّخْتَهُ  
الطَّبِيعَةُ عَلَى مَرِّ الدَّهْرِ ، فَآتَى بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَرِيبِ ، وَأُجَانِسُ بَيْنَ الْمَعَادِنِ فِي مُمَازَجَتِهَا  
فِيظْهَرُ عَنْهَا كُلُّ مَعْنَى غَرِيبٍ ، وَأَبْرِزُ مِنْ خِصَائِصِ الْإِكْسِيرِ مَا يَقْلِبُ الْمَرِيحُ قَمَرًا  
مِنْ غَيْرِ لَبْسٍ ، وَيُجِيلُ الزُّهْرَةَ تَمَسًّا وَنَاهِيكَ بِإِحَالَةِ الزُّهْرَةِ إِلَى الشَّمْسِ ، فَصَاحِي  
أَبْدًا عَزِيزُ الْمَنَالِ ، شَرِيفُ النَّفْسِ عَنِ الطَّلَبِ عَفِيفُ اللِّسَانِ عَنِ السُّؤَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحِسَابِ الْمَفْتُوحِ : إِنَّكَ وَإِنْ دَفَعْتَ عَنَّا ، وَجَلَبْتَ غَنِيَّ ، فَأَمَّا أَوْلَاكَ  
الْجَمَّةُ ، وَحَوَاصِلُكَ الضَّخْمَةُ ، مَحْتَاجَةٌ إِلَى حُسَابِي ، غَيْرُ غَنِيَّةٍ عَنِ كُنَّابِي ، أَنَا جَامِعُ

الأموال وضابطة أصولها ، والمتكفل بحفظ جملتها وتفصيلها ؛ مع احتياج كثير من العلوم إلى في الضرب والقسمة والإسقاط .

قد أخذت من علم الارتماطيقى الذى هو أصل علوم الحساب بجوانبه ، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مذاهبه ؛ ونأهيك بشرف قدرى ، ورفعته ذكرى ؛ قول أبى محمد الحريرى فى بعض مقاماته ، منها على شرف قلمى وسنى حالاته : « ولولا قلم الحساب لأودت ثمرة الأكتساب ، ولأنصل التغابن إلى يوم الحساب » .

فقال علم حساب التخت والميل : مه ! فما أنت إلا علم العامة فى الأسواق ، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق ؛ تكاد أن تكون بديها حتى للأطفال ، وضروريا للنساء والعبيد فى جميع الأحوال ؛ يتسع عليك مجال الضرب فتقصر عنه همتك المقصره ، وتتسع عليك مدارك القسمة فتأني بها على التقريب غير محرره ؛ أين أنت من سعة باعى ، وأمتداد ذراعى ، وتحرير أوصاعى ؟ ؛ لا يعتمد أهل الهيئة فى مساحة الأفلاك والكواكب غير حقائق أمورى ، ولا يعولون فيها - على سعة فضائها - إلا على صحاحى وكسورى .

فقال علم حساب الخطأين : مالى ولعلم لا يوصل إلى المقصود إلا بعد عميل طويل ؟ ، ويحتاج صاحبه مع زيادة العناء إلى استصحاب تخت وميل ، وقد قيل : كل علم لا يدخل مع صاحبه الحماة بخداه قاصر ونفعه قليل ؛ على أن غيرك يُشاركك فيما أنت فيه ، ويوصل إلى مقصودك بطريق لا يدخله الغلط ولا يعتريه ؛ وإنما الشأن فى استكشاف غامض أو إظهار غريب ، ولا أعجب من أن تُصيب إنجراج المجهول من الأعداد بخطأين فيقال : أتى بخطأين وهو مُصيب .

فقال علم الجبر والمقابلة : حسبك فإمّا أنت في استخراج المجهولات كُنْقُطَةً من قطر ، أو نُغْبَسَةٍ من بحر ، تقتصر منها بطرُقِكَ القاصرة وأعمالك النَّاكِبَةِ ، على ما أمكن صيرورته من العدد في أربعة أعدادٍ مُتَنَاسِبَةٍ ، نعم أنا أبو عذرتيها ، وابن بجدتها ، وأخو بجدتها ، أستخرج جميع المجهولات ، من مسائل المعاملات ، والوصايا والتركات ، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى ، ويحُو هذا النحو ويسرى هذا المسرى ، مما يدخل تحت الأموال والحدُور ، والأعداد المطلقة من الصّاح والكُور .

فقال علم حساب الدرهم والدينار : مالك ولادعاء التعميم في استخراج المجهولات وكشف الغوامض ؟ وإمّا أنت قاصرٌ على استعمال المجهولات العددية المعلومة العوارض ، دون ما تزيد عدته على المعادلات الجبرية ، فقد فاتك حينئذ الدعوى الحصرية ، لكنني أنا كاشف هذه الحقائق ، ومبين سبلها بالطف الطرائق ، فبي إليها يتوصل ، وعلى قواعدى لاستخراج مقاصدها يُجمل ويفصل .

فقال علم حساب الدور والوصايا : إن استخراج المجهولات وإن عظم نفعاً ، وحسن وضعاً ، فإنا أعظم منه فائدة ، وأجل منه عائدة ، أيّن مقدار ما يتعلق بالدور من الوصايا ، حتى يتضح لمن يتأمل ، وأقطع الدور فتعود المسألة من أظهر القضايا ، ولولا ذلك لدار أو تسلسل .

فقال علم الفقه : وهل أنت إلا نُبْدَةٌ من الوصايا التي هي بآرقة من بوارق ، تتعلق بأطنابي وتدخل تحت سرادقي ، بي تميز معالم الأحكام ، ويتبين الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام ، ويتعرف ما يتقرب به إلى الله تعالى من العبادات ، وسائر أنواع التكاليف الشرعية العملية مما تدعو إليه الضرورات



وَتَجَرِي بِهِ الْعَادَاتُ ؛ فَأَنَا إِمَامُ الْعُلُومِ الَّذِي بِهِ يُقْتَدَى ، وَعَمِيدُهَا الَّذِي عَلَيْهِ يُعْتَمَدُ  
وَتَجْمَعُهَا الَّذِي بِهِ يُهْتَدَى ؛ فَلَوْلَا إِرْشَادِي لَضَلَّ سَعَى الْمُكَلِّفِينَ ، وَلَا مَسَّوْا فِي دِيْنَاءِ  
مُدْهَمَّةٍ فَأَصْبَحُوا عَنْ رَكَائِبِ الْخَيْرِ مُخْلِفِينَ .

وَأَهْيِكَ أَنْ مِنْ جُمْلَةِ أَفْرَادِي ، وَأَحَادِ أَعْدَادِي : -

علم الفرائض الذي حصَّ الشارع على تعلمه وتعليمه ، وأخبر بأنه نصف العلم  
منبها على تعظيم شأنه وتفخيمه ؛ وبأبلغ في إثبات قواعده وإحكام أسسه ، فقال :  
« إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكِلْ قِسْمَةَ مَوَارِيثِكُمْ إِلَى مَلِكٍ مُقْرَبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا  
فَقَسَمَهَا بِنَفْسِهِ » .

فقال علم أصول الفقه : إِنَّ مَقَالَكَ لَعَالٌ ، وَإِنَّ جِيدَكَ لِحَالٌ ؛ غَيْرَ أَنِّي أَنَا  
الْمُتَكَفَّلُ بِتَقْرِيرِ أَصُولِكَ ، وَتَوْجِيهِ الْمَسَائِلِ الْوَاقِعَةِ فِي خِلَالِ أَبْوَابِكَ وَفُصُولِكَ ؛  
بِي تُعْرَفُ مَطَالِبُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَائِيَّةِ وَطُرُقُ أَسْتِنْبَاطِهَا ، وَمَوَادُّ حُجْجِهَا  
وَأَسْتِخْرَاجِهَا بِدَقِيقِ النَّظَرِ وَتَحْقِيقِ مَنَاطِطِهَا ؛ فَبِأُصُولِي فُرُوعُكَ مَقَرَّرَةٌ ، وَبِحَاسِنِ  
أَسْتِدْلَالِي حُجُجُكَ مُنْفَعَةٌ مُحَرَّرَةٌ ؛ قَدْ مَهَّدْتُ طُرُقَكَ حَتَّى زَالَ عَنْهَا الْإِلْبَاسُ ، وَبَنَيْتُ  
عَلَى أَعْظَمِ الْأُصُولِ فُرُوعَكَ فَاسْتَدْتَهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ .

فقال علم الحدال : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَقُومُ بِرَأْسِهِ ، وَلَا يَسْتَقِيلُ بِنَفْسِهِ ؛  
بَلْ لَا بُدَّ فِي تَقْرِيرِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الْأَسْتِدْلَالِ ، وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى  
الْمَطْلُوبِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ ؛ وَأَنَا الْمُتَكَفَّلُ بِذَلِكَ ، وَالْمَوْصِلُ بِكَشْفِ حَقَائِقِ  
الْبَحْثِ إِلَى هَذِهِ الْمَسَارِكِ ؛ بِي تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ تَقْرِيرِ الْحُجَجِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَقَوَادِحُ  
الْأَدْلَةِ وَتَرْتِيبُ النُّكْتِ الْإِخْلَافِيَّةِ ؛ فَمَوْضُوعُكَ عَلَى مَحْمُولٍ ، وَنَظَرُكَ إِلَى نَظَرِي بِكُلِّ  
حَالٍ مَوْكُولٍ .

فقال علم المنطق : حَفْضُ عَلَيْكَ ! فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ قِيَاسَاتِي الْمُنْطِقِيَّةِ  
 أُفْرِدْتِ بِالتَّصْدِيفِ ، وَخُصِّصْتِ بِالْمَبَاحِثِ الدِّينِيَّةِ فَخَالَطْتَ أَصُولَ الْفِقْهِ فِي التَّأْلِيفِ ؟ ؛  
 فَأَنْتَ إِذَا فَرَدْتِ مِنْ أَفْرَادِي ، وَوَاحِدَةً مِنْ أَعْدَادِي ؛ مَعَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ سِوَاكَ مِنْ  
 الْقِيَاسَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْقَاطِعَةِ فِي الْمُنَاطَرَاتِ ، وَالْقِيَاسَاتِ الْخَطَاطِيَّةِ وَالْبَلَاغَاتِ النَّافِعَةِ  
 فِي مَخَاطِبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمُخَاصَمَاتِ وَالْمُسَاوَرَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ حَالُ الْقِيَاسَاتِ  
 الشَّعْرِيَّةِ ، وَكَيْفَ يُسْتَعْمَلُ التَّشْبِيهِ الْمُفِيدُ لِلتَّخْيِيلِ الْمَوْجِبِ لِلانْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ ؛  
 كَالإِعْرَاءِ وَالتَّحْذِيرِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّحْقِيرِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ  
 الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَامَّةٌ كُلِّيَّةٌ ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ بِالنَّسْبَةِ  
 إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ ؛ تَعَصُّمِ مَرَاغَاتِي الْفِكْرِ عَنِ الْخَطَايَا فَلَا يَزَلْ ، وَتَهْدِيهِ سِوَاءِ السَّبِيلِ  
 فَلَا يَحِيدُ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَلَا يَضِلُّ ، وَأَسْرِي فِي جَمِيعِ الْمَعْقُولَاتِ فَأَنْصَرِفُ فِيهَا  
 يَدُقُّ مِنْهَا وَيَجَلُّ .

فقال علم دَارِيَّةِ الْحَدِيثِ : قَدْ عَلِمْتَ بِمَا ثَبَّتَتْ بِهِ الْأَدِلَّةُ بِالتَّلْوِيحِ وَالتَّضْرِيحِ ،  
 أَنَّهُ لَا جَمَالَ لِلْعَقْلِ فِي تَحْسِينِ وَلَا تَقْيِيحِ ؛ وَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ مِنْ نَصِّ شَرْعِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ،  
 وَتَسْتَنْدُ فِي مُقَدِّمَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلَا أَقْوَى حُجَّةً ، وَأَوْضَحَ حُجَّةً ؛ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ  
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِذَا تَكَلَّمَ ؛ فَإِذَا اسْتَنْدْتَ إِلَى نُصُوصِهِ ،  
 وَأَعْتَمَدْتَ عَلَيْهِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ فَقَدْ حَسَنْتِ مِنْكَ الْمُقَدِّمَ وَالتَّلَايَ ، وَكَانَتْ  
 مُقَدِّمَاتِكَ فِي الْبَحْثِ أَمْضَى مِنَ الْمُرْهَفَاتِ وَتَنَائِجِكَ أَنْفَعُ مِنَ الْعَوَالِي ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَتْ  
 أُنَى إِمَامِ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَالِكُ قِيَادِ هَذَا الزَّمَانِ .

فقال علم رِوَايَةِ الْحَدِيثِ : لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُنْتَقَى عَلَيْهِ بِمَا لَا طَعْنَ  
 فِيهِ لِمُرِيبٍ ، وَتَعَلَّقْتَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ بِأَوْثِقِ سَبَبٍ فَأَتَيْتِ بِكُلِّ لَفْظٍ حَسَنٍ وَمَعْنَى

غريب؛ إلا أن الدرّايه، موقوفة على الروايه؛ وكيف يقع نظر الناظر في حديث قبل وصوله إليه، أو يتأني العلم بمعناه قبل الوقوف عليه؟؛ وهل يثبت فرع على غير أصل في مقتضى القياس، أو يرقى من غير سلم أو يبنى على غير أساس؟؛ فعلى المحدث تقديم العلم بالرواية بشرطها، ومعرفة أقواله صلى الله عليه وسلم بالسمع المتصل وتحريرها وضبطها.

فقال علم التفسير: قد تبين لدى العلماء بالشرعية أن حكم الكتاب والسنة واحد، وإن اختلفت في الأسماء فلم تختلف في المقاصد؛ إلا أنها وإن اختلفت في الدلالة والإرشاد، فقد اختلفت في الثقل بالتواتر وجاء أكثر السنة بالآحاد.

فقال علم القراءات: إلا أنه لا ينبغي للتفسير أن يقدم على التفسير ما لم يكن بقراءة السبع والشاذّ عليا، وبلغاتها عارفاً وللنظر في معانيها ملازماً؛ مع ما يلحق بذلك من علم قوانين القراءة المتعلقة من المصاحف بخطها، والأشكال والعلامات المتكفلة بتحريرها وضبطها.

فقال علم النواميس: (وهو العلم بمتعلقات النبوة): إنك لفرع من فروع الكتاب المبين، وما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين؛ وإلى النظر في أحوال النبوة وحقيقتها، ومسيب الحاجة إليها في بيان الشريعة وطريقتها؛ والفرق بين النبوة الحقة، والدعوى الباطلة غير المحققة؛ ومعرفة المعجزات المختصة بالأنبياء والرسل عليهم السلام، والكرامات الصادرة عن الصديقين الأبرار والأولياء الكرام؛ فإنا المقدم على سائر العلوم الشرعية، وإمام الأصيلية منها والفرعية.

فقال علم الإلهي: لقد تحققت أن اللازم المحتم، والواجب تقديمه على كل مقدم؛ العلم بمعرفة الله تعالى والطريق الموصل إليها، وإثبات صفاته المقدسة

وما يجب لها ويستحيل عليها؛ وأنه الواجب الوجود لذاته، وبعث الرسل لإقامة الحجّة على خلقه بجمكم آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلّة على ذلك من المعقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والتألي والموضوع والمحمول .

فقال علم أصول الدين : فحينئذ قد فُرت من جمعكما بالشرفين ، وجمع لي منكما الفضل بطرفيه فصرت بكما معلّم الطرفين ؛ وميزت بين صحيح الاعتقاد وفاسده فكان لي منهما أحسن الاختيارين ، وبيّنت طريق الحق لسالكها فكنت سبباً للقوز والنجاة في الدارين ؛ فانا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته ، وكل علم يستمد مني في مبادئه ويفتقر إلى في مقدماته .

فقال علم التصوف : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، إذ كان كل أمرئ بما عمل مجازي وبما كسب رهيناً ؛ إنه يجب على كل من كان بمعتقد الحق جازماً ، أن يكون عن دار الغرور متجافياً ولأعمال البرملازماً ؛ فأنما الدنيا مزرعة للآخرة ، إن حصلت النجاة فنلك التجارة الرابحة وإن كانت الآخرة فيلك إذا كرهه خاسره ؛ فمن لزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم ، ومن اغتر بزخرفها القاني فقد خاب في القيامة وندم .

فلما كثرت الدعاوى والمعارضات ، وتتابعت الحجج والمنافضات ؛ نهض علم السياسة قائماً ، وقصد حسم مادة الحدال وطالمها ؛ وقال : أنا جديؤها المحكك وعديفها المرجب ، وسائسها الكافي وحاكها المهذب ؛ لقد ذكر كل منكم من فضله ما يشوق السامع ، وأظهر من جليل قدره ما تنقطع دونه المطامع ، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج في إثباته إلى دليل ظني ولا برهان قاطع ؛ غير أنه لا يليق بالمنصف أن يتخطى قدره المحدود ولا يتعدى جزئه المقسوم ، ولكل أحد حد يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ؛ فَلَوْ سَلَكَ كُلُّ مِنْكُم سَبِيلَ الْمَعْدَلَةِ ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ فَوْقَ عِنْدِ مَا حُدَّ لَهُ ؛ لَكَانَ بِهِ أَلْيَقٌ ، وَلِمَقَامِ الْعِلْمِ أَرْفَقٌ .

فَقَالَ عِلْمٌ تَدْبِيرِ الْمَنْزِلِ : لَقَدْ تَحَرَّيْتَ الصَّوَابَ ، وَنَطَقْتَ بِالْحِكْمَةِ وَفَضَّلِ الْخِطَابَ ؛ لَكِنَّهُ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْ حَبْرٍ عَالِمٍ ، وَإِمَامٍ حَاكِمٍ ؛ يَكُونُ لَشَمْلِكُمْ جَامِعًا ، وَلِمَوَاقِعِ الشُّكِّ فِي مَحَلِّ التَّفَاضُلِ بَيْنَكُمْ رَافِعًا ؛ مُحِيطٌ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِمَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ ، تَارِفٌ بِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَبَادِيهِ مِنْ حَدِّهِ وَمَوْضُوعِهِ وَفَائِدَتِهِ وَأَسْتِمْدَادِهِ ؛ لِيَبْلُغَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ مُنْتَهَاهُ ، وَيَقِفَ بِهِ مِنَ الشَّرَفِ عِنْدَ حَدِّ لَا يَتَعَدَاهُ ؛ فَلَا يَدْعِي مُدْعٍ بغير مُسْتَحَقٍّ ، وَلَا يَطَالِبُ طَالِبٌ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ ؛ إِلَّا أَنْ الْحَيْطُ بِكُلِّكُمْ عَالِمًا ، وَالْقَائِمُ بِجَمِيعِكُمْ فَهَمًّا ؛ أَعَزُّ مِنَ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْكَبْرِيتِ الْأَحْمَرِ ، وَأَقْلُّ وَجُودًا مِنْ بَيِّضِ الْأَنْوَقِ بَلْ بَيِّضِ الْأَنْوَقِ فِي الْوُجُودَانِ أَكْثَرُ .

فَقَالَ عِلْمُ الْفِرَاسَةِ : عَلَى الْخَيْرِ سَقَطَتْ ، وَبِأَيِّ يَجِدْتَهَا حَطَطَتْ ؛ أَنَا بِذَلِكَ زَعِيمٌ ، وَبِمِظَنَّتِهِ عَالِمٌ ؛ فَالْعِلْمُ عَرَفٌ يَمُّ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَتَلُوحٌ عَلَيْهِ بِوَارِقِهِ وَإِنْ أَكَنَّهُ بَيْنَ جَوَانِبِهِ ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ لَا تَخْفَى رِيحُهُ عَلَى غَيْرِ ذِي زُكَامٍ ، وَالنَّهَارُ لَا يَخْفَى ضَوْؤُهُ عَلَى ذِي بَصِيرٍ وَإِنْ تَسْتَرَتْ شَمْسُهُ بِأَذْيَالِ الْغَمَامِ ؛ وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ وَجُوهَ الْعُلَمَاءِ الْكَلِمَةَ ، الَّذِينَ طَوَّأِيَاهُمْ عَلَى أَجْمَلِ الْعُلُومِ مُنْطَوِيَةً وَعَلَى تَفَاصِيلِهَا مُشْتَمَلَةً ؛ وَسَبَرْتُ وَقَسَمْتُ ، وَتَفَرَّسْتُ وَتَوَسَّمْتُ ؛ فَلَمْ أَجِدْ مِنْ يَلِيقُ لِهَذَا الْمَقَامِ ، وَيَصْلِحُ لِقَطْعِ الْجِدَالِ وَالْخِصَامِ ؛ وَيَعْرِفُ بُلْغَةَ كُلِّ عِلْمٍ فَيُجِيبُ بِلِسَانِهِ ، وَيَحْكُمُ فَلَا يَنْقُضُ حُكْمَهُ غَيْرُهُ لِأَنْخِطَاظِهِ عَنِ الْبُلُوغِ مَكَانِهِ ؛ إِلَّا الْبَحْرُ الرَّانِرُ ، وَ<sup>(١)</sup> الَّذِي لَا يُعْلَمُ لِفَضْلِهِ أَوَّلٌ وَلَا يُدْرِكُ لِمَدَاهِ آخِرٌ ؛ حَبْرُ الْأُمَّةِ ، وَعَلَامَةُ الْأُمَّةِ ؛ وَنَاصِرُ السُّنَّةِ وَحَامِيهَا ، وَقَامِعُ الْبِدْعَةِ وَقَامِيهَا ؛ تَجَلُّ<sup>(٢)</sup>

(١) بياض بالأصل ولعله : الفاضل أو نحوه .

(٢) أصله وقامتها بالهمز تخففه من قناه كنهه قنمه .

شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، وَخُلَاصَةُ غُرَرِ الْأَيَّامِ ، جَلالُ الدِّينِ ، بَقِيَّةُ الْمُجْتَهِدِينَ ؛ أَبُو الْفَضْلِ  
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبُلْقِينِيُّ الشَّافِعِيُّ ، النَّاطِرُ فِي الْحُكْمِ الْعَزِيزُ بِالْديَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَسَائِرُ  
الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَا أُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْوِظَائِفِ الدِّينِيَّةِ ؛ لَا زَالَتْ فَوَاضِلُ  
الْفَضَائِلِ مَعْرُوفَةٌ : فَهُوَ الْعَالِمُ الَّذِي إِذَا قَالَ لَا يُعَارِضُ ، وَالْحَاكِمُ الَّذِي إِذَا حَكَّمَ  
لَا يُتَاقَضُ ؛ وَالْإِمَامُ الَّذِي لَا يَتَخَلَّلُ أَجْتِهَادَهُ خَلَلٌ ، وَالْمُنَاطِرُ الَّذِي مَا حَاوَلَ قَطْعَ خَصِيمٍ  
إِلَّا كَانَ لِسَانُهُ أَمْضَى مِنْ السَّيْفِ إِذَا يُقَالُ : « سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ » :

إِذَا قَالَ بَدَّ الْقَائِلِينَ وَلَمْ يَدَّعِ \* لَمُتَمِّسٍ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزَلًا!

إِنْ تَكَلَّمَ فِي الْفِقْهِ فَكَأَنَّمَا بِلِسَانِ « الشَّافِعِيِّ » تَكَلَّمَ ، وَ « الرَّبِيعِ » عَنْهُ يَرَوِي  
وَ « الْمَزْنِيِّ » مِنْهُ يَتَعَلَّمُ ؛ أَوْ خَاضَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ . قَالَ « الْغَزَالِيُّ » : هَذَا هُوَ الْإِمَامُ  
بِاتِّفَاقٍ ، وَقَطَعَ السَّيْفُ « الْأَمِيدِيُّ » بِأَنَّهُ الْمُقَدَّمُ فِي هَذَا الْفَنِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ أَوْ جَرَى  
فِي التَّفْسِيرِ . قَالَ « الْوَاحِدِيُّ » : هَذَا هُوَ الْعَالِمُ الْأَوْحَدُ ، وَأَعْطَاهُ « ابْنُ عَطِيَّةٍ »  
صَفْقَةً يَدِهِ بِأَنَّهُ مِثْلُهُ فِي التَّفْسِيرِ لَا يُوجَدُ ؛ وَأَعْتَرَفَ لَهُ « صَاحِبُ الْكَشَافِ » بِالْكَشْفِ  
عَنِ الْغَوَامِضِ ، وَقَالَ الْإِمَامُ « نَحْرُ الدِّينِ » : « هَذِهِ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ وَأَسْرَارُ التَّنْزِيلِ »  
فَارْتَفَعَ انْخِلَافٌ وَأَنْدَفَعَ الْمُعَارِضُ ؛ أَوْ أَخَذَ فِي الْقِرَاطَاتِ وَالرِّسْمِ أُرْزَى بِأَبِي « عَمْرُو  
الدَّانِي » ، وَعَدَا شَأُو « الشَّاطِطِيِّ » فِي « الرَّائِيَّةِ » وَتَقَدَّمَ فِي « حِرْزِ الْأَمَانِيِّ » ؛  
أَوْ تَحَدَّثَ فِي الْحَدِيثِ شَهِدَ لَهُ « السُّفْيَانَانِ » بَعْلُو الرِّبْسَةِ فِي الرَّوَايَةِ ، وَأَعْتَرَفَ لَهُ  
« ابْنُ مَعِينٍ » بِالتَّبْرِيزِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الدَّرَايَةِ ؛ وَهَتَفَ « الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ » بِذِكْرِهِ  
عَلَى الْمَنَابِرِ ، وَقَالَ « ابْنُ الصَّلَاحِ » : لِمِثْلِ هَذِهِ الْفَوَائِدِ تَتَعَيَّنُ الرَّحْلَةَ وَفِي تَخْصِيلِهَا  
تَتَفَدُّ الْحَاوِرُ ؛ أَوْ أَبَدَى فِي أُصُولِ الدِّينِ نَظْرًا تَعَلَّقَ مِنْهُ « أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ » بِأَوْفَى  
زَمَامٍ ، وَسَدَّ بَابَ الْكَلَامِ عَلَى الْمُعْتَرِلَةِ حَتَّى يَقُولَ « عَمْرُو بْنُ عَبِيدٍ » وَ « وَاصِلُ بْنُ

عطاء : لَبِتْنَا لَمْ نَفْتَحْ أَبَا فِي الْكَلَامِ ؛ أَوْ دَقَّقَ النَّظْرَ فِي الْمَنْطِقِ بِهَر « الأبهري »  
 فِي مَنَاطِرَتِهِ ، وَكُتِبَ « الْكَاتِبِيُّ » عَلَى نَفْسِهِ وَثَبِقَةً بِالْعَجْزِ عَنِ مُقَاوَمَتِهِ ؛ أَوْ أَلَمَ بِالْجَدَلِ  
 رَمَى « الأرموي » نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ « العَمِيدِيُّ » عُمْدَتَهُ فِي آدَابِ الْبَحْثِ  
 عَلَيْهِ ؛ أَوْ بَسَطَ فِي اللُّغَةِ لِسَانَهُ أَعْتَرَفَ لَهُ أَبُو « سَيِّدَهُ » بِالسِّيَادَةِ ، وَأَقْرَبَ بِالْعَجْزِ لَدَيْهِ  
 « الْجَوْهَرِيُّ » وَجَلَسَ « أَبُو فَارِسٍ » بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَجْلِسِ الْأَسْتِفَادَةِ ؛ أَوْ نَحَا إِلَى النَّحْوِ  
 وَالتَّصْرِيفِ أَرَبِيًّا فِيهِ عَلَى « سَيَبَوَيْهِ » ، وَصَرَفَ « الْكِسَائِيُّ » لَهُ عَزَمَهُ فَسَارَ مِنْ  
 الْبُعْدِ إِلَيْهِ ؛ أَوْ وَضَعَ أُتْمُودَجًا فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ وَقَفَّ عِنْدَهُ « الْجُرْجَانِيُّ » ، وَلَمْ يَتَعَدَّ  
 حَدَّهُ « أَبُو أَبِي الْإِصْبَعِ » وَلَمْ يُجَاوِزْ وَضْعَهُ « الرَّمَّانِيُّ » ؛ أَوْ رَوَى أَشْعَارَ الْعَرَبِ أَرْزَى  
 : « الْأَصْمَعِيُّ » فِي حِفْظِهِ ، وَفَاقَ « أَبَا عَيْبَةَ » فِي كَثْرَةِ رِوَايَتِهِ وَغَزِيرِ لَفْظِهِ ؛ أَوْ تَعَرَّضَ  
 لِلْعُرُوضِ وَالْقَوَافِي أَسْتَحَقَّهُمَا عَلَى « الْخَلِيلِ » ، وَقَالَ « الْأَخْفَشُ » عَنْهُ : أَخَذْتُ  
 الْمُتَدَارِكَ وَأَعْتَرَفَ « الْجَوْهَرِيُّ » بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْفَنِّ مِثِيلٌ ؛ أَوْ أَصَلَ  
 فِي الطَّبِّ أَصْلًا قَالَ « أَبُو سِينَا » : هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْأُصُولِ ، وَأَقْسَمَ  
 « الرَّازِيُّ » بِمُحِبِّي الْمَوْتَى إِنْ « يَقْرَأَ » لَوْ سَمِعَهُ لِمَا صَنَّفَ « الْفُصُولُ » ؛ أَوْ جَنَحَ  
 إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ فَكَأَنَّمَا طُبِعَ عَلَيْهِ ، أَوْ جَدَّبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمُ بِزِمَامٍ  
 فَأَتَقَادَ إِلَيْهِ ؛ أَوْ سَلَكَ فِي عُلُومِ الْهَنْدَسَةِ طَرِيقًا لِقَالَ « أَوْقَلِيدِسُ » : هَذَا هُوَ الْخَطُّ  
 الْمُسْتَقِيمُ ، وَأَعْرَضَ « أَبُو الْهَيْثَمِ » عَنْ حَلِّ الشُّكُوكِ وَوَلَّى وَهُوَ كَظِيمٌ ، وَحَمَدَ  
 « الْمُؤْتَمِنُ بْنُ هُوْدٍ » عَدَمَ إِكْمَالِ كِتَابِهِ « الْأَسْتِكْمَالُ » وَقَالَ : عَرَفْتُ قَدْرَ نَفْسِي : وَفَوْقَ  
 كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ؛ أَوْ عَرَّجَ عَلَى عُلُومِ الْهَيْئَةِ لِأَعْتَرَفَ « أَبُو الرَّيْحَانِ الْبَيْرُونِيُّ » أَنَّهُ الْأَعْجُوبَةُ  
 النَّادِرَةُ ، وَقَالَ أَبُو أَلْفَحٍ : هَذَا الْعَالِمُ قُطْبُ هَذِهِ الدَّائِرَةِ ، أَوْ صَرَفَ إِلَى عِلْمِ الْحِسَابِ نَظْرَهُ  
 لِقَالَ « السَّمَوِيُّ بْنُ يَحْيَى » لَقَدْ أَحْيَا هَذَا الْفَنَّ الدَّارِسَ ، وَنَادَى « أَبُو بَجَلِي الْمَوْصِلِيُّ »  
 قَدْ أَنْجَلْتُ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ غِيَابَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ عَمَّةٌ لِعَامِيهِ وَلَا عُمَّةٌ عَلَى مُمَارِسِ .

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ \* فَإِنَّ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ !

وكيف لا تأتي إليه العلوم مقاليدها، وتصل به الفضائل أسانيدها، وهو ابن شيخ الإسلام وإمامه، وواحد الدهر وعلامه؛ وجامع العلوم المنفرد، ومن حقق وجوده في أوار الأعصار أن الزمان لا يخلو من مجتهد؛ ومن لم يزل موضوع الأوضاع المعبرة عليه محمولا، ومن كان على رأس المائة الثامنة مظاهيا لعمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى؛ فالتناصر عليه وعلى ولده تُعقد، ولا غرو إن قام مُشيدُهما فأنشد :

إِنِ الْمِائَةَ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَتَى \* لَهَا عَمْرُ النَّبِيِّ لَذَا الدِّينِ صَائِنَهُ،

وَوَالِي رِجَالٍ بَعْدَ ذَلِكَ كَمِثْلِهِ \* فَهِيَ عُمَرُ وَاقَى عَلَى رَأْسِ ثَامَنَهُ

يُظَاهِرُهُ نَجَلٌ سَعِيدٌ غَدَّتْ بِهِ \* مَعَاقِلُ عِلْمٍ فِي دُرِّ الْحَقِّ آمِنَهُ .

إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجَهُ \* رَأَيْتَ جَلَالًا مِنْ سَنَا الْفَضْلِ قَارَنَهُ !

فَلَا يَعْدِمُ الْإِسْلَامُ جَمْعَ عَلَاهُمَا \* وَلَنْ يَبْرِحَا لِلدِّينِ دَابَا مِيَامِنَهُ !

فقال علم الأخلاق : أصبت سواء الثغرة وجئت بالرأي الأكل، وعرفت من أين تؤكل الكتيف فطبقت المفصل بالمفصل؛ إلا أن من محاسن الأخلاق، ومعالم الإرفاق؛ أن تعودوا بفضلكم، وترجعوا بمعروفكم وبرئكم؛ إلى من جرى بكم في التفاجر مجرى الإنصاف، وبسط لسان كلمه بما أشتمل عليه كل منكم من جميل الأوصاف؛ ثم كان من شأنه أن وصل بالاتفاق والائتتام حبلكم، وجمع بالمحلل الكريم بعد التبعاد شملكم؛ وذكركم بمحسن المصافاة أصل الوداد القديم، وتلا بلسان الأتفة فيكم : ( فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ) . بان يتنصب كل منكم له شفيعا إلى هذا السيد الجليل ، ويكون له وسيلة إلى هذا الإمام الحفيل ؛ أن يصرف إليه وجه العناية، وينظر إليه بعين الإقبال والرعاية ؛ ليعز في الناس جانبه ، ويطلع



في أفق السعد بعد الأقول غاربه ، ويبلغ من منتهى أمليه ماله جهده ، ويسعد بالنظر السعيد جده فقد قيل : « من وقع عليه نظر السعيد سعد » .

على أنه - أمتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دار الكرامة كما جمع لها بين طاريف المجد وتالده ؛ - قد فتح له من الترقى أول باب ، ولا شك أن نظرة منه إليه بعد ذلك ترقيه إلى السحاب .

فأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه \* وأول الغيث قطر ثم ينسكب !

فقال علم التاريخ : أهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتكم ، وقرؤا عينا إلى القصد الجليل وصلتم ، وعلى غاية الأمل - والله الحمد - حصلتكم ؛ فقد بلوت الأوائل والأواخر ، وخبرت حال المتقدم والمعاصر ؛ فلم أرَ فيمن مضى وغيره ، وشاع ذكره وأشتهر ؛ من ذوى المراتب العلية ، والمناصب السنية ؛ من يساوى هذا السيد الجليل فضلا ، أو يداينه في المعروف قولًا وفعلًا ؛ قد ليس شرفًا لا تطمع الأيام في خلعه ، ولا يتطلع الزمان إلى نزعته ؛ وآتته إلى المجد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فأحاز إليه وعطف ؛ وحلت الرأسة بفنائيه فاستغنت به عن السوى ، وأنأخت السيادة بأفنائيه فالتقت عصاها وأستقر بها النوى ؛ فقضرت عنه خطا من يجاريه ، وضاق عنه باع من يتأويه ؛ واجتمعت الألسن على تقريره فمدح بكل لسان ، وتوافقت القلوب على حبه فكان له بكل قلب مكان :

ولم يحل من إحسانه لفظ محير ، \* ولم يحل من تقريره بطن دقير !

فهو الحري بأن يكتب بأقلام الذهب جميل مناقبه ، وأن يرقم على صفحات الأيام حميد مطالبه ؛ فلا يذهب على ممر الزمان ذكرها ، ولا يزول على توالي الدهور نجرها .

ولما تمَّ للعلوم هذا الاجتماع الذي قَارَن السَّعْدُ جَلَالَهُ ، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْفَضْلِ  
 خِلَالَهُ ؛ أَقْبَلُوا بِوُجُوهِهِمْ عَلَى الشُّعْرِ مُعَارِبِينَ ، وَبِمَا يَلْزِمُهُ مِنْ تَقْرِيرِ يَصِ هَذَا الْحَبْرِ  
 وَمَدْحِهِ مُطَالِبِينَ ؛ وَقَالُوا : قَدْ آتَى النَّثْرُ مِنْ مَدْحِهِ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُوفِ بِجَلِيلِ  
 قَدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَانَتِهِ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَحْتَمِ هَذِهِ الرِّسَالَةُ بِأَبْيَاتٍ بِالْمَقَامِ لِاتِّقَاهُ ، وَبَلَاغُنْ  
 فِيهِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْوَاقِعَةِ مُطَابَقَهُ ؛ قَائِمَةٌ مِنْ مَدْحِهِ بِالْوَاجِبِ ، سَالِكَةٌ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ  
 الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ ؛ لِتَكْتَمَلَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ نَظْمًا وَنَثْرًا ، وَتَقْتَنَّ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ  
 خَطَابَةً وَشِعْرًا ؛ فَقَالَ : سَمِعًا وَطَاعَةً ، وَأَسْتِكَانَةً وَضِرَاعَةً ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَامَ بِعَجَلٍ ،  
 وَأَنْسَدَ مُرْتَجِلًا :

بُشْرَاكُمْ مَعَاشِرَ الْعُلُومِ أَنْ \* جُمِعْتُمْ بِصَدْرِ حَبْرٍ كَامِلٍ !  
 فُنُونُهُ لَمْ تَجْتَمِعْ لِعَالِمٍ \* وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتَمِلْ لِفَاضِلٍ !  
 يَسْفِي الصُّدُورَ إِنْ غَدَا مُنَاطِرًا ، \* وَبَحْثُهُ فَرِيضَةٌ لِمَحَافِلٍ !  
 كَمْ عَمَّرَتْ دُرُوسُهُ مِنْ دَارِسٍ ، \* وَزَيَّنَتْ بِحَلِيهَا مِنْ عَاطِلٍ !  
 وَأَوْصَحَتْ أَقْوَالُهُ مِنْ مُشْكِلٍ \* لَمَّا آتَى بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ !  
 وَكَمْ غَدَّتْ آرَاؤُهُ حَمِيدَةً ، \* وَنَبَهَتْ بِجِدِّهَا مِنْ خَامِلٍ .  
 وَحِكْمُهُ فَحِكْمُ أَقَالِ عَثْرَةٍ \* وَجُودُهُ فَفَوْقَ قَصْدِ الْآمِلِ !  
 هَذَا : وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَأْسَهُ \* مَحْفُوفَةً بِالطَّفِ السَّمَائِلِ !  
 مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَنَالَ شَأْوَهُ ؟ \* أَنَّى لَهُ بِأَمْثَلِ الْأَمَائِلِ ؟  
 مَوْلَى عَلَا فَوْقَ السَّمَاءِ رُتْبَةً \* قَدْ زُيِّنَتْ بِأَفْضَلِ الْفَوَاضِلِ !  
 فَالهِ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْبِهِ ، \* وَمَا لِبَحْرِ جُودِهِ مِنْ سَاحِلِ !  
 حَاشَى لِرَاجٍ فَضْلَهُ أَنْ يَنْتَبِي \* صِفَرَ الْيَدَيْنِ أَوْ مُمَيَّ الْآجِلِ !

قلت : ولم أر من تعرّض للمفاخرة بين العلوم سوى القاضى الرشيد أبى الحسين  
 أبى الزبير فى مقالته المقدم ذكرها على أنها لم تكن جارية على هذا النمط ، ولا مرتبة<sup>(١)</sup>  
 على هذا الترتيب ، مع الأقتصار فيها على علوم قليلة ، أشار إلى المفاضلة بينها على  
 ما تقدم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدى بفضله إلى وجوه الترجيح التى يربح بها  
 كل علم على خصمه ، ويقلج به على غيره ، والمنصف يعرف لذلك حقه . والذى  
 أعاننى على ذلك جلاله قدر من صنفت له وعلو مرتبته ، واتساع فضله ، وكثرة  
 علومه ، وتعداد فنونه ، إذ صفات الممدوح تهدى الماسح وترشده .



ومنها المفاخرة بين السيف والقلم ، وقد أكثر الناس منها : فمن عال وهابط ،  
 وصاعد وساقط .

وهذه رسالة فى المفاخرة بين السيف والقلم ، أنشأها للقرّ الزينى أبى يزيد الدوادار  
 الظاهرى ، فى شهر سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وسميتها : "حلية الفضل وزينة  
 الكرم ، فى المفاخرة بين السيف والقلم" وهى :

الحمد لله الذى أعزّ السيف وشرف القلم ، وأفردهما برتب العلياء فقرن لهما بين  
 المحيد والكرم ، وساوى بينهما فى القسمة فهذا للحكم وهذا للحكم .

أحمده على أن جمع بخير أمير بعد التفرق شملهما ، ووصل بأعزّ ملك بعد التقاطع  
 حبّلهما ، وأرغب إليه بشكر يكابر النجوم فى عديدها ، ويكون للنعمة على ممر الزمان  
 أباً يزيد لها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ياتم الإخلاص  
 بمدّهما ، ولا يتجو من سيفها إلا من أجاب داعيتها وأقرّها ، وأن محمداً عبده ورسوله

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضى فلعلها سقطت من قلم النساخ .

الذي حُصَّ بأشرف المناقب وأفضل المآثر، وأسأثر بالسؤدد في الدارين فخاز أنغر المعالي ونال أعلى المفانير؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم دولة الإسلام فسمت بهم على سائر الدول، وكرعت في دماء الكفر سيوفهم فعدت بخلوق النصر لا بجمرة النجمل؛ صلاة ينقضي دون أنقضائها تعاقب الأيام، وتكمل السنة الأقاليم عن وصفها ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام .

وبعد، فإنه ما تقارب اثنين في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعوا في مقام رفعة إلا أزدحما على المجد وتواردًا، ورام كل منهما أن يكون هو الفائز بالقدح المملئ، وأن يكون مفرقه هو المتوجح وجيده هو المحلئ؛ وأدعى كل منهما أن جواده هو السابق في حابة السباق، والفائز بقصب السبق بالاتفاق؛ وأن نجمه هو الطالع الذي لا يأفل، وسؤدده هو الحاكم الذي لا يعزل؛ وأن المسك دون غيره، والبحر لا يجيء نقطة في غديره؛ والدر لا يصلح له صدفا، ونفيس الجوهر لا يعادله شرفا؛ وأن منابر المعالي موقوفة على قدمه، ومجامر المفانير فاحمة بنشر كرمه .

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في المجد وتقاربا، وأخذتا بطرفي الشرف وتجاذبا؛ إذ كانا قطبين تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدن يجتمعان في دائرة الاعتدال؛ وتنجين يهديان إلى المعالي، ومضباحين يستضاء بهما في حداس اليبالي؛ وقاعدتين تبنى الدول على أركانها، وشجرتين يُحتنى العز من أغصانها؛ جر كل منهما نوب الخيلاء نغرا فمشى وتجتز، وأسبل رداء العجب تيبها فاستجبل ولا تعتر؛ وأنسع له المجال في الدعوى بخال، وطاوعته يد المقال فقال وطال؛ وتطرقتا إليهما عقارب الشحناء ودبت، وتوقدت بينهما نار المناقسة وشبت؛ وأظهر كل منهما ما كان يخفيه فكتب وأملئ، وباح بما يكنه صدره والمؤمن لا يكون حيلئ؛ وبدأ القلم فكلم، ومضى في الكلام بصدق عزيم فما توقف ولا تلغم؛ فقال :

باسم الله تعالى أستفتح ، وبمحمده أتيمن وأستنجح ؛ إذ من شأني الكتابه ، ومن فني الخطابه ؛ وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله تعالى فهو أجذم ، وكل كلام لا يفتح بمحمده فأساسه غير محكم ورداؤه غير معلم ؛ والعاقل من أتى الأمر من فسه ، وأخذ الحديث بنصه ؛ والحق أحق أن يتبع ، والباطل أجدر أن يترك فلا يصغى إليه ولا يستمع ؛ إني لأقول مخلوق بالنص الثابت والمجته القاطعه ، والمستحق لفضل السبق من غير منازعه ؛ أقسم الله تعالى بي في كتابه ، وشرفني بالذكر في كلامه لرسوله وخطابه ، فقال جل من قائل : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْمُونٍ ﴾ . وقال جلت قدرته : ﴿ إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . فكان لي من الفضل وأفر القسمة ، وخصصت بكالم المعرفة بجمعت شوارد العلوم وكنت قيم الحكمة .

فقال السيف : بسم الله والله أكبر : ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ . لكل باغ مضرع ، وللصائل بالعدوان مهلك لا يتجو منه ولا يتبع ؛ وفتح باب الشريعلق به ، وقادح زند الحرب يحرق بلهيه ؛ أقول بموجب أسدلالك ، وأوجب الاعتراض عليك في مقالك :

نعم أقسم الله تعالى بالقلم ولست بذلك ، وكان أول مخلوق ولست المعنى ؛ ما هنالك ؛ إن ذلك لمعنى بكل فهمك عن إدراكه ، ويضلل تجك أن يسرى في أفلاكه ؛ وأنت وإن ذكرت في التزليل ، وتمسكت من الأمتنان بك في قوله : ﴿ علم بالقلم ﴾ بشبهة التفضيل ؛ فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحرمك من مس أنامله الشريفة ما يؤسى على قومه ويسر بخصوله ؛ لكنني قد نلت من هذه الرتبة أسنى المقاصد ، فشهدت معه من الوقائع ما لم تشهد ؛ وحلاني من كفه شرقا لا يزول

حَلِيهِ أَبَدًا، وَقُتُّ بِنَصْرِهِ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ : وَسَلَّ حُنَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا !!! ؛  
 ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جِنْسِي الَّذِي أَنَا نَوْعُهُ الْأَكْبَرُ ، وَنَبَّهَ عَلَيَّ مَا فِيهِ مِنَ  
 الْمَنَافِعِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَفْعِكَ أَعْمٌ وَأَشْهَرُ ؛ وَمَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِي الشَّدَّةِ وَالْبَاسِ ،  
 فَقَالَ تَقَدَّسَتْ عَظْمَتُهُ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ . عَلَيَّ أَنْكَ  
 لَوْ أَعْتَبَرْتَ جِنْسِي الْقَصَبِ وَالْحَدِيدِ ، وَعَرَفْتَ الْكَيْلَ مِنْهُمَا وَالْجَلِيدَ ؛ لِتَحَقَّقْتَ  
 تَسَلُّطَ الْحَدِيدِ عَلَيْكَ قَطًّا وَبَرِّيًّا ، وَتَحَكَّمَ فِيكَ أَمْرًا وَنَهْيًا .

فَقَالَ الْقَلَمُ : قَرَّرْتَ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَعَدْلِهَا ، وَعَوَّلْتَ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَجَهْلِهَا ؛ فَانْتَحَرْتَ  
 بِجَيْفِكَ وَعُدْوَانِكَ ، وَأَعْتَمَدْتَ فِي الْفَضْلِ عَلَى تَعْدِيكَ وَطُغْيَانِكَ ؛ فَمَلْتَ إِلَى الظُّلْمِ  
 الَّذِي هُوَ إِلَيْكَ أَقْرَبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ طَبْعُكَ فِي الْجَوْرِ : وَ « الطَّبِيعُ أَغْلَبُ » ؛ فَلَا فِتْنَةَ  
 إِلَّا وَأَنْتَ أَسَاسُهَا ، وَلَا غَارَةَ إِلَّا وَأَنْتَ رَأْسُهَا ؛ وَلَا شَرًّا إِلَّا وَأَنْتَ فَاتِحُ بَابِهِ ، وَلَا حَرْبَ  
 إِلَّا وَأَنْتَ وَأَصْلُ أَسْبَابِهِ ؛ تُؤَكِّدُ مَوَاقِعَ الْخِصَاءِ ، وَتُتَكَدَّرُ أَوْقَاتُ الصَّفَاءِ ؛ وَتُؤَثِّرُ  
 الْقِسَاوَةَ ، وَتُؤَثِّرُ الْعَدَاوَةَ . أَمَّا أَنَا فَالْحَقُّ مَذْهَبِي ، وَالصَّدَقُ مَرْكَبِي ؛ وَالْعَدْلُ سَيْمِي ،  
 وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زِينَتِي ؛ إِنْ حَكَمْتُ أَقْسَطْتُ ، وَإِنْ أَسْتَحْفِظْتُ حَفِظْتُ وَمَا فَرُطْتُ ؛  
 لَا أَفْشِي سِرًّا يَرِيدُ صَاحِبُهُ كَتْمَهُ ، وَلَا أَكْتُمُ عِلْمًا يَتَغَيُّ مُتَعَلِّمُهُ عِلْمَهُ ؛ مَعَ عَمُومِ  
 الْحَاجَةِ إِلَى ، وَالْإِفْتِقَارِ إِلَى عِلْمِي وَالْأَكْتِسَابِ مِمَّا لَدَيْ ، أُدِيرُ فِي الْقِرطَاسِ كَاسَاتِ  
 نَحْمَرِي فَأُزِرِّي بِالْمَزَامِيرِ وَأَهْزَأُ بِالْمَزَاهِرِ ، وَأَنْفُثُ فِيهِ سِحْرَ بَيَانِي فَالْعَبُّ بِالْأَلْبَابِ  
 وَأَسْتَجْلِبُ الْخَوَاطِرَ ، وَأُنْفِذُ جِيوشَ سُطُورِي عَلَى بُعْدِ فَأَهْزِمُ الْعَسَاكِرَ :

فَلَكُمْ يُقَلِّ الْجَيْشَ وَهُوَ عَرْمَرٌ • وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فَقَالَ السَّيْفُ : أَطَلْتَ الْغَيْبَةَ ، وَجِئْتَ بِالْخَيْبَةِ ؛ وَسَكَتَ أَلْفَا ، وَنَطَقَتْ خَلْفَا .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ • فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ

إِنَّ نِجَادِي حَلِيَّةٌ لِلْعَوَاتِقِ ، وَمُصَاحِبَتِي آمِنَةٌ مِنَ الْبَوَائِقِ ، مَا تَقَلَّدَنِي عَاتِقٌ إِلَّا بَاتَ  
عَزِيْزًا ، وَلَا تَوَسَّدَنِي سَاعِدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حَرَزًا حَرِيْزًا ، أَمْرِي الْمَطَاعُ وَقَوْلِي الْمُسْتَمَعُ ،  
وَرَأْيِي الْمَصُوبُ وَحُجْمِي الْمُسْتَبَعُ ، لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مِفْتَاحًا ، وَلِلظَّلَامِ مُصْبِحًا ، وَلِلْعَزِّ قَائِدًا ،  
وَاللُّعْدَاءِ ذَائِدًا ، فَأَنْتَ لَكَ بِمَسَاجِلِي ، وَمُقَاوِمَتِي فِي الْفَخْرِ وَمُنَافَرَتِي ؟ ، مَعَ عُرْيِي جِسْمِي  
وَمَخَافَةِ بَدَنِكَ ، وَإِسْرَاعِ تَلَاْفِكَ وَقِصْرِ زَمَنِكَ ، وَبُخْسِ أَمْنَانِكَ عَلَى بُعْدِ وَطَنِكَ ،  
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرِي دَمْعِكَ ، وَضِيْقِ ذَرْعِكَ ، وَتَفَرُّقِ جَمْعِكَ ، وَقِصْرِ بَاعِكَ ،  
وَقَوْلَةِ أَتْبَاعِكَ .

فَقَالَ الْقَلَمُ : مَهَلًا أَيُّهَا الْمَسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الْمَغَالِبُ وَالْمُنَاضِلُ ، لَقَدْ  
أَحْشَيْتَ مَقَالًا ، وَتَمَقَّتْ مَحَالًا ، فَغَادَرْتَكِ سُبُلَ الْإِصَابَةِ ، وَخَرَجْتَ عَنِ جَادَةِ الْإِنَابَةِ ،  
وَسُوِّتَ سَمْعًا فَأَسَاتَ جَابَهُ ، إِنِّي لِمُبَارَكِ الطَّلَعَةِ وَسَمِيحِهَا ، شَرِيْفِ النَّفْسِ كَرِيْمِهَا ،  
أَخَذْتُ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوِيْفٌ لِلْمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا ، فَطَائِرِي مَمِيْمُونَ ،  
وَعُوْلِي مَأْمُونُونَ ، وَعَطَائِي غَيْرُ مَمْنُونُونَ ، أَصْلٌ وَتَقَطَعَ ، وَأُعْطِيَ وَتَمَنَعَ ، وَتَفَرَّقَ وَاجْتَمَعَ ،  
وَإِنْ أَزْدِرَأَكَ بِي مِنَ الْكِبَرِ الْمُنْهَبِيِّ عَنْهُ ، وَغَضَبِكَ عَنِّي مِنَ الْعُجْبِ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ ،  
وَمِنْ حَقَّرَ شَيْئًا قَتَلَهُ ، وَمَنْ أَسْتَهَانَ بِفَاضِلٍ فَضَلَّهُ ، وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ حَرْمِي فَإِنِّي لَكَبِيْرُ  
الْفِعَالِ ، وَإِنْ نُحِفَ بَدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيْدُ الْبَاسِ عِنْدَ النَّزَالِ ، وَإِنْ عَرِيَ جِسْمِي فَكَمْ  
كَسَوْتُ عَارِيَا ، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أَرَوَيْتُ ظَامِيَا ، وَإِنْ ضَاقَ ذَرْعِي فَإِنِّي بِسَعَةِ  
الْمَجَالِ مَشْهُورٌ ، وَإِنْ قَصُرَ بَاعِي فَكَمْ أَطَلَقْتُ أُسَيْرًا وَأَنَا فِي سِجْنِ الدَّوَاةِ مَأْسُورٌ ، إِذَا  
أَمْتَطَيْتُ طَرْمِي ، وَتَدْرَعْتُ نِقْسِي ، وَتَقَلَّدْتُ نَحْمِي ، وَجَاسَتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَفْسِي :-

رَأَيْتَ جَلِيْلًا شَأْنَهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ \* ضَنْيٌ وَسَمِيْنًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلٌ !

أَتَسِيَّتَ إِذْ أَنْتَ فِي الْمَعِيْدِنِ تُرَابٌ تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ ؟ ، وَتَتَسِفُّكَ الرِّيَّاحُ وَتُزْرِي بِكَ  
الْأَيَّامُ ؟ ، ثُمَّ صرْتَ إِلَى الْقَيْنِ تَقَعُدُ لَكَ السَّنَادِيْنُ بِالْمَرَّاصِدِ ، وَتَدْمَعُكَ الْمَقَامِعُ وَتَسْطُو

بك المبارد ؛ ثم لولا صقالك لأذهبك الحربُ وأكلك الصدى ، مع قلة صبرك على المطر والندى .

فقال السيف : إنا لله ! لقد استأسدت الثعالب ، واستنشرت البغاثُ فعدَّ العصفورُ نفسه من طير الواجب ؛ وجاء الغرابُ إلى البازي يهدده ، ورجع ابن آوى على الأسد يُشرده ؛ فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمت في السكينة طريق أبناء جنسك ؛ ووقفت عند ما حدثك ، وذكرت عجزك وكسلك ؛ لكان أجدربك ، وأحمد لعاقبتك ، وأيق بأديك .

إن الملوك لتعدني لمهماتي ، وتسنجدني في ملماتي ؛ وتعالى في نسي ، وتعالى في حسي ؛ وتناقس في فني وتحاسد ، وتعلمني عرصة لايمانها فتعاقد بالخلف على وتعاهد ؛ وتدخرني في خزائنها أدخار الأغلاق ، وتعدني أنفس ذخايرها على الإطلاق ؛ فتكلمني الجواهر ، وتعلمني العقود فأظهر في أحسن المظاهر ؛ أبرز للشجعان حدى الأسيل فأسيهم الخدود ذوات السوالف ، وأزهو بقدى فأسلمهم هيف القدود مع لين المعاطف ؛ وأوهم الظمان من قُرْب أن بأنهارى ماء يسيل ، وأخيل للقرور من بعد أنى جدوة نار فيظلني على المدى الطويل ؛ ويخالي متوقع الغيث برقاً لامعا ، ويظني الجائر في الشرق نجماً طالعا ؛ فالشمس من شعاعى في تجل ، والليل من ضوئى في وجل ، وما أسرعت في طلب نار إلا قبيل : « فات ماذبح » و« سبق السيف العدل » .

فقال القلم : برق لمن لاعرفك ، وروج على غير الجوهرى صدقك ؛ فما أنت من بزى ولا عطرى ، ولست بمساو حدك القاطع بقلامه ظفري ؛ إن برقك خلَّب ، وإن ريحك لأزيب ؛ وإن مأك لحامد ، وإن نارك نحامد ؛ ومن أدعى ما ليس له فقد باء بالفجور ، ومن تشعب بما لم يعط فهو كلابس ثوبى زور .



وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النَّجْمَ أَكْبَرُهَا السَّمَى \* بغيرِ دَلِيلٍ كَذَّبْتَهُ ذُكَا !  
 أنا جَذِبْتُهَا الْمُحَكِّمَ ، وَعُدَيْتُهَا الْمُرَجَّبَ ، وَكَرَيْمُهَا الْمُبَجَّلَ وَعَالِمُهَا الْمُهَدَّبَ ؛ يَخْتَلِفُ  
 حَالِي فِي الْأَفْعَالِ السَّنِيَةِ بِاخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ ، وَأَمَشِي مَعَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ بِحَسَبِ  
 الْأَعْرَاضِ ؛ وَأَتَرِيًّا بِكُلِّ زِيٍّ جَمِيلٍ ، فَأَنْزَلُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَأَسِيرُ فِي كُلِّ قَبِيلٍ ؛ فَتَارَةً  
 أَرَى إِمَامًا عَلِيًّا ، وَتَارَةً لُدَّرَ الْكَلَامَ نَائِرًا وَأُنْحَرِي لِعُقُودِ الشَّعْرِ نَاطِلًا ؛ وَطَوْرًا تُلْفِيَنِي  
 جَوَادًا سَابِقًا ، وَمَرَّةً تَجِدُنِي رُحْمًا طَاعِنًا وَسَهْمًا رَاشِقًا ؛ وَأَوْنَةً تُخَالِنِي نَجْمًا مُشْرِقًا ،  
 وَحِينًا تَحْسِبُنِي أَفْعُوًّا مُطْرِقًا ؛ قَدْ فُتَّتِ الشَّبَابَةَ فِي الطَّرَبِ ، وَبَرَزْتُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ  
 مَعْنَى وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَنَا جِنْسُ الْقَصَبِ ؛ فَكَانَتْ لِلْأَغَانِي ، وَكُنْتُ لِلْمَعَانِي ؛ وَجَاءَتْ  
 بِغَرِيبِ النِّعَمِ ، وَجِئْتُ بِبَدِيعِ الْحِكْمِ ؛ وَلَعِبْتُ بِالْأَسْمَاعِ طَرَبًا ، وَوَلِعْتُ بِالْأَلْبَابِ  
 فَاتَّخَذْتُ لَدَهْرِهَا مِمَّا عَرَاهَا عَجَبًا .

فَقَالَ السَّيْفُ : ذَكَرْتَنِي الطَّمَنُ وَكُنْتُ نَاسِيًا ، وَطَلَبْتَ التَّكْثُرَ فَازْدَدْتَ قِلَّةً وَعُدْتَ  
 خَاسِيًا ؛ فَكُنْتُ كَطَالِبِ الصَّيْدِ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ إِنْ لَقِيَهُ أَهْلَكَهُ ، وَخَالَفْتَ النَّصَّ  
 فَالْقَيْتَ بِيَدَيْكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؛ فَاقْفَعْ مِنَ الْعَيْمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَعُدَّ الْهَزِيمَةَ مَعَ السَّلَامَةِ  
 مِنْ أَرْبَحِ الْأَكْسَابِ ؛ فَلَسْتَ مِمَّنْ يُسْقُ غُبَارِي ، وَلَا يُقَالُ فِي الْهَيْجَاءِ ضَرَمِي  
 وَلَا يَصْطَلِي بِنَارِي ؛ فَكَمْ مِنْ بَطَلٍ أَبْطَلَتْ حِرَاكَهُ ، وَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ عَجَلَتْ هَلَاكَهُ ؛  
 وَكَمْ صِنْدِيدٍ أَرْقَتْ دَمَهُ ، وَكَمْ نَابِتِ الْجَأَشِ زَلْزَلَتْ قَدَمَهُ .

وَأَرَادَ الْقَلَمُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْجِدَالِ وَالْخِصَامِ ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِ رِقَّةٌ  
 طَبِعَهُ وَحَسُنَ مَوَارِدُهُ ، وَسَلَّاسَةٌ قِيَادِهِ وَجَمِيلٌ مَقَاصِدُهُ ؛ فَالَّ إِلَى الصُّلْحِ وَجَنَحَ  
 إِلَى السَّلْمِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِ وَتَمَسَّكَ بِالْحِلْمِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى السَّيْفِ بِقَلْبِ صَافٍ ،  
 وَلِسَانِ رَطْبٍ غَيْرِ جَافٍ ؛ فَقَالَ : قَدْ طَالَتْ بَيْنَنَا الْمُجَادَلَةُ ، وَكَثُرَتْ الْمُرَاجَعَةُ وَالْمُقَاوَلَةُ ؛

مع ما بيننا من قرابة الشرف ، وأخذ كل منا من الفضل بطرف ، فنحن في الكرم شقيقان ، وفي المجد رفيقان ؛ لا يستقل أحدا بنفسه ، ولا يأنس بغير صاحبه وإن كان من غير جنسه ؛ وقد حلت الدهر أشطره ، وعامت أصفاه وأكدره ؛ وقلبه ظهرا وبطنا ، وجبت فيا فيه سهلا وحزنا ؛ وإن معاداة الرقيق ، ومباينة الشقيق ؛ توجب شماتة العدو وتغم الصديق ؛ فهل لك أن تعقد للصلح عقدا لا يتعدى حده ، ولا يحل على طول الزمان عقده ؛ لتكون أبدا متالفين ، وعلى السراء والضراء متصاحبين ؛ حتى لا يضرب بنديي جديمة مع أصطحابنا مثل ، ولا يتشبه بنا الفرقدان إلا بآء بالخطل .

وَلَسْتُ بِمُسْتَبِقِ أَخَا لَا تَلْمُهُ • عَلَى شَعَثِ ، أَيُّ الرَّجَالِ الْمُهْدَبِ ؟

فقال السيف : لقد رأيت صوابا ، ورفعت عن وجه المحجة نقابا ؛ وسريت أحسن مسرى وسرت أجمل سير ، وصحبتك التوفيق فأشرت بالصلح ؛ والصلح خير .

وَقَدْ يَجْعُ اللَّهُ الشَّيْتَيْنِ بَعْدَ مَا • يُظَنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلْقِيَا !

ثم قال : لا بد من حكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم يرجع في ذلك إليه ؛ لنحظى بزيادة الشرف ، ونظفر من كمال الرفعة بغرف من فوقها غرف ؛ ولأسنا بفائزين بطبقتنا ، وظافرين ببغيتنا ؛ إلا لدى السيد الأكل ، والمالك الأفضل ؛ المسجد السرى ، والبطل الكمي ؛ والبحر الحضم ، والغيث الأعم ؛ مولى المعالي ومولى النعم ، وممتطي جواد العز ورافع أعلام الكرم ؛ جامع أشات الفضائل ومالك زمامها ، وضابط أمر الدولة الظاهرية وحافظ نظامها ؛ المقر الكريم ، العالى ، المولوى ، الزينى ، أبى يزيد الدوادار الظاهرى ؛ ضاعف الله تعالى حسناته المنكثه ، وزاده رفعة فى الدارين ليجمع له الارتقاء بين منازل الدنيا والآخرة ؛ فهو قُطْبُ

المملكة الذى عليه تدور، وفارسها الأزوع وأسدها المصور، وبطلها السميع وليثها  
الشهير، وأبو عدوتها حقا من غير نكر وأبن بجدتها الساقطة منه على الخير، ومعلمها  
الأمنع وحرزها الحصين، وعقدتها الأنفس وجوهرها الثمين، وتلاذدها العالم  
بأحوالها، والجدير بمعرفة أقوالها وأفعالها، وترجمانها المتكلم بلسانها، وعالمها المتفنن  
فى أفنانها، وطبيبها العارف بطبها، ومنجدها الكاشف لكرها .

هذا : وإنه لما لك أمرنا ، ورأف قدرنا ، والصائل منا بالحدين ، والجامع منا  
بين الضدين ، فلوقيه «فارس عيس» لولى عايسا، أو طرق حمى «كليب» لبات من  
حماه آيسا ، أو قارعه «ربيعه بن مكدّم» لعلا بالسيف مفرقه ، أو نازله «بسطام»  
لبدد جمعه وفرقه ، كما أنه لو قرن خطه بنفيس الجوهر لعلاه قيمه ، أو فاسمه  
«أبن مقله» فى الكتابة لما رضى أن يكون قسيمه ، أو فآخره «أبن هلال» لرأى  
أنه سبقه إلى كل كريمه .

وبالجملة فعزه الظاهر وفضله الأكل ، وسماكه الراح وسماك غيره الأعزل ،  
فلا يسمع الزمان أن يأتى له بنظير، ولا أراد مدح بلوغ شأوه إلا قيل : أتند فلقد  
حاولت الاتيهاض بجناح كبير :

حيملا بالمكرمات وبالعلى \* وحيهلا بالفضل والسؤدد المحض !

فالحمد لله الذى جمعنا باكرم محل وأفضل ، وأحسن مقام وأجمل ، فهلم إليه يعقد  
بيننا عقد الصلح ، ونبايعه على ملازمة الخدمة والنصح .

ثم لم يلبثنا أن كتبنا بينهما كتابا بالصلح والمصافاه ، وتعاهدا على الود والمؤافاه ،  
وأعلن بعقد الصلح مناديهما ، وحدا بذكر التعاضد والتناصر حاديهما ، وراح ينشد :  
حسم الصلح ما اشتته الأعادى ، \* وأذاغته الشس الحساد !

وَزَالَتْ عَنْهُمَا الْأَحْقَادُ وَالْإِحْنُ ، وَبَاتَا فِي أَعَزِّ مَكَانٍ وَأَشْرَفِ وَطَنٍ ؛ وَتَلَّتْ  
قِرَانَهُمَا فَاسْعُدْ ، ثُمَّ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَأَنشَدَ :

لَا يُنْكَرُ الصُّلْحُ بَيْنَ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ \* فَعَاقِدُ الصُّلْحِ عَلَى الْقَدْرِ وَالْهَمِيمِ !

أَبُو يَزِيدَ نِظَامُ الْمُسْلِكِ مَا لِكُنَا \* وَوَأَصِلُ الْعِلْمِ فِي عَلَيْهِ بِالْعَلَمِ .

فَهُوَ الْمُرَادُ بِمَا أَبْيَدِيهِ مِنْ مِدْحَجٍ \* وَغَايَةُ الْقَصْدِ مِنْ تَرْتِيبِ ذَا الْكَلِمِ !

وَإِنْ جَرَى مَدْحُ سَيْفٍ أَوْ عَلَا قَلَمٌ ، \* فَذَلِكَ وَصْفٌ لِمَا قَدْ حَازَ مِنْ كَرَمِ !

قُلْتُ : وَسَبَبُ إِثْنَائِي لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ أَنَّ الْأَمِيرَ أَبَا يَزِيدَ الْمَوْضُوعَةَ لَهُ ، تَعَمَّدَهُ اللَّهُ  
تَعَالَى بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ ، كَانَ مِنْ جَوْدَةِ الْخَطِّ وَتَحْرِيرِ قَوَاعِدِهِ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا ،  
وَعَظُمَتْ مَكَانَتُهُ عِنْدَ سُلْطَانِهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوقِ» وَعَلَتْ رُتْبَتُهُ حَتَّى وُلَّاهُ وَظِيفَةَ  
الدَّوَادِرِيَّةِ بِإِمْرَةِ تَقْدِيمَةِ أَلْفِ ، وَلَمْ يَزَلْ مُقَدِّمًا عِنْدَهُ حَتَّى مَاتَ وَهُوَ مُتَوَلِّئًا ، وَأَوْلَانِي  
عِنْدَ عَمَلِهَا لَهُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْبِرِّ الْمُتَوَالِي مَا يَقْضِرُ عَنْهُ الْوَصْفُ ، وَيَكِلُّ عَنْهُ اللَّسَانُ .

### الصَّنْفُ الْخَامِسُ

( من الرسائل - الأسئلة والأجوبة ، وهي على ضربين )

#### الضرب الأول

( الأسئلة الامتحانية )

قَدْ جَرَتْ عَادَةٌ مَشَائِخِ الْأَدَبِ وَفُضَلَاءِ الْكُتُبِ أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ إِلَى الْأَفْضَلِ  
بِالْمَسَائِلِ يَسْأَلُونَ عَنْهَا : إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْأَسْتِفْهَامِ وَأَسْتِمَاحَةِ مَا عِنْدَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ  
فِي ذَلِكَ ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْأَمْتِحَانِ وَالتَّعْجِيزِ . ثُمَّ تَارَةً يُجَابُ عَنْ تِلْكَ الْأَسْئَلَةِ بِأَجْوَبَةٍ  
فَتُكْتَبُ ، وَتَارَةً لَا يُجَابُ عَنْهَا ، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ .

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالمملكة الشامية ، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه ، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع ، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل الكتاب الديوان عن أسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ . وقد بينت بعضها ونهت عليه في مواضعه في خلال هذا الكتاب ، وهي :

لا يُجْرَحُ الكُرهَ مَنِّي غيرَ نائِيةٍ <sup>(١)</sup> \* ولا أَلينَ لِمَن لا يَتَنبِئني لِبيني !

الاستفتاح بـ«لا» تيمُّنٌ بركة الشهادة ، وهي ههنا مقراضٌ يقطع من العيب المدَّة ويحسم المادَّة ؛ فحسم الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين ، مكلِّ الآداب ، ومليك الشعراء والكتَّاب ؛ شرَّ كلِّ عينٍ حاسِدٍ ولو أنها عين الشمس ، وحماه عن مدَّ ألسنة ذوى الأغتياب والأرتياب من الهمج والهمس ؛ وهيا له أسباب الخير حتى يكون يومه فيه مقصراً عن الغد زائداً على الأمس ، وأستخدم له الأقدار حتى تكون فرائض تقبيل أنامله العشر عندهم كقرائض الخمس ، وجعل ما يرُدُّ عنه العين من العيب بعد شأنه عن المتناولِ وقايةً عن اللس ، حتى يكون المعنى بقول القائل :

ولا عيبَ فيه غيرَ أنِّ علاءه \* إذا حدَّوه كان قد جاوزَ الحدَّ ،

ولا عيبَ أيضاً في ما يمرُّ ببتِّه \* سوى أنها تُروى بالسنة الأعدا !

وحتى يؤمن عليه القائل :

ما كان أحوجَ ذا الكمالِ إلى \* عيبِ يوقيه من العيرِ !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيره لما يريد وانما هو . لا يُجْرَحُ القسْرَ مَنِّي غيرَ مابية . القسْرُ .

الفهر والمأبئة مصدر كالتخمية معناها الإبا . والبيت من كلمة لدى الإصبع القدواني .

وَيُقْبَلُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

شَخَّصَ الْأَنَامُ إِلَى كَيْلِكَ فَاسْتَعَدَّ \* مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بَعِيْبٍ وَاحِدٍ!  
 الْعَبْدُ يَخْدُمُ بِسَلَامٍ مَارَوْضَةَ نَقَطَهَا الْجَوْ بِدَرِّ سَخَائِهِ ، وَأَفْرَغَ عَلَيْهَا الْأَفْقُ سَفَطَ  
 كَوَاكِبِهِ ، وَأَمْتَدَّ نَوْءَ الذَّرَاعِ لِنَدِيحِ سَمَائِهَا ، وَتَأْرِيحِ أَرْجَائِهَا ، وَتَجْمِشِ مَعَاصِمِ أَنْهَارِهَا  
 الْمُنَشَّقَةِ بِأَفْنَائِهَا ، وَصِقَالَ تَسْمَاتِهَا السَّحْرِيَّةِ ، وَمُغَازَلَةَ عِيُونِهَا السَّحْرِيَّةِ ، وَهَوَايَ  
 الْعَالِيَةِ بِفَحَاتِهَا الشَّجَرِيَّةِ ؛ تَصْرِفُ دَنَائِرَ أَزْهَارِهَا الصُّرُوفِ ، وَيَسْئُلُ جَدْوُلَهَا عَلَى  
 الْهَمُومِ السُّيُوفِ ؛ وَتَجْدُبُ حَمَائِمُهَا الْقُلُوبَ بِالْأَطْوَاقِ ، وَيَتَشَفَّعُ دَوْحُهَا إِلَى النُّوَاطِرِ  
 بِالْأُورَاقِ ؛ قَدْ تَرَفَّقَ فِي وَجَنَاتِهَا مَاءُ الشَّبَابِ ، وَغَنَى مُطْرَبُ حَمَائِمِهَا وَعَنْتَرَهُ فِي حَكِّ  
 مِنَ الذُّبَابِ ، وَبَجَرَهَا رَوْتِقُ السَّيْفِ وَفِي قَلْبِ رَوْضَتِهِ الذُّبَابُ .<sup>(١)</sup>

فَمَا كُلُّ أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضِ هِيَ الْحَمَى ، \* وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مِثْلَ نَبْتِ هُوَ الْبَانُ !  
 يَوْمًا بِأَبْجَحٍ مِنْهُ أَشْوَاقًا ، وَأَطْيَبَ مِنْهُ أَنْشَاقًا وَأَنْسَاقًا ، وَالطَّيْبُونَ لِلطَّيْبَاتِ ،  
 وَلِكُلِّ غَيْثٍ نَبَاتٌ ، وَمَا لَذَلِكَ الْغَيْثِ إِلَّا هَذَا النَّبَاتُ .

وَنَعُودُ فَنَقُولُ : لَا أَدْرِي أَأَعْجَبُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا \* عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ !!  
 مِنْ قَوْمٍ هُمْ مَا هُمْ : شَرِبُوا مَنَاسِبَ ، وَطَيَّبُوا مَكَاسِبَ ؛ قَدْ أَمَكَّتْهُمْ الْمَعَالِي ،  
 وَطَاوَعَتْهُمْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ؛ وَخَدَمَتْهُمْ جَوَارِي السُّعُودِ ، وَتَطَامَنَّتْ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَاتِي  
 الصُّعُودِ ، كَابِرِ بِسُكُونِ الْجَاشِ مَنْحَدِرِ (؟) وَكُنْتُ قَدْ اسْتَجَدَيْتُ كُلًّا مِنْهُمْ وَلَكِنْ  
 بِالْكَلامِ ، وَأَسْتَسْقَيْتُ وَلَكِنْ قَطْرَةً مِنْ عَمَامِ الْأَقْلَامِ :

وَأَيْسَرُ مَا يُعْطَى الصِّدِيقُ صَدِيقَهُ \* مِنْ الْهَيِّزِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَا !

(١) العنتر الذباب أروضته . (٢) ذباب السيف حده أو طرفه المنطرف .

”وَلْيُسْعِدِ النَّطَقُ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ“ فَضَنَّ وَظَنَّ مَاظَنَّ ، وَأَسْتَعِظَفَ بِتَسِيمِ الْكَلَامِ ،  
 غُضِنُ يَرَاعِهِ مَا عَطَفَ وَلَا حَنَ ، وَبَجَلٍ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَإِنَّ الْفَضِيلَةَ مِنَ الرَّزْقِ ،  
 وَحَرَمِي لَذَّةَ الْفَاطِظَةِ فَإِنَّمَا التِّي إِذَا أُدْخِلْتَ فِي رَقٍّ دَخَلَ حُرُّ الْبَلَاغَةِ تَحْتَ ذَلِكَ الرَّقِّ ،  
 وَهَلْ هُوَ الْبَحْرُ فَكَيْفَ نَحَّ بِمَدَّةٍ مِنْ مَدَّةٍ ، وَالْغَيْثُ وَلَا أَقُولُ : إِنْ الَّذِي حَبَسَهُ  
 إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَظِّ عِنْدَ عَبْدِهِ :

وَإِذَا الزَّمَانُ جَفَاكَ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى \* طُرًّا فَالَا تَعْتَبِ عَلَى أَوْلَادِهِ!

فَاعَلَى اللَّهِ كَلِمَةَ سَيِّدِنَا الْعَلَامَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَشَكَرْ غَنِيَّ جُودِ كَرَمِهِ وَكَلِمَةَ الدَّارَيْنِ ،  
 [فَهُوَ] صَاحِبُ دِيْوَانِهِمْ ، وَحُجَّةُ زَمَانِهِمْ ، فَلَقَدْ وَصَفَنِي بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْجَوَابِ ، وَشَافَهَنِي  
 مِنَ الشُّكْرِ بِمَا لَا يَتَوَارَى مِنَ الرَّزْقِ بِحِجَابٍ ، وَأَمَّنِي الْعِزَّ وَالزَّمَانَ حَرْبٍ ، وَنَصَرَنِي  
 وَالْأَيَّامُ سَيُوفٌ تَتَمَوَّعُ مِنَ الضَّرْبِ فِي كُلِّ ضَرْبٍ ، وَأَعْطَانِي كَرَمَهُ وَالْمَحَلُّ مَحَلٌّ ،  
 وَفِي قَلْبِ الزَّمَانِ دَخَلُ ، وَنَحَلَنِي شُهَدَاةَ إِحْسَانِهِ وَالْأَوْقَاتُ كِبَارَ النَّحْلِ ، حَتَّى عَدَدَنِي  
 فِي حُبِّهِ مَنْ كَانَ مِنَ اللَّائِمِينَ ، وَأَهْتَدَيْتُ مِنْ لَفْظِهِ وَفَضْلِهِ بِقَمَرَيْنِ لَا يَمِيلُ أَحَدُهُمَا  
 وَلَا يَمِينٍ ، وَصَلْتُ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ بِيَدَيْنِ إِلَّا أَنْ كَلَّمْتَهُمَا فِي الْإِعْرَاضِ يَمِينٍ :  
 وَيَلُومُنِي فِي حُبِّ عُلُوِّ نِسْوَةٍ \* جَعَلَ الْإِلَهُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا!

وَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا شَهَابَ زَمَانِهِمْ ، كَمَا حَرَسَ بِهِ سَمَاءَ دِيْوَانِهِمْ ، فَلَقَدْ أَسْمَعُنِي  
 مِنَ الشُّكْرِ مَا أُرْبِي عَلَى الْأَرَبِ ، وَجَعَلَنِي كَحَاجِبٍ حِينَ دَخَلَ عَلَى كِسْرَى وَهُوَ وَاحِدٌ  
 مِنَ الْعَرَبِ نَحْرَجَ وَهُوَ سَيِّدُ الْعَرَبِ ، وَهَدَيْتَنِي أَنْوَارَهُ وَأَنَا أَخِيطُ مِنْ لَيْلِ الْقَرِيحَةِ  
 فِي عَشْوَاءٍ ، وَجَادَتْ عَلَى أَنْوَارِهِ وَنَاهِيكَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ مِنَ الْأَنْوَاءِ ، وَرَفَعْتَنِي الْفَاطِظَةَ  
 وَلَكِنْ عَلَى السَّمَاءِ بِرَغَمِ حَسُودِي الْعَوَاءِ ، وَهَذِهِ قَصَائِدُهُ فِي تَنَادُرِهَا أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ ،  
 وَتُكْتَبُ بِأَنْقَاسِ اللَّيَالِي عَلَى صَفْحَاتِ الْأَيَّامِ ، مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُوَ بَيْتٌ مَالٍ لَا يَنْقُصُهُ  
 الْإِنْفَاقُ ، وَلَوْلَا التُّقَى لَقَلْتُ : إِنَّهُ الْبَيْتُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِحُجَّةِ الرَّفَاقِ مِنَ الْآفَاقِ ؛

فَتَى أَنْفَرُغْ لَطَلِبَ مَدْحِهِ ، وَقَدْ شَغَلَنِي بِمَنْحِهِ ؟ ، وَمَتَى أَجَارِيهِ بِأَمْتِدَاحِ وَإِنَّمَا مَدْحِي  
له من فوائد مدحه :

وما هو إلا من نَدَاهُ وَإِنَّمَا \* معاليه تُمَلِّينِي الَّذِي أَنَا كَاتِبُهُ !

أَمْ أَعْجَبُ مِنْ سَيِّئِ عِنَانِ الثَّنَاءِ إِلَيْهِ ، وَجَلَوْتُ عَرَائِسَ الْمَدَائِحِ عَلَيْهِ ؛ وَعَادَيْتُ  
فِي نَنْضِيدِ أَوْصَافِهِ الْكِرَى ، وَأَنْضَيْتُ بِالْقَلَمِ لَهُ فِي نَهَارِ الطَّرْسِ وَلَيْلِ النَّقْسِ مِنَ السَّيْرِ  
وَالسَّرَى ؛ وَمَدَحْتُهُ بِمِلْءِ فِيٍّ وَأَجْتَهَدْتُ فِي وَصْفِهِ وَكَانَ سِوَاءَ عَلَيَّ أَنْ أَجْهَدْتُ ،  
فِي وَصْفِهِ أَوْ أَجْتَهَدْتُ ؛ بِخَازِنِي مُجَازَاةِ السَّيَّارِ ، وَأَوْقَعَنِي مِنْ عَنَتِ عَيْتِهِ فِي النَّارِ ،  
وَجَعَلَ مَحَاسِنِي الَّتِي أَدْلِي بِهَا ذُنُوبًا فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِعْتِدَارُ ؟ :

وَكَانَ كَذَنْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً : \* لَعَمْرُوسَةَ وَالذَّئِبُ غَرَّانُ مُرْمِلُ :

أَأَنْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ سُوءٍ سَمَّيْتَنِي ؟ \* فَقَالَتْ : مَتَى ذَا ؟ قَالَ : ذَا عَامٍ أَوَّلُ

فَقَالَتْ : وُلِدْتُ الْآنَ بَلْ رُمْتُ غَدْرَةَ \* فَذُنُوكَ كُلُّنِي لَا هَنَّاكَ مَا كُلُّ !

وَحَلَّ هَذَا الْمُتَرْجِمُ ، وَتَحْقِيقُ هَذَا الظَّنِّ الْمُرْجَمِ ؛ أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الَّذِينَ  
اسْتَفْتَيْتَهُمْ اسْتِنْبَاطًا لِفَوَائِدِهِمْ ، وَأَلْتِفَاطًا لِفَرَائِدِهِمْ ؛ لَا تَكْلِيفًا لَهُمْ فِيمَا لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا  
الْأَقْوَى مِنَ الْأَقْوَامِ ، وَلَا يُسْتَنْجَدُ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا بِأَرْبَابِ صَفَحَاتِ السُّيُوفِ  
لَا أَرْبَابِ قَصَبَاتِ الْأَقْلَامِ ؛ أَرَادُوا الْغَضَّ مِنِّي ، وَقَفَى الْإِحْسَانَ عَنِّي ؛ وَهَيْهَاتَ !

\* أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي \*

هَأَنَا وَبِضَاعَتِي ، وَهَذِهِ يَدِي لِأَنِّي أَلْقَيْتُ بِهَا إِلَى السَّلْمِ وَلَكِنْ لِأَعْرِضَ

صِنَاعَتِي : \* هُوَ الْحَمَى وَمَعَانِيهِ مَعَانِيهِ \*

وَإِنَّهُمْ أَجْتَمَعُوا بِالْمِيدَانِ عَلَى حَدِيثِي ، وَذَكَرُوا قَدِيمِي وَحَدِيثِي ؛ وَتَسَابَقُوا فِي الْغَيْبَةِ  
أَفْرَاسَ رِهَانَ ، وَأَعْجَبَ كَلًّا مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ : هَذِهِ الشُّقْرَاءُ فِي يَدِي وَهَذَا الْمِيدَانُ ؛



وَلَامُوا وَعَدَلُوا، وَهَمُّوا بِالسَّبِّ وَفَعَلُوا، وَأَسْتَطَابُوا لَحْمَ أَخِيهِمْ فَسَلَّقُوهُ بِالسِّنَةِ حَدَادَ  
وَأَكَلُوا؛ حَتَّى تَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى مَنْ جَادَ عَلَى الْجَوَابِ، وَفِعْلُهُ إِمَّا جَزَاءً لِلْمَدْحِ وَإِمَّا  
لِلشَّوَابِ :

فقلتُ لها عيشي جَعَارٍ وَحَرَّي \* بلحيمِ امرئِي لم يَشْهَدِ اليَوْمَ نَاصِرُهُ!

وما كان المايح أن يُغري بي من سبق مدحه إلى ، ومن أنتصر بعزّه لنفسه فما  
أنتصر لذي "وهذا لعمري جهد من لآله جهد" وما تخلو هذه الأفعال: إِمَّا أَنْ تَكُونَ  
مُجَازَاةً عَلَى مَدْحِهِمْ ، فَأَيُّ الْكِرَامِ وَقَضَلُهُمْ ، وَالْمُنْصِفُونَ وَعَدْلُهُمْ ؟ ، أَوْ ظَنًّا أَنِّي  
عَرَضْتُ بِهِمْ فَيَمَنَ عَرَضْتُ ، فَأَيُّ ذَكَاءِ الْأَلْبَاءِ وَأَيُّ عَقْلُهُمْ ؟ ؛ وَهَلْ تَقْنُ السَّمَاءُ  
أَنْ يَدَا تَصِلَ إِلَيْهَا ، وَالنُّجُومُ أَنْ خَلَقًا تُحْكَمُ عَلَيْهَا ؟ ؛ وَالذَّهَبُ مَحْرُوسٌ لَا يَصْدَا  
حِرْمُهُ ، وَالْجَوْهَرُ مَعْرُوفٌ لَا يُجْهَلُ حُكْمُهُ ؛ وَمَنْ الَّذِي تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ أَنْ يَجْحَدَ الشَّمْسَ  
فَضْلَهَا الطَّائِلَ ، أَوْ يُحَسِّنَ لَهُ عَقْلُهُ أَنْ يَقُولَ : سَجَبَانٌ وَإِئِيلٌ كَبَاقِلٌ ؟ ؛ ... .. (١)  
أذركني ذلك اليوم ولما أشرق ، وأتجدني بكلّ لفظه هي أمضى من السهم وأرشق ،  
وأضوء من النجم وأشرق ؛ وما أعرف كيف صبري على هذا الحرب في صورة  
السلم ؟ ، وما أظنه أراد إلا أن يعلم قلبي الذي في يده الحكم ، كما علمه للقلم ؛ وحيث  
قضى الحديث ما قضى ، ومضى الوقت وما كان إلا سيقا في عرض العبد مضي :

فَكَرَّتْ تَبْتِغِيهِ فَصَادَفْتُهُ \* على دمه ومصرعه السباعا

فأنا أتشدُّ الله تعالى هؤلاء السادة الغائبين ، أو القوم العائنين ؛ هل يعرفون أن  
الذي عرضت به منهم قوم قد استولوا عليهم العيُّ بجزير يرضه ، ونزل فيهم الجهاد  
بقضه وقضيضه ؛ وأصبح بأبهم لهم كبستان بلا ثمار ، وديوانهم على رأي أبي العلاء  
كديوان أبي مهبّار ؛ لا يُحَسِّنُ أَحَدُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ غَيْرَ الْعَامَةِ الْمُدْرَجَةِ ، وَالْعَدْبَةَ الْمَعْوَجَةَ ،

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة .

والعبادة الضيقة والأثواب المفرجة ؛ ويتناول السلم باليمين ويحمله إن شاء الله تعالى  
بالشمال ، ومشي هذا على هذا ولكن على الضلال ؛ لو سئل أحدهم عن «البديع»  
في الكتابة لم يعرف من السؤال غير التردد ، وعن «عبد الحميد» ل زاد في الفكر وتقص :  
وعبد الحميد عبد الحميد ؛ و«الصاحب» لقال : إنه تبرقع بجلسي ، و«الحوارزمي»  
لقال : سرج فرسي ، «والفاضل» لقال : ها هو ذا ذيل ملبسي . فإن كان الأمر  
كذلك ففيم الملام والتفنيد :

عَلَّقُوا اللَّعْمَ لِلسُّبْرَا \* عَلَيَّ ذِرْوَيْ حَضَنٍ<sup>(١)</sup> ،

ثُمَّ لَامُوا السُّبْرَةَ أَنْ \* قَطَّعَتْ نَحْوَهَا الرِّسْنَ ،

لَوْ أَرَادُوا صِيَاتِي \* حَجَّبُوا وَجْهَكَ الحَسْنَ !

والوجه الحسن ههنا وجه المنصب وحجابه عن شين تلك الآثار ، وتحميش تلك  
الألفاظ .

وإن كان غير ذلك فما مثلي مع من ذكرني إلا قول القائل :

سَافِرٌ بَطْرَفِكَ حَيْثُ سِتَّتَ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بَحِيلًا !

فقبيل له : بخلت الناس ، فقال : كذبوني بواحد . وهأنا فلتكذبوني بواحد ممن  
عرضت ، وصحيح ممن أمرضت ؛ وليبرز إلى مضجعه ، وليكن على يقين من مصرعه ؛  
ولا يترك شيئا من أدواته ، ولا يأتي إلا ومعه نادبته من حمام همزاته .

وأنا أقترح عليه من مسائل الكتابة بعض ما أقترحه الفضلاء ، ونبه عليه العلماء ؛  
وإلا فما أنا أبو عذرتيه ، ومالك إمرته ؛ ولا يلوم إلا القائل :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ \* فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الإِمْتِحَانِ !

(١) حزن جبل بأعال نجد .

فانه الذى نبهني عليه وإن لم أكن ساهيا، وذكرني الطعن وما كنت ناسيا، حتى رميته من هذه المسائل، في مجاهل، لا يهتدى فيها بغير الذهن الواقد، واقتحمت به في بحار لا يعصم منها جبل الفكر الجامد، على أنها فيما أغفلت كالتميد من الحار، واللحة من النهار، ولولا الاختصار، لآثت منها بالجمع الحميم فلنحمد الله والاختصار، فأقول:

من كتب في الوريق وأستنبطه؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه؟ ومن غير طين الكتاب بالنشا وضبطه؟ ومن قال: أما بعد في كتابه؟ ومن جعلها في الخطب وأسقطها في ابتدائه في المكتبة وجوابه؟ ومن كره الاستشهاد في مكاتبات الملوك بالأشعار؟ وكيف تركها على ما فيها من الآثار؟ ومن الذى أراد أن يكتب نثرا بغاء شعرا؟ ومن وضع هذه الطرة في التقاليد وأخترعها؟ وما حجتها إذ قدمها على اسم الله ورفعها؟ ومن الذى باعد بين السطور ووسعها؟ وكيف ترك بالتعاضم في كتبه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسعه من التواضع ما وسعها؟ ومن استغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب؟ ومن اكتفى ببيت من الشعر عما يحتاج من تطويله الكتاب؟ ومن الذى عانى المترجمات ورتبها؟ وأخفى ملطفات الجواسيس وغيبها؟ ومن الذى سن البرد وبعثها في المهمات؟ وما أوجز مكاتبة كتب بها من ملك سليمان فاستخدم الطيور في بعض المهمات؟ وما أوجز مكاتبة كتب بها عن خليفة في معنى؟ وما أبلغ جواب وأوجز أجاب به عن خليفة من لا سمي ولا كنى؟ ولم أرخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وكيف لم يؤرخ بمولده أو غير ذلك من الأيام؟ ومن الذى أمره الخليفة بكتابة معنى فأرتج عليه الكلام ولقنه في المنام؟ ومن الذى وصف برسالة طويلة شيئا لم يصفه بنثر ولا نظام؟ وكيف جاز للكاتب أن يكتب آية من الكتاب في لفظة يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده

لا من حَفِظَهُ ؟ ، مثلُ قَوْلِهِ مع الرسول : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقول الآخر في كتابه : ﴿ هَذَا كَلِمَاتٌ يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ . وكثير من هذا ؟ وهل يُؤخَذُ عليه في مثل ذلك كما أُخِذَ على الجحَّاج في أسماء المُستَغِيثِينَ به من أهل السَّجْنِ : ﴿ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ﴾ ؟ . وما الفرقُ بينهما ؟

وعَلَامَ يُطَوَّلُ الكَاتِبُ بَاءَ البِسْمَلَةِ ؟ ، ولا يُثَبِّتُ إِلَّا قَلِيلًا وَأَوَّ الحَسْبَلَةَ ؟ ، ولا يُجْمَدُ ولا يُسَمَّلُ على ما أَلِفَ ، وكيف يُعَلَّمُ في بعض السَّجَعَاتِ على الأسماء المقصورة بالياء والأصل فيها الألف ؟ ، وأسأله كيف يَصِفُ القَرَاتِيسَ والأفلام وَيَسْتَدْعِيها ؟ ، والسَّكِينِ والدَّوَاةَ وَيَسْتَمْدِيها ، وكيف يَكْتُبُ مَلِكٌ طَلَبَ مِنْهُ عَدُوٌّ قِطِيعَةً عن جَيْشِهِ يُعْطِيها ؟ ، وكيف يَكْتُبُ عن خَلِيفَةِ أَسْتَسْقَى ولم يَمْطُرْ ؟ ، وخَلِيفَةِ صَارِعٍ فُصِرَعٍ كالمُعْتَصِمِ وكيف يُعْذِرُ ؟ ، وما الذي يَكْتُبُ في نارٍ وَقَعَتْ في حَرَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وما الذي يَكْتُبُ عن المهزوم إلى من هزَّمه في معنى رُكُونِهِ إلى الإجماع ؟ ، وكيف يُبَيِّنُ خَلِيفَةً خُلِعَ قَرَجَعُ ، وعُرِّبَ عن السَّجْنِ وطَلَعُ ؟ ، وأسره العَدُوُّ ثم تَخَلَّصَ وأَسْتَقَامَ بعد ما نَهَضَهُ الدَّهْرُ بِمَرَضٍ ، أو تَمَرَّضَ فانتَهَضَ ؟ ، وكيف يُبَيِّنُ من زَوْجٍ بعد موت أبيه أمه ، ويعزِّي والدا قَتَلَ ولده وولدا قَتَلَ والده ويصَوِّبُ حُكْمَهُ ؟ ، ويكْتُبُ عن حَاصِرٍ حَصَنًا وتركه بعد تَسْهِيلِ المَسَالِكِ ، وكيف يَكْتُبُ في نَيْسَلٍ لم يُوفِ لَاحُوجِ اللهُ لذلك ؟ ، ويعزِّي كَافِرًا عن بعض الأعرَاءِ الأتْرَامِ ، ويُثَبِّتُ عَهْدَ يهوديٍّ بوزارة أمير المؤمنين عليه السلام ؟ ، ويكْتُبُ تَقْلِيدًا لثلاثة أو أربعة من الحُكَّامِ ، وَيَسْتَنْجِدُ بأموالٍ أو مَسَاكِينِ (؟) من عَدُوٍّ كَافِرٍ على كَافِرٍ ؟ وَيُبَشِّرُ عَدُوًّا بأخْذِ بلاده منه ، وَيَعْتَذِرُ عن مَلِكٍ أَخَذَتْ شَوَانِيهِ وَحُجِرَتْ عنه ؟ ، وَيُبَيِّنُ خَصِيًّا بِزَوَاجِهِ ، وَيَعْتَذِرُ عن قَرٍّ وترك ولده تَحْكُمُ الظُّبَا في أوداجِهِ ؟ ،

(١) كذا في الأصول . ولعله في إساءة .

وَيَكْتُبُ مَلِكِ بَنِي مَبَانِي فَأَحْتَرَقَتْ أَوْ وَقَعَتْ، أَوْ أَجْرَى خِيُولَ رَهَانٍ فُسِيقَتْ خَيْلُهُ  
وَأَنْقَطَعَتْ؟؛ أَوْ نَحَرَ لَصِيدٍ فَلَمْ يَجِدْ مَا يُصَادُ، أَوْ لِبُرْزَةِ بِنْدُقٍ أَحْتَفَلُ فِيهَا وَلَمْ يَصْرَعْ  
شَيْئًا مِنَ الْوَأَجِبِ الْمُعْتَادِ؟؛ أَوْ رَكِبَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ تَمَاكِكِهِ فَتَقَطَّرَ بِهِ الْجَوَادُ،  
أَوْ وُضِعَتْ لَهُ أَتَى فُضِّلَهَا بِكَلَامٍ عَلَى مَا يُرْجُوهُ مِنْ ذُكُورِ الْأَوْلَادِ .

ومن ههنا أكَفَّ الْقَلَمَ عَنْ شَوْطِهِ، وَأَرْفَعَهُ عَنْهُ مَا وَضَعَهُ اللِّسَانَ مِنْ سَوْطِهِ؛  
خَوْفًا مِنَ الْمَلَالِ وَالصَّخْبِ، وَكَفَى بِالْعُرْفَةِ عَنْ مَعْرِفَةِ النَّهْرِ .

فَإِذَا تَسَيَّطَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ هَذَا الْعِقَالِ، وَتَصَرَّفَ فِي فُنُونِ هَذَا الْمَقَالِ، وَنَحَرَ  
مِنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ نُجُوحَ السَّيْفِ مِنَ الصَّقَالِ؛ أَمْتَدَّتْ كَفَّ الثَّرِيًّا فِي هَذَا النَّسِيَانِ  
بِمَسْحِ جَهَنِّهِ، وَجَاءَ بِجَوَابِ هَذَا النِّكَثِ كَمَا يُقَالُ: بِرَمْتِهِ؟ (؟) وَأَمَاطَ لِثَامَهَا،  
وَشَمَّرَ عَنْ أَزْهَارِهَا أَكْثَامَهَا - أَنْقَطَعَتْ الْأَطَاعُ دُونَ غَايَتِهِ، وَبُسِطَتْ أَيْدِي رَسَائِلِ  
الْبُلْغَاءِ لِمُبَايَعَةِ رَسَالَتِهِ، بَلْ أَتَتْهُ وَحَمَلَتْ قَلَمَهُ عَلَى أَقْلَامِ فُرْسَانَ الْكَلَامِ سَوْدَاءَ رَأْيَتِهِ؛  
وَبَانَ هُنَالِكَ ظُلْمُ الْعَائِبِ وَحَيْفُهُ، فَكَانَ كَمَنْ سَلَّ لِنَجْرِهِ سَيْفَهُ؛ وَعُدِرَ عَلَى تَوَالِي  
التَّائِبِ مُؤْتَبَهُ، وَكَانَ يَوْمئِذٍ لَهُ الْوَيْلُ لِأَمْنِ يُكْذِّبُهُ، وَأَمْتَازَ هَذَا الْفَاضِلُ بِمَا تُحْدِثُهُ  
هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْفَخْرِ وَتَجَلُّبِهِ:

فَعَاجُوا فَاسْتَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ \* وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ!

وَالْمَسْئُولُ مِنْ إِحْسَانِ سَيِّدِنَا أَنْ يُسَدَّ الْخَلَالَ كَيْفَ مَا وَجَدَهُ، وَيُصْلِحَ الْخَطَأَ وَالْخَطْلَ  
كَمَا عُوذَتْهُ مِنْهُ وَكَمَا عُوذَهُ؛ فَإِنَّهُ أَمِيرُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَنَحْنُ الرِّعَايَا، وَشَيْخُ الْفَصَاحَةِ  
وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ كُنَّا وَجَدْنَا فِي زَوَايَاهُ مِنْهَا خَبَايَا؛ وَمَا هَذِهِ الرِّسَالَةُ إِلَّا يَدٌ  
أَمْتَدَّتْ تَسْأَلُ مِنَ الْحِلْمِ مَا يَسْعَىهَا، وَهَذِهِ السُّطُورُ إِلَّا حَبَائِلُ نَتَّصِدُّ مِنْ عَوَائِدِهِ  
مَا يَنْفَعُهَا وَيَرْفَعُهَا:

فَارْخِ عَلَيْهَا سِتْرَ مَعْرُوفِكَ الَّذِي \* سَتَرْتَ بِهِ قَدَمًا عَلَى عَوَارِي!

والله تعالى العالم أنها وردت عن قلب مدهول عن حسن الإيقان، ممدد عليه  
نواب الدهر بأنامل الخفقان، مرمي بسهام الأعدى في قسي الضلوع، غائص في بحر  
الهم وكما رمت أن يلقي إلى در الكلام ألقى در الدموع :

أبكي فتجري مهجتي في عبرتي \* وكان ما أبكىته أبكاني!

لا يدع لي الفكر في قلة... .. الإخوان وقتنا استنيط فيه معنى، ولا يفسح لي  
التهجيب من أبناء الزمان لتقصهم أن أضح نقدا ولا وزنا، أجنح لسلم الأيام فكأني  
لحربها جنحت، وأقدح فكرتي في استعطاف الزمان فكأني فيه قد قدحت، فلو قضى  
الله لي بالمنية من المنية لأرحمت الزمان وأسترحت :

فالأرض تعلم أنني متصرف \* من فوقها وكأني من تحتها!

ولا فرق فيما بيننا غير أننا \* بمس الأذى ندرى ومن مات لا يدري!

ولا بد لي أن أطلق هذه الصناعة طلاقاً قطعياً، لا طلاقاً رجعياً؛ وأجاهرها  
جهاراً حربياً لا جهاراً عينياً؛ وأضع صعدة حملها من أدب عن بدني، وأتولى قوس  
داله مع سهم بائها فما أصبت غير كيدي؛ "كأنا القوس منها موضع الوتر"، "وقلت  
أذهبي يا صبوتي بسلام" فإذا لقيت من آفاتنا، ومنيبت به من الخوف في عرفاتنا،  
ومطرت لا من عوارض قطرها ولكن من عوارض مرجفاتنا :

وإني رأيت الحب في القلب والأذى \* إذا اجتمع لم يلبث الحب يذهب!

ومع هذا الحديث لم أشك أن أحداً سينتقد على تشبيهي، وطرقه قديمة في استفتاح  
المكاتبه، واستنجاح المخاطبه؛ ويقول: تلك أمة قد خلت، ودولة فاضلة أدبرت  
مثل ما أقبلت؛ فكيف تبعها وترك طريقة فضلاء عصره، وأبناء عصره؛ فالجواب

(١) بياض بالأصل ولعله: «مصافاة الاخوان» أو نحوه.

ما قاله القاضى السعيد بن سناء الملك رحمه الله تعالى ، فما كان أسعدَ خاطره ! ،  
وأكثرَ ذهبَ لفظه وجواهره !! :

إني رأيتُ الشمسَ ثم رأيتها \* ماذا على إذا عشقتُ الأحسناء !

وذكرت أن الـاس عدره ونسيت أن الـاس أفعالها<sup>(١)</sup> .

انتهت إلى هذا الموضع ، والديك قد نعى بعيدَ الظلام ، وبلغ عن الصبح السلام ،  
والأزهارُ قد سلبتَه عينه فقام من كراهِ يصيح ، وميدانُ الغصون قد أصحَبَ بمغنى  
الآطيارِ وشغبِ الرِّيح ، ونسرُ السماءِ قد فرَّ من الغدأةِ وبازيها ، والنجومُ قد حملتْ  
إلى ملحدِها من الغربِ على نُعوشِ دياجِيبها ، والمجرةُ من الجوزاءِ عاطلةُ الخصرِ ،  
وخافانُ الصُّبحِ قد حملَ على نجاشي الظلامِ رايةَ النصرِ .

لا يرح سيدنا معصوم الروية والأرتجال ، مسجلا بشجاعة البراعة والحربُ مجال ،  
محمودَ المواقفِ والمساعي "والنفسُ نَقَعُ والطُّروسُ مجال" ، والسلام .

### الصفحة السادسة

( من الرسائل ما تكتب به الحوادثُ والمآجريات )

ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع : فإذا وقعت للأديب ما جرىه وأراد  
الكتابةَ بها إلى بعض إخوانه ، حكى له تلك المآجرية في كتابه مع تمييق الكلام  
في ذلك ، إما ابتداءً وإما جواباً ، عند مصادفة ورود كتابه إذ ذاك إليه .

وهذه نسخة رسالة أنشأها الإمامُ قاضى قضاة المسلمين محيى الدين ، أبو الفضل  
يحيى ، بن قاضى القضاة الإمامِ محيى الدين أبى المعالى محمد ، بن على ، بن محمد ،

(١) وردت هذه الجملة في الأصل هكذا ولا معنى لها .

ابن الحسين ، بن علي ، بن عبد العزيز ، بن علي ، بن الحسين ، بن محمد ، بن عبد الرحمن ،  
 ابن القاسم ، بن الوليد ، بن القاسم ، بن عبد الرحمن ، بن أبان ، بن عثمان ، بن عفان  
 رضى الله عنه ، لما ورد إلى القاهرة المحروسة في التاسع من جمادى الأولى من سنة  
 تسع وعشرين وستمائة ، وتُعرف "برسالة النّس" وهى :

وَرَدَتْ رُقْعَةٌ سَيِّدِنَا أَسْعَدَهُ اللهُ بِتَوْفِيقِهِ ، وَأَوْضَحَ فِي آكْتِسَابِ الْخَيْرَاتِ سُبُلَ  
 طَرِيقِهِ ؛ فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا وَقُوفَ السَّازِ بُوْرُودِهَا ، الْمُسْتَسْعِدِ بُوْفُودِهَا ، الْمُبْتَهِلِ إِلَى اللهِ  
 فِي إِبْقَاءِ مُهَجَّتِهِ الَّتِي يَتَشَرَّفُ الْوُجُودُ بِوُجُودِهَا :

وَلَيْسَ بِتَرْوِيقِ اللِّسَانِ وَصَوْغِهِ \* وَلَكِنَّهُ قَدْ مَازَجَ الْقَلَمَ وَالِدَمَّ !

وَقَضَضْتُهَا عَنْ مِثْلِ النُّورِ تَفْتَحُهُ الصَّبَا ، وَبُرُودِ الرِّيَاضِ تَسَاهَمَتْ فِي آكْتِسَابِ  
 وَشِبَاهِ الْأَهْضَابِ وَالرَّبَا ؛ يَكْتُبُ جَوَادُ الْبَلِيعِ فِي مِضْمَارِ وَصْفِهَا ، وَيَنْبُو عَضْبُ لِسَانِهِ  
 عَنْ مَجَارَاتِهَا فِي رَضْفِهَا ؛ يُجْجَلُ مِجْمَاً النَّهَارِ بِيَاضِ طَرْسِهَا ، وَيُودُّ اللَّيْلُ لَوْ نَفَضَتْ عَلَيْهِ  
 صِبْغَةَ نَفْسِهَا ؛ وَتَحْسُدُ الْكَوَاكِبُ رَائِقَ مَعَانِيهَا ، وَتَمْتَنِي لَوْ أُعِيرَتْ فَضْلَ إِشْرَاقِهَا  
 وَتَلَايِهَا ؛ فِي كُلِّ فِقْرَةٍ رَوْضَةٌ وَكُلُّ مَعْنَى كَأْسٌ مُدَامٌ ، وَكُلُّ أَلْفِ سَاقٍ وَكُلُّ سِينٍ  
 طَرَّةٌ غَلَامٌ ؛ وَكُلُّ وَائِ عَطْفَةٌ صُدُغٌ وَكُلُّ نُونٍ تَقْوِيْسٌ حَاجِبٌ ، وَكُلُّ لَامٍ مَشْقَةٌ  
 عِذَارٌ وَكُلُّ صَادٍ خَطَّةٌ شَارِبٌ ؛ تُصِيبُ مِنْ سَامِعِهَا أَقْصَى مَا يُرَادُ بِالنَّفْتِ فِي الْعَقْدِ ،  
 وَتَسْتَوْلِي بَلْفِظِهَا عَلَى لُبِّهِ آسْتِيْلَاءَ الْجَوَادِ عَلَى الْأَمْدِ .

فَلَمَّا اجْتَلَيْتُ مِنْهَا الْمَعَانِي الْمُسْتَهْبَةِ فِي الْأَلْفِظِ الْمَوْجِزِ ، وَأَجَلْتُ طَرَفِي مِنْهَا مَا بَيْنَ  
 نَزْهَةِ الْمُظْمِنِّ وَعُقْلَةِ الْمُسْتَوْفِزِ ، وَأَسَمْتُ قِيَادِي إِلَى سِجْرِهَا الْمُحَلَّلِ وَإِنْ جَنَى قَتْلَ  
 الْعَاشِقِ الْمُتَحَرِّزِ - عَلِمْتُ أَنْ سَيِّدِنَا أَجْرَى فِي حَلْبَةِ السَّبَاقِ حَازٍ قَصَبَ سَبْقِهَا ،

(١) كذا في الأصل ولعله المسرور .



وَدَلَّتْ لَهُ الْبَلَاغَةُ فَتَوَغَّلَ فِي شِعَابِهَا وَطُرُقِهَا ؛ وَحَكَّتْ يَدُهُ فِي أَعْنَةِ الْفَضَائِلِ فَسَأَمَتْ الْقَوْسُ إِلَى بَارِيهَا ، وَدَرَجَاتِ الْعُلَى إِلَى مُسْتَحَقِّهَا ؛ فَمَنْ وَائِلٌ ؟ وَمَنْ سَعْبَانٌ ؟ ، وَمَنْ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؟ وَأَبْنُ صُوحَانَ ، وَأَيُّ خَيْرٍ يُقَابِلُ الْعِيَانَ ؟ وَمَنْ يُقَاوِمُ مَا هُوَ كَائِنٌ بِمَا كَانَ ؟ . فَسَأَلْتُ خَاطِرِي الْجَامِدَ أَنْ يُعَارِضَ بَوَائِلَهُ طَلَّهَا ، وَأَنْ يُقَابِلَ بِجُئَانِهِ ظَلَّهَا ؛ وَأَنْ يُجَارِيَهَا فِي حَلْبَةِ الْمُسَاجَلَةِ وَإِنْ دُعِيَ بِالسُّكَيْتِ ، وَلَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَكَيْفَ بِنُطْقِي مِنْ مَيِّتٍ ؛ وَأَتَى يُطْمَعُ فِي مُجَارَاةِ الْبَحْرِ وَلَاتَ حِينَ لَعَلَّ أَوْلَيْتَ ؛ فَوَجَدْتُهُ أَصْلَدَ مِنَ الصَّخْرَةِ مَسَا ، وَأَلْقَيْتُ بِأَقْلًا لَدَيْهِ قُسَا ، فَمَا كُلُّ مَنْ طُرِقَ قَرَى ، وَلَا مَنْ إِذَا خَلَقَ فَرَى ؛ وَهَذَا الْمَعْهُودُ مِنْ خَاطِرِي إِذَا كَانَ جَامَأً فَكَيْفَ وَقَدْ نَضَبَ مَائِهِ وَكَدَّرَتْ الْحَوَادِثُ بَحْرَ عَالِمِهِ وَالْغَيْرَ ، فَمِنْ دُونِ أَنْ تُسْتَخْرَجَ مِنْهُ الدَّرُّرُ أَنْ يَلِينَ لِضَرْسِ الْمَاضِعِ الْحَجَرِ ؛ فَبَدَّلَ جُهْدَهُ لِمَا شَعَبَتْ الْهُمُومُ سُبُلَهُ ، وَتَقَنَّعَ بِالْحَلْقِي مَنْ لَا جَدِيدَ لَهُ .

هَذَا مَعَ وَقِيعَةٍ وَقَعَتْ لَهُ فَأَصْبَحَ مُتَشَتَّنًا ، وَثَنَى عِنَانَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا مُتَفَتِّنًا ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي بَارِحَتِهِ آسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْقَلْقُ بِسُلْطَانِهِ ، وَأَسْتَلَبَتْ يَدُ الْأَرْقِ كَرَاهٍ مِنْ بَيْنِ أَجْفَانِهِ ؛ كَأَنَّهُ سَاوَرْتَهُ ضَيْبِلَةٌ سُمُّهَا نَاقِعٌ ، أَوْ مَدَّتْ إِلَيْهِ خَطَايِيفٌ حُجْنٌ لَهَا أَيْدِي الْخَطُوبِ نَوَازِعِ :

إِذَا اللَّيْلُ الْبَسَنَى ثُوبَهُ \* تَقَلَّبَ فِيهِ فَنَى مُوجِعُ

فِتَارَةٌ فِكْرُهُ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ قَلَّةِ حَظِّهِ ، وَأَوْنَةٌ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مَا يَقْدِفُهُ طَارِفُ لَحْظِهِ ؛ وَإِنْ يَدُ الْخَمُولِ قَدْ آسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ ، وَأَزِمَّةُ الْمَطَالِبِ صُرِفَتْ عَنْهُ وَحَقَّقَهَا أَنْ تُصْرَفَ إِلَيْهِ ، وَالسَّعَادَةُ شَارِدَةٌ عَنْهُ وَمَا أَجْدَرَهَا أَنْ تُطِيفَ بِبَابِهِ وَتَسْتَقِرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ :

لَنْ كَانَ أَدْلَى حَائِلٌ فَتَعَدَّرَتْ \* عَلَيْهِ وَكَانَتْ رَادَةً فَتَخَطَّتْ ،

لَمَّا تَرَكَتَهُ رَغْبَةً عَنِ حِبَالِهِ \* وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لَا تَحْرُخُطِ !!

ولقد جهد في سلم الدهر وهو يحاربُه، "وكيف نُوقِيَا ظَهَرَ مَا أَنْتَ رَا كِبُهُ؟" فما شامَ بَارِقَةَ أَمَلٍ إِلَّا أَخْفَقَتْ وَرَجَعَ بِحُفْنَى حُنَيْنٍ، وَقَرَّتْ أَعْيُنُ أَعَادِيهِ كَمَا سَخِنَتْ مِنْهُ الْعَيْنُ، فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَفْرَغٌ مِنْ سَجَامِ سَابَاطٍ وَإِنْ كَانَ "أَشْغَلَ مِنْ ذَاتِ النَّحْيَيْنِ".

وكلمًا تَأْمَلُ جَدَّهُ الْعَائِرَ النَّائِكِصَ، وَنَظَرَ رِزْقَهُ النَّاضِبَ النَّاقِصَ؛ وَقَابَلَهُ الدَّهْرُ بِالْوَجْهِ الْعَابِسِ الْكَالِحِ، وَمَنَى نَفْسَهُ عُقْبَى يَوْمِ صَالِحٍ، رَبَعَ عَلَيْهَا فَمَنَّ لِي بِالسَّائِحِ بَعْدَ الْبَارِحِ؟؛ وَنَابَحَى نَفْسَهُ بِأَعْمَالِ الرَّاكِبِ، وَالْأَضْطْرَابِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَنْ يَرَى بِالْحُودِ طَلْعَةَ نَائِرٍ وَبِالْعَرَمِيِّسِ غُرَّةَ آيِبٍ؛ وَيَصِلُ التَّهْجِيرَ بِالسُّرَى، وَيَبْتُتُ مِنْ قَيْدِ الْأَوْطَانِ مُوثِقَاتِ الْعُرَى؛ وَإِنْ كَسَدَتْ فِضِيلَةٌ مِنْ فِضَائِلِهِ، أَوْ رَثَّتْ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِهِ؛ اِكْتَسَبَ بِأَحْرَى مِنْ أَخَوَاتِهَا، وَنَفَثَ فِي عُقْدِهَا وَمَتَّ بِهَا وَقَالَ: أَنَا أَيْبُنُ بَيْجِدَتِهَا؛ فَإِلَامٌ وَعَلَامٌ وَحَتَّى مَتَى، أَجَاوِرُ مِنْ أَنَا فِيهِمْ أَضْيَعُ مِنْ قَمَرِ الشَّتَاءِ؟؛ وَحَالِي أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَ"إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ":

وَمَا أَنَا كَالْعَمِيرِ الْمُقِيمِ بِأَهْلِهِ \* عَلَى الْقَيْدِ فِي بُجْبُوحَةِ الدَّارِ يَرْتَعُ!

ثُمَّ اسْتَهْوَلَ تَقَحُّمَ الْإِغْوَارِ وَالْإِنْجَادِ، وَاسْتَفْتَحَ لِقَادِحَ زِنَادِ الْحِطِّ الْإِكْدَاءِ وَالْإِصْلَادِ، وَأَقُولُ: أَخْطَأَ مُسْتَعْجَلٌ أَوْ كَادَ؛ فَأَثُوبُ مَتَابَ مِنْ حَلَبِ الدَّهْرِ أَشْطَرَهُ، وَأَخَذْتُ إِذَا أَرْتَفَعَ عَنِ الدُّنْيَا مِنْ حِطِّهِ أَيْسَرَهُ، وَبَنَى كَمَا بَنَى سَلْفُهُ وَقَرَّرَ مَا قَرَّرَهُ؛ فَأَقُولُ: أَرْفِضُ الدُّنْيَا وَلَا تُلُوْ عَلَيْهَا، فَتَكُونُ "أَحْمَقُ مِنَ الْمَهْمُورَةِ إِحْدَى خَدَمَتَيْهَا"، "فَالْحُرَّةُ تَجْمُوعٌ وَلَا تَأْكُلُ بِتَدْيِيهَا":

وَلَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ فَاتَهُ \* عَلَى رِفْقِهِ بَعْضٌ مَا يَطْلُبُ.

وَقَدْ يَدْرِكُ الْأَمْرَ غَيْرَ الْأَرِيْبِ \* وَقَدْ يَصْرَعُ الْحَوْلُ الْقُلُوبَ!

وتارة يُخَطَّرُ أَنْ لَوْ سَكَوتُ حَالِي إِلَى أَصْدِقَائِي مِنْ ذَوِي الْجَاهِ ، وَسَأَلْتُهُمْ بِالْحَاقِي  
بِهِمْ فِي الْإِتِّغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَأَحْضَهُمْ عَلَى آتِهَازِ فُرْصَةِ الْإِحْسَانِ قَبْلَ الْقَوْتِ ،  
وَأَضْرَبُ لَهُمْ : ”أَعِنْ أَخَاكَ وَلَوْ بِالصَّوْتِ“ فَلَيْسَ عَلَى مِثْلِي مَنْ يُخَيِّفُهُ الدَّهْرُ فِي ذَلِكَ  
مِنْ جُنَاحٍ ، ”وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ“ ، ثُمَّ أَرَى أَنَّهُمْ لَوْ فَضَّلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ جَلَدُوا ،  
بَلْ لَوْ زُوِيَتْ الْأَرْضُ لَهُمْ لِأَزْدَادُوا ، وَلَوْ مُلْكُوا ظَلَّ اللَّهُ لِأَصْبَحَتْ لَدَيْهِمْ ضَاحِيًا ،  
وَمَا حَالِي بِخَافٍ عَلَيْهِمْ وَكُنِّي بُرْغَانِيًا مُنَادِيًا ، وَقِيلِي بَعِي عَلَى الْأَمْرِ فِقَاتِهِ وَأَدْرِكِ الْجَدَّ  
السَّعِيدَ مُعَاوِيَا ، وَإِلَى كَمْ أَعْلَلُ تَعْلِيلَ الْفَطِيمِ بِالْحِضَابِ :

سَمِئْتُ الْعَيْشِ حِينَ رَأَيْتُ دَهْرِي • يُكَلِّفُنِي التَّذَلُّلَ لِلرَّجَالِ !

وَأُخْرَى يُسَلِّي نَفْسَهُ عَنْ مُصَابِيهَا وَمَصَائِبِهَا ، وَيَمْنِيهَا كَرَّ الْأَيَّامِ بَتَّاعِيهَا ، وَيُقْصُ  
عَلَيْهَا تَقَلُّبَ اللَّيَالِي بِالْأَتَمِّ الْمَاضِيَةِ فِي قَوْلِهَا ، وَأَنَّهَا مَا قَدَّمَتْ لِأَحَدٍ سَعَادَةً إِلَّا عَقَّبَتْهَا  
بِتَغْيِيرٍ ، وَمَا سَقَتْ صَفْوَةَ الْأَمَانِي بَشْرًا إِلَّا شَابَتْ كَأْسُهُ بِتَكْدِيرٍ ، وَأَنَّ سَبِيلَ كُلِّ أَحَدٍ  
مِنْهَا سَبِيلٌ ذِي الْأَعْوَادِ ، وَقُصَارَايَ وَلَوْ آتَخَذْتُ الْأَرْضَ مَسْكًا وَأَهْلَهَا خَوْلًا سَبِيلُ  
رَبِّ الْقَصْرِ مِنْ سَنَدَادٍ ، وَلَوْ عَمَّرْتُ عُمَرَ نُوحٍ كُنْتُ كَأَنِّي وَأَدَمَ وَقَتَ الْوَفَاةِ عَلَى  
مِيعَادٍ ، فَانْ شِئْتَ فَارْفَعْ عَصَا التَّسْيَارِ أَوْضِعْ ، فَمَا هُوَ إِلَّا : ”حَارِبٌ يَجِدُّ أَوْدَعٌ“ .

فَبَيْنَا أَنَا أَعُومُ فِي هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مُتَّفَكِّرًا ، وَأَقْرَعُ سِنَّ النَّدَمِ عَلَى تَقْضَى عُمْرِي فِي غَيْرِ  
مَآرِي مُتَحَسِّرًا ، وَأَتَسَلَّى بِمَصَارِعِ الْأَوَّلِينَ أُخْرَى مُعْتَبِرًا ، وَلَوْ أَنْجَزْتَنِي الْأَيَّامَ مَوَاعِيدَ  
عُرُقُوبٍ ، لَأَفْضَتْ بِي إِلَى أَحَلِّي مِنْ مِيرَاثِ الْعَمَّةِ الرَّقُوبِ ، وَلَقَدْ تَقَاعَسَ أَمَلِي حَتَّى  
قَنَعْتُ بِحَالِي ”وَشَرُّ مَا الْجَاكَ إِلَى مُجَّةِ عُرُقُوبٍ“ ، ثُمَّ يُحَاطِبُنِي حِجَايَ بِأَنَّ تَثَبَّتْ وَأَصْبِرُ ،  
فَاللَّيْلُ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقَمَّرٌ ، فَسَتَبْلُغُ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَيَتَّبِعِي بِكَ إِلَى الْمَقْدُورِ الْكِتَابِ ،  
فَلَا تَعْجَلْ بِجَرَى الْمُدَيْكَاتِ غَلَابِ .

فاسْتَرَوَحْتُ إِلَى فَتْحِ بَابِ كَانَ مُرْتَجَا ، وَأَرْتَدْتُ بِاسْتِجْلَاءِ مِحْيَا السَّمَاءِ مِنْ بَعْضِ  
 هَمِّي قَرَجَا ، وَأَنْتَشَقْتُ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ مَا وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ضَيْقٍ فِكْرِي مَخْرَجَا ؛  
 فَفَتَحْتُهُ عَنْ شُبَّاكِ كَتَخَطِيطِ الْأَوْفَاقِ ، أَوْ كَرُؤْمَةِ شَطْرُنْجٍ وَضَعْتُ بَيْنَ الرِّزَاقِ ؛  
 أَلَيْسَ مِنْ صِبْغَةِ اللَّيْلِ شِعَارَا ، وَأَتَّخِذُ لِاسْتِجْلَاءِ وَجْهِ الْغَزَالَةِ نَهَارَا ؛ جَلِيدٌ عَلَى الْقِيَامِ  
 وَالكَدِّ ، صَبُورٌ عَلَى الْحَالَتَيْنِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ؛ يُحَوِّلُ جُثْمَانَ الْمَرْءِ عَمَّا وَارَاهُ ، وَيُبِيحُ  
 إِنْسَانَ الطَّرْفِ رَعَى حِمَاهُ ؛ يُدِيلُ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ ، وَيُنِيمُ بِمَا اسْتَوْدَعْتَهُ  
 مِنَ الْأَسْرَارِ ؛ يُشْرِفُ إِلَى غَيْضَةٍ قَدْ أَلْتَفَتْ أَشْجَارُهَا ، وَتَهَدَّلَتْ ثِمَارُهَا ، وَرَقَصَتْ  
 اغْصَانُهَا إِذْ غَنَّتْ أَطْيَارُهَا ، وَأَطْرَدَتْ بِصَافِيِ الزَّلَالِ أَنْهَارُهَا ، وَتَمَّتْ بِعَرْفِ الْعَبْرِ  
 الشَّجَرَى أَزْهَارُهَا ؛ وَقَدْ قَامَتْ عَرَائِسُ النَّارُنْجِ عَلَى أَرْجُلِهَا ، تَحْتَالُ فِي حَلِيهَا وَحُلِيِّهَا ؛  
 قَدْ أَلَيْسَتْ مِنْ أَوْرَاقِهَا خَلْعًا خُضْرًا ، وَحَلَيْتَ مِنْ ثِمَارِهَا تَبْرًا ؛ وَنَظَمَ قِدَاحُهَا  
 فِي جِيَادِهَا لَوْلَوْ رَطْبًا ، وَرَنَحَهَا نَسِيمُ السَّحَرِ فَمَالَتْ مُعْجَبًا ؛ وَقَدْ مَدَّتْ فِي أَرْضِهَا  
 مِنَ الْبَنْفَسَجِ مَفَارِشُ سُنْدُسٍ فُرُوزَتْ بِالْحَدَاوِلِ ، كَيْسَاطُ أَخْضَرَ سَلَّتْ أَيْدِي الْقِيُونَ  
 عَلَيْهِ صَقِيلَاتِ الْمَعَاوِلِ ؛ وَقَدْ حَدَقَتْ عُيُونَ الرُّقْبَاءِ مِنَ التَّرْجِسِ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقِ ،  
 وَلَعِبَتْ بِهَا يَدُ النَّسِيمِ فَتَمَالَيْتُ كَعِنَاقِ الْمُحِبِّينَ عِنْدَ الْفِرَاقِ ، فَاجْتَلَيْتُ مِحْيَا وَسِيمًا تَبْلُجُ  
 أَسْرَتَهُ ، وَمَنْظَرًا جَسِيمًا تَرُوقُ بِهِجَّتَهُ ؛ قَدْ مَدَّ السَّمَاطُ بَسَاطًا أَرْقَا ، بُزْهَرِ الْكَوَاكِبِ  
 مُشْرِقَا ؛ وَطَرَزَهُ بِالشَّفَقِ طَرَازًا مُدْهَبًا ، وَأَبْدَى تَحْتَهُ لِلْأَصْبَاحِ مَفْرَقًا أَشْيَا :

وَرَثْتُ قَمِيصُ اللَّيْلِ حَتَّى كَانَهُ \* سَلِيْبٌ بِأَنْفَاسِ الصَّبَا مُتَوَشِّحٌ ،  
 وَرَقَعَ مِنْهُ الدَّيْلُ صُحْبٌ كَانَهُ \* وَقَدْ لَاحَ شَخْصٌ أَشْقَرُ اللَّوْنِ أَجْلِحٌ ،  
 وَوَلَّاحَتْ بَقِيَّاتُ النُّجُومِ كَانَهَا \* عَلَى كَيْدِ الْخَضْرَاءِ نَوْرٌ يُفْتَحُ !

وَجَنَحَ الْبَدْرُ لِلْغُرُوبِ فَنَدَاعَتْ الْكَوَاكِبُ تَبْدِئَهُ كَوَكْبًا فَكَوَكْبًا ، فَكَانَهُ مَلِكٌ اتَّخَذَ  
 الْمَجْرَةَ عَلَيْهِ مَضْرِبًا ؛ وَتَوَجَّ بِالثَّرِيَا إِكْلِيلًا ، وَخَنَسَتْ الْكَوَاكِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوْفِيرًا لَهُ

وتجسلا ، وأصطفت حوله خدماً وجنوداً ، ونشرت من أشعتها ألويةً وبنوداً ،  
وأخذت مقاماتها في مرأى كرهاً بجيوش عبثت للقاء مناجزها ، ومسايقها أخذت فرصة  
النصر ومناجزها :

ولاح سهيلٌ من بعيدٍ كأنه \* شهابٌ ينجيه عن الريح قانس !

وأبرىئُ نسيمُ السحرِ عليلاً ، وجرَّ على أعطاف الأزهار ذَيْلاً بليلاً ، وروى أحاديث  
الرياض بلسان نثره ، مُديعاً لأسرار خزاماه وزهره ، وغردت خطباء الطير على منابر  
الأغصان ، وأستنبطت من قلوب المحبين دقات الأنجبان ، وحث دأى الفلاح ،  
طائفة التقى والصلاح ، على أن تؤدى فرضها ونقلها ، وترقى بمخضوعها بين يدي  
مولاه درجات السعادة التي كانت أحق بها وأهلها ، وهتف بشير النجج بمن أحيأ  
ليته لما تمزق قميص الليل وأنقرى : "عند الصباح يحمد القوم السرى" .

فبينما أنا أفكر في أن جملة ما عاينته سيصبح زائلاً ، وعن تلك الصبغة العجيبة  
حائلاً ، وأتدبر : ((ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً))  
إذ أهدت إلى الأيام إحدى طرفيها وغرائبها ، وكبرى أوايدها وعجائبها ، فطرق سمعى  
من الشباك نباءً ، وتلتها وجبةً تبتعها وثبه ، فاستعدت من كيد الشيطان المرید ،  
وقلت : أسعد أم سعيد ، وإذا نمت قد فارق وجاره إلى وجارى ، وأختارنى على  
الصحراء جارا فارتضيت لجوارى ، فوجب مستانسا ، ومرح بين يدي أنسا ، وأراني  
أحد كتفيه في الأسترسال لينا والآخر بالتمتع شامسا ، فمد له الحرص على جوره حبال  
مكره وشباك ، ويد الغيش تحول دون قنصه وإمسا كه ، وبقايا الظلام تقضى  
بتمنعه ، وتصد عن جعله من الوثاق في موضعه ، وأنا ملازمه ملازمة المعسر لرب  
الدين ، حتى يتبين الصبح لذي عينين .

فلما خَشِيتُ على صَلَاتِي الْفَوْتَ عَدَلْتُ إِلَى تَأْدِيَةِ فَرِيضَتِهَا ، وَتَوَجَّيْتُهَا بَيْنَ يَدَيْ  
مُوجِبِهَا وَعَرَضِهَا ؛ فَلَمَّا انْفَلَتْتُ مِنْ مُصَلَّائِي ، وَأَنْصَرَفْتُ عَنْ مُنَاجَاةِ مَوْلَايَ ؛  
بَرَّقَتْ لِي بَارِقَةٌ ، حُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهَا صَاعِقَةٌ ؛ فَقُلْتُ : أَدْرَقَرُّنَ الْغَزَالَةَ ؟ ، وَالْإِفْلَاتَ  
حِينَ ذُبَالَهُ ؛ فَقِيلَ : إِنَّ الْغُلَامَ نَظَرَ إِلَيْهِ شَرًّا ، وَهَزَّلَهُ الْمُهَنْدُ فَشَقَّ لَهُ مِنَ الظُّلْمَاءِ  
بِحُرِّهَا ، وَأَبْدَى لَهُ وَجْهًا مُكْفَهَرًا ، وَرَامَ أَنْ يُطَيِّبَهُ مِنَ الْمِنْيَةِ مَرْجَبًا وَعَمْرًا ، كَأَنَّهُ قَدْ لَاقَى  
أَسَدًا هَزْبَرًا ؛ وَأَتْرَعَ لَهُ كَأْسَ الْحِمَامِ بِالْوَائِي ، وَرَمَاهُ بِثَالِثَةِ الْإِنَائِي ؛ فَعَطَفْتُ عَلَيْهِ  
بِالْإِيمَةِ مُنْكَرًا لِحَالِهِ ، وَهَتَفْتُ بِهِ زَاجِرًا عَنْ قُبْحِ فِعْلِهِ ، ثُمَّ عَدَرْتُهُ : ” وَمَنْ لَكَ بِأَخِيكَ  
كُلَّهُ “ ؛ وَقُلْتُ لَهُ : مَاذَا تَرَكَ تَصْنَعُ لَوْلَا قَيْتُ أَسَدًا أَغْلِبَا ؟ ، لَقَدْ خَلَّتْ أَنْتَ تَرْتُدُّ - وَإِنْ  
كُنْتُ وَليدًا - أَشْيَابًا ؛ أَمِنْ هَذَا بَادَرْتَ إِلَى السَّيْفِ مُحْتَرِطًا ؟ ، ” إِنَّكَ لِأَجْبِنٌ مِنْ  
الْمُتْرُوفِ ضَرِطًا “ ، لَقَدْ أَظْهَرْتَ مِنَ الْفَشْلِ مَا جَاوَزَ قَدْرَ الْحَدِّ ، وَوَضَعْتَ الْمِزَاحَ  
فِي مَحَلِّ الْحَدِّ وَقَابَلْتَ الْأَسْمَلَ بِالْأَشْدِّ ؛ فَسُحِقًا لَكَ وَبُعْدًا ، لَقَدْ قَدَحَ مُرَجِّيكَ  
بَعْدَهَا زِنَادًا صَلْدًا ، وَأَسْتَنْبَعِ الْمَاءَ جَلْمَدًا جَلْدًا .

فَصَوَّبَ طَرْفَهُ فِي وَهْتَفٍ مُنَادِيًا ، وَأَظْهَرَ وَفَاءً أُرْزَى بِالسَّمْوَعِلِ بْنِ عَادِيَا : أُنْجِ  
هَرَبًا وَلَا إِخَالِكَ نَاجِيَا ؛ إِنِّي رُمِيْتُ مِنَ الْخُطُوبِ بِأَضْعَمِهَا ، وَلَا يُنْبِتُكَ بِالْحُرُوبِ  
كَمَجْرِيهَا ، وَالْغَاصُ بِاللَّقَمَةِ أَخْبَرَهَا ؛ فَلَقْدَ أَوْطَأَنِي مَا لَا أَسْتَقِيلُ مِنْهُ الْعَثْرَةَ ، وَمَالَاقَيْتُ  
فِي حَرْبٍ كَهَذِهِ الْمَرَّةِ ، ” وَالْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الْخِمْرَةَ “ ؛ لَقَدْ صَرَّحَ لِي بِالشَّرِّ وَلَمْ يُجِجِمْ ، وَكَشَّرَ  
عَنْ أَنْبِيَاءِهِ غَيْرِ مُتَبَسِّمٍ ؛ ” وَحَسْبُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ “ ، ” وَأَسْتُ الْبَائِنِ أَعْلَمُ “ ؛ تَالَلَّهِ إِنَّهُ لِأَجْرًا  
مِنْ خَاصِي الْأَسَدِ ، وَلَيْتَ سَبْرَتَهُ لَتَعْلَمَنَّ مَا بَيْنَ الذَّنْبِ وَالنَّقْدِ ؛ وَلَقَدْ رَضِيَتْ نَفْسِي مِنْ  
الْغَنِيمَةِ أَنْ تُؤَوَّبَ بِذِمَائِهَا ، لَمَّا تَسَبَّتْ بِمُخْتَصِرِي نَخْضِبَهَا بِذِمَائِهَا ، فَقُلْتُ : ” أَجْفَلَ عَنْ  
جَنَابِكَ الْخَيْرُ وَأَجْلَى “ ، ” أَضَرِطًا وَأَنْتَ الْأَعْلَى “ ؛ ؛ ثُمَّ تَضَاحَكْتُ إِلَيْهِ لَمَّا شَاهَدْتُ  
أَسْتِعْبَارَهُ ، وَأَوَيْتُ لَهُ إِذْ رَأَيْتُ اسْتِكْثَارَهُ الْخُطْبَ وَأَسْتِجَارَهُ ؛ وَقُلْتُ : مِنْ ضَافِ الْأَسَدِ

قَرَاهُ أَظْفَارَهُ، وَمِنْ حَرَكِ الدَّهْرِ أَرَاهُ أَفْتِدَارَهُ، وَعَدَلْتُ إِلَى الدُّوَلِ الشَّامِسِ، المُسْتَأْسِدِ  
المُسْتَأْسِسِ، وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَأَنْقَادَ لَهَا طَائِعًا، وَخَضَعَ لِإِجَابَةِ دَعْوَتِي سَامِعًا.

فَلَمَّا حَازَهُ فِي القَبْضَةِ الإِسَارَ، وَبَطَلَ الإِقْلَالَ مِنْ ذَلِكَ اللَّفْظِ وَالِإِكْتَارِ، وَقَدْ  
كَانَ أَعَزَّ مِنَ الأَبْلَقِ العُقُوقِ، وَأَبْعَدَ مِنْ بَيْضِ الأَنْوَقِ؛ أَسْتَجَلَيْتُ صُورَتَهُ مُتَأَمِّلًا،  
إِذْ لَمْ يَبْقَ لَهُ سِوَى قَبْضَتِي مَوْثِلًا؛ فَرَأَيْتُ هَامَةً نَحْمَةً، وَجِنَّةً صَحْمَةً؛ وَشِدْقًا أَهْرَتًا  
رَحْبًا، ذَا مِرَّةٍ عَلَى آخْتِلَافِ الحَوَادِثِ صَعْبًا؛ وَأَنْيَابًا مُحَدَّدَةً عُصَلًا كَالنِّصَالِ، وَطَرْفًا  
مُخَالِسًا غَيْرَ غَرٍّ بِالمَكْرِ وَالِخِتَالِ؛ كَأَنَّهُ شِهَابٌ يَتَوَقَّدُ، أَوْ شُعْلَةٌ نَارٌ لَمْ تَحْمَدْ؛ وَسَامِعَتَيْنِ  
تَتَوَجَّسَانِ مَادَارِ فِي الأَوْهَامِ، وَتُدْرِكَانِ مَا يَنَاجِي بِهِ المُرءُ نَفْسَهُ وَلَوْ فِي الأَحْلَامِ؛ قَدْ  
نَيْطَتْ بَعْنُقٍ صَغُرَتْ هَامَتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، إِنْ أَسْتَدْبَرْتَهُ قَلْتَ: هُوَ مُشْرِفٌ عَلَيْهَا  
أَوْ أَسْتَقْبَلْتَهُ قَلْتَ: هِيَ مُشْرِفَةٌ عَلَيْهِ؛ يَسْتَمِلُ عَلَى نَحْرِ حَصِيْبٍ، وَصَدْرٍ رَحِيْبٍ؛  
فِيهِ نَزْعَتَا بِيَاضِ كِهْلَالَيْنِ قُرْنًا فِي نَسَقٍ، أَوْ تَجْمِي ذُوَابَةَ ظَهْرًا فِي غَسَقٍ، تُسْرِ نَفْسُ  
النَّاظِرِ إِلَيْهَا، وَيُعَقِّدُ خَيْصَرَ الأَخْتِيَارِ فِي حُسْنِ الشِّيَاتِ عَلَيْهَا؛ أَتَّصِلُ ذَلِكَ بِمَنْكِبِ  
عَيْدٍ، وَسَاعِدِ شَدِيدٍ، وَبُرْنِ شَيْنٍ وَمِخْلَبِ حَدِيدٍ:

ذَوَاتِ أَشَافٍ رُكِبَتْ فِي أَكْفِهَا \* نَوَافِدٌ فِي صَمِّ الصُّخُورِ نَوَاشِبِ،

مُعَقَّقَةِ التَّرْهِيْفِ عُوِجَ كَأَنَّهَا \* تَعْقُرُبُ أَصْدَاغَ الحِسانِ الكَوَاعِبِ!!

قَدْ جَاوَرَ جُؤْجُؤًا نَهْدًا، وَقَابَلَ كَاهِلًا مُتَمَدًّا؛ يَكَادُ خَصْرُهُ يَنْعَقِدُ أَضْطِرَارًا،  
وَهَمَّتْهُ تَسَعَّرَ نَارًا؛ بِرِجْلَيْنِ تَسْبِقُ فِي الحُضْرِ يَدَيْهِ، وَتَقْدُّ بِأَظْفَارِهَا أُذُنَيْهِ؛ وَذَنْبٌ  
كَالرِّدَاءِ المُسْبَلِ يَجْرُهُ آخْتِيَالًا وَمَرَحًا، وَيَتَّبِعُهُ عَجْبًا وَفَرَحًا؛ إِنْ أَنْسَابَ قَاتَ: أَنْسَابَ  
أَفْعُوَانِ، أَوْ صَالَ قَلْتَ: أَسَدٌ حَفَّانٌ؛ أَوْ وَتَبَ سَبَقَ الوَهْمِ فِي أَنْحِطَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ  
أَذْرَكَ البَرَقِ مِنْ نَسَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ فَاتَ الطَّرْفِ فِي أَنْحِرَاطِهِ؛ أَنْعَمَ مَسًّا مِنْ أَرْتَبَ،

وأزهي من ثعلب ؛ قد كساه الظلام خلعتة ، وقبل الصباح طلعتة ؛ حاز من القندس  
صقاله وبهجته ، ومن الفيك لينه ونعمته ؛ أليس رداء الشباب ، ونزه عن تزوير  
الخضاب ؛ إن أختلس فما تآبط شرا ، أو خاتل أزرى بالشفق مكرأ ؛ أحد نفسا  
من عمرو بن معدى ، لا يصيلد قاذح زناد بطشه ولا يكدي ؛ أنزق من أبي عباد ،  
وأصول من عنترة بن شداد ؛ أفك من الحرث بن ظالم ، وأنهر فصدا للدم من حاتم ؛  
لا يلين ولا يشكو إلى ذى تصميت ، " كأنه كوكب في إثر عفرية " ؛ يكاد عند  
المخاتلة في أنسيابه ، يقوت الخاطر أو يخرج من إهابه ؛ إن قارن طيرا أباحه منسرا  
كمنسیر الأسد ، أغلب فيه شغا كأنه عقد ثمانين في العدد ؛ فينشد : ألا عم صباحا  
أيها الطلل البالي ، فلا يحس له بعين ولا أثر يحيس الليالى ، فكان قلوبها رطبا  
ويأسا لدى وكزه العناب والحشف البالي ؛ أعتاد قنص السائح والبارح ، فما فات  
ورد المنيّة منه غايد ولا رايح ؛ طويل القرا مدحج الأعظم ، له مخاتلة سرحان وهجمة  
ضيم ؛ أحن من نعبه (؟) ، وأظلم من حيه ، أطيش من قرآشه ، وأسبق إلى الغايات  
من عكاشه ؛ أخطف من عقاب ، وأشجع من ساكن غاب ؛ أسرق من جريد وأنوم  
من فهد ، وألين من عهين وأخشن من قد ؛ بأسه قضاء على الطير منزل ، وبطشه  
ملك بأجالها مرسل .

فلما تأملت خلقه ، وسبرت بتجربة الفراسة خلقه ؛ عجلت له جرياً مستحصدا  
أليرة لوثاقه ، وأحكمت شده في محل خناقه ؛ وقلت له : إني مجربك سخابة هذا  
النهار ، " ومن سلك الجدد أمن من العثار " ؛ فعل ذى خبرة بمكره ، وعلى ثقة من غدره ؛  
فإن اللئيم ذو صولة بعد الخضوع ، وفصح الطبع شيمة المطبوع ؛ وكيف الثقة به  
وإن استقر ولم ينيس ؟ وأنى الطمأنينة إليه وهو الأزرق المتأس ؟ .



ثم أنصرفت إلى البلد لبعض شأني ، والاجتماع بأخلائني وأخذاني ؛ وأستغرقت  
أديم النهار فيما توجهت له ، وقطعت عمر يوم ما كان أطوله ! .

فلما قضيت نهمتي ، من نجعتي ، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي ، ألفتني  
عمد إلى الوثاق فقرضه ، ووفاه بالكيل الوافي ما أقرضه ؛ وصال على شريحة تستسعد  
بدعائها ، وتفزع إن دهمنا هم قبل نداء أولي البطش إلى نداها ؛ ذات خلق عظيم ،  
ومنطق رخي ، وقلب رحيم ، ووجه ذي نضرة ونعيم ؛ إن قامت أحييت الليل بالسهر ،  
أو قرأت رأيتنا حولها زمرا بعد زمرا ؛ إن حادثتها نطقت بالسحر محلا ، أو تارتكتها  
رأت الصمت على كثير من النطق مفضلا ؛ تسر نفسك في حالة الصخب ، وتريك  
وجه الرضا في صورة الغضب ؛ فد إليها يد العدوان ، وأطاع بأذاها أمر الشيطان ؛  
ولم يرقب فيها إلا ولا ذمه ، وحملها حملنا من أذاها غمه ؛ ومزق قشيب أنوإها ،  
وحكم محالبه الحديدية في إهابها ، فعظم مصاب من حوت داري بمصاها .

فلما وصلت رأيها باكية ذات قلب مريض ، وجناح مهيب ؛ فسليتها بأن  
المصائب تلقاها الأبرار ، وترفقت بها إلى أن رقات تلك الأدمع الغزار ، وأوردت :  
« إن جرح العجماء جبار » ؛ وقلت : إياها لك وآها ، لقد ارتكبت خطة ما أيقها بعدرك  
وأولاه !! ؛ « فلقد أنصف القارة من راماه » ثم آلت آية بره ، لأوطئنه من الوثاق  
جمره ، ولأقتصن هذه المرة تلك المرة ؛ وأتته بسلسلة تنبو أنيابه عن عجمها ،  
ولا تثبت شياطين مكره برجمها ؛ قد أبداع قينها الصنعة بإحكامها ، وأنى بالعجب  
في نظامها ؛ فليله هو ممن تحكم فيما يقطع الجلمد ، بجعله من اللطافة يحل ويعقد ؛  
فاستودعت عنقه منها أمينا لا يخفر وثيق ذمته ، ولا تتطرق الاوهام إلى تهمته ؛  
مستحكم القوة في الشد ، فتغيط تغيط الأسير على القيد ؛ ونظر إلى بطرف حديد ،

وتدليل بعد بأس شديد، وبصيص بذنيه فقلت: "أمكراً وأنت في الحديد". فلما  
أيس من الخلاص، تلوت: (ولات حين مناص) .

فلما تم ما ذكرته، وأبدأته وأعدته؛ وردت رقة سيدنا على عقابيل هذه الوقعة  
التي وقعت، وصدت عن الجواب ومنعت؛ وأقتضى بي الحال كتب هذه الخرافة  
وإن تسمت بأذيال الحد، فأخرجتها مخرج الهزؤ وإن دلت على حوز قصبات  
المجد؛ ليعلم أن في الروايا خبايا، وإذا صح أن الأصول عليها تثبت الشجر "فأنا ابن جلا  
وطلاع الناي".

هذا: وإن أبق قراع الخطوب في حدى فلولاً، "فالقحل يحي شوله معقولا"؛  
ولقد تجمعت الخطوب على من كل وجهة وأوب، وطرقت الرزايا جناني من كل  
صوب؛ وجرت مع الخطوب كفرسي الرهان، وما هممت بمقصد إلا سقط بي  
العشاء على سرحان؛ وبكل جبل يحتق الشقي، ولعمرك ما يدري أمر وكيف يتقي؛  
والجلد يرى عواقب الأمور فيحمد عند النجاح عقى السير، (ولو كنت أعلم الغيب  
لاستكثر من الخير).

تجوز المصيات الفسى وهو عاجز \* ويلعب صرف الدهر بالخازم بالجلد!

فسطرت هذه الأحرف إلى سيدنا ليوافق خبري عند أصحابه خبره، و"من يشتري  
سيفي وهذا أثره" وأعلم أنها سيضرب بها في بابها المثل، وقد "أوردتها سعد وسعد  
مشمعل".

(١) العقابيل جمع عقبولة وعقبول بالضم . وهي الشدائد .



وهذه رسالة في الشكر على نزول الغيث ، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي  
الخصال العافقي الأندلسي ، نقلتها من خط الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد  
أبن سيد الناس اليعمرى المصرى ، وهى :

الحمد لله الذى لا يكشف السوء سواه ، ولا يدعو المضطر إلا إياه ، نزل فقرنا بغناه ،  
ونعوذ من شخطه برضاه ، وتستغفره من ذنوبنا : (ومن يغفر الذنوب إلا الله) .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً علماً فاقدر ، وأورد عباده  
وأصدر ، وبسط الرزق وقدر ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى بشر وأنذر ،  
ورغب وحذر ، وغلب البشرى على الإقنات ، ودل على الصراط ، وأشار إلى الساعة  
بالأشرط ، ولم يأل أمته فى الذب والاحتياط ، صلى الله عليه وعلى الوزراء الخلقا ،  
والبررة الأتقيا ، والأشداء الرحما ، والأصحاب الزعما ، صلاة تلاما بين الأرض  
والسما ، وتوافقهم فى كل الأوقات والآنا ، وتضع الثناء موضع التنا .

ولما لاحت حرب الجذب عن حبال ، وأشفق رب الصريحة والعيال ، وتآدى  
الحيران للتفرق والزبال ، وتناوحت فى الهبوب ريحها الجنوب والشمال ، وتراوحت  
على القلوب راحتا اليمين والشمال ، وأحضرت أنفس الأغنياء الشح ، وودوا أن  
لا تنشأ مزنه ولا تسبح ، وتوهم خازن البر ، أن صاعه يعدل صاع الدر ، وخفت  
الأزواد ، وماجت الأرض وأثقت الرواد ، وانتزعت العازب القصي ، فألقت العصى ،  
وصدرت بحمراتها ، وقد أسلمت حرراتها ، وأصبحت كل قنة فدعاء ، وهضبة درعاء ،  
(صفاه وهما ونقبا وهما) (؟) ، والصبيح فى كل أفق قطر أو قطع ، والأرض كلها سيف  
ونطع ، والشعر يشمر ذيله للنفاق ، ويضمم خيله للسباق ، وجاء الحد وراح الهزل ،

(١) كذا فى الأصل ، ولم فصل إلى حله مع البحث والتقيب .

وقُلنا : هذه الشدة هذا الأزل ؛ وللمرجفين في المدينة عجاجة ظنوها لا تلبد ،  
وقسى نحو الغيوب تعطف وتلبد ؛ فما يسقط السائل منهم إلا على ناب يحرق ،  
وشهاب يبرق ؛ حتى إذا عقدوا الأيمان ، وأخذوا بزعمهم الأمان ؛ وقالوا : لا يطمع  
في الغيث ، وزحل في الليث ؛ فإذا فارق الأسد ، لكذ ما أفسد :

تَحْرَصًا وَأَحَادِيثًا مُلْفَقَةً \* لَيْسَتْ بِنِعْ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبَ !

أُنشأ الله العنان ، وقال له : كُنْ فَكَانَ ؛ فبينما النجوم دراريها الأعلام ، وأغفالها  
التي لا تُحمد عندهم ولا تلام ؛ قد اختلط مرعاها بالهمل ، ولم تدّر السدة بالحمّل ؛  
ولا علم الجدى بالرتبال ، ولا أحس الثور بالرأى ذى الشمال ؛ إذ غشيتها ظلل الغمام ،  
وحجبتها أستار كأجنحة الحمام ؛ وأخذت عليها فى الطروق ، مصادر الغروب والشروق ؛  
فما منها إلا مقنع بنصيف ، أو مزمل فى نجاد خصيف ؛ لم تترك له عين تطرف ،  
ولا ثقبه يطلع منها أو يشرف ؛ فباتت بين دور متداركة السقوط ، ودور متناثرة  
السموط ، وديم منحلة الحيوط ؛ وجيوش منصوره الأعلام ، ثابتة الأقدام ؛ وكتائب  
صادقة المهجوم ، صائبة الرجوم ، تطلب المحل ما بين التخوم والنجوم ؛ وما زالت  
ترميه بأجاره ، وتحتريه فى أجاره ؛ وتغزوه فى عُقر داره ، حتى عفت على آثاره ،  
وأخذت للفرز والسهل بآره .

فيا أيها المؤمن بالكواكب ، أنظر إلى الديم السواكب ؛ وأسبح فى الحج سبواها ،  
وارتج فى ممر ديوها ؛ وسبح باسم ربك العظيم الذى قذف بالحق على الباطل ، وأعاد  
الحق إلى العاقل ؛ وبرود الظواهر محضره ، وتغور الأزاهر مفتره ؛ ومسرات النفوس  
مبتشره ، والدنيا ضاحكة مستبشره ؛ وأرواح الأذواح حامله ، وأعطاف الأغصان  
مانله ؛ وأوراق الأوراق تفصل ، وأجنحة الظلال تراش وتوصل ؛ وخطباء الطير

تَرَوِي وَتُحِيرُ ، وَشِيُوخُ الْحَارِبِ تُهَلِّلُ وَتُكَبِّرُ ؛ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَخْضَعُ لِحَبْرَوْتِهِ ،  
وَيَسْتَهْدُ لِلْمَكْوَتِهِ ، وَتَلُوخُ الْحِكْمَةِ مَا بَيْنَ مَنْطِقِهِ وَسُكُوتِهِ .

فأما الخطاطيف فقد سبق ها إليها ، ونطق شاديها ، وتراجع شكرًا لله نأديها ؛  
فُشُّ يرم ، ولينة إلى أخرى ترم ، وشعث يلم ، وبدأة توفى وتمم ؛ وكأنها حنت  
نحو المشاهد ، وسابقت اللقائى إلى المعاهد ؛ فطلت اللقائى بعدها نزاعا ، وسقطت  
على أطامها أوزاعا ، وأجدت إقطاعا ، وأجابت من الخصب أمرا مطاعا ؛ وحازت  
من الحدائق والبساتين إقطاعا ؛ وسغررد في روضته المكاء ، ويضحكه هذا الوابل  
البكاء ، وترومه فلا تلحظه ذكاء ؛ تحته من الأفنان الناعمة قلاص ، وأحصاته من  
الخضراء التبعية دلاص ؛ فالويل لأهل الأقوال المنكرات ، والنيل لأهل الثناء  
والخيرات ؛ والمرعى والسعدان ، وأرض بكواكب النور تزدان ، ويقاع تدين الغيث  
كما تزدان ؛ أذكرها فذكرت ، وسكرت من أخلاقه فشكرت ، وعرفها ما أنكرت ؛  
كأما أعداؤها من أم خارجة نسب أو ملح ، قالت لها : خطب فقال : نكح ،  
فتملت الأزهار بسبيله ، ونبتت في مسيله ، وثبتت كاللحظة في شطى نجيله .

فإن نرجس ترنو الروانى بأحداقه ، وتستعير الشمس بهجة إشراقه ؛ ويود المسك  
نفحة أنتشاقه ، يحسد السندس خضرة ساقه ، ويمتأه الحمام بدلا من أطواقه ؛ كحلة  
ندى تترقرق ، أو غصن بان لا يزال يورق .

ومن عرار تغنى مطالعه على عرار ، وكلفت به السوارى والقوادى كلف عمرو  
بعرار ؛ بقاء كسوالف الغيد ترف ، وكوميض الثغور يعبق ويسف .

ومن أبقوان جرى على الثنايا الغر ، وسبك من ناصع الدر ؛ يقبله النسيم فيعبق ،  
ويصبح الجوبما <sup>(١)</sup> ويعبق ، ويستقبله ناظر الشمس فيشرق .

(١) بياض بالأصل .

ومن بَنَفَسِجٍ كَطَوَاقِ الْوُرُقِ ، أَوْ كَالْيَوَاقِيَةِ الرَّزْقِ ، تَشْرَفُ بِأَبْدَعِ الْخَلْقِ ،  
وَتَأَلَّفُ مِنَ الْغَسَقِ وَالْخَلْقِ ، تَلْحَظُهُ مِنْ بَيْنِ أَوْرَاقِهِ نَوَاطِرُ دُجَعٍ بِالْأَجْفَانِ وَقِيَّتِ ،  
وَبِدْمُوعِ الْكُحْلِ سُقِيَّتِ ، نَسِيْمُهُ الْبَيْنُ مِنَ الْحَرِيرِ ، وَنَفْسُهُ أُعْطِرُ مِنَ الْعَبِيرِ ، يُفَاخِرُ بِهِ  
كَأَنُورُ الْبَرْدِ ، مُفَاخِرَةٌ تَيْسَانُ بِالْوَرْدِ .

وَكُلُّ رَبْوَةٍ قَدْ أَخَذَتْ زُنْحُرَهَا وَأَزَيَّنَتْ ، وَبَيَّنَتْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا بَيَّنَتْ ، كَمَا تَتَوَجَّحُ  
فِي إِيوَانِهِ كِسْرَى ، وَاسْتَقْبَلَتْهُ وَفُودُهُ تَتْرَى ، وَانْقَلَبَتْ عَنْ حُسْنِ نَادِيهِ النَّوَاطِرُ حَسْرَى ،  
وَكُلُّ تَلْعَةٍ مَدَانِبٍ نُصُوْطَهَا تُسَلُّ وَمَضَارِبُ فُصُوْطِهَا لَا تُتْنَى ، وَأَرَاقِمُ تَنْسَابِ ، وَحَيْثُ  
يُدَابُّ وَيُدَابُّ ، عَلَى حَافَاتِهَا مُجُومٌ مِنَ النَّوْرِ مُشْتَبِكَةٌ ، وَجُيُوبٌ عَنْ لَبَاتِ الْغَوَاطِي  
مُتَهَكَّةٌ ، فَلَوْ افْتَتِحَتْ الظُّهُورُ وَالْبُطُونُ ، وَنَطَقَتِ السُّمُولُ وَالْحُزُونُ ، لَقَالَتْ :  
( قَتِلِ الْخِرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ ) .

فَشُكْرًا لِرَبِّنَا شُكْرًا ، وَشُحْقًا لِلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، اللَّهُمَّ بَارِي النَّسَمِ ،  
وَدَارِي الْقَسَمِ ، وَنَاشِرِ الرَّحْمَةِ وَالنِّعَمِ ، وَمُنْزِلِ الدِّيمِ ، وَبَاعِثِ الرَّحْمِ ، وَمُحْيِي الْأُمَمِ ،  
فَإِنَّا نُؤْمِنُ بِقُدْرِكَ : خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، وَنَطْوِي غَيْثِكَ عَلَى غِرِّهِ ، وَلَا نَتَعَرَّضُ لِنَشْرِهِ  
حَتَّى تَأْذَنَ بِنَشْرِهِ ، وَنَعْتَقِدُ رُبُوبِيَّتَكَ كُلَّ الْأَعْتِقَادِ ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوقِ  
وَالْإِلْحَادِ ، وَنَسْتَرِيدُكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَنَافِعِ الْبِلَادِ ، رِزْقَنَا لَدَيْكَ ، وَنَوَاصِينَا  
بِيَدَيْكَ ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِكَ فِي غَيْبِكَ أَحَدًا ، وَلَا يَجِدُ عَبْدٌ  
مِنْ دُونِكَ مُتَّحِدًا ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، وَأُمَّتَ الْحَيِّ وَأَحْيَيْتَ الْمَيِّتَ ، لَا هَادِيَ  
لِمَنْ أَضَلَّتَ وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، فَكَيْفَا فِيمَنْ كَفَيْتَ ، وَتَوَلَّانَا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ،  
إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَتَقْرَأُ : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ  
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ) الْآيَةَ .



وهذه نسخة رسالة ، كتبت بها الصاحب نضر الدين عبد الرحمن بن مكايس ،  
تفعمده الله برحمته ؛ إلى الشيخ بدر الدين البشتكي عند ما زاد النيل الزيادة المفرطة ،  
سنة أربع وثمانين وسبعائة ، وهي :

ربنا اجعلنا في هذا الطوفان من الآمين ، وسلام على نوح في العالمين .  
ما تأخير مولانا ببحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ ، وما قعاده عن زرقه  
هذا النيل الذي جعل الناس فيه بالتوبة كالملائكة لما غدا هو أيضا كالسما ؟ ،  
وكيف لم يره هذا الطوفان الذي استحال للزيادة فما أشبه زيادته بالظلم ؛ فهي كزيادة  
الأصابع الدالة في الكف على تقصيه ، وأولى أن نُسند بيت المثل بنصه :

طَفَحَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ \* مِنْ عَظِيمِ مَا قَدُ سَرَى أَبْكَانِي !

فإنه قارب أن يمتزج بنهر المجره بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه  
المعنى [ بقول القائل ] : " حَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ " ؛ وتجاوز في عشر الثلاثين  
الحد ، وأرانا بالمعينة في كل ساحل منه ما سمعناه عن الجزر والمد ؛ وأساء في دفعه  
فلم يدفع بالتي هي أحسن ، وأقعد الماشي عن التسبب والحركة حتى شكأ إلى الله  
في الحائرين جور الزمن ؛ وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت  
أصعب كأس ، وسئل ابن أبي الرِّدَادِ عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ؛  
أمتلأ اليباب ، وهال العباب ، وضاع العد وأختلط الحساب ؛ كأل فطفف ، وزار  
فا خفف ؛ غسل الجسور ، وأعاد الإملاق بعزمه إلى البحور ، وبرع فكان أولى  
بقول الحلّي من ابن منصور :

بمكارم تذر السباب أبحراً • وعزائم تذر البحار سباباً !

جمع في صُعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح، ودخل الناس إلى أسواقِ مِصر  
 وخصوصاً سوقِ الرقيقِ على كلِّ جاريةٍ ذاتِ ألواحٍ ؛ وغداً التيارُ ينسابُ في كلِّ يَمٍّ  
 كالآيمِ، وأصبحتْ هضابُ الموجِ في سماءِ البحرِ وكأنَّها هي قطعُ الغيمِ ؛ وأستحالت  
 الأفلاكُ فكلُّ بُرجٍ مائى، وتغيرتِ الألوانُ فكلُّ ما فى الأرضِ سَمائى ؛ وحكى ماؤه  
 حكايةَ الصندلِ لما مسه شيطانُ الريحِ فتخبَّطَ، وزادَ فأستحالَ نفعه فتحققَ  
 ما يُنسبُ إلى الصندلِ من الاستحالةِ إذا أقرطَ ؛ فلقد حكَّتْ أمواجهُ ودَوَّأرُهُ  
 الأعْكَانَ والسَّررَ، وغداً كلُّ حىٍّ ميتاً من زيادته لا كما قالَ المعرى : حياً من بنى مطر<sup>(١)</sup> ؛  
 وتحالى إلى أن أقرَفَ اللِّيمونَ الأخضرَ، وأحمرَّتْ عينه على الناسِ فاذاقهم الموتَ  
 الأحمرَ، ولقد صعبَ سلوكه وكيفَ لا؟ وهو البحرُ المديدُ، وأصبحَ كلُّ جدولٍ منه  
 جَعْفراً ويزيد :

فَلَسْتُ أَرَى إِلَّا إِفَاضَةَ شَاخِصٍ \* إِلَيْهِ بَعِينٌ أَوْ مُشِيرًا بِأَصْبُعٍ !

فلكم قال الهرم للسايرين ياسارية الجبل، وأنشد وقد شمر ساقه للحوض : أنا الغريقُ  
 فما خوفاً من البلل؟ وكم قال أبو الهول : لا هول إلا هول هذا البحر، وقال  
 المسافرون : ما رأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء النهر، وقال المؤرخون : لم ننقل  
 كهذه الزيادة من عهد التبروان إلى هذا الدهر .

وكيف يسوغ مولانا في هذه الأيام غير ارتشاف قم الخمور؟ ولم لا يغير مذهبه  
 ويطبب على هذه الخلج بالسلسل والدور؟ ؛ وكيف وكيف؟! ؛ ولم لا يتخذ  
 مولانا حمو النيل وبرد رحلة الشتاء والصيف؟ ؛ وهو فى المبادرة إلى علو المعالي  
 وعلو المعاني، وأتهاز الفرص فى بلاغ الآمال وبلوغ الأمانى :

(١) يشير إلى بيت المعرى فى قوله :

وإنت بخلت عن الأحياء كلهم \* فأسبق المواطر حياً من بنى مطر  
 أنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠) .



عَجَبٌ مِنْ عَجَائِبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَنَوْعِ فُرُودِ وَشَكْلِ غَرِيبٍ!

نَعَمْ :

مَنْ قَاسَكُمُ بِسِوَاكُمْ \* قَاسَ الْبَحَارَ إِلَى التَّمَادِ!

أعلى الأنام في العلوم قدرا ، وإمام النحاة من عهد سيوييه وهلم جرا ، وشيخ  
العروضيين على الحقيقة برأ وبحرا :

وَشَيْخٌ سَيُّحُونَ وَالنَّيْلِ وَالْفُرَاتِ وَدَجَلَهْ ،

وَشَيْخٌ جَيُّونَ أَيْضَا ، \* وَشَيْخٌ نَهْرِ الْأُبْلَهْ !

إي والله :

أَقُولُهَا لَوْ بَلَغَتْ مَا عَسَى : \* الطُّبْلُ لَا يُضْرَبُ تَحْتَ الْكَسَا!

لا محبا لعطير بعد عروس ، أنت أعوم في بحور الشعر من ابن قادوس ، وأصلح  
إذا حدثت من صالح بن عبد القدوس ، وأنهمى إذا هنزلت من ابن حجاج إلى  
النفوس :

وَلَوْ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ جَارَكَ مَا زَحَا \* وَحَقَّكَ مَا اسْتَحْلَى لَهُ النَّاسُ زَائِدَا!

نعود إلى ما كنا فيه من وصف النيل ، وذكر حاله الذي أصبح كما قال ابن  
عبد الظاهر : كوجه جميل ؛ : فلوراه مولانا وقد هجم على مصر بغاس خلال الديار ،  
ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم ير منه غير الآثار ؛ لبكى بعيني عروه ،  
وأوى من الرصد وقد تفجرت من صلده عيون التز إلى ربوه ؛ أورنا لروض الجزيرة  
وقد خلع حلاه ، وتخاللت عرائس أشجاره على الحالين بالمياه . والنخيل وقد قنات  
ملا كها حين فتك بالأسف ، وجف أحمر ثمرها وأصفره فارانا العتاب والحشف .  
والخيرة وقد قلت لها : تبأ لجارك النيل إذ أفسدك صورة ومعنى ، وسكن مغائرك فسقى

دِيَارَكَ بغيرِ اسْتِنْنَا . وقُراها الغَرَبِيَّةُ وقد قَلتُ لها حينَ أوتِ إلى أعالي الأَرْضِ هَرَبًا  
 من المِياه ، وأَعْتَصَمْتُ بالجبلِ الغَرَبِيِّ : لا عاصِمَ اليَوْمَ من أمرِ اللَّهِ . وكُلَّ سَفِينَةَ  
 وقد عَلَتْ على وَجْهِ المِياه ، وأرْتَقَتْ لأرتقاءِ البَحْرِ إلى أنِ اختلطتْ بالسَّماءِ ؛ وقد  
 قالتُ لها أترأبها عندَ الفِرَاقِ : إِلا تَرَجِعِي ، وَقُلْنَا لها نحنُ على سَبِيلِ التَّفَاؤُلِ : يا سَمَاءُ  
 أَقْلِمِي ؛ والنَّيلُ تَبْدُو عليه القُلُوعُ خَافِيَةً لِبُعْدِها فَكَانَها الخِيَامُ بذي طُلُوحٍ ، وجَارَ على  
 الناسِ بَطْغِيانِهِ فَكَانَما هو أَخُو فِرْعَوْنَ مِصرَ أو ابْنُ طُوفانِ نُوحِ .

فلقد طَارَ النَّسرُ مَبْلُولَ الجَنَاحِ ، ودَنَا نَهْرَ المَجْرَةِ من السَّكاريِ بالشَّخَايِتِ إلى أنِ  
 كادَ يَدْفَعُهُ من قامِ بِالرَّاحِ . وَتَرَجِسَ البَسَاتِينِ وقد أبيضَّت عيناها من الحُزَنِ فهو  
 كَظِيمٌ ، وفارِقُ أَحبابِهِ من الرِّياحِينِ ولم يَبْقَ له غيرُ القَلانِيسِ صَدِيقٌ وغيرُ المِياهِ حَمِيمٌ .  
 والوَرْدُ وقد قِيلَ له : مالِكُ من آسِ ، وغُصْنُ البانِ وقد قِيلَ له : طُوبى لِمَنْ عانَكَ  
 ولا باسَ . والأَسْمالكِ وقد أجمَهَمَ العَرَقُ ، والقُلُقاسِ وقد شَكا شَكوىِ ابنِ قَلانِيسِ  
 وآبِنِهِ من العَرَقِ . والقَصَبِ بالجِيزَةِ وقد شَرِبَ ماءَ التَّرِّ فهو بَأْسُ الشَّرابِ ، والقَصَبِ  
 بِيُولاقِ لم يُنْجِهْ من مُشاهِدَةِ العَرَقِ إلا كونهُ غابَ ، والفارِسيِّ بالبَساتِينِ وقد تَرَجَّلَ  
 ووَقَعَ فارِانا كَيْفَ تَكسيرِ الأَفْصابِ ؛ وقيلَ للآسِ : عاجِ جِيرانَكَ بالغيطانِ فالناسِ  
 بالنَّاسِ ، وبأَدِرِّ إلى جَبَرِ ما كُمِرَ فالحاجَةُ تُدْعو المَكسورَ في الحالينِ إلى الآسِ .

هذا وأنا مُقيمٌ بالروضةِ إذ زَهَتْ على سائرِ الرِّياضِ ، وسَلِمَ جوهرُ حَصَبائِها من  
 أكثرِ هذه الأَعراضِ ؛ وإنِ أَعْتَلَّتْ بالأسْتِسْقاءِ فهو عينُ الصَّحَّةِ كما يُنسَبُ السَّقَمُ  
 إلى العُيونِ المِراضِ ، أو كما قالَ المملوكُ قَدِيمًا من قَصِيدَةٍ في بعضِ الأَعراضِ :

وقائِلُ : في لِحاظِ الغِيدِ باقِيَّةٌ « من السَّقامِ وما ضَمَّتْ حُصُورَهُمْ ،

وفي النَّسِيمِ قُلْتُ : الأَمْرُ مُشْتَبِهٌ \* عَلَيْكَ فَالْزَمِ فَانْتَ الحَاذِقُ الفَهِيمُ .

قُلْتُ الصَّحِيحَ وَلَكِنِّي بِمُوجِبِهِ \* أَقُولُ : تِلْكَ دَوَاةٌ بَرُوها السَّقَمُ !

قد أحاط بها النَّيْلُ إحاطة المَرَّاشِفِ بالْمَاءِ ، فأشْرَقَتْ ضِيَاءً بين زُرْقَتِهِ فَكَنَّاهَا  
البَدْرُ في كَيْدِ السَّمَاءِ :

بَصَحْنِ حَدِّ لَمْ يَفِضْ مَأْوُهُ \* وَلَمْ تَحْضُهُ أَعْيُنُ النَّاسِ !

مُتَعَطِّشٌ مع هذا الطُّوفانِ لِرَبِّكَ ، مُتَشَوِّفٌ وإن كُنْتَ مُعَاذِلَ النُّجُومِ الأَرْضِيَّةِ  
والسَّمَائِيَّةِ يَا بَدْرُ لِرُؤْيَاكَ ؛ لَكِنِّي يُسَلِّبُنِي أُنَى ما نَظَرْتُ إلى النَّيْلِ إلا رَأَيْتُكَ من سائر  
الْجِهَاتِ ، ولا لَحَمْتُ بِيُوتَ البَحْرِ بلِ البُحُورِ إلا رَأَيْتُكَ عِمارة الأبيات :

ولا هَمَمْتُ بِشُرْبِ المِاءِ من عَطَشٍ \* إلا رَأَيْتُ خَيْالاً مِنْكَ في المِاءِ !

ولَكِنِ لِلعِيانِ لَطِيفٌ مَعْنَى \* لِهَ طَلَبِ المِشَاهِدَةِ الكَلِيمِ !

فَهَلُمَّ إلى التَّمَتُّعِ بِرُؤْيِيَةِ هذا النَّيْلِ الذي لَمْ تَرَمِثْهُ العُيُونُ ، والنَّظَرِ إلى سائرِ المَحْلُوقاتِ  
لِعُمُومِهِ وَكُلِّ في فَلَكَ يَسْبَحُونَ ؛ فليس يَطِيبُ لِلتَّلْمِيزِ رُؤْيِيَةَ هذا البَحْرِ بغيرِ رُؤْيِيَةِ  
شَيْخِهِ ، ولا يَلْذُلُهُ التَّمَلُّ بِمِشَاهِدَةِ هذا الفُلْكِ ما لَمْ يُشْرِقْ وَجْهُهُ وَذَهَبَتْ بِيَدْرِهِ وَمَرَّيْجُهُ ؛  
فأ هذا الإِهْمالُ ؟ ، وَلَيْتَ شِعْرِي يا أَدِيبُ تَسَاغَلُكَ بَأَى الأَعْمالِ ؟ ، أبا لِكتابَةِ ؟  
فَلتَكُنْ في هذا النَّيْلِ الذي هو كالأَطْلُجِيَّةِ بغيرِ مِثالِ ، أو بالنَّثرِ والنَّظْمِ ؟ ففى هذا البَحْرِ  
الذي مِنْهُ تُؤَخَذُ الدَّررُ وفيهِ تُضْرَبُ الأَمْثالُ ؛ ولَقَدْ وُلِدَ فِيهِ الفِكرُ لِلْمَمْلُوكِ ، كَيْفَ  
تَصَادُمُ الأَكْفاءِ وَقَهْرُ المُلُوكِ لِلْمُلُوكِ ؛ فإنه لَمْ يُسْمَعِ في مَمْلَكَةِ الإسلامِ ، ولا وُورِخَ  
في عامٍ من الأَعْوامِ ؛ بِمِثْلِ هذه الزيادةِ الزائِدَةِ ، والجُرْحِ على تَحْرِيقِ العادةِ التي لا جَعَلَ

الله بها صلّة ولا منها عائده ؛ وغايته ما وصل إليه في الماضي من عشرين : فضيق  
بسعته المسالك ، وأوجب المهالك ، وتطرّق تطرّق أهل الجرائم والفساد ففطع  
الطريق على السالك ، وأحوج مرّات إلى الاستضياء لا أحوج الله لذلك .

ودليل ما شتمل به من الفساد ، وما عمّل به البلاد وأهل البلاد ؛ ما قاله أدباء كلّ  
عصر ، عند ما أبيع للسافر في مدّ عرضة القصر .

فمن ذلك ما قاله مولانا القاضي الفاضل ، وما هو رحمه الله إلا بحرّ ففتح دُرّه ،  
فله دُرّه ، من رسالة :

ورود مثاله يتضمّن نبأ سطورهِ العظيمة أمر طوفان النيل التي كأنها جدّ أوله ،  
وأنه جاد لمؤمله بنفسه التي ليس في يده غيرها فليتق الله سائله ... ..

ومنها : ولم يزل يجرى مُستقرّ له ، ويضمّه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره أوّله ؛  
حتى إذا تكامل سموّ أمواجه حالاً على حال ، وتوّر أقاصي الأرض من بنية المقياس  
فأدناها النظر العال ؛ فلم يترك بقعة كانت من قبل فارغة إلا وكلّها عند نظره ماق ،  
وليت هواه المعتل كان عدلاً فحمل كلّ غدير ما أطاق ؛ وطالمما جرى بالصفا ولكن  
كدر صفاه بهذا المسعى ، والمرجؤ من الله أن يتلو ما أفسده هذا الماء ما يصابحه  
خروج المرعى .

وما قاله القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، سقى الله تلك الألقاظ النبيلة  
صوب الماطر :

ويُنهي إليه أمر النيل الذي سرفى أوائله الأنفس بأنفس بشرى ، ويقص عليه  
نبأه العظيم الذي مايرينا من آية إلا هي أكبر من الأخرى ، ويصف له ما ساقه  
إلى الأرض من كلّ طليعة إذا تنفس الليل تفرق صبجها وتفرى ؛ فهو وإن كان

خَصَّ اللهُ الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ بِوَفْوَرِهِ وَوَفَائِهِ ، وَأَغْنَىٰ بِهٖ قَطْرَهَا عَنِ الْقَطْرِ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ مَدِّ كَافِهِ وَفَائِهِ ، وَنَزَّهَهُ عَنِ مَنَّةِ الْغَمَامِ الَّذِي هُوَ إِنْ جَادَ فَلَا بُدَّ مِنْ شَهْقَةٍ رَعْدِهِ وَدَفْعَةٍ بِكَائِهِ ، فَقَدَّ وَطِئَ بِلَادَهَا بِعَسْكَرِهِ الْعَجَّاجِ ، وَزَاحَمَ سَاحَتَهَا بِأَفْوَاجِ الْأَمْوَاجِ ، فَعَمِلَ فِيهَا بِذِرَاعِهِ ، وَدَارَ عَلَيْهَا بِخَنَاقِهِ وَتَحَلَّلَهَا بِنِزَاعِهِ ، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ سَوَارِي الصَّوَارِي تَحْتَ قُلُوبِهِ وَمَا هِيَ إِلَّا عُصْدُ قِلَاعِهِ ، وَزَارَ زَرَائِبَ الدُّورِ الْمَبْثُوثَةِ ، وَجَاسَ خِلَالَ الْحَنَائِيَا كَأَنَّ لَهُ فِيهَا خَبَايَا مُورُوثَهُ ، وَمَرَّقَ كَالسَّهْمِ مِنْ قَنَاطِرِهِ الْمُنْكَوسَةِ ، وَعَلَا زَبْدُ حَرَكَتِهِ وَلَوْلَاهُ ظَهَرَتْ فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْأَقْسَارِ وَالنُّجُومِ أَشْعَثُهَا الْمَعْكُوسَةِ ، وَحَمَلَ عَلَىٰ بَرَكَةِ الْفَيْلِ حَمْلَ الْأَسْوَدِ عَلَى الْأَبْطَالِ ، وَجَعَلَ الْمَجْتُونَةَ مِنْ تِيَّارِهِ الْمُنْحَدِرِ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ ، وَالْمَرْجُوُّ مِنْ اللَّهِ أَنْ يُزِيلَ أَذَاهُ ، وَيُعِيدَ عَلَيْنَا مِنْهُ مَا عَاهَدْنَا بِهِ ، فَإِنَّ لَهُ الْإِيَابَ الْأَكْبَرَ ، وَفِيهِ الْعَجَائِبُ وَالْعِبَرُ ، فِيهَا وَجُودُ الْوَفَاءِ ، عِنْدَ عَدَمِ الصَّفَاءِ ، وَبُلُوغُ الْحَرَمِ ، إِذَا أَحْتَدَمَ وَأَضْطَرَمَ ، وَأَمِنْ كُلِّ فَرِيقٍ ، إِذَا قَطَعَ الطَّرِيقَ ، وَفَرِحَ قُطَّانُ الْأَوْطَانِ ، إِذَا كَسَرَ وَهُوَ كَمَا يُقَالُ : سُلْطَانٌ ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَبَرَائِهِ مَعَ الزِّيَادَةِ مِنْ نَقَائِصِهِ ، طَالَمَا فَتَحَ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ بِتَعْلِيْقِهِ ، وَفَازَ كُلُّ أَحَدٍ عِنْدَ رُؤْيَةِ مَا فِيهِ الْمَعْصُفَرُ بِتَخْلِيْقِهِ .

وما قاله المولى زين الدين عمر الصفدي تغمده الله بعفوه، وجمع له بين حلاوة الكوثر وصفوه :

وأما النيل فقد أخذ الدار والسكان ، وقال ابن الخامل كما قال ابن النبيه : الأمان الأمان ، وبكى الناس عند ما رأوه مقبلاً عليهم بالطوفان ، وأنسابت أراقم غدرايه في الإقليم فابتلعت غدراان أراقبه ، ومحا سيئه المتدفق معالمة المجهولة فاستعمل الأرقام في إثبات معالمة ، وأحاط بالقرى كالمحصر فضرب بينها وبين السماء بسور ، وأخذ الطريق على السالكين فلا مركب إلا المركب ولا عاصم إلا البحور .

وما قاله السيد ابن كاتب المرح ، نصرته الأقباط ، وأحد عميد الشعر المشهورة  
بالفسطاط ؛ فما أطيب مدائح النبوية التي جعلها سوراً بينه وبين النار ، وما أعجب  
رثاءه : جعل الله قبره بالرحمة كالروض غيب القطار !!! :

يا نبيل يا ملك الأنهار قد شربت \* منك البرايا شرباً طيباً وغداً ،

وقد دخلت القرى تبغى منا فيها \* فعمها بعد فرط النفع منك أذى .

فقال : يذكر عني أنني ملك \* وتعتدي ناسياً : إن الملوك إذا !

وما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاعته من الآداب جوانح  
نظمها ونثرها ، ونحرت له بحور الشعر فقالت له الآداب : اختر من درها ؛ فسبحان  
من يسر له تمتع الكلام وهونه ، وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛  
فما أشف دقيق فكره الجليل ، وما أكثر ما يضحك زهر تقاطيعه على زهر مقطعات  
النيل ؛ فما كان إلا مخصوصاً في الأدب بحور الهبات ، وكلامه في العذوبة والبلاغة  
يزري بالقرات وابن القرات ؛ وإن قيل أي أصدق كلمة قالها شاعر بعد لبيد ، يقال  
قول ابن نباتة .

فلا عجب للفظي حين يحلو \* فهذا القطر من ذلك النبات ! :

وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبتت فيها قدمه ، وأمتد نصل تياره كالسيف  
الصقيل فقتل الإقليم وهذا الأحمرار إنما هو دمه :

حمرتها من دماء ما قتلت \* والدم في النصل شاهد عجب !

فلم يترك وعداً بل وعيداً إلا وفاه ، ولا وهداً بل جبلاً إلا أخفاه ؛ أقبل كالأسد  
المهصور إذا احتسد وأضطرم ، وجاء من سن الجنادل فتحدّر وعلاً حتى بلغ أقصى  
الهرم ؛ وعامل البلاد بالخيل وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيد بالنصر ، قائلاً :

إِنْ كُنْتُ بُلِيَّتٌ بِالْأَحْتِرَاقِ فِي أَرْضِكُمْ فَأَنَا أَيْضُ بِنِ بَرُوقِ تَيْسَارِي  
بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ .

هذا وطلما قابلنا قبلها بوجه جميل، وسمعنا عنه كل خير خير ثابت ويزيد كما قال  
جميل، وكل بديع من آثار جود يصنع الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة  
اللؤلؤ، وطلما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطه، ومنازل  
الخصب بقدمه المبارك ذات غبطه، ومنحناه بولاء وثناء هذا يدور من الإخلاص  
بفلك وهذا يعدب من البحار بنقطة، كم ورد إلى البلاد ضيفا ومعه القرى، ومم أنى  
مرسلا بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى، فهو جواد قد خلع الرسن، ساهر  
في مصالح الخلق وقد ملاء الأمن أجفانهم بالوسن، جامع لأهل مصر من سقياه  
ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن، كم بات سير مقياسه يشمل  
بظله الغائبين والحاضرين، ومم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين،  
وبلغ وبلغ بخرير التيار سلامه، وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر  
والسلامه، وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد، ودعا مصر لأخذ  
زخرفها فسواء قيل: ذات العمود أو ذات العماد، وبسط يده ببركة الماء فقيل:  
سلام لك من أصحاب اليمن، وخضب بنانه وأقسم بحصول الخير فقيل لمخضوب  
البنان يمين، وأشار إلى وصول المد المتتابع، وقبض يده المخلصة على الماء فوقت  
وما خابت فروج الأصابع، ونادى رائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادى،  
ومتت أصابع الزيادة وتمت حتى قال الناس: ما ذى أصابع ذى أيدي .

هذا وقد قرنت زرابى الدور المبتوثة بالتمارق، وقال المقياس: تغطت منها  
الدرج فنال الرجاء وظهرت الدقائق، فهو جم المنافع، عدب المنابع، يسار في الحقيقة  
والمجاز إليه بالأصابع .

فأعاده الله إلى ذلك النفع المعهود ، وأرانا منه الأمان من الطوفان إلى أن نرد  
 الحوض المورود ، وكفى أهل مصر هذه المصيبة التي إذا أصابتهم قالوا :  
 إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا ابتلاهم بمثل ما ابتلى به قوماً جعلوا أصابعهم  
 في آذانهم واستغشوا ثيابهم وإنما يستغشوا ثيابهم الفقراء في المطر ويجعل  
 أصابعه في آذانه منهم المؤذنون ؛ اللهم إنك ولي النعمه ، وأولى برحمة خلقك من  
 قبض هذه الرحمة .

وما قاله صاحبنا الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة الذي كان أغرب من زرقاء  
 اليمامة ، وأعجب إذا ركب بغلته وزروره من أبي دلامة ؛ الأديب الذي كان حجة  
 العرب ، والنائر الذي كان ينسبته إلى الطيور محرك المناطق وإلى الشعر صناجة  
 الأدب ، والناظم الذي كان إذا أنشد مقاطيعه في التشبيب فاق على المواويل ذوات  
 الطرب ؛ والصديق الذي كانت منه عوائد الوفاء مألوفة ، وشيخ الصوفية الذي  
 لا عجب إذا كانت له المقامات الموصوفة ؛ أسكنه الله فسيح الجنان ، وخص ذلك  
 الوجه الجميل بالعارض الهتان ؛ من مقامته الزعفرانية عن أبي الرياش :

فاعتنقته لدى السلام ، وقلت : ما وراءك يا عصام ؛ فقد بلغنا أن النيل ترأيد  
 دفعه ، وأدى إلى الضرر نفعه ؛ فقال : خذ العفو ، ولا تكدر بذكر النيل الصفو ؛  
 فقد أمترج بالمعصرات مجاجه ، وأعيى طبيب الغيطان علاجه :

وشرق حتى ليس للشرق مشرق \* وغرب حتى ليس للغرب مغرب !

قلت : فما فعل النعير ، بجزيرة الطير ؛ قال : لم يبق بها هاتف يبشر بالصباح ،  
 ولا ساج يسعى برجل ولا طائر يطير بجنح ؛ إلا اتخذ نفقا في الأرض أو سلما في السماء ،  
 أو أوى إلى جبل يعصمه من المساء ؛ فذاق بها الحمام الحمام في المروج ، وترك أرضها



كسبَاءِ مَالِهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَتَلَا عَلَى الْحَمَامِ : ﴿ أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ ﴾ . وَكَمْ فِي سَمَاءِ مَائِهَا مِنْ نَسِيرٍ وَاقِعٍ ، وَبُومَةٍ تُصَفِّرُ عَلَى دِيَارِهَا الْبَلَّاقِعِ :  
وَمَنْهَلٍ فِيهِ الْغُرَابُ مَيِّتٌ \* سَقَيْتُ مِنْهُ الْقَوْمَ وَأَسْتَقَيْتُ !

قلتُ : فِمِصْرٍ؟ قال : زَحَفَ عَلَيْهَا بَعْسَكَرَهُ الْجَرَّارِ ، وَنَفِطَ مَائِهِ الطَّيَّارِ .

قلتُ : فَالْحِيزَةَ؟ قال : طَغَى الْمَاءُ حَتَّى عَلَا عَلَى قَنَاطِرِهَا وَتَجَسَّرَ ، وَوَقَعَ بِهَا الْقَصَبُ مِنْ قَامَتِهِ حِينَ عَلَا عَلَيْهِ الْمَاءُ وَتَكَسَّرَ ؛ فَأَصْبَحَ بَعْدَ أَخْضِرَارِ بَزْتِهِ شَاحِبَ الْإِهَابِ ، نَاصِلَ الْخِضَابِ ، غَارِقًا فِي قَعْرِ بَحْرِ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ؛ وَقَطَعَ طَرِيقَ زَاوِيَتَيْهَا عَلَى مَنْبَهٍ مِنْهَا مِنَ الْمُتَقَطِّعِينَ وَالْفُقَرَاءِ ، وَتَرَكَ الطَّالِحَ كَالصَّالِحِ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ؛ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ، أَلَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ؛ وَأَدْرَكَهُمُ الْغَرَقُ فَأَلْبَسُوا مِنَ الْخِلَاصِ ، وَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ؛ وَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ فَهَدَّتْ قُوَاهُمْ ، وَأَسْتَفْأَوْا مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

قلتُ : فَالرَّوْضَةَ؟ قال : أَحَاطَ بِهَا إِحَاطَةَ الْكَيْلِ بِزَهْرِهِ ، وَالكَاسِ بِجُبَابِ نَعْمِهِ :

فَكَانَهَا فِيهِ بِسَاطٌ أَخْضَرَ \* وَكَانَهُ فِيهَا طِرَارٌ مُدْهَبٌ !

فَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَدْفَعُ أَصَابِعِهِ يَدَانِ ، وَكَمْ أَنْشَدَ مَرْجُهَا حِينَ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ :

أَعْنَى كُفًا عَنِ فُؤَادِي فَإِنَّهُ \* مِنَ الْبَغِيِّ سَعَى أُتَيْتُ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ !

قلتُ : فَدَارُ النُّحَاسِ؟ قال : أُنْحَسَ حَالُهَا ، وَأُفْسِدَ مَا عَلَيْهَا وَمَا لَهَا ؛ فَدَخَلَ مِنْ

حَمَامِهَا الطُّهْرَ ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالْجَامِعِ الطُّهْرِ ؛ فَالْحَقَّ بِجَازِ بَابِهِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَرَقِيَ

مِنْهُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ فِي دَقِيقِهِ ؛ كَمْ أَغْتَرَفَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْغُرْفِ غَرْفًا ، وَأَطْلَقَ مِنْ مَائِهِ

الْأَحْمَرِ النَّارَ بِمُورِدَةِ الْخُلْفَا .

قلت : فانخليج الحاربي ؟ قال : خرج عسكر موجه بعد الكسر على حميه ،  
ومرق من قيسى قناطره مروق السم من الرمييه .

قلت : فالمنشاة ؟ قال : أصبحت للبحر مقرره ، بعد أن كانت للعيون قره ، وقيل  
لمنشئها : أتى يحيى هذه الله بعد موتها قال : يحييها الذي أنشأها أول مره ، قد مال  
على ما فيها من شون الغلال كل الميسل ، وتركها تتلوفمها الذي شفتاه مصراعا  
بابها : ( ياء بآنا منع منا الكيل ) .

قلت : بجزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جل ثمارها ، وأتى على مغايتها فلم يدع  
شيئا من رديها وخيارها ، أخلق ديباجة روضها الأنف ، وترك فلقاسها في الجروف  
على شفا جرف :

بعيني رأيت الماء يوماً وقد جرى \* على رأسه من شاهق فتكسرا!

طالما تضرع بأصابعه إلى ربه ، ولطم برؤوسه الحيطان مما جرى من الماء  
على قلبه ، وتمثل بقول الأول :

وإن سألوك عن قلبي وما قاسي \* فقل : قاسي ، وقل : قاسي ، وقل : قاسي !!!

لم يفده تحضنه من ورقه بالدرق والسائر ، ولا حن عليه حين تضرع بأصابعه  
فصح أن الماء سلطان جائر .

قلت : فحكر ابن الأثير ؟ قال : لم يبق منه غير الثلث والثلث كثير ، قد انحسل  
من دوره نمانلها ، وجعل عاليها سافلها ، فكم دار أعدم صاحبها قراره ، ونادى  
في عرصات المتداعية : إياك أعني فاسمعي يا جاره ، فأصاحت بعد نفعها قليسة  
الهدا ، مستولية عليها يد الردى ، شبيهة بدار الدنيا لأنها دار متى أضحك في يومها  
أبكت غدا .

قلت : فبولاق؟ قال : إملأق، قد ألتفت بها من الزلتي الساق بالساق؛ فأتى  
من النوتية على الصغير والكبير، ومن المرآكب وممرها على النقيير والقطمير .  
هذا بعد أن ترك جامع الخطيرى على خطر، وحيطانه يانعة الثمر؛ قد دنا قطافها،  
وحان تلافها؛ فكأنى به وقد منع رفته، وتلا على محرابه سورة السجده .  
قلت : بخزيرة الفيسل؟ قال : أقتلع أشجارها بشروشها، وترك سواقها حاوية  
على عروشها .

قلت : فالتاج والسبعة وجوه؟ قال : هجم على حرمها، وعم الوجوه من فوقها  
إلى قدمها؛ فبل ترى الموتى فى التخوم، وعنت الوجوه لئى القيوم؛ قلت : فما  
الحيلة؟، قال : ترك الحيلة :

دعها سماءوية تجرى على قدر \* لا تفسدنا برأى منك راضى (?)

طال الكتاب، ونرجنا عن فصل الخطاب :

ولربما ساق المحدث بعض ما \* ليس الندى إليه بالمحتاج!

وكأنى بقائل يقول : أليس من الكبر أن يستخدم هذا فى رسالته مملوك الكلام،  
ومن الحق أن يحلى عرائس أفكاره بما للناس من حلى النثار والنظام؛ فأقول :  
مسلم أن كل ما أوردته درر وجواهر، وعقود كرهه الربيع عيون وجوهها النواضر  
نواظر؛ وليكنها هاهنا أمثل، وجمع شملها على هذى العروس أجمل :

\* وفى عنق الحسناء يستحسن العقد!

وعلى الجملة فيرجع المملوك إلى التواضع وهو الأليق بالأدب، فيقول : لا عيب  
على الفقيرة إذا تجملت بحلى الغنيه، ولا عار على الجوهرى إذا نظم سلكا كانت  
درره على الطرق مرمية؛ وترجع إلى ما ولده الفكر من عجب البحر، وما ظهر من دفع

المملوك لأمثالها عن جرمها إلى غاياتها بصور القمر، فأقول: إنما قالت الأدباء ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإرجاف بطول أذاه وهرجه فكأنما هم في يوم العرض؛ وكل ذلك وما وصل إلى هذا الارتفاع، وربما كان أنقص من هذه الزيادة بقريب الذراع.

وعلى هذا القياس إنما دفع ضرره، وجمل في البلاد أثره، وحسن في السماء خبره وفي الأرض مخبره؛ السرى الذي أهتاه بالمعروف معروف، وسيف الدين الذي سهر في مصالح الرعايا لما تنام ملء أجفانها السيوف؛ أتابك العساكر، والملك الذي هو بالإسلام وله منصور وناصر؛ حصن سائر الكوى بالحسور، وركز على أفواه البحر والخليج الأمراء كما يركز المجاهدون على الثغور؛ وقابل البحر من سطواته بما ليس له به قبيل، ورد دفعه بكل دفع من الرأي والتدبير يغني عن البيض والأسل؛ وحاربه بجيش عزم إلى أن ولّى هارباً مع التراع والقناطر، وجاهده بجند ركزهم على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر؛ وحصره بالتضييق عليه كما تحصر البرك والتراع، وغلّ يده عن التصرف فسقاه الموت كما سقى الناس أنواع التراع؛ فما هو إلا أن تضاعل بيران سطواته وأحترق، وذلل خاضعاً وكفى به تضرعاً بالأصابع وتوسلاً بالملق، وأطاع لما لم يُجبه مجاهرته من تياره بالسيوف ولا تحصنه من داراته بالدرق.

على أنه تطاول ليضاهي بأصابعه جود أيديه فقصر، وتحسّر فركب خيل خيلته ليحاكي بأسه فوق من جسور عجيبة وتقطر، وسمت نفسه كبيراً لأن يبلغ قدره فقيل: يا بحر هذا خليفة الله في أرضه والله أكبر؛ نعم:

رأى البحر الخضم نداء طام \* يفيض على الورى منه بحار،

فصار البحر ملتطماً وأضحى \* على الحالين ليس له قرار!

فلوزدت في أيام غيره من الملوك المترفين ، وفيمن يؤثر ملاذ نفسه على مصالح  
المسلمين ؛ كنت أيها الملك بلغت قصدك ، وفعلت في أبناء مصر كجهدك ؛ وكنت  
من الملوك الذين إذا دخلوا قرية آنتعلوا فيها الأهله ، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها  
أذله ؛ لكن هب قبولك إذبارا ، ولاقت ربحك إعصارا ؛ فليس لك به قبيل ،  
”والسئل أدرى بالحبيل“ ؛ فمالك سبيل إلى بلاده ، ولا طاقة بآباب الخير على عياده ؛  
فانه خادم الحرمين ، والمدعو له حتى في مواقف الحرب بين العلمين ؛ حامى السواحل  
والتغور ، والتخدوم بأيدى السحائب وأصابع البحور ، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر  
فلمست بمنصور ؛ والرأى أن تقف مستغفرا ، وتقول مُتدبرا ؛ : لم أفرط بالزيادة  
في أيامه ، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقبيل آثار جواد خيله ومواطني  
أقدامه ؛ وتتبع نواهيته وتمتثل أوامره ، وتدعو له كالرتايا بطول البقاء في الدنيا  
وحسن الثواب في الآخرة .

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع ، أن يرينا كوكب نورك عن قريب راجع ؛  
وكما أغنى بزيادتك عن الاستسقاء ، لا يُحوجنا في تقصك إلى الاستسقاء ، إنه سميع  
مجيب الدعاء ؛ بمنه وكرمه .

## الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة

( في قدمات البندق )

جمع قِدْمَةٍ بكسر القاف وسكون الدال المهملة، وهي رسائل تشتمل على حال الرَّمِي بالبندق، وأحوال الرِّمَاء، وأسماء طَيْرِ الواجب، وأصطلاح الرِّمَاءِ وشُرُوطِهِمْ. وهذه نسخة قِدْمَةٍ، كتب بها شَيْخُنَا الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّائِغِ الحَنْفِيُّ الأديب رحمه الله، لصلاح الدِّينِ بن المقرِّ الحَيَوِيُّ بن فضل الله، ونَصَّهَا : الحمد لله الذي سَدَّدَ لصلاح الدِّينِ سِهَامَ الواجب، وشَدَّدَ بِتَجَاحِ المَطْلُوبِ مَرَامَ الطَّالِبِ، وجعلَ حُصُولَ الرِّزْقِ الشَّارِدِ بالسَّعْيِ فِي المَنَاقِبِ، وَسَهَّلَ المُتَمَتِّعَ عَلَى القَاصِدِينَ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَجَعَ وَهُوَ صَائِبٌ .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ولد ولا صاحب، شهادة تزجر طَيْرَ الإِشْرَاقِ بهذه الأَشْرَاقِ من كُلِّ جَانِبٍ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي قَرَّبَهُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى؛ وَهَذِهِ أَعْلَى المَرَاتِبِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَقَوْا فِي العَلْيَاءِ لِمَرَّاقٍ لَمْ يَسْمُ إِلَيْهَا طَيْرٌ مُرَاقِبٌ، صَلَاةٌ يَسْبِقُ بِهَا المَصَلَّى إِلَى بِقَاعِ شَرْفٍ يُشْرِقُ سَنَاهُ فِي المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ، وَيَرْجِعُ طَائِراً بِالسُّرُورِ وَلَا رُجُوعَ الطَّائِرِ الشَّارِدِ إِلَى المَشَارِبِ .

وبعد، فإن الصَّيْدَ من أَحَلِّ الأَشْيَاءِ وَأَحْلَاهَا، وَأَجَلَّهَا وَأَجْلَاهَا، وَأَهْبَرَهَا وَأَهْبَاهَا، وَأَشْهَرَهَا وَأَشْهَاهَا؛ وَانْخَرَهَا قِيمَةً، وَأَغْزَرَهَا دِيمَةً؛ بِوُرُودِ الطَّيْرِ فِيهِ إِلَى المَنَاهِلِ تَنْشِيرِ الصَّدُورِ، وَبُوقُوعِهِ فِي سُرُورِ الشَّرْكِ يَتِمُّ السُّرُورُ؛ يُحْصَلُ عِنْدَ مُتَعَاطِيهِ نَسَاطًا، وَيَزِيدُهُ أَنْبَاطًا؛ وَيَنْسِرُ خَاطِرَهُ، وَيُسْرِحُ نَاطِرَهُ؛ وَيَمْلَأُ عَيْنَهُ قُرَّةً،

وَقَلْبَهُ مَسَّرَهُ؛ يُسَجِّعُ الْجَبَانَ، وَيُبَيِّتُ الْجَنَانَ، وَيُقَوِّمُ الشُّهُوهَ، وَيُسَوِّى الخَطُوهَ؛  
وَيَسُوِّقُ الظُّفْرَ، وَيَسُوِّقُ النَّظْرَ، وَيَرُوقُ مِنْهُ الْوَرْدَ وَالصَّدْرَ، وَيَفُوقُ فِيهِ الْخُبْرَ عَلَى  
الْخَبْرِ. قَالَ بَعْضُ الْحِكَمَاءِ: قَالَمَا يَغْمَشُ نَاطِرُ زَهْرَةٍ، أَوْ يَزْنُ مُرْبِعُ طَرِيدَةٍ، يَعْنِي  
بِذَلِكَ مَنْ أَدْمَنَ الْحَرَكَةَ فِي الصَّيْدِ وَنَظَرَ إِلَى الْبَسَاتِينِ، فَاسْتَمَعَ طَرْفَهُ بِنُضْرَتِهَا،  
وَأَنْبَقَ مَنظَرُهَا.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْكِرُ لَذَّةَ الْأَصْطِيَادِ، وَالطَّرَبَ بِالْقَنَاصِ عَلَى الْإِطْرَادِ؟ وَنَلَّحَ دَرَّ الْقَائِلِ:

لَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَذَّةٌ \* فَتَطَارِدِي لِي بِالْوِصَالِ قَلِيلًا.

هَذَا الشَّرَابُ أَخُو الْحَيَاةِ وَمَا لَهُ \* مِنْ لَذَّةٍ حَتَّى يُصِيبَ عَلِيلًا!

يَا حُسْنَهُ مِنْ فِعْلٍ آعْتَلَتْ بِالنَّسِيمِ مَوَارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ، وَفَاقَتْ أَوَائِلَهُ فِي اللَّذَائِدَةِ

أَوَانِرُهُ؛ وَنَلَّحَ الْقَائِلِ:

إِنَّمَا الصَّيْدُ هِمَّةٌ وَتَشَاطٌ \* يُعْقِبُ الْجِسْمَ صِحَّةً وَصَلَاحًا،

وَرَجَاءٌ يُنَالُ فِيهِ سُرُورٌ \* حِينَ يَلْقَى إِصَابَةً وَنَجَاحًا!

وَمَا أَطْيَبَ الْاِقْتِنَاصَ بَعْدَ الشُّرُودِ، وَكَيْفَ يُرَى مَوْقِعَ الْوَصْلِ بَعْدَ الصَّدُودِ:

وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعْتُ. \* أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعَا!

تَقْضِي رِيَاضَاتُ النُّفُوسِ السَّامِيَةَ بِمُعَاوَاةِ كَاسِيهِ، وَمُصَافَاةِ نَاسِيهِ؛ لَمَّا فِيهِمْ مِنَ  
الْفُتُوهِ، وَجَمَالَ الْمُرُوءِ؛ وَصِدْقِ اللِّسَانِ، وَثَبَاتِ الْجَنَانِ؛ وَطَيْبِ الْأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ  
الْمِيثَاقِ؛ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الصَّدْقِ وَإِنْ كَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى الْمَلَقِ، وَلَا يَبْغُونَ بِصَاحِبِهِمْ  
بَدِيلًا يَعْطِفُونَ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّسَقِ؛ لَا سِوَمَا تَعَاطَى صَيْدِ طُيُورِ الْوَاجِبِ، الَّذِي سَنَّهُ  
الْأَكْبَرُ وَجَعَلُوا أَمْرَهُ مِنَ الْوَاجِبِ؛ وَتَشَرَّفَتْ بِهِ هِمَمُهُمُ الْعَالِيَةُ: تَارَةً إِلَى السَّمَاءِ،  
وَأَوَانَةً إِلَى مَشَارِعِ الْمَاءِ.

لا يَمُّ سرورهم إلا برؤية تم كبدِ التمام، ومصباح الظلام؛ يفر من ظله فرارا،  
ويريك بياض لونه وسواد منقاره شيبا ووقارا؛ ولا يداوى هوم لغيره مثل كى،  
لأجنته الخوافي في الخافقين نشر وطى؛ ولا تنهج نفوسهم النفيسة إلا بأوزة،  
يزدري دلالها بالكعب المعترة؛ ولا يطرب أسماعهم غير لغات اللغلة، حين تمتد  
كأنها مدامة في الزجاج مفرغة؛ ولا يؤنسهم إلا الأيسة الأيسه، والدره النفيسة؛  
ولا يذهب حرجهم غير الحبرج الصادح، المستوفى بحسنه كل غاد ورائح؛ تكاد  
قلوبهم تطير بالفرح عند رؤية النسر الطائر، وتجر خواطيرهم بكسر ذلك الكاسر؛  
إذا عابوا عقباناً أعقبهم الفرح، ونزع عنهم الترح؛ وإن كركر كى فر عنهم البوس،  
ورأوا على رأسه ذلك التاج الذى لم يعل مثله على الرؤوس؛ وإن عرض غير نوق  
غير قوا في بحار أفكارهم، وجدوا إلى أن يقع يتجدول أوتارهم؛ وإن لاح صوع  
كالذهب المصوغ، ألقوه في الحبال وهو بدمه مصبوغ؛ وإن مر مرزم كالخوذة  
الحسنة، ضربوا له الآلة الحذباء؛ وإن مر السبيطر أجنته كالسحاب، جاءته  
المرامي من كل جانب؛ وإن عن عز عمدا إليه، حتى يسقط في يديه؛ قد تعالوا  
في رتبها، وتعالوا في وصف وشيها.

وجعلوا كل آلة صنيعة، وربة جمال منيعه، وبعيدة الرمي بديعه :-

من كل قوس هي في العين كالحجاب، أو النون التي أجادها الكاتب؛ تدور  
الطائر عند الرمي وتديبه، وتين أينا أولى به من نصيبه. وبندق جيلت طينته  
على صوب الصواب، يستنزل الطير ولو استتر بذيل السحاب؛ كأنه النجم الثاقب،  
والشهاب الصائب؛ يرى الطير كالسحاب الواكف، فينقض عليه انقضاض البرق  
الخطاف؛ ويرجع النسر من حنقه راتعا، ويغدو بعد أن كان طائرا واقعا؛ وبصير  
بعد أن كان كاسرا مكسورا، وفي سوار القسي مأسورا؛ فهناك يلقى الغالب



وهو مغلوب ، والطير الواجب وهو مندوب ؛ فحينئذ تشرح النفوس ، وتطرب  
ولا طربها بالكؤوس .

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة ، والمرتبة الجسيمة ؛ تعاطته الملوك وأبناء الملوك ،  
ونظّموا عقده بحسن السلوك ؛ وأرتاضت به النفوس الطاهرة ، واعتاضت به عن  
الكؤوس الدائرة ؛ ورأت به تكميل الأدوات ، وسامت به فعل الواجب وإن  
قيل : إن ذلك من الهفوات ؛ فهو تعب تنشأ الراحة عنه ، ولعب لم يكن شيء  
أشبه بالجد منه .

فلذلك قصد الجناب الكريم ، العالى ، الصالحى ، صلاح الدنيا والدين ، ونجاح  
الطالين ؛ سليل الوزراء ، وتجل الكبراء ، وصدور الرؤساء ، وعين العطاء ؛ ابن المقر  
المحيوى بن فضل الله ، أدام الله تعالى علاه ، وكبت عداه ؛ وأعلى معاليه ، وشكر  
مساعيه ؛ وأطال حياته ، وأطاب ذاته - أن يسلك تلك المسالك ، ويريض نفسه  
الكريمة بذلك ، ويحصيل على تحصيل اللذات بالتحوّل ، عملاً بقول الشاعر :

« تنقل فلذات الهوى فى التنقل ! »

وعمد إلى تحصيل آياته ، سائراً كالبدر فى هالاته ؛ فسار مع سرايا كالنجوم ،  
يتفأ كهون فى الحديث بالمشور والمنظوم ؛ ويخلطون جد القول بهزله ، كلما خلط  
لهم طل الجود بوبله ؛ وأنحدروا فى النيل بجمعهم الصحيح ، وقصدوا المرامي العالية  
ولم يقنعوا من الأيام بالريح ؛ وظلّوا يسرون فى تلك المراكب ، التى كأنها  
قطع السحاب .

هذا وهم يتشوفون إلى المصايد ، ويُسرفون إلى الشوارد ؛ فيطلعون أحياناً إلى  
البر متفرجين ، وبطيب ذلك النسيم متارجين :

نَسِيمٌ قَدْ سَرَى فِيهِمْ بَنَشِيرٍ \* فَأَذْكَرَهُمْ بِمَسْرَاهِ السَّرِيَّا!

كَرَامَتُهُ اسْتَقَرَّتْ حِينَ وَاقَى \* لَهُ نَفْسٌ يُعِيدُ الْمَيِّتَ حَيًّا!

ويجتنون من الغصن الزاهي قدا ، ويحتلون من الورد الزاهر حدا ، ويتأملون  
ضحك الأرض من بكاء السماء ، وشماخة القضب عند تحرير الماء ؛ لا تذوق أجفانهم  
طعم الكرى ، ولا يميلون عن السير ولا يملون السرى ؛ مامنهم إلا من إذا رأى الطير  
جائسا ، عاد من وقته له حائسا ؛ بينما هم يسرون متفرقين ، حتى إذا لاح لهم طير  
تداعوا إليه غير مقصرين وألتفتوا محققين ؛ ولم يزلوا كذلك يهتمون العيش ، بالدعة  
والطيش ؛ حتى إذا أقبل اليوم المبارك الثامن والعشرون من جمادى الآخرة سنة  
تسع وثلاثين وسبعائة ، وهو اليوم الذي عزم فيه الجناح الصلاحى على الأخطياد ،  
بالبنادق الحداد ؛ فتباشرت به الطيور ، وسدت بأجنتها الثغور ؛ وسهل عندها  
فيه نزول الرئيس ، فحادت له بالنفيس ؛ وخرجت من قشرها ، وسمحت عند  
مد القوس بحز تحرها ؛ ورغب كل منها أن يكون له بذلك أوفر القسم ، وترجى أن  
يكون هو المكتوب له فى القدم .

ومد يده نحو السماء ، فأصاب مرزما ؛ فباله من صيد فاق به على الأكابر الصيد!  
وبالته من يوم صار نحر الطير يوم العيد ! قام فيه بواجب ما شرعه الرماة من الشرع ،  
وذكرا بهذا الصرع يوم ذلك الصرع ؛ فلا زال سهمه مسدد الأغراض ، وجوهه  
تحيا من الأغراض ؛ يجرى بمراده المقدور ، ويطيعه فى سائر الأمور .

وقد نظمت محمسا مشتملا على ذكر طيور الواجب ، وطرزته باسمه ، لأن هذه  
القدمة قد قدمت له وجعلت برسمه ، غير أنى أعتذر عنها ، لعدم مادة عندى  
أستمد منها :

جَلَّ كُوُوسًا عَطَّلَتْ بِالرَّاحِ ، \* وَلَا تُطْعَمُ فِيهَا كَلَامَ لَاحِي ،  
وَأَشْرَبَ هَيْنًا وَأَسْقِنِي بِاصْبَاحِ ، \* وَأَذْكَرُ زَمَانًا مَرًّا بِالْأَفْرَاجِ ،  
\* هَبَّتْ بِهِ فِيمَا مَضَى رِيَّاحِي ! \*

أَيَّامَ كُنْتُ أَصْحَبُ الْأَكَابِرَاءِ ، \* وَأَغْتَسِدِي مَعَ الرِّمَاءِ سَائِرَاءِ ،  
وَلَا أَزَالُ بِالْغِيَارِ غَائِرَاءِ ، \* إِذَا رَأَيْتُ فِي الْمِيَاهِ طَائِرَاءِ ،  
\* نَحْوَتُهُ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِي ! \*

فَنَارَةٌ كُنْتُ أَصِيدُ النَّسْرَاءِ \* وَبَعْدَهُ الْعُقَابُ يَحْكِي الْجَمْرَاءِ  
وَالْكُفَى وَالْكُرْكِيَّ صِدْتُ جَهْرًا \* وَصِدْتُ غِرْنُوقًا وَعَتْرًا قَهْرًا  
\* وَكُنْتُ بِالْإِوَزِّ فِي أَنْشِرَاحِ ! \*

وَنَارَةٌ تَمَّا كَبَدْرِ السَّمِّ \* تَتَّبِعُهُ أَنْيْسَةُ كَالنَّجْمِ ،  
وَلَعَلَّغْتُ أَسْوَدَ مِسْكَ الْهَمِّ ، \* وَحَبْرَجْتُ عَنِ الرِّمَاءِ نَجْمِي ،  
\* وَالضُّوْعُ مَعَ سَبِيطِرٍ سَيَّاحِ ! \*

وَكَمْ وَكَمْ قَدْ صِدْتُ يَوْمًا مَرَزَمًا \* أَنْزَلْتُهُ بِالْقَوْسِ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ ،  
جَنَاحُهُ يَحْكِي طِرَارًا مُعَلَّمًا \* عَلَيَّ بِيَاضِ شَيْءٍ شَبِهَ الدَّمَاءِ ،  
\* كَأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيَّ صَبَاحِ ! \*

حَيْثُ الصَّبَا تُسْفَعُ بِالْقَبُولِ ، \* وَشَمَلْنَا يُجْمَعُ بِالشَّمُولِ ،  
فِي مَجْلِسٍ لَيْسَ بِهِ فُضُولِي ، \* وَجَاءَنَا التَّوْقِيعُ فِي الْوُصُولِ :  
\* فَسَادُكُمْ يَغْفَرُ بِالصَّلَاحِ ! \*

(١) ورد في (ص ٦٧ ج ٢) من هذا الكتاب : بالشين المعجمة مضمومة .

السَّيِّدِ الْفَائِقِ فِي أَعْمَالِهِ ، \* وَالْمُزْدَرِيَّ بِالْبَدْرِ فِي كَمَالِهِ ،  
وَالْمُشْتَرِيَّ حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ ، \* لَا أَحَدٌ يَحْكِيهِ فِي نَوَالِهِ :  
\* إِلَّا أَخُوهُ مَعِينُ السَّمَاكِ ! \*

مَنْ سَادَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُتَابِ ، \* وَصَانَ سِرَّ الْمُلْكِ فِي حِجَابِ ،  
عَلَى الْعَالِي عَلَى السَّحَابِ ، \* الْبَاذِلِ الْمَالَ بِلَا حِسَابِ !  
زاده الله نعيماً ، وأجرى له في البدي يدًا وثبت له في العلي قداماً بمنه وكرمه .



وهذه نسخة رسالة في صيد البندق ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي الثناء  
محمود بن سلمان الحلبي رحمه الله ، وهي :

الرِّيَاضَةُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْجَنَابِ الْفُلَانِيَّ ، وَجَعَلَ حُبَّهُ كَقَلْبِ عَدُوهِ وَاجِبًا ، وَسَعَدَهُ  
كَوَصْفِ عَبْدِهِ لِمَسَازِيرِ جَالِيَا ، وَلِلضَّارِّ حَاجِبًا - تَبَعْتُ النَّفْسَ عَلَى مُجَانِبَةِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ ،  
وَتَصَوُّنُهَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَمَائِمِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْوُكُونِ ، وَتَحْضُنُهَا عَلَى اخْتِذِ حَظِّهَا مِنْ كُلِّ  
فَنٍّ حَسَنٍ ، وَتَحْتُمُهَا عَلَى إِضَافَةِ الْأَدْوَاتِ الْكَامِلَةِ إِلَى فَصَاحَةِ اللَّسَنِ ؛ وَتَأْخُذُ بِهَا طَوْرًا  
فِي الْجِدِّ وَطَوْرًا فِي اللَّعِبِ ، وَتَصْرِفُهَا مِنْ مَلَاذِّ السُّمُوفِ فِي الْمَشَاقِّ الَّتِي يَسْتَرْوِحُ إِلَيْهَا  
التَّعِيبُ . فَتَارَةٌ تَجْمَلُ الْأَكَابِرَ وَالْعُظَمَاءَ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّرِيِّ ، وَمُقَاطَعَةِ  
الْكِرِيِّ ؛ وَمُهَاجِرَةُ الْأَوْطَارِ ، وَمُهَاجِمَةُ الْأَخْطَارِ ؛ وَمُكَابِدَةُ الْهَوَاجِرِ ، وَمُبَادِرَةُ الْأَوَابِدِ  
الَّتِي لَا تُدْرِكُ حَتَّى تَبْلُغَ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؛ وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي يُدْمُ الْمُعْرِضُ  
عَنْهَا ، وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ مَيْلِهِمْ جِدَّ الْحَرْبِ فَهَذِهِ صُورَةٌ لَعِبٍ يُخْرِجُ إِلَيْهَا مِنْهَا .  
وَتَارَةٌ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْبُرُوزِ إِلَى الْمَلَقِ ، وَيَحْدُوهُمْ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهَا مَعَ مَنْ هُوَ دُونَهُمْ

(١) سقطت الشطرة الخامسة من فلم الناصخ .

على ملازمة الصّدق ومجانبة الملق؛ فيعتسِفون إليها الدجى، إذا سَجى، ويقتحمون في بلوغها حرق النهار، إذا أنهار؛ ويتنعمون بوعثاء السفر، في بلوغ الظفر؛ ويستصغرون ركوب الخطر، في إدراك الوطر؛ ويؤثرون السهر على النوم، والليلة على اليوم؛ والبندق على السهام، والوحدة على الائتام.

ولما عدنا من الصيّد الذى أتصل به حديثه، وشرح له قديم أمره وحديثه؛ تقنا إلى أن تشقّ صيد السوانح، برمي الصوادح؛ وأن نفعل في الطير الجوانح، بأهله القسيّ. مانفعل الجوارح؛ تفضيلاً لملازمة الأرتحال، على الإقامة في الرّحال؛ وأخذاً بقولهم:

لا يصلحُ النفسُ إذ كانت مُدبّرةً \* إلاّ التّنقلُ من حالٍ إلى حالٍ!

فبرزنا ونتمس الأصيل تجود بنفسها، وتسير من الأفق الغربى إلى موضع رمسها؛ وتغازل عيون النور بمقلة أرمدها، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود؛ فكانها كئيب أضحى من الفراق على فرق، أو عليل يقضى بين صحبه بقايا مدة الرّمق؛ وقد أخضلت عيون النور لوداعها، وهم الرّوض بخلع حلتبه الموهة بذهب شعاعها:

والطلّ في أعين النّوار تحسبه \* دمعاً تحير لم يرقاً ولم يكيف:

كلؤلؤ ظلّ عطف الغصن متشعاً \* بعقده وتبدى منه في شنيف.

يضمّ من سندس الأوراق في صرير \* خضير ويحنى من الأزهار في صدف!

والشمس في طفّل الإمساء تنظر من \* طرف غدا وهو من خوف الفراق خفي:

كعاشق سار عن أحبابه وهفاً \* به الهوى فقرأ أهّم على شرف.

إلى أن نضى المغرب عن الأفق حلى فلائدها، وعوّضه عنها من النجوم بخدمها وولائدها؛ فلبثنا بعد أداء الفرض لبث الأهلّة، ومنعنا جفوننا أن تردّ النوم

إِلَّا تَحَلَّهٖ ، وَنَهَضْنَا وَبُرْدَ اللَّيْلِ مُوَشَّعٌ ، وَعِقْدُهُ مُرْصَعٌ ، وَإِكْبِيلُهُ مُجُوهَرٌ ، وَأَدِيمُهُ  
مُعْتَبَرٌ ، وَبَدْرُهُ فِي خِذْرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِينٌ ، وَبِخْرُهُ فِي حَشَا مَطَالِعِهِ مُسْتَجِنٌ ، كَانَ  
آمْتَرَجَ لَوْنَهُ بِشَفَقِ الْكَوَاكِبِ خَلِيطًا مِسْكٍ وَصَنْدَلٍ ، وَكَأَنَّ ثُرْيَاهُ لِأَمْتَدَادِهِ مُعَلَّقَةٌ  
بِأَمْرَاسٍ تَكَّانٍ إِلَى صَمِّ جَنْدَلٍ :

وَلَا حَتَّ نُبْجُومُ اللَّيْلِ زُهْرًا كَانَتْهَا \* عُقُودٌ عَلَى خَوْدٍ مِنَ الرِّيحِ تُنْظَمُ ،  
مُحَلَّقَةٌ فِي الْجَوِّ تُحْسَبُ أَنَّهَا \* [ طُبُورٌ ] عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ حَوْمٌ  
إِذَا لَاحَ بَازِي الصُّبْحِ وَلَّتْ يَوْمَهَا \* إِلَى الْغَرْبِ خَوْفًا مِنْهُ تَسْرٌ وَمِرْزَمٌ !

إِلَى حَدَائِقَ مُلْتَفَّةً ، وَجَدَاوِلَ مُخْتَفَّةً ، إِذَا نَحَمَسَ النَّسِيمُ غُصُونَهَا أَعْتِنَقَتْ أَعْتِنَاقَ  
الْأَحْبَابِ ، وَإِذَا فَارَكَ مَرُّ الْمِيَاهِ مُتُونَهَا أَنْسَابَتْ فِي الْجَدَاوِلِ أَنْسِيَابَ الْحُبَابِ ،  
وَرَقَصَتْ فِي الْمَنَاهِلِ رَقِصَ الْحُبَابِ ، وَإِنْ لَمْ تُغُورْ نُورَهَا حَيْثُهَا بِأَنْفَاسِ الْمَعْشُوقِ ،  
وَإِنْ أَيْقَظَ نَوَاعِيسَ وَرُقَيْهَا غَتَّتْهُ بِالْحُلَانِ الْمَشُوقِ ، فَتَسِيمُهَا وَأَنْ ، وَتَسِيمُهَا لِعَرَفِ الْجَنَانِ  
عُنْوَانٌ ، وَوَرْدُهَا مِنْ سَمَرِ نَرْجِسِهَا غَيْرَانٌ :

وَطَلَّهَا فِي خُدُودِ الْوَرْدِ مُنْبِعَثٌ \* طَوْرًا وَفِي طُرُرِ الرَّيْحَانِ حَيْرَانٌ !

وَطَائِرُهَا غَرِدٌ ، وَمَاؤُهَا مُطْرِدٌ ، وَغُصْنُهَا تَارَةٌ يَعْطِفُهُ النَّسِيمُ إِلَيْهِ فَيَنْعَطِفُ ، وَتَارَةٌ  
يَعْلَلُ تَحْتِ وَرَقَائِهِ فُتْحَسَبُ أَنَّهَا هَمَزَةٌ عَلَى الْإِفِّ ، مَعَ مَا فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ مِنْ تَوَافُقِ  
الْمَحَاسِنِ وَتَبَايُنِ التَّرْتِيبِ ، إِذْ كَلَّمَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ صَمَّ الْأَرْجِ وَكَلَّمَا نَحَرَ الْمَاءُ شَمَخَ الْقَضِيبِ :

فَكَأَنَّهَا تِلْكَ الْغُصُونُ إِذَا تَنَّتْ \* أُعْطِفَهَا رِيحُ الصَّبَا أَحْبَابٌ :

فَلَهَا إِذَا أَفْتَرَقَتْ مِنْ أَسْتَعْطَافِهَا \* صُلِحَ وَمِنْ سَبِيعِ الْحَمَامِ عِتَابٌ .

وَكَأَنَّهَا حَوْلَ الْعُيُونِ مَوَائِسَا \* شَرِبَتْ وَهَاتَيْكَ الْمِيَاهُ شَرَابٌ !

فَغَدِيرُهَا كَأَنَّهَا وَعَدْبُ نَطَافِهَا \* رَاحٌ وَأَضْوَاءُ النُّجُومِ حَبَابٌ !

يَحِيطُ بِمَلَقِي نِطَاقِهَا صَافٍ، وَظِلَالِ دَوْحِهَا ضَافٍ، وَحَصَاها لَصَفَاءِ مَائِهَا فِي نَفْسِ  
الْأَمْرِ رَاكِدٌ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ طَافٍ، إِذَا دَغَدَغَهَا النَّسِيمُ حَسِبْتَ مَاءَهَا بِمَائِلِ الظَّلَالِ  
فِيهِ يَتَّبِعُ وَيَمِيلُ، وَإِذَا أَطْرَدَتْ عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الصَّبَا ظَنَنْتَ أَفْيَاءَ تَمَكِّ الْعُصُونِ تَارَةً  
تَمَوْجُ وَتَارَةً تَسِيلُ :

فَكَانَهُ مُحِبُّ هَامٍ بِالْعُصُونِ هَوَى فَمَثَلَهَا فِي قَلْبِهِ، وَكَأَنَّ النَّسِيمَ كَلَّفَ بِهَا غَارَ مَنْ  
دُونَهَا إِلَيْهِ فَمِيلَهَا عَنْ قُرْبِهِ :

وَالنُّورُ مِثْلُ عَرَائِسٍ \* لُفَّتْ عَلَيْهِنَّ الْمَلَاءُ،

تَمَرْنَ فَضْلَ الْأُزْرِ عَنْ \* سُوقِ خَلَاخِلِهِنَّ مَاءُ،

وَالنَّهْرُ كَالْمِرَاةِ تَنْظُرُ وَجْهَهَا فِي السَّمَاءِ !!

وَكَانَ صَوَافٍ الطُّيُورِ الْمُتَسِقَةَ بِتَمَكِّ الْأَرْضِ خِيَامٍ، أَوْ طِبَاءً بِأَعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ قِيَامٍ،  
أَوْ أَبَارِيقُ فِضِيَّةٍ رُؤُوسِهَا لَهَا أَقْدَامُ، وَمَتَاقِيرُهَا الْمُحْمَرَّةُ أَوْ أَيْلٌ مَا أَنْسَكَبَ مِنَ الْمُدَامِ،  
وَكَانَ رِقَابِهَا رِيحٌ أَسْتَتَمَتْ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ شَمُوعٌ أَسْوَدُ رُؤُوسِهَا مَا أَنْطَفَى وَأَحْمَرُهُ  
مَا أَلْتَهَبَ، وَكَأَنَّ الطَّيْرَ الْجَلِيلَ عَدَّهُ، وَكَطِرَازِ الْعُمَرِ الْأَوَّلِ جَدَّهُ :

مَنْ كُلُّ أَيْلَجٍ كَالنَّسِيمِ لَطَافَةٌ \* عَفَّ الضَّمِيرُ مُهْدَبِ الْأَخْلَاقِ،

مِثْلُ الْبُدُورِ مَلَاحَةٌ، وَكُعْمَرِهَا \* عَدَدًا، وَمِثْلُ الشَّمْسِ فِي الْإِشْرَاقِ!

وَمَعَهُمْ قِسِيٌّ كَالْعُصُونِ فِي لَطَافَتِهَا وَلِينِهَا، وَالْأَهْلَةُ فِي تَحَاقُتِهَا وَتَكْوِينِهَا، وَالْأَزَاهِرُ  
فِي تَرَاقُتِهَا وَتَلْوِينِهَا، بِطُونِهَا مُدْبِجَةٌ، وَمُتَوْنِهَا مُدْرَجَةٌ، كَأَنَّهَا كَوَاكِبُ الشُّوْلِةِ فِي أَنْعَاطِهَا،  
أَوْ أَرْوَاقُ الطَّبَاءِ فِي الْتِفَافِهَا، لِأَوْتَارِهَا عِنْدَ الْقَوَادِمِ أَوْتَارٌ، وَلِبْنَادِقِهَا الْحَوَاصِلُ  
أَوْ كَارٍ، إِذَا أَنْضَيْتْ لَصِيدَ ذَهَبٍ مِنَ الْحَيَاةِ نَصِيدُهُ، وَإِنْ أَنْتَصَتْ لِرَمِيٍّ بَدَأَ لَهَا  
أَنَّهَا أَحَقُّ بِهِ مِنْ يُصِيدُهُ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ الصَّوْتُ زَجْرُ لِبْنَدِقِهَا أَنْ يُبْطِئَ فِي سَيْرِهِ،

أَوْ يَخْطَى الْعَرَضَ إِلَى غَيْرِهِ ، أَوْ وَحْشَةً لِمُفَارَقَةِ أَفْلَاحِ كَيْدِهَا ، أَوْ أَسْفَ عَلَى  
خُرُوجِ بَيْنِهَا مِنْ يَدِهَا ؛ تَلَى أَنَّهُ طَالَمَا نَبَذَتْ بَيْنَهَا بِالْعَرَاءِ ، وَشَفَعَتْ لِحَصْمِهَا  
التَّحْذِيرَ بِالْإِغْرَاءِ :

مِثْلُ الْعَقَارِبِ أَدْنَابًا مُعَقَّدَةً \* لِمَنْ تَأَمَّلَهَا أَوْ حَقَّقَ النَّظْرًا !  
إِنْ مَدَّهَا قَمَرٌ مِنْهُمْ وَعَيْنَهُ \* مُسَافِرُ الطَّيْرِ فِيهَا أَوْ نَوَى سَفْرًا ،  
فَهُوَ الْمُسَيِّءُ أَخْبِيَارًا إِذْ نَوَى سَفْرًا \* وَقَدْرَأَى طَالِعًا فِي الْعَقَرِ الْقَمَرَا !

وَمِنَ الْبِنَادِقِ كُرَاتٌ مَتَفِقَةٌ السَّرْدُ ، مُتَّحِدَةٌ الْعَكْسُ وَالطَّرْدُ ، كَأَنَّهَا خُرِطَتْ مِنْ  
الْمَتَدَلِّ الرُّطْبِ أَوْ عُجِنَتْ مِنَ الْعَنْبَرِ الْوَرْدُ ؛ تَسْرِي كَالشَّهْبِ فِي الظَّلَامِ ، وَتَسْبِقُ إِلَى  
مَقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدَّدَاتِ السَّهَامِ :

مِثْلُ النُّجُومِ إِذَا مَا سَرَنَ فِي أَفْقٍ \* عَنِ الْأَهْلَةِ لَكِنْ نُورُهَا رَأَى .  
مَا فَاتَهَا مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ إِنْ رُمِقَتْ \* إِلَّا تَبَاتَتْ يُرَى فِيهَا وَأَضْوَاءُ ،  
تَسْرِي وَلَا يَشْعُرُ اللَّيْلُ الْبَيْمُ بِهَا \* كَأَنَّهَا فِي جُفُونِ اللَّيْلِ إِغْفَاءُ ،  
وَتَسْمَعُ الطَّيْرَ إِذْ تَهْفُو قَوَادِمُهُ \* خَوَافِقًا فِي الدِّيَابِجِ وَهِيَ صَمَاءُ !! !

يَصُونُهَا جِرَاوَةٌ كَأَنَّهَا دُرُجٌ دُرُّرٌ ، أَوْ دُرُجٌ غُرُّرٌ ، أَوْ كَامَةٌ ثَمْرٌ ، أَوْ كَأَنَّهَا تَبَلٌ ،  
أَوْ عَمَامَةٌ وَبَلٌ ؛ حَالِكَةٌ الْأَدِيمِ ، كَأَنَّهَا رُقِمَتْ بِالشَّفَقِ حُلَّةٌ لَيْلِهَا الْبَيْمُ :  
كَأَنَّهَا فِي وَضْعِهَا مَشْرِقٌ \* تَبَّتْ مِنْهُ فِي الدَّبْحِ الْأَنْجَمُ ،  
أَوْ دِيمَةٌ قَدْ أَطْلَعَتْ قَوْسَهَا \* مَلُونًا وَأَنْبَثَتْ تَسْجِمُ !

فَاتَّخَذَ كُلُّ لَهٍ مَرْكَزًا ، وَتَقَضَّى مِنَ الْإِصَابَةِ وَهَذَا مُنْجَزًا ، وَضَمَّنَ لَهُ السَّعْدُ أَنْ  
يُصْبِحَ لِمُرَادِهِ مُحْرَزًا :



كَأَنَّهُمْ فِي يُمَيْنِ أَعْمَالِهِمْ \* فِي نَظَرِ الْمُتَنَصِّفِ وَالْمُحَادِدِ:

قَدْ وُلِدُوا فِي طَالِعِ وَاحِدٍ، \* وَأَشْرُقُوا مِنْ مَطْلَعِ وَاحِدٍ!

فَسَرَتْ عَلَيْنَا مِنَ الطَّيْرِ عَصَابَهُ، أَظَلَّتْنَا مِنْ أَجْنِحَتِهَا سَحَابَهُ؛ مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَقْلَعَ  
يَرْتَادُ مَرْتَعًا، فَوْجَدَ وَلَيْكِنَ مَضْرَعًا، وَأَسْفَ يَنْتَعِي مَاءً جَمًّا فَوْجَدَ وَلَيْكِنَ السَّمَّ مُنْتَعَا،  
وَحَلَّقَ فِي الْفَضَاءِ يَبْنِي مَلْعَبًا فَبَاتَ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ مُجَدًّا لِمَحَارِبِ الْقَيْسِيِّ وَرُكْعًا، فَتَبَرَّكْنَا  
بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ، وَتَدَارَكْنَا أَوَائِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ .

فَاسْتَقْبَلَ أَوْلَانَا تَمَامَ بَدْرِهِ، وَعَظَمَ فِي نَوْعِهِ وَقَدْرِهِ؛ كَأَنَّهُ بَرَقَ كَرَعٌ فِي غَسَقٍ،  
أَوْ صُبْحٌ عَطَفَ عَلَى بَقِيَّةِ الدُّجَى عَطَفَ النَّسَقُ؛ تَحْسَبُهُ فِي أَسْدَافِ الْمُنَى غُرَّةً مُنْجِحًا،  
وَتَحَالُهُ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى طُرَّةً صُبْحًا؛ عَلَيْهِ مِنَ الْبِيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارٌ، وَلَهُ كَدُهْنٌ عَنَبَرٌ  
فَوْقَ مُنْقَارٍ مِنْ قَارٍ، لَهُ عُنُقٌ ظَلِيمٌ، وَالنِّفَاةُ رِيمٌ، وَسُرَى غَيْمٍ يُصَرِّفُهُ نَسِيمٌ :

كَأَنَّ الْمَشِيبَ، وَعَصْرَ الشَّبَابِ، \* وَوَقْتَ الْوِصَالِ، وَيَوْمَ الظَّفَرِ!

كَأَنَّ الدُّجَى غَارَ مِنْ لَوْنِهِ \* فَأَمْسَكَ مِنْقَارُهُ ثَمَ فَرَّ!

فَارْسَلْ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ نَجْمًا، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرُ حَجْمًا؛ فَاسْتَبَشَرَ بِجَنَاحِهِ،  
وَكَبُرَ عِنْدَ صِيَاغِهِ، وَحَصَّلَهُ مِنْ وَسَطِ الْمَاءِ بِجَنَاحِهِ .

وَتَلَاهُ كُنَى نَبِيِّ اللِّبَاسِ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ فِي عَرَائِنِ شَيْبِهِ لَا وَبَلَهُ كَبِيرُ  
أُنَاسٍ؛ إِنْ أَسْفَ فِي طَيْرَانِهِ فَنَمَامٌ، وَإِنْ خَفَقَ بِجَنَاحِهِ فَقَلْعٌ لَهُ بِيَدِ النَّسِيمِ زِمَامٌ؛  
ذُو عَيْبَةٍ كَالْحِرَابِ، وَمِنْقَارٍ كَالْحِرَابِ، وَلَوْنٍ يَغْرُ فِي الدُّجَى كَالنَّجْمِ وَيَحْدَعُ فِي الضُّحَى  
كَالسَّرَابِ؛ ظَاهِرُ الْهَرَمِ، كَأَنَّمَا يُجْبَرُ عَنْ عَادٍ وَيُحَدَّثُ عَنْ إِرَمِ :

إِنْ عَامَ فِي زُرْقِ الْغَدِيرِ حَسْبَتَهُ \* مُبَيِّضُ غَيْمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءٍ،

أَوْطَارَ فِي أُنْفِقِ السَّمَاءِ ظَنَّتَهُ \* فِي الْجَوِّ شَيْخًا عَائِمًا فِي مَاءٍ،

مُتَنَاقِضِ الْأَوْصَافِ فِيهِ خِفَّةُ السَّجْهَالِ تَحْتَ رَزَانَةِ الْعُلَمَاءِ!

فَتَنَى الثَّانِي إِلَيْهِ عِنَانَ بُنْدُقِهِ ، وَتَوَخَّاهُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ ، نَخْرَ كَارِدٍ أَنْقَضَ  
عَلَيْهِ نَجْمٌ مِنْ أَفْقِهِ ؛ فَتَلَقَّاهُ الْكَبِيرَ بِالتَّكْبِيرِ ، وَأَخْطَفَهُ قَبْلَ مَصَاحِفَةِ الْمَاءِ مِنْ  
وَجْهِ الْغَدِيرِ .

وَقَارَنَتْهُ إِوْرَؤُهُ حَلْبَاءَ دَكَّاءَ ، وَحَلَّتْهَا حَسَنَاءَ ؛ لَهَا فِي الْفَضَاءِ مَجَالٌ ، وَعَلَى طَيْرَانِهَا خِفَّةٌ  
ذَوَاتِ التَّبْرِجِ وَخَفَرُ رَبَّاتِ الْمَجَالِ ؛ كَأَتَمَّا عَبَّتْ فِي ذَهَبٍ ، أَوْ خَاصَّتْ فِي لَهَبٍ ؛  
تَخَالُ فِي مِشْيَتِهَا كَالْكَاعِبِ ، وَتَتَأَنَّى فِي خَطْوِهَا كَاللَّاعِبِ ؛ وَتَعْطِفُ بِجِيدِهَا كَالظُّبِيِّ  
الْغَرِيرِ ، وَتَتَدَفَعُ فِي سَيْرِهَا مِثْلَ الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ :

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمِشِي نَخْطَرَةَ كَعَابٍ \* رَدَّاجٌ ، وَإِنْ صَاحَتْ فَصَوْلَةٌ حَازِمٍ ،  
وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرِّيحُ : لَيْتَ لِي \* خَفَا ذِي الْخَوَافِي أَوْ قُوَى ذِي الْقَوَادِمِ .  
فَأَنْعِمُ بِهَا فِي الْبُعْدِ زَادُ مَسَافِرٍ ، \* وَأَحْسِنُ بِهَا فِي الْقُرْبِ تُحْفَةٌ قَادِمٍ !  
فَلَوَى الثَّلَاثُ جِيدَهُ إِلَيْهَا ، وَعَطَفَ بِوَجْهِ إِقْبَالِهِ عَلَيْهَا ؛ فَلَجَّتْ فِي تَرْفَعِهَا مُمِعِنَةً ، ثُمَّ نَزَلَتْ  
عَلَى حُكْمِهِ مُدْعِنَةً ؛ فَأَعْجَلَهَا عَنْ أَسْتِكْمَالِ الْهَبُوطِ ، وَأَسْتَوَى عَلَيْهَا بَعْدَ أَسْتِمْرَارِ الْقُبُوطِ .  
وَحَادَتْهَا لَغْلَغَةً تَحْكِي لَوْنَ وَشَيْهَا ، وَتَصِفُ حُسْنَ مِشْيَتِهَا ؛ وَتُرِي عَلَيْهَا بَغْرَتَهَا ،  
وَتُنَافِسُهَا فِي الْحَاسِنِ كَضَرَّتِهَا ؛ كَأَنَّهَا مُدَامَةً قُطِبَتْ بِمَائِهَا ، أَوْ غَمَامَةً شَفَّتْ عَنْ بَعْضِ  
نُجُومِ سَمَائِهَا :

بُغْرَةٌ بَيْضَاءَ مَيْمُونَةٍ \* تُسْرِقُ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ النَّوَامِ !

وَإِنْ تَبَدَّتْ فِي الضُّحَى اخْتَلَّتْهَا \* فِي الْحَلَّةِ الدَّكَّاءِ بَرَقَ الْغَمَامِ !

فَنَهَضَ الرَّابِعُ لِأَسْتِقْبَالِهَا ، وَرَمَاهَا عَنْ فَلَكَ سَعِيدِهِ بَنِيمٍ وَبَالِهَا ؛ فَجَدَّتْ فِي الْعُلُوِّ  
مُبْتَدَاهُ ، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بُنْدُقِهِ وَلَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَدَّهُ ؛ وَأَنْقَضَ عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ

شهاب حنفيها، وأدركها الأجل لحفة طيرانيها من خلفها؛ فوقعت من الأفق في كفه،  
ونقر ما في بقايا صفها عن صفه .

واتت في إثرها أنيسة أنسه، كأنها العذراء العانسه، أو الأدماء الكانسه؛ عليها  
خفر الأبقار، وخفة ذوات الأوكار، وحلاوة المعاني التي تُجلى على الأفكار؛ ولها  
أنس الريب، وإدلال الحبيب، وتلفت الزائر المرهب من خوف الرقيب؛ ذات عنق  
كالإبريق، أو الغصن الوريق، قد جمع صفرة البهار إلى حمرة الشقيق؛ وصدر بهي  
الملبوس، شهى إلى النفوس، كأنما رقم فيه النهار بالليل أو نقش فيه العاج بالآبنوس؛  
وجناح يُعجها من العطب، يحكى لونها المنديل الرطب لولا أنه حطب :

مُدِيحَةُ الصَّدرِ تَفْوِيْفُهُ \* أَضَافُ إِلَى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ!

لَهَا عُنُقٌ خَالَهَ مِنْ رَأاهُ \* شَقَائِقُ قَدْ سِيَّجَتْ بِالْبَهَارِ!

فوثب الخامس منها إلى الغنيمه، ونظم في سلك رميته تلك الدرّة البيتمه، وحصل  
بتحصيلها بين الرماة على الرتبة الجسيمه .

وأنى على صوتها حبرج تسبق همته جناحه، ويغلب خفق قوادمه صياحه؛ مدبح  
المطا، كأنما خلع حلة منكيه على القطا؛ ينظر من هب، ويخطو على رجلين من ذهب:

يَزُورُ الرِّياضَ، وَيَجْفُو الحِياضَ \* وَيُشِبُّه فِي اللَّوْنِ كُدْرَ القَطَا،

وَيَغْوَى الزُّرُوعَ وَيَلْهُو بِهَا، \* وَلَا يَرِدُ المِاءَ إِلَّا خَطَا!

فبدره السادس قبل ارتفاعه، وأعان قوسه بامتداد بآعه، نخر على الألاء كسطام  
ابن قيس<sup>(١)</sup>، وأنقص عليه راميته فحمله بحدق وحمله بكيس .

(١) يشير إلى قول الشاعر في بسطام :

نَخَّرَ عَلَى الأَلَاءِ لَمْ يُوَسِّدْ \* كَأَنَّ جِيهَهُ سَيْفٌ صَقِيلٌ :

الألاء. بوزن العلاء. نجر والألاءة أحص منه .

وتعدّر على السابح مرأته ، ونبا عن بلوغ الأرب مقامه ؛ فصعد هو وترب له  
إلى جبل ، وثبت في موقفه من لم يكن له بمرافقتها قبل .

فمن له نسر ذو قوائم شداد ، ومناسر حداد . كأنه من نُسور لقمان بن عاد ؛ تحسبه  
في السماء ثالث أخويه ، وتخاله في الفضاء قبته المنسوبة إليه ؛ قد حلق كالفقراء  
رأسه ، وجعل مما قصر من الدلوق الدكن لباسه ؛ واشتمل من الرياش العسلي  
إزارا ، وألف العزلة فلا يجِد له إلا في قنن الجبال الشواهي مزارا ؛ قد شابت نواصي  
الليل وهو لم يشب ، ومضت الدهور وهو من الحوادث في معقل أشب :

مليك طيور الأرض شرقاً ومغرباً \* وفي الأفق الأعلى له أخوان !

له حال قتاك ، وحيلة ناسك ، \* وإسراع مقدم ، وفرة وان !

فدنا من مطاره ، وتوحي بندقه عنقه فوق في منقاره ؛ فكأما هد منه صحرا ،  
أو هدم به بناء مشمخزا ؛ ونظر إلى رفيقه ، مبشرا له بما آتاه به عن رفيقه .

وإذا به قد أظنته عقاب كاسر ، كأما أضلت صيدا أفلت من المناسر ؛ إن  
حطت فسحاب أنكشف ، وإن أقامت فكان قلوب الطير رطباً وبأسا لدى  
وكرها العناب والحشف ، بعيدة ما بين المناكب :

إذا أفلتت بحت علوا كأنما \* تُحاول نارا عند بعض الكواكب !

يرى الطير والوحش في كفها \* ومنقارها ذا عظام مزاله .

فلو أمكن الشمس من خوفها \* إذا طلعت ما تسمت غزاله !

فوشب إليها التامن وثبة ليث قد وثق من حركاته بنجاحها ، وربما بأول بندقه فما  
أخطأ قادمة جناحها ؛ فأهوت كعود صرع ، أو طود صدى ؛ قد ذهب بأسها ،

وتَدَهَّبُ بِدَمِهَا لِبَاسُهَا ، وَكَذَلِكَ الْقَدَرُ يُخَادِعُ الْجَوَّ عُنَايَهُ ، وَيَسْتَرِلُ الْأَعْصَمَ مِنْ عُنَايِهِ ؛ فَعَمَلُهَا بِجَنَاحِهَا الْمَهِيضِ ، وَرَفَعَهَا بَعْدَ التَّرْفَعِ فِي أَوْجِ جَوْهَا مِنَ الْحَضِيضِ ، وَنَزَلَ إِلَى الرَّفْعَةِ ، جَدَلًا بِرِيحِ الصَّفَقَةِ .

فوجد التاسع قد مر به كركي طويل الشفار ، سريع النفاذ ؛ شبه الفراق ، كثير الاغتراب يشتو بمصر ويصيف بالعراق ؛ لقوادمه في الجو حفيف ، ولأديمه لون سما طرا عليها غيم خفيف ؛ تحن إلى صوته الجوارح ، وتعجب من قوته الرياح البوارح ؛ له أثر حمرة في رأسه كوميض جم تحت رماد ، أو بقية جرح تحت ضمد ، أو فص عقيق سفت عنه بقايا نمد ؛ ذو منقار كسنان ، وعنق كعنان ؛ كأنما ينوس ، على عودين من أبوس :

إذا بدا في أفق مقلعا \* والجو كالماء تفاعيفه :

حسبته في لحية مرجكا \* رجلاه في الأفق مجاديفه !

فصبر له حتى جازه مجليا ، وعطف عليه مصليا ؛ نحر مضرجا بدمه ، وسقط مشرفا على عذمه ؛ وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المدون ، وأصابه القدر بحجة من حمي مسنون ؛ فكثرت التكبير من أجله ، وحمله على وجه الماء برجله .

وحاذاه غرنوق حكاة في زيه وقدره ، وأمتاز عنه بسواد رأسه وصدره ؛ له ريشتان ممدودتان من رأسه إلى خلفه ، معقودتان من أذنيه مكان شنفه :

له من الكركي أوصافه \* سوى سواد الصدر والرأس .

إن شال رجلا وأنبرى قائما \* ألفتيه هيئة رجاس !

فأضغى العاشر له منصتا ، ورماه متلفتا ؛ نخر كأنه صريع الألمان ، أو نريف بنت الحان ؛ فأهوى إلى رجله بيده ، وأتقص عليه آتقضا الكاسر على صيده .

وتبعه في المطار ضوع<sup>(١)</sup>، كأنه من النضار مصنوع، تحسبه عاشقاً قد مدَّ صفحته،  
أو بارقاً قد بثَّ لفحته :

طويلةٌ رجلاه مُسَوِّدَةٌ \* كأنما منقاره خنجرُ  
مثلُ عجوزٍ رأسها أشمطُ \* جاءت وفي رقبتها معجراً!

فاستقبله الحادي عشر ووثب، ورماه حين حاذاه من كئيب، فسقط كفارسٍ تقطَّرَ  
عن جواده، أو وامقٍ أصيبت حبة فؤاده، خمله بساقه، وعدل به إلى رفاقه .

واقترن به مرزومٌ له في السماء يميُّ معروف، ذو منقارٍ كصُدغٍ معطوف، كأن  
رياشه فلقٌ اتصل به شفق، أو ماء صافٍ علق بأطرافه علق :

له جسمٌ من الثلج \* على رجلين من نارٍ :  
إذا أفلح لئلا فلت برق في الدجى سارى!

فاتحاه الثاني عشر ميمًا، ورماه مصمًا، فأصابه في زوره، وحصله من فوره،  
وحصل له من السرور ما نخرج به عن طوره .

والتحق به سبيطر، كأنه مذبة مبيطر، يتخط كالسيل، ويكرُّ على الكوايسر كالخيل،  
ويجمع من لوتيه بين ضدين يقبل منهما بالنهار ويذبر بالليل، يتلوى في منقاره الأيم،  
تلوى التين في الغيم :

ترأه في الجومئدا وفي فسه \* من الأفاعي شجاع أرقم ذكرُ  
كأنه قوس رآم عنقه يدها \* ورجله رجلها والحية الوتر!

(١) هو بضم الصاد المعجمة وكسرهما مع فتح الواو. وورد في الجزء الثاني (ص ٦٤) من هذا الكتاب :  
"صوغ" وأنظر ما كتبناه عليه في الحاشية الثانية هناك .

فصوب الثالث عشر إليه بندقه ، فقطع حية وعنقه ، فوق كالصرح الممرد ،  
أو الطراف الممدد .

وأتبعه عناز أصبح في اللون ضده ، وفي الشكل نده ، كأنه ليل ضم الصبح إلى  
صدره ، أو انطوى على هالة بدره :

ترآه في الجوّ عند الصبح حين بدأ \* مسودّ أجنحة مبيض حيزوم :

كأنه حبشي عام في نهر \* وضم في صدره طفلاً من الروم !

فنهض تمام القوم إلى التيمه ، وأسفرت عن نوح الجماعة تلك الليلة المدهمة ،  
وغدا ذلك الطير الواجب واجباً ، وكل العدد به قبل أن تطلع الشمس عيناً أو تبرز  
حاجباً ، فيالها ليلة حصرنا بها الصادح في الفضاء المتسع ، ولقيت فيها الطير ما طارت به  
من قبل على كل شمل مجتمع ، وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كقرايد خانها  
النظام ، أو شرب كأن رقابهم من اللبن لم يخلق لمن عظام ، وأصبحنا مثنين على  
مقامنا ، مثنين بالظفر إلى مستقرنا ومقامنا ، داعين لولوى جهدنا ، مدعين له قبلنا  
أوردنا ، حاملين ما صرغنا إلى بين يديه ، عاملين على التشرّف بخدمته والانتفاء إليه :

فأنت الذي لم يلف من لا يؤده \* ويدعى له في السر أو يدعى له :

فان كان رمي ، أنت توضح طريقه ، \* وإن كان جيش : أنت تحمي قبيله !

والله تعالى يجعل الآمال منوطه به وقد فعل ، ويجعله كهفاً للأولياء وقد جعل ،

بمنه وكرمه :

## الفصل الرابع

من الباب الأول من المقالة العاشرة

( في الصدقات ، وفيه طرفان )

### الطرف الأول

( في الصدقات الملوكية وما في معناها )

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صدق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فتطال للملوك وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخة صدق، كتبت به للملك السعيد بركة ، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الأثنى قبل سلطنته ، بالقلعة المحروسة ، من إنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهى :

الحمد لله موفق الآمال لأشعد حركة ، ومصدق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركة ، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانة وصهره ملكة ؛ الذى جعل للأولياء من لدنه سلطانا نصيرا ، وميز أقدارهم بأصطفاء تاهله حتى حازوا نعيما ومذكا كبيرا ؛ وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس أمالم ضياء وزاد قمرها نورا ، وشرف به ووصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيما وإنعامه كثيرا ؛ مهيب أسباب التوفيق العاجلة والآجلة ، وجاعل ربوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبُدور والأهلة آهله ، جامع أطراف الفخار لذوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم البركة الكاملة .



تحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنعمة الاستيداع، وأجمل لتأجيلهم الاستطلاع،  
 وكل لأخيرهم الأجناس من العز والأنواع، وأتى آمالهم بما لم يكن في حساب  
 أحسابهم من الابتداء بالتحويل والابتداع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك  
 له شهادة حسنة الأوضاع، مليّة بتشريف الأئسنة وتكريم الأسماع، ونصلى على  
 سيدنا محمد الذى أعلى الله به الأقدار، وشرف به الموالى والأصهار، وجعل كرمه  
 داراً لهم فى كل دار، وبخره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار،  
 صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار، يأنعة الثمار.

وبعد، فلو كان اتصال كل شىء بحسب المتصل به فى تفضيله، لما استصلح  
 البدر شيئاً من المنازل لزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكر  
 الحكيم لساناً من الأئسنة لترتيبه، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله؛ لكن  
 ليتشرف بيت يحل به القمر، ونبت يزوره المطر، ولسان يتعود بالآيات والسور،  
 وينار بجعل باللاتى والدرر؛ ولذلك تجملت برسول الله صلى الله عليه وسلم أضهاره  
 وأصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه؛ وتروج صلى الله عليه وسلم منهم، وتمت لهم  
 مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضى عنهم.

والمرتب على هذه القاعدة الفاضلة نور يستمده الوجود، وتقرر أمر يقارن سعد  
 الأخرية منه سعد السعد؛ وإظهار خطبة تقول للثريا لانتظام عقودها: كيف،  
 وإبراز وصلة يتجمل بترصيع جوهرها متن السيف الذى يفيطه على إبداع هذا  
 الجوهر به كل سيف؛ ونسج صهارة يتم بها - إن شاء الله - كل أمر سيد،  
 ويتفق بها كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد، ويختارها أبرك طالع: وكيف لا تكون  
 البركة فى ذلك الطالع وهو السعيد؟

وذلك بأن المراحم الشريفة السلطانية أرادت أن تُحصن المجلس السامي بالإحسان  
المُبْتَكِر ، وتُفَرِّدَهُ بِالْمَوَاهِبِ الَّتِي يُرَهِّفُ بِهَا الْحَدُّ الْمُنْتَضِيَّ وَيَعْظُمُ الْحَدَّ الْمُنْتَظَرَ ،  
وَأَنْ تَرْفَعَ مِنْ قَدْرِهِ بِالصَّهَارَةِ مِثْلَ مَا رَفَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَدْرِ صَاحِبِيهِ :  
أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؛ فَخَطَبَ إِلَيْهِ أَسْعَدَ الْبَرِيَّةِ ، وَأَمْنَعَ مِنْ تَحْمِيهِمَا السُّيُوفَ الْمَشْرِفِيَّةِ ،  
وَأَعَزَّ مِنْ تُسْبَلِ عَلَيْهَا سُتُورِ الصُّوْنِ الْخَفِيَّةِ ، وَتُضْرَبُ دُونَهَا حُدُورُ الْجَلَالِ الرَّضِيَّةِ ،  
وَتُجَمَّلُ بِنِعْوَتِهَا الْعُقُودُ : وَكَيْفَ لَا ؟ وَهِيَ الدَّرَّةُ الْأَلْفِيَّةُ ؛ فَقَالَ وَالِدُهَا وَهُوَ الْأَمِيرُ  
الْمَذْكُورُ : هَكَذَا تَرْفَعُ الْأَقْدَارُ وَتُرَانُ ، وَكَذَا يَكُونُ قِرَانُ السَّعْدِ وَسَعْدُ الْقِرَانِ !!! ؛  
وَمَا أَسْعَدَ رَوْضًا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَرَا حِمِ السُّلْطَانِيَّةُ لَهُ حَمِيلَهُ ! ، وَأَشْرَفَ  
سَيْفًا غَدَّتْ مِنْطَقَةُ بَرْوَجِ سَمَائِهَا لَهُ حَمِيلَهُ ! ؛ وَمَا أَعْظَمَهَا مُعْجِزَةٌ آتَتْ الْأَوْلِيَاءَ مِنْ  
لَدُنْهَا سُلْطَانًا ! ، وَزَادَتْهُمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ إِيْمَانًا ! ؛ وَمَا أَنْغَرَهَا صَهَارَةٌ يَقُولُ التَّوْفِيقُ  
لِإِبْرَاهِيمَا : لَيْتَ ! ، وَأَشْرَفَهَا عُبُودِيَّةٌ كَرَّمَتْ سَلْمَانَهَا بِأَنْ جَعَلْتَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ! .

وَإِذْ قَدْ حَصَلَتْ الْأَسْتِخَارَةُ فِي رَفَعِ قَدْرِ الْمَمْلُوكِ ، وَخَصَّصْتَهُ بِهَذِهِ الْمَزِيَّةِ الَّتِي  
تَقَاصَرَتْ عَنْهَا آمَالُ أَكْبَارِ الْمَمْلُوكِ ؛ فَالْأَمْرُ لِمَلِكِ الْبَيْسِطَةِ فِي رَفَعِ دَرَجَاتِ عَيْدِهِ كَيْفَ  
يَسَاءُ ، وَالتَّصَدُّقُ بِمَا يَتَفَوَّهُ بِهِ هَذَا الْإِنْسَاءُ ؛ وَهُوَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مَبَارَكٌ تَحَاسَدَتْ رِيْمَاحُ الْخَطِّ وَأَقْلَامُ الْخَطِّ عَلَى تَحْرِيرِهِ ، وَتَنَافَسَتْ  
مَطَالِيعُ النُّوَارِ وَمَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى نَظْمِ سُطُورِهِ ؛ فَأَضَاءَ نُورُهُ بِالْجَلَالَةِ وَأَشْرَقَ ، وَهَطَلَ  
نَوَاهُ بِالْإِحْسَانِ فَأَغْدَقَ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ أَجْنَاسُ تَجْنِيسِ لَفِظِ الْفَضْلِ فَقَالَ الْإِعْتِرَافُ :  
هَذَا مَا تَصَدَّقَ ، وَقَالَ الْعُرْفُ : هَذَا مَا أَصْدَقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ : أَصْدَقَهَا مَا مَلَأَ خَرَائِمَ  
الْأَحْسَابِ نَخَارًا ، وَتَجَعَّرَ الْأَنْسَابَ ثِمَارًا ، وَمَشَكَاةَ الْجَلَالَةِ أَنْوَارًا ، وَأَضَافَ إِلَى

ذلك ما لولا أدبُ الشَّرعِ لكان أقاليمَ ومدائنَ وأمصاراً؛ فبَدَل لها من العَيْنِ المِصْرِيَّ ما هو باسمِ والدها قد تَشَرَّفَ ، وبنُوعِيتهِ قد تَعَرَّفَ ، وبين يَدَي هِبَاتِهِ وَصَدَقَاتِهِ قد تَصَرَّفَ .



وهذه نسخةُ صداقِ المقامِ الشَّريفِ العالى السَّيْفِيَّ أنوك ، ولِدِ السلطانِ الشَّهيدِ الملكِ النَّاصِرِ «محمد بن قلاوون» على يَنِيَّتِ المقرِّ المَرْحومِ السَّيْفِيَّ «بكتمر الساقى» . وكان العاقِدُ قاضيَ القُضاةِ جلالَ الدِّينِ القَزْوِينِيَّ ، والقابِلُ السلطانَ الملكَ النَّاصرِ والِدَ الزَّوجِ ، وهى :

الحمدُ لله مُسِيرِ الشَّمْسِ والقَمَرِ ، وميسرِ حَيَاةِ كُلِّ شَيْءٍ بِاتِّصَالِ الرُّوضِ بالمَطَرِ ، ومُبَشِّرِ الْمُتَّقِينَ من دَرَارِيِّ الدَّرَارِيِّ بِأسْعِدِ كوكِبِ يُنتَظَرُ ، وأحمَدِ عاقِبَةِ تَهْتَرُهَا أعطافُ عِظَاءِ الملوكِ على كِبَرِ ، وتَجَابُ عن الأُنْجَابِ كما تَنفَتِّحُ الأَكْمامُ عن الثَّمَرِ ؛ الذى مَدَّ من الشَّجَرَةِ المباركةِ الملوِكِيَّةِ فُرُوعاً أَلْتَفَّتْ بَعْضُها على بَعْضِ ، ورَقَّتْ على من أَسْتَظَلَّ بها فَرَأَقَبَ السَّمَاءَ على الأَرْضِ .

نَحْمَدُه على نِعَمِهِ الَّتِي أَطَابَتْ لَنَا جَنَى العُرُوسِ ، وَأَطَالَتْ مِنَّا مَنَى النُّفُوسِ ، وَأَطَافَتْ بِمُلُوكِنَا حَتَّى مُدَّتْ لِسُؤَالِهِمُ الأَيْدِيَّ وَخَضَعَتْ لِأَمْرِهِمُ الرُّؤُوسِ ؛ ونَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهادَةً تَنخِذُها عِصْمَةٌ نَافِعَةٌ ، وَنِعْمَةٌ لِحُسْنِ العاقِبَةِ جَامِعَةٌ ، وَرَحْمَةٌ تُبَارِكُ على أَيْمَتِنَا وعلى أبنائِهِمُ البُدُورِ الطالعةِ ، والأَنْوارِ الساطعةِ ، والبُرُوقِ الألامعةِ ، والغُيُوثِ الهامعةِ ، والسُّيُوفِ الدَّافِعةِ ، والسُّيُوفِ القاطِعةِ ، والأَسُودِ الَّتِي هِيَ عَن حَرَمِ حَضْرَتِها مانِعَةٌ ؛ ونَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرانَ مِنْ تَمَسُّكِ لَهُ بِحَسَبِ ، وَشَرَفِ مِنْ أَعْتَرَى إِلَيْهِ بِالقُرْبَى أَوْ أَعْتَرَمَنهُ بِصَهْرٍ أَوْ نَسَبٍ ؛

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أرضاهم ورضي عنهم، وكرمهم بصلته الشريفة  
لما زوجهم وتزوج منهم؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد، فإن من عادة الغمام أن يتفقد الأرض بمطره، والبحر أن يسقى الزروع  
بما قاص من نهره؛ والمصاييح أن تمتد بأنوارها ما يتوقد، والسماء أن لا تخلو أفقها  
من اتصال فرقيد بفرقد؛ ولو توقفت القرني على مقاربة كبير، أو مقارئة نظير،  
لما صلحت الأعماد لمضاجع السيوف ولا دنت الكواكب من الشمس والقمر  
المخير؛ ولا صالحت يمين شمالاً، ولا جاورت جنوب شمالاً؛ ولا حوت الكائن  
سهماً، ولا جمع السلك للجواهر نظاماً؛ ولا طمّح طرف إلى غايه، ولا قدر لسان  
إنسان على تلاوة سورة ولا آية؛ وإما الصدقات الشريفة الملوكة لها في البر  
عوائد، وفي الخير سجايا يقتدى فيها الولد بالوالد .

ولم يزل من المقام الشريف، الأعظم، العالی، المولوي، السلطاني، الملكي،  
الناصري، أعز الله سلطانه على من لاذ به تسبيل ذيول الفخار، وتودع في هالات  
أقمارهم ودائع الأنوار، وتوهل أهلتهم لأن يكون منها أحد الأبوين لذريته الأطهار،  
وتخطب من محبهم كل مصونة يغور بها بدر الدجى وتغار منها شمس النهار .

وكان من تمام النعمة الشريفة السلطانية، الناصرية، على من تعرض لسحابها  
الماطر، ووقف للاغتراف من بحرها الزاخر - ما رفعت به ذكوه إلى آخر الأبد،  
وأتمت له السعادة إذ كان يعد في جدود من ينسب إليه من ولد؛ وأكدت له  
بالقربي مزية مزيد، وأستخرجت من بحره جوهرة لا يطعم في التطوق بها كل  
جيد؛ وقالت: نحن أحق بتكامل ما بيننا، وتحويل الخولة من أولينا؛ وتأهيل من قز  
بنّا عيناً وقربناه إلينا، وتفضيل غرس نعمة نحن غرسناه وأجتينا ثمراته بيدنا .

فاقتضى حُسن الاختيار الشريف المَلِكِي الناصري ، لولده المقام العالی السَّيْفِي ؛  
أحسن الله لهما الاختيار ، وأجرى بارادتهما آقدار الأقدار أن تُرَفَّ أتمَّ الشموس إلى  
سُتوره الرفيعه ، وتُصانَ أكل معاقِل العقائل بِحُجْبِه المنيعه ؛ وتُحاطُ أشرف الدَّرِ  
في مُستودعه ، وتُناطُ أشرف الدَّراري بِمَطْعِه ؛ وتُساقُ إليه الكريمةُ حَسَبًا ، العظيمةُ  
بأبيسه - عَظَمَ اللهُ سُلْطانه - أبا ؛ الذي كَمَّ له في خِدْمَةِ الدولة القاهرة من مَناقِب  
كالنجوم ، ومَدَاهِبَ تَسَبَّه بها البرقُ قَنَسَبَتْ بأذيال الغيوم ، ومَرَاتِبَ تَقَدَّم فيها على  
كُلِّ نَظِيرٍ قال : وما مِنَّا إِلَّا مَنْ له مَقَامٌ معلوم ؛ مَنْ قَدْرُه لا يُسَامَى ولا يُسَام ، ورأيه  
لا يُرَامَى ولا يُرَام ، وَسَيْفُه في غير طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ لا يُسِيمُ ولا يُسَام ، وهو «سَيْفُ  
الدولة» لا كما يُسَمَّى به من آستعار هذا اللَّقَب في سَالِفِ الأيام ؛ كم له في مَرَاضِي  
سُلْطانه من رَغْبَةٍ بَدَل بها ما لَدَيْه ، وَسَمَحَ فيها بولده وهو أَحَبُّ شَيْءٍ إليه ، وجاد  
بِرُوحِه أو بما هو أَعَزُّ عليه ؛ كم نَبَهَتْ بعزائمِه السُّيوفُ من سِنَانِهَا ، كم وَهَبَتْ من  
مُكَارِمِه الأيامُ ما يُعَدُّ من حَسَنَاتِهَا ؛ كم أَلْهَبَتْ صَوَارِمُه نَارًا بَجَرَّتْ أَنهارًا بَجَرَّتْ  
من جَنَابَاتِهَا ؛ كم لَسَاءَ المُلْكِ بِسُوءِهِ من حَرَس ، وبِقُضُوبِهِ من قَبَس ، وَكَمْ قام وقعد  
في مَصْلَحَةٍ وكان أَدْنَاهُمْ من مَلِكِه مَقَامًا لَمَّا قام وأَعْلَاهُمْ مَجْلِسًا لَمَّا جَلَس ؛ فَسَمِعَ  
المَقَامُ العالی السَّيْفِي وَأَطَاع ، وَأَتَمَّى إلى ما بَرَزَتْ به مَرَايِمُ والده - أنفذها الله -  
وَأَمْتَلَّ أمره المَطَاع ، وَعَمِلَ برأيه الشَّرِيفُ وهو ناصِرُ السُّنَّةِ فَقَدَّم فيها ما آسْتَطَاع ،  
وَسَارَعَ إلى ما أَمَرَ اللهُ به من الأُلْفَةِ والاجْتِمَاع ، وَأَتَّبَعَ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ في تكثير الأُمَّةِ  
بُدْرِيَةِ أُمَّةٍ مُلُوكِيَّةٍ كُلِّ واحدٍ منها له الأُمَّةُ أَتْبَاع ؛ لِعَالِمِهِ اليَقِينِ أَنه لو خَطَبَ له  
وَأَلَدَه في أَفْطَارِ الأَرْضِ إلى جميع المُلُوكِ ، لم يَجِدْ منهم إِلَّا كَلَّ مَلِكٍ عَظِيمٍ وهو له  
عَبْدٌ مَمْلُوكٌ ؛ فَأَحْيَى سُنَّةَ شَرِيفَةِ مُلُوكِيَّةِ ما بَرِحَتْ الخلفاءُ والمُلُوكُ تحفظ بها قُلُوبُ  
أولياتها على أمداد المَدَى ، وَيَكْفِي من هذا مِمِّيُونُ فَعِلِ « المأمون » لَمَّا تزوجَ

« بُورَان » من أبيها « آبن سَهْل » وخطب « المعتضد » إلى « آبن طُولُون » أبنته  
« قَطْر النَّدى » .

ورأى والدها أعزّه الله تعالى قدرا هاله مهابةً فسلم وقال : لئالك التصرف  
وللله التصريف ، وإذا أقتضى حسن النظر الشريف تشریف عبید فإحبابًا  
التشريف ؛ وإحبابًا السبب الذي اتصل له بالمقام الشريف الأسباب ، وأحقت  
ديمّ النعم وأحقت للاجتماع على سنة وكتاب ، فتمحّدت على إثباته صغر الأضائل  
وحمر النعم ، وتنافسست على رقيم سطوره صحائف السحاب وصریح الماء وصيل  
السيف وصرير القلم ؛ وتمنت الكواكب لو اجتمعت موابك في يومه المشهود ،  
والمناقب لو أنها حوله بمقانب خافقة البنود ؛ وودت نسمات الأبخار لو كانت هي  
التي سعت بالاتفاق ، والجمائم لو أبيع لها أن تغرد وتلعب ماني أعناقها من الأطواق ؛  
بل السيوف لما رأته مقام الجلالة أغضت وغضت الأهداق ، والرياح لما بدأ لها  
سير الملك مائلا وقفت على ساق .

فبرزت المرآة الشريفة - زادها الله شرفا - بتجريد هذا الكتاب الكريم ، وتبصير  
ما يصلح من الدرر لهذا العقد العظيم ؛ ونفذ المرسوم العالی المولوي السلطاني ما أمر  
به وصدق ، وتآدب إجلالا لمقام أبيه الشريف فأطرق ، وتواضع لله فلم يقل : هذا  
ما تصدق ؛ بل قال : هذا ما أصدق المقام العالی السيفي أنوك آبن مولانا السلطان  
الأعظم ، مالك رقاب الأمم ؛ الملك الناصر ، السيد الأجل ، العالم ، العادل ، الغازي ،  
المجاهد ، المؤيد ، المرابط ، المتأخر ، المظفر ، المنصور ، الشاهنشاہ ، ناصر الدنيا  
والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ، منصف المظلومين  
من الظالمين ، ملد البسيطة ، ناصر السنة ، ركن الشريعة ؛ ظل الله في أرضه ،

القائم بسنته وقرضه ؛ وأرث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ، خداوند عالم  
بادشاه بنى آدم ، بهلوان جهان ، شهریار ایران ، إسكندر الزمان ، مُملد أصحاب المناير  
والأسيرة والتخوت والتيجان ؛ فاتح الأقطار ، وأهيب الممالك والأقاليم والأمصار ،  
مبيد البغاة والطغاة والكفار ؛ صاحب البحرين ، حامي الحرمين ، خادم القبلتين ؛  
كفيل العباد والعباد ، مقيم شعائر الحج والجهاد ؛ إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ،  
أبي المعالي محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ،  
المجاهد ، المؤيد ، سيف الدين ، والد الملوك والسلاطين ، أبي الفتح «قلاوون» خلد  
الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه - : الحجاب الكريم ، الرفيع ، المنيع ،  
المصون ، المكنون ، الجهة المكرمة ، المفخمة ، المعظمة ، بنت الجناب الكريم ،  
العالى ، الأميرى ، الأجل ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المهدى ، المشيدى ،  
الزيمى ، المقدمى ، الغياثى ، الغوثى ، الذخرى ، الأوحدي ، الظهيرى ، الكافى ،  
السيفى ، ركن الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، نصير الغزاة والمجاهدين ،  
زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملّة ، مهّد الدول ، مشيد  
الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين ، بكتمر الساقى الناصرى ،  
ضاعف الله نعمته .

أصدقها ما تلقت به أنسابها إجلالا ، وبلغت به أحسابها جمالا ، وطلعت فى سماء  
الملك هلالا ؛ ولبيست نخارا ، وقبست أنوارا ؛ وأوت إلى حصن حصين ، ووصلت  
إلى مقام أمين ، وانب (?) بأموال وبنين ؛ مالولا أدب الشرف ، وتجنب السرف ؛  
والعمل بالشرع فى تعيين معلوم ، وتبين مقدار مفهوم ؛ لخرج عن كل وصيف  
محدود ، وقدر معدود ؛ ولما قام به موجود ، ولكان مما تقل له الممالك  
ولا يستكثر لأجله الوجود .

قَدَّمَ لَهَا مِنَ الذَّهَبِ الْعَيْنِ الْمِصْرِيَّ الْمَسْكُوكِ مَا هُوَ بِنَقْدِ مَمَالِكِ وَالِدِهِ مَعْرُوفٍ ،  
وَمِنْ حُقُوقِهِ مَقْبُوضٌ وَفِي هِبَاتِهِ مَصْرُوفٌ ، مَا يُجْمَدُ مَالًا ، وَيُتَمَّى مَالًا ، وَيَأْتِي كُلُّ  
دِينَارٍ مِنْهُ وَوَجْهُهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ يَتَلَا .

أُصْدَقَهَا عَلَى بَرَكَتِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ كَذَا وَكَذَا ، تَجَلَّى لَهَا كَذَا وَكَذَا ، قَبَضَهُ  
وَكَيْلُ وَالِدِهَا مِنْ وَكَيْلِهِ ، قَبَضًا تَامًا كَامِلًا ، وَتَأَخَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا حَالًا ،  
عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمْسَاكِ مَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحِ بِلِحْسَانٍ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ  
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وَوَلَّى تَرْوِيحَهَا مِنْهُ عَلَى الصَّدَاقِ الْمُعَيَّنِ بِإِذْنِ وَالِدِهَا - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمَقْدِمِ  
ذِكْرُهُ : - الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَاضِي الْقَضَاةِ ، حَاكِمُ الْحُكْمِ ، خَطِيبُ خُطَبَاءِ  
الْمُسْلِمِينَ ، جَلَالُ الدِّينِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبُو الْمَعَالِي ، مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ  
سَعْدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَّامَةِ إِمَامِ الدِّينِ ،  
أَبِي حَفِصِ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَرْوِينِيَّ الشَّافِعِيَّ ، الْحَاكِمَ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا  
وَبِلَادِهَا ، وَجُنْدِهَا وَضَوَاحِيهَا ، وَسَائِرِ الْمَمَالِكِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْوَالَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَدَامَ  
اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَأَعَزَّهُ أَقْضِيَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ . فَقَبِلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَوْلَدِهِ  
الْمُسَمَّى - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولًا شَرْعِيًّا ، يَخَاطَبُ عَلَيْهِ شِفَاهَا بِحُضُورِ  
مَنْ تَمَّ الْعَقْدُ بِحُضُورِهِ ، فِي دَارِ الْمُلْكِ بِالْقَصْرِ الْأَبَاقِ ، بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ ، حَرَسَهَا اللَّهُ  
تَعَالَى ، بِكُرَّةِ يَوْمِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ .



وهذه نسخة صَدَاقِ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ السُّلْطَانَ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ  
أَبْنِ قَلَاوُونَ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمَقَرِّ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :



الحمد لله مَغْنَى المُلُوكِ بالمُظَاْفَرِه ، ومُكَثِّرِ زِينَةِ الأَسْمَاءِ بِجُومِهِمُ الزَّاهِرِه ، ومُكَبِّرِ  
أَقْدَارِ الأَوْلِيَاءِ بِمَا تَمَّتِ النِّعْمَةُ بِهِ مِنْ شَرَفِ المَصَاهِرِه .

نَحْمُدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي شَرَّفَتْ قَدْرًا ، وَصَرَّفَتْ أَمْرًا ، وَأَطْلَعَتْ مِنْ هَالَةِ البَدْرِ المُنِيرِ  
شَمْسًا لَا تَتَّخِذُ غَيْرَ الأُفُقِ خِدْرًا ، وَلَا تَمْتَنِي اللَّيَالِي والأَيَّامُ إِلَّا أَنْ تُقَلِّدَهَا مِنَ الأَشِعَّةِ  
يَاقُوتًا وَمِنْ الكَوَاكِبِ دُرًّا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً  
تَجْمَعُ مِنْ حُمَاةِ الدِّينِ نَسَبًا وَصِهْرًا ، وَتَرْفَعُ فِي أُنْبَاءِ الأَبْنَاءِ لَهَا حَسَبًا وَذِكْرًا ؛ وَنَشْهَدُ  
أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي عَصَمَ بِهِ ، وَخَصَّ صَفْوَةَ الخَلْقِ فِي المَصَاهِرِه  
بِاخْتِلَاطِ نَسَبِهِمْ بِنَسَبِهِ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً تَسْتَوْثِقُ بِهَا الأَسْبَابَ ،  
وَتَسْتَوْسِقُ الأَنْسَابَ ، وَتَبْقَى أَنْوَارُهَا بِمَلِكِ أُنْبَاءِ المُلُوكِ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي الأَعْقَابِ ؛  
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَلَمَّا جَمَعَ اللهُ بِمُلُوكِ البَيْتِ الشَّرِيفِ المَنْصُورِيِّ - كَثُرَ اللهُ عَدَدَهُمْ -  
شَتَاتِ الإسلامِ ، وَمَحَا بِيَوَارِقِ جِهَادِهِمْ مَا أَمْتَدَّ مِنْ ظَلَامٍ ؛ حَتَّى آتَتْهِ النُّوبَةُ  
إِلَى مَنْ أَصْبَحَتْ بِهِ الدَّوْلَةُ القَاهِرَةُ وَكُلُّ أَوْقَاتِهَا أَنْوَارُ صَبَاحٍ ، وَتَوَارِ أَفَاحٍ ، وَسَمَاءُ  
سَمَاحٍ ، وَأَسْمَى نِعِيمٍ لَا تُعَدُّ إِلَّا مَعَاقِدَ تَيْجَانِ المُلُوكِ عَلَى كُلِّ جَبِينٍ وَضَاحٍ ؛ المَقَامِ  
الشَّرِيفِ العَالِيِ المَوْلُويِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، المَلِكِيِّ ، النَّاصِرِيِّ ، زَادَ اللهُ شَرَفَهُ ، وَأَعْلَى  
عَلَى شُرُفَاتِ بُرُوجِ السَّمَاءِ غُرْفَهُ ؛ فَاحَبَّ - لِمَا أَجْرَاهُ اللهُ بِهِ وَبِمَنْ سَلَفَ مِنْ مَلُوكِ  
بَيْتِهِ الشَّرِيفِ مِنْ تَأْيِيدِ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَتَأْيِيدِ مَا شَمِلَهَا بِفَتْوحَاتِهِمُ المَذْهَبَاتِ الفُتُوحِ  
مِنْ سَوَائِعِ النِّعْمَةِ ؛ - أَنْ يَعْمَلَ بِقَوْلِ نَبِيِّهِ المُشَرَّفِ بِمُوَافَقَةِ أَسْمِهِ وَمُتَابَعَةِ حُكْمِهِ  
فِي التَّرْوِيحِ ، وَأَنْ تَقَعَ مَوَاقِعُ أَمْطَارِهِ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ حُرَّةٍ فَتُنْبِتَ كُلَّ زَوْجٍ بِرَيْحٍ .  
وَكَانَ مِنْ بَنِيهِ - أَدَامَ اللهُ سَعُودَهُمْ - مَنْ يُطِيعُ فِي كُلِّ أَمْرٍ أَمْرَهُ العَالِيِ أَدَامَ اللهُ  
تَمَكِّيْنَهُ ، وَلَوْلَا هَذَا لِمَا رَضِيَ سِوَى أَقْرَانِ الفُرْسَانِ لَهُ قَرِيْبَهُ ؛ وَكَانَ مِنْ نُجَبَائِهِمْ إِذَا

عَدَّتْ الأَوْلَادَ ، وَأَحِبَّاهُمْ إِذَا كَانَ كَمَا يُقَالُ : الْوَالِدُ ثَمَرَةُ الْفُؤَادِ ؛ وَمَنْ هُوَ لِحَمْلَتِهِمْ جَمَالٌ ، وَلِدَوْلَتِهِمْ دَلَالٌ ، وَلِقَائِهِمْ أَسَدُ الْأَشْبَالِ - مَنْ يَعْتَرِفُ كُلَّ مَنْ عَرَفَهُ بِفَضْلِهِ ، وَيُؤَقِّلُ فِي أَبْنَائِهِ مَا لِأَبْنَاءِ سَمِيَّةَ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَرَكَةِ تَسْلِيهِ .

بَرَزَ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، السُّلْطَانِي ، الْمَلِكِي ، النَّاصِرِيُّ ، أَنْفَذَهُ اللَّهُ فِي الْأَقْطَارِ - بَارِئٌ يُتَغَيَّرُ لِمَغْرَسِهِ الْكَرِيمِ ، وَتَسْبِيهِ الصَّمِيمِ ؛ وَصَبَّاحِهِ الْمَشْرِقِ ، وَسَمَّاحِهِ الْمُغْدِقِ ؛ فَصَادَفَ الْإِحْسَانَ مَوْضِعَهُ ، وَأَنْتُخِبَ لَهُ مِنْ مَشْرِقِ الْبَدْرِ التَّمَامِ مَطْلَعُهُ ؛ وَمَنْ هُوَ مِنْ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْيَمِينِ ، وَمَنْ هُوَ الْبَحْرُ الرَّابِحُ وَمِنْ مَكُونِهِ يُسْتَخْرَجُ أَنْخَرُ التَّمِينِ ؛ فَبَادَرَ الْخَاطِبُ إِلَيْهِ إِلَى آعْتِنَامِ هَذَا الشَّرَفِ الَّذِي لَا يُطَاوَلُ ، وَعَاجَلَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَصِدْقَاتُ سُلْطَانِهِ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - مَا كَانَتْ مِمَّا تُحَاوَلُ ؛ وَقَالَ : إِنْ رَضِيَتْ تِلْكَ السُّتُورُ بِهَيْذِهِ الْمَخْطُوبَةِ ، أَوْ أَهَلَّتْ تِلْكَ السَّمَاءُ الْعَالِيَاءُ هَذِهِ الْمُحْجُوبَةَ ؛ فَهِيَ لِمَا أَهَلَّتْ لَهُ فِي خِدْمَةِ ذَلِكَ الْمَقَامِ الْأَمِينِ ، وَهِيَ كَمَا شَاءَ مَالِكُهَا الْمُتَصَدِّقُ مِنْ ذَوَاتِ الْعِفَّةِ وَإِلَّا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتِ الْيَمِينُ ؛ فَاتَّمَّتِ الصَّدَقَةُ الشَّرِيفَةُ عَوَارِقَهَا بِمَا هُوَ أَشْرَفُ مَقَامًا ، وَأَعْظَمُ لَهَا فِي رَتْبَةِ الْفَخَارِ فَهِيَ تَسْمُو بِهَذَا وَلَا تُسَامَى ؛ وَشَرَّفَتْهُ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ مِنَ الْمَقَامِ الْكَرِيمِ ، وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مِنْ ذَوَاتِ الْعُقُودِ وَلَا كَيْدٍ وَلَا كِرَامَةٍ لِمَا يَتَّعَلَى بِهِ اللَّيْسُ الْبَيْمِ ، وَلَا لِمَا يَتَّعَلَى فِي جِيدِ الْجُوزَاءِ مِنْ عَقْدِ دُرِّهَا النَّظِيمِ ؛ وَلَوْلَا إِجْلَالُ الْمَقَامِ عَنِ التَّطْوِيلِ لِمَا آخْتَصَرَ الْقَائِلُ فَقَالَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما أصدق .....  
.....  
.....

## الطرف الثاني

( في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم )

وهي على نحو من الصدقات الملوكية في الترتيب، إلا أنها أخصر، ومن الألقاب بحسب أحوال أصحابها من أرباب السيوف والأقلام .

وهذه نسخة صدق جمال الدين عبد الله [بن سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب] <sup>(١)</sup>  
على بنت بيدمر العمري، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، وهي :

الحمد لله مبلغ كل أمل ما يرجوه، ورأى ذمم من لم ينسوا عهدته ولم يخلفوه،  
ومكّل الخير لكل ذي <sup>(١)</sup> يصد من يخفوه، ومجيب كل منيب يدعو قائماً  
وقاعدا : (ولما قام عبد الله يدعو) .

نحمده حمداً نكرر فضله وتتلوه، ونحل معضله ونجلوه؛ ونشهد أن لا إله إلا الله  
وحده لا شريك له شهادة يتظافر عليها الأمر المسلم وبنوه، وتبيض بها وجوه  
الأوداء، وتسود وجوه الأعداء، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه؛ ونشهد أن سيدنا  
محمداً عبده ورسوله الذي سجد به ذووه، وصعد قدر صهره وحموه، وشرف نسبا  
ما ألتقى فيه على سفايح هو ولا أقولوه؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال  
بها الروض الأرج يفوه، والسحر يبلغها ولو سكت وختم بالبرق فوه؛ وسلم تسليماً .

وبعد، فإن أزهى زهر طاب مجتنوه، وطال باعاً في الفخار مجتنوه؛ زهر كجامة  
جرت عنها لامة كبي، وأبرزتها سنة الإسلام من حجاب ذي أنف حمي؛ وطلعت  
من أفق بدرى طالما سرح مجتنوه، وحمي سيف أمن في كليله بكلاءته محتلوه .

(١) بياض بالأصول والتصحيح من الصفحة التالية .

وكان الجنبُ الجمالِيُّ عبدُ الله بنُ المرحومِ سيفِ الدينِ أبي سعيدِ أميرِ حاجبٍ ،  
أدام اللهُ تعالىُ علاه ، ورحمَ أباه ، هو ولدُ ذلكِ الوالدِ ، وطارِفَ ذلكِ التالِدِ ؛ ونَسُوهُ  
هذهِ الدولةِ الشريفةِ الكامليةِ التي أخذَ منها حظَّهُ بالتمامِ والكمالِ ، وأصبحتُ به  
كالغادةِ الحسناءِ ذاتِ الحُسْنِ والجمالِ ؛ ولم يمتُ أبوهُ في أيامِ سلطانها - خلدَ اللهُ  
ملكه - حتَّى قرَّتْ به عينُه ، وسأواه في الإمرةِ لولا تَفَاوُتِ العدةِ وقِدَمُ المدةِ بينه  
وبينه ؛ وجاء منه ولدٌ نجيبٌ ، وأبنٌ شاعٌ وذاعٌ سرُّ أبيه ومُجِدٌ وهذا نجيبٌ !!! .  
ولما انتقلَ والدهُ رحمه اللهُ تعالى إلى رحمةِ رَبِّه ، وشربَ بالكأسِ الذي لا بدَّ لكلِّ  
حَيٍّ من شُرْبِه - تطلَّبَ مثلَ ذلكِ الأبِ ولم يزلْ يَجِدُ حتَّى وجدَ ، وظفِرَ بوالدٍ إن  
لم يكنِ ولدهُ حقيقةً فإنه عندهُ مثلُ الولدِ ؛ وهو المقرَّبُ بدمرٍ ، وهو الولدُ الذي لم يَفْقِدْ  
معه من والديهُ ذرَّهُ ، والابُّ الذي هو أَرَأْفُ من كلِّ أمِّ برِّه ؛ والنَّيرُ البَسْدِرِيُّ الذي  
سعدَ قرانا ، وصعدَ وداسَ بقدَمِهِ أقرانا ، وقسمَ دهره شَطْرَيْنِ : نهارَه للضيوفِ قَرِي  
وليلَه لله قُرَآنا .

هذا إلى أنه طالما طيبَ لزكاةِ أمواله وتمرها ، وزينَ في أعماله بمدرسةِ عمِّها ،  
وقيدَ شوارِدَ حسناته وتقفها ؛ مع أنه شيدَ الممالكَ وسدَّدَ أمورَها ، وسدَّ ثغورها ؛  
وحَمَى بيضَ سُيوفه السَّوادِ الأعظمِ ، ورعى بصوابٍ سهامه النَّوَابِ ولم تُستعظمْ ؛  
ولم تزلْ نُوبُ الأيامِ تُجربُ منه مسوريًا ، ومُجَرِّدٌ حُرًّا كريمًا جاء في أوَّلِ السَّنةِ صَقْرًا  
بَدْرِيًّا ؛ فكان من تمامِ برِّه بمن سلفَ إجابةً ولدهُ ، وإجالةً الرَّأْيِ فيما يكونُ سببا  
لِصيانَةِ عِزِّمته وذاتِ يدهُ ؛ فأنعمَ له بعقبيلتهِ المنعَّه ، وربيبتهِ التي غدتِ الشمسُ منها  
سَافِرَةً مُقنَّعَةً ؛ وقال : على الخَيْرِ والخيرِ ، وأبنُ أخٍ كريمٍ وجدَّعَ الحلالُ أنفَ الغيرِ ؛  
وما أسنى عقداً يكونُ متولِّيَه ، ومُنشئَه إحسانًا منه ومُسنيَه ؛ موئى به نُظِمَتْ عقودُ  
الآلِي ، ورُقِيتْ بعلمه أعلامُ الأيامِ وذَوَابِ اللَّيالي ؛ وسُلِّمَتِ القضايا به إلى مُنقَدِّ

أحكامها ، ومَنِيْلَ الْفَضْلِ لِحُكَّامِهَا ؛ الْبَحْرِ الرَّانِحِ ، وَالنَّجْمِ الَّذِي كَمَّ تَرَكَ الْأَوَّلُ مِنْهُ  
لِللَّاتِحِرِ ؛ وَالنَّمَامِ إِلَّا أَنَّهُ قَضَتْ صَوَاعِقُهُ عَلَى الْخُصُومِ ، وَالْإِمَامِ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ  
السَّنَةُ وَلَمْ تُشْكِرِ الشَّيْعَةَ أَنَّهُ الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ ؛ وَالْعَالَمِ الَّذِي مَا بَرَحَتْ بُرُوقُهُ نُشَامَ ، وَحُقُوقُهُ  
عَلَى أَهْلِ مِصْرَ وَالشَّامِ ؛ وَالَّذِي وَلى الظُّلْمَ مِنْذُ وَلى ، وَأَعْتَرَفَ ذُووُ الْفَضْلِ وَالْفَضْلُ  
فِي الْقَضَاءِ أَنَّ أَتْقَاهُمْ تَقَى الدِّينَ وَأَقْضَاهُمْ :

قَاضِي الْقَضَاةِ أَبُو الْحَسَنِ \* بَيْقَاتِهِ يُجَلِّي الْحَزْنَ ،  
و [ هُوَ ] الَّذِي فِي حُكْمِهِ \* يَجْرِي عَلَى أَقْوَى [ سِنِّ ] <sup>(١)</sup> !  
طَوْدٌ إِذَا وَازَنَتْهُ \* بِالطَّوْدِ فِي حُكْمٍ وَزَنَ !  
وَالْبَحْرُ طَمَى رِدَائِهِ \* قَلْدُ الْعُقُودِ بِلَا تَمَنِّ ! <sup>(٢)</sup>

فأضاء المحفل به وبال حاضرين ، وقام شعار الدين حتى قال القائل : هذه سُيوفُ  
المجاهدين وهذا سيف المناظرين ؛ وقيل : هذا وقتُ جُودٍ قد حضر ، وموضعُ  
سُرُورٍ ينبغي أن يُعَجَّلَ منه ما يُنتظر ؛ فابتدأ السعد بحياه الوسيم ، وأفتتح فقال :  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا ... ..



وهذه نسخة صدق ناصر الدين محمد بن الخطيرى ، من إنشاء المقتدر الشهابى بن  
فضل الله ، وهى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي زَادَ الْأَصُولَ الطَّيِّبَةَ قُرْبًا ، وَزَانَ الْأَنْسَابَ الطَّاهِرَةَ بِصِلَةِ نَسَائِكِ  
حُبًّا ، وَصَانَ كَرَامِ الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ الْقَخَّارِ بَيْنَ يَنَاضِلٍ عَنْ حَسَبِهِ ذَبًّا ، وَيُنَاضِرِ الْعُلِيَاءِ  
فَلَمْ يَبْنِ إِلَّا بَيْنَ مَنَازِلِ النُّجُومِ بِيُوتًا وَلَمْ يُسَبِّلْ سِوَى السُّمْرِ سُمْرًا قَنًا حُجْبًا .

(١) بياض بالأصول ، والتصحيح من المقام .

(٢) بمعنى جمع .

نحمده حمد من دعاه قبل بثّ النسيم فليّ ، وأستدعاه لأخذ العهد عليه أمام  
تفريق القسّم فما تآبى ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تستنطق  
اللسنة وتشكر قلبا ، وتستغديق أنواء السرور فنضيء البشائر بروقا ومطر الرحمة سحبا ،  
ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي قام في تكثير الأمة حتى زاد عددها على مواقع  
القطر وأربى ، وقال مما أمر به : ( قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى )  
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعلى أقربائه صلاة تضم آلا وصحبا ، ماسارت الشهب  
تمقطع الآفاق شرقا وغربا ، وسلم تسليما .

وبعد ، فإن أولى ما أشتبك وشيجه ، وأشتبّه في منابت الأيك بهيجه ، وأنبّه  
في أرائك الخمايل أريجه ، وأنتدب لإتيانه الأفق وظهر عليه من ذهب العشاء تمويهه  
ومن لمع الصباح تديجه - ما أتبعته فيه الشريعة المطهرة حيث لا تختلف الأمة ،  
والسنة النبوية على من سنها أفضل الصلاة والسلام فيما تأتلف به البعداء وتكثر  
لمباهاته الأتم يوم القيامة هذه الأمة ، وتدنو به الأجانب بعضهم من بعض ويعمل  
بينهم مودة ورحمة ، وتعد به أباد جمّة لا تحصر ويحسد به في العاقبة شرف الذكر  
ويتعجل به شرف النعمة ، وهو النكاح الذي تستد به الأواصر ، وتعد به الموارِد  
لتمثيل أكثر الصور من أزي العناصر ، وتمتد به همم الأبطال لما يستخرجه بحفدة  
أبنائه من أتم قوة وناصر . وأكمله ما تماثلت في أشرف البيوت العريقة وجوه  
نخاره ، وتقابلت في مطالع السعود - حيث البدر المنير والشرف الخطير - مشارق  
شموه ومطالع أقماره .

وكان الأبوان في أهل الفخار من جرثومة بسقا ، وأرومة تفرقت فروعها  
ثم تلاقى منها غضبان واعتقا ، من بيت ما حجبه إلا مواضى الصّفاح ، ولا شبهه

إلا طلائع الأسنّة في رؤوس الرّماح، ولا سُحُبُه إلا ما يفيضُ على جنّاته من النفوس  
 أو يفيضُ من السّماح، ولا سُجُفُه إلا المنّاقِبُ لولا أن الثّريّا جاذبت ما يعرضُ  
 في السماء أنشاء الوشاح ؛ وكان هو الرّاغِبَ إلى عمّه، انخاطبَ إليه ما لم يكن يُجِبُّ  
 إلا لقسمه ؛ الطّامحُ بنظره إلى عقيلة الفخّار في غرّفها، الطّامعُ بخطبة السّمسِ شمسِ  
 النّهار إلا أنها في بيتِ شرفها؛ المُتوقّع من كرم عمّه الإجابة التي لحظها بأمله، وتولية  
 يد كريمة لا يتبدّل الزمانُ إلا إذا حُمِلت شمسها في بيتِ حمّله ؛ توقّعا لنسبٍ لا يزال به  
 شرفُ هذا البيتِ الكريمِ موجودا، ونسبٍ إذا عدّ ولدٌ منه الآباءَ عدّ جدّين سعيدين  
 هذا مسعودا وهذا محمودا ؛ فتلقّى قصده بأكرامِ بواه أكنافِ الشّرف ، وأوطأه  
 فرشُ الكرامةِ ممّعا بنعيمِ التّرف ، آبتداعا للكرمِ المألوف ، وآتباعا للسّنة الشّريفة  
 إذ كان الأقرّبون أولى بالمعروف .

فتباريا جودًا سارعَ كلُّ منهما في أداءِ حقّه إلى الواجب ، وتجاريا إليه ليُلحقا  
 شأواً بويهما وكلُّ منهما يعلم أنه العين والعيّن لا ترتفعُ على الحاجب ؛ وأتمّ الجنابُ  
 الشّرفيّ محمودٌ - أدام الله نعمته بحُسنِ إجابته ، ويؤنّ رغبته في أهلِ عُصْبته ، وأهل  
 جنوده إلى أن ساروا إلى الهيّجاء تحمّت عصّابته - بأن فوّضَ هذا الأمرُ إلى أخيه  
 الكبيرِ والدِ الخاطبِ ، وسكّت وقال : هو في التّصرفِ وعنى المخاطب ؛ وله الأمرُ  
 ولولا الشّرفُ بنسبةِ الأخوةِ إليه لما قلنا : إلا أننا ملكٌ يده ، وإذا كان العمُّ صنو  
 الأبِ فأى فرقٍ بين ولدي وولده ؟ ، ولئن آخّصّ في نسبةِ هذه الزّوجة في يومه هذا  
 فإنّ أولادها لا تُعرف إلا به في غده ؛ فككّل هذا العقد ، وأشرق به السّعد الطّالعُ  
 أضواً ممّا قدّم وأخر من النّقد ؛ وكان من تمامِ التّكريم ، أن قال قائله :

بسم الله الرحمن الرحيم ... ..



وهذه نسخةُ صداقِ القاضى تَقِيَّ الدِّينِ ، وهى :

الحمد لله الذى رَفَعَ إلى المَنَازِلِ العَلِيَّةِ من كان تَقِيًّا ، وجمَعَ شَمْلَ من لم يَبْرَحْ لَسَنَ السَّنَنِ تَابِعًا وبها حَفِيًّا ، وَخَلَعَ أُنُوبَ الثُّوَابِ عَلَى من سَرَّحَ طَرْفَ طَرْفِهِ فى رَوْضِ التَّأَهُلِ وجعلهُ وَضِيًّا .

نحمده على نَعِمِهِ التى من هَرَزَ جِدْعَ نَحْلِهَا تساقَطَ عليه رُطْبًا جَنِيًّا ، وَنَشَكَرَهُ على فَضْلِهِ الذى كَمَّ أَجْرَى لِقَاصِدِهِ من بَحْرِهِ المعروف سَرِيًّا ، وَنَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً تَمُنُّحُ قَائِلِهَا فى غُرَفِ الجَنَّةِ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَنَشْهَدُ أن سيدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الذى آتَاهُ اللهُ الكِتَابَ وجعلهُ نَبِيًّا ، الأَمْرَ أُمَّتَهُ بالنِّكَاحِ لِيُكَاثِرَ بِهِمُ الأُمَّمَ يَوْمَ يَقْرَبُهُ اللهُ نَجِيًّا ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الذين كان يُحَلُّ مِنْهُمْ فى حَالَتِي الكَرَمِ وَالكِرَامَاتِ وَوَلِيًّا ، ما أَطْلَعَ التَّوْفِيقُ فى آفاقِ الأَنْصَالِ مِنَ الأَنْسابِ الكَرِيمَةِ كَوَجْبا دُرِّيًّا ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعدُ ، فإن أَوْلَى السَّنَنِ بِالأَتْبَاعِ سُنَّةُ النِّكَاحِ ، التى أَخْفَى نُورُ مِصْبَاحِهَا شَمْسَ الصَّبَاحِ ، وَخَفَقَتْ على مَعَالِمِهَا أَعْلَامُ النِّجَاةِ وَالنِّجَاحِ ، وَحَمِدَ المِيسِرَ إلى رُبُوعِهَا الآهَلَةَ بِأَهْلِيَّةِ العِصْمَةِ فى الغُدُوِّ وَالرُّوْحِ ، يالها سُنَّةٌ سُنَّةٌ وَجْهَها جَمِيلَةٌ ، وَأَصَابِعُ نَيْلِ نَيْلِها بل أَيْدِيهِ جَزِيلَةٌ ، بها تُعْجَى أشجارُ النَّسَبِ وَيَطِيبُ جَنَاحُها ، وَتَبْلُغُ النَفُوسُ مِنَ الصِّيَانَةِ أَقْصَى مَنَازِلِها ، وَيَظْفَرُ أَوْلُو الرِّغْبَةِ فىها أَحَلَّ اللهُ بِمَطْلُوبِهِمْ ، وَتَوَلَّفَ بَيْنَ مَنْ لَوْ أَنْفَقَتْ ما فى الأَرْضِ جَمِيعًا ما أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وهى الوَسِيلَةُ التى تُكَثِّرُ سَوَادَ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَالدَّرِيْعَةُ إلى [ بقاء ] التَّوَجُّعِ الذى أَظْهَرَ اللهُ فى سَمَاءِ التَّكْرِيمِ نَجْمَهُ ، وإليها الإِشارَةُ فى قولِهِ تعالى : ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ .



ولما كان كذلك رَغِبَ في أَقْتِنَاءِ آثَارِهَا ، وَاهْتَدَى بِالصُّوِّهِ اللَّامِعِ من أَقْمَارِهَا ؛ مَنْ  
يَتَشَرَّفُ الْمَكَانَ بِذِكْرِ وَصْفِهِ ، وَيَتَعَطَّرُ مَا أَنْتَشَرَ فِي طَيْبِهِ من طَيْبِ عَرَفِهِ ؛ مَا جَدُّ  
عَمَّرَ الْبِلَادَ السَّاحِلِيَّةَ بِدَوَامِ دِيَمِيهِ ، وَجَوَادُ مَا جَاوَرَهُ الْبَحْرُ إِلَّا لِيَقْتَنِسَ من كَرَمِهِ ؛  
وَرَيْسٌ أَمْتَطَى ذِرْوَةَ الْعَلْيَاءِ بِحُسْنِ السُّلُوكِ ، وَارِيحِي لَوْ لَمْ يَكُنْ صَدْرًا لِمَا أُودِعَ سِرُّ  
الْمُلُوكِ ؛ إِنْ تَكَلَّمَ أَبْرَزَ لِكَ الْجَوْهَرِ الْمَصُونِ ، وَإِنْ كَتَبَ صَحَّكَتْ لِبُكَاءِ قَلْبِهِ تُغُورُ  
الثُّغُورُ وَالْحُصُونُ ؛ لِلَّهِ تَسْبِيهِ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْأَكْبَرِ الْأَعْيَانِ ، وَبَيْتُهُ الْمَعْمُورُ بِالْعَيْنِ  
الْمَرْفُوعِ خَبَرُهَا إِلَى فِتْيَانِ ؛ نَخَطِبُ من عَلَا قَدْرُهَا ، وَأَشْتَهَرُ بِالْحُسْنِ الْجَمِيلِ ذِكْرُهَا ؛  
وَجَلَّتْ عن أَنْ تَرَى الْعُيُونَ لَهَا فِي الصَّوْنِ شَيْبًا ، وَعَمَّتِ الْبِقَاعَ سَحْبُ بَرَكَتِهَا ؛  
أَكْرَمَ بِهِ عَالِمًا عَامِلًا ، وَإِمَامًا لَمْ يَزَلْ يُبْدِي فَضْلًا وَيُسْدِي نَائِلًا ؛ كَمْ لَهُ من آثَارِ  
مَشْهُورِهِ ، وَمَنَاقِبِ مَأْثُورِهِ ، وَصَدَقَاتِ مَبْرُورِهِ ، وَمَوَاطِنِ بِذِكْرِ اللَّهِ مَعْمُورِهِ .

فَقُولِ بِالْبِشْرِ قَوْلَ رَسُولِهِ ، وَرُدِّ رَأْيَهُ مُحِبًّا بِلُؤْغِ سُوْلِهِ ؛ وَقِيلَ لَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ :  
هَذَا مَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْأَمَالَ ؛ يَا لَهُ عَقْدًا غَلَّتْ جَوَاهِرُ عُقُودِهِ ، وَأَنَارَتْ فِي آفَاقِ  
الْإِتِّفَاقِ أَنْجُمُ سَعُودِهِ ؛ وَتَمَّالَيْتْ قُدُودَ أَنْغْصَانِ الْأَفْرَاحِ ، وَزَهَّتْ مَجَالِسُ السُّرُورِ  
بِالْأَنْشِرَاحِ ؛ وَهَبَّتْ قَبُولَ الْإِقْبَالِ ، وَقَامَ الْقَلَمُ خَطِيبًا عَلَى مِنْبَرِ الطَّرْسِ فَقَالَ :

هذا ما أصدق... ..



وهذه نسخةُ صداقٍ من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفديّ ، للقاظي بدر الدين  
خطيب بيت الآثار ، على بنتِ شمس الدين الخطيب من بيت الآثار ، تُسَمَّى  
سُولى ، في مُسْتَهَلِّ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِينَ ، فِي مَجْلَسِ مَوْلَانَا  
قَاضِي الْقِضَاةِ تَقِيّ الدِّينِ السُّبُكِيِّ الشَّافِعِيِّ ، أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي زين سماء المعالي ببدرها، وأثبت في رياض السعادة يانع زهرها،  
وألهم ذوي الهمم أن يبذلوا في الكرائم غوالي مهريها .

نحمده على نعمه التي حلت ما ضفا من لياستها، وسوغت ما صفا من رصاب  
كاسها، وحصنا بما عممت به من أنواع أجناسها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده  
لا شريك له، أعلمنا في الإيمان نصها بالأداء، وبني أسمها على الفتح كما فتح  
المضائف في النداء، ورفع خبرها: إما على رأي الرواة للشهرة وإما على رأي النحاة  
بالابتداء، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي شرع النكاح لهذه الأمة،  
ومنع السفاح فلم يكن أمرنا علينا عمه، ونهج الصواب فما ظنك بالصباح إذا ابتلع  
عقيب الليلة المذمومة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تلقوا أوامره بالطاعة،  
وأجتنبوا نواهيه حتى بلغوا جهد الاستطاعة، وفهموا مراده بمكثرة الأمم فكان  
البضاع عندهم خير بضاعة، صلاة رضوانها يضيء إضاءة الكواكب في أبراجها،  
وغفرانها يكائر البحار في أعداد موجهها، ما اتصل سبب بالنكاح، وأنفصل نسب  
بالسفاح، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد، فإن النكاح من محاسن هذا الدين القيم، وفضائل هذا الشرع الذي  
لا زال شرفه بدرًا بين مشرقات النجوم وهو محمٍ، به يحفظ النسب الشroud، ويرعى  
عهد القرينة الولود الودود .

وكان فلان ممن أشبه أباه، وأبين ما أودعه من نفائس العلوم وحباه، تصدر  
في المجالس، ودرس في المدارس، وأورد ما عنده من النفائس، كيف لا؟ وهو  
سبط شيخ الإسلام وإمام المسامين، وقاضي قضاة الشافعية وأوحد المجتهدين،  
وقد أراد الآن إحصان فرجه، وأن تنزل الزهرة مع بدره في برجه .

فلذلك رَغِبَ إلى المَجْلِسِ العَالِي (المسمى) وخطبَ الجَهْمَةَ المَصُونَةَ المَحَجَّبةَ ،  
النَّقِيَّةَ ، النَّقِيَّةَ ، العَفِيفَةَ ، الخَاتُونَ ، غُصْنَ الإسلامِ ، شَرَفَ الخَوَاتِينَ ، جَمَالَ ذَوَاتِ  
السُّتُورِ ، قُرَّةَ عَيْنِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ ، السَّيِّدَةَ "سُولى" بِنْتَ فُلَانِ ، صَانِ اللهُ  
حِجَابَهَا - فَأَكْرَمَ مَوَارِدَ قَصِيدِهِ ، وَجَاهَ أَنْفَسِ دُرَّةٍ فِي عَقِيدِهِ .

فلذلك قامَ خَطِيبُ هذا الحَفْلِ الكَرِيمِ ، والنَّجْمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ تَجْمَهُ بِالطَّالِعِ المُسْتَقِيمِ ،  
وقال :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... ..



قُلْتُ : وهذه نسخةُ صَدَاقِ زَيْنِ الدِّينِ صَدَقَةَ السَّيْفِيِّ أَزْدَمِرَ ، عَلَى بِنْتِ أَمِيرِ  
المُؤْمِنِينَ «المُتَوَكَّلِ عَلَى اللهِ» . أنشأتهُ لَهُ فِي خِلافةِ أَخِيهَا المُسْتَعِينِ باللهِ العَبَّاسِيِّ ، وَهِيَ :  
الحمدُ لله مُسْتَخْرَجِ الدُّوْحَةِ الهاشِمِيَّةِ مِنْ أَطْيَبِ العَنَاصِرِ ، وَمُفَرِّعِ النَّبْعَةِ العَبَّاسِيَّةِ  
مِنْ أَكْرَمِ صِنُونِو أَعْتَدْتُ عَلَى فَضْلِهِ الخَنَاصِرِ ، وَمُخَصِّصِ بِنْتِ الخِلافةِ مِنْهَا بِأَعَزِّ  
جَانِبِ ذَلَّتْ لِعِزِّهِ عُظْمَاءُ المُلُوكِ مَا بَيْنَ مُتَقَدِّمِ وَمُعَاصِرِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ صَانَ عَقَائِلَ الخُلَفَاءِ بِمَعَاقِلِ الحَسَبِ ، وَحَصَرَ كَفَاءَتَهَا فِي العِلْمِ وَالذِّينِ  
حَيْثُ لَمْ يَكْفَأَ بِحِرْفَةٍ وَلَا نَسَبٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي  
سَنَّ النِّكَاحَ وَشَرَعَهُ ، وَأَرْغَمَ بِالْحِلِّ أَنْفَ الغَيْرَةِ لَدَى الإِبَاءِ وَقَعَهُ ؛ شَهَادَةً يُسْتَنْشَقُ  
مِنْ رِيًّا عَيْبِهَا كُلِّ شَدَى أَرِيحِ ، وَتُجْتَنَى ثِمَارُ يَنْعَمُ بِشَرِيفِ النَّجَاحِ مِنْ كُلِّ زَوْجِ  
بَيْبِجِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَفْضَلَ نَبِيِّ وَفَرِّ فِي القَضَلِ سَهْمُهُ حَتَّى لَمْ  
يُسَاحَمِ ، وَأَكْرَمَ رَسولِ رَخَّصَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ صَحَابِهِ وَإِلَّا فَايْنُ كُنْتُ رَسولُ اللهُ  
مِنَ العَالَمِ ؟ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ شَرَّفَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَقَرَنَ الصَّهْرَ

بالنَّسَبِ فِيهِمْ نَخَصَّ مُصَاهِرَتَهُ أَخَصَّهُمْ بِهِ ؛ صَلَاةً تَصِلُ سَبَبَ قَائِلِهَا بِسَبَبِهِ ،  
وَتَجْعَلُ الْفَخَارَ بِهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا أَطَالَ فِيهِ الْمَطِيلُ ، وَتُحَدِّدُ فِي وَصْفِهِ الذَّهْنَ الْكَلِيلَ ، وَرُقِيَّتُ  
مَحَاسِنُ ذِكْرِهِ عَلَى صَفْحَةِ النَّهَارِ بِذَائِبِ ذَهَبِ الْأَصِيلِ - مَا تَوَاصَلَتْ بِهِ الْأَنْسَابُ ،  
وَتُوَصَّلُ بِوَاسِطَتِهِ فِي دَرَارِيِّ الدَّرَارِيِّ إِلَى شَرَفِ الْأَحْسَابِ ؛ وَتَوْفَّرَتْ عَلَيْهِ الدَّوَاعِي  
فَأَشْتَدَّتْ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَحَسُنَتْ فِي طَرِيقِ قَصْدِهِ الْمَسَاعِي فَتَأَكَّدَتْ بِهِ الْمَوَدَّةُ  
فِي الْبَوَاطِنِ وَالظُّوَاهِرِ . وَهُوَ النَّكَاحُ الَّذِي نَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُعَاطَاةِهِ ، وَحَصَّ  
عَلَى التَّحَلِّيِّ بِحَالِهِ حَتَّى أَلْحَقَهُ بِالْعِبَادَةِ فِي بَعْضِ حَالَاتِهِ ؛ طَلَبًا لِلتَّحْصِينِ الْكَافِلِ بِسُلُوكِ  
نَهْجِ الْأَسْتِقَامَةِ ، وَرَغْبَةً فِي تَكْثِيرِ النَّسْلِ الْوَاقِعِ [بِهِ] مُكَاتَرَةً الْأُمَّمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

هَذَا وَكَرَائِمُ بَيْتِ الْخِلَافَةِ ، وَرَبَائِبُ مَحَبَّةِ الْمَجْدِ وَالْإِنَافَةِ ؛ فِي حَيْزٍ لَوْ طَلَبَ مُنَاوِ  
مُكَافَأَتِهَا لَطَلَبَ مُعْوِزًا ، أَوْ رَامَ مُقَاوِمَ مُضَاهَاةَتِهَا فِي عُلوِّ الرَّئِيسَةِ لَرَامَ مُعِجِزًا ؛ لِمَا  
أَخْتَصَّتْ بِهِ مِنَ السِّيَادَةِ الَّتِي لَا يُرْقَى إِلَى مَتْرَلَتِهَا ، وَالْمَعَالِي الَّتِي لَا تَسْمُو الثُّغُوسُ  
وَإِنْ تَمَخَّطَتْ إِلَى رُتَبَتِهَا ؛ إِذْ كَانَ النَّظِيرُ لَشَرَفِ أَرْوَمَتِهَا مُتَمَتِّعًا ، وَالنَّقِيبُ بِمَا ثَبَّتَ مِنْ  
طِيبِ جُرْثُومَتِهَا مُرْتَفِعًا ؛ فَبَرَقَ مَعَالِيهَا فِي التَّطَاوُلِ لَا يُسَامُ ، وَجَوْهَرُ نَخَارِهَا فِي الْمَآثِرِ  
لَا يُسَامَى وَلَا يُسَامُ ؛ فَعَزَّ بِذَلِكَ فِي الْوُجُودِ مُكَافِئُهَا ، وَأَمْتَنَعَ - خَوْفَ الْهَجُومِ بِالْأَخْطَابِ -  
مُؤَافِئُهَا ؛ إِلَّا أَنْ الْمَوَاقِفَ الشَّرِيفَةَ الْمَقْدَسَةَ الْمُتَوَكَّلِيَّةَ - زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَرَفِهَا ،  
وَأَدَامَ رِعَايَتَهَا بِحُلَّةِ الْمُلُوكِ وَحِمَايَتَهَا وَكَنَفِهَا - مَعَ مَا أَنْفَرَدَتْ بِهِ مِنَ الْعِزِّ الشَّامِخِ الَّذِي  
لَا يُسَاوَى ، وَالشَّرَفِ الْبَازِخِ الَّذِي لَا يُنَاوَى ؛ قَدْ رَغِبَ تَفَضُّلُهَا فِي أَهْلِ الْفَضْلِ فَالِ  
إِلَيْهِمْ ، وَأَخْتَصَّ بِأَقْبَالِهِ أَهْلَ الدِّينِ فَأَقْبَلَ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهِمْ ؛ مُجَلًّا لَهُمْ مِنْ شَرِيفِ مَقَامِهِ  
الْعَلِيِّ مَحَلِّ الْأَصْطِفَاءِ ، وَمُقَدِّمًا لَهُمْ فِي الْمُصَاهِرَةِ عَلَى أَوْلَادِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ ؛ فَوَافَقَ

في الفضل شُنُّ طَبَقِهِ ، وَحَاوَلَ سَاةَ النَّعْمِ مِنْهَا خَيْرَ خَاطِبٍ فَلَقِيَ بِقَبُولٍ : إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِصَدَقَةٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَبْتَدَرَ الْقَلَمَ مِنْبَرِ الطَّرْسِ نَخَطَبَ ، وَخَطَبَ بِالْحَمْدِ لِسَانَهُ اللَّسِنُ فَكَتَبَ :

هَذَا مَا أَصَدَّقَ الْعَبْدَ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الْجَنَابُ الْعَالِي ، الْأَمِيرِيُّ ، الْكَبِيرِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْعَابِدِيُّ ، الْخَاشِعِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ، الْبَلِيغِيُّ ، الْمُفَوِّهِيُّ ، الصَّدْرِيُّ ، الرَّبِيبِيُّ ، الْأَصِيلِيُّ ، الْعَرِيقِيُّ ، الزَّيْنِيُّ ، أَبُو الْمَعَالِي صَدَقَةٌ - الْجِهَةُ الشَّرِيفَةُ الْعَالِيَةُ ، الْكَبِيرِيُّ ، الْمَعْظَمَةُ ، الْمَحْجَبَةُ ، الْمَصُونَةُ ، سَلِيلَةُ الْخِلَافَةِ ، فَرَعُ الشَّجَرَةِ الزَّيْكِيَّةِ ، جَلِيلَةُ الْمَصُونَاتِ ، جَمِيلَةُ الْمُحْجَبَاتِ ، سَارَةُ ، الْبِكْرُ الْبَالِغُ ، ابْنَةُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، الْمَقْدِسِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، السَّيِّدِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، النَّبَوِيُّ ، الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ "أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ" ، أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، ابْنُ الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْمُعْتَصِدُ بِاللَّهِ "أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٌ" ، بَنُ الْإِمَامِ الْمُسْتَكْفِيِّ بِاللَّهِ "أَبِي الرَّبِيعِ سُلَيْمَانَ" ، ابْنُ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ "أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدٌ" ، لَا زَالَ شَرَفُهُ بِإِذْنِهِ ، وَعِزُّ نَبِيِّهِ الشَّرِيفُ شَاخِحًا ، وَذِكْرُ مَنَاقِبِهِ الْعَالِيَةِ لِكُلِّ مَنْتَقِبَةٍ نَائِمًا - صَدَاقًا جُمْلَتُهُ كَذَا وَكَذَا ، زَوْجَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَانٌ ، وَقِيلَ لَهُ فَلَانٌ ؛ وَتَمَّ عَلَى بَرَكَاتِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، كَامِلَةٌ شُرُوطُهُ وَلَوْلَا زَمُّهُ ، مُبَارَكَةٌ عَوْدُهُ وَتَمَامُهُ ، مَيِّمَةٌ فَوَاتِحُهُ وَخَوَاتِمُهُ ؛ مُفْتَتِحَةٌ بِطَيْبِ الْعَيْشِ أَزَاهِرُهُ مُفْتَرَّةٌ عَنْ [نُورِهِ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَجَائِمِهِ .

## الفصل الخامس

من الباب الأول من المقالة العاشرة

( فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة النثر المسجوع فيه ،

ومحاولة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان )

### الطرف الأول

( فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ، ثم هو على صنفين )

### الصنف الأول

( الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعروض الكتب ونحوها )

أما الإجازة بالفتيا ، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس - أن يأذن له شيخه في أن يُفتي ويُدرّس ، ويكتب له بذلك . وجرت العادة أن يكون ما يكتب في الغالب في قطع عريض ، إما في فرخة الشامي أو نحوها من البلدي ، وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطرًا متوالية ، بين كل سطرين نحو أصبع عريض .

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه ، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن ، سقى الله تعالى عهده ، عند قدومه نجر الإسكندرية ، وأنا مقيم به في شهور سنة ثمان وسبعين وسبعائة ، وكتب لي بذلك القاضي تاج الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي الكامل ، وسنى يومئذ إحدى وعشرون سنة ، فضلًا من الله ونعمة .

وُسُخَّتْهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ لِلْعُلَمَاءِ مِقْدَارًا ، وَأَجْرَلَ نِعْمَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَعْلَى لَهُمْ مَنَارًا ، وَوَفَّقَ  
بِسَوَاءِ الطَّرِيقِ مَنْ آقَتَدَى بِهِمْ إِرَادًا ، وَإِصْدَارًا ، أَثْرَعَتْ هِمَمُهُمُ الْعَلِيَّةُ فِي حَابَةِ  
السَّبَاقِ فَهِيَ لَا تُجَارَى ، وَتَحَلَّوْا بِالْمَفَاحِرِ جَهْرًا وَقَدْ عَجَزَ غَيْرُهُمْ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا إِسْرَارًا ،  
أَبْرَزَ بِهِمْ فِي هَالَاتِ الْمَفَاحِرِ أَقْسَارًا ، وَأَزَالَ بِضْيَاءِ عُلُومِهِمْ رَيْبَ الشُّكِّ حَتَّى عَادَ لَيْلُ  
الْجَهَالَةِ نَهَارًا ، جَعَلَهُمْ لِدِينِهِ أَنْصَارًا ، وَصَيَّرَهُمْ نُجَبَةَ أَصْفِيَانِهِ إِذْ أَوْدَعَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ  
أَسْرَارًا ، وَأَخْتَصَمَهُمْ بِكُونِهِمْ وَرَثَةَ أَنْبِيَائِهِ : وَنَاهَيْكَ بِهَا نَخَارًا .

أَحْمَدُهُ حَمْدًا مِنْ هُدَى إِلَى الْحَقِّ بِفَعْلِهِ شِعَارًا ، وَأَسْتَضَاءُ بِنُورِ الْهُدَى فَلَجًّا إِلَى  
مَوْلَاهُ فِي حَالَتِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ أَفْتِقَارًا ، وَعَجَزَ عَنِ شُكْرٍ مَا أَسْدَى إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لِمَا تَوَالَى  
عَلَيْهِ وَبَلَّهَا مِذْرَابًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصَدِيقًا وَإِقْرَارًا ،  
وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْأَصْنَامُ قَدْ عُبِدَتْ جِهَارًا ، وَالْكَفَّارُ قَدْ أَعْرَضُوا  
عَنِ الْحَقِّ آسْتِجَارًا ، فَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْتِصَارًا ، وَقَهَرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ آغْتِرَارًا ،  
وَأَتَمَدَ بِضْيَاءِ نُورِهِ الْبَاطِلَ وَأَهْدَرَهُ إِهْدَارًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً  
تَرِيدُنَا فِي دِينِنَا أَسْتِيبَارًا ، وَتَحُطُّ عَنَّا مِنْ ثِقَلِ الذُّنُوبِ أَوْزَارًا ، وَتَبَوُّونَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
تَعَالَى فِي دَارِ الْخُلُودِ قَرَارًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ وَصَّحَ لِدَوَى الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَتَضَّحَ عِنْدَ دَوَى الْأَسْرَارِ وَالسَّرَائِرِ ؛  
وَأَسْتَقَرَّ عِنْدَ دَوَى الْقُلُوبِ السَّالِمَةِ ، وَالْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ؛ أَنْ مَنَزَلَةَ عِلْمِ  
الشَّرِيعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْلَى الْمَنَازِلِ ، وَفَضْلُهُ أَفْضَلُ الْمَآثِرِ وَأَثَرُ الْفَضَائِلِ ؛ وَخُصُوصًا  
مَعْرِفَةُ تَفَاصِيلِ أَحْكَامِ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الَّتِي مِنْ عِلْمِهَا وَعَمَلِهَا  
وَعِلْمِهَا فَقَدْ سَعَدَ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ ؛ إِذْ هِيَ الشَّرِيعَةُ الْجَامِعَةُ لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

النَّاسِخَةُ لِمَا خَالَفَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ الْغَايِرَةِ ، الْبَاقِيَةُ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ وَعِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ شَرِيْعَةٍ سِوَاهَا دَائِرَةٌ ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَفِظَهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ، إِذْ جَعَلَهُ وَقَايَةً لَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ الْجَهْلِ وَجُنَّةً ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ ، لِمَا شَهِدَتْ بِهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . فَتَبَّهَ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَقْوَى أَسْبَابِ الْعِبَادَةِ ، إِذْ خَصَّصَهُ بِهِ وَحَصَّهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الزِّيَادَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ . فَتَنَّى بِذِكْرِهِمْ بَعْدَهُ ، لِكُونِهِمْ أَفْضَلَ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ . وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ ، وَتَقَدَّسَ عِلْمُهُ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . فَأَوْضَحَ بِذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِذْ وَصَفَهُمْ وَخَصَّصَهُمْ بِأَنْهُمْ الْخَائِفُونَ مِنْهُ الْأَتَّقِيَاءُ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » . وَقَالَ أَيْضًا : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » . وَقَالَ أَيْضًا : « أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَاعُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا وَالَاهُ ، وَطَلَّمٌ وَمُتَعَلَّمٌ » .

ولما كان فلان - أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه ، ويسر إلى الخيرات طريقه - ممن شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الحلييلة ؛ وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ؛ واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالاً يرضى ، وإلى نيل السعادة - إن شاء الله تعالى - يقضى - استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العلامة ، الحبر الفهامة ؛ فريد دهره ، ونسيج وحده ، جمال العلماء ، أوحد الفضلاء ، عمدة الفقهاء والصلحاء ؛ سراج الدين ، مفتي الإسلام والمسلمين ؛ أبو حفص عمر ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العالم ، العامل ، الأوحد ، الكامل ، القدوة ، المرحوم نور الدين أبي الحسن علي ، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ،



الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين،  
بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ  
الصالح، القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد الأنصاري  
الشافعي، أدام الله تعالى النفع به وبركته، وأشركنا والمسلمين في صالح أدعيته،  
بمحمد وآله وصحبه وعترته .

وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه؛ أن يدرس مذهب  
الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المظلي، الشافعي،  
رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثقله ومثواه؛ وأن يقرأ ما شاء من الكتب  
المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبه؛ حيث حل وأقام، كيف ما شاء متى شاء  
وأي شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطأ ولفظاً، على مقتضى مذهبه الشريف  
المشار إليه: لعلمه بديانته وأمانته، ومعرفة ودرأيته، وأهليته لذلك وكفايته .

فليتأنق أيده الله تعالى هذه الحلة الشريفة، وليترق بفضل الله تعالى ذروة هذه  
المرتبة المنيفة؛ وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدئ من الإحسان الوافر إليه؛  
وليراقبه مراقبة من يعلم اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليعامله معاملة  
من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبيديه في الورود والصدور؛ ولا يستنكف  
أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم: فذاك قول سعد قائله. وقد جاء: "جنة العالم لا أدري  
فإن أخطأها أصيبت مقاتله" فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا  
وبه أقرب طريق؛ ويهديننا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكتب في تاريخ كذا .

وكتب شيخنا الشيخ سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى  
ما صورته :

ما نُسِبَ إلى في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به ، وأجرى كل خير بسببه ؛ بتدريس مذهب الإمام المظلي ، محمد بن إدريس الشافعي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ؛ والإفتاء به لفظاً وخطاً - صحيح . فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه ، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووفائه .

وقد آتني وفقه الله تعالى وإيأى من جملة محفوظاته بـ "مختصر الجوامع" لشيخنا العلامة كمال الدين النشائي تغمده الله تعالى بغفرانه ، فاستحضر بحضرتي مواضع منه جمه ، وأزال يديع فصاحته جملة مدلهمه ؛ وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب ، ومن أغاريبه ما يقف عنده البارع الأريب .

فليتق الله حينئذ فيما يديه ، وليتحرر الصواب في لفظه وخطه وإراقب الله فيه ؛ فإنه موقع عن الله تعالى فليحذر الزلل ، ومحاولة الخطأ والخطل ؛ ويستحضر ما أشتملت عليه من الجلاله ، فإن الله تعالى تولاها بنفسه حيث قال : ﴿ تَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ .

وأجزت له مع ذلك أن يروي عنى ما لي من التأليف ، ومنها "جامع الجوامع" أعان الله على إكمله ، وكذا شرح "صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري" . ومنها "البدر المنير" ، في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ، للإمام أبي القاسم الرافعي . وبه تكمل معرفة الفقيه وبصير محدثنا فقيها .

وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعنى روايته بشرطه عند أهله ، زاده الله وإيأى من فضله . ومنها الكتب الستة : "البخاري" ، و"مسلم" ، و"أبو داود" ، و"الترمذي" ، و"النسائي" ، و"ابن ماجه" . والمسانيد : "مسند أحمد" ، و"مسند الشافعي" وغير ذلك .

وكان ذلك في تاريخ كذا . وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي ،  
غفر الله لهم : حامدا ومصليا وسلمها ، وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره .

قلت : وتكون ألقاب المجاز على قدر رتبته ، مثل أن يكتب له : « الفقير إلى الله  
تعالى ، الشيخ ، الإمام ، العالم ، العامل ، الأوحد ، الفاضل ، المفيد ، البارِع ، علم  
المفידين ، رحلة القاصدين ، فلان الدين ، أبو فلان فلان بن فلان » ( بحسب رتب  
آبائه ) . وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة ، من حيث إنه لا يليق بأحد  
أن يذكر ألقاب نفسه في مصنف له ، لأنه يصير كأنه أثنى على نفسه .

وأما الإجازة بعراضة الكتب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا  
في الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ  
العصر ، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع ،  
يستقرئه إياها من أي مكان أتفق ، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلثم ، استدلل  
بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عرض  
عليه ، في ورق مربع صغير ، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء ،  
وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها : فمن عال ، ومن هابط . وربما  
خفف بعضهم فكتب : « وكذلك عرض على فلان » ، أو : « عرض على وكتبه  
فلان » . إما رياسة وتابيا عن شغل فكره وكد نفسه فيما يكتبه ، وإما عجزا عن  
مضاهاة من يكتب معه .

وقد اخترت أن أضع في هذا المحل ما وافق الصنعة ، وجرى على أسلوب البلاغة .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ الإمام العلامة ، لسان العرب ، وحجة الأدب ، بدر  
الدين محمد بن أبي بكر الخزمي المالكي ، للنجل النبيل الذي تنهى الألقاب ولا نهاية

لمناقبه، شهاب الدين أبي العباس أحمد ابن سيدنا الفقير إلى الله تعالى، ذي الأوصاف التي تكفل شبا الألسن عن حادها، شمس الدين أبي عبد الله محمد العمري الشافعي، حين عرض عليه "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني، و"شذور الذهب" للشيخ جمال الدين بن هشام، في رمضان سنة سبع عشرة وثمانمائة، وهو:

أما بعد حمد الله على كرمه الذي هو محمدتنا في النجاة يوم العرض وناهيك بها عمده، وسندنا الذي لا يزال لسان الذوق يروي حديث حلاوته عن صفوان بن عسال من طريق شهده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بروح سنته الشريفة كل من جاء ومن ذهب، وأغربت كلماته النفيسة عن عقود الجوهر و"شذور الذهب" وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية، وبنوا الأمر على أساس التقوى وأعربوا عن طرق الهداية، ما أنهل من أفق الكرم المحمدي كل عارض صيب، وتخلت الأسماع والأفواه من أخباره بنفائس الشذور البديعة وحلاوة الكلم الطيب - فقد عرض على الجنب العالی البارعي، الأوحدي، الألعبي، اللوذعي، الشهابي، شهاب الدين، نجمة التجباء، أوجد الألباء، نجل السادة العظام، سلالة الأعيان العلماء، أبو العباس أحمد ابن سيدنا المقر الكريم العالی، المولوي، العالی، الفاضلي، البليغي، المفيد، الفريدي، المفوهي، الشمسي، العمري، أطاب الله حديثه، وجمع له بالإعراب عن علو الهمة قديم الفضل وحديثه - طائفة متفرقة من "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني المقدسي، و"شذور الذهب" للعلامة جمال الدين بن هشام رحمة الله عليهما - عرضا قصرت دونه القرائح على طول جهدها، وكانت الألفاظ الموردة فيه لأمة حرب الفتنه الباغية عليه فأحسن عند العرض في سردها، وزين أبقاه الله تلك الأما كن بطيب لحنه وإعراب لفظه، وأذن امتحانه فيها بأن جواهر الكتابين قد حصلت مجموعها في خزانه حفظه.

حَبَدًا هو من حافظ روى حديث فضله عاليًا، وتلا على الأسماع ما اقتضى  
تقديمه على الأقران فله دَرُه مُقَدَّمًا وتالياً؛ وسار في حُكْم العَرَض على أعدل طريق  
ونَاهِيكَ بالسيرة العَمْرِيَّة، وصانَ مَنْطِقَه عن خَالِ المعاني وكيف لا؟ وقد تَمَسَّكَ  
بطريقة والده وهي "المقدمة الشمسية"؛ وسابقَ أَقْرَانَه فكانت له زُبْدَةُ التَّفْصِيل  
في حَبَّة السَّبَاق، وطابق بين رَفِيع شَأْنِه وخَفِض شَأْنِيهِ ولا يُتَكْرَمَن هو من هذا  
الْبَيْتِ حُسْنُ الطَّبَاق؛ وَاشْتَعَلَ فلم يَقَعِ التَّنَازُعُ في حُسْنِ دُخُولِه من باب  
الاشتغال، ونَصَبَ فِكْرَه لتَحْصِيلِ العِلْمِ فتَعَيَّنَ تَمِيْزُه على كُلِّ حال؛ وتوقَدتْ نَارُ ذَهْنِه  
فَتَلَطَّطَ حَاسِدُه بِالْإِتْهَابِ، وَرُوِيَتْ أَحَادِيثُه بِالْغَةِ في العُلُوِّ إلى سماء الفضل ولا يَدَعُ  
إذا رُوِيَتْ أَحَادِيثُ الشَّهَابِ؛ وافتخر من والده بالفاضل الذي أرتفع في ديوان  
الإِنْشَاءِ حَبْرُه، وهزَّ المَعَاظِفَ بِتَوْقِيْعِه الذي لا يزال يُحَرِّره وَيُجَبِّره؛ ووَشَى المَهَارِقَ  
فكأَنَّما هي رِيَاضٌ قد غَرَّدَ فِيهَا بِسَجْعِه، ونَحَّأهَا بِإِنْشَائِه الذي هو عُمْدَةُ المتأدبين  
فلا عَجَبَ في رَفِيْعِه؛ ونَظَمَ بِيَانِه تَفَائِسَ الدَّرَرِ فَفَدَّتْهَا بِالْعَيْنِ "صِحَّاحُ الجَوْهَرِي"؛  
وفتح بِجَيْشِ بِلَاغِيْهِ مَعَاوِلَ المعاني الممتعة وحَسْبُكَ بِالْفَتْحِ العُمْرِي:

بِيَانُه السَّحْرُ قد أَخْفَى مَعَاوِدُه \* لِكِنْ أَرَانَا لِسِرِّ الفَضْلِ إِنْشَاءَ

إِذَا أَرَادَ أَدَارَ الرَّاحِ مَنْطِقُه \* نَظْمًا وَيُطْرِبُنَا بِالنَّثْرِ إِنْ شَاءَ!

والله تعالى يُبْهِجُ نَفْسَه بما يُصْبِحُ به الحاسدُ وهو مُكَمَّدٌ، وَيُقِرُّ عَيْنَه بهذا الوَلَا  
النَّجِيْبِ حتى لا يبرح يقول: أَشْكُرُ اللهَ وَأَحْمَدُه بِمُجْمَدِ وَآلِه.



ومن ذلك ما كتب به الشيخُ شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الدَّائِمِ، لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ  
أَبِي الفَتْحِ مُحَمَّدِ، حينَ عَرَضَ عَلَيْهِ "المِنْهَاجُ" في الفِقهِ لِلنَّوَوِيِّ، في سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ  
وثمانمائة، وهو:

الحمد لله الذي أَوْضَحَ بِنَجْمِ الدِّينِ مِنْهَاجَ الْفِقْهِ وَأَنَارَهُ ، وَأَفْصَحَ لِسَانَهُ بِكُتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَارَهُ ، فَسَطَعَتْ أُنُورُ شَهَابِهِ لِمَنْ أَسْتَنْبَطَهُ وَأَنَارَهُ ، مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهَهُ فِي الدِّينِ وَيَرْفَعُ مَنَارَهُ ؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمَخْصُوصِ بِعَمُومِ الرِّسَالَةِ ، وَالْمَنْصُوصِ فَضْلَهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الدَّلَالَةِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ نَجْمِ الْهُدَى ، وَشُهَبِ النَّاسِي وَالْأَقْبَادِ .

وبعد ، فقد عَرَضَ عَلَى الْفَقِيهِ الْفَاضِلِ نَجْمِ الْأَفَاضِلِ ، وَسَلِيلِ الْأَمَانِلِ ؛ ذُو الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ ، وَالْفِطْنَةِ الذِّكِيَّةِ ، وَالْفِطْرَةِ الزَّكِيَّةِ ؛ نَجْمِ الدِّينِ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَانٍ : نَفَعَ اللَّهُ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِوَالِدِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ طَارِفِ الْعِلْمِ وَتَالِدِهِ - مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ "الْمِنْهَاجِ" فِي فِقْهِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الْمُطَّلِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ ، تَأَلِيفَ الْحَبْرِ الْعَالِمَةِ وَلِيِّ اللَّهِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ شَرَفِ بْنِ مَرِي النَّوَوِيِّ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى ثَرَاهُ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مَأْوَاهُ ؛ دَلَّ حِفْظُهُ لَهَا عَلَى حِفْظِ الْكُتَابِ ، كَمَا فَتَحَ اللَّهُ لَهُ مَنَاجِجَ الْخَيْرِ دَقَّةً وَجِلَّةً ، وَكَانَ الْعَرَضُ فِي يَوْمِ كَذَا .



وكتب علامة العصر الشيخ عز الدين بن جماعة ما صورته :

كذلك عَرَضَ عَلَى الْمَذْكُورِ بِاطْنِهَا عَرَضًا حَسَنًا ، مُحَرَّرًا مُهَدَّبًا مُجَادًّا مُتَقِنًا ؛ عَرَضَ مِنْ أُنْتَقِنَ حِفْظُهُ ، وَزُيِّنَ بِحُسْنِ الْأَدَاءِ لَفْظُهُ ، وَأُجْزِلَ لَهُ مِنْ عَيْنِ الْعَنَاءِ حَظُّهُ ؛ مَرَّةً فِيهِ مُرُورُ الْهِمْلَاجِ الْوَسَّاعِ ، فِي قَسِيحِ ذِي السَّبَاعِ . وَقَدْ دَلَّنِي ذَلِكَ مِنْهُ - نَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِهِ ، وَوَصَلَ أَسْبَابَ الْخَيْرِ بِسَبَبِهِ ؛ عَلَى عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَوُفُورِ أَرْيَحِيَّتِهِ ، وَتَوَقُّدِ فِكْرَتِهِ ، وَأَتَّقَادِ فِطْنَتِهِ ؛ وَأَصْلُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَرِيقُ :

سَيِّئَةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ \* إِنَّ الْخَلَائِقَ - فَاعِلَمَ - شَرَّهَا الْبِدْعُ !

وقد أذنت له أن يروى عنى الكتاب المذكور، وجميع ما يجوز لى وعنّى روايته من مصنفاتى وغيرها من منظوم ومثثور، ومنقول ومعقول ومأثور؛ بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر. وكتب فلان فى تاريخ كذا .



ومن ذلك ما كتبه لمن اسمه «محمد» ولقبه «شمس الدين» من أبناء بعض الإخوان: وقد عرض على «الأربعين حديثاً» للشيخ محيى الدين النووى رحمه الله، و«الورقات» فى الأصول لإمام الحرمين، و«المحفة البدرية» فى النحو للشيخ أثير الدين أبى حيان دفة واحدة، وهو لدون عشر سنين، وهو:

الحمد لله الذى أطلع من درارى الأفاضل فى أفنى النجابه شمسا، وأظهر من أفاضل الدرارى ما يغض به المخالف طرفاً ويرفع به المخالف رأساً، وألحق بالأصل الكريم فرعه فى النجابه فطاب جنى وأغرق أصلاً وزكا غرساً؛ وأبرز من ذوى الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العريفة فى لمح، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال فأمسى وفهم «الورقات» لديه كالصفحة، ونحرق بكرم بدايته العادة بخاز الأربعين لدون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى عمّت بركة أسمه الشريف سميّه ففاض منها بأوفر نصيب، وخص بإلهام التسمية به أولو الفضل والنهى؛ فما سمي به إلا كريم ولا سمي به إلا نجيب؛ وعلى آله وصحبه الذين أينعت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف وأثمرت .

وبعد، فقد عرض على فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فتر فيها مرور الصبا، وجرى فى ميدانها جرى الجواد فما حاد عن سنن الطريق ولا كجا .

وأما الإجازة بالمرئيات على الاستدعاءات : -

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي خطيب بيت الآلهة ، وكتب الدست بالشام ، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه ، وهو :

الحمد لله الذي إذا دعي أجاب ، وإذا أنعم على الأديب بدوق أتى في نظمه ونثره بالعجاب ، وإذا وهب البليغ فطرة سايمة لم يكن على إجماع حجاب .

نحمده على نعمه التي منها البلاغة ، وإتقان ما لصناعة الإنشاء من حسن الصياغة ، وصيد أو أيد المعاني التي من عمل فكره في اقتناصها أو روى [أمن] رواغته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها ، وجبل الفكر على اقتناء أدلتها القاطعة واقتناصها ، وجعلت وقاية لقائلها يوم يضيق على الخلاق فسيح عراضها ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفصح من نطق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العربية بالنكت الحسان ، وحث على الخير وحض على الإحسان ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رَووا أقواله ، وبلغوا لمن لم يره سُننه وأفعاله ، وعلموا أن هذه الشرعة المطهرة أذخرها الله تعالى له فلم تكن تصلح إلا له ؛ صلاة هامية الغفران ، نامية الرضوان ؛ ما أجاب مجيب لمن استدعى ، وعملت إن في المبتدأ نصبا ولم تغير على الخبر رفعا ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن [علم] الرواية من محاسن الإسلام ، وخصائص الفضلاء الذين تحفُّق لهم ذوائب الطروس وتنتصب رماح الأقلام ؛ ولم تزل رغبة السلف نتوقر عليه ، وتسير أنامل إرشادهم للانام بالحث إليه . قيل للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما تشتهي ؟ فقال : سند عال ، وبيت خال . وما برح الأئمة الكبار يرحلون إلى أقاصي



الأقاليم في طلبه، ويحملون المشاق والمتاعب فيه ويتجملون بسببه؛ فقد أرزحل الإمام الشافعي رضي الله عنه وغيره إلى عبد الرزاق باليمن، وكان فيمن أخذ عنه ممن هو أحق بالتفضيل عليه قن؛ ولكنه فن يحتاج إلى ذوق يعاضد من لا يعانده، وأمر لا يصير عنه من ألفه وما يعلم الشوق إلا من يكأبده؛ فما عند من طلب الرواية أجل من أبناء جنسه، ولا عند المفيد المفيد أحلى من قوله: حَدَّثَنَا فُلَانٌ أَوْ أَنْشَدَنَا فُلَانٌ لِنَفْسِهِ، ولكن:

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِيَ نَافِذًا \* فِيهَا وَلَا كُلُّ الرِّجَالِ حُجُولًا!

ولما كان الشيخ الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ ... ممن نظم فودت الدرر في أفلاكه لو آتسقت، وكتب فرقم الطروس ووشاها، وغشاها من زهرات الرياض ماغشاها؛ وحل المترجم فسحر عقل كل لبيب وخطب لبه، ووقع على القصد فيه فكانه شيء من الغيب خص الله به قلبه، وأتى فيه ببدائع ما تساوى ابن الصيرفي ولا ابن <sup>(١)</sup> عندها بحبه؛ وخطب فصدع القلوب، وأجرى ذنوب المدامع من أهل الذنوب، وحذر فكانت أتباعه كالحان إنحق وسامعه يبكي بأجفان يعقوب؛ كأنما هو في حلة الخطابة بدر في غمامه، أو منبره غضن وهو فوقه حمامه، أو بحر وفضائله مثل أمواجه ودره يحكي كلامه؛ لو رآه "ابن نباتة"، ماورقت بالفصاحة أعواده، أو "ابن المنير" مارقت بالبلاغة أبراده، أو "ابن تيمية"، ما حظيت بالحدود أجداده؛ فاراد أن يشرف قدرى، ويعرف نكرى؛ فطلب الإجازة مني وأنا أحق بالأخذ عنه، وأستدعي ذلك مني: ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

(١) بياض بالأصول ولعله: ولا ابن نباتة.

فَنَعْمَ قَدْ اسْتَخَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَجْرْتُ لَهُ مَا يَجُوزُ لِي تَسْمِيْعُهُ ، وَذَكَرْتُ هُنَا شَيْئًا  
مِنْ مَرَوِيَّاتِي وَأَشْيَائِي رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَذَكَرْتُ مُصَنَّفَاتِي :

إِجَازَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ \* يَسِيرٌ مِنَ الرَّوَايَةِ فِي مَقَازِهِ :

لَمَنْ مَلَكَ الْفَضَائِلَ وَأَقْتَنَاهَا \* وَجَازَ مَدَى الْعُلَى سَبْقًا وَحَازَهُ !

+ +

وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّائِغِ عَلِيُّ اسْتِدْعَاءً  
لِبَعْضٍ مِنْ سَأَلِهِ الْإِجَازَةَ .

أَقُولُ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُحَيِّبُ مِنْ اسْتَجْدِي كَرَمِهِ ، وَلَا يُجَيِّبُ مِنْ اسْتَدْعَى  
نِعَمِهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَيَّ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَخَدَمِهِ وَمَا أَسْوَدَ مَدْمِهِ : (١)

أَثَرَتْ الْجَوَى بِي إِذْ أَرَدْتَ جَوَابِي \* وَعَظَّمْتَ خَطِيئِي إِذْ قَصَدْتَ خَطَايِي :  
وَمَنْ أَنَا فِي الدُّنْيَا أُجِيبُ وَمَنْ أَنَا ! \* أُجِيزُ ؟ مَضَى الْأَشْيَاخُ تَحْتَ تُرَابِ !  
عَجِيبٌ لَطْلَابٍ لَدَيْنَا تَحَلَّفُوا \* وَكَمْ قَدْ أَنَا نَا دَهْرُنَا بِعَجَابِ !  
نَحْنُ إِلَى الْمَوْلُوحِ أَمْرُنَاي \* عَرَبِنَاهُ بِالْعَذِيبِ عَذَابِ (٢)

يَا أَخَانَا : إِنَّ بِيضَاعَتَنَا فِي الْعِلْمِ مُرْجَاهُ ، وَصِنَاعَتَنَا فِي الْوَقْتِ مُرْجَاهُ ، وَنَسِيمُ أَخْبَارِهِ  
عَلِيلٌ ، وَأَدَبُ إِخْبَارِهِ قَلِيلٌ ، وَتَصَانِيفِي وَجُوهٌ أَكْثَرُهَا مُسَوَّدَةٌ ، وَأَمَالِي فِي تَبْيِيضِهَا  
لِقِصْرِ الْهَيْمَمِ مَمْتَدَةٌ ، سُئِلْتُ قَدِيمًا مِنْ بَعْضِ الْفَضَلَاءِ أَنْ أَعِدَّهَا ، فَكَتَبْتُ فِيهَا رِسَالَةً  
لَا أَعْرِفُ لَصَقِلِ الْأَذْهَانَ حَدَّهَا ، وَمَنْ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَصَانِيفِ أَنْحَرٍ ، وَمَقَاطِيعِ إِنْ لَمْ  
تَكُنْ كَالزُّهْرِ فَهِيَ كَالزُّهْرِ ، ثُمَّ عَدَدْتُ نَيْفًا وَثَلَاثِينَ مُصَنَّفًا ، مِنْهَا "مَجْمَعُ الْفَرَائِدِ"  
فِي سِتِّ عَشْرَةَ مَجْلَدًا . ثُمَّ أَنْشَدْتُ فِي أَنْحَرِ ذَلِكَ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ تَهْتَدِ إِلَيْهِ مَعَ دَقَّةِ الْبَحْثِ .

(٢) فِي كَشْفِ الظُّنُونِ : سَعَةً عَشْرَ مَجْلَدًا .

ولقد شرفت قدرى \* بنفيس من هدأيا :  
 بنظام شنف السم \* يدرك الثنايا .  
 فارومنى وأروعتى \* وأغن عن شد المطايا ،  
 وأنتق الفضل وحصل ، \* وأحظ منى بمزايأ ،  
 وتحرر الصدق وأعلم \* أنه خير الوصايا !!!

أجزت لك أن تروى هذه وغيرها عنى ، ولك الفضل في قبول ذلك منى .

### الصنف الثانى

( التقریضات التى تكتب على المصنفات المصنفة والقصائد المنظومة )

قد جرت العادة أنه إذا صنّف فى فنّ من الفنون أو نظم شاعراً قصيدةً فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقریض والمدح ، ويأتى كلّ منهم بما فى وسعه من البلاغة فى ذلك .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدى على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين على بن الدرهم الموصلى الشافعى فى الاستدلال على أن البسمة من أول الفاتحة ، وهى :

وقفت على هذا التصنيف الذى وضعه هذا العلامة ، ونشر به فى المذهب الشافعى أعلامه ، وأصبح ونسبته إليه أشهر علم وأهبر علامه ؛ فأقسم ما سام الروض حدائقه ، ولا شام أبو شامة بوارقه ؛ كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة ، وكل التصانيف تقول أمامه : بسم الله ؛ كم فيه من دليل لا يعارض بما ينقضه ، وكم فيه من حجة يكفل عنها الخصم لأن عقله على محك النقد يعرضه ؛ قد أيد ما ادعاه بالحديث والأثر ، ونقل مذهب كل إمام سبق وما عثر ؛ لقد سر الشافعى بنص

قوله الذي هدّبه ، وجعل أعلام مذهبه مذهبه ؛ وأتى فيه بِنَكْتِ تَطْرِبٍ من  
أسرار الحَرْفِ ، وفوائد عُرِفَ بها ما بين ابن الدَّرْهَمِ وبين البُونِي من البَوْنِ  
في تَفَاوُتِ الصَّرْفِ :

أَكْرِمَ بِهِ مُصَنَّفًا \* فَاقَ تَصَانِيفَ الْوَرَى!  
لَيْلُ الْمِدَادِ فِيهِ بِالْأَمْعَى الْمُنِيرِ أَقْمَرًا!  
كَمْ فِيهِ بُرْدٌ مُجْجَةٌ \* قَدْ حَاكَهُ مُحَرَّرًا،  
وَكَمْ دَلِيلَ مَسِيفَةٍ \* إِذَا أَلْتَقَى خَصْمًا فَرَى.  
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ \* مُخَالَفَ قَطُّ يَرَى!!



ومن ذلك ما كتب به المقرّ الشهابي بن فضل الله على قصيدة ميمية ، للشيخ  
غرس الدين خليل الصفدي المعروف بالصلاح الصفدي ، مدح بها الأمير سيف  
الدين أبلحاي الدوادار الناصري ، في شهر سنة تسع وعشرين وسبعائة ، وهي :

وقفت على هذه القصيدة التي أشرقت معانيها فكادت تُرى ، وتمكنت قوافيها  
فاستمسك بها الأدب لما كانت الميمات فيها كالعرأ ؛ فوجدتها مشتملة من البلاغة  
بوزنها على البحر المحيط ، لطيفة لا تُقاسُ بأمثالها من الكلام المركب لأنها من البسيط ؛  
فنظرت إليها مكتسباً من بيانها شعر الحدق ، متعجباً من مُنْشِئِهَا لَغْرَسِ يُسْرِعُ  
الإتمار في الورق ؛ ثم فطنت إلى أن المدوح بها أعزّه الله تعالى سحت ديمه فروضت  
الطروس ، وبرحت مناقبه بما كان مصوناً في أخية النفوس ؛ وقد استوجب هذا  
المادح عطف الله تعالى قلبه عليه من منائح حطاً جزيلاً ، وحُباً يقول به لمن قصد  
المساواة به : لو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذتُ فلاناً خليلاً :

مُدَبِّرَ الْمُلْكِ لَهُ ۞ عَلَى الْعُلَى مَقَاعِدُ،  
تَهْوِي إِلَى جَنَابِهِ الْقُصَّادُ وَالْقَصَائِدُ!



قلتُ : وكتبتُ على قَصِيدَةٍ نظمها شرفُ الدين عيسى بن حجاجِ الشاعرِ المعروفِ  
بالعاليةِ ، مدح بها النبيَّ صلى الله عليه وسلم وضمَّنها أنواعَ البديعِ ، ضاهى بها بديعيةَ  
الصَّفِيِّ الحليِّ ، في شهرِ سنةِ اثنتين وتسعين وسبعائة ، ما صورتهُ :

أما بعد حمدِ الله الذي أحلَّ سحرَ البيانِ ، وأقدر أهلَ البلاغةِ من بديعِ التَّخِيلِ على  
ما يشهد بصحَّته العيانُ ؛ ودلَّل برائِضِ أفكارِهِم صِعَابَ الألفاظِ فأمتطَّوا من مُتُونِ  
أحاسِنِها الحِيَادِ ، وأوضَّح لهم طُرُقَ الفصاحةِ فغدَّتْ لديهم - بحمدِ الله تعالى - سهلةَ  
القيادِ ؛ وأحْيى مِيتَ الأدبِ بروحِ الأنفاسِ العيسويَّةِ وعمرَ بأنسِها ربوعه الخاليَّةِ ،  
وحَمَى نفسَ الفضلِ في رُقعةِ المساجلةِ أن تَصِلَ إليها فِرَازنةُ الدَّعَاوِيْ ولا غرَوانَ  
حماها العاليه ؛ والصلاةِ على رسوله محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أفصحَ من نطقِ بالضادِ ،  
وأوتى جوامعَ الكَلِمِ فإن تَحْضُرَ معانيِ كلامِهِ الأعداد - فإني وقفتُ على البديعيةِ  
البديعةِ التي نظمها الفاضلُ الأرفعُ ، واللودعيُّ المصقعُ ؛ أديبُ الزمانِ ، وشاعرُ  
الأوانِ ؛ شرفُ الدين أبو الروحِ عيسى العالية - أعلى الله تعالى منارَ أدبه ورفعه على  
مناويه ، وبلغ به من قَصَبِ السَّبْقِ ما يمتنعُ أن يراه على البعدِ مُضَاهِيه - فأنفيتها  
الدُّرَّةَ الثمينةَ غير أنها لا تُسَامُ ، والحريدةُ المُخَدَّرَةُ إلا أنها لا يَلِيْقُ بها الأحتشامُ :

تُرُومُ أَحْتِشَامًا سَتْرًا لَأَلَاءِ وَجْهِهَا ! ۞ وَمَنْ ذَا لِدَاتِ الْحُسْنِ يُحْفِي وَيَسْتُرُ !

قد اتَّخَذَتْ من الأحتشامِ مَعْقِلًا وَحِصْنًا لَا يُغْشَى ، وَأَتَبَّدَتْ من حُسَادِهَا مَكَانًا  
قَصِيًّا فَلَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى :

ولم أدر - والألفاظ منها شريفة - « إلى البدر تسعوا أم إلى الشمس ترتقي؟ !  
أراد المدعي بلوغ شأوها الجري في مضارها فقيل : كلاً ، ورام المأخذ في آياتها  
الغص منها عناداً فأبى الله إلا :

مَا إِنْ لَهَا فِي الْفَضْلِ مِثْلُ كَاتِنٍ ! \* وَبَيَانُهَا أَحْلَى الْبَيَانِ وَأَمْثَلُ !  
فَأَسَّوْا فِي مُعَارَضَتِهَا غَيْرَ طَامِعِينَ ، وَتَلَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ بِلَاغَتِهَا : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ  
لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ :

كَمْ جَدَلَتْ يَوْمَ الْوَعَى مِنْ جَنْدِلٍ \* صَاحَتْ بِهِ فَمَا أَطَاقَ تَصَبُّرًا !  
وكيف لا تخضع لها الأعناق ، وتذل لها رقاب الشعراء على الإطلاق ، وهي  
البييمة التي أقيمت الأفهام عن مثلها ، والفريدة التي أعترف كل طویل النجاد  
بالقصور عن وصلها :

زَادَتْ عَلِيٌّ ، مَنْ ذَا يُطِيقُ وَصَالَهَا؟ \* وَمَحَلَّهَا مِنْهُ الثُّرَيَّا أَقْرَبُ !  
وأنى بذلك وقد أخذت من المحاسن بزمامها ، وأحاطت من الطلاوة بكامها ،  
وأحدثت رياض الأدب بحداثتها ، وأقتطفت من أفنان الفنون ثمار معان تلذ  
لناظرها وتحلو لذائقها؟ :

وَلَا تُعِرْ غَيْرَهَا سَمْعًا وَلَا نَظْرًا \* فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ !  
وتصرفت في جميع العلوم وإن كانت على البديع مقصورة ، وشرفت بشرف  
متعلقها فأصبحت بالشرف مشهورة :

أَهَانَتْ الدَّرَّ حَتَّىٰ مَالَهُ تَمَرٌ ، \* وَأَرْخَصَتْ قِيَمَةَ الْأَمْثَالِ وَالْخُطْبَا !  
لا جرم أضحت أم القصائد وكعبة القصاد ، ومحط الرجال ومنهل الزاد ، فأربت  
في الشهرة على "المثل السائر" ، وأعترف بفضيلها جزالة البادي وسهولة الحاضر :

فَلَا فَاِضِلْ فِي عَلَيَّهَا سَمْرٌ \* إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعَلِيَاءِ أَسْمَارُ!

فَأَعْجِبْ بِهَا مِنْ بَادِرَةِ جَمَعَتْ بَيْنَ مُتَضَادَّيْنِ سَمْرٍ وَسَمَرٍ، وَقَرَنْتَ بَيْنَ مُتَبَاعِدَيْنِ زُهَيْرٍ وَزَهْرٍ، وَجَادَتْ بِمُسْتَرْهِنِي رَوْضٍ وَنَهْرٍ، وَتَفَنَّنَتْ فِي أَسَالِبِ الْكَلَامِ وَجَالَتْ، وَطَاوَعَتْهَا يَدُ الْمَقَالِ فَقَالَتْ وَطَالَتْ، وَدَعَتْ فُرْسَانَ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْمُبَارَاةِ فَنَكَسُوا، وَتَحَقَّقَ الْمُفْلِقُونَ الْعَجْزَ عَنْ مُوَاخَاتِهَا وَلَوْ حَرَّصُوا:

فَاعْرَبَ عَنْ كُلِّ الْمَعَانِي فَصِيحُهَا \* بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ نِزَارٌ وَيَعْرُبُ!

إِنْ ذُكِرَتْ أَلْفَاظُهَا فَمَا الدُّرُّ الْمُنْتَوِرُ؟ أَوْ جُلِيَتْ مَعَانِيهَا أُنْجَلِيَتْ الرَّوْضُ الْمَطْطُورُ، أَوْ أَعْتَبِرْ تَحْرِيرَ وَرُزْنِهَا فَاقِ الذَّهَبَ تَحْرِيرًا، أَوْ قُولِيَتْ قَوَائِمِهَا بِغَيْرِهَا زَكَّتْ تَوْفِيرًا وَسَمَتْ تَوْفِيرًا، أَوْ تَغَزَلَتْ أَسَكَّتِ الْوُرُقَ فِي الْأَغْصَانِ، أَوْ أَمْتَدَحَتْ قَفَّتْ إِثْرُ «كَعْبٍ» وَسَلَكَتْ سَبِيلَ «حَسَّانٍ»؛ فِإِطْنَابُهَا - لِفَصَاحَتِهَا - لَا يُعَسِّدُ إِطْنَابًا، وَإِيجَازُهَا - لِبَلَاغَتِهَا - يُمَدُّ عَلَى الْمَعَانِي مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ أَطْنَابًا:

أَبْنُ لِي مَغْزَاهَا أَخَا الْفَهْمِ إِنَّهَا \* إِلَى الْفَضْلِ تُعْزَى أَوْ إِلَى الْمَجْدِ تُنْسَبُ؟

هَذَا وَبَرَاةٌ مَطْلَعُهَا تَحْتُ عَلَى سَمَاعِ بَاقِيهَا شَغْفًا، وَبَدِيعُ مَخْلَصِهَا يَسْتَرِيقُ الْأَسْمَاعَ لَطَافَةً وَيَسْتَرِيقُ الْقُلُوبَ كَلْفًا، وَحُسْنُ اخْتِنَامِهَا تَكَادُ النُّفُوسُ لِحَلَاوَةِ مَقْطَعِهِ تَذُوبٌ عَلَيْهَا أَسْفًا:

لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ: \* إِذِ الْفَضْلُ وَرَدُّ وَالْمَعَالَى مَوَارِدُ!

وَبِالْجَمَلَةِ فَمَا ثَرَهَا الْجَمِيلَةَ لِأَنْحَصِي، وَبِحَمَائِلِهَا الْمَانُورَةَ لِأَنْعُدُّ وَلَا تُسْتَقْصَى؛ فَكَأَنَّهَا «قُسٌّ بِنِ سَاعِدَةَ» يَأْتُمُّ بِفَصَاحَتِهَا، وَ«أَبْنُ الْمُقَفِّعِ» يَهْتَدِي بِهَدْيِهَا وَيُرْوَى عَنْ بِلَاغَتِهَا؛ «وَأَمْرُ الْقَيْسِ» يَقْتَسِمُ مِنْ صَنِيعَةِ شِعْرِهَا، وَ«الْأَعَشَى» يَسْتَضِيءُ بِطَلْعَةِ بَدْرِهَا؛ فَلَوْ رَأَاهَا «جَرِيرٌ» لَرَأَى أَنَّ نَظْمَهُ جَرِيرَةٌ أَقْتَرَفَهَا، أَوْ سَمِعَهَا «الْفَرَزْدُقُ»

لعرف فضلها وتحقق شرفها ؛ أو بصريها « حبيب بن أويس » لأحب أن يكون من رواتها، أو أطلع عليها « المتنبى » لتحيير بين جميل ذاتها وحسن أدواتها :  
 فللبصائر هادي من فضائلها \* يهدي أولي الفضل إن صلوا وإن حاروا!  
 ولا تطيل فبلغ القول فيها أن آيتها المحكمة ناسخة لما قبلها، وبرهانها القاطع قاض بأن لا تسمع قرينة أن تنسج على منوالها ولا تطمع شاعر أن يسلك سببها :  
 وآيتها الكبرى التي دلّ فضلها \* على أن من لم يشهد الفضل جاحدا!

### الطرف الثاني

( فيما يكتب عن القضاة، وهو على أربعة أصناف )

### الصنف الأول

( التقاليد الحكيمة ، وهي على مرتبتين )

### المرتبة الأولى

( أن تفتتح بخطبة مفتوحة بـ « الحمد لله » )

ثم يقال : « أما بعد » ثم يقال : « ولما علمنا من حال فلان الفلاني كذا وكذا ، أستخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا ، فليباشر ذلك » ويوص بما يناسب .  
 ثم يقال : « هذا عهدنا إليك ، وحجبتنا عند الله عليك ، فأعلم هذا وأعمل به ، وكتب ذلك عن الإذن الفلاني » .

وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الولي الحميد ، الفعال لما يريد ، نحمده على ما أولانا من إحسانه فهو المولى ونحن العبيد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصلنا إلى



جَنَّةٍ نَعِيمُهَا مُقِيمٌ ، وَتَقِينَا مِنْ نَارٍ عَذَابُهَا شَدِيدٌ أَلِيمٌ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ  
النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمُشْتَمِلِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ ؛  
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فإن مرتبة الحكم لا تُعطى إلا لأهلها ، والأفضلية لا يُنتصب لها إلا من  
هو كفو لها ؛ ومن هو مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْأَمَانَةِ وَالصِّيَانَةِ ، وَالْعِفَّةِ وَالذِّيَانَةِ ؛ فَمَنْ  
هذه صِفَتُهُ اسْتَحَقَّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَخْدَمَ ، وَيَتَرَقَّى وَيَتَقَدَّمَ .

ولمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فُلَانٍ الْفُلَانِي الْأَوْصَافَ الْحَمِيدَةَ ، وَالْأَفْعَالَ السَّيِّدَةَ ؛ فَإِنَّهُ  
قَدْ حَوِيَ الْمَعْرِفَةَ وَالْعُلُومَ ، وَالْأَصْطِلَاحَ وَالرُّسُومَ ، وَجُمِعَتْ فِيهِ خِصَالٌ حَمَلْنَا عَلَى  
اسْتِنَابَتِهِ ، وَقَوَّيْنَا عَلَى نِيَابَتِهِ ؛ - اسْتَخْرْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَقَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مُتَمَسِّكًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْمُتَيْنِ ، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
الْمُحْسِنِينَ﴾ ؛ وَيُجْتَهَدُ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَفَضْلِ الْخِصُومَاتِ ، وَفِي النَّظَرِ فِي ذَوَى الْعَدَالَاتِ  
وَالْتَلُّبِ بِالشَّهَادَاتِ وَإِقَامَةِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ نَزَاهًا ، وَإِلَى الْحَقِّ  
مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَاعِهِ وَيُقَدِّمَهُ عَلَى أَقْرَانِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ فَلْيَقْصِهِ وَيَطْلَعْنَا  
بِحَالِهِ . وَلْيَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ الْأَفْعَالَ الْمَرْضِيَّةَ ، وَفِي أَمْوَالِ  
الْأَيْتَامِ يَصْرِفُ مِنْهَا اللَّوَاظِمَ الشَّرْعِيَّ ؛ فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا عَسَاهُ يَفْضُلُ  
لَهُ مِنْهَا ، وَيَقْرَرُ الْفُرُوضَ ، وَيُزَوِّجُ الْخَالَيَاتِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعِدَدِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، مِنْ  
الْأَزْوَاجِ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَنْدُبُ لَذَلِكَ مَنْ يَعْلَمُ دِيَانَتَهُ ، وَيَتَحَقَّقُ أَمَانَتَهُ ؛ وَيَخْتَارُ لِكِتَابَةِ  
الصُّكُوكِ مِنْ لَا يَرْتَابُ بِصِحَّتِهِ ، وَلَا يُسْكُ فِي دِيَانَتِهِ وَخَبْرَتِهِ ؛ وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ ،  
وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْتَخْدَمِينَ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْحَمِيدَةِ فَلْيُجِرْهُ عَلَى عَادَتِهِ ،  
وَلْيُبْقِهِ عَلَى خِدْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَلْيَسْتَبَدِّلْ بِهِ وَلْيَقْصِهِ .

هذا عهدى إليك ، وحجتي غداً عند الله عليك ؛ فاعلم هذا وأعمل به .  
 وكُتِبَ ذلك عن الإذن الكريم الفلاني وهو في محلِّ ولايته وحُكْمِه وقضائه ،  
 وهو نافذ القضاء والحُكْم ماضيهما ، في التاريخ الفلاني . (ثم يكتب الحاكم علامته  
 والتاريخ) وحسبنا الله ونعم الوكيل .



وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الحكيم العدل الهادي عباده صراطاً مستقيماً ، الحاكم الذي لا يظلم مثقال  
 ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ؛ المنيب من قدم له  
 الطاعة من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ، الرقيب على ما يصدر من أفعالهم  
 فلا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم  
 من دونه من والٍ .

أحمدُه على نِعَمِه التي تُنشئُ السحابَ الثقال ، وأسْتَعِيدُه من نِقَمِه التي يرسلها  
 فيصيبُ بها من يسأه من عباده وهو شديدُ الحال ؛ وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده  
 لا شريك له شهادة تُفيدُ المُخلصَ بها في الإقرارِ النجاةَ يومَ المآل ، وأشهدُ أن محمداً عبده  
 ورسوله الذي نعتَه بأكرمِ الشيمِ وأشرفِ الخصال ، وعمره بما يجبُ من عبوديته فقال :  
 ( وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ) .  
 صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه في الأقوال والأفعال ؛ وسلم تسليماً كثيراً .  
 أما بعد ، فإن من حسنت سيرته ، وحمدت سيرته ؛ وعرف بورع وشهر بعفاف ،  
 وديانةً وخيرٍ وإنصاف ؛ وأضحى نزهة النفس عن الأمور الدنيية ، فقيماً درياً بالأحكام  
 الشرعية ، عارفاً بالأوضاع المرضية - استحق أن يوجه ويستخدَم ، ويرقى ويتقدم .

ولمّا علمنا من حال فلان الفلانيّ من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديده -  
استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا .

فليكن متمسكاً معتصماً بحبل الله القويّ المتين، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ  
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وليأشّر ما قلّدها أعانه الله سبحانه وتعالى، ويراع حقوق  
الله تعالى في السرّ والعلانية : فإنه معين من استعان به وتوكل عليه، وهادي من  
استرشدّه وفوض أموره إليه .

وليجتهد في فصل الأحكام بين المتنازعين، والمساواة في العدل بين المتحاكين ؛  
قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ .

وأن يثبت في الخصومات، ويفرق بين الحقائق والشبهات ؛ ويُصِفَ كلّ ظالم  
من ظالمه بالشريعة الحمديه ، ليكون ذلك سبباً للسعادة الأبدية ؛ وينظر في أمر  
الشهود : فمن كان منهم تزهاً ، وإلى الحق متوجّهاً ؛ فليأمره ، ومن كان منهم غير  
ذلك طالعنا بحاله . وينظر في أمر الجوامع والمساجد مُعْتَمِداً في ذلك قول الله العزيز  
القاهر : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

وينظر في أمر الأيتام ، ويحتاط على مالهم من الأموال ، ويفعل في ذلك على  
جاري عادة أمثاله من الحكماء ؛ من نفقة وكسوة ولو أزم شرعيّه ، فمن بلغ منهم  
رشيدياً أسلم إليه ما فضل من ماله بالبينة المرضية ؛ ويُقرّر الفروض على مقتضى قول  
الله تعالى : ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾ . ويزوج النسوة الخالية من العبد  
والأولياء ، ممن رغب فيهن من الأكفأ ؛ وينسب لذلك من يعلم أمانته وخبرته ،  
وينظر في أمر المتصرفين : فمن كان منهم على الطريقة المأثورة أجراء على عادته ،

وأبقاه على حُجْمِهِ وَخِدْمَتِهِ ؛ ومن كان منهم خلاف ذلك يُعِدُّهُ وَيُقْصِيهِ ، وَيَسْتَبِيلُ  
به غيره لِيَبْقَى مَكَانَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ .

هذا عَهْدِي إِلَيْكَ ، وَحُجَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَلتَعَلَّمْ ذَلِكَ وَتَعَمَّلْ بِهِ  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ( وَيُؤرِّخُ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِحِطِّ الْحَاكِمِ ) وَيَكْتُبُ : « وَحَسْبُنَا اللَّهُ  
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » وَيَتَوَجَّهُ بِعَلَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ .



وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله ذِي الْفَضْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَاللُّطْفِ فِي الشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ ؛ الَّذِي مِنْ تَوَاضَعٍ إِلَيْهِ  
رَفَعَهُ ، وَمِنْ أَطَاعِهِ نَفَعَهُ ، وَمِنْ أَخْلَصَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَمَالَ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَدَفَعَهُ ؛  
الَّذِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَسْتَوَتْ عَنْدَهُ أَحْوَالُ الْأَوَائِلِ وَالْأَوَانِحِ ،  
وَأَطَّلَعَ عَلَى ضَمَائِرِ النُّفُوسِ وَلَا يَنْبَغِي لغيره أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى الضَّمَائِرِ ؛ الْخَافِضِ الرَّافِعِ ،  
وَالْمُعْطِي الْمَانِعِ ؛ فَإِلَيْهِ الْأَمْرُ وَالتَّذْيِيرُ ، الْمُقْسِطِ الْجَامِعِ : ( وَإِنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ  
بُضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) .

أحمد حمدًا يَقْضِي لِسَعَادَةِ بِالتَّيْسِيرِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يُسَهِّلُ مِنَ الْمَأْرَبِ الْعَسِيرِ ،  
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سُبْحَانَهُ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ، وَأَشْهَدُ  
أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْمُهْدَى وَالْكَتَابِ الْمُنِيرِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأُمَّةِ خَيْرَ بَشِيرٍ  
وَنَذِيرٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبَاتِهِ شَهَادَةً يُحِلُّ الْمَخْلُوصُونَ بِهَا جَنَّةً ( يُحَلِّقُونَ فِيهَا  
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ) .

أما بعد ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ عَارِفًا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، مُتَهَيِّئًا لِنَيْلِ دَرَجَاتِهَا الرَّيْعَةِ ؛ مُسْتَنَدًا  
إِلَى بَيْتِ مَشْكُورٍ ، وَقَدِيرٍ مَوْفُورٍ ؛ قُلَّدَ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةَ ، لِيَعْمَلَ فِيهَا بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ .

ولمّا علمنا فلان بن فلان بن فلان الفلاني ، قلّدناه كذا وكذا .

فبأشْر أعانَكَ اللهُ : مُحَافِظًا عَلَى تَقْوَى اللهِ الَّذِي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وَأَسْتَشْعِرُ خِيفَةَ اللهِ وَأَجْعَلُهَا نُصَبَ عَيْنِكَ ، وَتَمَسَّكَ بِالْحَقِّ وَأَجْعَلْهُ حِجَابًا بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَكَ ؛ وَأَنْتَ نَصَبٌ لِنَفْسِي لِتَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ أَنْتَ صَابٌ مِنْ يُرَاقِبُ اللهُ وَيُحْشَاهُ ، وَحَاسِبٌ نَفْسَكَ مُحَاسِبَةً مِنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ وَيَرَاهُ ؛ وَأَبْدُلُ فِي إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَسُعَكَ ، وَرَحِّبْ لِلتَّعَاكُمِينَ ذَرْعَكَ ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الشُّهُودِ وَحَدِّرْهُمْ أَنْ يَزُوعُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَحَاسِبِهِمْ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ؛ وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ ، وَأَلْزِمِهِمْ أَنْ يَتَّخِذُوا الصَّدَقَ مَنْطِقَهُمْ ؛ وَأَنْتَهُمْ عَنِ التَّسْمُحِ فِيهَا ، وَعَرَّفَهُمْ التَّحْزِزَ عَمَّا يُؤَدِي مِنَ التُّهْمَةِ وَالتَّطَرُّقِ إِلَيْهَا ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ نَظْرًا يُؤَدِي إِلَى صِلَاحِهِمْ ، وَلَا تُعَوِّلْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ إِلَّا عَلَى مَنْ تَخْتَارُهُ وَتَرْتَضِيهِ ، وَلَا تُعَرِّجْ إِلَى مَنْ هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى غَايَةٍ وَلَا تَمِيلْ إِلَيْهِ ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْأَحْبَاسِ نَظْرًا يَحْفَظُ أَصُولَهَا ، وَلَا تُرَاجِعْ فِي اسْتِخْلَاصِ مَا يَتَعَيَّنُ لَهَا كَبِيرًا وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا تُعَامِلْ فِيهَا إِلَّا ذَوِي الْوَفَاءِ وَالْيَسَارِ ، وَأَرْفُضْ مَعَامَلَةَ مَنْ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعُدْمِ وَالْإِعْسَارِ ؛ وَأَفْعَلْ مَا يَفْعَلُهُ مِنْكَ مِنَ الْحُكْمِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْعَدَالَةِ وَالْقَسْخِ وَالْإِنْكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ قَلَّدْنَاكَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ ؛ فَإِنْ عَمَلْتَ فِيهَا بِتَقْوَى اللهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ يُعِينِكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ عَمَلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ فَانْتَ وَاللَّهِ هَالِكٌ ثُمَّ هَالِكٌ ؛ وَأَسْتَمِعُ نَصِيحَتِي ، وَأَفْعَلُ مَا تَبَرَّدُ بِهِ جِلْدَتَكَ وَجِلْدَتِي ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

قلتُ : <sup>(١)</sup> وَرُبَّمَا كُتِبَ اتِّقْلِيدُ بَصِيغَةِ كِتَابٍ ، مِثْلُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى قَدْرِ مَرْتَبَتِهِ ، مِنْ : « صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتُوبَةُ » أَوْ : « هَذِهِ الْمَكْتُوبَةُ » ثُمَّ يُقَالُ :

(١) هذه هي المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان في الأصل .

«تَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ أَنَّ الْمَجْلِسَ الْفُلَانِيَّ» بَلَقِيهِ ، وَيُدْعَى لَهُ : « لَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا - اسْتَحْرْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بِمَكَانِ كَذَا ، فُلَيْبًا شَرًّا ذَلِكَ » عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي التَّقْلِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ .

## الصنف الثاني

( إيجالاتُ العَدَالَةِ )

قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ أَبْنَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ تَثْبُتَ عَدَالَتُهُمْ عَلَى الْحُكَّامِ ، وَيُسَجَّلُ لَهُمْ بِذَلِكَ ، وَيُحْكَمُ الْحَاكِمُ بَعْدَالَةِ مَنْ تَثْبُتَ عَدَالَتُهُ لَدَيْهِ ، وَيُسَمِّدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ فِي دَرَجِ عَمْرِيضٍ ، إِمَّا فِي قَطْعِ فَرْخَةِ الشَّامِيِّ الْكَامِلَةِ ، وَإِمَّا فِي نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْوَرَقِ الْبَلْدِيِّ ، وَتَكُونُ كِتَابَتُهُ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ وَأَسْطُرُهُ مِتْوَالِيَةً ، بَيْنَ كُلِّ سَطْرِيْنِ تَقْدِيرِ عَرَضٍ أَصْبَحَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَهَذِهِ نُسْخَةٌ سَجَّلَ أَنْشَأْتُهُ ، كُتِبَ بِهِ لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ ، وَكُتِبَ لَهُ بِهَا عِنْدَ ثُبُوتِ عَدَالَتِهِ ، عَلَى الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ وَلِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ ، ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْخَافِظِ زَيْنِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيِّ ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَتَيْنِ ، فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ وَثَمَانِمِائَةٍ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطَّلَعَ نَجْمَ الْعَدَالَةِ مِنْ سَمَاءِ الْفَضَائِلِ فِي أَفْقِ مَعَالِيهَا ، وَأَنَارَ بَدْرَارِي الْعُلَمَاءِ مِنْ حَنَادِسِ الْجَهَالَةِ مُدْفَعًا لِيَالِيهَا ، وَكَلَّ عُقُودَ النَّجَابَةِ مِنْ نُجَبَاءِ الْأَبْنَاءِ بِأَعْلَى جَوَاهِرِهَا وَأَنْفَسَ لَهَا لِيَا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُرَقَّى قَائِلَهَا إِلَى أَرْفَعِ الدُّرَى ، وَيَمْتَطِي مُتَّعِلَهَا صَمُوعَةَ الثَّرْيَاءِ : وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَخْصُوصُ بِمَجَاسِنِ الشَّمْسِ ، وَالْمَوْصُوفُ بِكَرَمِ الْمَأْثَرِ وَمَأْثَرِ الْكَرَمِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا مِنْ عُرَى الدِّينِ بِالسَّبَبِ

الأقوى، وسلّكوا جادة الهداية لخصلوا من أفضى مغيّها على الغاية القصوى؛  
وسلم تسلياً كثيراً .

وبعد، فلما كانت العدالة هي أس الشريعة وعمادها، وركنها الأعظم في الاستناد  
إلى الصواب وسنادها؛ لا تُقبل دونها شهادة ولا رواية، ولا يصح مع عدمها إسناد  
أمرٍ ولا ولاية - فقد بُنيت الشريعة المطهرة على أركانها، واعتمدت الرواة في صحة  
الأخبار على أصولها وتعلقت الحُكَم في قبول الشهادة بأخصانها؛ إذ هي الملكة  
الحاملة على ملازمة التقوى، والحفيظة المانعة من الوقوع في هوة البدع المتمسك  
بسببها الأقوى؛ والحكمة الثانية عن الجمّاح إلى ارتكاب الكبائر، والعنان الصّارِف  
عن الجنوح إلى الإصرار على الصغائر؛ والزمام القائد إلى صلاح أعمال الظواهر  
وسلامة عقائد الضمائر .

ولما كان مجالس القاضي الأجل، الفقيه، الفاضل، المشتغل، المحصل،  
الأصيل، نجم الدين، سليل العلماء، أبو الفتح محمد بن فلان القلقشندي الفزارى،  
الشافعي، خليفة الحكم العزيز بالقاهرة المحروسة والده، والحاكم بالعمل الفلاني  
ومامعهما: أيد الله تعالى أحكامه، وأقر عينه بولده - هو الذي ولد على فراش الديانة،  
وظهرت عليه في الطفولية آثارها، ونشأ في أحياء الصيانة، فرويت عنه بالسند  
الصحيح أخبارها؛ وأرتضع ندى العلم حين بزوغ نجمه، وغذيه مع لبان أمه فأمتزج  
بدمه ونجمه وعظمه؛ وأعلن منادى نساته بجمل الذكّر فأغنى فيه عن الاستخبار،  
ولاحت عليه لوائح النجابة ففضى له بالكمال قبل أن يبلغ قمر عمره زمن الإبدار؛  
فلم يرد منهل التكليف إلا وقد تزيّن من محاسن الفضائل بأكل زين، ولم يبلغ مبلغ  
العلم حتى صار لوالده - والله الحمد - قرة عين - رفعت قصة مخبرة عن حاله فيها من  
مضمون السؤال طلب الإذن الكريم بسماع يدنة المذكور، وكتابة إسماعيل بعدلته،

فشمّلها انخطُّ الكَرِيمُ العَالِي ، المَوْلَوِيُّ ، القَاضِي ، الإِمَامِيُّ ، العَالِمِيُّ ، العَامِلِيُّ ،  
 العَلَامِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، المَحَدِّثِيُّ ، الحَافِظِيُّ ، الحَبْرِيُّ ، المَجْتَهِدِيُّ ، المَحَقِّقِيُّ ، المَدَقِّقِيُّ ،  
 الوَحِيدِيُّ ، الفَرِيدِيُّ ، المَجِيءُ ، المَجْبِيءُ ، الخَطِيبِيُّ ، البَلِيغِيُّ ، الحَاكِمِيُّ ، الجَلَالِيُّ ،  
 الجَكَانِيُّ ، البَلْقِينِيُّ ، الشَافِعِيُّ ، شَيْخُ الإِسْلَامِ ، النَاطِرُ فِي الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالدِّيَارِ  
 المِصْرِيَّةِ ، وَالمَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ الإِسْلَامِيَّةِ : أَدَامَ اللهُ تَعَالَى أَيْامَهُ ، وَأَعَزَّ أَحْكَامَهُ ،  
 وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَأَسْبَغَ نِعَمَهُ فِي الدَّارَيْنِ عَلَيْهِ - لَسَيِّدِنَا العَبْدِ الفَقِيرِ إِلَى اللهُ تَعَالَى ،  
 الشَّيْخِ الإِمَامِ العَالِمِ ، الحَافِظِ ، وَلِيِّ الدِّينِ ، شَرِيفِ العُلَمَاءِ ، أَوْحَدِ الفُضَلَاءِ ،  
 مُفْتِيِ المَسْلَمِينَ ، أَبِي زَرْعَةَ أَحْمَدَ ابْنَ سَيِّدِنَا العَبْدِ الفَقِيرِ إِلَى اللهُ تَعَالَى زَيْنِ الدِّينِ ،  
 شَيْخِ الإِسْلَامِ ، قَاضِيِ المَسْلَمِينَ ، أَبِي الفَضْلِ عَبْدِ الرَّحِيمِ ، ابْنَ سَيِّدِنَا العَبْدِ الفَقِيرِ  
 إِلَى اللهُ تَعَالَى بَدْرِ الدِّينِ ، شَرِيفِ العُلَمَاءِ ، أَوْحَدِ الفُضَلَاءِ ، مُفْتِيِ المَسْلَمِينَ ،  
 أَبِي عَبْدِ اللهِ الحُسَيْنِ العِرَاقِيِّ الشَافِعِيِّ ، خَلِيفَةِ الحُكْمِ العَزِيزِ بِالقَاهِرَةِ وَمِصْرَ  
 المَحْرُوسَتَيْنِ ، وَالحَاكِمِ بِالأَعْمَالِ المُنُوفِيَّةِ ، وَمُفْتِيِ دَارِ العَدْلِ الشَّرِيفِ بِالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ :  
 أَيْدِ اللهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي ذَلِكَ عَلَى الوَجْهِ الشَّرْعِيِّ .

فَإِذَا سَمِعَ سَيِّدِنَا العَبْدُ الفَقِيرُ إِلَى اللهُ تَعَالَى الشَّيْخَ الإِمَامَ ، العَالِمَ ، الحَافِظَ ،  
 وَلِيَّ الدِّينِ ، الحَاكِمَ المَشَارُ إِلَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَحْسَنَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ - البَيْنَةَ بِرَكِيَّتِهِ ، وَصَرَّحَتْ  
 لَهُ بِالشَّهَادَةِ بَعْدَئِهِ ، وَقِيلَهَا القَبُولَ الشَّرْعِيَّ السَائِعَ فِي مِثْلِهِ .

ثُمَّ أَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ، وَهُوَ نَافِذُ القَضَاءِ  
 وَالحُكْمِ مَاضِيَهُمَا ، وَذَلِكَ فِي اليَوْمِ المَبَارِكِ يَوْمِ الأَرْبَعَاءِ النَّامِينَ وَالعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ  
 رَجَبِ القُرْدِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ - أَنَّهُ ثَبَّتَ عِنْدَهُ وَصَّحَّ لَدَيْهِ : أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ -  
 عَلَى الوَضْعِ المَعْتَبَرِ الشَّرْعِيِّ ، وَالقَانُونِ المُحَرَّرِ المَرْعِيِّ ، بِالبَيْنَةِ العَادِلَةِ المَرْضِيَّةِ ، الَّتِي



تَثَبَّتْ بِمِثْلِهَا الْحَقُوقُ الشَّرْعِيَّةَ - عَدَالَةُ الْقَاضِي الْأَجَلِّ ، الْعَدْلُ ، الرِّضَى ، نَجْمُ الدِّينِ مُحَمَّدِ الْمَسْحُوعِ أَعْلَاهُ : زَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَوْفِيقًا ، وَهَمَّلَ لَهُ إِلَى الْخَيْرِ طَرِيقًا ، وَمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِهَا ، وَتَحَلَّى بِهِ مِنْ أَدَوَاتِهَا ، بُيُوتًا صَحِيحًا مُعْتَبَرًا ، مُسْتَوْفَى الشَّرَائِطِ مُحَرَّرًا .  
 وَأَنَّهُ - أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَسَدَّدَ تَقْضِيَهُ وَإِبْرَامَهُ - حَكَمَ بَعْدَالَتِهِ ، وَقَبُولِ شَهَادَتِهِ ؛ حُكْمًا تَامًا وَجَزَمَهُ ، وَقَضَى فِيهِ قَضَاءً أَبْرَمَهُ ، وَأَذِنَ لَهُ - أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَحْكَامَهُ - فِي تَحْمِيلِ الشَّهَادَةِ وَأَدَائِهَا ، وَبَسْطِ قَلَمِهِ فِي سَائِرِ أُنْدِيَّتَيْهَا وَأَرْجَائِهَا ؛ وَأَجْرَاهُ - أَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى الْخَيْرَاتِ عَلَى يَدَيْهِ - مُجْرَى أَمْثَالِهِ مِنَ الْعُسْدُولِ ، وَنَظَمَهُ فِي سِلْكَ الشُّهَدَاءِ أَهْلِ الْقَبُولِ ؛ وَنَصَبَهُ بَيْنَ النَّاسِ شَاهِدًا عَدْلًا ، إِذْ كَانَ صَالِحًا لَذَلِكَ وَأَهْلًا .  
 فَلْيَسْطُ بِالشَّهَادَةِ قَلَمَهُ ، وَلْيُؤَلِّفْ عَلَى شُرُوطِ أَدَائِهَا كَلِمَهُ ؛ وَلْيَحْمَدِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَحَهُ مِنْ مَلَائِمِهَا الْجَمِيلَةِ ، وَأَنَالَهُ مِنَ التَّرَقُّيِّ لِرَبَّتِهَا الْجَلِيلَةِ ؛ وَلْيَتَّقِ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوَارِدِهِ وَمَصَادِرِهِ ، وَلْيَسْأَلْكَ مَسَالِكَ التَّقْوَى فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَآخِرِهِ ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ سَلَكَ الْحَقَّ نَجَا ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . أَوْزَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى شُكْرَ هَذِهِ الرَّبَّةِ الْعَالِيَةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ السَّنِيَّةِ .

وَتَقَدَّمَ أَمْرُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ ، الْعَالِمِ ، الْحَافِظِ ، وَوَلِيِّ الدِّينِ ، الْحَاكِمِ الْمَذْكُورِ ، وَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ مَحْدُورٍ ، بِكِتَابَةِ هَذَا الْإِسْبَاجِ ، فَكُتِبَ عَنْ إِذْنِهِ الْكَرِيمِ ، مُتَضَمِّنًا لَذَلِكَ مَسْئُولًا فِيهِ ، مُسْتَوْفَى شَرَائِطِهِ الشَّرْعِيَّةِ . وَأَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِذَلِكَ فِي التَّارِيخِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُ بِأَعَالِيهِ ، الْمَكْتُوبِ بِحَطِّهِ الْكَرِيمِ - شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قُلْتُ : وَالْعَادَةُ أَنْ يُعَلَّمَ فِيهِ الْحَاكِمُ عَلَامَةً تَلَوَّ بِالسَّمْلَةِ ، وَيُكْتَبُ التَّارِيخُ فِي الْوَسَطِ ، وَالْحَسْبَلَةُ فِي الْآخِرِ ، كُلُّ ذَلِكَ بِحَطِّهِ ، وَيُشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهِ مَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ كُتَّابِ الْحُكْمِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا فِي سَائِرِ الْإِسْبَاجَاتِ الْحُكْمِيَّةِ .

## الـصـنـف الثالث

( الكُتُبُ إلى التَّوَابِ وما في معناها )

وَأَعْلَمُ أَنَّ الكُتُبَ الَّتِي تُكْتَبُ عَنِ القُضَاةِ أَلْفَاظُهَا مُرْسَلَةٌ ، لِاجْتِنَاحِ فِيهَا إِلَى فَنِّ  
البَلَاغَةِ وَالسَّجْعِ إِلَّا فِي القَلِيلِ النَّادِرِ .

وهذه نسخةُ كِتَابِ كُتِبَ بِهِ عَنْ قَاضِي القُضَاةِ نَحْرَ الدِّينِ الشَّافِعِيِّ ، إِلَى الحُكَّامِ  
بالمملكة ، وهو :

أدام الله فضائل الجنَّاتِ العَالِيَةِ والمجالسِ العَالِيَةِ ، وجعلهم قَادَةً يُقْتَدَى بِهِمْ  
فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ ، وَوِ  
الأَحْتِفَالِ مِنْ بَعْنَى بِأَمْرِهِ وَيُحْتَفَلُ ، وَلا سِيَّما  
مَنْ سَارَتْ طَرِيقُهُ فَضْلُهُ المَثَلِيَّ فِي الآفَاقِ سَيْرَ المَثَلِ ، وَلا زَالَ عَرَفَ مَعْرُوفَهُمْ عَلَى  
ذَوِي الفضائلِ يَفُوحُ ، وَجِيَادِ جُودِهِمْ تَعْدُو فِي مِيدَانِ الإِحْسَانِ وَتَرْوَحُ ، وَنَيْلُ نَيْلِهِمْ  
يَسِيرُ إِلَى القُضَاةِ فَيُحْمَدُ سِرَّاهُ عِنْدَ الغُبُوقِ كَمَا يُحْمَدُ سِرَّاهُ عِنْدَ الصُّبُوحِ .

هذه المكتوبةُ إِلَيْهِمْ تَقْرِيرُهُمْ سَلامًا أَلْطَفَ مِنَ النَّسِيمِ ، وَتَهْنِئَةً إِلَيْهِمْ شَاءَ مِرْاجِ  
كاتبِهِ مِنْ تَسْنِيمِ ، وَتَهْنِئَةً لِعُلُومِهِمُ الكَرِيمَةَ أَنَّ الجَنَابَ الكَرِيمَ ، العَالِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ،  
الإِمَامِيَّ ، الفَاضِلِيَّ ، البَارِعِيَّ ، الأَوْحَدِيَّ ، الأَكْمَلِيَّ ، البَلِيغِيَّ ، المَقْدِمِيَّ ، الخَطِيبِيَّ ،  
البَهَائِيَّ ، أَوْحَدَ الفضلاءِ ، نَحْرَ العُلَمَاءِ ، زَيْنَ الخُطَبَاءِ ، قِبْلَةَ الأَدْبَاءِ ، قُدُوةَ البُلَّغَاءِ ،  
صَفْوَةَ المُلُوكِ وَالسُّلْطَانِ ، خَطِيبَ المُرِصِلِ - أدام الله المَسْرَةَ بِهِ ، وَوَصَلَ الخَيْرَ  
بَسْبِهِ ، وَنَفَعَ بِنِعَائِهِ فَضْلَهُ وَأَدَبَهُ - وَرَدَّ عَلَيْنَا بِطَرَابُؤَسِ المَحْرُوسَةِ ، فَخَصَلَتِ المَسْرَةُ  
بِذَلِكَ الوُرُودِ ، وَتَجَدَّدَ بِخِدْمَتِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَثِيقِ العُهُودِ ، وَأَبْدَى لَنَا مِنْ نَظَرِهِ الفَائِيقِ  
الرِّفِيقِ ، وَإِنْشَائِهِ المَغْنِيَّ عَنِ تَسْوَةِ الرِّجِيقِ ، وَكِتَابَتِهِ الَّتِي هِيَ السَّحْرُ الحَلَالُ عَلَى

التحقيق ؛ ما تزه الأَبصارَ وشَنَفَ الأسماعَ ، وقَطَعَ من فُرسانِ الأَدبِ أسبابَ  
الأَطاع ؛ فأزالَ عن القلبِ الكَيْبِ فِكراً ، وأَحْجَلَ من الرُّوضِ الأَنِيقِ زَهراً ،  
وأَمَحَلَ من المِسكِ السَّحِيقِ عَطْراً ؛ وَكَيْفَ لا ؟ وهو النَّفِيسُ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ قَدِيمُ  
الأَدبِ وَحَدِيثُهُ ، والجَلِيسُ الَّذِي لا يُسَامُ كَلَامُهُ ولا يُمَدُّ حَدِيثُهُ ؛ يالهُ أَيْباً لَيْسَ فِيهَا  
يُسَيْدِيهِ مِنَ الأَدبِ تَحْرِيفٌ ولا غَلَطٌ ، وفاضِلاً لو لم يَكُنْ بَحْرًا لَمَا كانَ الدُّرُّ مِنْ فِيهِ  
يُلْتَقَطُ ؛ يَمِينُهُ وَفِطْنَتُهُ الكَرِيمَتَانِ ذَوَاتَا أَفنانِ ، فَهَذِهِ إِنْ رَقَمْتَ طَرَسًا فُرُوحَ وَرِيحانِ ،  
أَوْ بَدَلْتَ بِرَأْفَعِيانِ تَجْرِيانِ ؛ وَهَذِهِ إِنْ نَظَمْتَ شِعْرًا فَيَاقُوتَ وَمَرْجانِ ، أَوْ نَثَرْتَ  
تَبْرًا فَنَمِينِ الدُّرِّ أَلوانِ ؛ ما بَرِحَ الفَضلاءُ إِلى لِقائِهِ يُسارِعُونَ ، وَحَقٌّ لِمَ أَنْ يُسارِعُوا  
وَمِنْ أَبوابِ مَعروفِهِ يَتَقَيِّسُونَ ؛ وَكَيْفَ لا ؟ وَهُوَ الشَّهابُ السَّاطِعُ ، والجَلِيلُ  
الَّذِي لَمْ تَزَلْ تُسِيرُ إِليه بِالْأَصابعِ ، وَالنَّبِيلُ الَّذِي تَجْرِي لِفراقِهِ مِنْ عُيونِ اللَّيْلِ  
المَدامِعُ ، وَالتَّرْييلُ الَّذِي يُنْشِدُهُ العارِفُ عِنْدَ وداعِهِ :

\* بِعَيْشِكَ خَبَرَنِي مَتَى أَنْتَ راجِعٌ \*

يَعْرِفُ المُحْسِنُ إِحسانَهُ فَيُنْشِرُهُ مِنَ الثَّناءِ لَواءَ ، وَيُجِئُ فِي مَدْحِ صِفاتِهِ  
وَعُموِيَةِ الإِنْشاءِ إِنْ شاءَ ؛ وَيُجِئُ فِي ذَمِّ مَسْتَحِقِّ الذَّمِّ مِنْهُ المِجْءَ ، فَأَكْرَمَ بِهِ مَدْحًا  
وَأَعْظَمَ بِهِ هَجًّا ؛ العُلَماءُ لِحُضُورِهِ يَتَرَقَّبُونَ ، وإِليه يَتَقَرَّبُونَ ؛ وَالْفُضلاءُ بِفَضْلِهِ  
يَعْتَرِفُونَ ، وَمَنْ بَحْرَهُ يَغْتَرِفُونَ ؛ وَالْأُدباءُ إِليه يَسْتَبِقُونَ ، وَمَنْه يَتَقَيِّسُونَ ؛ وَالطُّلَبَةُ  
بِأَذْيالِ فَضْلِهِ يَتَمَسَّكُونَ ، وَبِشَرِّ أَثْنَيْتِهِ يَتَمَسَّكُونَ ؛ وإِخوانُهُ فِي اللَّهِ بِوُجُودِهِ  
يَفْتَحِرُونَ ، وإِلى جُودِهِ يَفْتَقِرُونَ ؛ كُلُّما عَرَضَتْ لَهُمْ حَاجَةٌ تَمَسَّكُوا بِإِثارِهِ ، وَكُلُّما  
عانَدَهُمُ الدَّهْرُ سَأَلُوهُ الإِمْدادَ بِانْصارِهِ ؛ فَيُجودُ فِي خِدمَتِهِمُ بَيانَ بَنانِهِ ، وَيُجودُ  
فِي نُصرتِهِمُ سَيْفَ لِسانِهِ .

ثم من قبل أن نَبْلُغَ منه الوَطْرَ ، ومن دُونِ أن يَكْتَفِيَ منه السَّمْعَ والبَصَرَ ، عَرَفْنَا أنه قَصَدَ التَّوَجُّهَ إلى البلادِ السَّاحِلِيَّةِ ، والأَعْمَالَ الطَّارِأُئِيَّةِ ؛ لِيُثْمِلَ عَلَى أَهْلِهَا من فضائله البَاهِرَةِ البَاسِقَةِ ، وَالْفَاطِظَةِ التي هي كالدَّرَرِ المُتَنَاسِقَةِ ؛ وَيُجَلِّمَ عَرَائِسَ الأفكارِ من أَفكارِهِ ، وَيُجَنِّمَ عَرَائِسَ الأَثْمَارِ من أَشْجَارِ عِلْمِهِ ، وَيُرِيهِمُ البَيْدِيَّةَ البَدِيْعَةَ ، والقَوَائِي المَحْبِيَّةَ المُطِيعَةَ .

فَلْيَتَقَدَّمِ الجَمَاعَةُ - أَيَدِهِمُ اللهُ تَعَالَى - بِإِكْرَامِهِ الأَهْلَ والأَصْحَابَ ، وَتَلَقِّيهِ بالبِشْرِ وَالطَّلَاقَةِ وَالتَّرْحَابِ ؛ وَإِحْلَالِهِ مِنَ الإِحْسَانِ مَحَلًّا سَامِيًّا ، وَإِنزَالِهِ مِنَ الإِفْضَالِ مَنزِلًا عَالِيًّا ؛ وَالأَعْتِنَاءِ الوَافِرِ بِأَمْرِهِ ، وَاسْتِجْلَابِ بَثِّ حَمِيدِهِ وَشُكْرِهِ ؛ وَالتَّنْقِاطِ دُرَرِ قَوَائِدِهِ ، وَاكتِسَابِ غُرَرِ فَرَائِدِهِ ؛ وَالإِصْغَاءِ إِلَى المُنْتَوِرِ وَالمُنظُومِ مِنَ أقوالِهِ ، وَالتَّعَجُّبِ مِنَ حُسْنِ بَدَاهَتِهِ وَسُرْعَةِ آرْتِجَالِهِ .

وَلْيُحْتَفَلْ كُلَّ يَوْمٍ بِخِدْمَتِهِ غَايَةَ الإِحْتِفَالِ ، وَيُعْتَنَ بِأَمْرِهِ أَعْتِنَاءً لَا يُسَارِكُهُ تَقْصِيرٌ وَلَا إِهْمَالٌ ؛ وَيُرْعَ لَهُ حَقُّ الضَّيْفِ الجَلِيلِ ، وَالقَادِمِ الَّذِي إِذَا رَحَلَ عَن بَلَدِهِ أَبْقَى لَهُ بِهَا الذِّكْرَ الجَمِيلَ ؛ وَيُسَاعَدُ عَلَى مَا تَوَجَّهَ بِصَدَدِهِ كُلَّ سَاعَةٍ يَعُودُ نَفْعُهَا عَلَيْهِ ، وَيُنْفِقُ مِمَّا آتَاهُ اللهُ وَيُحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ .

وَنَحْنُ نُؤَكِّدُ عَلَى الجَمَاعَةِ - أَيَدِهِمُ اللهُ - فِي ذَلِكَ كُلِّ التَّأَكِيدِ ، وَنُبَالِغُ فِيهِ مُبَالِغَةً مَا عَلَيْهَا مِنْ مَزِيدٍ ؛ وَنُحَذِّرُهُمُ مِنَ الإِهْمَالِ وَالتَّسْوِيفِ وَالتَّقْصِيرِ ، وَمِنْ مُقَابَلَةِ جَنَابِهِ الكَرِيمِ بِالتَّزْرِ الحَقِيرِ وَالقَدْرِ البِيسِرِ ؛ فَإِكْرَامُ هَذَا الرَّجُلِ لَيْسَ كإِكْرَامِ مَنْ لَمْ يَسِرْ بِسِيرِهِ ، وَمَا هُوَ إِلَّا لِعَلْمِهِ وَفَضْلِهِ وَخَيْرِهِ ، وَقَدْ قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « وَلَيْسَ مِنْ يُكْرَمُ لِنَفْسِهِ كَالَّذِي يُكْرَمُ لغيرِهِ » .

فَلتُعْظَمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ وَتُنزِلُوهُ مَنزِلَةَ تَلِيْقِ أَهْلِ الفَضْلِ وَالإِفْضَالِ ، وَتَرَفَعُوا لَهُ المِقْسَامَ وَتَحْمُضُوا لَهُ المَقَالَ ؛ لِيَعُودَ مُحَقِّقُ الآمَالِ مُبْلِغُ المَقَاصِدِ ، نَاشِرًا أَلْوِيَّةَ التَّنَائِي

والمحامد ، مشمولاً بجيمل الصلّة والعائِد ؛ ونحن منتظرون ما يردُّ عنه من مكاتباته  
الكريمة بما وصل إليه من ... .. الحسنة .<sup>(١)</sup>

وفي هممهم العلية ، ومكارمهم السنية ، ما يُغني عن التأكيد بسببه والوصية ؛  
والله تعالى يُديم عليهم سايغ الإفضال والإنعام ، ويُجمل بوجودهم وجودهم الأحكام  
والحكام ؛ بمنه وكرمه .

### الصنف الرابع

( ما يُكتب في آفتاحات الكُتب )

فمن ذلك ما يُكتب في أوائل كُتب الأوقاف .

وهذه نسخة خطبة في آبتداء كتاب وقف على مسجد ، وهي :

الحمد لله جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنه لا يُخلف الميعاد ، وناصِر الدين المحمديّ  
بنينا صلى الله عليه وسلم وعلى آله الكرام الأجداد ، ومُشرف هذه الأمة بالأئمة والجمعة  
والجماعات من أهل الرّشاد ، وجاعل من ارتضاه من أرباب سُنّة نبيّه المختار من  
عباده العباد ، وميسر القرباب إليه لأهل السّداد ، ومريد الأعمال الصالحات  
ممن أخلصه بالطاعات ومزِيد الإرفاد ، ومفضّل الأوقاف على أفضل وجوه البرّ  
من جعله لغير أهلا بالنفع المتعدّي وكثرة الأمداد ، ومُعظم الأجر لمن بنى بيتاً لله  
ذنية خلية من الرّياء والعناد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ بَنَى  
مَسْجِداً لله ولو كَفَصِصَ قِطَاةً بَنَى اللهُ تعالى له به قَصْراً في الجنّة" ونرجو من كرم الله  
الأزدياد .

(١) بياض بالأصل ولعله : من المنازل الحسنة الخ أو ما أشبهه .

أحمدُه على مَوَادِّ نِعْمِهِ التي جَلَّتْ عن التَّعْدَادِ ، وأشكُرُه شُكْرًا وافيًا وإفْرًا نجعلُه  
ذَخِيرَةً ليومِ التَّنَادِ ، وأسْتَمِدُّ من اللُّطِيفِ لَوَازِمَ الفَضْلِ الخَفِيِّ وهو الكَرِيمُ الجَوَادُ ،  
وأشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له وأنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولُه الخَلِيمُ الحَلِيمُ على  
حَوْضِهِ الوُرَادِ ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ ما أَصْبَغِي إلى الذِّكْرِ وأُجِيبَ كُلَّ دَاعٍ  
من حَاضِرٍ أو بَادٍ .

وبعدُ ، فلمَّا كانتِ المَثُوبَاتُ مَضمُونَةً الأَجْرِ عندَ الكَرِيمِ ، والأَعْمَالُ مَتَعَدَّةٌ  
في التَّقْدِيمِ ، وكانَ بُيَانُ المَسَاجِدِ وإفْرًا أَجْرًا ، لمن أقامَ بِواجِبِ تَيَانِ الظَّنِّ الجَمِيلِ  
وسَدَّدَ إلى الخَيْرَاتِ سَيْرًا ، وقد قالَ تعالى : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِى فَيُظَنَّ  
بِى خَيْرًا » . ورَأَى العُقْلَاءُ أَنَّ الأَوْقَافَ على المَسَاجِدِ والجَوَامِعِ من أَنفُسِ قَوَاعِدِ  
الدِّينِ وأَعْلَى - فَلَذَلِكَ قِيلَ في هَذَا الإِسْتِجَالِ المُبَارَكِ :

هَذَا مَا وَقَفَهُ وَحَبَسَهُ ، وَسَبَّلَهُ وَأَبَدَهُ فَلَانَ . وَقَفَ وَحَبَسَ رَغْبَةً في مَزِيدِ الثَّوَابِ ،  
وَرَجَاءً في تَهَوُّنِ تَهْوِيلِ يَوْمِ الحِسابِ ، وَأَعْتِنَا مَا لِلأَجْرِ الجَزِيلِ مِنَ الكَرِيمِ الوَهَّابِ ؛  
لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى في الآيَاتِ المَبْرُورَةِ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ  
أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ . وَقَفَ بِبَيْتِهِ خَالِصَهُ ، وَعَزِيمَتِهِ صَالِحَهُ ، وَنِيَّةَ صَادِقَتِهِ ؛ مَا هُوَ لَهُ  
وَفِي مِلْكِهِ ، وَحَوْزِهِ وَيدِهِ وَتَصَرُّفِهِ ، من غيرِ مُنَاطِرٍ لَهُ في ذَلِكَ ولا شَرِيكَ ،  
(ثم يَذْكُرُ الوَقْفَ) .

## الفصل السادس

### في العمرات التي تكتب للحاج

وهذه نسخة عُمرة أعتمرها أبو بكر بن محمد الأنصاري الخزرجي ، عند مجاورته بمكة المشرفة في سنة سبع ، وسنة ثمان ، وسنة تسع ، وسنة عشر وسبعائة ، للسلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» ، وهي :

الحمد لله الذي جعل البيت مثابة للناس وأمنا ، وأمن من فيه بالتقائم بأمر الله ومن هو للإسلام والمسلمين خير ناصر ، وجعله بيكة مباركا ، ووضع الإصر بمن كثرت منه ومن سلفه الكريم على الطائفين والعاكفين الأواصر ، وعقد لواء الملك بخير ملك وهو واحد في الجود ألف في الوغى : ففي حالته تُعقد عليه الخناصر ، وأطاب المقام في حرم الله تعالى وحرم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن يستحق السلطنة بذاته الشريفة وشرف العناصر ، وسهل الطريق ، إلى حج بيته العتيق ، من المشارق والمغرب في دولة من أجمعت القلوب على محبته وورث الملك كابرًا عن كابر ، وأطلق الألسنة بالدعاء له من كل وإيد إلى بيته الحرام على اختلاف لغاتهم وأهترت لوصف مناقبه المتأير .

أحمد على ما بلغ من جزيل إنعامه ، وأشكره شكرًا استريد به من فضله ونواله وإكرامه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الدخيرة لصاحبها يوم لقائه وعند قيامه ، وأقولها خالصًا مخلصًا وياقوز من كانت آخر كلامه ؛ وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أشرف مبعوث إلى الحق دعي بغناء بأشرف مله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « عُمرة في رمضان تعدل حجة » صلى الله عليه وعلى جميع آله وأصحابه

خُصُوصاً عَلَى خَلِيفَتِهِ فِي أُمَّتِهِ الْمُخْصُوصِ بِالسَّبْقِ وَالْمُؤَازَرَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، مَوْلَانَا  
أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؛ وَعَلَى مُظْهِرِ الْأَذَانِ وَمُصَدِّقِ الْخِطَابِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ  
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ وَعَلَى مَنْ جَمَعَ عَلَى الْأُمَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ  
عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؛ وَعَلَى ابْنِ عَمَّةٍ ، وَارِثِ عِلْمِهِ ؛ الْجَامِعِ لِجَمِيعِ الْمَثَرِ وَالْمَنَاقِبِ ،  
مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَعَلَى بَقِيَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، سَادَاتِ  
الدُّنْيَا وَمُلُوكِ الْآخِرَةِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الْمَلِكِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَانْخَبِرْ بِيَدِهِ يُفِيضُهُ  
عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِبَادِهِ خَيْرًا نَصَرَ نَاصِرَهُمْ وَرَفَعَ  
عَنْهُمْ الْعَلَا ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ الْعِدَا ، وَوَلَّى عَلَيْهِمْ خَيْرَهُمْ ؛ فَيُقِيمُهُ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ  
لِلنَّاسِ ، لِيُذْهِبَ عَنْهُمْ الضَّرَرَ وَيُزِيلَ عَنْهُمْ الْبَاسَ ؛ وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ  
الْمُنْكَرِ ، وَيُنْصِفَ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ وَيُقِيمَ مَنَارَ الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ .

وَمَا كَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعْظَمُ ؛ الْمَلِكُ النَّاصِرُ - خَلَدَ اللَّهُ  
سُلْطَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِي الْحَتِّدِ بَيْنَ طَارِفٍ وَتَالِدٍ ، وَوَرِثَ الْمَلِكُ عَنْ أَشْرَفِ أَيْحٍ وَأَعْظَمِ  
وَالِدٍ ؛ وَقَامَتْ عَلَى أَسْتِحْقَاقِهِ لِسُلْطَنَةِ الدَّلَائِلِ ، وَاللَّفْهِ سِرِّرُ الْمَلِكِ وَعَرَفَ فِيهِ مَنْ  
وَالِدِهِ وَمَنْ أَحْيَاهُ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - الشَّمَائِلُ ؛ فَهُوَ الْمَالِكُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ الْمَلِكُ بِهِ  
أَهْلًا وَلَمْ يَزَلْ لَهُ أَهْلًا ، وَالسَّيِّدُ الَّذِي لَيْسَ حُلَّةَ الْفَخَّارِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فِي السُّؤْدُودِ وَالْفَخَّارِ  
مِثْلًا ، وَالْمَلِكُ الَّذِي مَا بَدَأَ لِرَأْيِهِ إِلَّا قَيْلٌ : بَحْرٌ طَمَعِيٌّ أَوْ بَدْرٌ تَجَلَّى ؛ وَالْمُؤَيَّدُ الَّذِي  
خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِعُلُوِّ شَأْنِهِ وَأَرْتِقَانِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ مَرَاقِدَ الْفَرَاقِدِ لِعَلْيَانِهِ ؛ وَالكَرِيمُ الَّذِي  
سَادَ الْأَوَائِلَ وَالْآوَائِرَ ، وَأَضْفَيْتَ عَلَيْهِ حُلَّ الْمَفَاحِرِ ؛ وَالْمَنْصُورُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلَى  
الْأَعْدَاءِ قُوَّةً وَنَصْرًا ، وَالنَّاصِرُ الَّذِي أَسْعَى بِجَالٍ نَصْرَهُ فَأَخَذَ الْكُفَّارَ حَصْرًا ، وَحَكَمَتْ  
سُيُوفُهُ الْقَوَاضِبُ فَوَضَعَتْ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ إِصْرًا ؛ قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعِزِّ وَالنَّصْرِ كَرَّةً



بعد كرهه، وفضله على سائر ملوك الإسلام بالحجّ وزيارته النبي صلى الله عليه وسلم  
 مرة بعد مرة، ومرة أخرى إن شاء الله تعالى ومرة ومرة!!! كم سلك سنن  
 وأبديه وأخيه - رحمهما الله تعالى - بالغزاة فكان له كل مشهد مذكور، وعرف  
 تقدّمه وإقدامه فكان أعظم ناصر وأشرف منصور، يحمده الله تعالى والناس عن  
 جميل ذبه عن الإسلام وحميد فعله، وأستقلّ الجزيل فينبيل الجميل لمن أمّ أبوابه  
 الشريفة فلا يستكثر هذا من مثله، ما حملت آياته الشريفة كتيبة إلا نصرت،  
 ولا وقف بوجهه الكريم في دفع طائفة الكفر إلا كسرت، ولا جهز عساكره  
 المنصورة إلى قلعة إلا نزل أهلها من صياصيمهم، ولا حاصروا نغرا للكفار إلا أخذوا  
 بنواصيمهم، ولا سير سريّة لمواجهه محارب إلا ذلّ على رغبه، ولا نطق لسان الحمد  
 للجاهد أو سار الشاهد إلا وقف الحمد على قوله وأسمه، فاختره الله تعالى على علم على  
 العالمين، وأجتهه للدبّ عن الإسلام والمسلمين، وجعله لسؤنانه وأرثاء، وفي الملك  
 ما كفا، ولقمرين ثالثا، ولأموره سدّادا، ولثغور بلاد الإسلام سدّادا، وقوّض إليه  
 القيام بمصالح الإسلام، والنظر في مصالح الخاصّ والعام، وعدق به أمور الممالك  
 والأملاك، وأطلع بسعادته أئمن البروج في أثبت الأفلاك، وحمى الإسلام  
 والمسلمين من كلّ جانب شرقا وغربا، وملا بمهاتيه البلاد والعباد رعبا وحبّا،  
 وبسط في البسيطة حكمه وعدله، ونشر على الخلائق حلمه وفضله، وفرض طاعته  
 على جميع الأمم، وجعله سيّدا لملوك العرب والعجم، وأمن بمهاتيه كلّ حاضِر وبأد،  
 ونوم سُكّان الحرمين الشريفين من كنفه في أوطن مهاده، وسكّن خواطر المجاورين  
 من جميع المخاوف، وصان بالمقام في مكة الطائف والعا كيف، قد حسن مع الله  
 تعالى سيرة وسيرا، ودلّت أيامه الشريفة أنه خير ملك أراد الله تعالى برعيته خيرا،  
 وراعى الله فيما رعى، وسعى في مصالح الإسلام عاليا أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

قد ملأ أعين الرعايا بالطمأنينة والمُجوع، وأمنهم في أيامه الشريفة بالرخاء من الخوف والجوع؛ وجمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة، وسهل لهم الدخول إلى بيته الحرام براً وبحراً، وفتح الله تعالى على يديه - خلد الله تعالى سلطانه - جميع الأمصار، وملاً من مهاتته جميع الأقطار :

فسارت مسير الشمس في كل بلدة \* وهبت هبوب الريح في القرب والبعد!

فوجب على العالمين أن يدعوا لدولته الشريفة المباركة بطول البقاء، و[دوام] العلو والارتقاء؛ ووجب على كل من الواصلين إلى بيته الحرام وحضرة قدسه، أن يتהל بالدعاء له قبل أن يدعو لنفسه؛ فكيف من هو مملوكه وابن مملوكه ووارث عبوديته، ومن لم يزل هو ووالده وإخوته في صدقات والده الشهيد - رحمه الله تعالى - وعميم نعمته العبد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر بن محمد بن المكرم الأنصاري الخزرجي، فإنه لم يزل مدة أيامه مبتهلاً بصالح دعواته، متوسلاً إلى الله تعالى بدوام نصره وطول حياته؛ طائفاً عند مقامه الشريف حول بيته الحرام، والمشاعر العظام .

وأحب أن يُخففه بأشرف العبادة فلم يجد أجلاً مقداراً ولا أعظم أجراً، من عمرة يعمرها عنه ويهدي ثوابها لصحائفه الشريفة ويزيد بذلك نحرًا؛ فقام عنه بعمرتين شريفتين أعتمرهما عنه في رمضان، مكنتين بإحراميهما وتلييتيهما، وطوافيهما وسعيهما؛ يتقرب بذلك إلى أبوابه الشريفة، ويسأل الله تعالى ويسأل صدقاته الشريفة أن ينعم عليه بنصف معلوم صدقة عليه، وينصفه لأولاده: ليقضى بقية عمره في الثلاثة المساجد، ويخصه بجزيل الدعاء من كل راع وساجد؛ وأن يكون ذلك مستمراً عليه مدة حياته، وعلى ذريته ونسله وعقبه بعد وقاته؛ لتشمل صدقات مولانا السلطان - خلد الله تعالى ملكه - الأحياء والأموات، ويطيب لغلمانته

في أيامه الشريفة الممات ؛ جعل الله تعالى مولانا السلطان وارث الأعمار ،  
وأجرى بدوام أيامه الشريفة المقدر ؛ وجعل كلمة الملك باقية في عقبه ، وبلغه  
من النصر والظفر والأجر غاية أريه ؛ وجعل أيامه كلها مساراً وبسائر ، ودولته تسرُّ  
النواظر ، وسعادته ليس لها آخر ؛ ويهنئه بما قد آتمه الله له من ملك والده الشهيد  
رحمه الله تعالى :

[ أهنيك ] بالملك يا خير من \* أجاز البرايا ومن مآرها ،  
ومن ليس للأرض ملك سواه \* تميل له الخلق أبصارها !  
وأنت الذي تملك الخافقين \* وإعصارها ،  
وتملك سبب تكفورها \* وتركب بالجيش أوعارها ،  
وتحكم في المرء حكم الملوك \* وتشد في التخت أشعارها ،  
وتفتح بغداد دار السلام \* وتنبئ بملكك أكرارها ،  
وتأخذ بالعسكر الناصري \* فصور الخلافة أوتارها ،  
ويأمن في ذلك العالمون \* وتبجي الأسود وأوكارها ،  
وتبقى إلى أن تعم البلاد \* بنعمي نتابع إذرارها ،  
ويبلغ ملكك أقصى البلاد \* وتجرى العباد وأوطارها ،  
وينظم سيرتك الناظمون \* وتعي مغازيك سمارها ،

[ والله يقيه <sup>(١)</sup> ] بعدها دائماً ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين ، كما سماه والده  
ناصر الدنيا والدين ؛ إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) بياض الأصول والتصحيح من المقام .

## الباب الثاني

من المقالة العاشرة في الهزليات<sup>(١)</sup>

أعلم أنه ربما أعنت الملوك ببعضه، فاقترحت على كتابها إنشاء شيء من الأمور الهزلية، فيحتاجون إلى الإتيان بها على وفق غرض ذلك الملك. كما وقع لمعين الدولة ابن بويه الديلمي في اقتراحه على أبي إسحق الصائبي كتابة عهد بالتطفل، لرجل كان عنده اسمه عليكا، ينسب إلى التطفل، ويسخر منه السلطان بسبب ذلك.

وهذه نسخة عهد بالتطفل، التي أنشأها أبو إسحق الصائبي لعليك المدكور:

هذا ما عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا إلى علي بن عرس الموصلي، حين استخلفه على إحياء سنه، وأستنابه في حفظ رؤسومه؛ من التطفل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأنفائها، ويحجى معها في سوادها وأطرافها؛ لما توتمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم؛ وراه أهلا له من سد مكانه، والرفاهة المهمة التي فطن لها، والرفاعة المطرحة التي أهدت إلىها، والنعم العائدة على لا بسياها بملاذ الطعوم، وخصب الجسوم؛ وردا على من آسعت حاله، وأقدره الله على غرائب الماكولات، وأظفره ببدايع الطيبات؛ أخذا من ذلك كله بنصيب الشريك المناصف، وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض؛ ومستعملا للدخل اللطيف عليه، والمتوج العجيب إليه؛ والأسباب التي ستشرح في مواضعها من أوامر هذا الكتاب، وتستوفى الدلالة على ما فيها من رشاد وصواب؛ وبالله التوفيق وعليه التعويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) ذكر المؤلف في بيان محتويات الكتاب في الجزء الأول (ص ٣٢) أن الباب الثاني في الهزليات يشتمل على فصلين: الفصل الأول فيما أعنت الملوك ببعضه. الفصل الثاني في سائر أنواع الهزل، ولكنه لم يذكرها الفصل الثاني، فليتبه.

أمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز، والحريز الحريز، والركن المنيع، والطود  
الرفيع، والعصمة الكائنه، والحنة الواقية، والزاد النافع يوم المعاد، وحيث الأمثلة  
من الأزواد، وأن يستشعر خيفته في سره وجهه، ويراقبه في قوله وفعله، ويجعل  
رضاه مطلبه، وثوابه مكسبه، والقربة منه أربه، والزاني لديه غرضه، ولا يخالفه  
في مسعاة قدم، ولا يتعزز عنده لعاقبة ندم، ولا يقيد على ما كرهه وأنكره،  
ولا يتقاعس عما أحب وأمر.

وأمره أن يتأدب بأديه فيما يأتي ويذر، ويقف على حدوده فيما أباح وحظر،  
فإنه إذا كان ذلك هجيراً وديدته، وجرى عليه منهاجه وسننه، تكفل الله له بالنجاح  
والصلاح، وأفضى به إلى الرشاد والفلاح، وأظفره بكل بغيه، وأوصله إلى كل  
مشيه، ولم يخله من الفوز بما يرصد، والحوز بما يقصد، بذاك وعد، وكذلك  
يفعل، وما توفيقنا إلا بالله، ولا مرجعنا إلا إليه.

وأمره أن يتأمل اسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنحاه، ويتصفحه تصفح  
الباحث عن حظه بمحموده، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده، فإن كثيراً من الناس  
قد استقبحه ممن فعله، وكرهه لمن استعمله، ونسبه فيه إلى الشره والنهم، وحمله  
منه على التفه والقرم، فمنهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقاله، ومنهم من سخ  
على ماله، فدافع عنه بأحبياله، وكل الفريقين مذموم، وجميئهما ملوم، لا يتعلقان  
بعذر واضح، ولا يعتربان من لباس فاضح، ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان:  
فهي تتدل إذا كان لها، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنة في المطعم للهاجم  
الآكل، وفي المشرب للوارد الواغل، وهي أحق بالحريه، وأخلق بالحريه، وأحرى  
بالمروء، وأولى بالفتوه، وقد عرفت بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوى التحصيل،

لأنه مُشْتَقٌّ مِنَ الطَّفَلِ وَهُوَ وَقْتُ الْمَسَاءِ ، وَأَوَّلُ الْعِشَاءِ ، فَلَمَّا كَثُرَ اسْتِعْمَالُ فِي صَدْرِ  
النَّهَارِ وَعَجْزُهُ ، وَأَوَّلُهُ وَآخِرُهُ ؛ كَمَا قَبِلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ : قَمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا الْقَمَرُ ،  
وَأَبْنَى بَكْرٍ وَمَعْمَرُ : الْعُمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا عُمَرُ ، وَقَدْ سَبَقَ إِمَامُنَا بَيَانُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى  
هَذَا الْأَمْرِ سَبَقًا أَوْجَبَ لَهُ حُلُودَ الذِّكْرِ ، فَهُوَ بَاقِي بَقَاءِ الدَّهْرِ ، وَمُتَجَدِّدٌ فِي كُلِّ  
عَصْرِ ؛ وَمَا نَعْرِفُ أَحَدًا نَالَ مِنَ الدُّنْيَا حَقًّا مِنْ حُظُوظِهَا فَبَقِيَ لَهُ مِنْهُ أَثَرٌ يَخْلِفُهُ ،  
وَصِيَّتٌ يَسْتَبْدِ بِهَ إِلَّا هُوَ وَحَدَهُ ، فَبَيَانُ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ بِتَطْفِيلِهِ كَمَا تُذَكِّرُ  
الْمُلُوكُ بِسِيرَتِهَا ، فَمَنْ بَلَغَ إِلَى نِهَائِهِ ، أَوْ جَرَى إِلَى غَايَتِهِ ؛ سَعِدَ بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ  
فِي يَوْمِهِ ، وَتَبَاهَى ذِكْرَهُ فِي غَدِهِ ؛ جَعَلْنَا اللَّهُ جَمِيعًا مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى مَدَاهِ ، وَالْمَذْكُورِينَ  
كَذِكْرَاهِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَعْتَمِدَ مَوَائِدَ الْكِبَرَاءِ وَالْعُظَمَاءِ بِغَزَايَاهُ ، وَمُسْمَطِ الْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَءِ بِسَرَايَاهُ ؛  
فَإِنَّهُ يَطْفَرُ مِنْهَا بِالْغَنِيمَةِ الْبَارِدَةِ ، وَيَصِلُ عَلَيْهَا إِلَى الْغَرِيبَةِ النَّادِرَةِ ؛ وَإِذَا اسْتَقْرَاهَا  
وَجَدَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَلْوَانِ ، الْمِلْدَةِ لِلْسَانَ ، وَبَدَائِعِ الطُّعُومِ ، السَّائِغَةِ فِي الْحُلُقُومِ ؛  
مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا لَدَيْهِمْ ؛ لِحَذِقِ صِنَاعَتِهِمْ ، وَجُودَةِ أَدْوَانِهِمْ ،  
وَأَنْزِيَاكِ عِلْمِهِمْ ، وَكَثْرَةِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ؛ وَاللَّهُ يُوفِّرُ مِنْ ذَلِكَ حَظَّنَا ، وَيُسَدِّدُ نَحْوَهُ لِحَظَّنَا ؛  
وَيُوضِّحُ عَلَيْهِ دَلِيلَنَا ، وَيُسَهِّلُ إِلَيْهِ سَبِيلَنَا .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يَعْضُرُ لِمُوسِرِي التُّجَّارِ ، وَمُجَهِّزِي الْأَمْصَارِ ؛ مِنْ وَكِيْرَةِ الدَّارِ ،  
وَالْعُرْسِ وَالْإِعْذَارِ ؛ فَإِنَّهُمْ يُوسِّعُونَ عَلَى نَفْسِهِمْ فِي النَّوَابِ ، بِحَسَبِ تَضْيِيقِهِمْ عَلَيْهَا  
فِي الرَّأْيِ ؛ وَرُبَّمَا صَبَرُوا عَلَى تَطْفِيلِ الْمُتَطَفِّلِينَ ، وَأَغَضُوا عَلَى تَهْجَمِ الْوَاغِلِينَ ؛  
لِيَتَحَدَّثُوا بِذَلِكَ فِي مَحَافِلِهِمْ الرَّذَلِ ، وَيَعُدُّوهُ فِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمْ النَّذَلِ ؛ وَيَقُولُ قَائِلُهُمْ  
الْبَاحِجُ بِاتِّسَاعِ طَعَامِهِ ، الْمُبَاهِي بِكَثْرَةِ حُطَامِهِ ؛ : إِنِّي كُنْتُ أَرَى الْوُجُوهَ الْغَرِيبَةَ  
فَأَطْعَمَهَا ، وَالْأَيْدِيَ الْمُتَمْتِدَةَ فَاْمَلَوْهَا . وَهَذِهِ طَائِفَةٌ لَمْ تُرَدِّ بِمَا فَعَلْتَهُ الْكَرَمَ وَالسَّعَةَ ،

وإنما أرادت المن والسَّمْعَه ؛ فإذا آهتدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بُغْيَتِه  
من إعلان قضيّتها، وفاز بمُراده من ذخائر حسنتها، إن شاء الله .

وأمره أن يصادق قهّارمة الدور ومدبريها، ويرافق وكلاء المطايخ وحماليها؛ فإنهم  
يملكون من أصحابهم أزيمة مطاعهم ومشاربهم، ويضعونها بحيث يُحبون من أهل  
مودّاتهم ومعارفهم؛ وإذا عدت هذه الطائفة أحدا من الناس خليلا من خلانها،  
وأتخذته آخا من إخوانها؛ سعد بمُرافقتها، ووصل إلى محابه من جهاتها، ومآربه  
في جنّاتها .

وأمره أن يتعهد أسواق المسوّقين، ومواسم المتبايعين؛ فإذا رأى وظيفه قد زيد  
فيها، وأطعمه قد آخذ مُشترىها؛ أتبعها إلى المقصد بها، وشيّعها إلى المنزل  
الحاوي لها؛ وأستعلم ميقات الدعوه، ومن يحضرها من أهل النسيان والمُروه؛  
فإنه لا يخلو فيهم من عارف به يُراعى وقت مصيره إليها ليتبعه، ويكن له ليصحبه  
ويدخل معه؛ وإن خلا من ذلك أختلط بزمر الدّاخلين، وعصب الرّاحلين؛  
فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب، ويخرج من سلطان البوابين والمُجّاب؛ حتى  
يحصل حصولا قَل ما حصل [عليه] أحد قبله. فانصرف عنه إلا ضليعا من الطعام،  
بريقا من المُدّام؛ إن شاء الله .

وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المُغنيّات والمُغنيّين، ومواطن الأبيات(?)  
والمُختئين؛ فإذا أتاه خبر جمع يضمهم، ومأدبة تهمهم؛ ضرب إليها أعناق إبيله،  
وأنضى نحوها مطايا خيله؛ وحمل عليها حملة الحوت الملتقم، والشعبان المتهم؛  
واللّيث الهاصر، والعقاب الكاسر؛ إن شاء الله .

وأمره أن يتجنّب مجامع العوامّ المُقلّين، ومخافل الرّاع المُقترّين؛ وأن لا يتقل  
إليها قدما، ولا يُعقر لما كَلها قسا؛ ولا يلقى في عتب دورها كيساننا، ولا يعدد الرجل

منها إنسانا ؛ فإنها عصابةٌ يجتمع لها ضيقُ النفوس والأحلام ، وقلةُ الأحكام والأموال ؛  
وفي التطفيل عليها إجحافٌ بها يُوسم ، وإزراؤه بمروءة المتطفل يُوصم ؛ والتجنبُ لها  
أحرى ، والأزورار عنها أحجى ؛ إن شاء الله .

وأمره أن يحزِرَ الحوانَ إذا وُضع ، والطعامَ إذا ثَقُل ؛ حتى يُعرفَ بالحدس  
والتقريب ، والبحثِ والتنقيب ؛ عددَ الألوان في الكثرة والقلة ، وأفتنانها في الطيب  
واللذة ؛ فيقدرَ لنفسه أن يشبعَ مع آخرها ، ويتهيأ منها عند آتائها ؛ ولا يفوته  
النصيبُ من كثيرها وقليلها ، ولا يُخطئهُ الحظُّ من دقيقتها وجليلها . ومتى أحسَّ بقلَّة  
الطعام ، وعجزه عن الأقوام ؛ أمعنَ في أوله إمعانَ الكيس في سعته ، الرشيدي أمره ،  
المالي لبطنه ؛ من كلِّ حارٍّ وبارد ، وخبيثٍ وطيب ؛ فإنه إذا فعل ذلك سَلِمَ من  
عواقب الأعمار الذين يكفون تطرفا ، ويقولون تأدبا ؛ ويظنون أن المادة تبلغهم  
في آخر أمرهم ، وتتهيأ بهم إلى غاية سعيمهم ؛ فلا يلبثوا أن يتجملوا تجمل الوائق ؛  
ويتقبلوا بحسرة الخائب ؛ أعاذنا الله من مثل مقامهم ، وعصمنا من شقاء جدودهم ؛  
إن شاء الله .

وأمره أن يروضَ نفسه ، ويُغالطَ حسه ؛ ويضربَ عن كثير مما يلحقه صفحا ،  
ويطوي دونه كشحا ، ويستحسن الصمم عن الفحشا ؛ وإن أتته اللكرة في حلقه ،  
صبر عليها في الوصول إلى حقه ؛ وإن وقعت به الصفعة في رأسه ، صبر عليها لموقع  
أضرابه ؛ وإن لقيه لاقٍ بالخفاء ، قابله باللطف والصفاء ؛ إذ كان قد وُجَّحَ الأبواب ،  
وخالطَ الأسباب ؛ وجلسَ مع الحضور ، وأمتزجَ بالجمهور ؛ فلا بُدَّ أن يلقاه المنكرُ  
لأمره ، ويمرَّ به المستغربُ لوجهه ؛ فإن كان حرا حيا أمساك وتدتم ، وإن كان قظا  
غليظا همهم وتكلم ؛ وتجنبَ عند ذلك الخاشنة ، وأستعمل مع الخاطب له الملاينة ؛  
ليبرد غيظه ، ويفلَّ حده ؛ ويكفَّ غربه ، ويأمنَ شغبه ؛ ثم إذا طال المدئ



تكررت الإلحاط عليه فعرف، وأتست النفوس به فألف؛ ونال من المحال المجتمع عليها، منال من حشم وسئل الذهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلا من العصابة كان ذا فهم ودرأيه، وعقل وحصافة؛ طفلا على وليه، لرجل ذي حال عظيمه؛ فرمته فيها من القوم العيون، وصرفت بهم فيه الظنون؛ فقال له قائل منهم: من تكون أعزك الله؟ فقال: أنا أول من دعي إلى هذا الحق. قيل له: وكيف ذلك ونحن لا نعرفك؟ فقال: إذا رأيت صاحب الدار عرفني وعرفته نفسي. فحى به إليه، فلما رآه بدأه بأن قال له: هل قلت لطباخك: أن يصنع طعامك زائدا على عدد الحاضرين، ومقدار حاجة المدعوين؛ قال: نعم! قال: فإتيا تلك الزيادة لي ولا مثالي، وبها يستظهر لمن جرى مجراي، وهي رزق لنا أنزله الله على يدك وبك، فقال له: كرامة ورحبا، وأهلا وقربا؛ والله لا جلست إلا مع عيبة الناس ووجوه الجلساء، إذ أطرفت في قولك، وتفنتت في فعلك. فليكن ذلك الرجل إماما يقتدى به، ويقتفى طريقه، إن شاء الله .

وأمره بأن يكثر من تعاهد الجوارش من المتفدة للسدد، المقوية للمعد؛ المشبهة للطعام، المسهلة لسبل الأنهضام؛ فإنها عماد أمره وقوامه، وبها أنظامه وأثامه؛ إذ كانت تعين على عمل الدعوتين، وتنهض في اليوم الواحد الأكتين؛ وهو يتناولها كذا كالكتاب الذي يقط أقلامه، والجندى الذي يصقل حسامه؛ والصانع الذي يحدد آتته، والماهر الذي يصلح أدواته، إن شاء الله .

هذا عهد عليكا بن أحمد إليك، وحثته لك وعليك؛ لم يالك فيه إرشادا وتوفيفا، وتهديبا وتثقيفا؛ وبعثا وتبصيرا، وحثا وتذكيرا؛ فكن بأوامره مؤتمرا، وبزواجره مزذرا؛ ورسومه متبعا، وبحفظها مضطعا؛ إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

## الحاتمة

في ذكرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ،  
وفيهما أربعة أبواب

## الباب الأول

في الكلام على البريد ، وفيه فصلان

## الفصل الأول

في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها ، ويتعلق الغرض  
من ذلك بثلاثة أمور

## الأمر الأول

(معرفة معنى لفظ البريد لغةً وأصطلاحاً)

أما معناه لغةً ، فالمراد منه مسافة معلومة مُقدَّرةُ بأثنى عشر ميلاً ، واحتج له  
الجوهري بقول مُزَرَّدٍ يمدح عرابة الأوسى :

فَدَتَكَ عَرَابَ الْيَوْمِ أُمِّي وَخَالَتِي ، وَنَاقِي النَّاحِي إِلَيْكَ بَرِيدُهَا !

يُرِيدُ سَيْرَهَا فِي الْبَرِيدِ . وَقَدْ قَدَّرَهُ الْفُقَهَاءُ وَعُلَمَاءُ الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ بِأَنَّهُ أَرْبَعَةُ  
فَرَاسِخٍ ، وَالْفَرَاسِخُ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ ، وَالْمِيلُ ثَلَاثَةُ أَلْفِ ذِرَاعٍ بِالْهَاشِمِيِّ ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ  
وَعِشْرُونَ أَصْبُعًا ، كُلُّ أَصْبُعٍ سِتُّ شَعِيرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ ، ظَهَرَ إِحْدَاهَا لِبَطْنِ الْأُخْرَى ،  
وَالشَّعِيرَةُ سَبْعُ شَعْرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ مِنْ ذَنْبٍ بَقِيلٍ أَوْ رِذْوَيْنٍ .

قال الجوهري: ويقال أيضا على البريد: المرثب، يقال: حُمل فلانٌ على البريد. قال: ويُطلق أيضًا على الرسولِ بريدٌ.

ثم اختلف فيه فقيل: إنه عربيٌّ. وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مشتقٌ من بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه، وقيل: من أبردته إذا أرسلته. وقيل: من برد إذا تبت، لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار، يقال: «اليوم يوم باردٌ سمومه» أي تابت.

وذهب آخرون إلى أنه فارسيٌّ معربٌ. قال أبو السعادات بن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: وأصله بالفارسية بريد دم، ومعناه مقصود الذنب. وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بغلاً في البريد قصوا ذنبه، ليكون ذلك علامة لكونه من بقال البريد. وأنشد الجوهري لأمرئ القيس: على كل مقصود الذنابي معاود. بريد السرى بالليل من خيل بربراً.

## الأمر الثاني

(أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن)

أما في الجاهلية، فقد ذكر في «التعريف»: أن البريد كان موجوداً في عهد الأكاسرة من ملوك الفرس، والقيصرة ملوك الروم. قال: ولكن لا أعرف هل كان على البريد المحرر أو كانت مقاديره متفاوتة كما هو الآن؟ ثم قال: ولا أظن أنه إلا على القدر المحزر، إذ كانت حكمتهم تأتي إلا ذلك.

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه «الأوائل»: أن أول من وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. قال في «التعريف»:

وذلك حين استقرت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وسلم له ابنه الحسن عليه السلام، وخلا من المنازع، فوضع البريد لتسريع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد. قال: وقيل: إنما فعل ذلك زمن عبد الملك ابن مروان حين خلا وجهه من الخوارج عليه: كعمرو بن سعيد الأشدق، وعبد الله بن الزبير، ومضعب بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد.

والذى ذكره العسكرى: أن عبد الملك إنما أحكمه. وذكر عنه أنه قال لابن الدغيدغة: وليتك ما حضر بابي إلا أربعة: المؤذن، فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه. وطارق الليل، فشر ما أتى به ولو وجد خيرا لنام. والبريد، ففتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة. والطعام إذا أدرك، فأفتح الباب وأرفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول. ثم قال: ويذكر هذا الكلام عن زياد أيضا.

قال في "التعريف": وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهي الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صفح منه حيطان المسجد الجامع بها، ومساجد مكة والمدينة والقدس.

قال: ثم لم يزل البريد قائما، والعمل عليه دائما، حتى أن لبناء الدولة مروانية أن ينتقض، ولحلبها أن يتكث، فأتقطع ما بين نهرسان والعراق، لأنصرف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على ذلك حتى انقرضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وملك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، والبريد لا يسد له سرج، ولا تلجم له دابة. ثم إن المهدي أغزى ابنه هرون الرشيد الروم، وأحب أن لا يزال على علم قريب من خبره، فرتب فيما بينه وبين

مُعَسَّكَرَ ابْنِهِ بُرْدًا كَانَتْ تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ، وَتُرِيهِ مُتَجَدِّدَاتِ أَيَّامِهِ . فَلَمَّا قَفَلَ الرَّشِيدُ قَطَعَ الْمَهْدِيُّ تِلْكَ الْبُرْدَ ، وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا بَاقِي مَدَّتِهِ وَمُدَّةِ خِلاَفَةِ مُوسَى الْهَادِي بَعْدَهُ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلاَفَةُ هُرُونَ الرَّشِيدِ، ذَكَرَ يَوْمًا حُسْنَ صَنِيعِ أَبِيهِ فِي الْبُرْدِ الَّتِي جَعَلَهَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِجْرَاءِ الْبَرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، كَانَ صَلَاحًا لِمَلِكِهِ . فَأَمَرَهُ بِهِ فَقَرَّرَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ، وَرَتَّبَهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَجَعَلَ الْبَغَالَ فِي الْمَرَازِكِ، وَكَانَ لَا يُجَهِّزُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلِيفَةُ أَوْ صَاحِبُ الْخَيْبَرِ، ثُمَّ اسْتَمَرَ عَلَى هَذَا . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأْمُونُ بِلَادَ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبِرْدُونَ وَكَانَ الزَّمَانُ حَرًّا، وَالْفُضْلُ صَيْفًا، قَعَدَ عَلَى النَّهْرِ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِيهِ وَشَرِبَ مَاءَهُ، فَاسْتَعْدَبَهُ وَأَسْتَبْرَدَهُ وَأَسْتَطَابَهُ، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ : مَا أَطِيبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ؟ ، فَقَالَ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْيِهِ . فَقَالَ هُوَ : أَطِيبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ رُطْبُ إِزَازَ، فَقَالُوا لَهُ : يَعِيشُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعِرَاقَ وَيَأْكُلُ مِنْ رُطْبِهَا الْإِزَازَ، فَمَا اسْتَمْتَمُوا كَلَامَهُمْ حَتَّى أَقْبَلَتْ بَغَالُ الْبَرِيدِ تَحْمِلُ أَلْطَافًا فِيهَا رُطْبُ إِزَازَ، فَأَتَى الْمَأْمُونُ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمْعَنَ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ . فَكَثُرَ تَعْجِيبُ الْحَاضِرِينَ مِنْهُ لِسَعَادَتِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى بَلَغَ أَمْنِيَّتَهُ، عَلَى مَا كَانَ يُظُنُّ مِنْ تَعَدُّرِهَا . فَلَمْ يَقُمْ الْمَأْمُونُ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى حُمَّ حَادَّةً كَانَتْ فِيهَا مَيْتَةٌ .

ثم قطع بنو بويه البريد حين علوا على الخلافة وغلبوا عليها، ليخفى على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحياناً قصدتهم بغداد، وكان الخليفة لا يزال يأخذ  
٣٦٩. على بغتة .

ثم جاءت ملوك السلاجقة على هذا، وأهم ملوك الإسلام اختلاف ذات بينهم وتنازعهم، فلم يكن بينهم إلا الرسل على الخيل والبغال، في كل أرض بحسبها .

فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت لذلك النجاة ، وأعدت له التجب المتخبة .  
 ودام ذلك مدة زمانها ثم زمان نبي أيوب إلى انقراض دولتهم . وتبعها على ذلك  
 أوائل الدولة التركية ، حتى صار الملك إلى الملك الظاهر بيبرس رحمه الله ، واجتمع له  
 ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات ، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعين لها نائباً ،  
 ووزيراً ، وقاضياً ، وكتائباً للإنشاء .

قال : وكان عمي الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب  
 الإنشاء ، فلما مثل إليه ليودعه ، أوصاه وصايا كثيرة ، أكدها مواصلته بالأخبار  
 وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج ، وقال له : إن قدرت أن لا تبتني كل ليلة إلا على  
 خير [ ولا تصبحني إلا على خير ] فافعل ، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان  
 الأول وأيام الخلفاء ، وعرضه عليه حسن موقعه منه وأمر به . قال عمي : فكننت أنا  
 المقرر له قدامه وبين يديه . ثم ذكر أنه لم يزل باقياً على ذلك إلى أيامه . ثم قال :  
 وهو جناح الإسلام الذي لا يخص ، وطرف قادمته التي لا تنقص .

قلت : ولم يزل البريد بعد ذلك مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن  
 غشي البلاد الشامية تملكتك صاحب ما وراء النهر ، وفتح دمشق وخرّبها وحرّقها  
 في سنة أربع وثمانمائة ، فكان ذلك سبباً لحصّ جناح البريد وبطلانه من سائر  
 الممالك الشامية . ثم سرى هذا السثم إلى الديار المصرية فألحقها بالهمل ، ورمّاها  
 بعد الختل بالعطل ، فذهبت معالم البريد من مصر والشام ، وعفت آثاره ، وصار إذا  
 عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ،  
 ركب البريد على فرس له ، يسير بها الهويّنا سير المسافر إلى المكان الذي يريد ،  
 ثم يعود على هذه الصورة ، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب .

## الأمير الثالث

( بيان معالم البريد )

إعلم أنه كان فيما تقدم في زمن الخلفاء للبريد شخص مخصوص يتولى أمره بتنفيذ ما يصدر وتلقى ما يرد، يُعبر عنه بـ «صاحب البريد» . ومن تعرض إلى ذكر ذلك أبو جعفر النحاس في كتابه «صناعة الكتاب» في الكلام على أرباب الوظائف، وأشتقاق أسمائهم . وقد أشار إليه الجوهري في صحاحه أيضا فقال : ويقال أبرد صاحب البريد إلى الأمير فهو مُبرِدٌ يعني أرسل إليه البريد .

ثم قد تقدم في مقدمة الكتاب في الكلام على صاحب ديوان الإنشاء وماله التحدث عليه - أن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار . وكان للبريد ألواح من فضة مُخلدة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية، منقوش على وجهي اللوح نقشا مُزدوجا ما صورته : « لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة » . وعلى الوجه الآخر ما صورته : « عز مولانا السلطان الملك الفلاني : فلان الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، فلان ، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلاني فلان ، خلد الله ملكه » . وفي ذلك اللوح ثقب مُعلق به شربة من حرير أصفر ذات بندين ، يجعلها البريدي في عنقه ، بإدخاله رأسه بين البندين ، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه ، والشربة خلفه من فوق ثيابه . فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات ، أعطى لوحا من تلك الألواح ، يُعققه في عنقه ، على ما تقدم ذكره ، ويذهب إلى جهة قصده ، فكل من رأى تلك الشربة خلف ظهره علم أنه بريدي . وبواسطة

ذلك تُدْعَى له أربابُ المراكزِ بتسليم خَيْلِ البريد . ولا يزال كذلك حتى يذهب  
ويعود ، فيعيد ذلك اللوحَ إلى ديوانِ الإنشاء .

وكذلك الحُكْمُ في دواوين الإنشاء بدمشق وحلب وغيرهما من الممالك الشامية ،  
لا يختلف الحُكْمُ في ذلك إلا في الكتابة بحلَّ ضرب اللوح . فإن كان بدمشق  
كُتِبَ : «ضرب بالشام» . وإن كان بحلب كُتِبَ : «ضرب بحلب المحروسة»  
وكذلك باقى الممالك .

## الفصل الثانى

من الباب الأول من الخاتمة فى ذكر مراكز البريد

وهى الأماكن التى تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريديَّة فيها فرساً بعد  
فريس . قال فى «التعريف» : وليست على المقدار المقدر فى البريد المحرر ، بل هى  
متفاوتة الأبعاد ، إذ ألحَّت الضرورة إلى ذلك : تارة لبعد ماء ، وتارة للأيس بقريَّة ،  
حتى إنك لترى فى [ هذه ]<sup>(١)</sup> المراكز البريد الواحد بقدر بريدن . ولو كانت على  
التحرير [ الذى عليه الأعمال ]<sup>(١)</sup> لما كان تفاوت . وقد ذكر منها المقر الشهابى بن  
فضل الله رحمه الله فى «التعريف» ما أربى فى ذلك على المقصود وزاد ، وهو بذلك  
أدرى وأدرب . وهأنا أذكر ما ذكره ، موصحاً لما يحتاج منه إلى التوضيح ، مع  
الزيادة عليه وتقريب الترتيب .

ويشتمل على ستة مقاصد :

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٤) .



## المقصود الأول

( في مَرَكِرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التي هي قَاعِدَةُ الْمَلِكِ ، وما يتفرع عنه من المَرَاكِرِ ، وما تَنَهَى إليه مَرَاكِرُ كُلِّ جِهَةٍ )

إعلم أن الذي يتفرع عن مَرَكِرِ القلعة ويتشعب منه أربع جهات ، وهي : جِهَةُ قُوصٍ من الوجه القبلي وما يتصل بذلك من أسوان وما يليها من بلاد النوبة ، وعِيدَابٍ وما يليها من سواكن . وجِهَةُ الإسكندرية من الوجه البحري . وجِهَةُ دِمياطٍ من الوجه البحري أيضا ، وما يتفرع عنها من جِهَةِ غَزَّةٍ من البلاد الشامية .

فأما مَرَاكِرُ قُوصٍ وما يليها : فن مَرَكِرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة ، ومنها إلى مَدِينَةِ الحَيْرَةِ ، وهي قَاعِدَةُ الأعمال الحيزية ، وقد تقدم الكلام عليها في الكلام على بلاد المملكة في المقالة الثانية . ثم منها إلى زاوية أم حسين ، وهي قرية من عمل الحيزة . قال في "التعريف" : والمركز الآن بمُنيَةِ القَائِدِ وهي على القرب من زاوية أم حسين المذكورة ، ثم منها إلى ونا وهي بلدة من عمل البهنسي ، ثم منها إلى دهرُوط وهي بلدة من عمل البهنسي أيضا . ثم منها إلى أفلوسنا ، وهي بلدة من عمل الأشمونيين . ثم منها إلى مُنيَةِ نَبِيِّ خَصِيبٍ ، وهي مَدِينَةُ من عمل الأشمونيين ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مَدِينَةِ الأشمونيين ، وهي قَاعِدَةُ بِلَادِهَا ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى ذِرْوَةِ سُرْبَامٍ وهي بلدة من عمل الأشمونيين على فم الخليج اليوسفي الواصل من النيل إلى الفيوم ، وتعرف بذرْوَةِ الشريف ، إضافة إلى الشريف ناصر الدين محمد بن تغلب الذي كان عصى بها في زمن الظاهر بيبرس ، وسمت نفسه إلى المَلِكِ حَتَّى كَادَهُ الظاهرُ وقبض عليه وشنقه بالإسكندرية ، وبها

(١) في معجم البلدان لياقوت : قَلُوسَنَا .

دِيَارُهُ وَقُصُورُهُ وَاجْتِمَاعُ الَّذِي أُنْشِأَ بِهَا إِلَى الْآنَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَنَقْلُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْمَنَقْلُوطِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ خَاصِّ السُّلْطَانِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ أُسَيُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْأُسَيُوطِيَّةِ ، وَمَقَرُّ نَائِبِ الْوَجْهِ الْقَبِيلِيِّ الْآنَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طِمَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ أُسَيُوطَ الْمَقْدَمَةِ الذَّكْرُ عَلَى صَفَةِ النَّيْلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَرَاعَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" :  
 وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ الْمَرَاعِيغُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَلْسَبُورَةَ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ أَيْضًا .  
 قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا قِيلَ بَلْسَبُورَةَ بِإِبْدَالِ السَّيْنِ زَايَاً . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَرِحَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنَ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْبُلَيْنَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ ، وَيُقَالُ فِيهَا الْبُلَيْنَا بِإِبْدَالِ الْهَاءِ أَلْفًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى هَوَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ أَيْضًا ، قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَيَلِيهَا الْكُومُ الْأَحْمَرُ ، وَهِيَ مِنْ خَاصِّ السُّلْطَانِ ، وَعِنْدَهُمَا يَنْقَطِعُ الرَّيْفُ فِي الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ ، وَيَكُونُ الرَّمْلُ الْمُتَّصِلُ بِدَنْدَرِيٍّ وَيُسَمَّى خَانَ دَنْدَرِيٍّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ قَاعِدَةَ الْأَعْمَالِ الْقُوصِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ مِنْ قُوصَ تَنْقَطِعُ مَرَاكِرُ الْبَرِيدِ ، وَيَتَشَعَّبُ الطَّرِيقُ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ وَبِلَادِ الثُّوبَةِ ، وَجِهَةِ عَيْدَابَ وَسَوَاكِنَ .

فَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ رَكِبَ الْهُجْنَ مِنْ قُوصَ إِلَى أُسْوَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ الثُّوبَةِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى عَيْدَابَ سَارَ مِنْ قُوصَ إِلَى كِيَانَ قَفْطَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قُوصَ .

قُلْتُ : ثُمَّ يَسِيرُ فِي قَفَارٍ وَجِبَالٍ ، مِنْ كِيَانَ قَفْطَ إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى لَيْطَةَ عَلَى مَرَّحَلَةٍ مِنَ الْكِيَانَ ، بِهِ عَيْنٌ تَتَّبَعُ وَليستُ جَارِيَةً ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى الدَّرِيحَ عَلَى الْقُرْبِ

من معدن الزمرّد ، به عين صغيرة يُسْتَقَى منها من الماء ما شاء الله ، وهي لا تزيد ولا تنقص . ثم منها إلى حميثة حيث قبر سيدي أبي الحسن الشاذلي ، وهناك عين ماء يُسْتَقَى منها . ثم منها إلى عيذاب ، وهي قرية صغيرة على صفة بحر القلزم في الشمال إلى الغرب ، وعلى القرب منها عين يُسْتَقَى منها .

وتقدير جميع المسافة من الكيمان إلى عيذاب نحو عشرة أيام بسير الأثقال . على أنه في "مسالك الأبصار" قد ذكر أن الطريق إلى عيذاب من شعبة على القرب من أسوان ، ثم يسير منها في بلاد عرب يُسمون بنى عامر إلى سواكن ، وهي قرية حاضرة البحر صاحبها من العرب ، وكتب السلطان تنهى إليه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على المكاتب .



وأما الإسكندرية فالمرآة الموصلة بها في طريقين :

الطريق الأولى : الآخذة على الجبل الغربي ويسمى طريق الحاجر . والمسير فيها من مركز القلعة المقدم ذكره إلى مدينة الجيزة . ثم منها إلى جزيرة القط ، وهي قرية من آخر عمل الجيزة من الجهة البحرية . ثم منها إلى وردان ، وهي قرية من عمل البحيرة . [ثم منها إلى الطرائة<sup>(١)</sup>] . ثم منها إلى طيلاس وهي بلدة من عمل البحيرة أيضا وتعرف براوية مبارك . قال في "التعريف" : وأهل تلك البلاد يقولون : أنبارك . ثم منها إلى مدينة دمنهور وتعرف بدمنهور الوحش ، وهي قاعدة أعمال البحيرة ، ومحل مقام نائب السلطنة بالوجه البحري ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى لوقين وهي قرية من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسكندرية .

الطريق الثانية : الآخذة في وسط العمران ، وتعرف بالوسطى .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٩) .

وهي من مركز القلعة إلى مدينة قُيُوب قاعدة الأعمال القُيُوبية ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة منوف العليا ، وهي قاعدة الأعمال المنوفية ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة المحلة المعروفة بالمحلة الكبرى ، وهي قاعدة الأعمال الغربية ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . وقد وهم في " التعريف " فساها محلة المرحوم بلدة من بلاد الغربية غيرها . ثم منها إلى النخيرية ، وهي مدينة من عمل الغربية . ثم منها إلى الإسكندرية .



وأما الطريق إلى دمياط و غزة ، فمن مركز القلعة إلى سرياقوس ، وهي بلدة من ضواحي القاهرة ، وليس المركز في نفس البلد ، بل بالقرية المستجدة بجوار الخانقاه الناصرية التي أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على القرب من سرياقوس . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا بالعش ، وكان طويل المدى في مكان منقطع ، وكانت البريدية لا تزال تتشكى منه ، فصالح بنقله ، وحصل به الرفق لأموال لم يكن منها إلا قربه من الأسواق المجاورة للخانقاه الناصرية وما يوجد فيها ، وأنسه بما حولها [ لكفى ] . ثم منها إلى بئر البيضاء ، وهي مركز بريد منفرد ليس حوله ساكنون . ثم منها إلى مدينة بلبيس قاعدة الأعمال الشرقية ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . قال في " التعريف " : وهي آخر المراكز السلطانية ، وهي التي تُستترى خيائها من الأموال السلطانية ويقام لها السوايس وتصرف لها العلوفا . ثم منها إلى السعيدية . ثم من السعيدية إلى أشموم الرمان قاعدة بلاد الدقهلية والمرتاحية ، وقد تقدم ذكرها في المقالة الثانية . ومنها إلى دمياط ومن أراد غزة . وقد تقدم أن مدينة بلبيس هي آخر المراكز السلطانية . ثم السعيدية وما بعدها

إلى الخروبة تُعرف بالشَّهارة، خَيْلُ الْبَرِيدِ بِهَا مَقْرَرَةٌ عَلَى عُرْبَانِ ذَوِي إِقْطَاعَاتٍ،  
تَلِيهِمْ خَيْوَلٌ مُوَظَّفَةٌ يُحْضَرُ بِهَا أَرْبَابُهَا عِنْدَ هَلَالِ كُلِّ شَهْرٍ إِلَى الْمَرَكَزِ، وَتَسْتَعِيدُهَا  
فِي آخِرِ الشَّهْرِ وَيَأْتِي غَيْرَهَا، وَمِنْ هُنَاكَ سُمِّيَتْ الشَّهَارَةُ . قَالَ فِي "التعريف" :  
وَعَلَيْهِمْ وَآلٌ مِنْ قَبْلِ السُّلْطَانِ يَسْتَعْرِضُ فِي رَأْسِ كُلِّ شَهْرٍ خَيْلَ أَصْحَابِ النَّوْبَةِ  
وَيُدَوِّغُهَا بِالْدَّاعِ السُّلْطَانِي . قَالَ : وَمَا دَامَتْ تَسْتَجِدُّ نَهْيُ قَائِمَةٍ ، وَمَتَى أَكْتَرَى  
أَهْلُ نَوْبَةٍ مِنْ قَبْلِهِمْ فَسَدَّتِ الْمَرَكَزَ ، لِأَنَّ الشَّهْرَ لَا يَهْلُ وَفِي خَيْلِ الْمُنْسَلِخِ قُوَّةٌ ،  
لَا سِيَّمَا وَالْعَرَبُ قَلِيلَةٌ الْعَلْفُ .

وأول هذه المراكز السعيدية المقدم ذكرها ، ثم منها إلى الخطارة ، ثم منها إلى قبر  
الوايلي . قال في "التعريف" : وقد استجد به أبنية وأسواق وبساتين حتى صار  
كأنه قرية . ثم منها إلى الصالحية ، وهي قرية لطيفة . قال في "التعريف" : وهي  
آخر معمور الديار المصرية ، ثم منها إلى بئر عفرى ، وإلى هذا المركز يجلب الماء  
من بئر وراءه . ومنها إلى القصير . قال في "التعريف" : وقد كان كريم الدين ويكل  
الخاص بئى بها خاناً ومسجداً ومئذنة ، وعمل ساقية ، فتهدم ذلك كله ، ولم يوجد له  
من يحدده ، وبقيت المئذنة خاصة ، ورُتَّبَ بِهَا زَيْتٌ لِلتَّنْوِيرِ . قَالَ : وَهَذَا الْقَصِيرُ  
يَقَارِبُ الْمَرْكَزَ الْقَدِيمَ الْمَعْرُوفَ بِالْعَاقُولَةِ الْمُقَارِبَ لِقَنْطَرَةِ الْجَسْرِ الْجَارِي تَحْتَهَا قَوَاضِلُ  
مَاءِ النَّيْلِ أَوْ أَنَّ زِيَادَتَهُ إِذَا نَجَرَ إِلَى الرَّمْلِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حَبْوَةٍ . قَالَ فِي "التعريف" :  
وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ وَلَا بِنَاءٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَوْقِفٌ يَقِفُ بِهِ خَيْلُ الْعَرَبِ الشَّهَارَةَ ، وَيُجْلِبُ  
الْمَاءَ إِلَيْهَا مِنْ بَيْرٍ وَرَاءَهَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْغَرَابِيِّ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَطِيَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ  
صَغِيرَةٌ بِهَا تُؤْخَذُ الْمُرْتَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ مِنَ التُّجَّارِ الْوَارِدِينَ إِلَى مِصْرَ وَالصَّادِرِينَ عَنْهَا ،

(١) الذى فى التعريف : بئر عفرى ، أنظر ص (١٩٠) .

وهناك رمل بالطريق يُحْتَم في الليل ويحفظ ما حوله بالعربان ، حتى لا يمتز أحدٌ  
لَيْلاً . فيكون من القاهرة إلى قَطِيَا آتسَا عَشْرَ بَرِيدًا . ثم منها إلى صَيْحِحَة نُحْلَة  
مَعْن . قال في ” التعريف ” : ومن الناس من يَقْتَصِر على إحدى هذه الكلمات  
في تسميتها . ثم منها إلى الْمُطَيْلِب ، ثم منها إلى السَّوَادَة . قال في ” التعريف ” :  
وقد حُوِّلَتْ عن مكانها فصار المُسَافِرُ لا يحتاج إلى تَعْرِيج إليها . ثم منها إلى الوَرَادَة ،  
قال في ” التعريف ” : وهي قرية صغيرة بها مَسْجِدٌ على قارعة الطريق ، بناه  
الملك الأشرف « خَلِيل » بن المنصور قَلَاوُون تغمده الله برحمته ، حصل به الرِّفْقُ  
بمَيْتِ السَّقَّارَة به . قال : وقد كان نُحْرُ الدِّين كَاتِبُ المَالِك بَنَى إلى جَانِبِهِ خَانًا  
فَبِيعَ بعده . ثم منها إلى بئر القَاضِي . قال في ” التعريف ” : والمدى بينهما بَعِيدٌ  
جِدًّا يَمَلُهُ السَّالِكُ . ومنها إلى العَرِيش . قال في ” التعريف ” : وقد أحسن كَرِيمُ  
الدِّين رحمه الله بَعَمَلِ سَاقِيَةِ سَيِّيلٍ به وبنَاءِ حَافِئِ حَصِيصٍ فيه يَأْوِي إليه من أَبْجَاهِ  
المَسَاءِ ، وينام فيه آمِنًا من طَوَارِقِ الفَرَجِج . ثم منها إلى الخَرْبَة ، وبها سَاقِيَةٌ  
وَحَافِئٌ ، بناهما نُحْرُ الدِّين كَاتِبُ المَالِك ، حصل به من الرِّفْقِ والأَمْنِ ما بالعَرِيش .  
قال في ” التعريف ” : وهذا آخر مراكز العَرَبِ الشَّهَارَة . ثم ممَّا يليها خَيْلُ السلطان  
ذَوَاتُ الإِصْطِبَالِ والخدم تُشْتَرَى بمال السلطان وتُغَلَّفُ منه ، وأولها الرِّعْقَة ،  
ثم منها إلى رَجٍّ ، ثم منها إلى السِّلْقَة . قال في ” التعريف ” : وكان قبل هذا المَرْكَزِ  
بَيْتُ طَرَنْطَاي حيثُ الجُمُيزُ ويسمى سَطْر . قال : وكان في تَقْلِهِ إلى السِّلْقَة  
المُصَلِّحَة . ثم منها إلى الدَّارُوم ، ثم منها إلى غَزَّة . يكون من قَطِيَا إلى غَزَّة  
أحد عشر مَرَّكَزًا .

## المقصد الثاني

(في مراكز غزوة وما يتفرع عنه من البلاد الشامية)

والذي يتفرع عنه مراكز ثلاث جهات، وهي: الكرك، ودمشق، وصفد.

فأما الطريق إلى الكرك: فمن غزوة إلى ملاقس وهو مركز بريد، ثم منها إلى بلد الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصافية، ثم منها إلى الكرك.

وأما مراكز دمشق: فمن غزوة إلى الحنين، وهو مركز بريد، ومنها إلى بيت دارس، والناس يقولون: تدارس، وبها خان بناء ناصر الدين خزندار تنكر. قال في "التعريف": وكان قديماً بياسور، وكان قريب المدى فنقل وكانت المصلحة في نقله، ثم منها إلى قطرى. قال في "التعريف": وهو مركز مستجد كان المشير به طاجار الدوادار الناصري، وبه بئر سبيل وأثار له. قال: وقد حصل به رفق عظيم بعد ما بين [لُدَّ وبيت دارس] أو ياسور، ثم منها إلى لُدَّ، ثم منها إلى العوجاء. قال في "التعريف": وهي زوراء عن الطريق، ولو نُقلت منه لكان أرفق، ثم منها إلى الطيرة. قال في "التعريف": وبها خان كان قد شرع في بناءه ناصر الدين دوادار تنكر ثم كُتِل بيد غيره. ثم منها إلى قاقون، ثم منها إلى حمة [ثم منها إلى جينين]. قال في "التعريف": وهي على صفد، يعنى القيام به، وبه خان لطاجار الدوادار، حسن البناء جليل النفع، ليس على الطريق أخص منه ولا أحصن، ولا أزيد نفعاً منه ولا أزين.

(١) بياض بأصله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١).

ومن أراد دِمَشْقَ وما يليها سَارَ من جِينِينَ إلى ذَرَعِينَ . قال في "التعريف" :  
 ومنها ينزل على عَيْنِ جَالُوتَ ، وهو مَرَكْرُ مُسْتَجِدُّ حصل به أعظم الرِّفْقِ والراحة من  
 العَقَبَةِ التي كان [يُسَلِّكُ<sup>(١)</sup>] عليها بين جِينِينَ وبيسَانَ مع طُولِ المَدَى . ثم منها إلى  
 بَيْسَانَ ، ثم منها إلى المَجَامِعِ . قال في "التعريف" : وهو مَرَكْرُ مُسْتَجِدُّ عِنْدَ جَمِيرِ  
 سَامَةَ ، كنتُ أنا المشيرَ به في سنة إحدى وأربعين وسبعائة ، وحصل به الرِّفْقُ لِبُعْدِ  
 ما كان بين بَيْسَانَ وزحر . قال : وقد كان الطريقُ قَدِيمًا من بَيْسَانَ على طَبِيبَةِ آسَمِ ،  
 ثم إلى أَرَبْدَ ، وكانت غَايَةَ في المَشَقَّةِ ، إذ كان المسافرُ ما بين بَيْسَانَ وطَبِيبَةِ آسَمِ يحتاجُ  
 إلى خَوْضِ الشَّرِيعَةِ ، وبها معدية للفَارِسِ دون الفَرَسِ ، وإنما يعبرُ فيها الفَرَسُ  
 سِبَاحَةً ، وكان في هذا من المَشَقَّةِ ما لا يوصف ، لا سيما أيامُ زيادةِ الشَّرِيعَةِ وكَلْبِ  
 البُرْدِ : لِقَطْعِ المَاءِ ومُعَانَاةِ العِقَابِ التي لا يُسْقِئُهَا جَنَاحُ العُقَابِ . ولكن الأمير  
 الطنبغا كَافِلُ الشَّامِ رحمه الله نقل هذه الطَّرِيقَ وجعلها على القَصِيرِ حيثُ هي اليوم ،  
 ونقل المَرَكْرَ من الطَّبِيبَةِ إلى زحر حِينِ غَرِقَ بعضُ البَرِيدِيَّةِ الجَلْبَلِيِّينَ بالشَّرِيعَةِ . ثم من  
 المَجَامِعِ المذكورة إلى زحر ، ثم منها إلى أَرَبْدَ ، ثم منها إلى طفس ، ثم منها إلى الجامع .  
 قال في "التعريف" : وكان قديمًا في المكان المسمى برأس المَاءِ ، فلما ملكه الأميرُ  
 الكبيرُ تَنَكَّرَ كَافِلُ الشَّامِ رحمه الله نقل المَرَكْرَ منه إلى هذا الجامع ، فقرب به المَدَى  
 فيما بينه وبين طفس ، وكان بعيدًا فما جاء إلا حَسَنًا . ثم منها إلى الصَّنَمِيِّينَ ، ثم منها  
 إلى غَبَاغِبَ ، ثم منها إلى الكُسُوءِ ، ثم منها إلى دِمَشْقَ المحروسة .

وأما الطريق الموصلة إلى صَفَدَ : فمن جِينِينَ المقدم ذكَّرها إلى تَبْنِينَ ، ثم منها  
 إلى [حَطِّينَ<sup>(١)</sup>] وبها قبر شُعَيْبٍ عليه السلام ، ثم منها إلى صَفَدَ .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .



## المقصود الثالث

( في ذِكْرٍ مَرَكْرَ دِمَشْقَ وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْهُ مِنَ الْمَرَكَزِ الْمَوْصَلَةِ  
إِلَى حِمَصَ وَحَمَاةَ وَحَابَ ، وَإِلَى الرَّحْبَةِ ، وَإِلَى طَرَابُلُسَ ، وَإِلَى جَعْبَرَ ، وَمِصْيَافَ  
وَيَبْرُوتَ وَصَيْدَا وَبَعْلَبَكَّ وَالكَرْكِ وَأَذْرَعَاتِ )

أما طريق حلب : فقال في "التعريف" : من دِمَشْقَ إِلَى الْقُصَيْرِ . والذي  
رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ الدَّسَاتِيرِ أَنَّهُ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى خَانَ لَاجِينَ ، ثُمَّ إِلَى الْقُصَيْرِ . قَالَ  
فِي "التعريف" : ثُمَّ مِنَ الْقُصَيْرِ إِلَى الْقَطِيفَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْقَسْطَلِ . وَرَأَيْتُ  
فِي الدُّسْتُورِ الْمَذْكُورِ أَنَّ مِنَ الْقُصَيْرِ إِلَى خَانَ الْوَالِي ، ثُمَّ إِلَى خَانَ الْعُرُوسِ ، ثُمَّ إِلَى  
الْقَسْطَلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَارَا ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَرِيحِ الْعَطَشِ وَيُقَالُ فِيهِ الْبَرِيحُ أَيْضًا .  
قَالَ فِي "التعريف" : وَقَدْ كَانَ مَقْطَعُ طَرِيقِ ، وَمَوْضِعُ خَوْفٍ ، فَبَنَى بِهِ قَاضِي  
الْقَضَاةِ نَجْمُ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ صَصْرَى رَحِمَهُ اللَّهُ مَسْجِدًا وَبِرُكَّةً ، وَأَجْرَى  
الْمَاءَ إِلَى الْبِرُكَّةِ مِنْ مَلِكٍ كَانَ لَهُ هُنَاكَ وَفَقَهُ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ ، فَبَدَّلَ الْخَوْفَ أَمْنًا ،  
وَالْوَحْشَةَ أُنْسًا ، أَثَابَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْغَسُولَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى شِمْسِينَ ،  
ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حِمَصَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الرَّسْتَنِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حَمَاةَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَطْمِينِ ،  
ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَرَابُلُسَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَعْرَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَنْقَرَاتَا ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى إِيَادِ ، ثُمَّ مِنْهَا  
إِلَى قَنْسِيرِينَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حَابَ .

وأما طريق الرَّحْبَةِ : فَمِنَ الْقَطِيفَةِ الْمَقْدَمَةِ الذَّكْرَ إِلَى الْعَطْنَةِ . قَالَ فِي "التعريف" :  
وَلَيْسَ بِهَا مَرَكْرَ ، وَإِنَّمَا بِهَا خَانَ تُفَرَّقُ بِهِ صَدَقَةٌ مِنَ الْخُبْزِ وَالْأَحْذِيَةِ وَنِعَالِ الدَّوَابِّ  
إِلَى جَابِلِجَلْ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَصْنَعِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْقَرِيَّتَيْنِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْحَسِيرِ ، ثُمَّ مِنْهَا  
إِلَى الْبَيْضَاءِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى تَدْمُرَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَرْكِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى السُّخْنَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى

قَبَابَبَ ، ثم منها إلى كَوَائِلَ . قال في "التعريف" : وهو اليوم عَظْل . ثم منها إلى الرَّحْبَةِ وهي حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُسَ : فمن العُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ [ إلى القَصَبِ ، ثم منها إلى قَدَس ] <sup>(١)</sup> إلى أَقْسَارِ ، ثم منها إلى الشَّعْرَاءِ ، ثم منها إلى عِرْقَا ، ثم منها إلى طَرَابُلُسَ .

وأما طريق جَعْبَرٍ وما يليها : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى سَامِيَّةَ ، ثم منها إلى بُغْيَيْدٍ ، ثم منها إلى سُورِيَا ، ثم منها إلى الحِصِّ ، ثم منها إلى جَعْبَرٍ ، إلى عَيْنِ بَدَالِ ، ثم منها إلى صِهْلَانَ ، ثم منها إلى الخَابُورِ ، ثم منها إلى رَأْسِ عَيْنِ .

وأما طريق مِصْيَافَ : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى مِصْيَافَ .

وأما طريقُ صَفَدَ : فمن دِمَشْقَ إلى بَرِيحِ الفُلُوسِ ، ومنه إلى أُرَيْبَةَ ، ومنها إلى لَعْرَانَ ، ومنها إلى صَفَدَ .

وأما طريق بِيْرُوتَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسَلُونَ ، ومنها إلى زُبْدَانَ ، ومنها إلى الحِصِينَ ، ومنها إلى بِيْرُوتَ .

وأما طريق صَيْدَاءَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسَلُونَ المُقَدِّمِ الذِّكْرُ ، إلى جَزِيرَةَ صَيْدَاءَ ، إلى كَرْكِ نُوحَ ، ثم منه إلى بَعْلَبَكَّ . قال في "التعريف" : وأعلم أنَّ من صَيْدَاءَ إلى بِيْرُوتَ قَدْرُ مَرَكْرَ .

وأما بَعْلَبَكَّ ، فلها طريقان : إِحْدَاهُمَا من خَانَ مِيسَلُونَ المُقَدِّمِ الذِّكْرِ إلى كَرْكِ نُوحَ إلى بَعْلَبَكَّ . والثانية من دِمَشْقَ إلى الزُّبْدَانِيَّ إلى بَعْلَبَكَّ .

ومن أَرَادَ من بَعْلَبَكَّ حِمَصَ ، تَوَجَّهَ مِنْهَا إلى القَصَبِ ، ثم إلى العُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ ، وبعدها شَمْسِينَ ، ثم حِمَصَ على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٩٤) .

وأما طريق الكرك : فمن دمشق - في المراكز المذكورة في الوصول من غزّة إلى دمشق - على عكس ما تقدم ، إلى طفس ، ومنها إلى القنية ، ومنها إلى البرج الأبيض ، ومنها إلى حُساب ، ومنها إلى [ ديباج <sup>(١)</sup> ] ومنها إلى [ اكرية <sup>(١)</sup> ] ومنها إلى الكرك .

وأما طريق أذربعت ، مقرّ ولاية الولاية بالصفقة القبليّة : فمن طفس المقدمة الذّكر إلى أذربعت . قال في " التعريف " : فهذه جملة مرّات دمشق إلى كل جهة .

قال : فأما مقدار الولايات ، فمن كلّ واحدة إلى ما يليها ، حتى يتوصّل المسافر على البريد إلى حيث أراد .

### المقصود الرابع

( في مركز حلب وما يتفرّع عنه من المراكز الواصلة إلى البيرة وبهسني وما يليهما ، وقلعة المسامين المعروفة بقاعة الروم ، وآياس مدينة الفتوحات الجاهانية ، وجعفر )

فأما الطريق الموصّلة إلى البيرة : فمن حلب إلى الباب ، ثم منها إلى السّاجور ، ثم منها إلى كلناس <sup>(٢)</sup> ، ثم منها إلى البيرة ، وهي في البرّ الشرقيّ من القرات . قال في " التعريف " : وهي أجلّ ثغورها <sup>(٣)</sup> .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجل قلاع الاسلام ، وعتائل المعائل التي لم تفرّج على طول الأيام » فلعل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقعت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

وأما طريق بهسني وما يليها : فمن حلب إلى السحوقة ، ثم منها إلى مسندرا ،  
[ ثم منها إلى بيت الفار<sup>(٢)</sup> ] ثم منها إلى عينتاب ، ثم منها إلى بهسني .

ثم منها يُدخَل إلى جهة قيسارية والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وهي بلاد  
الدروب . قال في "التعريف" : وقد استَضَفْنَا نَحْنُ ( يعني أهل هذه المملكة )  
في هذا الجير القريب إلينا منها : قيسارية ودرندة ، وإنما المستقر المعروف أنَّ  
آخر حد الممالك الإسلامية من هذه الجهة - بهسني .

وأما طريق قلعة المسامين وما يليها : فمن عينتاب المقدمة الذكر إليها ، وهي وسط  
العرات ، وهو خُلجان دائرة عايبا . ثم من قلعة المسامين إلى جسر الحجر ، ثم إلى  
الكحنا ، وهي آخر الحد من الطرف الآخر .

وأما طريق آياس : فمن حلب إلى أرحاب ، ثم منها إلى تيزين ، ثم منها إلى بغرا ،  
ثم منها إلى بغراس ، قال في "التعريف" : وهي كانت آخر الحد مما يلي بلاد  
الأرمن . قال : وقد استَضَفْنَا نَحْنُ في هذا الحين ما استَضَفْنَا ، فصار من بغراس  
إلى باياتس ، وهي أول جيل الأرمن ، ثم من باياس إلى آياس .

وأما طريق جعبر : فمن حلب إلى الجبول ، ثم منها إلى باليس ، ثم منها إلى جعبر .  
قال في "التعريف" : هذه جملة مراكر حلب . أما بقايا القلاع ومقار الولايات ،  
فمن شعب هذه الطرق ، أو من واحدة إلى أخرى .

(١) في التعريف سندر .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

## المقصد الخامس

(في مركز طرابلس وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة إلى جهاتها)

فأما طريق اللاذقية : فمن طرابلس إلى مرقية ، ثم منها إلى بلنيس ، ثم منها إلى اللاذقية ، ثم منها إلى صهيون ، وهي قلعة جبلية كانت دار ملك . ثم منها إلى بلاطنس . قال في "التعريف" : ومن شاء فن صهيون إلى برزيه ، وهو حصن سمي باسم من عمره أو عرف بملكه ، ومن شاء فن بلاطنس إلى العليقة أول قلاع الدعوة مما يلي بلاطنس ، ثم منها إلى الكهف ، ثم منها إلى القدموس ، ثم منها إلى الخوابي ، ثم منها إلى الرصافة ، ثم منها إلى مضايا . قال في "التعريف" : فهذه جملة مراكز طرابلس . فأما مقارر الولايات فن واحدة إلى أنحرى ، ثم ذكر جميع مراكز البريد بالممالك المحروسة .

قال : فأما من أطراف ممالكنا إلى حضرة الأردو ، حيث هو ملك بني هولوكو ، فلهم مراكز تسمى خيل الأولاق وخيل الياح يحمل عليها ، لا تشتري بمال السلطان ولا يكف ثمنها ، وإنما هي على أهل تلك الأرض ، نحو مراكز العرب في رمل مصر ونحو ذلك .

## المقصد السادس

(في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة المشرفة والمدينة النبوية على ساكنها)

سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام ، إذ كانت من

تمة الطرق الموصلة إلى بعض أقطار المملكة

وكما ضبطت تلك بالمراكز فقد ضبطت هذه بالمراحل . وعادة الحجاج أنهم يقطعون في كل يوم وليلة منها مرحلتين بسير الأثقال ، وديب الأقدام ، ويقطعونها

كلها] في شهر، بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة واليَبَع نحو ستة أيام . أما من يُسافر  
على النَّجْبِ مُخْفًا مع الحَدِّ في السَّيْرِ فإنه يَقْطَعُهَا في نحو أحد عشر .

ثم أول مَصِيرهم من القاهرة إلى البركة المعروفة بِرِكَّةِ الْحَاجِّ ، ثم منها إلى البُوَيْبِ ،  
ثم منها إلى الطَّلِيحَاتِ ، ثم منها إلى المنفرح ، ثم منها إلى مرا كع موسى ، ثم منها إلى  
عجروود ، وبها بئر ومَصْنَعُ ماءٍ مُتَّسِعٌ يَمَلَأُ منها . ثم منها إلى المنصرف ، ثم منها إلى  
وَادِي الْقَبَابِ ، وهو كثير الرَّمْلِ . ثم منها إلى أول تِيهِ بنِي إِسْرَائِيلَ ، وهو وَادٍ أَفِيحٌ  
مُتَّسِعٌ . ثم منها إلى العُنُقِ ، ثم منها إلى نِيحْلِ ، وبها ماء طَيِّبٌ . ثم منها إلى جَسَدِ  
الحَيِّ ، ثم منها إلى بئر بيدر ، ثم منها إلى تمد الحِصَا ، ثم منها إلى ظَهْرِ الْعَقْبَةِ ، ثم منها  
إلى سَطْحِ الْعَقْبَةِ ، وهو عُرْقُوبُ الْبَعْلَةِ على جانب طَرَفِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ ، وفيها ماء طَيِّبٌ  
من حَفَائِرِ . ثم منها إلى حَفْرِ على جانب طَرَفِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ ، وفيها ماء طَيِّبٌ من  
الحَفَائِرِ . ثم منها إلى عَشِّ الْغُرَابِ ، ثم منها إلى آخِرِ الشَّرْفَةِ ، ثم منها إلى مَغَارَةِ شُعَيْبِ ،  
وبها ماءٌ ومَصْنَعٌ . ثم منها إلى وادي عَفَّانِ ، ثم منها إلى ذَاتِ الرَّحِيمِ ، ثم منها إلى  
عِيُونِ الْقَصَبِ ، وبه ماءٌ نَاعٍ وَأَبْحَةٌ قَصَبٍ نَائِتَةٌ فِيهَا . ثم منها إلى المُوَيْلِحَةِ ،  
وبها ماءٌ في آبَارِ . ثم منها إلى المُدْرَجِ ، ثم منها إلى سَلْمَى مُجَاوِرِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ ، وبها ماء  
مَلْحٌ . ثم منها إلى الأتيلات ، ثم منها إلى الأَزْثَمِ ، والنَّاسُ يَقُولُونَ : الأَزْثَمُ بِاللَّامِ بَدَلِ  
النُّونِ ، وبه آبَارٌ بها ماءٌ رَدِيٌّ يُطْلِقُ بَطْنَ مَنْ شَرِبَهُ ، لا يسقى منه غالبًا إلا الجَمَالُ ،  
وهي نِصْفُ الطَّرِيقِ . ثم منها إلى رَأْسِ وَادِي عَنَتَرِ . ثم منها إلى الْوَجْهِ ، وبه آبَارٌ  
قَلِيلَةٌ الْمَاءِ ، وما هو داخل الْوَادِي يَعْرِضُ الْمَاءَ فِيهِ غَالِبًا ولا يُوجَدُ فِيهِ إلا حَفَائِرُ ،  
ويقال : إنه إذا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيْهِ نَضَبَ مَائِهِ ، وفيه يقول بعض من حجَّ من  
الشعراء وَعَزَّ عَلَيْهِ وَجُودُ الْمَاءِ فِيهِ :

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ ، قَلَّ حَيَاؤُهُ ، وَلَا خَيْرَ فِي "وَجْهِ" بغير حَيَاءٍ !

ثم منه إلى المحاطب ، ثم منها إلى أكر ، ثم منها إلى رأس القاع الصغير ، ثم منه إلى قبر القروى ، ثم منه إلى كلخا ، ثم منها إلى آخر القاع الصغير ، ثم منه إلى الحوراء ، وبها ماء غير صالح . ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيق بفتحها ، وهو مضيق صعب . ثم منها إلى مغارة نبط ، وبها ماء عذب ليس بطريق الحجاز أطيب منه . ثم منها إلى وادي النور ، ثم منها إلى قبر أحمد الأعرج الدليل ، ثم منه إلى آخر وادي النور ، ثم منه إلى رأس السبع وعمرات ، ثم منها إلى دار البقر ، ثم منها إلى الينبع ، وهي النصف والرُبُع من الطريق ، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها ، وبها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العود ، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم . ثم منها إلى المحاطب في الوعر . ثم منها إلى رأس وادي بدر ، وهي منزلة حسنة بها عيون تجري وحدائق . ثم منها إلى رأس قاع البروة ، ثم منه إلى وسط قاع البروة ، ثم منه إلى رابع ، وهو مقابل الجحفة التي هي ميقات الإحرام لأهل مضر ، وبها يحرم الحجاج ولا يغشون الجحفة ، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بنقل حمى المدينة إليها بقوله : « وأتقل حمأها إلى الجحفة » فلو مر بها طائر لحم . ثم منها إلى قديد بضم القاف . ثم منه إلى عقبة السويق ، ثم منها إلى خليص ، وبه مصنع ماء . ثم منها إلى عسفان ، ثم منها إلى مدرج علي ، وهو كثير الوعر . ثم منه إلى بطن مر ، والعامية يقولون : مروا بزيادة واو ، وبه عيون تجري وحدائق . ثم منه إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمتها ، ثم من مكة إلى منى ، وبها ماء طيب من آبار تحفر ، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة ، ثم منها إلى عرفة وهي الموقف ، وإليها ينتهي سفر الحجاج .

ثم العود في المنازل المتقدمة الذكر إلى وادي بدر على عكس ما تقدم .

## الطريق إلى المدينة النبوية

(على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)

من مِصْرَ في المَرَاجِلِ المَتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ ، إلى وَادِي بَدْرِ المَتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ ، إلى رَأْسِ  
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، وبِهِ عَيُونٌ تَجْرِي وَحَدَائِقُ وَأَشْجَارٌ . ثمَّ مِنْهَا إلى وَادِي بَنِي سَالِمٍ ،  
ثمَّ مِنْهُ إلى وَادِي الغَزَالَةِ ، ثمَّ مِنْهُ إلى الفَرَشِ ، ثمَّ مِنْهُ إلى بَيْتِ عَلِيٍّ ، وبِهَا مَاءٌ طَيِّبٌ .  
ثمَّ مِنْهَا إلى المَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ  
وَالْأَكْرَامِ .

وَمَنْ شَاءَ ذَهَبَ إِلَيْهَا مِنَ الْيَنْبُعِ إِلَى رَأْسِ تَقِيبِ عَلِيٍّ عِنْدَ طَرْفِ الْجَبَلِ ، ثمَّ إِلَى  
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، ثمَّ فِي المَرَاجِلِ المَتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إِلَى المَدِينَةِ . وَهِيَ أَقْرَبُ الطَّرِيقَيْنِ  
لِلذَّاهِبِ مِنْ مِصْرَ ، وَتِلْكَ أَقْرَبُ لِلْعَائِدِ مِنْ مَكَّةَ .



## الباب الثاني

من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بطرق  
الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

## الفصل الأول

## في مطاراته

قد تقدم في الكلام على أوصاف الحمام - عند ذكر ما يحتاج إلى وصفه في أواخر  
مقاصد المكاتب من المقالة الرابعة - أن الحمام اسم جنس يقع على هذا الحمام  
المتعارف بين الناس، وعلى الحمام والدبسي والقماري والقواخيت وغيرها، وأن المتبادر  
إلى فهم السامع عند ذكر الحمام هو هذا النوع المخصوص، وأن أغلاه قيمة وأعلاه  
رتبة الحمام الرسائي، وهو الذي يتخذهُ الملوك لحمل المكاتب، ويعبر عنه بـ«الهدى» .  
وتقدم هناك الكلام على ذكر ألوانها على اختلافها، وعدد الرياش المعتبرة فيها، وهي  
رياش أجنحتها وأذناها، وبيان الفرق بين الذكر والأنثى، وصفة الطائر الفاره،  
والفراسة في تجارته في حال صغره، والزمان والمكان اللاتنين بالإفراخ، وما يجري  
مجرى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفه لبيان النجيب منه من غيره، فأغنى  
عن ذكره هنا .

والمختص منه بهذا المكان ذكر الاعتناء بهذا الحمام، وأول من أهتم بشأنه،  
وأغتنى بأمره، ومن قام به من الملوك، ومسافات طيرانه، وما يجري هذا  
الجمري .

فأما الاعتناء به والأهتيماء بشأنه - فقد اعتنى به في القديم خلفاء بني العباس :  
 كالمهدي ثالث خلفائهم ، والنَّاصِر منهم . وتنافس فيه رؤساء الناس في العراق لاسيما  
 بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المِعْطَار" أنهم تنافسوا في آفنتائه ، ولهجوا  
 بذكره ، وبالغوا في أتمائه ، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار . ثم قال :  
 ويقال : إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خديج القسطنطينية ألف دينار . قال :  
 وكانت تُباع بيضتها الطائر المشهور بالفراهة بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دفاًتر  
 بأنساب الحمام كأنساب العرب ، وأنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه  
 ولا العدل من اتخاذ الحمام ، والمنافسة فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لأثرها ،  
 والتعجب لمشهورها ، حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن شيبه البكراني قاضي مصر ،  
 (وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض) بمهمات لهم مع  
 ثقات ، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ، ففعل . وكان الحمام عندهم  
 متجراً من المتاجر ، لا يرون بذلك بأساً .

وذكر المقر الشهابي بن فضال الله في "التعريف" أن الحمام أول ما نشأ بالديار  
 المصرية والبلاد الشامية من الموصل ، وأن أول من اعتنى به من الملوك [وقته] <sup>(١)</sup>  
 من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله ، في سنة خميس  
 وستين وخمسمائة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالغوا حتى أفردوا له  
 ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . وصنف فيه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر كتاباً  
 سماه : "تسميات الحمام" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك - أبو الحسن بن ملاعب الفوارس  
 البغدادي ، فصنف فيه كتاباً للنَّاصِر لدين الله الخليفة العباسي ببغداد ، وذكر فيه

(١) بياض بالأصول ، والتصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أسماء أعضاء الطائر ورأشه ، والوشوم التي تُوسم في كلِّ عضوٍ ، وألوان الطيور وما يُستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعد المسافات التي أرسلت فيها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجرى هذا الجرى . وأظنُّ أنَّ كتاب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر نتيجة عن مُقدمته .

وأما مسافات طيرانه ، فقد تقدم أنَّ الطائر الذي بيع بألف دينارٍ طار من القسطنطينية إلى البصرة ، وأن الحمام أرسل من مصر إلى البصرة بحضور القاضي بكار قاضي مصر .

وذكر ابن سعيد في كتابه "حيا المحل وجنى النحل" أنَّ العزيزاني خلفاء الفاطميين بمصر ، ذكر لوزيره يعقوب بن كلث أنه ما رأى القراصية البعلبكية ، وأنه يحبُّ أن يراها . وكان بدمشق حمامٌ من مصر وبمصر حمامٌ من دمشق ، فكتب الوزير لوقته بطاقةً يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري ، ويعلق في كلِّ طائرٍ حباتٍ من القراصية البعلبكية ، ويُرسلها إلى مصر ، ففعل ذلك ، فلم يمضِ النهار حتى حضرت تلك الحمام بما علق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير يعقوب بن كلث وطلع به إلى العزيز في يومه ، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه .

وذكر أيضاً في كتابه "المغرب في حل المغرب" أنَّ الوزير البازوري المغمري ، وزير المستنصر بالله الفاطمي وجه الحمام من تونس من أفريقيا من بلاد المغرب فناء إلى مصر ، والعهد عليه في ذلك .

## الفصل الثاني

من الباب الثاني من الخاتمة في أبراج الحمّام المقررة لإطارتها  
بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهي من القواعد والطرق، على ما تقدم في البريد .

أما في المسافات فإنها تختلف، فإن مطارات الحمّام ربما زادت على مرّات  
البريد .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل المحروسة  
إلى جهات الديار المصرية

قال في "التعريف" : وأعلم أن الحمّام قد أقطع تدريجه من مصر إلى قوص  
وأسوان وعيذاب . وهذا ظاهر في أن الحمّام كان يُدرج إلى هذه الأماكن ،  
ثم أهمل تدريجه بعد ذلك . قال : ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى  
الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى دمنياط ، ومن القاهرة إلى السويس من طريق  
الحاج ، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلاً بالشام .

قلت : وأهل هذه الأبراج كلها بُرج قلعة الجبل المحروسة، ومنها التدرج إلى  
سائر الجهات .

ثم لم يذكر في "التعريف" : الأبراج الموصلة إلى أسوان وعيذاب والإسكندرية  
ودمنياط .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزّة

من بُرج قلعة الجبل — إلى بلبيس ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى قطيا ،  
ثم منها إلى الوردّة ، ثم منها إلى غزّة .

## الأبراج الآخذة من غزّة وما يتفرّع عنها

إعلم أن الأبراج من غزّة تتشعبُ فيها مسارحُ الحمام إلى غيرِ جهةِ دمشق وإلى جهتها .

فأما غيرِ جهةِ دمشق ، فمن غزّة إلى بلد الخليل عليه السلام ، ومن غزّة إلى القدس الشريف ، ومن غزّة إلى نابلس .

وأما جهة الشام : فمن غزّة إلى لُد ، ومن لُد إلى قاقون ، ومن قاقون إلى جينين . ومن جينين تتشعبُ المسارحُ إلى غيرِ جهةِ دمشق وإلى جهتها .

فأما ما إلى غيرِ جهةِ دمشق : فمن جينين إلى صفد . وأما ما إلى جهةِ دمشق : فمن جينين إلى بيسان ، ومن بيسان إلى أربد ، ومن أربد إلى طفس ، ومن طفس إلى الصنمين ، ومن الصنمين إلى دمشق .

قال في "التعريف" : ومن كلِّ واحدٍ من هذه المراكز إلى ما جاور ذلك من المشاهير : مثل من بيسان إلى أذربايت مقرّ ولاية الولاية بالصفقة القبلية ، ومن طفس إليها - لإشعار وإلى الولاية .

## الأبراج الآخذة من دمشق وما يتفرّع عنها

تتشعبُ مسارحُ الحمام من دمشق إلى غيرِ جهةِ حلب ، وإلى جهتها .

فأما إلى غيرِ جهةِ حلب : فنُسرح من دمشق إلى بعلبك ، ومن دمشق إلى القريتين .

وأما ما هو إلى جهةِ حلب : فنُسرح من دمشق إلى قارا ، ثم من قارا إلى حمص ،

ثم من حمص إلى حماة ، ثم من حماة إلى المعرة ، ثم من المعرة إلى حلب .

(١) سماها في معجم البلدان : قارة بالهاء .

## الأبراج الاخذة من حلب وما يتفرع عنها

بُرجُ الحَمَام من حَلَب إلى البيرة ، ومن حَلَب إلى قلعة المسلمين ، ومن حَلَب إلى بهسنى . قال في "التعريف" : وإلى بقية [ ماله شأن <sup>(١)</sup> ] مما حوّلها [ ثم من القرّيين إلى تدمر ، ومنها إلى السخنة ، ومنها إلى قباقب ، ومنها إلى الرجة . وقد تعطل الآن تدريجُ السخنة إلى قباقب ، وإنما صار يسوق ببطابق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقب ، ثم يسرح على الجناح من قباقب إلى الرجة <sup>(١)</sup> ] . قال : وبما ذكرتم ذكر مرآة الحَمَام في سائر الممالك الإسلامية .

قلت : وقد تعطل تدريجُ الحَمَام الآن .

(٢) الزيادة من التعريف ليتم الكلام .

## الباب الثالث

من الخاتمة في ذكر هُجْنِ التَّلْجِ والمَرَاكِيبِ المَعْدَّةِ لِحَمْلِ التَّلْجِ الذي يحمل  
من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية،  
وفيه ثلاثة فصول

## الفصل الأول

## في نقل التَّلْجِ

إعلم أن ماء نيلٍ مضر لما كان من الحلاوة واللطافة على ما لا يُساويه فيه نهر من  
الأنهار، على ما تقدم ذكره في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية، مع شدة  
القيظ بها في زمن الصيف، ومخونة الهواء الذي قد لا يتأني معه تبريد الماء، وكان  
التَّلْجُ غير موجودٍ بها، وكانت الملوك قد اعتادت الرفاهية مع اقتدارها على تحصيل  
الأشياء العزيرة، وولوعهم بجلبها من الأماكن البعيدة - إنكحلاً لحال الرفاهية،  
وإظهاراً لأبهة الملك - دعاهم كمال الرفاهية والأبهة إلى جلب التَّلْجِ من الشام إلى  
مصر: لتبريد الماء به في زمن الحر. على أن ذلك كان في غيرهم من الملوك التي  
لا تلج بحاضرتهم.

وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" أن أول من حمل إليه التَّلْجُ  
المتحاج بن يوسف بالعراق. ثم لاعتناء ملوك مصر بالتَّلْجِ قرروا له هُجْنًا تحمله في البر  
وسفنًا تحمله في البحر، حتى يصل إلى القلعة المحروسة.

## الفصل الثاني

من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدّة لنقل الثلج من الشام  
 قد ذكر في "التعريف" أنها كانت في أيام الملك الظاهر «بيبرس» تغمده الله  
 برحمته ثلاث مراكب في السنة، لا تزيد على ذلك . قال : ودامت على أيام سلطاننا  
 (يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون» ) في السلطنة الثالثة ، وبقيت صدراً منها ،  
 ثم أخذت في الترييد إلى أن بلغت أحد عشر مركباً في مملكتي الشام وطرابلس ،  
 وربما زادت على ذلك . قال : وآخر عهدى بها من السبعة إلى الثمانية تطلب  
 من الشام ولا تكلف طرابلس إلا المساعدة ، وكل ذلك بحسب اختلاف الأوقات  
 ودواعي الضرورات .

قال : والمراكب تأتي دمياط في البحر ، ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل  
 بولاق ، فينقل منه على البغال السلطانية ، ويحمل إلى الشرايخانة الشريفة ، على  
 ما تقدم ذكره .

وقد جرت العادة أن المراكب إذا سفرت سفر معها من يتدرّكها من ثلاثين  
 لمداراتها . ثم الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البر .

## الفصل الثالث

من الباب الثالث من الخاتمة في الهجن المعدّة لنقل ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حدث في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون»  
 وأستمر . وقد كان قبل ذلك لا يُحمل إلا في البحر خاصة . ثم ذكر أن هذه المراكب  
 من دمشق إلى الصنمين ، ثم منها إلى بانياس ، ثم منها إلى أربد ، ثم منها إلى بيسان ،



ثم منها إلى جينين ، ثم منها إلى قاقون ، ثم منها إلى لُد ، ثم منها إلى غزّة ، ثم منها إلى العريش ، ثم منها إلى الورداء ، ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى قطيا ، ثم منها إلى القصير ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى بلبيس ، ثم منها إلى القلعة .

قال : والمستقر في كل مركز ست هجن : خمسة للأحمال ، وهجين للهجان ، تكون كل نقلة خمسة أحمال . وهذه الهجن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية ، خلا جينين فإنها على صفد . ومن الورداء إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية ، والكلفة على مال مضر . ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز إلا أوان حمل الثلج ، وهي : حزيان وتشرين الثاني . وعدة ثقلاته إحدى وسبعون نقلة ، متقارب مدد ما بينها ، ثم صار يزيد على ذلك . ويجهز مع كل نقلة بریدی يتداركه ، ويجهز معه ثلاث خير بجملة ومداراته ، يُحمل على فرس برید ثان . قال : واستقر في وقت أن يُحمل الثلج على خيل الولاية .

وأعلم أن الثلج إذا وصل على المرآب والهجن حتى انتهى إلى القلعة ، نُحرن بالشرابخاناة السلطانية . قال في "التعريف" : ومد قزر أن يُحمل من الثلج على الظهر ما يُحمل ، استقر منه خاص المشروب ، لأنه يصل أنظف وأمن عاقبة ، على أن المتسفرين يأخذون الجاشني منه بحضور أمير مجلس وشاد الشرابخاناة السلطانية وحرانها . أما المنقول في البحر فلبا عدا ذلك . قال : وللمجهزين به من الخلع ورسوم الإنعام رسوم مستقره ، وعوائد مستمره .

قلت : وقد جرت العادة أن وأصل الثلج في كل نقلة في البر والبحر تُكتب به رجعة من ديوان الإنشاء ، وهذا هو وجه تعلقه بديوان الإنشاء .

## الباب الرابع

من الخاتمة في المناور والمحرقات ، وفيه فصلان

## الفصل الأول

## في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع رُفِعَ النَّارُ فِي اللَّيْلِ وَالدُّخَانِ فِي النَّهَارِ .

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاكو من التتار، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة، كان من جملة احتياطات أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال تُوقَد فيها النار ليلاً و[يُنَارُ] الدخان نهاراً، للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها معروفة تعرف بها أكثر السفارة ، وهي من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرجبة ، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل ، حتى إن المتجدد بالفترات إن كان بكرة علم به عشاء ، وإن كان عشاء علم به بكرة . ولما يُرفع من هذه التيران ، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها ، تارة في العدد ، وتارة في غير ذلك . وقد أُرصد في كل منور الدياب والناظرة ، لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامع مقررّة كانت لا تزال دائرة . قال : وكان يُنور بمدينة عانة من تلك المملكة قوم من النّصاح بحجة أمر سوي التنوير ، ويستر عليهم أهل البلد حبا للموكتا ، فترى [ناره أو دخانه بخربة الروم وبالخرف أيضا ، ويرفع فيهما أو في إحداهما فيرى] (١)

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠) .

من كل منهما بوادي الهيكل، ويرفع فيه فيرى [بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى بالرحبة  
وقاها الله، ويرفع بها فيرى في كواثل، ويرفع فيها فيرى في منظره قباقب، ويرفع  
فيها فيرى في حفير أسد الدين، ويرفع بها فيرى<sup>(١)</sup> بالسحنة، ويرفع فيها فيرى بمنظره  
أرك، ويرفع فيها فيرى بالبويب وهو قنطرة [بين أرك] وتدمر، ويرفع فيها فيرى  
بمنظره تدمر، ويرفع فيها فيرى بمنظره البيضاء، ويرفع فيها فيرى بالحير، ويرفع فيها  
فيرى بجديجل، ويرفع فيها فيرى بالقرتين، ويرفع فيها فيرى بالعطنة، ويرفع فيها فيرى  
بندية العقاب، ويرفع فيها فيرى بمثدنة العروس، ويرفع فيها لما حولها، إنذاراً للرايا  
وصماً للأطراف، ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمانع، ويرفع به  
فيرى بتل قرية الكتبية، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أربد ويجبل  
مجلون، ثم يرفع بهما فيرى بجبل طيبة آسم، ثم يرفع بها فيرى بالمنور المعمول بازاء  
البر الذي برأس الجبل المنحدر إلى بيسان المعروف بعقبة البريد، لا عدول بطريق<sup>(٢)</sup>  
البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس [نحو جبال أزيق وما حولها،  
ويرفع من هذا المنور الذي برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقرية جينين،  
ثم يرفع منه فيرى بجبل خمسة، ثم يرفع منه فيرى بشرفة قاقون، ثم يرفع منه فيرى  
بأطراف أعمال نابلس<sup>(١)</sup>] ويرى على قصد الطريق بذروة الجبل المصايب لمجدل بابا،  
فيرفع منه فيرى بمرکز ياسور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال  
المطلّة على غزّة، ويرفع بغزّة على أعلى الحدب المعروف بحدب غزّة، ثم [لأمنور<sup>(١)</sup> ولا  
إخبار بسان التتار إلا على الجناح والبريد .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ - ٢٠١) .

(٢) الذي في التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فتنه .

قال : ثم أعلم أن جميع ما ذكرناه مناوِرٌ تُشعَّبُ إلى ما نخرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنبٍ جنوباً وشمالاً ، شرقاً وغرباً . أما منذُ أصلح الله بين الفِئتين ، وأمنَ جانبَ الجهتين ؛ فقد قلَّ بذلك الاحتفال ، وصُرفَ عن البال . وهذه المناوِرُ رسومٌ قد عَفَّتْ ، وجُسُومٌ [أكلتْ شعلُ النارِ أرواحها] <sup>(١)</sup> فأنطَفَتْ .

على أنه قد نصَّ في "التعريف" على مناوِرِ طريقِ البيرة ، ومناوِرِ طريقِ الرحبة ، وهما من نفسِ المملكة .

قلتُ : وهذه المناوِرُ مأخوذةٌ عن ملوكِ الهند . فقد رأيتُ في بعضِ الكتبِ أنَّ بلادهم مناوِرٌ على جبالٍ مرتفعةٍ ، تُرى النارُ فيها على بُعدٍ أكثر من هذه .

على أن مرتبها بهذه المملكة أولاً أتى بحكمةٍ ملوكيةٍ لا تُساوَى مقداراً ، إذ قد ترقى في سرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى . وذلك أن البريدَ يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمَامُ يأتي من الخبر بما هو أسرع في البريد ، والمناوِرُ تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمَام . وناهيك أن يظهر عنوانُ الخبر في القرأتِ بمصر في مسافة يومٍ وليلةٍ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠١) .

## الفصل الثاني

## من الباب الرابع من الخاتمة في المحرقات

قال في "التعريف": وهي مواضع مما يلي بلادنا من حد الشرق داخله في تلك المملكة (يعني مملكة بني هولانكو من التار) يُجهز إليها رجالٌ فحرق زرعها، كأرض البقعة والثرنار والقينة، وباشرة، والهتاخ، ومشهد ابن عمر، والمويلح، وبلاد نينوى من بر الموصل التي يقال، إن يونس عليه السلام بعث إلى أهلها، والوادي، والميدان، والباب، والصومعة، والمرج المعروف ببني زيد، والمرج المحرق، ومنازل الأويرانية، وهي أطراف هذه المواضع إلى جبل الأكراد. وبلاد سنجار - المنطق والمنظرة والمريدة، وتحت الجبال عند التليلات، وكذلك التارات، وأعلى جبل سنجار وما إلى ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التتر أنهم لا يكفون علوفة خيلهم بل يكونونها إلى ما تبيت الأرض، فإذا كانت تلك الأرض مخصبة سلكوها، وإذا كانت مخصبة تجنّبوها، وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة الذكر أرضاً مخصبة، تقوم بكفاية خيل القوم إذا قصدوا بلادنا، فإذا أحرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك جميع الرقيق، والدفع عن مباحة الأطراف ومهاجمة الثغور.

وكان طريقهم في إحراقها أن يُجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد، فيكنون عند أمناة النضاح في كهوف الجبال وبطون الأودية، ويرقبون يوماً تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزع، تعلق النار موقنة في أذنان تلك الثعالب والكلاب، ثم تطلق الثعالب، والكلاب في أثرها وقد جوعت، لتجد

الثعلب في العدو، والكلاب في الطلب، فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره، مع ما يلقيه الرجال بأيديهم في الليالي المظلمة، وعشاء الأيام المعتمة. وكان ينفق في نظير هذا الإحراق من خزانه دمشق حمل من الأموال. قال: وكان الأهتمام بذلك في أول الأمر قبل أن يفتنوا بقصد التحريق، ثم نبههم على ذلك أهل المداجاة، فصاروا يربطون عليها الطرقي، ويمسكون منها بالأطراف؛ وقيل عديد من الرجال بسببها، وأحرقوهم بأشد من نارها.

وذكر أن مما كان يُحْتَنَبُ تحريقه - أرض الجبال، من حيث إنها بلاد بقيّة السلف الصالح من ذرية شيخ الإسلام الإمام الكبير العارف بالله «عبد القادر الجيلي» المعروف بالكيلاني، نفع الله تعالى بركانه، لتعظيمهم من الجهتين، مع ما لهم عند ملوكنا من المكانة العلية: لتقديم سلفهم، وصميم شرفهم، ولبا للإسلام وأهله من إسعافهم بما تصل إليه القدرة ويتلغنه الإمكان.

قلت: وبتمام القول في هذا الطرف قد تم ما كنت أحاوله من التأليف، وأهم به من الجمع؛ وبالله التوفيق، وإليه الرغبة؛ وهو حسبي ونعم الوكيل.

وأعلم أن المصنفات تتفاوت في الحظوظ إقبالا وإذبارا: فمن مرغوب فيه، ومرغوب عنه، ومتوسط بين ذلك. على أنه قل أن ينفق تأليف في حياة مؤلفه، أو يروج تصنيف على القرب من زمان مصنفه.

قال المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف» وقد تشرّك الخواطر، وتنفق الضمائر؛ وربما كان الآخر أحسن تأليفا، وأتم تصنيفا؛ لحكمة التجارب، وخشية التبع، والاحتراس من موانع المضار. ومن هاهنا صارت العلوم نامية، غير متناهية، لوجود الآخر ما لا يجده الأول، وذلك إلى غير غاية محصورة، ولا نهاية محدودة.

على أن من شيم كثير من الناس إطرأ المتقدمين ، وتعظيم كتب السالين ؛  
ومدح الماضي ، وذم الباقي ؛ وإن كان في كتب المحدين ما هو أعظم فأنده ،  
وأكثر عآده .

ثم حكى عن الجاحظ - على جلاله قدره - أنه قال : كنت أؤلف الكتاب الكثير  
المعاني ، الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسي ، فلا أرى الأسماع تُصغى إليه ،  
ولا الإرادات تُبعم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة ، وأقل فائدة ، وأحلله  
عبد الله بن المقفع ، أو سهل بن هرون ، أو غيره من المتقدمين ، ممن صارت  
أسمائهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لشيء  
إلا لئسبها للمتقدمين ، ولما يدخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ،  
ومنافسته على المناقب التي عني بتشيدها .

قال : وهذه طائفة لا يعابها كبار الناس ، وإنما العمل على أهل النظر والتأمل  
الذين أعطوا كل شيء حقه من القول ، ووفوه قسطه من الحق ؛ فلم يرفعوا المتقدم  
إذا كان ناقصاً ، ولم ينقصوا المتأخر إذا كان زائداً ؛ فليشمل هؤلاء تصنف العلوم ،  
وتدون الكتب .

وإذا كان هذا نقل المسعودي عن الجاحظ الذي هو رأس المصنفين ، وعين  
أعيانهم ، فما ظنك بغيره ؟ .

لكني أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليني ، ونفاق سلعته ، والمسارة إلى  
استكابه قبل انقضاء تأليفه ، حتى إن قلبي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان  
الطرس إلى آكتابه ، ومررتب نجاهه للاستسأخ يساهمهما في ارتقابه . فضلاً من  
الله ونعمه ، ( ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ) .

قال المؤلف : تَجَزَّتْ تَأْلِيفَهُ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارِكِ ، يَوْمِ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ ، سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ .

وُجِّزَتْ هَذِهِ النُّسْخَةُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارِكِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ الْخَرِّ ، سَنَةِ تِسْعِ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

فَرَّغَ مِنْهُ كِتَابَةً وَسِتَّةً قَبْلَهُ ، فَفَقِيرٌ رَحِمَهُ رَبُّهُ الْعَنِيِّ الْفَاتِحِ ، عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ابْنِ مُحَمَّدِ النَّاسِخِ الشَّافِعِيِّ ، تَزِيلُ الصَّالِحِيَّةِ النَّجْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّادَةِ الْحَنَابِلِيَّةِ ، بِحِطِّ بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ : غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَتَرَ عَيْبَهُ ، وَخَتَمَ لَهُ وَالسَّلَامِينَ بِخَيْرٍ ، آمِينَ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ  
 وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ : سُبْحَانَ رَبِّكَ  
 رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ  
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ